الحب في زمن الكوليرا

جابرييل غارثيا ماركيز

- Author : Gabriel Garcia Márquez
- Title: El amor en los tiempos del cólera ...
- Translated by: Ahmad Magdi Mangoud
- Afaq·s first edition: 2016
- Cover Design by: Amr El Kafrawy

- المؤلف: جابرييل غارثيا ماركيز
- العنوان : الحب في زمن الكوليرا
- ترجمة : أحمد مجدي منجود
- طبعة آفاق الأولى 2016
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

رقم الإيداع:

٢٢٩٦ / ٢٠١٦

الترقيم الدولي : ISBN

978 - 977-765 - 042 - 7

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

جابرييل غارثيا ماركيز

الحب في زمن الكوليرا

رواية

ترجمة

أحمد مجدي منجود

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

غارثيا ماركيز، جابرييل.

جابرييل غارثيا ماركيز : الحب في زمن الكوليرا

جابرييل غارثيا – ط1 القاهرة – دار آفاق للنشر والتوزيع – 2016

496 ص، 20 سم.

رقم الإيداع 2296 / 2016

الترقيم الدولي 7 – 042 – 765 – 977 – 978

1 – الأدباء

2 – غارثيا ماركيز، جابرييل

إلى مرسيدس، زوجتي، أهديها هذا الكتاب...

تلك هي الأماكن الخالدة على مر السنين والأعوام:

فهي في النهاية صارت زينة لكل من يرى...

لياندرو ديّاث

(١)

كان أمرا لا مفر منه: شذى ثمار اللوز الفواحة مرارةً وعطرًا، التي دوما ما تثير في عقله كوامن ذكريات الحب والعشق حين تتضارب أهدافها، ويغلبها التناقض المرير، ففجأة، أحس الدكتور خوبينال أوربينو بتلك المشاعر والأحاسيس بمجرد أن اشتم عبير تلك الثمار، وهو يدخل إلى البيت الغارق في العتمة والظلام، وها هو ذا يصل إليه في عجلة وسرعة، كي يشرف على ذلك النوع من القضايا، الذي لم يعد طارئا بالنسبة له، أو في حاجة ماسة إلى السرعة واللهوجة ، وإذا به يجد خيريميا ديه سانت-أمور، لاجئ حرب أقعدته السنون والحروب، جاء من جزر الأنتيل، وكان يعمل مصورا فوتوغرافيا خاصا للأطفال، وكان كذلك خصمه الأكثر شفقة ورحمة في الشطرنج، إذا به يجده ممددا تحفُّه رائحة سيانيد الذهب، الأمر الذي انتشله انتشالا من دوامة الذكريات، التي اكتسحته للتو.

وكانت الجثة، التي أُلقى عليها غطاء ليسترها، مسجاة على سرير يسع شخصا واحدا، حيث كان صاحب الجثة ينام دائما، على مقربة من كرسي بلا ظهر، بجانبه طَشت استعمل لتبخير السم، وفي إحدى أرجل السرير رُبط كلب دانمركي ميت، ضخم الجسد، أسود اللون، تجمد صدره، وبجانبه حقائب صغيرة، والغرفة بما تحفل به من جو خانق يشيع الاشمئزاز في النفوس، حيث كانت تستخدم كمعمل وكغرفة نوم في ذات الوقت، بدأت تتسلل إليها على استحياء من النافذة المفتوحة، أشعة الصباح الزاهية الكافية تماما لرؤية ما يفرضه الموت من هيبة وحرمة مخيفة، أما بقية النوافذ، فلم

تكن إلا كغيرها من تلك الفتحات، التي تمتلئ بها الغرفة، وتم سدها جميعا بخرق من القماش، أو بقطع كبيرة من الكرتون الأسود اللون، الأمر الذي زاد أكثر وأكثر من تلك الكثافة الخانقة المتراكبة، التي أطبقت عليها من كل جهة، وكانت هناك طاولة رُصّت عليها زجاجات وقوارير ليس عليها أي ملصقات تبين محتواها، وطَشتان من القصدير تقشّر سطحاهما وتجرّحا موضوعين أسفل فانوس عادي الشكل غُلِّف بورق أحمر اللون، أما الطَشت الثالث، الذي يحوي المحلول المثبّت المستعمل في التصوير، فكان موجودا بجانب الجثة، وكذلك فإنه في كل موضع من هذه الغرفة تجد جرائد ومجلات عفا عليها الزمن، وشرائط نيجاتيف وُضعت في ألواح زجاجية، وقطع أثاث مكسورة، ولكن كل هذا وذاك غطته طبقة كثيفة من التراب، كأن في الأمر يدا سحرية قامت بهذا، ورغم أن الحجرة قد تجدد هواؤها بسبب تلك النافذة المفتوحة، إلا أنه يمكن تمييز الرائحة الكئيبة المختبئة للحب والهوى، التي تفوح بها ثمار اللوز المُرّة. ولأكثر من مرة، ودون أي حماس، جال بفكر الدكتور خوبينال أوربينو أن هذه الحجرة لا يمكن أبدا أن تكون مسرحا لميتة طبيعية، ولكن بمرور الوقت انتهى افتراضه بأن هذا الاضطراب الرهيب، الذي يعم المكان، ربما يكون من تدبير العناية الإلهية بشكل خالص دون تدخل من أحد.

حينئذ دخل الغرفة مأمور شرطة وبصحبته طالب طب صغير السن يعمل كطبيب شرعي تحت التدريب في العيادة الخاصة بالبلدية، وهما من قاما بتهوية الغرفة وبتغطية الجثة أثناء مجيء الدكتور أوربينو، وكلاهما صافحاه بوقار مشوب هذه المرة بعطف وعزاء، فلا أحد هناك يجهل ما كان بينه وبين خيريميا ديه سانت-أمور من حب ومودة وصداقة، وصافحهما الطبيب كأنه يصافح أحد تلاميذه قبل أن يبدأ في إلقاء إحدى حصصه اليومية في الطب العام، ثم بأنامل إصبعيه، السبابة والإبهام، قبض على حافة الغطاء وكأنه يقطف وردة أو زهرة يانعة، وراح يستكشف الجثة شبرًا شبرًا في حرص وحذر وقدسية.

أما الميت، فكان عاريا تماما كيوم ولدته أمه، وأصاب جسده التيبس

والالتواء وازرقّ لونه تماما، وعيناه مفتوحتان على آخرهما، وبدا كأن عمره زاد خمسين عاما مرة واحدة عن الليلة الفائتة. ومن ينظر إلى عينيه يجد كل حدقة فيهما شفافة بلا لون، كما أن شعر كلٍّ من لحيته ورأسه يميل إلى اللون الأصفر، وبطنه اخترقتها ندبة من آثار غرز لجرح قديم. وكان صدره عريضا وذراعاه قويين لأنه كان يعمل حمّالا للحقائب، ولكن ساقيه خاليتان تماما من الشعر كأنهما ساقا طفل رضيع وضعته أمه على باب الملجأ، ولوهلةٍ تأمله الطبيب أوربينو في حسرة وحزن، رغم أنه قليلا ما يتأثر لمشهد الموت، على مدار كل هذه السنين الطوال في صراعه العقيم ضد هذا الذي يسمّى «موتا».

ثم قال له:

– ها قد حصل الأسوأ أيها الجبان الأبله.

ثم رمى عليه الغطاء مرة أخرى، واستعاد هيبته الأكاديمية. في السنة الماضية احتفل رسميا بعامه الثمانين، ودام الاحتفال ثلاثة أيام، وأثناء إلقائه كلمة يعرب بها عن شكره إذا به يكافح شعورا بالانسحاب والهرب مما به، وكان مما قاله: «سوف يفيض الوقت ويزيد كي أتمتع بالراحة والهدوء حين الموت، ولكن هذا أمر لا يزال قيد التفكير ولم أتخذ قرارا بشأنه بعد»، وهو يقول هذا رغم ما يعانيه من ضعف في سمعه بأذنه اليمنى، والذي يزداد في كل مرة، ورغم أنه يمسك بعكاز ذي مقبض مصنوع من الفضة كي يخفي ما في خطواته من عدم اتزان وانتظام، رغم كل هذا إلا أنه لا يزال يلبس ما كان يلبسه في شبابه من رداء مصنوع من الكتان الصافي وفوقه سترة تخترقها سلسلة الساعة الذهبية.

ولحيته المميزة بلونها الأشيب، التي تشبه لحية «باستر»، عالم الفيزياء المعروف، وشعر رأسه، الذي يحمل نفس اللون، والذي يشقّه من النصف تماما خط مستقيم يقسّم شعره المُسبسَب الممشّط بعناية فائقة إلى نصفين متوازيين. كل هذا لم يكن إلا من العلامات المميزة، التي تخصّه وحده،

وأما ما كان يصيب ذاكرته من تآكل وضمور، فعلاجه الناجع عنده هو تدوين ملاحظاته بسرعة وعُجالة في قصاصات من الورق كي لا ينساها، ولكنها من كثرتها تموج بها جيوبه وتختلط، ولا يميز هذه من هذه، وأيضا نفس المشكلة بالنسبة لكل من الأدوات والزجاجات الطبية المحشورة حشرا في حقيبته الصغيرة تلك، وهو ليس فقط الطبيب الأقدم والأشهر في المدينة، وإنما هو يعد الرجل الأكثر تصنعا وتكلفا في أناقته وهندامه، ومع ذلك، فما يبدو عليه من حكمة ظاهرة جليّة لكل من يراه، وطريقته الذكية للغاية في استغلال اسمه، لم ينفعاه إلا بمنافع أقل مما كان يستحقه.

وكانت أوامره، التي ألقاها على كل من مأمور الشرطة، وطالب الطب من الدقة والسرعة بحيث أذهلتهما، فقد أمرهما بعدم تشريح الجثّة، وذلك لأن هذه الرائحة، التي احتلت البيت لهى خير دليل على أن سبب الموت فوحان مركّب السيانيد الموجود في الطَشت، حيث إنه قد تفاعل ونشط بعدما سقطت عليه إحدى المواد الحامضة الخاصة بعملية إخراج الصور الفوتوغرافية، ولا بد، وهذا مؤكد، أن خيريميا يعلم بما فيه الكفاية أن هذا قد يكون سببا في الموت، لذا لا يمكن أبدا أن يكون ما مر مجرد حادث حصل بالصدفة، وأمام هذا التحفظ البادي من المأمور إذا بالدكتور خوبينال يوجّه كلمة قاضية إليه ليسكته إلى الأبد: «لا تنس أنني أنا من سيوقع على شهادة الوفاة»، أما الطبيب الشاب فبدا غير سعيد بما يجري من حوله: فلم تَسنح له، من قبل، فرصة دراسة آثار سيانيد الذهب على إحدى الجثث، والدكتور خوبينال ذات نفسه في عجب واستغراب من أمر هذا الشاب، الذي لم يره البتة في مدرسة الطب، بيد أنه سرعان ما فهم الأمر برمته، وذلك لأن هذا الفتى سريع الخجل على أشد ما يكون، وفي كلامه نبرة تشي بأنه ينتمي إلى جبال الأنديز، وعلى هذا، ربما يكون جاء مؤخرا إلى المدينة لا أكثر ولا أقل، وما لبث أن قال له: «لن يمر وقت طويل وسوف تجد يوما أحد هؤلاء المجانين بالحب يعطيك فرصة استكشاف ما تريده»، ولكنه بمجرد أن قال هذا إذا به يدرك أن هذه الحالة هي

الأولى، التي تنتحر بسيانيد الذهب لأسباب لا تتعلق بتاتا بالحب ومصائبه، ومن بين حالات كثيرة يذكرها هو، وإذا به يحس بشيء ما يحدث تغييرا في نبرة صوته المعتادة، وإذا به يقول للشاب الطبيب:

– يجب أن تكون يقظا منتبها إذا وجدت ما تريده، فعادة ما يكون لدى هؤلاء رمال في قلوبهم.

وبعد ذلك تحدث مع مأمور الشرطة كأنه يتحدث إلى أحد مرؤوسيه ليس إلا، وأمره باستغلال كل لحظة ممكنة كي يكون الدفن في نفس الليلة، وفوق كل هذا لا بد من الانتهاء من الموضوع في حرص وكتمان شديدين، وقال له: «وسوف أتحدث أنا بعد ذلك مع عمدة البلدة»، وهو يعلم جيدا أن خيريميا من هؤلاء الناس، الذين من سجاياهم التقتير على أنفسهم، وأنه يكسب كثيرا من وراء حرفته، حتى يكون لديه مال على ما قدر يحتاجه في حياته، وهذا يعني أنه في أحد الأدراج الموجودة في البيت نقود تفيض عما قد يحتاجه الدفن من نفقات، وإذا به يقول:

– ولكن حتى لو لم نجد أي مال، فلا يهم، فسوف أتحمل أنا تكاليف الدفن.

كما أمر بإخبار الصحف بأن خيريميا مات ميتة طبيعية، رغم كونه يعرف أن هذا الخبر لم ولن يجذب اهتمامهم في شيء، لذا قال: «لو اضطرّتنا الأمور فسوف أتحدث مع الحاكم ذات نفسه»، ومأمور الشرطة، ذلك الموظف المتواضع شديد الجدية، كان يعلم حق العلم ما للدكتور من قوة ونفوذ قد تصل حتى إلى أخلص أصدقائه، وهو فعلا في دهشة شديدة من هذه السهولة المخيّمة على الإجراءات القانونية كلها حتى تتم أمور الدفن في أسرع وقت، والشيء الوحيد، الذي لم يستطع أن يسلّم به البتة هو التحدث إلى مطران الكنيسة كي يُدفن خيريميا ديه سانت–أمور في أرض من الأراضي المقدّسة، فمن المفترض أنه مات منتحرا، ولا يصح له أن يُدفن فيها، وإذا به يحاول

الاعتذار، وفي نفسه شعور من سفاهة ما يقوله، قال:

– أفهم من ذلك أن هذا الرجل كان قديسا.

فأجابه الدكتور أوربينو:

– بل أغرب من هذا، إنه قديس ملحد. لا تشغل بالك، مثل هذه الأمور هي من اختصاص الله وحده.

وعلى الجانب الآخر من المدينة، وصل إلى آذانهما الرنين البعيد لأجراس الكاتدرائية تدعو إلى إقامة القداس الأكبر الخاص بيوم الأحد، حينئذ ارتدى الدكتور أوربينو نظارته الشمسية المطلي إطارها بالذهب، ثم أخرج ساعته الصغيرة الرقيقة، مربعة الشكل، ذات السلسلة الذهبية، ونظر إليها بعدما انفتح غطاؤها مصدرا أنينا خاصا بها: وجد ميعاد قداس العَنصَرة[١] على وشك أن يفوته.

وكان بالصالة كاميرا فوتوغرافية ضخمة لها عجلات تماما مثل الكاميرات الموجودة في الحدائق العامة، وبالصالة أيضا ستار يُستخدم كخلفية للتصوير، ورُسمت عليه صورة لمنظر الغروب على سطح البحر بألوان صناعية، وعلى الجدران تجد صورًا لأطفال تصوّر العديد من محطاتهم الرئيسية في حياتهم، مثلا: صورة لطفل يقدم القربان في الكنيسة لأول مرة، وصورة لطفل آخر متنكر في شكل أرنب، وصورة أخرى لطفل في عيد ميلاده، وهكذا، وشهد الدكتور خوبينال التعافي البطيء، الذي كانت تستعيده هذه الحوائط، سنة تلو الأخرى، أثناء انهماكه الشديد في التفكير والتأمل بليالي الشطرنج، وبمزيج من الشجن والحزن يأتي على باله مرارا أن الصور في هذا المعرض، والتي التقطت بشكل عارض بحت ما هي إلا نواة صغيرة لما ستكونه المدينة في المستقبل، فلا بد أن هؤلاء الأطفال المنحرفين سوف يكونون حكامها يوما ما، ووقتها لن تعرف هذه المدينة لا شرفا ولا مجدا، ولا حتى أقل القليل من هذا.

(١) العَنصَرة: هي عند المسيحيين عيد تذكار حلول روح القدس على التلاميذ، ويقع بعد عيد الفصح بخمسين يوما.

وكان هناك على سطح المكتب، بجانب إناء خزفي يحوي أكثر من غليون من تلك الغلايين المميزة لبحّار متمرّس مثل خيريميا، لوح الشطرنج، وعليه مباراة لم ولن تنتهي أبدا، ورغم ما فيه من عجلة، ورغم حميته الخافتة، إلا أنه لم يستطع مقاومة إغراء دراسة تلك المباراة، وهو يعلم أن هذه لم تكن إلا مباراة الليلة الفائتة، فخيريميا من عادته أن يلعب الشطرنج في كل ليلة، على الأقل، ضد ثلاثة متنافسين، وهو دوما لا تتم ليلته إلا بانتهاء مباراة الشطرنج، ثم يحفظ اللوح والقطع في الصندوق، ويضعه بعد ذلك في أحد أدراج المكتب، وكذلك يعلم أن خيريميا لم يكن يلعب إلا بالقطع البيضاء، وواضح أنه في تلك المباراة كان سيُمنى بهزيمة سهلة بعد أربعة أدوار من اللعب فحسب، حينئذ قال لنفسه: «لو كان ثمة جريمة هنا، فعلى هذا اللوح أن يوصلنا إليها، رجل واحد فقط أعرفه هو القادر في الشطرنج على نصب كمين بهذه الحنكة»، ولا يمكن لواحد مثل الدكتور أوربينو أن يكمل حياته دون أن يعرف لماذا لم يكمل خيريميا، بما فيه من روح الجندي المغوار، والذي من العادي جدا عنده أن يقاتل إلى آخر نفس، آخر حرب في حياته.

في حدود الساعة السادسة صباحا رأى الحارس الليلي، أثناء طوافه الأخير في المكان، لافتة مثبّتة على باب الدار كُتب عليها: ادخل دون أن تطرق الباب، وقم بتنبيه الشرطة. وبعدها بقليل جاء مأمور الشرطة ومعه طبيب تحت التدريب، وفتش كلاهما البيت في محاولة منهما للعثور على أي دليل آخر ضد هذه الرائحة النفّاذة المنبعثة من أشجار اللوز. وخلال هذه الدقائق القليلة، التي استغرقها في تأمل رقعة الشطرنج وتحليل ما عليها من مباراة لم تتم، إذا بمأمور الشرطة يجد بين أوراق المكتب ظرفا موجها إلى الدكتور خوبينال أوربينو، وتم لصقه بالشمع الأحمر بحيث لا يسعك إلا تمزيقه لتخرج الرسالة، التي بداخله، ثم أزاح الدكتور الستارة السوداء، التي تحجب النافذة ليسمح لمزيد من الضوء بالمرور، وقبل كل شيء وجد أمامه إحدى عشرة ورقة مطويّة، كل منها عليها كلام مكتوب على وجهها وظهرها بخط واضح

جلي، وإذا به يلقي عليها نظرة سريعة خاطفة، ومنذ أن وقعت عيناه على الفقرة الأولى تأكد تماما أنه سيفوته حتما تقديم القربان في القدّاس، وأخذ يقرأ في لهفة وسرعة لاهثا وراء الكلمات، الكلمة تلو الأخرى، ومن حين لآخر يعود للورقات السابقة حتى يستطيع عقله ربط ما انقطع من أفكار، وبعدما يعود إلى الكلمة، التي وقف عندها أخيرا يشعر بأنه كان بعيدا لما بعد المشرقين وعاد لما بعد المغربين، ورغم ما يبذله من جهد جهيد إلا أنه لم يستطع كتم ما أصابه من يأس وخيبة: فشفتاه ازرقتا تماما كشفاه الموتى، حتى أنه لم يستطع أن يخفي تلك الرعشة، التي تمكنت من أصابعه، وهو يعيد تطبيق أوراق الرسالة، ويحفظها في جيب سترته، حينئذ تذكر أن معه مأمور الشرطة والطبيب الشاب، وبالكاد اغتصب من شفتيه ابتسامة كالحة وسط العتمة المحيطة بهم، وقال:

- لا شيء مطلقا. هذه مجرد تعليماته الأخيرة، لا أكثر ولا أقل.

وما قاله لم يكن كل الحقيقة، بيد أنهم صدقوه فعلا، فأمر برفع إحدى البلاطات من الأرض، وإذا بهم يجدون تحتها دفتر حسابات صغير مهترئ من كثرة استعماله، كان بداخله مفاتيح الخزنة، ولم يجدوا مالا كثيرا كما توقعوا، ولكن كان هناك ما يكفي وزيادة للوفاء بمصاريف الدفن وباقي الشئون الصغيرة، وحينها تأكّد لدى الدكتور خوبينال أنه لن يصل إلى الكاتدرائية قبل أن تبدأ قراءة مقاطع من الكتاب المقدّس، ولهذا قال:

- إنها المرة الثالثة، التي يفوتني فيها قدّاس الأحد منذ أن وعيت في هذه الدنيا، ولكن لا شك أن الله يفهم ما أنا فيه.

وعلى هذا فضّل أن يتأخّر بضع دقائق حتى لا تفوته أي تفاصيل مهما كانت دقتها وتفرقها، رغم ما فيه من رغبة جامحة كي تشاركه زوجته ما في الرسالة من أسرار وتفاصيل غريبة، ووجد أن عليه إخبار من بالمدينة من لاجئي الكاريبي، ريثما يلقون تحيتهم الأخيرة على من كانوا يعتبرونه كبيرهم المفعم نشاطا وحيوية وراديكالية، رغم ما كان منه بعد ذلك من استسلامه

التام لما اكتنفه من خيبة أمل وزوال وَهْم، ومفروض أيضا أن يخبر بقية رفقائه، الذين كانوا يلعبون معه الشطرنج، بداية من أكبر شخص إلى أصغر شخص، من أول العظماء المشاهير إلى العمال وأصحاب الحرف، الذين لا يتمتعون بأي شهرة، وأيضا عليه أن يخبر باقي الأصدقاء، فرغم قلة التصاقهم به إلا أنهم قد يحضرون مراسم دفنه، وقرّ قراره على أن يكون هو الأول، وهذا قبل أن يقرأ تلك الرسالة، إلا أنه بعد قراءتها لم يعد واثقا من أي شيء. على كل، فسوف يأمر أحد ما بوضع إكليل من زهور الجاردنيا على قبره، فربما ندم خيريميا قبل موته على محاولته الانتحار، وهو ما يعد خطيئة كبرى لا تغتفر في الدين المسيحي، ولا يسمح بوضع تلك الزهور على قبر المنتحر، والمفترض أن دفن الجثة سوف يكون في حدود الساعة الخامسة، الوقت المناسب تماما ليوم من تلك الشهور الأكثر حرا على مدار السنة كلها، ولو احتاجوه في شيء ما، فهو سيكون موجودا منذ الساعة الثانية عشرة في البيت الريفي للدكتور لاسيداس أوليبيا، تلميذه العزيز المقرب إلى قلبه، والذي سوف يحتفل في ذلك اليوم بعيد الزواج الخامس والعشرين بإقامة مأدبة عشاء فاخرة.

والدكتور خوبينال لديه نظام روتيني يومي يسهل عليه الالتزام به، وذلك منذ أن انصرمت تلك الأيام العاصفة المدوية الحافلة بقعقعة السلاح وصهيل الخيول، واستطاع أن ينال بنفسه قدرا كبيرا من الاحترام والتقدير والشهرة لم ينلهم أحد على مستوى المحافظة كلها، فهو يستيقظ مع صيحات الديكة، وفي هذه الساعة يقوم بأخذ أدويته السرية: بروميد البوتاسيوم لرفع حالة النشاط عنده، السيليسيوم للقضاء على آلام العظام في الأيام الممطرة، قطرات من خلاصة فطر الأرجوت للقضاء على الدوار والدوخة، كما يأكل نبات «ست الحسن» لتعينه على النوم، كما أنه في كل ساعة يأخذ سرا نوعا معينا من أنواع العقاقير، وذلك لأنه في خلال رحلته الطويلة كأستاذ وطبيب دائم ما يكون ضد وصف أي علاج أو مهدئات للشيخوخة: فمن الهيّن عليه أن يتحمل مواجع الآخرين وآلامهم وليس بالهيّن أبدا أن يتحمل آلامه هو،

ودائما ما يحوي جيبه ظرفا صغيرا فيه بعض الكافور، الذى يقوم باستنشاقه بعمق بعيدا عن أعين الناس، وكل ذلك كي يجنب نفسه الخوف من هذه الأدوية، التي تحيط به من كل حدب وجهة.

وبقي الدكتور أوربينو ساعة في مكتبه يعد حصصه في الطب العام، التي يلقيها في مدرسة الطب من يوم الإثنين إلى يوم السبت، من الساعة الثامنة بالضبط إلى مجيء الليل، وظل على ذلك حتى ليلة وفاته، وهو أيضا كان من هؤلاء الشغوفين بقراءة كل ما هو جديد في كتب الأدب، والتي يرسلها له عبر البريد أحد أصحاب المكتبات في باريس، أو تلك التي يرسلها له تاجر الكتب الرسمي الخاص به في برشلونة مع أنه لا يتتبع كثيرا الأدب الإسباني ويهواه كما يهوى الأدب الفرنسي. على كل، لم يكن يقرأها أبدا في الصباح الباكر، وإنما بعدما ينام قيلولته لمدة ساعة، وأيضا يقرأ ليلا قبل النوم، ثم بعدما ينهي ما عليه من تحضيرات ودراسة، يقوم بتمارين التنفس في حوض الاستحمام لمدة ربع ساعة، تاركا نافذة الحمام مفتوحة، يتنفس من الناحية التي يأتيه منها صياح الديكة، حيث يكون الهواء أكثر نقاءً وصفاءً، ثم يستحم ويهذب لحيته ويشذبها، وبماء كولونيا «فارينا جونبير» يضمّخ شاربه إلى أن يرتوي برائحتها، ثم يرتدي رداءً من الكتان الصافي الناصع البياض وسترة وقبعة من النوع اللين المرن، ويضع في رجليه حذاء ذا كعب عالٍ مصنوعا من جلد الماعز الخاص بقرطبة. وحين ناهز عمره الواحد والثمانين عاما وعاد من باريس، بعد تفشي وباء الكوليرا بزمن قليل، صار يحتفظ من عاداته بكل ما هو سهل وبسيط ومريح، مبقيا على روحه المرحة وعلى هذا الخط، الذي يشق شعر رأسه الممشط بعناية فائقة إلى نصفين متساويين، وهو ما كان عليه منذ شبابه باستثناء هذا اللون الفضي، الذي تفشى في شعره، وكان يأكل إفطاره مع عائلته، ولكن بنظام يخصه وحده: نقيع أزهار الأفسنتين، كبيرة الحجم، لراحة معدته، رأس ثوم يقشّرها بأسنانه، ويأكل الفص تلو الآخر، دون أن يترك منه شيئا مع قطع من الخبز البلدي، تجنبا لاضطرابات القلب ومشاكله،

وحالات قليلة جدا يجد نفسه انتهى من إلقاء حصصه في الطب، وليس عليه أي التزامات وطنية أو شكوك كاثوليكية أو أي ارتباطات باختراعاته وابتكاراته الفنية والاجتماعية.

ودائما تقريبا يأكل غداءه في بيته، ثم ينام قيلولة لمدة عشر دقائق جالسا في التراس المطل على فناء داره، حيث يصل إلى أذنيه وهو نائم أصوات الخادمات، وهن يترنمن أسفل الأغصان الملتفة لأشجار المانجو، وأصوات الباعة في الشارع يعلنون عن بضاعتهم، والهدير الصاخب للزيوت والمحركات الموجودة عند الخليج، الذي ترفرف روائحه داخل داره، في الأمسية الحارة كأنها ملاك محكوم عليه بالتعفن، وبعد ذلك يظل ساعة يقرأ في الكتب الجديدة، خاصة الروايات والدراسات التاريخية، ويقوم أيضا بإعطاء ببغائه دروسا في اللغة الفرنسية، وفي الغناء، هو هو ذلك الببغاء الذي شغفت به المدينة منذ سنين طويلة. وفي الساعة الرابعة يخرج ليزور مرضاه، بعدما يتجرع جرة كبيرة من الليمونادة المثلجة، ورغم تقدمه في السن، لم يكن يميل إلى استقبال مرضاه في العيادة، وإنما يذهب إليهم بنفسه ليزورهم في بيوتهم، كعادته دائما منذ أن صارت شوارع المدينة وطرقها ممهدة للذهاب إلى أي مكان فيها.

وهو منذ أول مرة جاء من أوروبا، ركب عربة خاصة بالعائلة يجرّها حصانان شقراوان، ولما وجدها لا تفيده استغنى عنها واستبدلها بعربة أخرى مكشوفة ذات أربع عجلات يجرها حصان واحد فقط، وظل يركبها وفي نفسه شعور بالاحتقار والازدراء تجاه كل ما هو عصري وحديث، فهذا النوع من العربات لم يعد يستعمل إلا لنقل السياح أو نقل أكاليل الزهور في المدافن وتكاد تكون اختفت من هذا العالم. ورغم رفضه التام للتقاعد عن العمل والركون إلى الراحة، إلا أنه كان يدرك تماما أنهم لم يكن يستدعونه إلا في الحالات الميئوس منها، ولكنه يعتبر هذا الأمر تخصصًا من التخصصات، التي تعنيه وحده فقط، وكان قادرا على أن يعرف علة المريض من نظرة واحدة إليه، وفي كل مرة يزداد عدم

ثقته في العقاقير والأدوية المشهورة، ويرى أن الخطر كل الخطر في اللجوء إلى العمليات الجراحية، فكان يقول: «المشرط هو أكبر فشل في حياة الطب»، كما كان يعتقد، من وجهة نظره الضيقة، بأن كل دواء ما هو إلا سم زعاف يؤدي حتما إلى الموت، وأن سبعين في المائة من الطعام الحالي يعجل بموت الإنسان. ومما كان يقوله دوما، أثناء إلقائه الحصص، «على كل، فإن القليل الذي تبقى من علم الطب لم يعد يعرفه إلا بضعة أطباء لا يتعدون أصابع اليد الواحدة»، كما أنه لم يعد يتقد فيه حماس الشباب ونشاطهم، وبدأ ينتقل إلى وضع يعتبره، هو نفسه، شيئا إنسانيا حتميا لا بد منه: «كل فرد منا ما هو إلا مالك حصري لموته، وكل ما يمكننا فعله عندما تحين لحظة الموت، أن نيسّر له ميتة هنية بلا ألم وبلا خوف»، ولكن رغم هذه الأفكار الغريبة المتطرفة أشد التطرف، التي هي أصلا تعد جزءا من الفولكلور الطبي الشعبي الخاص بهذه البلدة، فإن تلاميذه يستشيرونه في مختلف الأمور، رغم تطورهم وترسّخهم في مهنة الطب، فهم يعتبرونه المحور، الذي يدور حوله كل شؤون الطب، فهو عين الحكمة الطبية ومنتهى علمها. على كل، ما يقصد من كل هذا أن الدكتور أوربينو دكتور عزيز جدا، صعب المنال، كأنما لم يتعلم هذه المهنة إلا من أجل كل ما هو غريب وحصري في الطب، ومعظم زبائنه، هذا إن لم يكن كلهم، من البيوتات العريقة ذات الحسب والجاه والنسب، التي تسكن حي بيرريس.

ويوم عمله دوما يحكمه نظام وترتيب شديدان، حتى أن زوجته تعرف تماما أين يكون مكانه لتخبره إذا ظهرت حالة طارئة أثناء تجواله الليلي، فهو منذ شبابه يمكث إلى وقت متأخر في مقهى باروكيا قبل عودته إلى بيته، وبهذه الطريقة تحسنت طريقته في لعب الشطرنج وزادت مهاراته من كثرة لعبه ضد كل المتواطئين مع حماه، وبعض هؤلاء اللاجئين الكاريبيين. ولكنه منذ بداية القرن الجديد لم يعد يذهب إلى مقهى باروكيا، وراح في محاولات لتنظيم بطولات قومية برعاية «النادي الاجتماعي». في هذه الفترة، ظهر خيريميا ديه سانت-أمور بما يعانيه من مشاكل وآلام بسبب الخشونة الشديدة في ركبتيه

ووقتها لم يكن امتهن بعد حرفة تصوير الأطفال فوتوغرافيا، وقبل أن تنصرم ثلاثة شهور ذاع صيته بكونه الوحيد القادر على تحريك قطعة الفيل كما يشاء في لعبة الشطرنج، فلا أحد استطاع أن يغلبه، ولو في مباراة واحدة. لقاؤهما معا معجزة من معجزات الدنيا في نظر الدكتور أوربينو، في الوقت، الذي صارت لعبة الشطرنج بالنسبة له عاطفة جياشة لا يمكن كبحها أبدا، في وقت لم يعد هناك أي خصم يرضي غروره فيها.

وبفضل الدكتور أوربينو، استطاع خيريميا أن يبلغ تلك المكانة، التي بلغها بيننا، فالدكتور أوربينو صار حاميه، الذي لا يشترط أي شرط، وموضع ثقته، الذي لا تشوبه شائبة، وكل هذا دون حتى أن يكلف نفسه مئونة معرفة كنه هذا الرجل، ولا حتى ماذا يفعل ولا حتى كلف نفسه معرفة في أي حرب بالضبط جاء بما عنده من عجز وإعاقة واختلال، حتى انتهى الأمر بالدكتور أوربينو أن أقرض خيريميا كل ما يحتاجه من مال لإقامة ورشة تصوير، وظل خيريميا يسدد له ما عليه من دين بدقة بالغة حتى آخر ريال دفعه له، وذلك منذ أن صوّر أول طفل خائف من فلاش الكاميرا.

كل هذا كان سببه الشطرنج، ففي البداية كانا يلعبانها في الساعة السابعة مساءً، بعد أكل العشاء مباشرة، وفي مبدأ الأمر كان الدكتور أوربينو كثيرا ما يخسر بسبب قوة خصمه وتمكنه من اللعب. بدأت خسارته تقل تدريجيا بعدما صارا أندادا في اللعب، كل منهما كما الآخر في المهارة والحنكة، وبعد ذلك، حينما افتتح السيد جاليليو داكونتيه أول دار سينما في البلدة، كان خيريميا أحد زبائنه الأكثر انتظاما في الحضور، وتقلصت مباريات الشطرنج وصارت لا يدور رحاها إلا إذا تبقى بعض الوقت بعد انتهاء عرض الفيلم، حينئذ توثقت بينهما أواصر الصداقة، وغدا الدكتور أوربينو يصاحبه إلى السينما، ولكن دائما بدون زوجته، وذلك لأنها من ناحية لا تملك الصبر الكافي لتتبع خيط الأحداث والحوارات المعقدة المتشابكة، ومن ناحية أخرى لأنه يرى ببصيرته النافذة أن خيريميا لا يصلح لصحبة أحد.

أما يومه المميز المختلف فهو يوم الأحد، حيث يحضر القدّاس في الكنيسة، ثم يعود إلى بيته ويبقى في تراس داره يقرأ ما شاء له أن يقرأ، ولمرات قليلة كان يخرج من داره ليعود بعض مرضاه في يوم القدّاس، الذي هو يوم راحته، هذا إذا لم تكن حالة خطرة طارئة، ومنذ سنوات طويلة لم يعد يقبل القيام بأي واجب في هذا اليوم ما لم يكن ضروريا أشد الضرورة، وفي اليوم الذي مات فيه خيريميا، يوم قدّاس العَنصَرة، حدثت مصادفة عجيبة، اجتمع حدثان كل منهما أغرب من الآخر وأعجب: موت صديقه، والاحتفال بمناسبة مرور خمسة وعشرين عاما على زواج أحد تلاميذه المرموقين، رغم كل هذا، فإنه بدلا من العودة إلى داره مباشرة، بعدما وثّق وفاة صديقه خيريميا، ترك نفسه للفضول وحب الاستطلاع يتحكمان ويسيطران عليه.

وبمجرد أن ركب العربة نظر إلى الرسالة، التي كتبها خيريميا قبل وفاته، وأمر السائق بأن يأخذه إلى عنوان صعب كائن في الحي القديم الخاص بالعبيد، وكان غريبا جدا أن يطلب الدكتور أوربينو مثل هذا الطلب، بحيث أن السائق أراد التأكد من عدم وجود خطأ ما أو شيء من هذا القبيل، ولكن لم يكن ثمة أي خطأ: العنوان صحيح تماما وواضح، ومن كتب هذا العنوان لديه أيضا أسباب كثيرة تثبت معرفته للعنوان تماما. حينئذ عاد الدكتور أوربينو إلى الصفحة الأولى من الرسالة، ولمرة أخرى وجد نفسه يغوص في هذا النبع الصاخب المضطرم من الاعترافات غير المرغوب فيها مطلقا، والتي كانت من الممكن أن تقلب حياته رأسا على عقب، رغم عمره، لو كان أقنع نفسه بأنها ليست مجرد هذيان محض من شخص يائس.

بدأ مزاج السماء يتعكر ويسوء منذ الصباح الباكر، وها هي الآن ملبدة بالغيوم ورويدا رويدا تزداد رطوبتها وتتكاثف، ولكن رغم كل هذا بدا أن هطول المطر لن يكون قبل انتصاف النهار، والسائق بكل ما أوتي من حيلة وحنكة يحاول أن يسلك أقصر الطرق، فيسير في الدروب العسيرة الوعرة من

دروب المدينة، كما اضطر، أكثر من مرة، إلى إيقاف حصانه لبعض الوقت كي لا يفزع من تلك المناظر المختلطة من طلبة المدارس والحشود الغفيرة العائدة من قدّاس العَنصَرة، فأينما تحط قدميك تجد أكاليل الأزهار الورقية، والموسيقى، والورود، شبابا وفتيات وضعن على رؤوسهن قبعات ملونة مزينة بالموسلين ينظرن إلى الاحتفالات والمهرجانات من شرفاتهن، وفي ميدان «لا كاتديرال»، بالكاد يُرى تمثال «الغازي الكبير» بين جموع النخيل الأفريقية وعواميد الإنارة الجديدة، التي تتميز بمصابيحها كروية الشكل، وهناك كانت السيارات في حالة من السكون بسبب تلك الجموع الغفيرة الخارجة من القدّاس، كما أن مقهى باروكيا لم يعد فيه موضع لقدم من فرط الزحام، رغم رقيّه وأرستقراطيته. وعربة الخيل الوحيدة هنا، عربة الدكتور أوربينو، ويمكن بكل سهولة تمييزها عن مثيلاتها القليلات من العربات الموجودة في المدينة، وذلك لسقفها المصنوع من الجلد الأسود اللامع البراق، كما أن هيكلها مصنوع من البرونز بعكس الحديد، الذي يأكله الصدأ، وعجلاتها وقضبانها مطلية باللون الأحمر مزينة بحليّات ذهبية اللون، فمن ينظر إليها يحسبها عربة من تلك العربات الموجودة في ليالي أوبرا فيينا. علاوة على هذا، ففي حين أن كل العائلات الأكثر تأنقا وأرستقراطية في مظهرها تتأكد من كون سائقيها يرتدون قمصانا نظيفة، يطلب هو من سائقه أن يبقى مرتديا الزي الرسمي للخدم ذا اللون المخملي، وتلك القبعة الرسمية، التي يضعها مروّض الحيوانات في السيرك، ورغم أنها أصبحت موضة عفا عليها الزمن، فهي ملابس لا رحمة فيها ولا شفقة لشخص يعمل في مثل هذا القيظ والحر، الذي تتلوى به منطقة الكاريبي.

ورغم حبه للمدينة، الذي يكاد يصل إلى حد الهوس، ورغم معرفته لها معرفة لم يبلغها شخص، إلا أن الدكتور خوبينال أوربينو كان قليلا جدا ما يكون لديه دافع كهذا في يوم من أيام الأحد ليلقي بنفسه علنا هكذا في أتون وضجيج الحي القديم الخاص بالعبيد، وكثيرا ما كان السائق يضطر

إلى الالتفاف والسؤال عن العنوان، ومن قريب ميّز الدكتور أوربينو الماء الآسن الراكد للمستنقعات الموجودة هناك، هدوؤها المنذر شؤما ونحسا، حين تخرج منها تلك الريح المؤذية غالبا في ساعات السحر ومعاناته من عسر الهضم، تخرج غازاتها تلك إلى الغرفة مختلطة بعبير أشجار الياسمين الموجود في فناء الدار، ويشعر بها كأنها رياح ركدت منذ اليوم الفائت، رياح يستعيذ بالله منها، ولكن هذه الرائحة الكريهة المقيتة، التي كثيرا ما تسمو، ويعلو قدرها لما يشعر به من حنين جارف إلى الوطن استحالت الآن إلى أمر لا يطاق البتة، وذلك حينما بدأت العربة تتقافز عبر الشوارع الموحلة، حيث تبارت النسور السوداء، وبرعت في إلقاء فضلاتها، وما تبقى من فرائسها، التي تجلبها من سفن البحر.

وباقي أحياء المدينة بيوتها مبنية من الحجر والطوب، إلا هذا الحي، فبيوته مبنية من أخشاب كالحة، ولها أسقف من الخارصين، وأغلبها شُيّد فوق أوتاد كبيرة من الحديد، حتى لا تجرفه مياه المجاري حينما تفيض، مجاري ورثوها عن الإسبان منذ وجودهم. وحين تنظر هنا وهناك، وأينما تقع عيناك لا ترى إلا البؤس والهجران مخيمين على كل شيء، ولكنك قد ترى موسيقى معربدة صادرة من الحانات، التي لا تعير أي انتباه لا للرب، ولا للاحترام المفروض على الفقراء في يوم ديني مهم كهذا اليوم. وأخيرا حينما وصلت العربة إلى العنوان، إذا بها يلاحقها جماعات من الأطفال العراة يهزأون أشد الهزء بتلك الملابس المسرحية، التي يلبسها السائق، والذي اضطر إلى أن يهشهم ويخيفهم بسوطه لينفضوا من حوله. حينئذ، فهم الدكتور أوربينو متأخرا جدا أنه لا شيء أهم من حياته وعمره، هو الذى يتجه الآن إلى زيارة سرية، شديدة الكتمان.

البيت من الخارج بلا أرقام عليه البتة، ولا شيء فيه مطلقا يميزه عن أتعس وأوهن البيوت، إلا ستارة، بها بعض التطريز، تحجب النافذة، وبوابة

كبيرة يبدو أنها اقتلعت من إحدى الكنائس القديمة. أمسك السائق بالمطرقة، وراح يقرع الباب، وحين تأكّد أن العنوان صحيح ساعد الطبيب لينزل من العربة، وانفتحت البوابة دون أن يصدر عنها أي ضجيج، ومن بين دياجير الظلام المخيمة على الداخل برزت امرأة أربعينية ترتدي ثوبا أسود بالكامل، وعند إحدى أذنيها وردة حمراء اللون، ورغم عمرها، إلا أنها لا تزال محتفظة بغطرستها وأنفتها لكونها وليدة أب وأم أجنبيين، فعيناها في لون الذهب تشعان مكرا وقسوة، شعرها مسدول تماما على رأسها كأنه خوذة من القطن الحديدي. لم يستطع التعرف عليها، رغم رؤيته لها أكثر من مرة خلسة، أثناء مباريات الشطرنج في غرفة التصوير، كما أنه ذات مرة وصف لها علاجا عبارة عن أوراق الكينا للقضاء على الحمّى.

مدّ لها يده، فاستقبلتها هي بكلتا يديها، وليس لأمر، إلا لتعينه وتسنده، أكثر من كونها تصافحه. الصالة من يدخلها يشعر بجو غريب وضوضاء مكتومة كتلك الموجودة في الأحراش والغابات، وفيها ما لذ وطاب من طرائف وتحف وأشياء بديعة المنظر من أثاث وحاجيات مختلفة، كل منها تم وضعه في مكانه الصحيح لا زيادة ولا نقصان. حينئذ جاءت على باله تصرفات صاحب الأجزاخانة الباريسي الرجعي، في يوم من أيام الاثنين من خريف القرن الماضي، والتى تقع في شارع مونتمارتيه رقم ٢٦. ثم جلست المرأة أمامه وتحدثت إليه بلغة إسبانية مكسرة للغاية، قالت:

- البيت بيتك يا دكتور، وحسن جدا أني لم أنتظرك كثيرا.

حينها، أحس كأن أحدا أخبرها بمجيئه، وإذا به يحدق فيها، وينظر إليها من كل قلبه، حدّق في حدادها العميق، وفي السواد المخيم عليها، حدّق فيما هي فيه من كرب وقلق. وقتها، شعر بأن هذه زيارة لن يكون منها أي فائدة، لأنها هي نفسها تعلم كل شيء أكثر منه عن كل شيء مكتوب في رسالة خيريميا ديه سانت-أمور.

وما حدث، أنها صاحبت خيريميا كل الوقت باستثناء تلك الساعات القلائل، التي سبقت موته، فهي تُعتبر قد لازمته نصف حياته بأسرها في تعبد وورع وإشفاق وحنان منها عليه لحد بلغ مستوى أعلى كثيرا من مستوى الحب، ولا أحد إطلاقا في هذه المدينة الخاملة كل الخمول يعرف شيئا من كل هذا، ولا حتى في أي موضع منها، بداية من الأماكن العامة فيها إلى زواياها الصغيرة ومخابئها. وكلاهما تعارفا إلى بعضهما في مستشفى تقع في بونت-أو-برنس، وهو المكان، الذي ولدت هي فيه وقضى هو فيه أياما من حياته في تشرد وفرار مستمر، جاءت إلى هنا بعد مجيء خيريميا بسنة، جاءت بغرض زيارة لن تطول، مع أنهما يعرفان تماما دون اتفاق مسبق بينهما أنها سوف تبقى هنا إلى الأبد. كانت تعتني بنظافة المعمل وترتيب أشيائه لمرة واحدة في الأسبوع، ولكن حتى أعتى العتاة من الجيران أصحاب النفوس المريضة لم يخطر ببالهم أبدا الحقيقة الخفية في زياراتها هذه، فهم كسائر الناس يظنون أن خيريميا لا يصلح لمثل هذه الأمور أبدا، فهو أصلا لا يستطيع المشي. حتى الدكتور أوربينو نفسه افترض أيضا ما افترضه الناس ولأسباب طبية واضحة أشد الوضوح، ولم يخطر بباله قط أن خيريميا لديه عشيقة، فإذا كان هو نفسه لم يذكر له ذلك في رسالته. على كل، كلف نفسه الكثير كي يعرف أن إنسانين ناضجين كهذين أحرار فيما يفعلانه، ليس لهما أي ماضٍ، ويعيشان على هامش مجتمع كله فضول وتفكير، اختارا أن يعيشا عيشة أشبه بالحب المحرم. شرحت له قائلة: «هذا أمر كان بمحض رغبته»، وأيضا، شرحت ما كانت فيه من علاقة سرية مع رجل لا يحل لها بشكل كامل، علاقة تمتعا في أثنائها بلحظات عارمة من السعادة المتفجرة، لم تبد لها مطلقا أمرا غير مرغوب فيه، بل على العكس تماما من هذا وذاك. فالحياة كشفت وأثبتت لها قدوة ما فعلاه.

في الليلة الفائتة ذهبا معا إلى السينما، كل منهما دفع ثمن تذكرته، وجلس كل منهما بعيدا عن الآخر، كانت تلك عادتهما يذهبان إلى السينما كل شهر

مرتين على الأقل، وذلك منذ أن قام السيد جاليليو داكونتيه، الذي جاء مهاجرا من إيطاليا، بإنشاء قاعة سينما بلا سقف، بين أنقاض أحد المعابد القديمة، التي ترجع إلى القرن الثامن عشر. في هذه المرة شاهدا فيلما اقتبست فكرته من كتاب ذاع صيته في السنة الماضية، وقرأه الدكتور أوربينو بنفسه في غمرة الحزن والهم لما في الكتاب من ذكر لوحشية الحرب وبربريتها، فيلم اسمه «لا جديد في جبهة الحرب»، ثم تلاقيا بعد ذلك في معمل التصوير، ووجدته في حالة تشتت، يملؤه الحنين والشجن، وخطر على بالها أن السبب يرجع إلى مشهد الموتى وهم يحتضرون وقد غطاهم الوحل والطين، وحاولت بكل جهدها أن تبعده عما فيه بدعوته للعب الشطرنج، وبالفعل قبل إرضاءً لها، بيد أنه لعب دون اهتمام وبدون أي تركيز، وبالطبع لعب بالقطع البيضاء إلى أن اكتشف قبلها أن هزيمته محتومة بعد أربعة أدوار من اللعب، وإذا به ينسحب بلا شرف وبلا حزن على ما فات. أخيرا، فهم الطبيب أن الخصم في هذه المباراة الأخيرة كان هي، وليس الجنرال خيرونيمو أرجوت، كما توقع قبلا، وإذا به يهمس لها في تعجب واندهاش:

- كانت مباراة قوية بحق!

فأخبرته بأن هذا لا يرجع إليها مطلقا، وإنما لأن خيريميا ديه سانت- أمور ضل بالفعل في تيه الموت، لذا كان يلعب دون شغف ودون أي حماس، وحين قام خيريميا بوقف المباراة، وكان هذا في حدود الساعة الحادية عشرة والربع ليلا، منذ لحظة توقفت تلك الموسيقى الصاخبة الآتية من حفلات الرقص العامة في الخارج، وإذا به يطلب منها أن تتركه وحده. قال لها إنه يريد أن يكتب رسالة إلى الدكتور خوبينال أوربينو، الذي يعتبره الرجل الأكثر احتراما وتقديرا على مدى حياته كلها، فهو بالنسبة له صديق روحه وحياته، رغم أن كل ما بينهما من صلة مشتركة كونهما مصابين بداء الشطرنج وحبهما له بوصفه محاورات يسجلها العقل والمنطق وليس مجرد علم فحسب. حينئذ

علمت أن خيريميا بالفعل أشرف على إنهاء احتضاره بنفسه، وأنه لم يتبق في حياته وقت إلا ما يكفي لكتابة الرسالة. أصيب الدكتور بالدهشة، ولم يستطع تصديقها، فهتف بها قائلا:

- كنت تعلمين ما سيقوم به!

فأكدت له أنها لم تكن تعرف فقط، بل وساعدته على تحمّل آلام الاحتضار بنفس الحب والعشق، اللذين ساعدته بهما على اكتشافهما، فالأحد عشر شهرا الأخيرة في حياته بمثابة احتضار وموت بطيء كانت من الشدة بحيث لا يتحملها أحد.

فقال لها الدكتور:

- وكان واجبك أن تتجاهليه.

فأجابته، وهى في غاية الفزع:

- لا يمكن أبدا أن أقوم بشيء كهذا، إنه حبي، الذي أعشقه حد الجنون.

الدكتور خوبينال أوربينو، الذي كان يظن بأنه سمع كل ما يخطر على بال إنسان في هذا الكون، لم يسمع شيئا مثل هذا في حياته العريضة المديدة، بل ويسمعه من الطرف الآخر دون أدنى صعوبة. حدّق فيها بحواسه الخمس، حدق فيها بكل ما فيه كي يحتفظ في عقله بملامحها في هذه اللحظة. بدت كأحد هذه التماثيل، التي نجدها على ضفاف الأنهار، قوية غير هيابة، رابطة الجأش ترتدي ثوبها الأسود، من يرى عينيها يحسبها عيني حنش، ومن ينظر إلى أذنها يرى وردة حمراء اللون! ومنذ وقت بعيد، في أحد الشواطئ المنعزلة في هايتي، حيث كان كلاهما استرخيا عاريين بعد جولات من ممارسة الحب، إذا بخيريميا يتنهد فجأة، ويقول: «أنا أبدا لن أشيخ، ولن أعجز في يوم من الأيام»، وفسرت هذا على أنه غرض بطولي منه ليحارب بلا هوادة ضد نازلات وعوادي الزمن والعمر، ولكنه ما لبث أن أوضح مقصده: قرار منه لا رجعة فيه بأن يستل روحه من بين جنبيه عند بلوغه الستين.

وفعلا بلغ الستين من عمره في الثالث والعشرين من يناير هذا العام، ولكنه حينئذ حدد موته بأن يكون ليلة يوم قدّاس العَنصَرة، القدّاس الذي يعد أكبر احتفال سنوي في المدينة بأكملها تمجيدا وتقديسا لروح القدس، وفي الليلة التي سبقت يوم وفاته لم يكن ثمة أي تفاصيل لم تعرفها سلفا، تكلما في هذا مرارا، وعانيا معا ما عاناه من جريان تلك الأيام، التي مرت تباعا دون إذن منهما. وخيريميا ديه سانت-أمور ذات نفسه يحب هذه الحياة حبا بلا مشاعر ولا انفعال، فهو يحب البحر، يحب الحب، يحب كلبه ويحبها، ولكن كلما اقترب ميعاد موته كان يسقط أكثر فأكثر في هوة اليأس والإحباط، وكأن موته هذا قرار لا يد له فيه، كأن انتحاره هذا مصير محتوم عليه.

قالت:

- ليلة أمس، حين تركته، لم يكن أبدا من عالمنا هذا.

وأرادت أن تحمل كلبه معها، حيث كان غافيا بجوار الحقائب، فنظر خيريميا إليه متأملا وبأطراف أصابعه أخذ يحنن عليه، وقال: «أنا آسف فعلا، فكلبي مستر ودرو ويلسون لا بد له أن يذهب معي»، وأثناء كتابته الرسالة طلب منها أن تربط ساق الكلب في أحد أرجل السرير، ولكنها عن عمد أوهمته بأنها ربطت الكلب، وذلك كي يستطيع الهرب، وهى الفعلة الوحيدة التي اعتبرتها خيانة منها، لأنها لم تطع أمره، والسبب في هذا أنها أرادت أن تتذكر عشقها وحبها من خلال عيون كلبه، ولكن الدكتور أوربينو قاطعها مخبرا إياها بأن الكلب لم يهرب، فأجابته: «إذن فكلبه لم يرد الهرب»، وسعدت لهذا، لأنها فضلت أن يكون تذكرها لحبيبها كما أراد في الليلة الفائتة، وليس كما أرادت هي، سعدت حينما توقف فجأة عن كتابة الرسالة، التي شرع في كتابتها للتو، ونظر إليها آخر نظرة في حياته، وقال:

- «تذكريني بوردة».

رجعت إلي بيتها بعد انتصاف الليل بقليل، وتمددت مسترخية على

سريرها بكامل ملابسها، وراحت تدخن، وفي كل مرة تدخن سيجارة جديدة تشعلها من المنتهية، كل هذا كي تفسح له الوقت لينهي رسالته، التي تعلم تمام العلم طولها وصعوبتها، ثم قبل الساعة الثالثة بقليل، حينما بدأت الكلاب في النباح، وضعت إبريقا من الماء فوق الموقد لتعد قهوتها، ثم لبست ثوب الحداد، ومن فناء الدار مع بزوغ الفجر قطفت أول وردة له. حينها، أدرك الدكتور أوربينو كم المشقة، التي سوف يعانيها ويقاسيها كي ينسى هذه المرأة العصيّة على النسيان، وظن أنه يعلم السبب والدافع وراء ذلك: فشخص واحد فقط بلا مبادئ وبلا معايير هو من يمكنه أن يتساهل هكذا مع آلامه وأحزانه.

وراحت تعطيه المزيد من الدلائل والبراهين إلى أن انتهت زيارته. لن تحضر مراسم الدفن، لأنها وعدت حبيبها بذلك، رغم أن الدكتور أوربينو فهم غير هذا، فهو يظن بأنه فهم عكس ذلك من إحدى الفقرات الموجودة في الرسالة. أخبرته بأنها لن تُسقط من عينيها دمعة واحدة، أنها لن تقضي بقية حياتها تبكي وتتحسر وتذرف الدمع السخين على ذكرياتها معه، أنها أبدا لن تصلي نفسها بنار شوقها إليه، فهى لن تظل بقية حياتها تنسج كفنها بنفسها داخل دارها، كما تفعل الأرامل حزنا على أزواجهن، وهى تفكر في أن تبيع دار خيريميا، التي من الآن فصاعدا ملك لها بكل ما فيها من متاع، وهذا وفقا للمكتوب في الرسالة، ولسوف تهنأ بحياتها وتعيش عيشتها العادية دون شكوى أو ألم في وكر الفقراء، الذي قضت ردحا من عمرها سعيدة فيه.

في طريق عودته لبيته، لاحقته جملتها الأخير هذه: «وكر الفقراء». جملة لم تقلها هكذا من فراغ. فالمدينة، مدينتها هي، لا تزال تحيا على هامش الزمن، لا تزال تلك المدينة المجدبة القاحلة المشتعلة قيظا وحرارة، المليئة رعبا وظلاما، ونزوات فردية هائجة ممن بلغوا سن المراهقة، وفيها كل وردة وزهرة يصيبها الذبول، حتى الملح هناك يصيبه الفساد، لم يتغير فيها شيء واحد منذ قرابة أربعة قرون، اللهم إلا ما يصيبها من كِبَر وقِدَم يسريان فيها

بين نباتات الغار الذابلة والمستنقعات الآسنة. وفي الشتاء، تهطل على المدينة أمطار غزيرة مفاجئة لا تستمر طويلا، ولكنها كفيلة كي تفيض المياه وتنهمر من المراحيض، فتصير المدينة بأسرها كومة من الوحل المثير للغثيان، أما في الصيف فحدّث ولا حرج، حينها يأتي المدينة تراب خشن غير مرئي لا هو في لون الطباشير ولا هو بالأحمر البراق الفاتح، تراب غريب تجده في أماكن وشقوق لا يمكن أبدا أن تخطر لك على بال، تراب تدفعه وتهيّجه ريح مجنونة ثائرة، حتى أنها تنزع أسقف البيوت، وترفع الأطفال عن سطح الأرض من شدتها وقوتها، وفي أيام السبت، كل الفقراء المولدين ذوي الأصول المخلطة يتركون، في صخب وجلبة، حظائرهم وعششهم المبنية بورق الكرتون والصفيح، وتطل على المستنقعات والبرك الآسنة، نعم يتركون عششهم بما فيها من حيوانات أليفة وأشيائهم الكالحة، التي تستعمل للأكل والشرب، وفي غمرة من السعادة والسرور يتجهون صوب شواطئ المدينة وسواحلها كثيرة الحجارة، وقد تجد بين أكبرهم سنا من يحمل، منذ وقت ليس ببعيد، على صدره العلامة المميزة للعبيد الملكيين، تم طبعها على جلدهم بقطع من الحديد المشتعل، وفي نهاية الأسبوع يقيمون حفلات راقصة لا رحمة فيها ولا هوادة، فيسكرون ويثملون عن آخرهم بخمرهم الذى أعدوه في عششهم، ويمارسون الحب كيفما شاءوا ودون رقابة من أحد وسط أدغال شجيرات البرقوق الأبيض، وحين ينتصف ليل يوم الأحد تجدهم منهمكين في رقص صاخب دموي، حيث تجد الكل يصارع بعضه بعضا، والزحام هو هو نفس الزحام، والناس هي هى الناس نفسها، لا تغيير ولا تبديل، زحام عنيف كالسيل الجارف يحصد كل شيء، أكوام من الناس تظل بقية الأسبوع تنساب بين الميادين، وأزقة الأحياء القديمة، بما فيها من حانات ريفية، يبيعون ويشترون منها. هم أناس ينشرون في تلك المدينة الميتة جوا من أجواء المعارض البشرية، فسكان المدينة يحسون بأنهم يشمون رائحة السمك المقلي. إنها الحياة الجديدة يا سادة.

وكان ما كان، فحين تحررت المدينة من سيطرة الإسبان، وبعدما تخلصت من ربق الاستعباد والعبودية، واختفت تجارة الرقيق فيها، كل هذا عجّل بالانهيار المشرّف للمدينة، وفي هذا الجو وُلد وترعرع الدكتور خوبينال أوربينو، ولجأت العائلات العريقة إلى قلاعها وقصورها، معطلة الزينة، لتنعزل بداخلها في هدوء وسكون، وفي الزوايا والعطفات الحادة، التي تتميز بها شوارعها المرصوفة تجد بها آثار ما خلفته الحروب وقراصنة البحار، وحتى الأشجار والنباتات استحكمت على شرفات البيوت، فتجد الشروخ والشقوق في حوائطها الجيرية، بل وقد تجدها أيضا في البيوت القوية، متينة البنيان، والشيء الوحيد الذي قد يعطيك إشارة بوجود حياة هناك هو بصيص من أصوات البيانو، قد تبلغ أذنيك في وقت القيلولة عند الساعة الثانية بعد الظهر. وداخل غرف النوم، المشبعة برائحة البخور، في هذه البيوت، تجد النساء يحتمين من أشعة الشمس كأنهن يتحاشين وباء معديا، وحتى حين يذهبن إلى القدّاس في الصباح الباكر تجدهن يضعن أغطية على وجوههن، أما ما يدور في هذه المدينة من حب وعشق فبطيء الحدوث ومعقد للغاية، وكثيرا ما يعكر صفو هذا الحب ويكدره ما يعتريه من شرور وآثام وأمور ذات فأل شر، فهم يرون أن الحياة مستمرة، ولا يمكن أبدا أن تتوقف في يوم ما، وحين يأتي المساء، في تلك اللحظة التي تأذن فيها الشمس بالمغيب، تتصاعد من المستنقعات جحافل الناموس تشن هجومها على الأخضر واليابس، ثم تهب ريح لينة دافئة حزينة فيها من رائحة المخلفات الإنسانية، ريح تعيد إلى المدينة يقين الموت المحتم.

الحياة الخاصة بهذه المدينة، التي كان الدكتور خوبينال يرفعها إلى قمة المثالية أيام شبابه ولياليه الكئيبة في باريس، كانت وقتها وهما من أوهام الذاكرة، فحينها، في القرن الثامن عشر، كانت المدينة تشهد أزهى عصورها في التجارة والربح على مستوى الكاريبي بأسره، خاصة لأن بها أكبر سوق

لتجارة العبيد الأفارقة في الأمريكتين، كما أنها أيضا كانت الملاذ والملجأ والمقام لنواب الملك التابعين لـ»مملكة غرناطة الجديدة»، الذين فضلوا أن يحكموا من هناك، فالمدينة تطل على أكبر محيط في الأرض، لذا فضلوها على عاصمتهم البعيدة الباردة، حيث تهطل عليها منذ قرون زخّات خفيفة من المطر مما جعلها بعيدة كل البعد عن الواقع، ولأكثر من مرة في العام تتمركز في خليجها مراكب شراعية على متنها ثروات مدن «بوتوسي» و»كيتو» و»بيراكروز»، حينها كانت البلدة تعيش أزهى سنواتها بلا استثناء، وفي الساعة الرابعة عصرا من يوم الجمعة الموافق الثامن من شهر يونيو عام ١٧٠٨، حدث أن مركب مدينة «سان خوسيه»، التي أقلعت للتو من هناك إلى كاديث في إسبانيا محملة بأنفس أنواع الأحجار الكريمة والمعادن القيمة بما يعادل قيمته نصف مليون بيزو، في تلك الحقبة، حدث أن أسطولا إنجليزيا قام بإغراق هذه المركب عند مدخل الميناء، ومر قرنان من الزمان لم يحاول أحد انتشالها من قاع البحر، وبين الشعاب المرجانية استقرت تلك الثروة الضخمة، ومعها قائد المركب، حيث تبرز نصف جثته من كابينة القيادة بها، والتي يعتبرها المؤرخون شعارا لتلك المدينة الغارقة في الذكريات.

على الجانب الآخر من الخليج، في ذلك الحي السكني، المسمى «لامانجا»، كان بيت الدكتور خوبينال أوربينو يحيا حياة أخرى مختلفة تمام الاختلاف. البيت فسيح كبير جيد التهوية، يتكون من طابق واحد، وفي فنائه تجد رواقا مزينة أعمدته على الطريقة «الدُوريّة» القديمة، ومن هناك تجد روائح العفن والهباب وأسماك الأسقُمري الميتة الآتية من الخليج، وأرضية البيت كانت مغطاة ببلاط أسود وأبيض على شكل رقعة الشطرنج، من أول باب الدار حتى المطبخ، ولأكثر من مرة يؤولون سبب هذا الشكل والطراز لرغبة الدكتور خوبينال أوربينو، وهم لا يعرفون أن هذا الطراز كان اتجاها شائعا بين أساتذة الفن الكاتالوني الإسباني، الذين أنشأوا، في أوائل ذلك القرن، هذا الحي من أجل الأغنياء الجدد، أما الصالة ففسيحة واسعة الأرجاء وسقفها

مرتفع كباقي أسقف البيت، وبها ست نوافذ كلها تطل على الشارع، ويفصلها عن غرفة الطعام باب أثري ضخم مصنوع من الزجاج مزيّن برسومات على شكل أغصان وعناقيد من الكروم، ورسومات تصور عذراوات اغتالهن إله الريف بمزماره وسط غابة مزخرفة بالبرونز، وكل قطع الأثاث في البيت، من أولها إلى آخرها، صناعة إنجليزية أصيلة من أواخر القرن التاسع عشر، حتى تلك الساعة، ذات البندول، كأنها حارس حي يسهر على حراسة البيت، والمصابيح المعلقة مصنوعة من تراب البلور الصخري، وفي كل موضع من هذا البيت تجد الجرار الفخارية والزهريات المصنوعة في بلدة «سيفير» بفرنسا، والتماثيل الصغيرة المصنوعة من الرخام الأبيض، والتي تصور ما بين العشاق من مناجاة وعشق، ولكن كل هذه المظاهر الأوروبية المتلاحمة ليس لها أثر في بقية غرف البيت، حيث تجد فيها الأرائك المصنوعة من خشب الصفصاف مكومة مع تلك الكراسي الهزازة، ذات الطراز الفيني، وغيرها من كراسي بلا ظهر مصنوعة محليا. وفي غرف النوم الموجودة في البيت تجد، بالإضافة إلى الأسرّة، ناموسية بديعة الصنع تم جلبها من بلدة «سان خاسينتو»، وعليها اسم مالك الدار، الذي تم تطريزه بحروف ذات طابع «قوطي»، وبخيوط من الحرير الصافي، مُحلّى بحواشٍ ذات ألوان مختلفة، وثمة مساحة خالية في الدار بجانب غرفة الطعام مخصصة لإقامة حفلات العشاء الفاخرة، ولكنها استغلت كصالة صغيرة لعزف الموسيقى، حيث تقام فيها حفلات موسيقية، خاصة حين يكون هناك بعض المشاهير المهمين. أرضية الغرفة غُطيت بسجاجيد تركية تم شراؤها من «معرض باريس الدولي» كي تضفي على المكان جوا من الهدوء والسكينة، كما أن هناك فونوغرافا، حديث الصنع، بجانبه رف رصت عليه الأسطوانات الموسيقية بعناية فائقة، وفي أحد الأركان تجد بيانو وضع عليه مفرش مانيلي الطراز، بيانو منذ سنوات لم يعزف عليه دكتور أوربينو البتة، ولم يلمسه حتى. وفي كل موضع من البيت تحس بآثار بصمات وأرجل سيدة كان لها من العناية والترتيب والاهتمام شأن، وأي شأن.

مع ذلك، فليس ثمة مكان آخر في هذه البلدة ينافس في عظمته عظمة مكتبة الدكتور خوبينال أوربينو الموجودة في بيته، فهى صومعته وملاذه وحرزه الأمين، حيث كان ينعزل فيها ويتعبد مع الكتب قبل أن تفترسه الشيخوخة. وفي غرفة المكتبة، تجد حول منضدة المكتب الخاص بوالده، المصنوعة من خشب الجوز والمقاعد الجلدية الوثيرة، رفوفا زجاجية ثُبتت على جدران الغرفة كلها، وحتى النوافذ وضع عليها المزيد من الرفوف، وعليها رُص ثلاثة آلاف كتاب رصا إلى العته والبلاهة أقرب. والكتب يكاد يكون جميعها نفس الشكل واللون، تم تجليدها من جلد الماعز، وعلى حافة كل كتاب تجد الحروف الأولية من اسمه وعنوانه.

وعلى النقيض تماما، حين تجد بقية غرف الدار تحت رحمة ما حل بها من الأنقاض والأواني المكسورة، وتلك الروائح الكريهة الآتية من الخليج، تجد غرفة المكتبة هي الوحيدة، ما إن تدخلها تصل إلى أنفك رائحة الأديرة والمعابد وتحس بروحك تسمو.

وعموما فالدكتور خوبينال وزوجته ولدا وعاشا تحت رحمة تلك الخرافة الكاريبية، التى تقول إنه لابد من فتح الأبواب والنوافذ كي يدخل إلى الدار الهواء العليل المنعش، الذي هو أصلا غير موجود، وواجها في ذلك مشقة، وأي مشقة تحت هذا القيظ الحارق وهما في بيتهما، الذي كان وقتها كأنه القبر بكل تفاصيله، إلا أنهما اقتنعا أخيرا بالحيل الرومانية لمواجهة الحر، ففي ساعات النهار كان يغلقان كل النوافذ والشبابيك كي يدفعا عن البيت هباب ولفيح شهر أغسطس فلا يدخله الهواء الساخن الآتي من الشوارع، ثم إذا جاء الليل يشرعان كل النوافذ بلا استثناء ليدخل هواء الليل العليل إلى البيت، وعلى هذا، كان بيتهما الأكثر طراوة في شهور الصيف، حيث الشمس الحارقة، التي تتسم بها «لامانجا»، ويا له من محظوظ من ينم بساعة في هذا البيت، يا له من محظوظ من يجلس على عتبة الدار يراقب سفن الشحن رمادية

اللون الآتية من نيو أورليانز تنوء بثقل ما فيها من أحمال وبضائع، والبواخر النهرية ذات العجلات الخشبية الكبيرة بأضوائها الباهرة ليلا، حيث تسير هذه البواخر مبددة هذا السخم والبخار الممتلئ به الخليج بما تهدر به من أصوات موسيقية صادحة، وهو هو البيت نفسه، الذي يعد الأفضل على الإطلاق في الفترة ما بين ديسمبر إلى مارس، حين تهب الريح آتية من الشمال لتقتلع أسقف البيوت وأسطحها، ومن يكون هناك في هذه الفترة يجد الريح وكأنها ذئاب جائعة تهيم حول الدار بحثا عن فتحة لتدخل منها، ولا أحد البتة في هذا المكان قد يخطر له على بال أن زواجًا مستقرا مثل هذا يقوم على دعائم وأسس متينة قد يكون سببا من أسباب التعاسة والحزن.

على كل، ففي ذلك الصباح لم يكن الدكتور أوربينو بخير. عاد إلى بيته قبل الساعة العاشرة، وهُد جسده وحيله من مشواريه، اللذين قام بهما، واللذين لم يضيعا عليه فقط قدّاس العَنصَرة، وإنما كانا كفيلين بتغييره تغييرا شاملا في عمر كل شيء فيه قابل للاستهلاك والذوبان بسرعة فائقة. أراد أن ينام قيلولة قبل أن يذهب للمأدبة الفاخرة في بيت الدكتور لاسيدس أوليبيا، ولكنه ما إن نوى على هذا، وإذا به يجد الاضطراب والجلبة يعمان أرجاء البيت، فالخدم هاجوا وماجوا ليمسكوا بالببغاء، الذي طار إلى أعلى غصن من شجرة المانجو، حينما كانوا يخرجونه من القفص كي يقصوا له ريشه. وهذا الببغاء، عجب وأي عجب، فهو مهووس ومنتوف الريش، لا يتكلم إلا إذا حلا له الكلام، وفي أوقات غير متوقعة البتة، ولكنه حين يتكلم، تسمع عجبا، تسمع كلاما واضحا وعاقلا، كلاما من المستحيل أن تجد له نظيرا بين بني البشر أنفسهم، ومن قام بترويضه وتعليمه هو الدكتور أوربينو نفسه، وكلفه الأمر شططا، كلفه الأمر من ذكائه وفطنته ما لم يتكلفه مع أي فرد في العائلة، أو حتى مع أبنائه في طفولتهم.

هذا الببغاء في هذه الدار منذ أكثر من عشرين عاما، ولا أحد يعرف كم عاما عاش قبل ذلك. في كل مساء كان الدكتور أوربينو، بعد الاستيقاظ من

قيلولته، يجلس معه عند التراس الموجود في فناء الدار، الموضع الأكثر طراوة في البيت كله، وهناك تجده كأنما يستدعي ما كان في جوفه من أساليب تعليمية صارمة قوية، ليستأنفها مع هذا الببغاء، وظل معه حتى أجاد اللغة الفرنسية تماما كما يجيدها الأكاديميون الضليعون في اللغة وأسرارها، ولأسباب بعيدة تماما عن الدين والفضيلة، علم ببغاءه تلاوة الصلوات والأدعية باللغة اللاتينية، وبعض الآيات الموجودة في إنجيل القديس متّى، وأيضا حاول أن يعلمه بطريقة ميكانيكية القيام بالعمليات الحسابية الأربعة، ولكن للأسف لم تفلح محاولته، وفي إحدى رحلاته الأخيرة إلى أوروبا جلب معه أول فونوغراف، ومعه بوقه الكبير، وأشهر الأسطوانات الموسيقية في ذلك الحين بما فيها أسطوانات مسجل عليها كلاسيكيات الألحان المفضلة عنده، ويوما إثر يوم، ومن حين لآخر كان يجبر ببغاءه على سماع أغاني يوفيت جيلبيرت وأريستيد برونات، المطربين اللذين كان لهما أكبر فضل في إمتاع فرنسا بأسرها في القرن الماضي، وراح يلقنه كل هذه الأغاني إلى أن حفظها الببغاء عن ظهر القلب.

والببغاء يغني هذه الأغاني بصوت المرأة، إذا كانت الأغنية في حاجة إلى ذلك، وإذا كان العكس فتجده يغني بصوت رجولي هادر، ثم في الآخر إذا به ينهي الأغنية بقهقهات قوية في خلاعة ورعونة عجيبة، لم تكن إلا صدى، طبق الأصل، لضحكات الخادمات حين يسمعنه يغني بالفرنسية، وانتشر صيت هذا الببغاء المدهش انتشار النار في الهشيم، حتى أن شهرته وصلت لأماكن بعيدة كل البعد، فتجد أناسا من أماكن مختلفة جاءوا عبر البواخر النهرية يطلبون الإذن لرؤيته، وفي مناسبات أخرى قد يصر أحد هؤلاء السياح الإنجليز، الذين يأتون المدينة، على شراء الببغاء أيا كان ثمنه، ويأتي هؤلاء السياح عبر سفن شحن الموز القادمة من نيو أورليانز، والتي كانت منتشرة في ذلك الوقت، ومع ذلك، كل هذا لم يكن شيئا بالنسبة لهذا اليوم، اليوم الذي جاء فيه رئيس الجمهورية نفسه، السيد ماركو فيدل سواريث، ومعه جميع وزراء حكومته

ليشاهدوا بأنفسهم حقيقة شهرة الببغاء. في ذلك اليوم وصلوا الدار في الساعة الثالثة عصرا في زيارة رسمية، مختنقين مما يلبسونه من بذل وقبعات رسمية مصنوعة من الصوف، فقد ظلوا على هذا اللبس لنحو ثلاثة أيام متواصلة تحت شمس أغسطس الحارقة، وللأسف الشديد عادوا بخفي حنين، فالببغاء رفض رفضا باتا في إباء وشمم أن يفتح منقاره لساعتين متواصلتين، رغم ما أغدقه عليه الدكتور أوربينو من توسلات وتهديدات، وما فيه من إحراج عظيم أمام هذا الملأ، وكان الدكتور أوربينو عاند تحذيرات زوجته أشد العند، وصمم كل التصميم على هذه الدعوة الجريئة الجسورة.

وكان ما كان، لم يعد للببغاء بعد تلك الوقاحة التاريخية من مزايا وعناية خاصة، فما فعله كان إيذانا له بانتهاء خصوصياته المقدسة، وأصلا لم يكن يُسمح بوجود حيوان آخر في البيت، اللهم إلا تلك السلحفاة الأرضية، التي عادت مرة أخرى إلى الظهور في المطبخ بعد ثلاثة أو أربعة أعوام من الغياب ظنا منهما أنها ضاعت بلا رجعة، ولكن ليكن في الحسبان أن هذه السلحفاة لم تكن تعتبر ككائن حي في دارهما، وإنما هي تميمة حظ بالنسبة لهما، وأبدا لم يكن معلوما عند أحد أين تسير تلك السلحفاة العجيبة، وكان الدكتور أوربينو يعترف باستمرار بأنه ما عاد يحب الحيوانات مطلقا، فهو يكرهها جميعا، وكان يعلن عن مقته لها في شكل أساطير علمية، وذرائع كانت تقنع الكثير ممن يسمعونه، إلا زوجته لم تقتنع البتة، فهو يقول: إن من يفرط في حب الحيوانات قادر على أن يكون قاسيا أشد القسوة مع البشر، كما يقول: إن الكلاب ليست وفيّة ولا أي شيء من هذا القبيل، وإنما هي ذليلة مطيعة لمن يعطف عليها، والقطط حيوانات انتهازية غدارة، والطواويس ما هي إلا رسل الموت، والببغاء مجرد زينة ومنظر فقط، والأرنب حيوان يحث على الطمع والشره والطفاسة، والقرود لم تخلق إلا لتعدينا بحمّى الدعارة والفجور والتبذير، كما أن الديك ملعون لأنه قبل برفض السيد المسيح ثلاث مرات متتالية.

وعلى النقيض، زوجته فيرمينا داثا، التي كانت تبلغ من العمر حينئذ اثنين وسبعين عاما، وفقدت ما كان لديها في الماضي من خفة ورشاقة الظباء، وكانت بطبيعتها تعشق بجنون الورود والأزهار الاستوائية والحيوانات الأليفة، وفى بداية زواجهما استغلت ما في حبهما من عنفوان وقوة وراحت تحشر بيتها بكل أنواع الأزهار والحيوانات، ملأت بيتها بأكثر مما يسمح به أي عقل. وأول تلك الحيوانات، التي دخلت البيت، ثلاثة كلاب مرقشة كل منها كان يحمل اسما من أسماء الأباطرة الرومانيين، وكانت هذه الكلاب تتطاحن فيما بينها نزاعا على كلبة أنثى كان لها الشرف أن تحمل اسم الإمبراطورة الرومانية «ميسالينا»، ما تلبث أن تلد تسعة جراء لتحمل في عشرة آخرين، وهكذا، ثم جاءت إلى البيت القطط الحبشية، ذات الطابع الفرعوني، والوجه الذي يشبه وجه النسور، ثم القطط السيامي، التي بعينيها حول ملحوظ، ثم القطط الشيرازي الملكية ذات العيون المائلة إلى اللون البرتقالي، كل هذه وتلك كانت تسيح ليلا بين غرف الدار وخلفها أشباحها المخيفة، لم يقف أمرها عند هذا الحد، فهى على الدوام تموء مواءً فظيعا أثناء ممارستها الحب وجنونه، ولسنين طويلة كان هناك في فناء الدار قرد مربوط من وسطه في شجرة المانجو. وكان القرد يحظى بمعاملة خاصة لما في ملامحه من شبه كبير بملامح المطران أوبلديو إي ري، ففي عينيه نفس براءته، وإشارات وحركات يديه هي هى حركات يدي المطران وإشاراتها، ولكن هذا لم يكن سبب تخلصها منه، وإنما لعادته البذيئة في الاستمناء عند رؤيته السيدات اللائي يأتين إلى البيت.

وأيضا، في هذا البيت، كل نوع ونسل من الطيور، طيور من جواتيمالا في أقفاصها الخاصة ببائعيها، طيور الكروان المنذرة بالشر، وطيور مالك الحزين، التي نجدها عند المستنقعات بسيقانها الصفراء الطويلة، كما كان هناك غراب صغير السن، كثيرا ما يطل من خلال الشباك كي يأكل زهرات البشروش الموضوعة في الزهريات، وقبل الحرب الأهلية الأخيرة بقليل، حينئذ كان

يدور بين الناس كلام حول احتمال زيارة البابا إلى البلدة، أحضرا من جواتيما لا طائر الجنة، الذي تأخر كثيرا ليذهب إلى هناك، أكثر من المدة التي قد يستغرقها ليعود إلى بلاده، وبعد حين عُلم أن زيارة البابا مجرد شائعة من الحكومة كي ترهب هؤلاء الأحرار المتآمرين، ومرة أخرى اشتريا من المهربين، الذين يأتون من بلدة كوراثاو، وهما على متن إحدى المراكب الشراعية، قفصا به ستة غربان لهم رائحة حلوة عطرة، وكانت هذه الغربان تشبه تماما الغربان التي كانت في بيت والدي فيرمينا داثا، والتي أرادت أن تظل محتفظة بها في بيت زوجها. على كل، لم يطق أحد ما كانت تصدره كل هذه الحيوانات من صخب وجلبة مستمرين بلا انقطاع، تحوم حولهم جميعا رائحة الموت والموتى، والغريب أنهما أيضا جلبا إلى بيتهما «أناكوندا» يبلغ طولها أربعة أمتار، كان مجرد فحيحها المفترس المرعب يبدد عتمة وسكون غرف النوم، رغم هذا حققت « الأناكوندا» ما كانا يرجوانه، فما كان يخرج من فمها من ريح مميتة كان كفيلا بإخافة وإبعاد الخفافيش، وسمندل الماء، وتلك الآلاف المؤلفة من الحشرات الضارة، التي تجتاح البيت في شهور الأمطار. وكان الدكتور أوربينو وقتها شديد الانشغال بمهامه الوظيفية، وشديد الجنون بترقياته الوطنية والثقافية، كان يكفيه أن يكون أمامه، من بين كل تلك الوجوه الكاريكاتورية البغيضة إلى نفسه، وجه زوجته، فهي لا تعد فقط الأجمل على مستوى الكاريبي، وإنما الأكثر سعادةً وبهجةً ومرحا، ولكن ذات مساء، حين عاد إلى البيت بعد يوم عمل مضنٍ، إذا به يجد نفسه أمام كارثة مروعة جعلته يدرك حقيقة ما فيه. وجد من أول صالة استقبال الضيوف حتى نهاية مدى بصره جحافل من الحيوانات الميتة تسبح فوق نهر من الدماء، ووجد الخدم فوق الكراسي لا يدرون ما يفعلون، فما زالت آثار الذعر والهلع تغطي وجوههم.

وأصل الحكاية أن كلبا ضخما من تلك الكلاب، التي تسمى «درواس»، تملكته حالة من السعار الشديدة المفاجأة، وإذا به ينقض على أي حيوان يجده أمامه، إلى أن تجرأ بستاني حديقة الدار المجاورة، وقتله شر قتلة، ولم يكن

معلوما كم حيوانا عضه الكلب أو غرس أسنانه فيه وترك لعابه الأخضر المقزز على جسده ، ولهذا أمر الدكتور أوربينو بقتل جميع ما بقي من الحيوانات ، وإحراق جثثهم في مكان بعيد عن الناس، ثم طلب من العاملين في مستشفى «لا ميسركورديا» تطهير البيت كله. الحيوان الوحيد الذي استثنوه من كل هذا هي تلك السلحفاة الذكر الجالبة للحظ.

وفي الواقع، لأول مرة تعذره زوجته في أمر من أمور البيت، حتى أنها حرصت كل الحرص على عدم التفوه ولو بكلمة عن الحيوانات وسيرتها ولمدة طويلة جدا، وبدلا من ذلك كانت تسلّي نفسها بالنظر إلى الصور الملونة الخاصة بكتاب «تاريخ الطبيعة» لعالم النبات والطبيعة كارل لينيه، فكانت تضعها في إطار وتعلقها على جدران الصالة، ولكن ربما انقطع أملها في وجود أي حيوان مرة أخرى داخل بيتها، حتى بعد دخول بعض اللصوص للبيت عبر نافذة الحمام، وسرقتهم طقم الطعام الفضي، الذي كان موروثا منذ خمسة أجيال. وضع الدكتور أوربينو أقفالا مزدوجة على كل نافذة، وثبّت كل باب في البيت من الداخل بعوارض من الحديد، وحفظ كل ما له قيمة في صناديق حديدية، وأخيرا اكتسب عادة النوم وتحت وسادته مسدس، ولكنه أبى أشد الإباء شراء كلب شجاع، سواء أكان مطعما أو لا، حر الحركة أو مقيدًا، رغم أن هذا قد يعرضه للقتل من قبل اللصوص.

– هذا البيت لن يدخله أبدا كائن لا يتكلم.

قال هذا كي ينهي تلك المهاترات الفارغة من قبل زوجته لتقنعه بشراء كلب، قال هذا وهو لا يدري أن تعميم كلامه بهذه العجلة قد يكلفه حياته نفسها، والتقطت زوجته، التي بدأت حدة شخصيتها وانطوائيتها تخفان مع الوقت، زلة اللسان تلك، التي فلتت من فم زوجها: فلم يمر بضعة شهور على تلك السرقة إلا وذهبت إلى المراكب الشراعية، التى تأتي من كوراثاو، وعادت ومعها ببغاء ملكي من «باراماريبو» لا يتفوه إلا بأقذع ما يقوله البحارون من

السباب وفاحش القول، ولكنه كان ينطقها بصوت لا يشك كل من يسمعه أنه صوت بشري، مما كلفها ثمنا باهظا، كلفها اثني عشرة سنتابو، العملة الخاصة بهذه البلاد.

وكان ذلك الببغاء من السلالات الجيدة النادر وجودها، وأكثر رعونةً وطيشا مما بدا عليه، رأسه أصفر اللون، ولسانه أسود كالح، وهذه هي الطريقة الوحيدة لتمييزه عن ببغاء المنغروف، الذي لا يتعلم الكلام أبدا حتى ولو وضع فيه لبوس مليء بزيت التربنتين، وأخيرا رضخ الدكتور أوربينو واستسلم لذكاء زوجته، فقد تعجب أيما عجب من خفة دم هذا الببغاء، وما يبديه من تطور وذكاء، خاصة حينما يفزع من الخادمات الموجودات في الدار، وفي الليالي الممطرة، حين ينتشي الببغاء جزلا وفرحا بريشه المبلل بماء المطر، حينئذ تجده يتفوه بجمل غريبة لا تنتمي البتة إلى زماننا هذا، الأمر الذي يعطي انطباعا بأنه أكبر سنا مما يبدو عليه، ثم حدث أمر جعل الطبيب يعتزل تماما هذا التحفظ، الذي كان يبديه للببغاء، فذات ليلة حاول بضعة لصوص التسلل إلى البيت عبر كوة في سطحه، فإذا بالببغاء يفزعهم أشد الفزع بنباح يشبه نباح كلاب «الدرواس» الضخمة، وكل من يسمعه يحسبه فعلا نباح كلب حقيقي ولا يخطر بباله قط أنه مجرد تقليد ببغاء، ولم يكتفِ الببغاء بهذا فقط، وإنما أخذ يصيح بكل قوة: لصوص لصوص لصوص، وكلاهما فضيلتان لم يتعلمهما الببغاء في البيت. حينئذ قرر الدكتور أوربينو أن يهتم بالببغاء بنفسه، وأمر بوضع رف عند أسفل شجرة المانجو، وعليها وعاء من الماء، وآخر ليوضع فيه الموز الناضج، كما أمر بوضع عقلة في الشجرة تُربط بحبل كي يتمرجح عليه الببغاء، ومن شهر ديسمبر إلى مارس، حين تشتد البرودة ليلا ويصير النوم في العراء أمرا لا يمكن تحمله بسبب تلك الريح الآتية من الشمال، يأخذه الدكتور أوربينو، ويضعه في غرفة النوم في قفص مغطى ببطانيّة تقيه شر البرد وقسوته، والدكتور يفعل هذا رغم شكه وارتيابه في

أن وجوده يوميا هكذا قد يكون خطرا على صحة الجهاز التنفسي للإنسان، ولسنين طويلة كانوا يقصون ريش جناحيه ويتركونه يسرح ويمرح كيفما شاء في أركان الدار ويسير في أرجائه كأنه فارس عجوز أعرج طحنته الأيام والسنون، وذات يوم إذا به يقوم بحركات بهلوانية عند نافذة المطبخ، ثم يسقط في حلة تموج بمرق اللحم المسلوق، ومن منقاره هذا أخذ يطلق العديد من صرخات الاستغاثة، التي نسمعها عند البحر، ولحسن حظه أدركته الطباخة وانتشلته بالمغرفة، وكان طبعا في حالة يرثى لها، منتوف الريش، أحمر اللون من تلك السخونة التي وقع فيها، ولكنه رغم هذا حي يُرزق، ومنذ ذلك الحين، وهم يحجزونه في القفص حتى في ساعات النهار العادية، فعلوا هذا رغم معرفتهم بالاعتقاد الشعبي بأن حبس الببغاء قد يفضي به إلى نسيان ما تعلمه قبلا، وكانوا يخرجونه فقط إلى تراس الدار في حدود الساعة الرابعة، بعد أن يلين الجو ويصفو الهواء كي يلقي الدكتور أوربينو دروسه عليه. وبمرور الوقت لم ينتبه أحد إلى ما اكتسباه جناحاه من طول زائد عن اللازم، إلى أن جاء هذا الصباح، وقرروا أن يستعدوا لقص ما طال من جناحيه، وحينئذ هرب إلى أعلى موضع في شجرة المانجو.

ولثلاث ساعات كاملة لم يستطيعوا الوصول إليه، ولجأ الخدم، بمساعدة بعض الجيران، إلى كل لون وشكل من أشكال الحيل والخدع كي ينزلوا هذا الببغاء العنيد، ولم تفلح أي من محاولاتهم الماراثونية تلك، فهو ما زال في مكانه لا يريم، يصيح بصوت مشوب بضحك صاخب «يحيا حزب الأحرار، تبا، يحيا حزب الأحرار»، وبصرخات متهورة وجريئة إلى حد لو سمعه أربعة سكارى سعداء، لماتوا من فورهم، وبمجرد أن ميزه الدكتور أوربينو من بين أغصان وأوراق المانجو، راح يحاول إقناعه بكل السبل، بالإسبانية والفرنسية، وحتى باللاتينية، والببغاء لا يقوم إلا بالرد على ما يقوله بنفس اللغة نفسها، وبدرجة الصوت نفسها، والنبرة ذاتها، التي يستعملها الدكتور أوربينو، دون أن

يتحرك قيد أنملة عن موضعه، ولما وجد الدكتور أنه لم يقنعه أحد بالحسنى قرر اللجوء إلى رجال الإطفاء، الذين هم ألعوبته الجديدة والمفضلة لديه.

فمنذ وقت ليس ببعيد، كان من يطفئ الحرائق، التي تشب في المدينة أناس من المتطوعين يصعدون على سلالم العمال وبجرادل الماء يحاولون إطفاء النار إلى حيث تبلغ أيديهم، وبالطبع يتسبب ما يفعلونه في أضرار وتلفيات أكثر من الحريق نفسه، ولكن منذ العام الفائت تقريبا، وبفضل التبرعات وإعانات جمعية «تطوير المجتمع»، التي يعد الدكتور أوربينو رئيسا شرفيا لها، صار هناك فريق كامل من الإطفائيين المحترفين، له شاحنة بها صهريج ماء، وإنذار، وأجراس، وخرطوم ضغط عال. انتشر خبر الفريق وذاع صيته في البلدة كلها حتى أن المدارس كانت توقف حصصها بمجرد أن يسمعوا أجراس الكنيسة تدق دقات الخطر كي يذهب الأطفال ويرون الإطفائيين وهم يصارعون لإطفاء النيران، وكان هذا عملهم في البداية، ولكن ما فتئ أن حكى لهم الدكتور أوربينو عن رؤيته لرجال الإطفاء في بلديات هامبورج يقومون بإنقاذ طفل وجدوه محبوسا في قبو الدار لثلاثة أيام كان البرد فيها على أشده. كما حكى أنه شاهد رجال الإطفاء في أحد الأزقة في نابولي ينزلون رجلا ميتا بداخل تابوته من شرفته الموجودة في الطابق العاشر، فسلالم المبنى كانت ملتوية للغاية لدرجة لا تستطيع عائلته الخروج بهذا التابوت وبداخله الجثة إلى الشارع، وهكذا صار الإطفائيون المحليون هناك في البلدة يقومون بخدمات أخرى طارئة، مثل فك الأقفال أو قتل ثعبان سام، كما قامت «مدرسة الطب» بإعطائهم دروسا خاصة في كيفية القيام بالإسعافات الأولية في الحوادث البسيطة. معنى هذا أنه ليس من السخافة والحمق أن يُطلب منهم القيام بإنزال هذا الببغاء من فوق قمة الشجرة، وهذا لما لهذا الببغاء من أفضال كثيرة واستحقاق وجدارة لا يطولها حتى الفارس النبيل. قال لهم الدكتور أوربينو: «قولوا لهم أنكم من طرفي»، ثم ذهب إلى حجرة نومه ليرتدي زيا

لائقا بحفل الغداء، الذي سيذهب إليه. وفي الواقع، هو في تلك اللحظة كان لا يعنيه البتة أمر ذلك الببغاء لتأثره الشديد برسالة خيريميا ديه سانت-أمور.

وارتدت زوجته، فيرمينا داثا، قميصا حريريا فضفاضا، وتركته حرا بطوله، الذي يصل إلى الأرداف، كما زينت عنقها بعقد من اللؤلؤ البراق مقسّم إلى ستة عقود طويلة، وغير متساوية، ووضعت في قدميها حذاء أطلسي الصنع ذا كعب عالٍ لا تلبسه إلا في المناسبات عالية المقام، ولهذا فعلى الرغم من تلك السنين الطويلة إلا أن الحذاء ما زال جديدا كما هو، ولكن كل هذه الفخفخة العجيبة في موضة لبسها لم تكن مناسبة البتة لعجوز شمطاء في مثل هذا العمر، إلا أنها كانت تليق بها، لكونها طويلة، رفيعة، مستقيمة العود، ويداها خاليتان تماما من تلك البقع الجلدية، التي يتسم بها كبار السن، وشعرها الفضي الأزرق مقصوص بشكل مائل على طول خديها، وفقط ما تبقى فيها من صورة زفافها هو عيناها اللوزيتان الشفافتان، وشموخها وغطرستها اللذان ورثتهما جدا عن جد، فإن كان الزمن أخذ منها أشياء إلا أنه عوضها بشخصيتها وحميتها العالية، بل هي سعيدة وراضية على أكثر ما يكون، فها قد ولّى زمن الكورسيه الحديدي والخصر المخنوق والأرداف العالية بما تضعه المرأة من خرق وحيل، وها هي أجساد النساء الآن حرة، تتنفس كما يحلو لها، وليكن ما يكون، ولا ننسى أنها امرأة في الثانية والسبعين من عمرها.

ووجدها الدكتور أوربينو جالسة أمام التسريحة، التى تعلوها المروحة الكهربائية الدائرة في بطء وتراخ، وتضع على رأسها قبعة كروشيه مزينة بقماش من الكاستور البنفسجي، وغرفة النوم كبيرة شديدة الإضاءة، فيها سرير إنجليزي محمي بناموسية وردية اللون، وفيها نافذتان تطلان على الأشجار الموجودة في فناء الدار، تحميه من هجوم حشرات الزيز، التي تبدو ذاهلة بعد تنبؤها بهطول الأمطار. وفيرمينا داثا، منذ عودتهما من رحلة زفافهما، وهى تختار وتنتقي ملابس زوجها وفقا للطقس وللمناسبة المطلوبة، ثم تضعها في

نظام على الكرسي من ليلة أمس، حتى يجد زوجها ما يريد لدى خروجه من الحمام، ولا تذكر منذ متى وهي تساعده في لبس ما يريده، ولا متى كان آخر مرة يلبس فيها وحده، ولكنها على كل حال كانت تقوم بهذا عن حب ووفاء، وحُتم عليها أن تقوم بذلك منذ خمس سنوات، فهو لم يعد لديه المقدرة ليلبس رداءه بنفسه، وحتى بعد أن احتفلا بعيد زواجهما الخمسين لا يقدران على فراق بعضهما ولو لحظة أو حتى يتخليان ثانية عن التفكير في بعضهما، وكلما تقدم العمر بهما عرفا وأدركا هذا بصورة أقل. لا هو ولا هي يعرفان إذا كانت تلك الخدمة المتبادلة فيما بينهما عن حب أم عن ارتياح وتعود، ولكن أبدا أبدا لم يسألا نفسيهما هذا السؤال، وكل منهما يده على قلبه، فكلاهما يؤثر دوما تجاهل الإجابة أيا كانت. ومؤخرا بدأت تلاحظ شيئا فشيئا ما طرأ على مشيته من عدم ثبات، وما يصيبه من اضطراب في المزاج، وذاكرته التي بدأت تضيع، وعادته الجديدة في الشهيق العنيف وهو نائم، ولكنها لم تأخذ كل هذا على أنه شيخوخة وكبر وخرف، بل تعاملت معه على أنه مجرد عودة إلى زمن الطفولة المرح، ولهذا لم تكن تعامله على أنه عجوز صعب المراس، وإنما هو مجرد طفل عجوز لا أكثر ولا أقل، وتلك الطريقة نفعتهما معا، فهما بهذا صارا بمنأى عن الشفقة وأضرارها.

شيء آخر بالغ الأهمية في حياة كليهما، فهما مع مرور الوقت عرفا بأنه يمكن تفادي الكوارث الزوجية الكبيرة بالتغاضي عن كل السفاسف الصغيرة، التي تحدث في كل يوم، وتعلما شيئا وعرفاه حق المعرفة، هو أن الحكمة لن تخيم عليهم بظلالها إلا بعد فوات أوانها، وعلى هذا كانت فيرمينا داثا تتحمل في صمت وألم، ولسنوات طويلة، ما كان يبدو من زوجها من ابتهاج واغتباط صباحي غريب، فحينها كانت تستموت بشدة على ما تبقى لديها من خيوط النوم، وكل هذا كي لا تكون وجها لوجه أمام مصيرها الصباحي المليء شؤما وشرا، بينما يستيقظ هو من نومه في براءة ومرح الأطفال، فكل يوم يأتينا هو يوم جديد نكسبه في حياتنا. تسمعه يستيقظ مع صياح الديكة، وأول ما يقوم

به ليدلل على أنه ما زال على قيد الحياة «كحة» غير معقولة أبدا، وغير واقعية تبدو كأن الغرض منها إيقاظها هي الأخرى. تسمعه يتأفف في غيظ ونفور، يتأفف لا لشيء إلا ليقلقها ويقلق نومها، بينما يتحسس برجليه الأرض بحثا عن «بُلغته»، التي لا بد أنها بجانب السرير، ثم تسمعه وهو يشق طريقه في حذر إلى الحمام وسط الظلام والعتمة، وبعد ساعة، قبل أن تعود للنوم مرة أخرى، تسمعه وهو يعود إلى الغرفة ليرتدي ملابسه وفي الظلام أيضا، وذات مرة وهو في الصالون سألوه كيف يقوم بكل ذلك وسط كل هذا الظلام، فيقول لهم: «أنا رجل يستطيع ارتداء ملابسه في الظلام الحالك»، وهى تسمع كل همسة تصدر منه وتعلم تمام العلم أن كل هذه الضوضاء لا حاجة إليها البتة، ويمكن تلافيها، وأنه يفعل هذا مدعيا العكس، وعلى هذا فهى أيضا تستيقظ، وكأنها ليست هناك، ودافعه وراء كل هذه التصرفات أن يوصل لها أنه لا يحتاج إليها كثيرا في مثل تلك اللحظات القلقة الصعبة، رغم حيويتها وذكائها.

لا أحد أكثر أناقة وجمالا منها، وهى نائمة، تنام واضعة يدها أسفل صدغها، ومن يراها يحسبها تقوم برقصة رشيقة ليس إلا، والويل كل الويل لمن يعكر صفو نومها حينها لا تكون تلك المرأة الوديعة الطيبة، بل تصير أشبه بالوحوش، والدكتور أوربينو يعرف جيدا أن أذنيها متنبهتان لأقل حركة يقوم بها، وأنها في واقع الأمر شاكرة له ما يفعله، بل هي تحب ذلك، لأنها تود فعلا أن ترمي ذنب إيقاظها في الخامسة صباحا على أحد، أيا كان، وأمر عادي الحدوث أنه كلما استيقظ، ولم يجد «بُلغته» في مكانها المعتاد تفاجئه بقولها، وهى بين النوم واليقظة: «لقد تركت «بُلغتك» هذه عند حوض الاستحمام ليلة أمس»، ثم تردف ، على الفور، وهى مستيقظة في حنق وغيظ:

- ألا يمكن النوم أبدا في هذا البيت؟!

وحينئذ تتقلب في عنف وقسوة على السرير، ومرة واحدة تضيء المصباح، سعيدة بما أحرزته من انتصار عليه في بداية يومها، ولم يكن هذا حقيقة سوى لعبة فيما بينهما، لعبة أسطورية شريرة، ولكنها في الوقت ذاته

تشد عزمهما وتثير فيهما نشاطا وقوة، فما هذه الألعاب التي بينهما إلا متعة خطيرة من متع الحب الأليف، ولكن حدث ما كان لا بد من حدوثه يوما، فذات مرة أوشكت إحدى ألعابهما التافهة السخيفة أن تدمر ما بينهما من عمر مديد قضياه معا امتد لثلاثين عاما، لعبة كان أساسها صابون الحمام.

كان يوما عاديا، بدأ روتينيا بسيطا. عاد الدكتور أوربينو إلى غرفة نومه، بعدما أخذ دشا بنفسه دون مساعدة من زوجته، وراح يلبس رداءه في الظلام، وهى لا تزال في خمولها الرتيب كأنها جنين في بطن أمه، عيناها مغمضتان، نفسها هادئ، ويدها أسفل رأسها، وكما ذكرنا، لم تكن إلا بين اليقظة والنوم كعادتها، وهو أيضا يعرف أنها ليست نائمة تماما، وبعد أن انتهى من لبس ردائه المصنوع من الكتان المنشّى، بعد ضجة وخربشات طويلة، إذا به يحدث نفسه قائلا بصوت مسموع:

- كأني لم أستحم بصابون لمدة أسبوع كامل.

حينئذ استيقظت واستعر ما فيها من غيظ مكتوم وغضب دفين، وتذكرت أنها فعلا نست إعادة الصابون إلى موضعه عند حوض الاستحمام، ولاحظت خطأها هذا منذ ثلاثة أيام، حين كان الصابون أسفل المرحاض، وفكرت في أن تعيده إلى مكانه، ولكنها نسيت حتى جاء اليوم التالي، وفي اليوم الثالث حصل الأمر نفسه. الأمر فقط أخذ ثلاثة أيام، وليس أسبوعا كما يقول مهولا من الأمر، ثلاثة أيام هي كل ذنبها، أيكون ثلاثة أيام خطيئة منكرة إلى هذا الحد؟! وما لبثت أن خرجت عن طورها من شدة الغيظ، وراحت تدافع عن نفسها بهجوم عنيف، وصاحت به مزمجرة في حدة وغضب:

- الغريب أنني استحممت كل هذه الأيام، ودائما ما أجد هذا الصابون، الذي لا تجده أنت.

ورغم معرفته التامة لأساليبها في الحرب، إلا أنه هذه المرة لم يستطع تحمل الأمر. صار يستغل أي ذريعة مهنية ليمكث في الغرف الداخلية

بمستشفى «لا ميسركورديا»، وصار لا يذهب إلى بيته إلا إذا أراد تغيير ملابسه، وذلك قبل مجيء الليل، وقبل موعد الاستشارات الطبية الخاصة بالمنازل، وحين تسمعه يخطو نحو البيت، تذهب فورا إلى المطبخ وتلبث هناك متظاهرة بانشغالها بشيء ما، وتبقى هكذا إلى أن يصل أذنيها وقع حوافر الأحصنة، وهى تجر العربة. وفي كل مرة يحاولان فيها، على مدار ثلاثة أشهر، حل ما بينهما من خلاف، كانا لا يقومان إلا بتأجيج الخلاف وزيادة فترة الخصام من جديد. قرر ألا يعود، إلا إذا اعترفت بأنه لم يكن هناك صابون في الحمام، أما هي فلا تستطيع أن تتقبله، فهو الذي كذب عليها عمدا ليروعها ويفزعها.

وطبعا، أمر كهذا أعطاهما الفرصة كي يبعد كل منهما عن الآخر لبعض الوقت، وبالتالي وفرا على نفسيهما تلك المماحكات الصباحية التافهة العجيبة المكدرة للمزاج. كانت تلك البغضاء بينهما تنكأ ما اندمل فيهما من جرح، وإذا بهذه الجروح تنزف مرة أخرى نزيفا حادا مؤلما، وكلاهما في قمة الاستياء والعجب أنهما بقيا هكذا أعواما من حياتهما الزوجية لا يقومان إلا برعي نار الحقد بينهما، حتى بلغ الأمر به أن أخبرها بوجوب أن يعترفا كلاهما إلى كاهن الكنيسة، وبهذا يُصدر حكم إلهي نافذ قاطع بأن الصابون كان فعلا موجودا في «صبّانة» الحمام أم لا، حينئذ انفجر مرجل غضبها، وقالت صائحة بأعلى صوت:

- في داهية الكاهن، ومن أنجبوه.

قالت هذا رغم إيمانها، بل ووصل سبابها هذا إلى المدينة كلها، وكان ذلك تربة خصبة للقيل والقال، حتى أن سبتها هذه صارت قولا شائعا بين الناس يقولونها حين الغضب: «في داهية الكاهن ومن أنجبوه»، وحين وجدت أنها تعدت حدودها، إذا بها تبادر بشيء قبل أن يرد هو بما تتوقعه، هددته بأن تعيش وحدها في بيت أبيها، الذي لا يزال ملكها، رغم أنه مؤجر من قبل

مكاتب القطاع العام، وما قالته لم يكن عنترية منها ولا شيء، بل كانت تقوله بلهجة جادة كل الجد، تقول هذا، ولا يعنيها البتة ما سيحدثه هذا من فضيحة اجتماعية، ولكن سرعان ما أدرك الدكتور الأمر واحتواه في الوقت المناسب تماما، فهو ليس مستعدا لمواجهة العواقب الوخيمة لفضيحة كهذه، فأذعن أخيرا ورضخ لها، ولكن، هذا لا يعني أنه أقر بموضوع الصابون، فهذا أمر جد مؤذ ومهين بالنسبة له، وإنما استسلم بخصوص بقائه وبقائها في البيت نفسه، كل منهما في غرفة منفصلة عن الأخرى، ودون أن يتبادلا كلمة واحدة طول اليوم، وهكذا كانا يأكلان طعامهما، وكل منهما يتجنب الكلام إلى الآخر، دون أن يدري أحد من الأبناء، رغم أنهم بأنفسهم كانوا يوصلون ما يريد أن يقوله أحدهما للآخر عبر المائدة.

ولم يكن بحجرة المكتب دورة مياه، إلا أنه بطريقة ذكية استطاع تفادي كل الصراعات الصباحية العنيفة بينهما، فبعد أن يحضّر درسه يذهب إلى الحمام، ويستحم في حذر وحرص كي لا يقوم بأي حركة توقظ زوجته، ولأكثر من مرة يتصادف وجودهما معا وينتظر كل منهما الآخر لحين أن يفرغ من غسل أسنانه، وبعد أربعة شهور كان يتمدد على سرير الزوجية ليقرأ، بينما هي تخرج من الحمام كالعادة، ثم يستغرق في النوم، فتأتي وتتمدد إلى جانبه بصوت مسموع لتوقظه، ويذهب إلى حال سبيله، وفعلا يستيقظ وعيناه نصف مغمضتين، ولكنه لا يقوم إلا بإطفاء النور بدلا من القيام والذهاب إلى غرفة المكتب، ثم يريح رأسه على وسادته، ويهم في النوم، فتهزه من منكبيه لتذكره بأن مكانه ليس في هذه الغرفة، ولكنه يشعر ويحس براحة عجيبة على هذا السرير المبطن بالريش، الذي ورثه أبا عن جد، بل ويقول لها مستسلما خانعا:

- اتركيني هنا. نعم، نعم، كان هناك صابون في الحمام.

وحين يتذكران تلك الأيام، بعد أن دخلا طور الشيخوخة والخرف، لا يصدقان أبدا كون هذه المشاجرة كانت الأخطر على مدى نصف قرن من

التعايش بينهما، والشيء الوحيد الذي استوحياه من هذا الحدث الغريب هو أن كلا منهما يريد التساهل فيما يخص شئون الآخر، وأنهما يريدان بدء حياتهما بشكل آخر مختلف أشد الاختلاف، ومع هذا، فحينما دخلا في مرحلة الشيخوخة الوديعة، كانا يحرصان أشد الحرص على تجنب مثل هذا الأمر، فالجروح لم تلبث أن اندملت ولكنها على أهبة الاستعداد لأن تنكأ مرة أخرى، وكأنها جروح الأمس القريب.

وعموما كان أول رجل تسمعه فيرمينا داثا، وهو يتبول، كان زوجها ذات نفسه. سمعته في ليلة زفافها في قمرة السفينة المتجهة إلى فرنسا، وكانت وقتها في قمة التعب والإرهاق بسبب الدوار والدوخة، والضجة الشديدة الناتجة عن ينبوع بوله الفياض الجموح الذي كان في نظرها قويا للغاية، وينم عن سلطة وجبروت، مما زاد من خوفها ورهبتها، وكانت هذه الذكرى دائما ما تلح على عقلها باستمرار، في الوقت الذي كاد فيه ينبوعه ينضب لم يحد قيد أنملة عن توسيخ حافة المرحاض برذاذ بوله، وعبثا حاول الدكتور أوربينو أن يقنعها، ببراهين سهلة لمن يريد أن يفهمها أصلا، أن هذا لا يحدث لا لإهمال منه عن عمد كما تقول هي، وإنما لسبب عضوي بحت: ففي شبابه كان يستطيع تصويب بوله بدقه ومباشرة يُحسد عليها، حتى أنه كان أيام المدرسة كثيرا ما فاز في مباريات التصويب بملء زجاجات من بوله، ولكنه مع العمر لم يصبه فقط العطب والضعف، وإنما صار كأنه ينبوع من المحال السيطرة عليه وتوجيهه جديا، فقد تفرّع اتجاهه وتشعب أيما تشعب، وفشل في كل محاولاته المستميتة في السيطرة على اتجاهه، وكان دائما ما يقول لها: «إن هذا المغفل الذي اخترع المرحاض وصممه لا يعرف شيئا عن الرجال وشئونهم»، وما لبث أن آثر السلام العائلي وصار يوميا يقوم عن مذلة وضعة، وليس لمجرد الاستسلام، بتجفيف حافة المرحاض بمنديل ورقي في كل مرة يتبول فيها، وكانت تعلم ذلك، ولكنها أبدا أبدا لم تكن تقول أي كلمة إذا لم تكن تلك الأبخرة النشادرية متكاثفة بشدة في الحمام، أما لو العكس فساعتها

تنتفض وتولول كأنها اكتشفت جريمة لتوها: «هذا منظر حتى مربي الأرانب نفسه لا يفعله، ويشمئز منه»، وما لبث أن وجد حلا لتلك المشكلة، وهو في آخر العمر: يتبول قاعدا، مثلها بالضبط، وبالتالي يبقى المرحاض نظيفا، وأيضا يرضي الله ولا يغضبه.

وبعد أن اكتفى تماما من نفسه، تزحلق ذات مرة على أرضية الحمام زحلقة كادت تودي بحياته، لولا أنه أمسك بماسورة الدش، فرغم ما في البيت من أدوات حديثة متطورة إلا أنه يخلو من حوض الاستحمام المصنوع من القصدير ذي القواعد التي تشبه أرجل الأسد، ووجوده أمر عادي جدا في البيوت الكبيرة من تلك المدينة العريقة في القدم. ولكنه أقنعها بحجة طبية دامغة: ما حوض الاستحمام هذا إلا شيء من تلك الأوساخ الكثيرة، التي يستعملها الأوروبيون، الذين يستحمون فقط في آخر جمعة من كل شهر، ولا يكتفون بهذا فقط، بل يستحمون في نفس المياه المتسخة، التي فيها ما فيها من قذارة وأوساخ كانت في أجسادهم العفنة، وعلى هذا، أمرا ببناء طشت كبير للاستحمام من خشب الأبنوس المتين، حيث كانت زوجته فيرمينا داثا تحمّي زوجها كأنها بالضبط تحمّي رضيعا ليس إلا، ووقت الاستحمام عادة ما يطول إلى أكثر من ساعة، حيث يكون الطَشت مليئا إلى نصفه بمياه يكون فيها نقيع أزهار الخُبّاز وقشر البرتقال، ويشعر حينها بسكينة وهدوء وراحة بال، حتى أنه قد ينام غارقا في هذا الجو المعطر اللذيذ، وبعد أن تحميه تقوم بإلباسه، وترش بين ساقيه بعضا من بودرة التلك، وتدهن أجزاء جسده المحمرّة من أثر المياه الساخنة بزبده الكاكاو، ثم تلبسه سرواله الداخلي بحب وحنو كأنها تلبس رضيعها حفاضته، وتظل تلبسه كل قطعة من ملابسه، من أول الشرابات حتى تلك العقدة التي تعقدها له في رابطة عنقه ذات المشبك المصنوع من الياقوت الأصفر، وسرعان ما لانت لهما صباحاتهما الزوجية وصارت ناعمة هادئة، فهو عاد إلى طفولته، التي انتزعها منه أبناؤه، وهي من ناحيتها، صارت أكثر تناغما وتوافقا مع جدولها العائلي ذاك، فكل يوم يمر من عمرها يمر بسرعة

وبلا استئذان. أضحت في كل مرة تنام أقل، بل وصارت تستيقظ قبل زوجها حين أشرف عمرها على السبعين.

وفي يوم الأحد حيث قُدّاس يوم العَنصَرة، حين قام الدكتور أوربينو بكشف الغطاء عن جثة خيريميا ديه سانت- أمور، أحس الدكتور أوربينو وقتها بأنه أمام اكتشاف جديد لشيء كان يرفضه ويأباه أشد الإباء إلى ذلك الحين من عمره الطويل كطبيب يقظ الذهن شديد الإيمان. كأنه بعد كل هذه العشرة مع الموت ومعايشته له، بعد صراعه ضده في كل مكان، بعدما كان يقلب هذا الموت يمينا ويسارا، كأنه بعد كل هذا يجرؤ ليرى وجه الموت للمرة الأولى في حياته. لم يكن هذا خوفا من الموت. كلا، كلا: هذا الخوف كان فيه منذ سنين طويلة، كان يتعايش معه، ليس إلا ظلا آخر فوق ظله، منذ تلك الليلة، التي استيقظ فيها فزعا من حلم مريع شاهده في منامه، حينها أدرك أن الموت ليس فقط احتمالا دائما، كما كان يشعر دوما، وإنما هو واقع وشيك لا بد منه. على النقيض، ما رآه في ذلك اليوم هو تجسيد لما كان يحسبه، حتى ذلك الحين، مجرد خيال لا وجود له البتة، وسعد أيما سعادة كون الأداة، التي عن طريقها كشفت له العناية الإلهية تلك الحقيقة كان خيريميا ديه سانت- أمور نفسه، الذي كان دوما يعتبره قديسا يجهل ما فيه من إيمان ورضا، ولكن، حينما كشفت له تلك الرسالة هويته الحقيقية، ماضيه المليء شرا وسوءا، مكره ودهاءه اللذين لا يمكن تصورهما، حينئذ فقط أحس بأن شيئا في حياته تغيّر واختلف، وأن هذا الشيء تغيّر وبلا رجعة.

لم تستسلم فيرمينا داثا لما ران على زوجها من كآبة وكدر، لكنه لم يكتف بهذا، فقد حاول أن ينقل إليها ما به، ولكن هيهات فكل محاولاته صارت بلا جدوى، وها هي تساعده في لبس بنطلونه وفي غلق أزرار قميصه، لأنها صعبة المراس، ولا يمكن أبدا التأثير عليها بسهولة، خاصة بسبب موت رجل لم تكن تطيقه أبدا، وكل ما تعلمه عنه أنه رجل عاجز مقعد يملك الكثير من الحقائب،

ولم تره أبدا، وتعلم عنه أيضا أنه ذات مرة وقع في قبضة فرقة الإعدام في جزر الأنتيل، حيث تكثر حركات التمرد والعصيان، وتعلم بأنه كان يعمل مصورا فوتوغرافيا خاصا بالأطفال، وأنه كان مطلوبا من قبل المحافظة، وأنه انتصر ذات مرة في مباراة شطرنج ضد شخص يدعى «توريمولنوس»، وفي الحقيقة اسمه «كابابلانكا»، وذات مرة قال الدكتور أوربينو لها:

– لم يكن خيريميا إلا هاربا من مدينة «كاين» الفرنسية محكوما عليه بالسجن المؤبد لارتكابه جريمة شنيعة. تصوري شخصا يمكن أن يأكل من لحم أخيه الإنسان.

وأعطاها الرسالة بما فيها من أسرار ليس لها أصلا من موضع إلا القبر وظلامه، ولكنها طوتها ووضعتها في درج التسريحة، وأغلقته بالمفتاح دون حتى أن تطلع على كلمة منها. تعودت تماما على زوجها، هذا البعيد الغور بقدرته الجبارة على إدهاش الناس. تعودت على ما في أحكامه من شطحات غريبة يزداد تشبثا بها بمرور الوقت ولا يحيد عنها قيد أنملة. اعتادت ما به من ضيق أفق لا يناسب إطلاقا ما تبدو عليه شخصيته أمام الناس، ولكنه هذه المرة تعدّى وتجاوز حدوده كثيرا في إدهاشها منه، فكانت تفترض أن زوجها لم يكن يقدر خيريميا كل التقدير لما يعرفه عن ماضيه، كانت تفترض معرفة زوجها لخيريميا خير معرفة لا لكونه فقط ذا سوابق، ولكن لما بدأ يؤول إليه حال خيريميا منذ أن وصل إلى المدينة وهو لا يملك من متاع الدنيا إلا حقيبة ظهره، ولم تستطع أن تفهم السبب الحقيقي وراء تلك الدهشة، التي اعترت زوجها حين عرف حقيقة خيريميا من الرسالة. لا تفهم لماذا كل هذا الاستغراب والعجب من جانب زوجها لكون خيريميا لديه عشيقة تخصه وحده بمنأى عن العيون، فهذا أمر عادي جدا لمثل هؤلاء الرجال، بل وموروثا منذ أجيال، فحتى هو نفسه الدكتور أوربينو كان له مثل ما لخيريميا في فترة من الفترات الجاحدة الغادرة منه، وعلاوة على هذا فهي ترى أنها تجربة حب قاسية أشد

القسوة أن تتركه يواجه مصيره كما يريد، وذات مرة قالت: «لو كنت أنت أيضا اتخذت هذا القرار لأسباب جادة كل الجد، مثل ما كانت له هو من أسباب، لكان من واجبي أن أقوم بنفس ما فعلته هى»، وللمرة العاشرة يجد الدكتور أوربينو نفسه أمام هذه السذاجة العجيبة، التي كانت تسخطه وتحنقه على مدى نصف قرن، فقال لها:

- أنت لا تفهمين شيئا. ما يحنقني ويغيظني ليس ما حدث ولا ما فعله هو، وإنما يحنقني ذلك الخداع، الذي غرقنا فيه نحن جميعا حتى أذنينا منذ أعوام طوال.

وإذا بعينيه تكابد لتمنع دموعه من الانهيار، ولكنها تجاهلت قوله، وقالت:

- حسنا فعل، فلو عرفت الحقيقة، لما كنت أنت، ولا تلك المرأة المسكينة، ولا أحد إطلاقا أحبه مثلما أحببتموه.

ثم وضعت سلسلة الساعة في عروة سترته، وأحكمت ربط رابطة عنقه وشبكتها بمشبكها المصنوع من الياقوت الأصفر، ثم راحت تجفف دموعه وتنظف لحيته بمنديل معطر بكولونيا «أجوا فلوريدا»، ثم وضعت المنديل في جيب قميصه وتركت حوافه مفتوحة كأنه زهرة منغولية. حينئذ دقت أجراس الساعة ذات البندول ناشرة صداها في أرجاء الدار مؤذنة بحلول الساعة الحادية عشرة، فأمسكت بذراعه، وقالت له:

- هيا، هيا، أسرع، سوف نتأخر.

وكانت أمينتا ديتشامبس، زوجة الدكتور لاسيداس أوليبيا، وبناتها السبع اللائي يثابرن ويكدحن معها أشد الكدح وأقساه، تأهبن وأعددن كل شيء كي يكون حفل الغداء الخاص بعيد زواج والدهم ووالدتهم الخامس والعشرين حدث هذا العام.

في البيت العريق، الذي كان قديما الدار الخاصة بسك العملة، وقام بتغيير طبيعته مهندس فلورنسي مر على هذه الدار، كأنه ريح شريرة من التغيير

والتجديد وعدّل فيه إلى أن حوله من ذلك الجمال الفالنسي الساحر، من ردهات طويلة ذات أعمدة إلى طراز من تلك الطرازات الخاصة بالقرن الثامن عشر، فمن يراه يحسبه مقابر قديسين ليس إلا. وكان في الدار ست غرف للنوم وصالونان، أحدهما للطعام، والآخر لاستقبال الضيوف، كلاهما من الكبر والوسع في غاية، وفي قمة الطراوة والتهوية، ولكن ليس لدرجة أن يسعا جميع ضيوف المدينة بأسرها، فما بالك بهؤلاء الصفوة، الذين سيأتون من خارج البلدة، أما فناء الدار، فكان أشبه برواق الأديرة، وفي وسطه عين ماء مشيدة من الأحجار تمور بهدير جميل ترتاح لسماعه الأذن، وكانت هناك نباتات «رقيب الشمس»، التي ينطلق شذاها ليلا ليفوح في أرجاء الدار، ومساحة هذا الفناء بأروقته الحجرية غير كافٍية نهائيا لكل تلك الألقاب الفخمة النبيلة الآتية إلى الدار، ولهذا قرروا إقامة الحفل في العزبة على بعد عشر دقائق بالسيارة، إذا سلكنا الطريق الملكي الممهد. العزبة تتكون من حوش كبير واسع الأرجاء، وأشجار الغار الضخمة الآتية من الهند، وأزهار النيلوفر الملونة تبرز لك على سطح الماء النهري الوديع، وفي المواضع الخالية من الظل قام رجال وخدم دون سانتشو، ممن يعملون في فندقه، وبالطبع بتوجيه من السيدة أوليبيا، بوضع خيام من قماش القلوع الملون، كما وضعوا تحت أشجار الغار صفا كبيرا من المناضد الصغيرة الملتصقة ببعضها البعض، وعليها نحو مائة واثنين وعشرين من لوازم المائدة، وأمام كل منها فوطة من الكتان، بالإضافة إلى بضع ورود طازجة وضعت خصيصا على مائدة الشرف، وأيضا قاموا ببناء منصة لفرقة الآلات الموسيقية الخاصة بالنفخ، التي يقتصر دورها على عزف موسيقى تصلح لذلك النوع من الرقص الإيقاعي السريع، الذي يدعى «كاونتري دانس»، ولعزف مجموعة من موسيقى الفالس وطنية الطابع، وأغنية من تلك الأغاني الخاصة بمدرسة الفنون الجميلة، والتي عادة ما تكون رباعية الأصوات فقط، وهو ما أذهل زوجها الوقور، وأدهشه هو الذي من المفترض أنه المشرف الأساسي على هذا الحفل، ورغم أن تاريخ الحفل لم يكن ملائما

كل الملائمة لموعد الاحتفال السنوي بالخريجين، إلا أنهما اختارا يوم الأحد الذي فيه قدّاس العَنصَرة كي يكون للحفل قيمة أعظم وأجل.

واستغرقت تجهيزات الحفل ثلاثة شهور، وأكثر ما يخافانه أن يقطعهم سيف الوقت ويفوتهم شيء ما، وقاما بإحضار الدجاج الحي من بلدية «سياناجا ديه أورو»، التي لم تكن مشهورة فقط على مستوى المنطقة بأسرها بحجمها وجمال طعمها، وإنما كانت مشهورة أيضا لما هو معروف عنها بأنها كانت تأكل من رواسب النهر، وتنقر الطمي منذ عهد الاستعمار، فكانوا يجدون في حوصلتها قطعا صغيرة من الذهب الصافي، كما أن السيدة أوليبيا ذات نفسها، ومعها بناتها، وكل الخدم كانوا يصعدون إلى السفن التي تعبر المحيطات، ويجلبون منها أفخم الأشياء وأثمنها من أجل خاطر وعيون زوجها ومن أجل تشريفه وتمجيده أشد التمجيد، واستعدوا لكل شيء إلا شيئا واحدا، وهو أن الحفل في يوم الأحد من شهر يونيو في عام كله أمطار وسيول، وهو ما جاء على بالها في صباح يوم الحفل فقط، حين خرجت لحضور القدّاس الأكبر، وهالها ما في الهواء من رطوبة غريبة، وتلك السحب الكثيفة القريبة بحيث حالت بينها وبين رؤية سطح البحر، ورغم كل هذه المؤشرات، التي لا تبشر بأي خير، إلا أن رئيس المرصد الفلكي ذكّرها حين قابلته في القدّاس بأنه في أتعس أوقات تلك البلدة المسكينة، وحتى في فصول الشتاء الأكثر ضراوة وقسوة، لم تمطر السماء أبدا في يوم قدّاس العَنصَرة، ومع هذا، فحين دُقت الأجراس معلنة حلول الساعة الثانية عشرة، وقتها بدأ المدعوون في الهواء الطلق يأكلون المقبلات والمشهيات، ارتعشت الأرض ارتعاشا إثر دوي انفجار الرعد، وإذا بريح غشيمة تهجم على المناضد والموائد وتفرقها بددا، وإذا السماء تهمي بمطر غزير عنيف.

وبالكاد استطاع الدكتور أوربينو، وسط هذه العاصفة المريعة، أن يصل إلى هناك مع آخر من وصل من المدعوين، وأراد أن ينزل من عربته ويذهب إلى الدار مثلهم قفزا على الأحجار عبر الفناء الموحل من مياه المطر، ولكنه

وافق مضطرا أن يحمله رجال دون سانتشو سائرين به أسفل سرادق من القماش الأصفر الخاص بأشرعة المراكب.

كل ما تفرق من مناضد تم جمعه مرة أخرى داخل البيت بأفضل نظام ممكن، كانت المناضد كثيرة لدرجة أنه تم وضع عدد منها داخل غرف النوم، ولم يدخر المدعوون جهدا في إظهار ضيقهم وتأففهم، فالجو داخل الدار شديد الحرارة كأنك في مرجل سفينة ليس إلا، فقد غُلقت جميع النوافذ والشبابيك كي لا ينفذ إليهم ماء المطر المنحرف من أثر الريح، وكان على كل موضع من المناضد الموجودة في الفناء بطاقة مكتوب عليها اسم المدعو، كما تمت تهيئة جانب لجلوس الرجال، وجانب آخر لجلوس النساء التزاما بالعرف والتقاليد المتوارثة، ولكن حينما تم نقل المناضد إلى داخل البيت، اختلط الحابل بالنابل، ولم يعد لتلك البطاقات أدنى نظام، وصار الكل يجلس على هواه في لخبطة وتناقض تام لكل تلك الخرافات الاجتماعية العجيبة، ووسط كل هذه المعمعة، بدت أمينتا دي أوليبيا وكأنها في كل مكان في الوقت نفسه، وقد تبلل شعرها وتناثرت على ثوبها الزاهي بقع من الوحل، ولكنها تغلبت على الوضع بابتسامة حلوة عذبة من تلك الابتسامات، التي تعلمتها من زوجها كي تخفف من حدة البلية، وبمعاونة بناتها، اللائي أقحمن إقحاما فيما هي فيه من هذا المكان، الذي يشبه في حره وقيظه كير الحداد، رغم هذا استطاعت أمينتا أن تحافظ على مكان وترتيب مائدة الشرف، حيث جلس الدكتور أوربينو في المنتصف، وعلى يمينه المطران أوبدوليو إي ري، وكالعادة جلست فيرمينا داثا بجانب زوجها خشية أن ينام أثناء الغداء أو يسكب الحساء على المنشفة. في الجانب المقابل جلس الدكتور لاسيداس أوليبيا، بعمره الخمسيني وبهيئته الأنثوية الفريدة، غاية في الحرص والانتباه، وما هو فيه الآن من احتفال وبهجة لا يمت بأي صلة لمهارته وجديته في تشخيص الأمراض وعلاجها، أما ما تبقى من مكان أمام مائدة الشرف فاحتله بالكامل كل القيادات الإقليمية والبلدية، وملكة جمال العام الماضي، التي

أمسكها من ذراعها حاكم البلدة ذات نفسه، وأجلسها بجانبه، ورغم أنه في مثل هذه الدعوات عادة لا يكون هناك أي داع للبذخ والترف والمبالغة في التأنق، خاصة أن هذا الحفل ريفي بامتياز، إلا أن النساء جئن في لباس السهرة المزين بالأحجار الكريمة، وأغلبية الرجال كانوا يرتدون الغامق من اللبس مع رابطة عنق سوداء، بل وبعض منهم ارتدى السترات الرسمية المصنوعة من الصوف. فقط من كانوا فعلا أسياد مجتمعهم، ومن بينهم الدكتور أوربينو، هم من اكتفوا بلبس البذل اليومية العادية، وتجد في كل موضع قائمة بالطعام مكتوبة بالفرنسية ومزينة بالزخارف الذهبية اللون.

وأكثر ما كانت تخافه السيدة أوليبيا ما ران على البيت من حر واختناق، فكانت تطوف بجميع المدعوين ترجوهم في حرارة واستعطاف أن ينزعوا عنهم ستراتهم ليباشروا أكل غدائهم، ولكن لا أحد من هؤلاء تجرأ ورضي بأن يكون البادئ بخلع سترته، وأخبر السيد المطران الدكتور أوربينو بأن هذا الحفل، بشكل ما، حدث تاريخي بلا منازع، وأنه للمرة الأولى يجلس كل هؤلاء الأشتات والأضداد على مائدة واحدة، والتأمت الجروح جميعها، وتحاشوا كل ما بينهم من خلاف ونزاع وحقد وغل، وها هما الفرقتان اللتان أدميتا البلد بأسرها منذ عهد الاستقلال يجلس كل منها بجانب الآخر، وهو الأمر الذي يتوافق تماما مع أفكار ومعتقدات الأحرار، خاصة الشباب منهم، الذين استطاعوا أخيرا أن يختاروا رئيسا لحزبهم، وذلك بعد خمسة وأربعين عاما من هيمنة المحافظين، ولكن هذا لم يكن فكر الدكتور أوربينو، فهو يرى: أن رئيس الأحرار لا يختلف في شيء مطلقا عن رئيس المحافظين، كل الاختلاف أن زيه أسوأ شكلا من زي الآخر، وعموما، لم يكن الدكتور أوربينو يود معارضة المطران في أي من آرائه، رغم أنه أراد أن يشير إلى أنه لا أحد في هذه المأدبة موجود وفقا لتفكيره، وإنما جميعهم هنا احتراما للنسب وعراقة العائلة، وهذا دوما ما يعلو على كل الخلافات السياسية والحزبية على حد سواء، وبالفعل هذا ما يراه، فلا أحد بمنأى عن ذلك.

وفجأة توقف المطر، وانتهى كما بدأ، وعادت الشمس من جديد في حلتها الجديدة الساطعة نورا فياضا لتغمر العالمين، وفي السماء لا تجد سحابة واحدة من تلك، التي كانت تحجب الضوء منذ قليل، ولكن الريح كانت شديدة لدرجة أنها اقتلعت بعض الأشجار من مكانها، كما أن ما فاض من ماء آسن راكد أغرق فناء الدار كله حتى استحال إلى مستنقع تنفر منه العيون، والكارثة الأكبر والأمّر كانت في المطبخ، فالعديد من مواقد الحطب تم وضعها على حجارة في الجزء الخلفي من الدار، وفي الهواء الطلق، وبالكاد استطاع الطباخون وضع القدور على المواقد، رغم أن المطر والوقت كاد يدهمهم، وظلوا نحو ساعة في عجالة ولهوجة ينزحون الماء الفائض من المطبخ ويرتجلون ما شاء لهم أن يرتجلوا من الحيل والألاعيب كي يوقدوا مواقد جديدة في الرواق التالي، ولكنهم، على العموم، انجلت عنهم الغمة في حدود الساعة الواحدة بعد الظهر، ولم يبق إلا الحلو، الذي كلفت بإعداده راهبات «سانتا كلارا»، وكن ملتزمات بتسليمه قبل الساعة الحادية عشرة، لذا كان ما يخشونه حقا أن يكون النهر فاض وأغرق الطريق، كما يحدث عادة في فصول الشتاء الأخف قسوة، وإذا ما وقع المحظور فإنهم لن يتمكنوا من تقديم الحلو قبل ساعتين، وما إن توقف المطر حتى فتحوا جميع النوافذ، وتجدد هواء البيت بذلك النسيم المالح النقي من أثر العاصفة، وبعد ذلك أمروا الفرقة الموسيقية بعزف الفالس في تراس الدار، بيد أن هذا زاد الطين بلة، فرنين تلك الآلات الموسيقية النحاسية وصداها اضطر المدعوين إلى أن يرفعوا أصواتهم صائحين، وكل هذا وأمينتا صارت تشعر بقهر وغيظ عظيمين، حتى أن دموعها أوشكت أن تنهمر وضاع ما فيها من صبر، فأمرت مبتسمة بوضع الطعام على الموائد.

أخذ زمام العزف تلك المجموعة الآتية من مدرسة الفنون الجميلة، وبدأوا وسط صمت تام رسمي من قبل المدعوين حين سمعوا الإيقاعات

الأولى لـ«لا تشازيه» لموزارت، ورغم كل تلك الأصوات المتضاربة المتلاطمة، وصخب الخدم السود التابعين لدون سانتشو، الذين بالكاد يشقون طريقهم بين المناضد حاملين أوان يتصاعد منها البخار اللافح، رغم كل ذلك، فإن الدكتور أوربينو استطاع أن يشق لأذنيه طريقا حتى يسمع الموسيقى إلى نهايتها. قدرة الدكتور أوربينو على التركيز في ضعف يتزايد بمرور الوقت، وبلغ به الأمر إلى أن يدوّن كل حركة من حركات الشطرنج على ورقة كي يعرف أي الحيل يسلك، ومع ذلك، فهو يستطيع إدارة نقاش جاد كل الجد مع أي أحد، وفي الوقت نفسه يستمع بانتباه إلى الحفلة الموسيقية الدائرة حتى نهايتها، ورغم هذا فهو لم يبلغ ما بلغه صديقه الألماني، الذي كان مشرفا على فرقة موسيقية بأسرها، والذي عرفه أثناء فترة وجوده في النمسا، وكان صديقه هذا قادرا على قراءة مجموعة ألحان أوبرا «دون جيوفاني» لموزارت، بينما أذناه تستمع لأوبرا «تانهيسر» لريتشارد واجنر.

وكان الجزء الثاني من البرنامج الموسيقي، معزوفة شوبيرت، التي تسمى «الموت والعذراء البتول»، سمعها وهو يحس بأنهم يعزفونها بشكل درامي سهل ومؤثر، بالكاد استطاع سماعها وسط الضوضاء الجديدة لأصوات الملاعق والشوك والسكاكين، وهى تضطرب اضطرابا على الأطباق والأواني، ناظرا بثبات صوب الشاب الذي احمر خداه خجلا، والذي حيا الدكتور بإيماءة من رأسه. أجل، هو يذكر أنه رأى هذا الوجه من قبل، ولكنه لا يعرف أين بالضبط. ها هو ذا النسيان الذي كثيرا ما يمر به ويطوف برأسه بلا رحمة، خاصة أسماء الناس، بما في ذلك الأكثر شهرة منهم، أو ينسى لحنا من ألحان الماضي، ما كان يثير حنقه وشجنه ويروعه، حتى أنه ذات ليلة فضل الموت على أن يتحمل هذه المشاعر حتى الصباح. كان بالفعل على مشارف الانهيار النفسي، وهو أمام هذا الشاب غير الغريب عليه، وفجأة وفي غمضة عين أتت على عقله ومضة خاطفه أضاءت له ذاكرته. تذكر أخيرا أن هذا الشاب كان

تلميذا عنده السنة الفائتة، وحقيقة، ذهل من رؤيته هناك وسط الصفوة المنتقاة من النبلاء والأشراف، ولكن الدكتور أوليبيو ذكّره بأن هذا الشاب هو ابن وزير الصحة، وأنه يعد الآن مشروعه العلمي عن الطب الشرعي. حينئذ سلّم الدكتور أوربينو عليه بحفاوة وترحيب، فنهض الطبيب الشاب ووقف على قدميه ورد السلام بأحسن منه، ولكن رغم ذلك، فالدكتور أوربينو لا في ذلك الحين ولا بعد ذلك أدرك أن هذا هو الشاب نفسه، الذي كان معه هذا الصباح في بيت خيريميا ديه ساينت-أمور.

ارتاح أيما راحة، وسعد أيما سعادة لانتصاره المحقق على شيخوخته، وما تسببه من ضياع الذاكرة، واستغنى أخيرا عن الانتباه لتلك الألحان الغنائية الشجية لآخر معزوفة في برنامج الحفلة الموسيقية، وهى المعزوفة، التي لم يتعرف عليها، وبعدها أخبره عازف التشيللو بالمجموعة الموسيقية، والعائد من فرنسا، بأن تلك المعزوفة لحن رباعي لمؤلف الموسيقى الفرنسي جابريل فلوري، اسم لم يسمعه الدكتور أوربينو من قبل، رغم كونه شغوفا بالاطلاع على كل ما هو جديد في أوروبا، وبعد حين وجدته زوجته، الساهرة على كل خلجة تبدر منه، في حالة من الاستغراق التام، رغم كل هذه الجموع، حينها توقفت عن الطعام، ووضعت يدها على يده، وقالت له: «لا داعي للتفكير في مثل هذه الأمور»، فتبسم لها، ولكنه حقيقة كان في واد آخر تماما، وإذا به يأخذه تفكيره فيما يخشاه. تذكر خيريميا ديه سانت-أمور، الذي يرقد الآن في تابوته مرتديا زيا عسكريا مزيفا تحفه الكثير من الزينة والزخارف، والأطفال ينظرون إليه في تحد من خلال صورهم الفوتوغرافية، ثم التفت الدكتور أوربينو نحو المطران ليخبره بانتحار خيريميا، ولكنه وجده علم بالخبر مسبقا، فقد تكلم كثيرا عن هذا بعد القدّاس الأكبر، بل وتلقى طلبا ضمنيا من الجنرال خيرونيمو أرجوت تحت مسمى لاجئي الكاريبي ليتم دفنه في المقابر العادية المقدسة، وقال: «الطلب نفسه في واقع الأمر يعد قلة احترام وعدم تقدير»، ثم سأله في

شيء من الشفقة والإنسانية عن سبب الانتحار، فأجابه الدكتور أوربينو بكلمة حاسمة منه كانت وليدة اللحظة: فوبيا الشيخوخة، وإذا بالدكتور أوليبيا، الذي كان معلقا في حوار مع بعض من ضيوفه المقربين يتركهم لحظة، ويتوجه بكلامه إلى أستاذه قائلا: « يا له من أمر محزن أن نجد حالة انتحار ليس سببها الحب وجنونه»، ولم يندهش الدكتور أوربينو من كون تلميذه المفضل لديه يعرف أفكاره وخواطره، فقال:

- بل وأسوأ من هذا وذاك، لقد انتحر بسيانيد الذهب.

قال ذلك الكلام، وأحس بشفقة ورأفة تغلبان على ما في الرسالة من مرارة وقسوة، ولم يكن هذا راجعا لزوجته، وإنما للموسيقى ومعجزاتها، وحينئذ كلم المطران عن ذلك القديس العَلماني، الذي تعرف عليه في تلك الليالي الطويلة من ليالي الشطرنج، كما كلمه عن تقديسه لإسعاد الأطفال أشد التقديس عبر فنه وعمله، وعن علمه الغزير الواسع عن أي شيء في هذه الدنيا، عن تعوده التقشف والتقتير على نفسه، وأنه هو نفسه استغرب أيما استغراب من صفاء روحه ونيته ناصعة البياض، الأمر الذي أدى به لفصله تماما، وفي وقت وجيز، عن ماضيه، ثم تحدث بعد ذلك مع حاكم البلدة عن منافع وفوائد شراء أرشيف الصور بألواحها ليصبح لديهم الشريط الكامل الذي يصور جيلا بأسره، ربما لا يكون سعيدا، وهو خارج هذه الصور، جيل في يديه مستقبل المدينة ومصيرها، واستغرب المطران أيما استغراب، بل أصابه الهلع لكون محارب كاثوليكي علّامة كهذا يجرؤ على التفكير في حرمة الانتحار، ولكنه عموما كان متفقا تماما على وجوب شراء شرائط النيجاتيف وحفظها، وأراد الحاكم أن يعرف ممن سيشتري أرشيف النيجاتيف، فانعقد لسانه في فمه، ولم يدرِ ماذا يقول، فهو يعلم السر الذي لا يمكن أبدا البوح به، ولكنه استطاع حل المشكلة دون كشف السر، دون أن يذكر أي شيء عن الوارثة السرية لهذا الأرشيف، قال: «أنا المسئول عن هذا»، وما إن قال هذا حتى شعر بأنه وفّى وفعل ما عليه تجاه امرأة

كان قد نبذها ورفضها منذ خمس ساعات فقط، ولاحظت زوجته ما طرأ عليه، ووعدته في صوت منخفض بأنها سوف تحضر جنازته، فأجابها بارتياح أن هذه المرأة ستحضر جنازته مهما بلغت خطورة الأمر.

ثم ألقى المدعوون كلمات مختصرة بسيطة تحية لمقيمي الحفل، وراحت الفرقة الموسيقية تعزف ألحانا سريعة الإيقاع أقرب إلى لحن الرعاع والعامة، وهو ما لم يكن محسوبا ولا مقدرا له في برنامج الموسيقى، وأخذ المدعوون يتمشون في تراس البيت منتظرين انتهاء رجال دون سانتشو من نزح ما في فناء الدار من مياه، وذلك ليتركوا الفرصة لمن يريد أن يرقص. الوحيدون الذين بقوا في صالة البيت، هم هؤلاء الذين كانوا جالسين على مائدة الشرف يحتفلون بكون الدكتور أوربينو تجرع مرة واحدة نصف كأس من البراندي بعدما صكوا الكؤوس في النخب الأخير، ولا أحد يذكر البتة أنه قام بذلك من قبل، إلا حينما يشرب الخمر في الحفلات الراقية ليتبلع بها أثناء تناوله لطعام مميز، ولكن قلبه في ذلك الوقت كان في حاجة إلى مثل هذه التسلية، وجوزي خير الجزاء على فعلته هذه، التي تعد ضعفا منه واستسلاما، فأخيرا، وبعد سنوات طويلة إذا به يجد في نفسه رغبة في الغناء، وبدعوة وإلحاح من عازف التشيللو الشاب، الذي عرض عليه أن يرافق صوته بآلته، كان سيستجيب ويغني إلا أن سيارة حديثة اقتحمت فجأة فناء الدار الموحل، فبعثرت الموسيقيين في كل مكان، وروّعت البط الموجودة في حظائرها، ببوقها الصاخب المفزع، وأخيرا توقفت أمام باب الدار، وإذا بالدكتور ماركو أوريليو أوربينو داثا وزوجته ينزلان من العربة يكاد الضحك يقتلهما وكل منهما يحمل صينية مغطاة بقماش مطرز، وعلى المقاعد الإضافية للسيارة صوان أخرى لها الشكل نفسه، وحتى أرضية السيارة الموجودة بجانب السائق عليها بضع صوان. تلك كانت الحلوى، التي تأخرت في طريقها، وحين توقف التصفيق والصفير المتواصل تحية للحلوى وجالبيها، شرح لهم

الدكتور ماركو أوريليو في جدية أن الراهبات طلبن منه أن يحمل الحلوى قبل هبوب العاصفة، ولكنه، وهو في الطريق، عاد مرة أخرى لأن أحدا أخبره بأن بيت والده يحترق، وروّع الدكتور خوبينال أوربينو أشد الروع، ولم ينتظر حتى أن ينتهي ابنه من كلامه، ولكن زوجته طمأنته بأنه أمر بجلب رجال الإطفاء ليقوموا بإحضار الببغاء من فوق الشجرة، وأخيرا أمرت أمينتا ديه أوليبيا في سعادة وفرح بتقديم الحلوى، وأكلها في تراس الدار، ولكن بعد شرب القهوة. بيد أن الدكتور أوربينو وزوجته ذهبا دون أن يتذوقا شيئا من الحلويات، وذلك ليلحق قيلولته المقدسة عنده أشد التقديس، قبل ذهابه لحضور مراسم دفن خيريميا.

وبالفعل نام قيلولته، ولكنها كانت قصيرة مؤرقة، فحينما عاد إلى البيت وجد رجال الإطفاء خرّبوا وأتلفوا أكثر مما قد تسببه النار نفسها، فأثناء محاولاتهم لترويع الببغاء جرّدوا الشجرة من كل ما عليها من أوراق بخراطيم الضغط العالِي، كما أن بعضا من الماء المنهمر وصل إلى غرفة النوم الأساسية عبر النافذة مما سبب أضرارا من المحال إصلاحها في قطع الأثاث واللوحات المعلقة على الحائط، التي صورت أجدادهم المغمورين. حضر جميع الجيران لدى سماعهم أجراس عربة الإطفاء معتقدين بأن البيت يحترق، وأصلا لم يحدث أي جلبة شديدة بين الناس لأن المدارس تكون مغلقة الأبواب في يوم الأحد، ولما وجد رجال الإطفاء أنه ليس باستطاعتهم الوصول إلى الببغاء، ولا حتى بتلك السلالم الطويلة المرتفعة، لجأوا إلى قطع الأغصان قطعا لا رحمة فيه ولا هوادة، وكانوا سيقطعون جذع الشجرة نفسها لولا مجيء الدكتور أوربينو قبل فوات الأوان، ثم وعدوا بالعودة في الساعة الخامسة، وفعلا جاءوا وقاموا بتشذيب الشجرة، وبالمرة لطخوا التراس الداخلي للدار بالوحل والطين، ومزقوا السجادة التركية الأثيرة للغاية عند فيرمينا داثا. كوارث لم يكن لها أي جدوى، وعلاوة على هذا، سرى انطباع

بأن الببغاء استغل ما حوله من بلبلة واضطراب، وهرب إلى أحواش البيوت المجاورة، والحقيقة أن الدكتور أوربينو راح يبحث عنه بين الأغصان الملتفة المتشابكة، ولكن لم يجد منه أي رد بأي لغة كانت، ولا حتى الصفير والأغاني نفعت في شيء، حينئذ استسلم لحقيقة أن الببغاء ضاع، فاكتنفه اليأس وذهب في الساعة الثالثة لينام قيلولته، ولكنه قبل أن ينام استمتع بشذا حديقته السرية المزروعة بنبات الهليون الدافئ الرطيب.

ومن شدة حزنه استيقظ، ليس بسبب الحزن الذي شعر به صباحا أمام جثة صديقه، وإنما بسبب ذلك الضباب الكثيف، الذي تشبعت به روحه بعد القيلولة، وهو ما يفسره بكونه إنذار رباني بأنه يعيش أيامه الأخيرة، وهو إلى أن أشرف على الخمسينيات من عمره لم يكن يفكر البتة في حجمه ولا في وزنه، ولا حتى فيما بداخل جسده من أحشاء وأمعاء، ولكنه بعد هذا بدأ شيئا فشيئا يحس بما في جسده شبرا شبرا، وذلك بعدما يستلقي مسترخيا إثر استيقاظه من قيلولته اليومية المقدسة، حتى أنه كان يحس بالطريقة التي يعمل بها قلبه ذلك المؤرق البائس، وكبده ذلك الغامض الغريب، وغدة البنكرياس تلك المبهمة الغامضة أشد الغموض، كما اكتشف أن الرجال العجزة في مثل سنه أقل حجما منه، فهو يعد الكائن الحي الوحيد على قيد الحياة من جيله الخرافي الأسطوري هذا، وحينما اكتشف ما بدأ يطرأ على ذاكرته من ضعف وقصور، لجأ إلى حيلة سمعها من أحد أساذته في مدرسة الطب: «من ليس لديه الذاكرة ليتذكر، فليلجأ إلى الورق»، ورغم هذا لم تكن هذه الحيلة إلا خيالا عابرا، فهو نفسه يبلغ أقصى حدود النسيان وفقدان الذاكرة حين ينسى ما تشير إليه ملحوظاته في الأوراق التي يدسها دسا في جيوبه، فكان يجول في البيت بحثا عن نظارته، وكان يعود ويغلق الأبواب مرة أخرى بالمفتاح، وهى أصلا مغلقة، ودائما ينسى الخيط الموضوع في الكتب التي يقرأها، وذلك لأنه كان ينسى موضوع الكتاب من الأساس أو أوصاف الشخصيات

إذا كان الكتاب رواية أو قصة، والأنكى من هذا وذاك قلقه المتزايد لكونه لا يثق في قوة وسلامة عقله، فهو يحس بأنه رويدا رويدا يفقد ما في عقله من قوة وصحة، يحس كأنه لا بد له من الغرق في هذا البئر الواسع بعيد الغور.

وكان الدكتور خوبينال أوربينو يعرف من تجاربه الواسعة، وخبرته العريضة في الحياة، ودون أي إثبات علمي بأن أغلب الأمراض القاتلة الفتاكة لها رائحة خاصة تميزها، ولكن لا مرض تميزه رائحة خاصة جدا كمرض الشيخوخة، فهو يشم رائحته، التي تفوح من تلك الجثث، التي تم شقها من رأسها حتى أخمص قديمها، وتجدها ملقاة على مناضد التشريح، وهو يعرفها حق المعرفة وقادر على شمها حتى من هؤلاء المرضى الذين يخفون سنهم الحقيقي، يعرفها من ذلك العرق الباقي في ملابسه، يعرفها من نفس زوجته، وهى نائمة كالملاك. أمر آخر لم يكن أساسيا ولا جوهريا بالنسبة لرجل كاثوليكي عتيد، ربما كان متفقا مع خيريميا في أن الشيخوخة حالة بذيئة غاية في البذاءة والفحش لا بد من إيقافها وبترها بلا تردد، والشيء الوحيد الذي كان يعزيه خير العزاء، هو الذي يتمتع بمهارات وبقوة وطاقة فيما يخص شؤون الجنس وممارساته، انطفاء الشهوة الجنسية لديه ببطء ولين، وبالتالي يتمتع بالسلام الجنسي، ورغم عمره الواحد والثمانين كان واعيا ومدركا بما يكفي ليعلم بأن كل ما يربطه بهذه الدنيا، وبهذه الحياة مجرد خيوط واهية قد تنقطع دون أي ألم أثناء تقلبه في نومه، وهو فعلا لا يألو جهدا في الحفاظ على هذه الخيوط كي لا يقابل ربه وسط ظلام الموت وغموضه.

اهتمت زوجته بإعادة تنظيم تلك الغرفة، التي خرّبها رجال الإطفاء، وقبل الساعة الرابعة بقليل إذا بها أمام زوجها تعطيه قدح الليمونادة المثلج، الذي يشربه كعادته كل يوم، وذكرته بموعد حضور مراسم دفن خيريميا، وكان أمامه في ذلك الوقت كتابان، الأول : «غموض البشر» لألكسيا كاريل، و الثاني : «تاريخ سان ميشيل» لأكسيل مانث. الكتاب الثاني لم يفتحه بعد،

وطلب من الطباخة ديجنا باردو أن تأتي له بقطاعة الورق العاجية، التي نسيها في حجرة نومه، ولكن ما إن أتوا له بتلك القطاعة حتى وجدوه مستغرقا في قراءة «غموض البشر» بدأً من الورقة، التي ترك عندها ظرف الرسائل، ولم يكن يتبقى على إتمامه الكتاب إلا صفحات قليلة جدا. جعل يقرأ في تأن وبطء لا حد له، وهو يجاهد ليسيطر على الصداع والألم، الذي احتل رأسه جراء شربه نصف كأس من البراندي، وكان كل مرة يتوقف في قراءته للكتاب بأخذ رشفة من قدح الليمونادة، أو يتسلى بقضم قطعة من الثلج الموجود في القدح، وكان على أتم الاستعداد لحضور مراسم الدفن، فجواربه ارتداها، ولبس قميصا بلا ياقة، وحول وسطه تلك الحمالات المطاطية المخططة بخطوط خضراء، وكل ما يضايقه فكرة أنه مضطر لتغيير رداءه من أجل الدفن، وفجأة ترك القراءة، ووضع الكتاب فوق الكتاب الآخر، وراح يهز نفسه في راحة وهدوء على الكرسي الهزاز المصنوع من خشب الصفصاف، ويتأمل من بين الظلام الأغصان الملتفة لشجرة الموز الموجودة في الفناء الموحل وشجرة المانجو، التي قطعت وشذبت تشذيبا وجحافل النمل الطائر، التي تأتي عادة بعد هطول المطر، يتأمل مساء سوف يذهب كما يذهب غيره، كل هذا وهو ناس أنه كان لديه يوما ببغاء من باراماريبو يحبه كأنه إنسان، وليس مجرد طائر، وإذا به يسمع هذا الببغاء يصيح قائلا: «ببغاء ملكي صغير». كان قريبا جدا منه، وكأنه بجانبه، وإذا به يراه على غصن منخفض العلو من شجرة المانجو، فصاح به:

- آه يا عديم الحياء.

فأجابه الببغاء على الفور بصوت مماثل:

- أنت عديم الحياء وأكثر يا دكتور.

وظل الدكتور أوربينو يتحدث معه دون أن يغيب عن نظره لحظة، بينما يرتدي حذاءه ذا الكعب العالي بحرص وأناة كي لا يفزع ببغاءه، ثم ضبط

وضع الحمالات على كتفيه ونزل إلى فناء الدار الموحل متحسسا الأرض بعكازه كي لا يتزحلق ويقع على السلالم الثلاث الخاصة بتراس الدار، وكان الببغاء في وضعية منخفضة للغاية لدرجة أنه مد له عكازه ليقف على مقبضها الفضي كعادته دائما، ولكن الببغاء تحاشى العكاز وراح يبتعد، بل وقفز إلى غصن أعلى قليلا، ولكنه على كل حال يمكن الوصول إليه بسهولة هناك، حيث السلم المنزلي الموجود من قبل مجيء رجال الإطفاء، وحسبها الدكتور أوربينو، فوجد أنه يمكن الإمساك به بمجرد طلوع درجتين فقط من درجات السلم، وبناء على ذلك تسلق الدرجة الأولى، وهو يغني كي لا يخيف ذلك الببغاء الهلوع، والذي كان يردد وراءه نفس كلمات الأغنية دون أي لحن، ولكنه مع هذا ابتعد بضع خطوات، فصعد الدكتور أوربينو الدرجة الثانية دون أدنى صعوبة ممسكا السلم بكلتا يديه، والببغاء يردد نفس كلمات الأغنية كلها، وهو في مكانه لا يحيد عن موضعه قيد أنملة. تسلق الدكتور أوربينو الدرجة الثالثة، ثم الرابعة، كان قد أخطأ في حساب ارتفاع الغصن، ثم أمسك السلم بيده اليسرى، وبيده اليمنى حاول إمساك الببغاء. في ذلك الوقت رأته ديجنا باردو من الخلف، تلك الخادمة العجوز، التي كانت آتيه لتلفت انتباهه إلى أنه تأخر عن حضور مراسم دفن صديقه، رأته وهو ممسك بالسلم، ولم تصدق ما تراه بأم عينيها لولا أنها ميزت حمالاته المخططة باللون الأخضر، فعرفت أنه هو الدكتور أوربينو، حينئذ صاحت في خوف وهلع:

- يا إلهي، سوف يموت سيدي.

أمسك الدكتور أوربينو رقبة الببغاء بيده اليمنى، وهو يتنهد منتشيا بانتصاره قائلا: أخيرا. ولكنه سرعان ما أطلقه، فالسلم انزلق من تحت رجليه، وإذا به يجد نفسه معلقا لحظة في الهواء، حينها أدرك أنه سوف يموت، وهو بعد لم يقدم قربانه للكنيسة، سيموت بلا مهلة ليندم على شيء، أي شيء، بلا مهلة ليودع أحدا، سيموت في الساعة الرابعة وسبع دقائق من مساء يوم

الأحد، يوم قدّاس العَنصَرة.

وقتها، كانت فيرمينا داثا في المطبخ تتذوق الحساء، الذي سيقدم في العشاء، وإذا بها تسمع صرخة هلع وفزع تصدر من ديجنا باردو، وإذا بها تسمع صخبا وجلبة بين خدم البيت جميعا، بل وخدم البيوت المجاورة. حينها، ألقت ملعقة التذوق، التي كانت في يدها، وبكل ما أوتيت من قوة راحت تركض بما يسمح لها سنها الكبير، تصرخ وتعوي وهى لا تعرف بعد ما الذي حدث بالضبط أسفل شجرة المانجو، وانخلع قلبها لمرأى زوجها، وهو ملقى على الطين فاغرا فاه. حانت لحظة موته، ولكنه ظل يقاوم ويقاوم دقيقة أخرى علها تبلغ موضعه، وفعلا وصلت إليه، واستطاع أن يعرفها من بين كل ما حوله من أصوات وجلبة مريعة، عرفها من خلال دموعها المتساقطة ألما وشجنا لا حد لهما كونه يموت بدونها، ونظر إليها نظرة أخيرة إلى الأبد بعينيه المخضلتين بندى الدموع، بعينين كان فيهما من الهم والعرفان بجميلها الذي لم يعد قادرا على رده، نظرة لم ترها هي البتة على مدار نصف قرن من الحياة المشتركة بينهما، ومع خروج نفسه الأخير جاهد، وقال لها:

– الله وحده يعلم كم أحببتك.

كان يوم موته خالدا ومجيدا، فلم يكن يحيا بلا سبب ليموت بلا سبب. بمجرد عودته من فرنسا، بعد أن أنهى دراساته التخصصية، ذاع صيته في البلدة كلها لكونه الوحيد الذي عرف أن يجنبها، بطرقه الحديثة شديدة المفعول، آخر «طوفة» من وباء الكوليرا الفتاك، فحينما اكتسحت البلدة «الطوفة» السابقة من الوباء، كان لا يزال في أوروبا، وكان الوباء أجهز على ربع سكانها في أقل من ثلاثة شهور، وكان والده من المتوفين جراء الكوليرا، نعم والده، الذي كان أيضا طبيبا ذا صيت كبير، كما أنه استطاع بما حازه من شهرة سريعة واسعة، وبما لديه من ميراث عائلي أن يؤسس «جمعية الطب» الأولى من نوعها على مستوى بلاد الكاريبي، وعلى مدار سنوات طويلة، كان هو رئيسها

مدى الحياة، كما استطاع أن يشيد أول قناطر مائية، وأول شبكة للمصارف والمجاري، وأيضا شارك في بناء سوق عامة مسقوفة، ضمنت التخلص من جميع ما كان يتبقى من بضائع عند خليج «لاس آميناس»، كما كان أيضا رئيس أكاديمية اللغة وأكاديمية التاريخ، كما أن بطريرك أورشليم اللاتيني منحه لقب فارس من كنيسة القيامة نفسها لما له من خدمات وأفضال على الكنائس، بل إن حكومة فرنسا منحته أعلى تكريم رسمي في فرنسا، ألا وهو وسام جوقة الشرف الفرنسي، منحته له بدرجة فارس. وكان متحمسا نشيطا لكل الجمعيات الطائفية والوطنية الموجودة في البلدة، خاصة «الجمعية الوطنية»، التي أسسها أفراد لهم مكانة وحظوة كبيرة، ولم يكن لهم أي رابط بالسياسة وشؤونها، وكانوا يضغطون بكل ما أوتوا من قوة على الحكومات، وعلى التجارة المحلية بطرق ساخرة جريئة للغاية بالنسبة لهذه الفترة، وكان بين هذه الطرق، محاولة استخدام المنطاد الكروي في أول طيران له لنقل رسالة إلى مدينة سان خوان ديه لا سياناجا، وكان ذلك قبل وقت طويل من الاعتماد على البريد الجوي كوسيلة منطقية قابلة للتحقيق، وأيضا كانت إحدى أفكاره إنشاء مركز للفنون، الذي كان فيما بعد نواة لمدرسة الفنون، التي لا تزال موجودة إلى الآن، وفي المبنى نفسه، وهى المدرسة، التي كانت ترعى المسابقة السنوية في شهر أبريل، وعلى مدار سنين طويلة.

وهو الوحيد، الذي استطاع أن يفعل ما ظل قرنا من المستحيلات، مثل: إعادة بناء مسرح الكوميديا، الذي كان ساحة لتعارك الديكة، وملاذا لمربي الدجاج منذ عهد الاستعمار. كانت هذه الخطوة طفرة تمثل حركة وتعبئة وطنية شارك فيها جميع قطاعات المجتمع بلا استثناء، واعتبرت حركة تعبوية لا بد منها وتستحق الكثير. على كل، تم افتتاح مسرح الكوميديا خاليا من الكراسي والمصابيح، وكان على الحاضرين أن يجلبوا معهم ما يجلسون عليه، وأي شيء يضيئون به خلال الاستراحات، وكان يُتبع هناك كل

السلوكيات والإتيكيت الموجود في أوروبا حين يُمثّل العمل لأول مرة على المسرح، فتجد النساء يستغللن هذه اللحظة ليظهرن بملابسهن الطويلة البراقة ومعاطفهن الجلدية، رغم الحر الكاريبي، مما اضطر إدارة المسرح لترخيص دخول الخدم ليحملوا عن أسيادهم الكراسي والمصابيح، ومختلف أنواع الطعام الضرورية كي يستطيعوا الصمود أمام تلك البرامج المسرحية، التي لا تنتهي، ففى ذات مرة امتدت إحدى المسرحيات إلى الساعة الواحدة من القدّاس الأول.

وبدأ أول موسم بفرقة أوبرا فرنسية تميزت بكونها تعتمد على القيثارة في الموسيقى، وأكثر ما ميزها، وخلّد ذكراها كان ذلك الصوت العذب الصافي والموهبة الدرامية، التي تميزت بهما مغنية تركية كانت تغني حافية القدمين، وفي أصابع قدميها خواتم مرصعة بالأحجار الكريمة، ومن بداية الفصل الأول لم ير من كان جالسا هناك المطربين أو أحد على المسرح، وذهب صوت الجميع حتى المغنين، جراء ذلك الدخان الكثيف الصاعد من المصابيح بسبب زيت النخيل، ولكن مؤرخو المدينة لم يألوا جهدا في إخفاء كل هذه العقبات التافهة، بل ورفعوا من شأن الحدث وخلدوه، ولا شك أن ما فعله الدكتور أوربينو بإعادة هذا المسرح كان أكثر مبادراته صيتا بين الجميع. سرت حمّى حب الأوبرا بين الجميع حتى آخر من يخطر على بالك من طبقات المجتمع أصابتهم تلك الحمّى، وكان هذا نواة لنشأة جيل بالكامل يعشق أوبرا إيسولديس، وعطيل، وعايدة، وسيجفريدوس، ومع هذا، لم يتصاعد الأمر، وينتشر كما أراد الدكتور أوربينو، كان الدكتور أوربينو يود لو يرى كل من يؤيدون الأوبرا الإيطالية، ومن يؤيدون أوبرا ريتشارد واجنر يتواجهون ويتصارعون بالعصيان خلال الاستراحات المسرحية.

ولم يكن الدكتور خوبينال أوربينو يقبل بأي مناصب رسمية، من تلك التى كانت تأتيه بلا حصر، وبلا أي شروط، وكان ينتقد بشراسة كل الأطباء،

الذين يقبلون بأي منصب رسمي لمجرد أن يرتقوا إلى مناصب سياسية عليا، ورغم هذا، كان مؤيدا لحزب الأحرار، وعادة ما يصوت لصالح نواب هذا الحزب أثناء الانتخابات، ولكنه يفعل هذا لا عن اقتناع، وإنما لمجرد العادة، وربما يكون هو الوحيد والأخير الذي ينحدر من عائلة نبيلة كعائلته، وينحني راكعا أمام موكب المطران، حين يمر أمامه في الشارع، وكان يعرف نفسه على أنه رجل محب للسلم والسلام بالفطرة، فهو يؤيد الصلح والتعايش النهائي بين كل من الأحرار والمحافظين من أجل مصلحة البلد والوطن، ومع ذلك، فأفعاله، أمام الجميع، كانت مستقلة غاية الاستقلال، تصرفات وأفكار وأفعال تخصه وحده، فتجد الأحرار يقولون عليه إنه ليس إلا رجل قوطي يسكن الكهوف، وتجد المحافظين يقولون إنه لا ينقصه إلا أن يكون ماسونيا، وتجد الماسونيين ينبذونه ويكرهونه كأنه كاهن مزروع بينهم لخدمة الكرسي الرسولي، أما منتقدوه الأقل شراسة فلا يرونه إلا مجرد رجل أرستقراطي شغوف بالمسابقة الشعرية، التي تقام في أبريل كل سنة، بينما الأمة تنزف وتدمي في حرب أهلية لا تنتهي أبدا.

شيئان فقط بدا أنهما لا يلائمان شخصية عظيمة كشخصيته، أولهما: أنه انتقل إلى منزل جديد في حي كله من ذوي الثراء حديثي العهد بالنعمة، تاركا قصره القديم، الذي كان خاصا بماركيز كاسالدويرو، الذي كان بمثابة مكان إقامة العائلة لحوالي قرن من الزمان، والشيء الثاني زواجه من امرأة بارعة الجمال، ولكنها لا ذات حسب ولا نسب ولا غنى نهائيا. كانت النساء ذوات الألقاب الطويلة يسخرن منها سرا، حتى تأكدن أنها أقوى وأذكى منهن مجتمعات، وكن يفكرن مائة مرة قبل الشروع في السخرية منها. الدكتور أوربينو ذات نفسه كان واعيا للغاية لكل هذه المعوقات والعقبات، التي تعترض صورته العامة أمام الناس، ولا أحد بفاهم مثله كونه البطل الأخير من سلالة ولقب عائلي ذاهبين إلى انقراض. كان نجلاه كل منهما بعيد عن

الآخر أشد البعد، ولكنهما بلا أي بريق يميزهما، الأول: الذكر، واسمه ماركو أوريليو، دكتور في الطب كأبيه، وهو مثل كل الأولاد البكر في هذا الجيل، لم يقم بأي شيء مميز في حياته، ولا حتى أنجب له ابنا على مدار خمسين عاما من عمره، والثانية أنثى، وهى أوفيليا، التي تزوجت من موظف عالي المقام يعمل في بنك نيو أورليانز، وبلغت ربيع عمرها وأنجبت ثلاث بنات، ولم تنجب ذكرا واحدا، ومع ذلك، فرغم تألمه لكون نسله العائلي التاريخي تعرض للانقطاع، إلا أن أكثر ما كان يخافه هو موته وبقاء فيرمينا داثا وحدها بلا وجوده المؤنس.

على كل، لم تنتهِ تلك التراجيديا عند هذا الحد بين أهله ومجتمعه، وإنما امتدت لتُعدي البسطاء من الناس، الذين انتشروا في الشوارع متوهمين بأنهم كانوا يعرفونه حق المعرفة، رغم أنه فعلا أسطورة من الأساطير، وتم الإعلان عن فرض ثلاثة أيام حداد على البلدة، ووضعت الأعلام في منتصف ارتفاع كل سارية موجودة على المنشآت الحكومية، وحتى أجراس الكنائس كانت تدق بلا توقف إلى حين تم بناء القبر الخاص به في ضريح العائلة، كما أن مجموعة من مدرسة الفنون الجميلة قامت بعمل قناع لتضعه على وجه الجثة من المفترض أنه كان سيُستخدم فيما بعد كقالب ليكمل به عمل تمثال نصفي بالحجم الطبيعي، ولكن هذا التمثال لم يتم صنعه لأنه لم ير أحد أنه من الوفاء والإخلاص عمل مثل هذا التمثال، لما اتسمت به اللحظات الأخيرة من هلع ورعب ودهشة، وكان يوجد بالمصادفة في البلدة فنان مشهور في طريقه إلى أوروبا رسم على قطعة ضخمة من القماش، وبواقعية مؤثرة الدكتور أوربينو على السلم يمد يده ليمسك بالببغاء في اللحظة القاتلة، والشيء الوحيد في هذا الرسم، الذي كان على النقيض تماما من الواقع الحقيقي التاريخي للدكتور أوربينو هو كونه لم يرسمه بقميصه المميز بدون ياقة، كما لم يضع في الصورة حمالاته المخططة بخطوط خضراء، وإنما رسمه مرتديا قبعة سوداء

مستديرة، وسترة رسمية استوحاها من صورة وجدها في إحدى الجرائد أيام وباء الكوليرا، وكي لا يُحرم أحد من رؤية هذه اللوحة تم عرضها بعد عدة شهور من موت الدكتور أوربينو في المعرض الكبير المسمى «الامبريه ده أورو»، الذي لم يكن إلا محلا للبضائع المستوردة، وتقاطر عليه جميع سكان البلدة، ثم صارت اللوحة في كل مكان، وعلى كل جدران المنشآت العامة والخاصة عرفانا بجميل هذا الرجل القديس المحبوب، وتخليدا لذكراه، حتى أنه تم أخيرا تعليق اللوحة في لحظة مثيرة للشجن والحزن على مبنى مدرسة الفنون الجميلة، والتي انتزعها بعد ذلك بسنين طويلة طلاب الرسم من هناك وأحرقوها في حرم الجامعة لمجرد أنها تمثل جمالا وزمنا بغيضين أشد البغض.

وفيرمينا داثا، منذ اللحظة الأولى لترملها لم تكن بائسة ضعيفة، كما كان يخشى الدكتور أوربينو. على العكس تماما كانت صلبة لا تلين، خصوصا في تصميمها على عدم السماح باستخدام جثة الدكتور لأي سبب من الأسباب، بل ورفضت ما ضُمّن في تلغراف رئيس الجمهورية من طلب بوضع الجثة في غرفة تسجية الموتى في قاعة الاحتفالات الخاصة بحكومة المحافظة كي تُعرض على الناس، وبنفس الصفاء والهدوء رفضت أيضا طلب المطران الشخصي ببقاء الجثة في الكاتدرائية طوال الليل، لكنها فقط وافقت على أن تكون الجثة حاضرة في قدّاس الجنازة على الميت، وبالإضافة إلى وساطة ابنها، الذي أفزعه وأذهله هذا العدد اللانهائي من الطلبات والالتماسات المختلفة، ثبتت فيرمينا داثا على مبدأها القروي بأن الأموات لا ينتمون لأحد إلا لعائلاتهم، وعلى هذا فالجثة سوف تبقى طوال الليل في البيت، وليأتِ من يأت ليشرب القهوة ويأكل الخبز المحشو بالجبن، وليبكِ ما شاء له أن يبكي، ولم يحدث أن امتد المأتم في الدار لتسع ليالِ كما هي العادة، وإنما غُلقت أبواب الدار بعد دفن الميت، ولم يُسمح بالزيارات إلا للمقربين فقط.

وبقيت الدار كلها ملزمة بما يفرضه الموت من حداد وحرمة، وتم حفظ جميع الأشياء الثمينة في حيطة وحرص شديدين، حتى أنك تجد جميع الجدران عليها آثار وبصمات ما كان عليها من لوحات وإطارات، وتم وضع جميع الكراسي الخاصة بالدار، والمعارة من الجيران على حد سواء بجانب جدران الدار بدايةً من الصالة إلى غرف النوم، فبدا ما كان في الدار من مساحات فارغة أكثر رحابة ووسعا، وحتى الأصوات كلها كانت ترن رنينا عجيبا كأنها أصوات أشباح، وذلك لأنه تم إخلاء الدار من كل قطع الأثاث الكبيرة باستثناء البيانو الكبير الراقد في أحد الأركان أسفل ملاءة بيضاء اللون، وفي وسط المكتبة، على المكتب الذي كان خاصا بوالده، أُسجي ما كان قبلا «خوبينال أوربينو ديه لا كاييه» بلا تابوت، وبلا أي شيء يحده، وعلى ملامح وجهه آثار الخوف، الذي تجمد فيه، مرتديا قبعة سوداء، وبجانبه سيف الفارس الذي منحته له كنيسة القيامة، وعلى مقربة منه كانت فيرمينا داثا في طقم حداد بالكامل، تحس برجفة وخفقان، ولكنها مسيطرة متمالكة نفسها، تتلقى عبارات العزاء دون افتعال ودرامية، لا تكاد تتحرك من موضعها قيد أنملة، إلى أن حانت الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي، فودعت زوجها الميت عند عتبة الدار ممسكة بمنديلها.

وبالطبع لم يكن سهلا عليها البتة أن تستعيد مرة أخرى رباطة جأشها وقوتها بعد تلك الصرخة المهولة، التي أطلقتها ديجنا باردو في فناء الدار بعدما رأت زوجها العجوز ممددا على الأرض الموحلة يزفر من فمه آخر أنفاسه، أحست بالأمل ما إن رأته في هذا الوضع، لأنها رأت في عينيه بريقًا غريبا يشع نورا وحياة لم تره من قبل طوال حياتها معه، فكم ودت ورجت من الله أن يطيل في عمر زوجها لحظة أخرى علها تبوح له بمدى حبها وعشقها، الذي كان فوق جميع كل تلك الشكوك والظنون من كليهما، وكم تمنت لو تعاد الحياة بينهما مرة أخرى لتقول له ما لم تقله من قبل، ولتصلح من أي

شيء سيئ فعلته في ماضيها معه، ولكنها في نهاية المطاف مضطرة أن تقف عاجزة أمام قسوة الموت وشدته، واستحال ما فيها من ألم ووجع إلى غضب أعمى ضد الدنيا كلها، وضدها هي نفسها، وهو ما ألهمها السيطرة على نفسها والقدرة على مواجهة هذه الوحدة القاسية. منذ تلك اللحظة لم تعقد أي هدنة مع روحها، فما إن تبدر أي إشارة ألم واحدة حتى تتعهدها وترعاها بلا توان، فيذهب الألم، واللحظة الوحيدة التي أحست بوجع وهم لا قبل لها به، اللحظة التي حانت فيها الساعة الحادية عشرة من مساء يوم الأحد، وهو الأمر الذي كان أيضا لا إراديا بالنسبة للكل، وليس لها فقط، ففي تلك الساعة كانت لحظة حمل النعش الأسقفي المعطّر، الذي تضوع منه رائحة الصابون النفاذة، نعش كانت مقابضه من النحاس الصافي، مبطنا بالحرير الفواح بالعطر، وأمر ابنه، في الحال، بوضع الغطاء على النعش، فالدار بالكاد تخلو من الهواء من أثر ذلك البخار المتصاعد من الأزهار والورود، بالإضافة إلى حرارة الجو العالية، كما غلب ظنه أنه بدأ يرى تلك الظلال البنفسجية على رقبة والده، وترامى بين الجميع صوت يقول في شرود: «في هذا العمر من حياة المرء يكون نصف متعفن»، وقبل أن يضعوا الغطاء على النعش كانت فيرمينا داثا نزعت خاتم زواجها من يدها ووضعته مع زوجها، ثم وضعت يدها على يده، كما كانت تفعل في الأيام الخوالي حين تباغته وهو يهذي بالكلام أمام الناس، وضعت يدها، وقالت له:

– سوف نلتقي في أقرب وقت.

وكان فلورنتينو أريثا، الذي اندمج بين جموع النبلاء، الذين أتوا الدار، ولا يكاد يراه أحد، يحس بوخز في جنبه، وذلك لأن فيرمينا داثا لم تميزه وسط كل تلك الجلبة، رغم كونه من أوائل من عزوها، ورغم أن أحدا لم يكن حاضرا متعاونا مثله، ولا مفيدا أو نافعا في ليلة كهذه كلها طوارئ ومفاجآت، فهو من وضع النظام في المطبخ المضطرب كي يستطيع الكل شرب القهوة،

وهو من مدّ البيت بكراسي أخرى بعدما لم تكف كراسي الجيران بالغرض، وهو أيضا من أمر بوضع الزائد من أكاليل الزهور في فناء الدار، حيث لم يعد مكان واحد فارغ لهذه الزهور، وهو من تولّى أمر البراندي من أجل مدعوي الدكتور لاسيديس أوليبيّا، والذين علموا بالخبر المحزن، وهم في أوج احتفالهم، وجاءوا على الفور ليكملوا عربدتهم جالسين في حلقة دائرية أسفل شجرة المانجو. وهو الوحيد الذي استطاع أن يستجيب بمنتهى السرعة حين ظهر ذلك الببغاء الهارب في منتصف الليل في غرفة الطعام رافعا رأسه فاردا جناحيه. ظهوره فقط جعل الدار في حالة ذهول ودهشة، فقد بدا كأنه عاد تائبا خائبا يرجو الصفح والغفران، وعلى الفور أمسك فلورنتيو أريثا الببغاء من رقبته دون أن يعطيه الفرصة ليهتف بكلماته الحمقاء الطائشة كأنها الطوب، ثم حمله إلى الإسطبل في قفصه المحجوب بغطاء من القماش. هكذا كان فلورنتينو أريثا، هكذا ببساطة قام بكل شيء في غاية الحذر والذكاء والقدرة، فمن شدة ذكائه لم يخطر على بال أحد قط في هذه الدار أنه يتدخل في كل شيء، ولكنه يساعد في الوقت المطلوب تماما، مساعدة لا تقدر بثمن.

هو ذلك العجوز الخدوم المتفاني الجاد في معاملته، هو هو بجسده بارز العظام والمستوي في آن، ببشرته السمراء وجلده الخالي تماما من الشعر، وعينيه النهمتين الجشعتين خلف نظارته المستديرة وذراعيها المصنوعين من المعدن الأبيض، وشاربه الرومانسي المخضبة أطرافه بالصمغ، وهو ما كان يعد شيئا لا يناسب موضة تلك الفترة بعض الشيء، وكان يُسرّح آخر ما تبقى من خصلات شعر على صدغيه إلى أعلى، ثم يثبتها بالفازلين في منتصف رأسه اللامعة البراقة. إنه حل نهائي لصلعته التامة مكتملة الأركان، وما كان فيه من ظرف فطري وخمول كانا يجذبان على الفور كل من يراه، بل وكان لديه سمتان تثيران الشكوك بالنسبة لرجل عجوز وحيد مثله. أولاهما أنه كان يصرف الكثير من ماله وذكائه وقوة إرادته حتى لا يظهر عليه أنه ناهز الستة والسبعين من عمره في شهر مارس الفائت، وثانيتهما أنه كان مقتنعا كل

الاقتناع أن لا أحد على وجه الأرض يكن ما يكنه هو من حب صامت مكظوم، هو الذي يحس بعزلة روحه.

كان فلورنتينو، ليلة داهمه خبر وفاة الدكتور خوبينال أوربينو، يرتدي ما يرتديه عادة، رغم الحر القاتل في شهر يونيو، بذلة من الصوف غامق اللون مع الصدرية، ببيونة من الحرير مربوطة على رقبته المشدودة، وقبعة من الصوف الملبد، وشمسية مصنوعة من قماش أطلس أسود اللون كان يستعملها في نفس الوقت كعكاز، ولكن ما إن بدأت أشعة الصباح تتسلل إلى الكون حتى اختفى من الدار لمدة ساعتين، ثم عند طلوع الشمس عاد مرة أخرى حليق الذقن تضوع من أنفاسه رائحة العطر والمطهرات، مرتديا سترة رسمية سوداء اللون لا يلبسها إلا لحضور مراسم الدفن، أو حين يقوم بالخدمة في «الأسبوع المقدس»، وفي مكان رابطة العنق ببيونة مصنوعة من تلك الأشرطة التي يستعملها الفنانون، وعلى رأسه قبعة مستديرة سوداء، وكان يمسك بتلك الشمسية أيضا، ولكن هذه المرة ليس بحكم العادة، وإنما لأنه كان يعلم تمام العلم بأن السماء سوف تمطر قبل الساعة الثانية عشرة، وعلى هذا فقد أعلم الدكتور ماركو أوريليو بأنه لابد من التعجيل بموعد الدفن في أقرب وقت ممكن، وفعلا حاولوا، وذلك لأن فلورنتينو أريثا في الأصل ينتمي إلى عائلة من البحارين وأصحاب السفن، ويرأس شركة الكاريبي للملاحة النهرية، ما يعلل إدراكه الجيد لتوقعات الجو وتنبؤاته، ولكنهم وبالطبع لم يستطيعوا أن يخبروا بهذا كل السلطات المدنية والعسكرية، والجمعيات، الخاص منها والعام، وفرقة الموسيقى العسكرية، والفرقة التابعة لمدرسة الفنون الجميلة، والمدارس جميعها، وكل تلك الحشود الدينية، التي كانت متفقة على المجيء في الساعة الحادية عشرة، لم يستطيعوا أن يخبروا كل هؤلاء بتعجيل موعد الدفن، لدرجة أن الجنازة التي تم إعدادها على أن تكون حدثا مشهودا له في التاريخ، انتهى أمرها بما هطل من السماء من مطر غزير شتت كل تلك الحشود وفرقها، وجاءت قلة من الناس إلى ضريح العائلة يخوضون في

الوحل والطين، جاءوا إلى هناك تحميهم أشجار السيبا الملتفة والممتدة على طول جدران القبر، والغريب أنه تحت نفس هذه الأشجار المتشابكة الملتفة، ولكن في جزء خارجي خاص بالمنتحرين، كان اللاجئون الكاريبيون دفنوا في الليلة السابقة خيريميا ديه سانت-أمور، ومعه كلبه كما أراد هو.

وفلورنتينو أريثا من هؤلاء القلة، الذين بقوا إلى أن انتهت مراسم الدفن. ظل طول الوقت، وكل ما فيه مبلل حتى ملابسه الداخلية، وعاد إلى بيته، وهو في غاية الخوف والهلع خشية أن يصيبه أي التهاب في رئتيه بعد سنين طويلة من الحرص والحيطة والحذر المفرط. أعد لنفسه كوبا من الليمونادة الساخنة موضوعا فيها بعض من شراب البراندي، وشربه، وهو على سريره، مع قرصين من الإسبرين، وظل أسفل البطانية الصوف، حتى استعاد جسده حرارة الغرفة العادية، بعدما غرّق السرير بعرقه، وحين عاد إلى المأتم مرة أخرى، أحس بدفقة شديدة من الحماس والقوة تسري في جسده. وقتها، كانت فيرمينا داثا استعادت سيطرتها على الدار، التي تم كنسها كلها وصارت مهيأة لاستقبال الناس خير استقبال، كما وضعت في مذبح غرفة المكتبة لوحة كبيرة رُسم عليها بالقلم الرصاص صورة الدكتور خوبينال أوربينو، وعلى إطار الصورة من أعلى وضع شريط الحداد الأسود اللون، وفي حدود الساعة الثامنة امتلأت الدار بالناس، وكان الجو حارا خانقا كليلة أمس، ولكن ما إن انتهت صلاة العذراء حتى كان أحدهم ينادي بضرورة الانسحاب كي تستطيع تلك الأرملة البائسة أن ترتاح للمرة الأولى منذ ليلة يوم الأحد.

ودعتهم جميعا عند المذبح، ولكن آخر من تبقى من الأقرباء الخلصاء صاحبتهم حتى باب الدار كي تغلقه بنفسها كعادتها دائما، وبينما تهم بإغلاق الباب، إذا بها ترى فلورنتينو أريثا في لبس الحداد واقفا منتظرا في منتصف الصالة الخالية، وفرحت، لأنها منذ سنوات طويلة جدا محته من ذاكرتها محوا، وهذه هي المرة الأولى، التي تراه فيها بنفس صافية بسبب نسيانها،

ولكنها قبل أن تشكره، إذا به يضع قبعته على قلبه باحترام ورهبة، ويقول مفجرا ذلك الدمل، الذي مدّد حياته بأكملها:

- آه يا فيرمينا، انتظرت هذه اللحظة منذ نصف قرن كي أؤكد لكِ مرة أخرى وفائي التام وحبي الأبدي لك.

فظنت أنها أمام مجنون مختل العقل، لو لم يكن أمامها أسباب كافية لتفكر في أن فلورنتينو أريثا في هذه اللحظة يستلهم الوحي من روح القدس، وما كان منها إلا أن ردت في عنف وقسوة تلعنه لتدنيس البيت، وجثة زوجها لا تزال في التابوت لم تتجمد بعد. قالت له: «اخرج من هنا، ولا تجعلني أرى وجهك فيما تبقى من أيام عمرك»، وبكل قوة فتحت الباب الذي كانت ستغلقه منذ قليل، وختمت كلامها قائلة:

- وأتمنى أن تكون معدودة.

وحين تأكدت من تلاشي خطواته في الشارع الخالي من المارة، أغلقت الباب ببطء شديد واضعة المزاليج والرُّتُج، وأخيرا وجدت نفسها وحيدة أمام مصيرها المحزن المشئوم. فهي ، وحتى تلك اللحظة، لم تكن تدرك أبدا أبدا حجم وثقل المصاب، الذي سببته حين كان لديها من العمر ثمانية عشر عاما، لم يخطر ببالها قط أن هذا الرجل سيظل يلاحقها حتى الموت، وللمرة الأولى انهمرت دموعها انهمارا منذ ليلة وفاة زوجها المشئومة، انهمرت دموعها ولا شاهد عليها إلا هي، فهذه طريقتها في البكاء. انهمرت دموعها من أجل زوجها، من أجل وحدتها، من أجل ما تحس به من غضب دفين مكتوم، وحين دلفت إلى غرفة نومها الخالية بكت مرة أخرى، بكت على نفسها، بكت لأنها مرات قليلة جدا، التي نامت فيها على هذا السرير وحدها، منذ أن فُضّت بكارتها. كل شيء يذكرها بزوجها كان يؤجج نار بكائها، «بُلغته» ذات الشراشيب، التي كان يرتديها، قميص نومه الموجود أسفل الوسادة، وحتى مكانه الخالي في مرايا التسريحة الخاصة بالغرفة، وحتى رائحة جلده الخاصة

به وحده تشجيها وتبكيها، وإذا بها تسيطر على عقلها فكرة غريبة مبهمة: «إن من يموت من الأحباب لا بد أن تموت معهم أشياؤهم كلها»، ولم تكن في حاجة إلى أحد كي تنام، ولم تكن في حاجة إلى طعام قبل النوم. نامت، ومن شدة حزنها تمنت لو يتوفاها الله في نومها، نامت من فورها على هذه الأمنية حافية القدمين، بكامل ملابسها. فعلا نامت دون أن تحس، ولا تدري أنها نامت، ولكنها كانت تعرف أنها حية ترزق، تعرف أن النصف الآخر من السرير خالٍ، تعرف أنها تنام على جانبها، وعلى الطرف الأيسر من السرير، كعادتها دوما، ولكن السرير الآن غير متوازن لخلوه من الطرف الآخر، بل وهى نائمة كانت تفكر أنها لن تستطيع النوم نهائيا هكذا، وبدأت تنتحب وهى نائمة، وأخذت في النحيب دون أن تغيّر من وضعها على جانب السرير إلى أن بدأت الديكة تصيح وأيقظتها شمس الصباح غير المرغوب فيها بدون زوجها. حينئذ فقط أدركت أنها نامت كثيرا، ولم تمت كما أرادت، نعم نامت وهى تنتحب، لكن فكرها منصرف إلى فلورنتينو أريثا أكثر من زوجها المتوفى.

(٢)

على النقيض، لم يتخل فلورنتينو أريثا، ولو لحظة واحدة، عن التفكير فيها بعدما رفضته هذا الرفض العنيف، بعد سلسلة طويلة من اللقاءات الغرامية الطويلة والمتناقضة أشد التناقض، فواحد وخمسون عاما وتسعة شهور وأربعة أيام هي عمر حبه لها، وهو أبدا لم ينسها، لم يحتج أبدا ليخط خطا على جدار أي زنزانة، فلا يوم يمر إلا ويحدث أمرا يجعلها تأتي على باله دون انقطاع، وكان في فترة انقطاعه عنها يعيش مع والدته، ترانسيتو أريثا، في نصف بيت مستأجر، ويقع في «لا كايه ديه لاس بنتاناس»، حيث كانت أمه منذ باكورة شبابها تبيع أدوات الخياطة، وما تبقى من أقمشة القمصان وخرق قديمة تبيعها لجرحى الحروب على أنها قطع من القماش القطن، وكان هو ابنها الوحيد، مجرد نتيجة للقاء عارض بينها وبين البحار المشهور السيد بيو كينتو لوياثا، أحد هؤلاء الأخوة الثلاثة، الذين أسسوا شركة الملاحة النهرية الكاريبية، وعن طريقها ساهموا في التجارة على البواخر عبر نهر ماجدالينا.

ومات السيد بيو كينتو لوياثا حين كان فلورنتينو يبلغ من العمر عشر سنوات. ورغم أنه كان يتولى نفقاته سرا، إلا أنه لم يعترف به كابن له أمام القانون، ولا حتى أمّن له المستقبل، بحيث بقي بلقب أمه الوحيد «أريثا»، ولو أن حقيقة نسبه هذه كانت معلومة للجميع، وبعد موت أبيه، اضطر أن يترك المدرسة ليعمل كمتدرب في مكتب البريد، حيث كانوا يأمرونه بفتح الأكياس وترتيب الرسائل وإخطار عموم الناس بأن البريد وصل عن طريق رفع علم الدولة التي ينتمي إليها البريد عند باب المكتب.

جذب ذكاء وفطنة فلورنتينو انتباه عامل التلغراف، المهاجر الألماني لوتاريو ثوجوت، الذي كان يعزف على آلة الأرغن في الحفلات الدينية الكبيرة الخاصة بالكاتدرائية، ويعطي دروسا موسيقية في البيوت، وقام لوتاريو ثوجوت بتعليمه شفرات مورس، والتحكم في نظام التلغراف، ومن شدة ذكاء فلورنتينو كفاه ما تعلمه على يديه من الدروس الأولى في الكمان، حتى أن من يسمعه يعزف لا يحسبه إلا عازفا قديما محترفا، وحين عرف فلورنتينو فيرمينا داثا كان ذلك الشاب الذي يحظى بأكثر نسبة اهتمام في وسطه، فهو أفضل من يرقص على ألحان موسيقى ذلك الوقت، وكان دائما ما يقول الكثير من الأشعار المؤثرة عن ظهر القلب، ودوما تجده مستعدا متأهبا إذا طلبه أصدقاؤه كي ينشد ليلا تلك القصائد الغنائية لعشيقاتهم عازفا وحده على الكمان، وكان في ذلك الوقت نحيلا ضامر الجسد، شعره يشبه شعر الهنود يصبغه ببلسم ذي رائحة نفاذة، وعلى وجهه نظارة قصر نظر جعلته يبدو أكثر غرابة في مظهره وشكله. وبخلاف نظره الضعيف، كان يعاني أيضا من إمساك يومي اضطره لأن يأخذ حقنة شرجية مطهرة يومية على مدار حياته كلها، وكان كل ما لديه من ملابس بذلة واحدة فقط ورثها عن أبيه تصلح ليوم القداس، ولكن أمه تحرص عليها أشد الحرص حتى يأتي هذا اليوم فتبدو نظيفة جديدة كأنه اشتراها للتو، ورغم ما يبدو عليه من ضعف وهزال، وميله الشديد للعزلة والكتمان، ورغم ملابسه الكئيبة إلا أن البنات اللائي كن في مجموعته كن يتراهن ويتشاجرن سرا ليبقين معه، وهو لا يألو جهدا ليبقى معهن، إلى أن جاء يوم رأى فيه فيرمينا داثا، وهنا انتهت براءته.

رآها للمرة الأولى في عصر يوم من الأيام، حين كلفه لوتاريو ثوجوت بحمل تلغراف إلى شخص لم يكن له أصل ولا فصل يُدعى لورينثو داثا، ووجده في منتزه صغير يُدعى «لوس إبانخليوس»، في بيت صغير قديم للغاية، نصف ما فيه مهدّم ومخرّب، وفناؤه الداخلي يبدو كرواق الأديرة، وفي كل من زواياه بعض الأشجار، كما فيه ينبوع خالٍ من الماء مشيد من الحجارة

والطوب، ولم يحس فلورنتينو بأية ضوضاء آدمية، وهو يشق طريقه أسفل الرواق ليصل إلى الخادمة، حافية القدمين، حيث كانت توجد صناديق فيها ما فيها من متاع الانتقال «العزال»، والتي لم يتم فتحها بعد، كما توجد أدوات خاصة بالنقاشة والبناء بين بقايا الجبس وشكائر الأسمنت المكومة فوق بعضها. كانت الدار كلها تخضع لتعديل جذري شامل، وكان في أقصى فناء الدار غرفة مكتب مؤقتة، حيث يوجد فيها رجل مفرط السمنة نائم أمام منضدة المكتب له فودان مجعدان اختلطا وساحا بين شعر شاربه، وفي الواقع اسم هذا الرجل هو لورينثو داثا، ولم يكن معروفا في البلدة لأنه وصل إليها منذ أقل من سنتين فقط، كما أنه ليس له الكثير من الأصدقاء، ولا هو بالحريص على ذلك.

تسلم لورينثو داثا التلغراف منه كأنه يستكمل في منامه حلما بغيضا، ولاحظ فلورنتينو في شيء من الشفقة والرأفة ما على عيني الرجل من شحوب واصفرار، لاحظه ولورينثو يحاول نزع طابع البريد بأصابعه القلقة المتشككة، لاحظ ما فيه من خوف مضطرب، خوف يراه مرارا في كل من يستقبلون تلك التلغرافات، ولا يتركون التفكير فيها كأنها تحمل في طياتها خبر الموت. تنهد الرجل أخيرا بعدما قرأ الرسالة، واستعاد سيطرته على نفسه، وقال: «مساء الخير»، ثم أعطى فلورنتينو النقود المطلوبة بالضبط، والتي كان قدرها خمسة ريالات، مصحوبة بابتسامة عذبة صافية، يفهمه من خلالها بأنه لم يكن ليعطيه المال، إلا إذا كان الخبر سعيدا، أما عكس ذلك فلا، وبعد ذلك ودعه، وهو يشد على يديه بحرارة، وهو ما لم يكن معتادا عليه نهائيا مع حاملي التلغرافات، واصطحبته الخادمة حتى باب الدار بغرض مراقبتها له، أكثر من كونها ترشده الطريق. عاد من نفس الرواق، الذي أتى منه، بيد أنه هذه المرة علم بأن في البيت أناسا آخرين. كان صحن الفناء كله يحتله صوت نسائي يكرر قراءة كتاب ما، ولمح من النافذة، وهو يمر على غرفة الخياطة، امرأة كبيرة السن وطفلة صغيرة، كانتا جالستين على كرسيين ملتصقتين ببعضهما،

وكلاهما يواصل القراءة في نفس الكتاب المفتوح على حِجر المرأة، ولكنه رأى عجبا: الابنة من كانت تعلم والدتها، وليس العكس، وما خمنه لم يكن خاطئا كل الخطأ، فهذه المرأة لم تكن إلا عمة الطفلة، رغم أنها ربتها واعتنت بها كأنها فعلا أمها، ولم تتوقف القراءة عند كلتيهما، ولكن الطفلة رفعت من عينيها لترى من هذا الذي يمر أمام النافذة، نظرة عارضة منها كانت السبب في جائحة الحب التي لم تنته حتى بعد نصف قرن من الزمان.

وكل ما عرفه فلورنتينو أريثا عن لورينثو داثا أنه جاء بعد وباء الكوليرا بزمن قليل من مدينة «سان خوان ديه لا سيناجا»، ومعه ابنته الوحيدة وأخته العانس العزباء، ومن رأوهم ينزلون من المركب لم يشكوا لحظة في أنهم جاءوا ليقيموا ويستقروا، فقد جاءوا بكل ما هو ضروري ولازم لتجديد وزخرفة بيت بأكمله، أما زوجته فماتت حين كانت ابنته لا تزال طفلة صغيرة، وأخته هذه تُدعى إسكولاستيكا، ولديها من العمر أربعون عاما، وهي لا تزال تفي بنذر أنذرته، ولذلك عليها المسوح والعباءات الخاصة برهبان سان فرانسيسكو حين تخرج إلى الشارع، ثم إذا كانت في البيت، فكل ما تفعله أن تربط خصرها بشريط خاص فوق عباءتها، والفتاة كانت تبلغ من العمر الثالثة عشر ربيعا، واسمها فيرمينا، على اسم والدتها المتوفاة.

ويفترض أن لورينثو داثا رجل ميسور الحال لأنه يعيش في بحبوحة من العيش، دون عمل معروف يخصه، بدليل أنه اشترى بيت «لوس إبانخليوس» بنقود طازجة لم تمسها يد من قبل. كلفه هذا البيت من التجديد والبناء ما يزيد على ضعف ثمن البيت الذي كان مائتي بيزو من الذهب، وكانت الابنة تدرس في مدرسة «لا بريسنتاسيون ديه لا سانتيسيما فيرجين»، حيث كانت تتعلم فتيات المجتمع منذ نحو قرنين من الزمان الفنون والمهارات اللازمة لزوجة ماهرة مطيعة، وكانوا في هذه المدرسة لا يستقبلون إلا بنات الذوات والألقاب في عهد الاستعمار، وأوائل عهد الجمهورية، ولكن بعد ذلك

اضطرت العائلات القديمة، التي بعثرها الاستقلال وشتتها تشتيتا، أن تقبل بواقع هذا الزمن الجديد وبأحكامه، وفتحت المدرسة أبوابها لكل من يقدر على الدفع، دون النظر إلى النسب أو الحسب، ولكن تحت شرط أساسي أن تكن بنات شرعيات من زواج كاثوليكي. على كل، فهذه المدرسة مصاريفها مرتفعة جدا، وكون فيرمينا داثا تتعلم هناك، فهذا خير دليل على الحالة المالية لعائلتها، رغم كونها لا تنتمي لسلالة اجتماعية عريقة، وهو ما أثار حماس فلورنتينو أريثا، وشجعه على المضي في الأمر، فما هذه الأمور إلا دليل على كون تلك المراهقة الجميلة ذات العينين اللوزتين في متناول أحلامه، ومع ذلك، سرعان ما برزت له العقبات الكئود لما كان يفرضه أبوها من نظام قاس صارم، ففيرمينا داثا على عكس باقي الفتيات اللاتي كن يذهبن إلى المدرسة في مجموعات أو مصحوبات بخادمتهن، كانت تذهب ومعها عمتها العزباء، وتصرفاتها وسلوكياتها كلها تشير إلى أنه غير مسموح لها بأي نوع من اللهو البريء أو التسلية.

وبعفوية أضحى فلورنتينو أريثا كأنه قناص يقتنص اللحظات المناسبة له في حياته الخاصة، كأعزب وحيد ولهان. كان يجلس منذ الساعة السابعة صباحا على المقعد الأقل ظهورا في المنتزه الصغير، مدعيا بأنه غارق في قراءة كتاب من الشعر، تحت ظلال أشجار اللوز، إلى أن يرى ملاكه المتيم بها البعيد كل البعد تمر مرتدية زي المدرسة الموحد المخطط بخطوط زرقاء، وشرابها الذي تصل أربطته إلى ركبتيها، وحذاءها ذا الكعب العالي المزين بأشرطة متشابكة، وشعرها المربوط كله في ضفيرة واحدة كبيرة بعقدة في طرفها تمتد من ظهرها إلى وسطها. كانت تسير في خيلاء واعتزاز طبيعي بنفسها، رافعة رأسها إلى أعلى، وعيناها ثابتتان لا تتحركان عن موضعهما، تسير بخطواتها الرشيقة الأنيقة، بأنفها الدقيق الحاد، حاملة على صدرها حقيبة الكتب، شابكة عليها بذراعيها، ومن سرعة مشيها وخفته تحسب جسدها لا علاقة له بقوانين

الأرض وجاذبيتها، تمشى وبجانبها عمتها تكاد تلحق بها في عناء ولأي، وعليها عباءتها القاتمة الداكنة، وحول وسطها الشريط الخاص برهبان سان فرانسيسكو، ولا تترك له أي فرصة ليقترب منها. كل هذا، وفلورنتينو أريثا يراها رائحة غادية أربع مرات في اليوم، ومرة واحدة في يوم الأحد حين تخرج لحضور القدّاس. متيم بها لدرجة أن رؤيته لها بالنسبة له غذاء يومي لا بد منه، وشيئا فشيئا جعل يسمو بها إلى المثالية والكمال، خالعا عليها صفات وسمات لا تنتمي للبشر، ومشاعر وأحاسيس غاية في الشطح والخيال، وبمجرد أن فات أسبوعان من رؤيته لها لم يعد يفكر إلا فيها، وبهذا قرر أن يرسل لها رسالة غرامية بسيطة مكتوبة على وجهي الورقة بخطه الجميل الرشيق، ولكنه احتفظ بتلك الرسالة في جيبه لعدة أيام، يفكر في الطريقة، التي يسلمها بها الرسالة، ولم يكتف بهذا، بل كان أثناء مدة تفكيره يملأ بكلامه أكثر من ورقة قبل نومه، بحيث أن الرسالة الأصلية لم تعد إلا قاموسا كاملا حافلا بالكلام الغزلي الرقيق استوحاه من كثرة اطلاعه على تلك الكتب، التي يقرأها منتظرا إياها في الحديقة.

حاول بكل ما استطاع من ذكاء وحيل أن يجد طريقة يسلمها بها رسالته، فمرة فكر في إيصال الرسالة إليها عن طريق التعرف بإحدى الطالبات الموجودات في المدرسة، ولكنه وجدهن كلهن بعيدات تماما عن عالمه، كما أنه بعد كثير من التفكير، وجد أنه ليس من المستحسن إطلاقا أن يعلم أحد بما في قلبه تجاه فيرمينا، ومع ذلك بلغه أن فيرمينا داثا مدعوة لحضور حفل الرقص الخاص بيوم السبت، وذلك بعد بضعة أيام من وصولها للمدينة، وأن أباها لن يسمح لها بحضور الحفل بكلمة آمرة منه: «كل شيء في أوانه». أصبحت رسالته هذه أكثر من ستين ورقة مكتوبة على ظهر ووجه كل منها، حينئذ لم يستطع فلورنتينو أن يكتم ما به، حينها أفضى بسره إلى والدته، ولم يخف عليها أي همسة مما فات، فهى الإنسانة الوحيدة، التي قد يسمح لها

بأن تعلم ببعض أسراره، واهتزت مشاعرها لما سمعته من ولدها من براءة وسلامة نية وطهر في حبه وعشقه، وحاولت أن ترشده بما لديها من خبرة، فبدأت تقنعه بألا يسلم الفتاة رسالته هذه التي استحالت من كثرة ما فيها إلى دفتر ملاحظات، فهو بذلك قد يخيف أحلام الفتاة، التي لا بد أن تكون خضراء نقية كأحلامه وكقلبه هو، وأخبرته بأن أول خطوة أن يعلمها بما يكنه لها من حب واهتمام، وبذلك لا يكون في الأمر مفاجأة لها، ويترك لها فرصة التفكير.

قالت له:

- قبل كل شيء، عليك أولا أن تقتحم حصون عمتها، قبل التعرف بالفتاة.

كانت نصيحتان سديدتين، ولكن بعد فوات الأوان، ذلك أنه في ذلك اليوم، الذي توقفت فيه فيرمينا عن القراءة لعمتها، ورفعت عينيها لترى، الذي يمر في طرقة الدار، كان هو نفسه قد ترك فيها انطباعا لما يبدو على شكله من شرود وهجران، حتى أنه في مساء ذات اليوم تحدث والدها أثناء الطعام عن التلغراف، وهكذا عرفت أن اسمه فلورنتينو أريثا، وعرفت عمله، الأمر الذي زاد من اهتمامها، فهى كبقية الناس في هذه الفترة كانوا يرون في التلغراف نوعا من السحر والشعوذة، ولهذا استطاعت أن تعرفه منذ أول مرة تراه يقرأ تحت أشجار الحديقة، ورغم هذا فلم تقلق ولم تضطرب بينما لم تدرك عمتها أنه هناك منذ أسابيع، وبعد ذلك حين رأياه وهما خارجتان في يوم الأحد لحضور القداس، تأكدت العمة أن وجوده ليس محض صدفة، كما كانت تظن، حتى قالت لنفسها: «ليس أنا من تنطلي عليها مثل هذه الخدع»، فعمتها رغم حزمها وتجهمها الدائم، ورغم شكلها التائب دوما المستغفر دائما، إلا أن لديها غريزة حياتية طبيعية، وقدرة على الفصل بين الأمور وبعضها، وهما أفضل ما فيها من صفات، وفقط مجرد علمها بأن رجلا ما يهتم بابنة أخيها أثّر في عاطفتها أيما تأثير، ومع ذلك ففيرمينا داثا نفسها كانت بعيدة كل البعد عما

يدور حولها من خيوط الحب، فحتى أقل قدر من الفضول لا تشعر به، كل ما يحمسها نحو فلورنتينو أريثا هو بعض الشفقة تجاهه، لأنه بدا لها مريضا يعاني من علة ما، ولكن عمتها أخبرتها بأنها لا بد عليها أن تعيش وتجرب أكثر وأكثر حتى تعرف شاكلة الرجال وطبيعتهم الحقيقية، وهى متأكدة من أن هذا الذي يجلس في الحديقة إنما هو مريض من مرضى الحب.

والعمة إسكولاستيكا كانت شديدة التفهم والحنو والإخلاص لتلك الفتاة الوحيدة، التي نتجت عن زواج بلا حب، وهى التي رعتها بعد موت والدتها، وكانت مع والدها لورينثو داثا تعامله كأنها صاحبته، وشريكته في حياته، وليس مجرد أخت عادية، وبهذا كان ظهور فلورنتينو أريثا لكلتيهما مجرد وسيلة من وسائل تسليتهما الخاصة، التي عادة ما يخترعانها اختراعا لتمضية وقتهما الممل. أربع مرات في اليوم، في كل مرة يمران على حديقة «لوس إبانخليوس» تسرع كل منهما بحركة غريزية من عينيها لتبحث عن هذا الفتى الضامر الجسد، النحيل، صغير الحجم، الخجول، الذي دائما ما يرتدي اللون الأسود، رغم حرارة الجو، والذي يدعي أنه إنما مجرد قارئ تحت الأشجار. «ها هو»، تقول من تكتشفه في الأول حابسة ضحكتها بداخلها، قبل أن يرفع عينيه إليهما ويراهما جامدتين، بعيدتين كل البعد عما هو فيه، يعبران الحديقة، ولا يكلفان نفسيهما حتى نظرة واحدة إليه، وإذا بعمتها تقول لها:

– مسكين، صغير. لا يستطيع أن يقترب منك لأنني معك، ولكنه ذات يوم سوف يفعل، إذا كان فعلا جادا فيما ينويه كل الجد، وحينها سوف يقدم رسالة إليكِ.

ومن شدة حيطتها وخوفها من أي بلية قد تقع، لم يكن منها، إلا أن علمتها كيف تكون الإشارات باليد، وهو أمر لا مفر منه بالنسبة لحب معقد مستعص كهذا، وتلك المشاكسات الساذجة الطفولية، جعلت فيرمينا تحس بفضول جديد، ولكنه لم يخطر على بالها قط أن الأمر قد يصل إلى أبعد من ذلك. لم

يخطر على بالها قط أن هذه المتعة ستستحيل ذات يوم إلى نهم ورغبة، وأن دمها سيغلي غليانا في سبيل أن تقع عيناها عليه، حتى أنها ذات ليلة استيقظت مرعوبة مفزوعة لأنها رأته بجانب سريرها ينظر إليها من خلال الظلام. حينئذ ودت بكل جارحة فيها لو تصدق تنبؤات عمتها، وترجت من الله في صلواتها بأن يلهمه الشجاعة ليقدم لها رسالته، فقط لتعرف ماذا يقول فيها.

ولكن رجاءها لم يُستجب له، بل على العكس من ذلك، حدث هذا في الفترة، التي اعترف فيها فلورنتينو أريثا لأمه بحبه لفيرمينا، وأقنعته بألا يقدم لها رسالته تلك المكونة من سبعين ورقة من الكلام الغزلي الرقيق، وعلى هذا ظلت فيرمينا تنتظر رسالته بقية العام بأكمله، وتحول نهمها وشوقها إلى يأس وخيبة أمل، بينما إجازة شهر ديسمبر تدنو وتقترب أكثر فأكثر، حينئذ كانت تتساءل في هدوء وبرود عما سيفعله ليراها وتراه خلال كل تلك الشهور الثلاثة، التي لن تذهب فيها إلى المدرسة. قويت شكوكها وتمادت دون أي حل أو يقين، وذلك حينما كانت في قداس منتصف الليل الخاص بليلة عيد الميلاد تحس بكل قلق بأنه ينظر إليها وسط كل هذه الحشود وجموع الناس الموجودة، قلقها هذا جعل قلبها يضطرب ويدق في عنف وشدة. ولم تجرؤ على أن تلتفت برأسها لتتأكد من وجوده فعلا. كانت جالسة بين أبيها وعمتها، كما أنها في شغل شاغل، حتى تخفي عليهما اضطرابها العظيم، ولكنها في وقت الخروج، والدنيا من حولها في لخبطة وقلة نظام، شعرت بأنه قريب منها للغاية، إنه واضح جليّ وسط كل هذا العجيج المائج حولها، بحيث أنها أحست بقوة قاهرة تدفعها لأن تطرف بعينيها من فوق كتفيها، وهى خارجة من صحن الكنيسة، حينئذ رأت عينيه على بعد شبرين من عينيها، رأت وجهه الشاحب المصفر وشفتيه المتحجرتين من رهبة الحب. شعرت باضطراب شديد يعم جسدها من جرأته المباغتة تلك، وحتى لا تقع أمسكت بذراع عمتها إسكولاستيكا، التي أحست بالعرق البارد، الذي يتفصد من يدها من

خلال قفازها المطرز، الخالي من الأصابع، وإذا بها تطمئنها بإشارة منها غير محسوسة لتشعرها بأنها معها بلا أي قيود أو شروط. ووسط تلك الجلبة الهادرة من السيارات والعربات المارة والطبول المدوية بصوتها الصاخب المزعج، ووسط عواميد الإنارة الملونة ألوانا مختلفة، والموجودة عند كل باب، ووسط كل هذه الحشود والجموع الغفيرة، التي خرجت تلتمس السلام والراحة، وسط كل هذا ساح فلورنتينو أريثا بينهم جميعا هائما على وجهه كأنه ليس سوى نائم يسير على قدميه، هام بينهم جميعا إلى مطلع الصبح ينظر من بين دموعه إلى الحفل الصاخب واجما دهشا من إحساسه الخاطئ المزيف «المهلوس» بأنه هو، وليس الرب من ولد في هذه الليلة.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل زاد وفار في الأسبوع التالي، وقت ساعة القيلولة، حين مر على بيت فيرمينا داثا دون أمل منه في رؤيتها، ولكن يا عجبا! رآها هي وعمتها جالستين أسفل أشجار اللوز الموجودة عند باب الدار. نفس المشهد بالضبط، الذي رآهما فيه أول مرة في عصر ذلك اليوم وهما في غرفة الخياطة، ولكنهما الآن في الهواء الطلق يفعلان نفس الشيء. الفتاة تقرأ لعمتها من الكتاب. وهنا لم تكن فيرمينا ترتدي زيها المدرسي، وإنما ترتدي جلبابا من القماش المليء بالكسور يمتد من كتفيها على شاكلة تلك المعاطف الخاصة بالإغريقيات، وكللت رأسها بطوق من أزهار الجاردينيا الطبيعية، فبدت كإلهة متوجة تشيع جمالا وسحرا، حينئذ جلس فلورنتينو في الحديقة، في موضع موقن تماما بأنهما يريانه من موقعهما، وهنا لم يستأنف تظاهره بالقراءة كما كان يفعل من قبل، وإنما وضع أمامه الكتاب مفتوحا وعيناه مثبتتان على تلك البتول الفاتنة، التي لم تكلف نفسها حتى النظر إليه ولو لمجرد الشفقة.

وفي البداية ظن فلورنتينو أن قراءتهما هذه تحت أشجار اللوز أمر عارض غير مقصود ربما بسبب التجديدات الكثيرة، التي تحتل البيت دون توقف،

ولكنه فيما تلا من أيام فهم أن فيرمينا هناك في نفس المكان، وعلى مرأى من عينيه، بل وفي نفس ذلك الوقت من أصيل كل يوم وعلى مدى شهور الإجازة الثلاثة جميعا، وذلك ما أشاع في نفسه مزيدا من السرور والثقة، ولم يدخل في روعه أنها تراه، وتحس به وبوجوده، ولم يشعر منها بأي إشارة تدل على اهتمامها أو نفورها، ولكنه يشعر بأن في لامبالاتها هذه ثمة بريق ما مختلف أشد الاختلاف، الأمر الذي حثه على المواصلة والتصميم، وذات مرة حين كان الوقت عصرا في يوم من الأيام الأخيرة لشهر يناير، تركت عمتها فجأة ما كان في يدها من تطريز، كما تركت فيرمينا وحدها عند باب الدار تحفها تلك الأوراق الصفراء، التي سقطت من أشجار اللوز، وعلى الفور افترض فلورنتينو بكل تهور أن تلك اللحظة هي فرصته المؤكدة، وإذا به يعبر الشارع ويقف أمامها مباشرة، وقف على كثب منها بحيث استطاع أن يسمع ما في تنفسها من تصدع وانقطاع، وشَم أنفه عبيرها المعطر برائحة الورد الفواح، الذي ظل بقية حياته كلها يتذكره، وأخيرا كلمها رافعا رأسه، وبنبرة ثابتة قوية منه لم يستخدمها معها، إلا بعد نصف قرن من الزمان، ولنفس السبب والموقف، قال لها:

- كل ما أطلبه منك هو أن تأخذي رسالتي هذه.

صوته هذا لم يكن ما توقعته فيرمينا البتة. كان صافيا ثابتا ليس له أي علاقة بوهنه وضعفه البادين عليه، وأجابته دون أن تشيح بنظرها عن قطعة التطريز، التي تعمل عليها: «لا أستطيع أخذها دون إذن أبي».

أحس بكيانه كله يهتز من هذا الصوت الرخيم العذب، الذي بلغ أذنيه، صوت كل ما فيه من رنين مكتوم لم يستطع أن ينساه طيلة حياته، وإذا به يجيبها على الفور، وبكل ثبات: «كما تودين»، ثم قال في لهجة لينة مفعمة بالرجاء والتمني: «إنه أمر حياة أو موت»، فلم تنظر إليه، ولم تنقطع يداها عما فيه من تطريز، ولكن كلامها فتح أمامه بابا خياليا يتسع للعالم بأكمله، حين قالت له:

– لتأتِ في عصر كل يوم، وانتظرنى حتى أبدل موضعي من الكرسي.

ولم يفهم فلورنتينو كلامها حتى مجيء يوم الاثنين من الأسبوع الثاني، حينئذ رأى من مقعده في الحديقة نفس المشهد الخاص بكل يوم، ولكن باختلاف واحد فقط، فحين دخلت العمة إسكولاستيكا إلى البيت إذا بفيرمينا تنهض، وتجلس على الكرسي الآخر، وقتها كان يرتدي سترة في عروتها وردة كاميليا بيضاء اللون، فاجتاز الشارع، ووقف أمامها تماما، وقال: «تلك أكبر فرصة سنحت لي في حياتي»، فلم ترفع عينيها نحوه، وإنما راحت تنظر إلى الشوارع الجافة الخالية، والتي ترقد في هدوء وسكينة، تلك الشوارع المفروشة بما جلبته الريح من أوراق الأشجار الميتة، ثم قالت له:

– هاتها.

قبلها، فكر فلورنتينو في أن يعطيها ما بحوزته من سبعين ورقة كاملة دون نقصان، وهو من كثرة اطلاعه عليها بقادر على ذكر كل كلمة فيها عن ظهر القلب، ولكنه قرر بعد ذلك أن يقدم لها فقط نصف ورقة مكتوبة بكلام معتدل رزين واضح يكون فيه جوهر ما يريده فقط، ألا وهو: إخلاصه لها مهما كانت الظروف، وحبه الأبدي المستمر تجاهها، ثم أخرج المظروف الذي يحوي رسالته من جيب سترته الداخلي ووضعه أمام عينيها الحزينتين المهمومتين، اللتين لم تستطيعا بعد النظر إليه. رأت ذلك المظروف الأزرق يرتعش في يده المتجمدة من الخوف، ثم رفعت نول التطريز ليضع تحته الرسالة، ووقتها لا يمكن أبدا الحكم إذا كانت أصابع يديها ترتعش فعلا أم لا، وحينئذ انتفض طير من الطيور بين أغصان شجرة اللوز، وإذا به يرمي ببرازه بالضبط فوق النسيج المطرز، وإذا بها تنحي ذلك النول بعيدا وتخفيه خلف الكرسي كي لا يلاحظ هو ما حصل، وللمرة الأولى تنظر في عينيه مباشرة بوجهها المتألق الفتان، فقال لها، وهو يناولها الرسالة بثبات ورباطة جأش: «حظا طيبا». شكرته بابتسامة لأول مرة منها، وما إن أمسكت أصابعها بالرسالة حتى طبقتها

وأخفتها في صدريتها، ثم عرض عليها وردة الكاميليا، التي كان يضعها في عروة سترته، ولكنها رفضتها قائلة: «هذه وردة لها التزام وشروط خاصة بها»، وسرعان ما استعادت هيئتها السابقة، بعدما أحست بالوقت يجري منها جريانا، وقالت:

- اذهب الآن، ولا تعد قبل أن أقول لك.

جدير بالذكر أن فلورنتينو حين رأى فيرمينا لأول مرة أحست أمه بالأمر من قبل أن يخبرها، وذلك لأنه كان رافضا للكلام، فاقدا للشهية، قاضيا الليل بطوله يتقلب على سريره، ولكنه حينما بدأ ينتظر ردها على رسالته الأولى أدّى به القلق والترقب إلى حالات شديدة من الإسهال والقيء المستمر المزعج، بل فقد قدرته على التوازن، ومن وقت إلى آخر يصيبه الدوار، وأصيبت أمه بالهلع والرعب عليه، فهذه ليست أعراض الحب العادي، إنما تلك أعراض الكوليرا ودواهيها، وحتى أبوه الروحي، الذي عمّده في الكنيسة، ذلك العجوز الطبيب، الذي يعتمد في طبه على مداواة الداء بداء مثله، والذي كان محل ثقة والدته منذ فترة عشقها السري، فزع أشد الفزع حين رآه لأول مرة في هذه الحالة، كان نبضه ضعيفا للغاية، وفي تنفسه حشرجة وصعوبة، وجلده شاحب ينز عرقا كأنه يحتضر، ولكن حينما فحصه لم يجد فيه شيئا، لا حمّى، ولا أي ألم في موضع من جسده، والشيء الوحيد، الذي تيقن منه أن فلورنتينو لم يكن يريد إلا الموت في أسرع وقت، وكفته بعض الأسئلة الماكرة له ولوالدته ليتأكد أن تلك الأعراض الناتجة عن الحب هي نفسها التى تنتج عن الكوليرا، ثم وصف له علاجا عبارة عن نقيع أزهار الزيزفون لتهدئة الأعصاب، كما اقترح أن يغيرا من مكانهما عله يجد راحته في البعد، وفي الهواء النقي، بيد أن ذلك كان عكس ما يطلبه فلورنتينو تماما من التمتع بما به من عذاب وضنى.

وأمه بعمرها الأربعيني، وحبها للحرية والانطلاق، وبفطرتها الميالة للسعادة والبهجة لولا الفقر ونكده، تألمت جدا لمعاناة ابنها فكأن آلامه

آلامها، وكانت تسقيه نقيع الأزهار حين تشعر به يهذي ويخرف، وتضع عليه بطانية من الصوف كي تخمد ما به من قشعريرة ورعشة، وفي الوقت نفسه كانت كثيرا ما تشجعه وتحمسه لأن يتمتع بوقته رغم وهنه ومرضه، وتقول له:

- استغل كل لحظة من لحظات شبابك لتجرب كل ما تقدر عليه، فالشباب لا يستمر طول الحياة يا بني.

أما في مكتب البريد، فلم يكن فيه طبعا من يفكرون ذلك التفكير، ففلورنتينو أريثا صار مهملا متهاونا وشارد الذهن بحيث لم يعد يميز بين تلك الأعلام، التي يعلن بها عن وصول البريد، فذات مرة في يوم الأربعاء رفع علم ألمانيا، بينما كانت السفينة الآتية تابعة لشركة «ليلاند»، ومعها بريد ليفربول من بريطانيا، ورفع أيضا في يوم ما علم الولايات المتحدة بينما السفينة تابعة «للشركة العامة للملاحة وعبور المحيطات» الفرنسية الآتية من سانت- نازير، وسبب ذلك الاختلاط اضطرابات كثيرة في التقسيم والتوزيع، وأثار احتجاج الناس، وكونه لم يطرد من عمله، فذلك يرجع إلى لوتاريو ثوجوت، الذي أبقاه في التلغراف، كما كان يأخذه معه ليعزف على الكمان في الجوقة الخاصة بالكاتدرائية، وكان يجمعهما الود والتوافق الغريبين جدا بالنسبة لاثنين بينهما هذا الفارق الكبير من العمر، ولكن يمكنك أن تقول إن ما بينهما من علاقة كعلاقة الجد بحفيده، وكلاهما منسجمان في عملهما متوافقان بالضبط كتوافقهما عندما يكونان في حانات الميناء، حيث يقضيان الليل بطوله هناك، ليس ثمة أي فارق بين طبقة وأخرى، فالكل مندمج مع الآخر، بداية من هؤلاء السكرانين الفقراء المساكين إلى هؤلاء السادة، الذين يرتدون أفخم الملابس، والذين جاءوا هربا من تلك الحفلات الباذخة الخاصة «بالنادي الاجتماعي» ليأكلوا ما شاء لهم أن يأكلوا من سمك البوري المقلي مع الأرز المطبوخ بجوز الهند. وعادة ما كان لوتاريو ثوجوت يذهب إلى هناك بعد آخر نوبة عمل له في التلغراف، وكثيرا ما يطلع عليه الصباح، وهو يشرب خمر البنتش المجلوب من بلاد جامايكا، ويعزف الأكورديون مع هؤلاء البحارة المجانين

الآتين من جزر الأنتيل. كان لوتاريو ضخم الجثة، بطيء الحركة ذا لحية ذهبية لامعة، ويرتدي قبعة البحارة حين يخرج في الليل، ولا ينقصه سوى إكليل من نبات الجُريس حتى يبدو شبيها بالقديس نقولا، وهو لمرة واحدة، على الأقل كل أسبوع، يبيت في الفندق مع إحدى عصافير الليل، كما يسميهن هو، واحدة من فتيات الليل، التي تبيع الحب العارض وتقضيه في إحدى النزل مع البحارة، وحينما تعرف على فلورنتينو أريثا كان أول ما قام به معه، وبكل سرور، هو إرشاده لمفاتيح جنته الخاصة، فكان ينتقي له أفضل فتيات الليل، يفاصلهن في الأجر، ويناقشهن في طرقهن، ثم يعرض إحداهن على فلورنيتنو ولا يكلفه أي شيء، حتى دفع المال المطلوب، ولكن فلورنتينو لم يكن منه إلا الرفض كل الرفض، فهو لا يزال بكرا، وغير مستعد لفقد عذريته إلا عن حب وعشق.

لم يكن ذلك الفندق سوى قصر من أيام الاستعمار الإسباني، وما فيه من صالونات فسيحة كبيرة وغرف رخامية قُسمت جميعا إلى غرف للنوم، بينها حواجز من الكرتون، بها ثقوب بحجم ثقب الإبرة، غرف كل الغرض منها استخدامها للتأجير وللتلصص والرؤية في الوقت نفسه، وكان الحديث يدور عن هؤلاء الفضوليين، الذين يصنعون تلك الثقوب، ثقوب يتعرف منها الزوج على زوجته، وعن هؤلاء الفوارس النبلاء، الذين يدخلون متنكرين في ثياب البقالين وباعة الخضراوات ليطفئوا شهواتهم ورغباتهم الجنونية، كما يدخل الفندق أيضا رؤساء العمال والكبراء، وكان الحديث يدور عن تلك البلايا، التي قد تحدث لهؤلاء المتطفلين والمتطفل عليهم، ومجرد فكرة أن ثمة أحد يتطفل عليه من الغرفة الملاصقة تجعل فلورنتينو يحس برعب وهلع، ولهذا لم يستطع لوتاريو ثوجوت أن يقنعه بالتطفل على غيره، ولا يسمح لغيره بالتلصص عليه، مثلما يفعل سادة أوروبا وأمراؤها.

ورغم ضخامته وجسامته، إلا أن لوتاريو على العكس تماما مما يبدو عليه، فعضوه الذكري صغير للغاية كأنه برعم وردة، ليس إلا، ولكن ما هذا

إلا عيب محظوظ فيه، ففتيات الليل الأكثر دعارة كن يتشاجرن لينمن معه الليلة، وتجد صريخهن وعويلهن يكاد يمزق جدران القصر ويهز دعائمه هزا، مفزعة كل ما فيه من أشباح. هن يقسمن أنه إنما يدهن عضوه ذاك بمرهم من سم الأفعى يؤجج نشوتهن لأقصى درجات النشوة، ولكنه يقسم ويحلف بأغلظ الأيمان أنه ليس لديه إلا ما وهبه الله، ويقول، والضحك يكاد يقتله: «إنه الحب يا عزيزتي»، وفلورنتينو ذات نفسه استغرق ما استغرق من سنين ليدرك حقيقة جملة لوتاريو هذه، واقتنع فيما بعد من خلال تجاربه مع النساء بكثير مما كان يقوله لوتاريو، وحينما عرف رجلا كان قادرا على أن يركب ثلاثة نساء في وقت واحد، وعاش من هذا عيشة الملوك، وعند مطلع كل صباح تدفع كل واحدة فيهن ما عليها من نقود إليه، معتذرات ذليلات طالبات العفو منه لضيق ذات اليد، وكل ما عندهن من عزاء ورغبة هو أن يقبل بالنوم مع من تدفع له نقودا أكثر، وكل فكر فلورنتينو أن ما يدفع المرأة لمثل هذه الشناعة هو خوفها فقط. إلا أن واحدة من تلك الشابات الثلاثة فاجأته بإخباره بعكس ما يعتقده تماما، قالت:

- إن مثل هذه الأشياء يمكن القيام بها فقط من أجل الحب.

ولوتاريو ثوجوت لم يكن فقط من أكثر الزبائن المفضلين في الفندق، لما يتميز به من رغبة مستعرة في المجون والفسق، وإنما لما فيه أيضا من روح الدعابة والتنكيت. وأيضا استطاع فلورنتينو أريثا بما فيه من فطنة وصمت أن يكسب احترام مالك الفندق، فحين يكون فلورنتينو محطما يائسا عادة ما كان ينعزل مع نفسه في تلك الغرف الخانقة يقرأ الأشعار والروايات الحزينة، التي تستنزل الدموع مدرارا، وأحلامه كلها كانت ملاذا آمنا لأعشاش طيور السنونو الرابضة في الشرفة، ولتلك القبلات الحارة والأجنحة، التي تضرب الهواء ضربا في أثناء قيلولته الرقيقة الشفافة، وعند مجيء العصر، حين تنخفض حرارة الجو، يأتي هؤلاء الرجال، الذين جاءوا ليتخففوا من عبء عملهم

بإطفاء شهواتهم على عجلة، حينها من المحال ألا يصل إلى أذنيك حديثهم ونقاشاتهم، وبهذا كان يبلغه الكثير من أخبار الخيانة وسوء النية، وحتى كانت تبلغه بعض الأخبار عن الدولة التي يتفوه بها بعض الزبائن المهمين، ورغم ذلك فالسلطات المحلية تثق في عشيقاتهم المؤقتات، دون أن تلتفت البتة إلى أن الكلام كله يصل إلى من يجاوروهم، وهكذا أيضا عرف أنه على بعد أربعة فراسخ بحرية من ناحية الشمال من مجموعة جزر سوتابينتو ترقد منذ القرن الثامن عشر سفينة شراعية إسبانية محملة بأكثر من خمسمائة ألف مليون بيزو من الذهب، وفيها ما فيها من الأحجار الكريمة، وأدهشته الحكاية وأذهلته كثيرا، ولكنه لم يفكر فيها مطلقا إلا بعد شهور، حين بلغ منه الحب مبلغه، وأوحى له الجنون بأن ينقذ كل تلك الثروة، حتى يغرق فيرمينا داثا في بحيرات من الذهب.

وبعد ذلك بسنوات، كان يجاهد ليتذكر الشكل الحقيقي لحبيبته بما يخترعه من أشعار وكلام غزلي رقيق، ولكنه لم يستطع أن يميز شكلها وينتشله انتشالا من بين تلك الأمسيات البعيدة، التي كان يراها فيها. رغم هذا كان في فترة انتظاره لجوابها على رسالته يراقبها دون أن تراه هي، فيرى ملامحها المشوشة، وهى تسير في حدود الساعة الثانية عصرا تحت أزهار اللوز والسماء تهمي بزخات خفيفة من المطر في شهر أبريل، الذي عادة ما يكون ملاذا من هذ المطر الخفيف، وكل ما كان يعنيه وقتئذ أن يأخذ الكمان، ومعه لوتاريو ثوجوت ويصعدان إلى تلك الشرفة الخاصة بالجوقة الموسيقية، لكي يرى فقط قميصها الهفهاف، وهو يرفرف ويتماوج مع نسيم الأناشيد الدينية الصاعدة من الجوقة، ولكن ما أصابه من هذر وهذيان أفسدا عليه متعته تماما، وبدت له تلك الموسيقى الدينية الصوفية لا ضرر فيها بتاتا بالنظر إلى روحه هو، فكان يحاول أن يهيج من نغماتها بإدخال قطع من الفالس الرومانسي عليها، واضطر لوتاريو ثوجوت أن يقصيه من أفراد الجوقة. في تلك الفترة عشق أكل

أزهار الجاردينيا البيضاء، التي كانت أمه تزرعها في الحديقة الخاصة بفناء الدار، وبهذا كان يعرف ويتذوق الطعم الحقيقي لفيرمينا داثا. في تلك الفترة أيضا وجد بالصدفة في صندوق خاص بوالدته زجاجة تحوي عطر «أجوا ديه كولونيا»، الذي يهربه هؤلاء البحارة التابعون لـ«هامبورج أمريكان لاين»، وحينها لم يستطع أن يقاوم إغراء تذوق العطر كي يعرف المزيد والمزيد من طعم ونكهة حبيبته، وظل يشرب ويشرب من هذه الزجاجة إلى مطلع الصبح، منتشيا ثملا بفيرمينا داثا بجرعاته الزائدة منها، كان يعب من هذا العطر، وهو يمر على تلك النزل الخاصة بالميناء، ثم استغرق يرشف منه، وهو يتأمل ما أمامه من بحر متلاطم، من فوق اللسان الصخري، حيث يكون هؤلاء العشاق الذين يرضون شهوتهم بممارسة الحب هناك دون أي سقف يسترهم، وظل على هذا الحال إلى أن فقد وعيه تماما. كل هذا وقد بلغ القلق بوالدته مبلغا كبيرا، وصارت روحها على المحك من شدة خوفها عليه، ومن طول انتظارها له حتى الساعة السادسة صباحا، وراحت تبحث عنه في كل الأماكن، التي لا يمكن أن تخطر أبدا على بال أحد، وبعد انتصاف النهار بقليل وجدته أخيرا يتمرغ في قيئه المعطر بما شرب من ماء الكولونيا، وجدته في موضع يطفو فيه كل من يغرق في هذا الخليج.

استغلت أمه فترة مراهقته وظلت تعنفه وتوبخه على هذا الخنوع والذل في سبيل انتظاره رد حبيبته على رسالته، وظلت تذكره بأنه لا مكان في مملكة الحب للضعفاء، فتلك مملكة سكتها وعرة عويصة كلها شوك وعقبات، وإنما المرأة تسلم نفسها فقط لمن ترى فيه قوة الإرادة والعزيمة الجبارة، فهى إنما تستلهم من الرجل القوة والأمان، الذي يشجعها على المضي قدما في حياتها، وبالفعل امتثل فلورنتينو لنصائح أمه وطاوعها كما أرادت، فشعرت بالاعتزاز والفخر، فخر نابع عن شهوة منها أكثر من كونها أم لا بد أن تحنو عليه، وذلك حينما رأته يخرج من الدار لابسا رداءه ذا اللون الأسود، وعليه

تلك القبعة الجامدة القاسية، عاقدا حول رقبته ببيونة رومانسية الشكل، وإذا بها تسأله في مرح إذا كان ذاهبا لحضور مراسم دفن شخص ما، فإذا به يجيبها وأذناه محمرتان ملتهبتان كأنهما جمرتان من نار: «تقريبا يا أمي»، وعلى الفور عرفت أنه بالكاد يتنفس من شدة خوفه، ولكن قراره هذا لا رجعة فيه البتة، ولا يمكن لأي شيء أن يثنيه عما نواه، فكررت عليه نصائحها لمرة أخيرة، ودعت له وباركته، ووعدته، وهي تضحك بأن تعطيه زجاجة أخرى من «أجوا ديه كولونيا» ليحتفلا معا بمناسبة فوزه بقلب حبيبته.

قبل شهر من ذلك، خالف فلورنتينو كثيرا وعده لأمه بعدم العودة مرة أخرى إلى الحديقة، بعد تسليمه فيرمينا رسالته، ولكنه كان حريصا كل الحرص آخذا كل حذره كي لا يراه أحد هناك، وكان كل شيء كما هو، فهما في مكانهما المعتاد يقرآن أسفل الأشجار إلى أن ينتهيا في الساعة الثانية عصرا، حيث تكون المدينة بأسرها مستيقظة من قيلولتها، ثم تواصل فيرمينا التطريز مع عمتها إلى أن تبدأ حرارة الجو في الانقشاع، ولم ينتظر فلورنتينو أن تدخل العمة إلى البيت، وإنما اجتاز الشارع في خطوات عسكرية واسعة حتى يسيطر على هذا الخمود والتفكك، الذي احتل ركبتيه، وتوجه مباشرة إلى العمة، وقال لها:

– من فضلك اصنعي لي معروفا واتركيني وحدي مع الآنسة، فأنا لدي شيء مهم أود قوله لها.

فقالت له:

– يا لهذه الجرأة! لا، كل شيء عنها لا بد أن أسمعه بنفسي.

حينئذ قال لها:

– إذن فأنا لن أقول أي شيء، ولكن اعلمي جيدا أنك ستكونين الوحيدة المسئولة عما سوف يحدث.

رد لم تكن تتوقعه العمة مطلقا من عاشق مثالي مثله، ولكنها قامت من

فورها في وجل وخوف، بعد أن أحست حقا بأنه إنما يتكلم عن وحي من روح القدس، وتركتهما وحدهما أسفل أشجار اللوز، ودخلت الدار لتغير من إبر التطريز.

والحقيقة أن فيرمينا داثا لم تكن تعرف عن هذا العاشق الولهان المحب للصمت إلا أقل القليل، بل إنه يبدو لها كطائر السنونو، الذي يجيء في الشتاء، ولم تكن ستعرف اسمه لو لا أنه وقّع على رسالته لها، ومنذ ذلك الحين علمت بأنه ابن بلا أب من امرأة وحيدة كادحة جادة كل الجد، ولكنها تعشق ولدها الهزيل الضائع عشقا لا علاج له، عشقا بلغ حد الجنون، كما عرفت أنه ليس حامل تلغرافات كما ظنت، وإنما يعمل مساعدا كفؤا في عمله، وأنه صاحب مستقبل واعد، لذا فكرت في أنه فقط حمل التلغراف إلى أبيها كحجة ليراها. افتراضها هذا جعلها تتحمس بشدة له، وهز مشاعرها للغاية، وعرفت أيضا بأنه أحد أعضاء الجوقة الموسيقية، ورغم أنها لم تجرؤ أبدا على رفع عينيها لتراه أثناء القدّاس، إلا أنها في يوم من أيام الأحد أحست بأنه بينما كل الآلات تعزف من أجل الجميع، كان كمانه يعزف لها وحدها دون غيرها من الناس، وهو لم يكن النموذج الذي تريده وتتمناه، وإنما فقط تلك النظارة العجيبة، التي يضعها على عينيه، وما تحفه من أبهة كهنوتية جذابة، وطرقه الغريبة الغامضة كل الغموض، أثاروا جميعا فضولها نحوه ومن المحال تلافيه ومقاومته، ولكن لم يخطر على بالها قط أن هذا الفضول دعامة أساسية من دعائم الحب.

حتى هي ذات نفسها لم تكن تعلم لماذا قبلت رسالته. لم تكن تلوم نفسها، بيد أن التزامها وشعورها الملح بضرورة الرد على رسالته أحالا حياتها إلى جحيم، فأي كلمة من أبيها، أي نظرة عارضة غير مقصودة، وأي حركة تافهة لا غرض منها البتة تبدو لها جميعا فخاخا لكشف سرها. لذلك كانت حذرة أشد الحذر، فلم تكن تتفوه بأي كلمة حين يجلسون على المائدة حتى

لا يبدر منها أي سهو يشي بسرها، وصارت تتملص من كل شيء حتى عمتها إسكولاستكيا، رغم أنها تشاركها رغبتها المكبوتة ، كأنها صاحبة الشأن وليست الفتاة، وكلما سنحت لها الفرصة، تدخل إلى الحمام بدون داع، وتغلق الباب على نفسها وتقرأ الرسالة لأكثر من مرة علها تكتشف شفرة سرية فاتتها أو غفلت عنها، أو أي صيغة سحرية مختبئة أسفل الثلاثمائة وأربعين حرفا للثماني وخمسين كلمة المكتوبة في الرسالة، لعل وعسى أن تكشف شيئا أكثر مما يقوله في هذه الكلمات، ولكن كل ذلك كان بلا فائدة، ولا شيء أكثر مما فهمته منذ أول مرة قرأت فيها الرسالة، حين هرولت إلى الحمام وقلبها يرفرف كجناح حمامة، ثم مزقت الظرف وخيالها يهيئ لها أنها ستجد كلاما كثيرا محموما مليئا بمشاعر وأحاسيس، ولكنها لم تجد إلا بطاقة معطرة هالها ما فيها من تصميم وعزيمة.

ظنت في البداية أنها غير ملزمة بتاتا بالرد على الرسالة، ولكن كلامه فيها كان واضحا كل الوضوح لا لبس فيه ولا خلط بحيث لا يسعها تجاهل الأمر، وفي أثناء ذلك، وسط كل زوابع وأعاصير الشك والريبة، استغربت أيما استغراب كونها تفكر فيه باستمرار وباهتمام أكثر، حتى من شدة بليتها كانت تتساءل لماذا ليس في مكانه من الحديقة، كما عودها دائما في ساعته تلك، ولا تتذكر أنها من طلبت منه عدم المجيء، بينما تفكر في الرد على رسالته، وهكذا انتهى بها الأمر بالتفكير فيه تفكيرا لم تكن تتوقع نهائيا أن يكون بهذه الطريقة في أي شخص مهما كان، وهكذا صار قلبها يحدثها به، وهو غير موجود، صارت راغبة فيه وفي وجوده، بل كانت تستيقظ فجأة، فتشعر بأنه كان يراقبها ويتأملها، وهى نائمة وسط هذه العتمة والظلام، لدرجة أنها في عصر ذلك اليوم حين سمعت وقع خطواته القوية على تلك الأوراق الصفراء المفروشة في الحديقة، كلفها الأمر كثيرا كي تتأكد أن هذا ليس محض خيال من خيالاتها، ولكنه عندما طلب منها ردها على الرسالة وبنبرة قوية مسيطرة لا

تتفق مع ما يبدو عليه من ضعف ووهن، استطاعت أن تتحكم في فزعها بقوة، وحاولت أن تتملص من الحقيقة المرة بأنها لم تكن تعرف ما الذي تجيبه به. مع ذلك، ففلورنتينو أريثا في الأصل لم يكن تجاوز تلك الهاوية حتى يقع فيما بعدها، فقال لها:

– لقد قبلتِ الرسالة، وإنه لمن قلة الذوق ألا تردين.

جملة كفلت له ولها الخروج من تلك المتاهة، حينئذ اعتذرت له فيرمينا عن تأخرها، وقالت في ثبات ورباطة جأش كلمتها الحاسمة القاطعة بأن ردها سيكون قبل نهاية الإجازة، وأوفت بما قالته.

وفي يوم الجمعة الأخير من شهر فبراير، قبل أن تفتح المدارس أبوابها بثلاثة أيام، ذهبت العمة إسكولاستيكا إلى مكتب التلغراف لتسأل عن التكلفة، التي يتطلبها إرسال تلغراف إلى بلدة بيدراس ديه مولير، التي لم تكن أصلا قيدت بعد في قائمة الخدمة، وتعاملت مع فلورنتينو أريثا كأنها لم تره من قبل، ولكنها قبل خروجها تظاهرت بنسيانها كتاب الصلاة الخاص بها، المجلد بجلد السحالي، على المنضدة وبداخله ظرف من ورق الكتان عليه زخارف صغيرة مطلية بماء الذهب. ما إن علم هذا ورآه بأم عينيه حتى انقلب حاله رأسا على عقب، وقضى ليلته بأكملها يقرأ رسالتها، ويأكل من أوراق الورد، جعل يراجع كل كلمة فيها ويقرأها حرفا حرفا، وكلما قرأ أكثر أكل ورودا أكثر وأكثر، وحين انتصف الليل كان قد قرأ بما يكفي وأكل ورودا بما فيه الزيادة، حتى أن أمه عنفته ووبخته بشده كأنه ذكر عجل ليس إلا، لكي يشرب زيت الخروع.

وكانت سنتهما تلك سنة من الحب المحموم المستعر بينهما، فلا هو ولا هي يملكان من أمر حياتهما إلا التفكير في الآخر، إلا أن يحلم هذا بذاك، وإلا أن ينتظرا رسائلهما بنفس لهفتهما على الرد، وهما لم يستطيعا في ذلك الربيع من الهلاوس والهذيان ولا حتى في السنة التي بعدها، لم يستطيعا أن يختلسا

أي فرصة كي يكلم كل منهما الآخر مباشرة. بل إنهما منذ أول لحظة رأيا فيها بعضهما، وحتى ذلك اليوم، الذي اختلسه هو ليعرب لها عن استمراره بعد نصف قرن من الزمان لم تسنح لهما فرصة واحدة ليكونا وحدهما أو ليتصارحا بحبهما شفهيا، وهما في أول ثلاثة شهور لم يمر يوم واحد إلا وكلاهما يكتب للآخر، بل ومرت فترة كانا يكتبان لبعضهما مرتين في اليوم، إلى أن أحست العمة إسكولاستيكا بالخوف والذعر من هذا الأتون المشتعل، والذي قامت بنفسها بتأجيج ناره باستمرار.

وبعد أن قامت بتسليم رسالتها الأولى إليه في مكتب التلغراف، وفي نفسها شيء من الانتقام مما كان في ماضيها من حظ متعثر، سمحت بعدها بأن يلتقيا يوميا في الشارع لقاءات تبدو كأنها صدفة محضة، ولكنها لم تملك الجرأة قط لتسمح لهما بالكلام، رغم تفاهته ووقته المحدود للغاية، ومع هذا، فبعد ثلاثة شهور أدركت أن ما في ابنة أخيها هذه ليس مجرد هوس شاذ وينتهى الأمر، وإنما أدركت بعد فوات الأوان أن الموضوع فعلا استحال إلى حب مضطرم مستعر في قلبها، وهى ليس لها من رزق ولا عيش إلا تحت رحمة أخيها، وكانت تعلم تمام العلم أن أخاها بشخصيته الفظة العنيفة لا يسمح أبدا بأن يهزأ أحد من ثقته فيه، ولكنها في اللحظة التي كانت ستتخذ فيها قرارها الأخير بقطع ما بينهما لم يطاوعها قلبها بأن تقضي على ابنة أخيها فتجعلها تعاني مثل ما عانت هي من نكد وسوء طالع ظلت عليه منذ شبابها، لذا سمحت لها بطريقة واحدة تعفيها من التهمة وتبقيها في أمان إذا انكشف الأمر، وكانت حيلتها تلك طريفة وسهلة وهى أن تضع فيرمينا داثا رسالتها في مخبأ ما أثناء طوافها اليومي بين البيت والمدرسة، وفي نفس هذه الرسالة تكتب فيها أيضا أين ينتظر ردها في المرة المقبلة، ونفس الشيء أيضا بالنسبة لفلورنتينو أريثا. وعلى هذا كل تلك الرسائل، التي كانت تؤرق ضمير العمة إسكولاستيكا لم يعد لها من مكان إلا بيوت العمادة في الكنائس وتجاويف

الأشجار، وحتى تلك الشقوق والتصدعات الموجودة في الحصون الخاصة بأيام الاستعمار، صارت ملاذا لرسائلهما، وكانت رسائل كل منهما تصل أحيانا إلى الآخر مبللة بماء المطر أو غارقة في الوحل أو ممزقة إذا ما دهمها أي خطر، بل وأحيانا لا يجدان الرسالة، وتضيع لأسباب مختلفة، ولكنهما في النهاية يجدان الوسيلة، التي يستأنفان بها التواصل مرة أخرى.

وفلورنتينو أريثا كان يكتب بلا رحمة في كل ليلة دون انقطاع عاكفا في الغرفة الموجودة وراء دكان والدته، ويظل يكتب الحرف تلو الآخر على ضوء مصباح من زيت النخيل، كثيف الدخان، وفي كل مرة تزداد كلماته عمقا وقوة وطلاوة مما يقرأه من كتب شعرائه المفضلين الموجودة في المكتبة العامة، التي بلغ عددها في هذه الفترة نحو ثمانين مجلدا، وأمه تراه مشفقة عليه فتدعوه إلى أن يخفف عن نفسه ولو قليلا من هذه العاصفة الهوجاء، وبدأت تخاف على صحته وعافيته، فكانت تصيح فيه، وهى في غرفة النوم حين يصل أذنيها صياح الديكة: «ارحم نفسك، أنت بذلك تستنفد كل عقلك، ولا يوجد فتاة في هذه الدنيا تستحق هذا العناء»، فهى لم تر أبدا في حياتها شخصا أشرف على الهلاك لأمر كهذا، وهو من حين لحين يصل إلى المكتب وجسده لم ينم ولو لحظة، يصل وشعره أشعث أغبر بعدما وضع رسالته في مخبئها الذي تتوقعه فيرمينا داثا، وهى ذاهبة إلى مدرستها. على النقيض، كانت فيرمينا تعاني من الرقابة المشددة من قبل أبيها، ومن ذلك الترصد الرهيب المفزع من قبل راهبات مدرستها، لذا بالكاد تستطيع أن تتم كتابة نصف ورقة من كراستها المدرسية، بعد أن تكون حبست نفسها داخل الحمام، أو وهى تدعي بأنها تدون ملاحظتها أثناء الحصة المدرسية، ولكن ذلك لم يرجع فقط لكونها تخاف من أن يباغتها أحد على غفلة منها أو لما هي فيه من عجلة وتسرع، وإنما هذه هي شخصيتها وطباعها، فرسائلها كلها كانت بعيدة كل البعد عن العاطفة والشاعرية، وهى فقط تقتصر في كلامها على سرد حوادثها اليومية

العادية بنفس ذلك الأسلوب البسيط المعتاد في الجرائد ، وفي الواقع رسائلها لم تكن إلا تسلية منها، هي مجرد وسيلة لتحافظ على جذوة الحب المشتعلة، ولكن دون أن تضع يدها في تلك النار المحرقة، بينما فلورنتينو أريثا يصلي نفسه بهذه النار مع كل سطر يكتبه، وكم ود لو تصيبها عدوى الحب، وكم ود لو تأخذ بعضا مما فيه من جنون، فكان يرسل لها أبياتا من الشعر ينقشها نقشا منمنما أنيقا على أوراق وردة الكاميليا، وهو هو، وليس هي، من جرؤ على وضع خصلة من شعرها في إحدى رسائله لها، ولكنه أبدا لم يتلق الإجابة، التي ينتظرها منها، خصلة استطاع أن يسرقها من ضفيرتها المجدولة الطويلة، ولكنه استطاع أخيرا أن يجعلها ترتقي بنفسها معه ولو قليلا، فهى منذ ذلك الحين بدأت ترسل له بزينة مصنوعة من أوراق الأشجار كانت تجففها بوضعها في قاموسها، وقد ترسل مع رسالتها جناحا لفراشة جميلة أو ريشة بديعة من أحد الطيور، وفي يوم عيد ميلاده أهدته قطعة مربعة من رداء سان بيدرو كلابير يصل حجمها إلى سنتيمتر مربع، والتي كانت تباع في الخفاء في مثل هذه الأيام بسعر غالٍ بالنسبة لتلميذة عادية لا تزال تتعلم في المدرسة، وذات ليلة، ودون سابق إنذار استيقظت فيرمينا فزعة على صوت كمان يعزف فالسا منفردا، وتأثرت أيما تأثر حينما أدركت ببصيرتها النافذة أن كل نوتة موسيقية تصدر من هذا الكمان إنما هي شكر لها على كل ورقة أخذتها من وردة لتهديها له، على وقتها الذي اختلسته اختلاسا من مادة الحساب لتكتب له رسائلها، على خوفها وخشيتها من الامتحانات، وهى تفكر فيه أكثر مما تفكر في مادة العلوم الطبيعية، ولكن رغم كل هذا لم تجسر على الظن بأن فلورنتينو بقادر على ارتكاب مثل هذه الحماقة الجريئة.

وفي صباح اليوم التالي لم يتمكن لورينثو داثا من كظم فضوله، أثناء تناوله الإفطار، وذلك لأنه في المقام الأول لا يعرف ما الذي يعنيه بالضبط أن يعزف شخص ما مقطوعة موسيقية منفردة من هذا النوع الموسيقى الغزلي الليلي

الخاص بالعشاق، وفي المقام الثاني، لأنه رغم أنه أصغى جيدا للموسيقى، لم يعرف بالضبط لأي بيت كانت توجه هذه الموسيقى. على كل، استعادت فيرمينا نفسها وهدوءها حين تصرفت العمة إسكولاستيكا، وأكدت له، بكل ثبات وثقة، أنها رأت من خلال ستارة نومها عازف الكمان هذا، الذي لم يكن إلا عند الناحية الأخرى من الحديقة، وأخبرته أيضا بأن كونه يعزف مقطوعة منفردة وحيدة بهذا الشكل لا يعني إلا قصد القطيعة مع حبيبته، وفي ذلك اليوم أخبرها فلورنتينو أريثا، عبر رسالته، بأنه هو فعلا من كان يعزف على الكمان، وأن هذا الفالس من تأليفه هو وحده، وسماه باسمها، الذي في قلبه : الإلهة المتوّجة، ولم يعد للعزف في الحديقة، ولكنه اعتاد أن يعزف في أماكن يختارها عن عمد في ليلة من الليالي المقمرة بحيث تبلغها ألحانه دون مفاجأة أو مباغتة، كما حدث في تلك الليلة وهي في غرفة نومها، وأحد تلك الأماكن المفضلة إليه تلك المقبرة الخاصة بالفقراء، حيث يكون هناك في عز المطر والشمس فوق ربوة مقفرة خاوية تسكنها نسور سوداء اللون، من هناك تجد للموسيقى صدى غريبا يرجع ترجيعا قويا ويتخذ أشكالا من الصوت كأنه من عالم آخر، وحتى عرف بعد ذلك أين تتجه الريح، وبذلك تأكد تماما من وصول صوته إلى أي مكان تكون هي فيه.

وفي شهر أغسطس من هذا العام، اكتسحت البلاد حرب أهلية جديدة من تلك، التي سرعان ما تنتشر وتجتاح جميع البلاد، والتي صارت تتكرر مرارا منذ أكثر من نصف قرن، وفرضت الحكومة القانون الحربي على البلاد، وألزمت كل المدن المطلة على الساحل الكاريبي بحظر تجوال يبدأ من الساعة السادسة مساء، ورغم ما في البلدة من بلبلة واضطراب، ورغم تعسف القوات ومبالغتها في العقاب والتعذيب، إلا أن فلورنتينو بقى على ما فيه من حيرة ودهشة لا يعلم من أمر هذا العالم شيئا، وذات صباح داهمته دورية عسكرية، وهو مستغرق فيما فيه من عدم احترام للموتي بما يصدر منه

من ألحان حب وشوق إلى محبوبته، وبمعجزة استطاع أن يهرب من الحجز، بعد أن اتهم بالتجسس بإرسال شفرات قائمة على مفتاح «صو» الموسيقي إلى بوارج جبهة الأحرار، التي تحوم في المناطق المائية المجاورة.

كان يقول لهم:

– لست جاسوسا ولا أى شيء. أنا مجرد عاشق ولهان أيها المغفل.

حجزوه لثلاث ليال، مقيدين أرجله بالسلاسل، في الزنازين الخاصة بالقوات المحلية، ولكنهم حين أطلقوه أحس بخيبة وندم لقصر المدة، التي قضاها في الحجز، ندم امتد حتى عندما شاخ، وبلغ من العمر أرذله، فبينما باقي الحروب الأخرى اختلطت عليه في ذاكرته ولا يعرف لها أصلا من فصل، إلا أنه ما زال يفكر في كونه الرجل الوحيد في هذه المدينة، وربما في البلد كلها، الذي كان يجر نحو خمسة أرطال من الأصفاد الحديدية لا لسبب إلا ما فيه من حب وعشق.

وكان قد مر على تراسلهما المحموم نحو سنتين، حين بعث لها فلورنتينو ذات مرة رسالة من فقرة واحدة يطلب منها الزواج بشكل رسمي، وكان خلال ستة شهور، قبل هذه الرسالة، يرسل لها أكثر من مرة وردة كاميليا بيضاء، ولكنها لا تفعل شيئا سوى أن تعيد إرسالها إليه مرة أخرى، حتى لا يشك لحظة في مقدرتها على مواصلة الكتابة، ولكن، وهذا أهم شيء، دون أن تضطر للالتزام بأي اتفاق أو عهد معه. الحقيقة أنها كانت تستقبل ورود الكاميليا، هذه الغادية الآتية عليها باستمرار، على أنها مجرد وثبة من وثبات الحب المرحة اللطيفة، ولم يخطر على بالها قط أنها ستفضي بها إلى مفترق الطرق بحيث عليها تحديد مصيرها، وحينما جاءها طلبه الزواج بشكل رسمي أحست لأول مرة بمعنى كلمة الموت، ومن ذعرها ووجلها حكت لعمتها إسكولاستيكا كل شيء، واستقبلت عمتها الخبر بجسارة وذكاء لم تملكهما منذ عشرين عاما حين كان أمامها تحديد مصيرها الخاص بها، قالت لها:

– قولي له نعم أوافق، فرغم ما فيكِ من خوف يكاد يستل روحك، ورغم أنك سوف تندمين، إلا أنك على كل حال سوف تندمين أشد الندم، ولبقية حياتك، إذا أجبته بالنفي.

ورغم هذا، ففيرمينا كانت في غاية الحيرة لدرجة أنها طلبت منه مهلة لتفكر. في البداية طلبت منه شهرا، ثم شهرا آخر، ثم آخر وهكذا، وحين أتمت أربعة شهور دون رد منها، إذا بها تستقبل منه وردة كاميليا بيضاء، ولكنها لم تستقبلها وحيدة في الظرف، كما في المرات السابقة، وإنما معها كلمات تعني بأن هذه آخر رسالة منه: فإما الآن أو لا. حينئذ أخيرا كان فلورنتينو أريثا في نفس ذلك المساء هو من بدا على وجهه شحوب الموتى حين جاءه ظرف منها فيه قطعة من ورقة منزوعة من كشكولها المدرسي مكتوب فيها جوابها، الذى كان عبارة عن سطر واحد: حسنا، سوف أتزوج بك، ولكن على شرط أن تعدني بألا آكل هذا الذي اسمه باذنجان.

حقيقة، لم يكن فلورنتينو أريثا مستعدا لرد كهذا، ولكن أمه كانت على أهبة الاستعداد، فمنذ أول مرة حدثها عن نيته للزواج، منذ ستة شهور، بدأت أمه تدبر الأمور لكي تستحوذ على إيجار بقية الدار، التي كان يشاركها فيها عائلتان كاملتان، وتلك الدار كانت عبارة عن مبنى مدني منذ القرن الثامن عشر، تتكون من طابقين، كان دكانا لبيع التبغ تحت إدارة إسبانية، واضطر مالكوه أن يؤجروه مقسما إلى أجزاء لقلة مواردهم، وحتى لا تضيع ملكيته منهم، وكان في هذه الدار جزء يطل على الشارع، حيث فيه دكان يبيع التبغ، وجزء آخر يقع في أقصى الفناء المبلّط، حيث كان المصنع، وأيضا هناك اصطبل كبير للغاية يستعمله من يؤجرون الدار الآن لغسل الملابس ونشرها لتجف. أما ترانسيتو أريثا فكان من نصيبها الجزء الأول من الدار، وهو الأفضل والأكثر نفعا، وفي حالة جيدة جدا، رغم كونه الأصغر على الإطلاق، وفي تلك الصالة القديمة، التي استعملت كدكان للتبغ من قبل، صارت الآن دكانا لبيع أدوات الخياطة،

وفيها باب كبير يطل على الشارع، وبجانب تلك الصالة يوجد المخزن، الذي لا يدخله الهواء إلا من كوة صغير في السقف، وهنا كانت تنام ترانسيتو أريثا، بعد أن قسمت الصالة إلى نصفين بوضعها جدارا منخفضا من الخشب لتجعل منها نصفا كدكان والنصف الآخر كغرفة خلف هذا الدكان، وفي هذه الغرفة وضعت منضدة بجانبها أربعة كراسي كانت تستخدم للكتابة وللطعام معا، وحيث أيضا كان ينام فلورنتينو أريثا إذا لم يهجم عليه الصباح، وهو يكتب، والحقيقة أن مساحة المكان معقولة بالنسبة لكليهما، ولكن ليس ثمة شبر آخر لفرد إضافي، خاصة لآنسة تدرس في مدرسة «لا بريسنتاسيون ديه لا سانتيسيما فرجين» قام والدها بإعادة بناء داره كلها، التي لم تكن سوى بضعة أنقاض فوق بعضها، بينما العائلات القديمة، التي قد يصل عدد ألقابها إلى ستة ألقاب تنام في بيوت، والخوف يكاد يقتلهم من أن يقع عليهم السقف أثناء نومهم، وبهذا استطاعت ترانسيتو أريثا أن تقنع مالك الدار بإعطائها الرواق الموجود في الفناء مقابل الإبقاء على سلامة وقوة البيت لخمس سنين متتالية.

كان لديها المال، الذي يفي بكل ذلك، وبخلاف ما كان يدخل إليها من ربح ومال تكسبه من بيع أدوات الخياطة وقطع القماش القديمة، كان لديها مال تدخره من أجل حياتها البائسة المتواضعة، كانت تضاعف من دخلها بإقراض هذا المال إلى الزبائن حديثي العهد بالفقر وفيهم ما فيهم من خجل وحياء بفوائد مجحفة، ورغم هذا يقترضون مقابل أن تكتم عنهم ولا تفضحهم، وأمام بوابة الدكان تقف عربات الخيل لتنزل منها سيدات يظهر عليهن العز والجاه الكاذب، ليس معهن لا وصيفات ولا مرضعات، ولا أي من هؤلاء الخدم المزعجين، ويتظاهرن بشراء أدوات التطريز الهولندية، وتلك الحواشي الخاصة بالتخاريم والخياطة، وبين ذلك وذاك يتركن لها آخر ما تبقى من جنتهن الضائعة من قطع الترتر والمصاغ كرهان عندها، وهن ينشجن من الحزن، وترانسيتو أريثا تقبل بفك ضيقتهن احتراما لنسلهن وألقابهن الرفيعة،

وكثيرا منهن تخرجن من محلها شاكرات مشكورات لشرفهن، وليس لما فعلته معهن من معروف، وفي أقل من عشر سنين استطاعت أن تنتزع منهن جواهرهن الحقيقية، اللاتي يستخرجنها ويعطونها إياها، والدموع تسح من أعينيهن، وتحصد كل هذه الغنائم وتبدلها بقطع من الذهب الملكي لتضعها بعد ذلك في إناء لحين يأخذ ابنها قراره بالزواج، وحينئذ عدت ما جنته، ولم تجد فقط أنها تستطيع الاستحواذ على إيجار بقية الدار في خلال خمس سنين، وإنما ببعض الجهد والحظ والمكر ربما تستطيع شراءها قبل أن تموت من أجل أحفادها، الذين تتمناهم، أما فلورنتينو أريثا، فتم تعيينه مساعد أول في مكتب التلغراف، بل كان البديل الرئيسي هناك، ذلك لأن لوتاريو ثوجوت في نيته أن يجعله رئيسا للمكتب حين يتوجه هو لإدارة مدرسة التلغراف والمغناطيسية، التي يتوقع أن تفتتح العام القادم.

وهكذا، فالجانب العملي الأساسي في الزواج قائم وموجود، وعلى أتم الاستعداد، مع ذلك، اشترطت ترانسيتو أريثا شرطين زيادة في الحرص. الشرط الأول: معرفة من هو بالضبط لورينثو داثا، فلهجته ونبرته لا تدعان مجالا للشك في معرفة أصله، ولكن هويته وسبله التي يكسب بها رزقه لا أحد يعرف عنها أي شيء، والشرط الثاني: أن تكون فترة الخطوبة طويلة كي يتعرف الخطيبان على بعضهما بالمعاملة المباشرة الشخصية، وأن يفعلا هذا وسط تكتيم وتعتيم تام منهما إلى أن يكونا متأكدين تماما من حبهما، وألمحت أمه إلى أنهما سوف ينتظران إلى نهاية الحرب، وهو متفق تماما على بقاء الأمر برمته سرا مطلقا، للأسباب، التي ذكرتها أمه، ولما في شخصيته من ميل للكتمان والغموض، ومتفق تماما على إطالة فترة الخطوبة، ولكن ثمة أمر في هذا الموضوع بدا له خياليا، وغير واقعي البتة، فعلى مدار نصف قرن لم تنعم البلاد بيوم واحد من السلام المدني، رغم استقلالها.

قال لها:

- إذا فعلنا ما تفكرين فيه، فإن شاء الله سنتزوج ونحن شيوخ.

أبوه الروحي، الذي يعمل كطبيب شارك في حديثهما هذا بمحض الصدفة، وكان لا يرى الحروب مجرد عوائق فقط، إنما هي مشكلات بين هؤلاء الفقراء، الذين جُرّوا جرا كأنهم ثيران من قبل أصحاب الأرض، ليحاربوا ضد فقراء وحفاة آخرين جلبتهم الحكومة، ليس إلا.

قال:

- الحرب الحقيقية تكون فقط عند الجبال والأدغال، ومنذ أن وعيت أراهم يقتلون من في المدن ليس بالطلقات النارية، وإنما بالمراسيم والأحكام.

على كل، تم تحديد كل التفاصيل الصغيرة والكبيرة منها في الرسائل، التي بعثت في الأسبوع التالي، وتأثرا منها بنصيحة عمتها، وافقت فيرمينا على أن تكون الخطوبة لسنتين، وفي سرية تامة، وألمحت لفلورنتينو أريثا أن يطلب يدها حين تنتهي من دراستها الثانوية، مع ليالي أعياد الميلاد والإجازة، وفي ذلك الحين سوف يكونان متفقين تماما على الطريقة، التي سيعلنان بها عن ارتباطهما وفقا لما سيراه أبوها وقتها، ووفقا لمدى قبوله للأمر، وأثناء ذلك، كان كل منهما يكتب للآخر بالحماس، والتكرار الذي تعوداه، ولكن مع البعد كل البعد عن نزوات الماضي، ورسائلهما صارت كلها كلام عائلي مما يدور بين الزوجين، وفي تلك الفترة لم يعكر صفوهما شيء.

وتبدلت حياة فلورنتينو أريثا، فإحساسه بأنه أخيرا امتلك هذا الحب أعطاه شعورا وافرا بالأمان والاستقرار والقوة، التي لم يشعر بها من قبل في حياته، وغدا كفؤا مجدا في عمله لدرجة أن لوتاريو ثوجوت استطاع، دون جهد، أن يجعلهم يعينونه ثاني شخص بعده مباشرة في الملكية، وفي ذلك الحين، باءت محاولات إنشاء مدرسة التلغراف والمغناطيسية بالفشل، وصار العجوز يوجه كل وقت فراغه إلى الأمر الوحيد، الذي لا تسلية له إلاه، ألا وهو الذهاب إلى الميناء والعزف على الأكورديون وشرب البيرة مع البحارة،

ثم ينتهي به اليوم في الفندق، ومضى وقت طويل قبل أن يدرك فلورنتينو أريثا أن التأثير الشديد للوتاريو ثوجوت على هذا المكان الترفيهي إنما يرجع لكونه المالك الفعلي له، بل والمتحكم في تجارة فتيات الليل في الميناء كله، وذلك أنه اشترى الفندق قطعة قطعة بما يدخره من مال منذ وقت طويل، والحقيقة أن من كان يدافع عنه باستمرار وينحاز إليه دائما هو رجل صغير الحجم، هزيل ومصاب بعور في عينيه، شعره قصير للغاية، ومنتصب كشعر الفرشاة، وله قلب وديع جدا بحيث لا أحد يفهم كيف يكون هذا الرجل مديرا كفؤا لهذه الدرجة، وحقيقة كان كذلك بالفعل، على الأقل فيما بدا لفلورنتينو أريثا، وذلك عندما أخبره المدير دون أن يطلب منه بوجود غرفة خالية في الفندق يمكن أن يقيم فيها على الدوام، وليس فقط ليحل تلك المشاكل، التي تخص أسفل بطنه وقتما شاء، وإنما ليكون عنده مكان مريح هادئ من أجل قراءاته، ومن أجل التفرغ لكتابة رسائل حبه. وهكذا صارت أيامه وإقامته كلها خلال تلك الشهور، التي تبقت للإعلان بشكل رسمي عن طلب يد فرمينا، في ذلك المكان أكثر من المكتب وبيته، وكانت تمر على أمه فترات لا تراه إلا ريثما يأتي ليغير ملبسه.

وصارت القراءة عنده نهما لا يفني أبدا، فهو منذ أن تعلم القراءة، وأمه تشتري له أمهات الكتب لأشهر كتاب أوروبا الشمالية، والتي تباع على أنها قصص خاصة بالأطفال، ولكنها في الحقيقة قاسية ومنحرفة للغاية بالنسبة لأي مرحلة عمرية، وحفظها فلورنتينو أريثا عن ظهر القلب، وهو يبلغ من العمر خمس سنين فقط، حتى كان يذكر أطرافا منها في حصص المدرسة، وفيما يقام فيها من مجالس وسهرات ليلية، ولكن كونه يألف هذه الكتب لا يعني أنه راض عنها، وأن ما فيها يشبع نهمه المستمر، بل على العكس كان يحس بالنقص والاحتياج، ومن هنا وجد في الشعر ملاذه وحاميه، وحين بلغ سن المراهقة كان التهم، بانتظام، كل الكتب، التي تظهر أمامه في المكتبة

العامة، حيث كانت ترانسيتو أريثا تشتريها من بائعي الكتب المستعملة في حي «البورتال ديه لوس إسكريبانوس»، وهناك صار أمامه كل شيء، من أول الشاعر هوميروس إلى أصحاب الشعر الرديء من الشعراء المحليين، أما هو فلا فرق عنده، ولا يختار كتابا دون الآخر، وإنما يقرأ أي مجلد يقع في يده، كأنه أمر حتمي لا بد منه، والغريب أنه رغم كل سنين القراءة هذه لم يستطع أن يعرف الجيد من الرديء من الشعر، الذي قرأه. كل ما يعرفه أنه يفضل الشعر على النثر، وأنه من بين الشعر يفضل شعر الحب والغزل خاصة، حيث يحفظه عن ظهر قلب من مجرد القراءة الثانية له، ودون أن يكون في نيته حفظه، وعلاوة على ذلك، فكلما كانت الأبيات حسنة الوزن والقافية، وكلما كانت مفطرة للقلب مليئة شجنا وحزنا دخلت إلى عقله بسرعة وسهولة.

هذا إذن مصدره الأول في كتاباته لفيرمينا داثا، فقد تجد فيها، دون أي تصرف منه، مقاطع شعرية كاملة لشعراء الرومانسية الإسبانية، وظلت رسائله هكذا إلى أن اضطرته الحياة الواقعية لأن يهتم بالشئون الدنيوية العادية عن شئون القلب وآلامه، ففي ذلك الحين أخذ يخطو في قراءاته نحو تلك القصص المسلسلة، التي تستجدي الدموع والأحزان، وإلى الكتب النثرية الأكثر دنيوية في ذلك الوقت، وتعلم أن يبكي مع أمه وهما يقرآن كتيبات الشعراء المحليين، التي تباع في الميادين وعلى الأبواب مقابل ثمن زهيد للغاية قد لا يتعدي اثنين سنتابو، ولكنه، في ذات الوقت، كان يستطيع أن ينشد لك عن ظهر القلب أفضل الأشعار الإسبانية الخاصة بالعهد الذهبي في الأدب. على العموم كان لا يشبع من الكتب، يقرأ كل ما يقع في يديه، دون التزام بأي نظام معين، وإنما كان يقرأ كيفما كانت تأتيه الكتب، إلى أن بلغ القمة في القراءة، وذلك بعد تلك السنوات القاسية المرة من حبه الأول، وتجاوزه طور الشباب، باطلاعه على المجلدات العشرين لكتاب «كنز الشباب»، الذي قرأه من الغلاف للغلاف ، واطلع أيضا على جميع كتب جارنيه هنوس، المترجمة حينئذ، كما اطلع أيضا

على أسهل ما كان يكتبه الكاتب الإسباني الكبير بيسنتيه بلاسكو إبانييث في مجموعته «بروميتيو».

على كل، لم يكن يقضي وقته أو وشبابه كله في ذلك الفندق للقراءة، وكتابة رسائله المحمومة، بل بدأ يعرف أسرار ممارسة الحب دون حب، والحياة في هذا الفندق تبدأ بعد انتصاف النهار، حين تستيقظ العاهرات عاريات كيوم ولدتهن أمهن، لدرجة أن فلورنتينو يأتي من عمله ليجد نفسه أمام حوريات لا يستر عوراتهن شيء، يجدهن يتكلمن في صريخ وهتاف عن أسرار المدينة، التي يأخذنها من الشخصيات المهمة في لحظات ضعفهم، والعري الذي كن فيه يكشف ما على أجسادهن من آثار الماضي الفائت، فقد تجد ندبة من آثار طعنة خنجر في البطن، أو هالات على شكل نجوم بسبب طلق ناري، أو غَضون وتجاعيد ناتجة عن ممارسات الحب العنيفة، بل وقد تجد آثار خياطة لعملية قيصرية يبدو أن من قام بها جزارون وليس أطباء، وبعضهن يحملن أطفالهن الصغار، الذين هم مجرد نتيجة تعيسة لسهو وعنفوان الشباب، والذين تخلع لهم أمهاتهم ملابسهم على الفور حتى لا يحسوا بفرق في جنة العراة، وكل واحدة هناك تطبخ لنفسها، ولا أحد يأكل أفضل مما يأكله فلورنتينو أريثا حينما يدعونه للطعام، وذلك لأنه ينتقي أفضل ما طبخته كل واحدة ويأكله. اليوم كأنه حفلة صاخبة تمتد إلى غروب الشمس، وذلك حين تتقاطر العرايا على الحمام ليستحممن، وكل واحدة تستعير من الأخرى الصابون وفرشة الأسنان والمقص، حيث تقص كل واحدة شعر الأخرى، ثم يضعن على أنفسهن ملابس نظيفة، وبعدها يلطخن وجوههن بتلك المساحيق، فتبدو مثل وجه «البلياتشو»، ولكن عليها مسحة من الحزن، ثم يخرجن في الليل ليصطدن فرائسهن، ومنذ ذلك الحين لم تعد الحياة في هذا الفندق خاصة، فليس لها أي علاقة بالإنسانية بأسرها، وكان عليه أن يدفع الثمن ويشارك فيها.

منذ أن عرف فيرمينا داثا لم يكن له مكان أفضل من الفندق، وذلك لأنه المكان الوحيد الذي لا يشعر فيه أبدا بالوحدة، بل انتهى به الأمر إلى أنه كان المكان الوحيد، الذي فيه يشعر فعلا بأنه معها، مع فيرمينا، ربما للأسباب نفسها، التي دفعت تلك المرأة كبيرة السن لتعيش هناك أنيقة، حسنة الهندام، لها شعر فضي جميل الشكل، ولا تشارك أبدا في الحياة الطبيعية الخاصة بعاهرات هذا المكان اللائي يجاهرن باحترامها احتراما مقدسا لا مزيد عليه، فذات يوم حينما كانت شابة جاء بها إلى ذلك المكان رجل كان يفترض أنه خطيبها، ثم بعدما تمتع بها وشبع تركها لمصيرها ورحل، ورغم تلك الوصمة، التي التصقت بها إلا أنها تزوجت، وبعدما شاخت وكبرت وصارت وحيدة، كثيرا ما ترجاها ابناها وبناتها الثلاث لتقيم معهم، ولكنها لم تجد مكانا أكثر راحة لنفسها إلا هذا الفندق المكتظ بتلك الفتيات المتهاونات المهملات. غرفتها في الفندق بيتها الوحيد، ولهذا سرعان ما تعرفت على فلورنتينو أريثا، الذي كانت تقول عليه إنه يوما ما سيصبح قديسا للعالم كله، لأنه رغم ما حوله من جنة العري المثيرة للشبق والشهوة إلا أنه يثري روحه بالقراءة والعلم، أما هو فكان يتأثر لها للغاية، ويشفق عليها، فكان يساعدها في شراء حاجياتها من السوق، وعادة ما يقضي أمسياته معها في نقاش وحوار، وهو يظن أن هذه المرأة علّامة حقا في شئون الحب، لأنها أضاءت له السبل، وكشفت له الكثير من خبايا نفسه، وكل هذا دون أن يبرز لها سره.

والجدير بالذكر أن فلورنتينو قبل أن يعرف حب فيرمينا داثا لم يكن يستسلم للمراوغات والإغراءات، التي كانت حينئذ في متناول يده، وبالكاد انتهى من هذا الأمر حين صارت فيرمينا خطيبته الموعودة، وهكذا عاش فلورنتينو مع العاهرات يشاركهن مسراتهن وأحزانهن، ولكن لا هن ولا هو فكروا في أن يذهبوا إلى أبعد من ذاك، وخير دليل على هذا ما حدث عفويا ذات مرة، فبانت صرامته بخصوص تلك الأمور، ففي الساعة السادسة عصرا

من كل يوم تقريبا، حين ترتدي العاهرات لبسهن كي يستقبلن زبائنهن في الليل، تدخل إلى غرفته المرأة المسئولة عن تنظيف الطابق الخاص به، وتلك كانت امرأة شابة، ولكنها تبدو أكبر بكثير من سنها، وعليها مسحة من الحزن والهزال، فكانت كأنها تائبة وسط هذا العهر المُمجّد حولها، وهو في كل يوم يراها دون أن يعيرها أى انتباه، يراها وهى تمشي بين الغرف تكنس الأرض بالمقشة، ومعها سلة لتضع فيها القمامة، وخرقة مخصوصة لتلتقط بها من الأرض الواقي الذكري، الذي يستعمله الرجال، وذات مرة دخلت غرفة فلورنتينو أريثا، حيث يقرأ فيها دائما، وراحت تكنس الأرض في حذر مفرط كعادتها كي لا تقلقه، وفجأة صعدت فوق السرير، وإذا به يحس بيدها البضة الطرية تتحسس بطنه لتصل إلى ما بين ساقيه، وشعر بها، وهى تبحث عنه، وشعر بها وهى تجده، ثم وهى تطلقه من بين الأزرار، بينما نفسها يغمر الغرفة كلها، وهو أثناء كل هذا يدّعي استغراقه في القراءة إلى أن انتهى صبره، وإذا به يبتعد بجسده عنها.

خافت وأصابها الرعب، فأول شيء حذروها منه ليمنحوها وظيفتها هذه ألا تحاول النوم مع أحد الزبائن أيا كان، ولم يكن عليهما قول شيء عما حدث، ذلك أنها ترى أنها لا تحتاج للمال نهائيا إذا مارست الجنس مع شخص تعرفه، ولديها ولدان من رجلين مختلفين لم تنجبهما من مغامرات عابرة، فهى لم تستطع أن تحب من يعود إليها بعد المرة الثالثة من ممارسة الحب، وحتى ذلك الحين كانت امرأة تتمتع بطول بال وبقدرة جبارة على ضبط النفس، من طبيعتها أن تعيش صابرة، ولا يعتريها أي يأس، ولكن حياة هذه الدار أقوى كثيرا من قدراتها، فهى تدخل الفندق في الساعة السادسة، وتظل طوال الليل تنتقل من غرفة إلى غرفة، وبيدها مقشتها تكنس بها، وتلتقط الأوقية الذكرية من الأرض، وتغيّر الملاءات بأخرى نظيفة، ولا يمكن أبدا أن تتخيل حجم تلك الأشياء، التي يتركها الرجال بعد ممارستهم الحب، فقد

يتركون بقايا دموعهم وقيئهم، قد يخلفون وراءهم حاجات مفهوم سببها، أما أن يخلفوا وراءهم تلك الألغاز الحميمة، فهذا ما لا تفهمه أبدا ولا تجد له أي سبب، أشياء قد تكون: بقع دم، قطع من البراز، عيون زجاجية، ساعات ذهبية، أطقم أسنان، علبا تحوي خصلات شعر مجعدة ذهبية اللون، رسائل حب، أو رسائل في شئون العمل، أو رسائل عزاء، أو باختصار رسائل من كل نوع ولون، وبعض هؤلاء الرجال يعود كي يسترجع ما نسيه، ولكن اللافت للنظر أن أغلب هذه الحاجات تبقى ولا يأتي أصحابها ليأخذوها، وكان لوتاريو ثوجوت يجمعها ويحفظها بكل حرص، وربما وضعها بمكان جعل عليه قفلا، وهو يظن أنه إن عاجلا أو آجلا، فسوف يحين الوقت الذي سيصير فيه هذا القصر التعيس متحفا للحب تُعرض فيه كل هذه الأشياء المنسية.

كان عملها شاقا لا تأخذ عليه الأجر الذي تستحقه، إلا أنها تقوم به على أكمل وجه، ولكنها لا تستطيع تحمّل ما تسمعه من شهيق ونشيج وعويل، وتلك الطقطقة الآتية من الأسرّة، أصوات تجعل دمها يفور ويغلي من قسوة ما تحس به من شبق، حتى أنها ما إن يأتي صباح اليوم التالي ترضى بممارسة الحب مع أول صعلوك تصادفه في طريقها، أو ليكن مع هؤلاء السكارى المتناثرين في كل مكان، والذين يرضون بما تطلبه منهم دون اعتراض أو سؤال. لهذا، فظهور رجل مثل فلورنتينو أريثا في الفندق لا معه امرأة أو عشيقة تخصه، شاب نظيف نقي مثله، كان بالنسبة لها كأنه هدية من السماء، فمنذ اللحظة الأولى أدركت بأنه مثلها تماما، يحتاج إلى الحب، ولكنه كان صلبا عنيدا لا يبالي مطلقا بما تبديه أمامه من رغبة واشتياق، خاصة أنه أقسم بأن يحافظ على نفسه نقيا طاهرا بكرا من أجل فيرمينا داثا، ولا توجد أي قوة أو سبب في هذا العالم يثنيه عن قسمه هذا.

هذه كانت حياته، التي ظلت هكذا إلى ما قبل الموعد المضروب بأربعة شهور للإعلان الرسمي عن ارتباطه بفيرمينا داثا، حين ظهر أبوها لورينثو داثا

داخل مكتب التلغراف في الساعة السابعة صباحا، وسأل عنه، ولما لم يجده انتظره حتى الساعة الثامنة وعشر دقائق، بعد أن نزع من أصبعه خاتمه الذهبي الثقيل المرصع بحجر عين الهر، ليضعه في أصبع آخر، واستطاع أن يتعرف على فلورنتينو في الحال بمجرد أن رآه، فأخذه من ذراعه، وقال له:

– تعال معي أيها الشاب الصغير لا بد أن نتكلم أنا وأنت لخمس دقائق، كلام رجل لرجل.

وفلورنتينو أريثا، رغم مظهره الشبيه بمظهر الموتى، ترك والد فيرمينا يأخذه إلى حيث يريد، فلم يكن مستعدا مطلقا للقاء كهذا، وفيرمينا لم تجد أي فرصة أو وسيلة لتنبئه بخبر هذه المقابلة، وأصل الحكاية أنه في يوم السبت الماضي كانت كبيرة الراهبات في المدرسة، فرانكا ديه لا لوث، دخلت الفصل أثناء حصة «مفاهيم عن نشأة الكون»، كأنها حية سامة ليس إلا، وراحت تراقب الطالبات، وحينئذ رأت فيرمينا، وهى تدعي تدوين بعض الملاحظات في كشكولها، بينما هي حقيقة تكتب رسالة حب. غلطة كهذه كانت كفيلة، وفقا للوائح المدرسة، بفصل فيرمينا من المدرسة، وعلى الفور تم إخطار رئاسة المدرسة، وأخيرا اكتشف لورينثو داثا تلك الفتحة، التي منها يختل ويخر نظامه الحديدي الشرس، واعترفت فيرمينا داثا بثباتها الفطري، وأقرت بما حدث، ولكن أبت أشد الإباء أن تكشف هوية حبيبها، الذي كانت تكتب له، بل ورفضت كذلك أن تقول من هو، أثناء جلسة التأديب، ولهذا رفدوها من المدرسة، ومع ذلك، قام أبوها بتفتيش غرفة نومها، التي كانت، حتى ذلك الوقت مكانا، محرما لا يمكن تعديه، وفي أحد الصناديق، وفي موضع خفي منها، وجد بغيته، نحو ثلاثة طرود فيها ما فيها من رسائل على مدى ثلاث سنين، تم إخفاؤها بحب مثلما تمت كتابتها، وتوقيعها على الرسائل لا يختلف عليه اثنان، ولكن أباها لم يصدق أبدا أن ابنته لم تكن تعلم عن فلورنتينو أريثا، عن حبيبها السري هذا، إلا أنه عامل تلغراف، ومجرد هاو

للعزف على الكمان.

ولأنه يعلم تماما أن علاقة وطيدة كهذه لا يمكن أبدا أن تكون إلا بمساعدة أخته، ولذلك فلم يعطها أي فرصة حتى لتعتذر، وإنما مرة واحدة أركبها السفينة الشراعية الخاصة بمدينة سان خوان ديه لا سياناجا، حتى فيرمينا داثا ظلت حياتها كلها تؤرقها وتؤلمها ذكراها الأخيرة مع عمتها، لم تكن تنسى أبدا آخر لقاء بينهما في عصر ذلك اليوم، حين ودعتها عند باب الدار، وهى ترى جسدها الضامر الهزيل يرتعش من الحمّى داخل عباءتها الداكنة القاتمة، بل ورأتها، وهى تغيب عنها في الحديقة الصغيرة أسفل السماء، التي كانت تهمي وقتها بزخات خفيفة من المطر، رأتها وهى تحمل الشيء الوحيد، الذي تمتلكه في دنيتها: بقجتها كامرأة عزباء عانس، وفي قبضة يدها بضعة نقود مغلفة في منديل لا تكفي أكثر من شهر، ملفوفة في منديل من طرف كمها. وما إن تحررت من سلطة والدها فيما بعد حتى بعثت من يبحث عنها في مقاطعات الكاريبي، سائلة كل من قد تعرف إليها، ولم تجد أي خبر عن آثارها إلا بعد مرور حوالي ٣٠ عاما، عندما تلقت رسالة تناقلتها أيادي كثيرة خلال زمن طويل، ومن هذه الرسالة علم بأنها ماتت في مستشفى «أجوا ديه ديوس» للجذام.

ولم يكن أبدا في حسبان الأب أن ابنته سيكون ردها عنيفا بهذا الشكل بعد عقابه العنيف الظالم لعمتها، التي كانت تذكرها دائما على أنها أمها، هي التي بالكاد تذكر أمها الحقيقية. حبست فيرمينا نفسها داخل غرفتها، وأغلقت الباب بالمفتاح والمزاليج، وأبت أن يدخل فمها طعام أو شراب، وحينما استطاع أخيرا أن يفتح الباب، في الأول بالتهديد، ثم بترج وتوسل لم يستطع مداراتهما، وجد نفسه أمام فهد مجروح، وليس مجرد فتاة في الخامسة عشرة من عمرها.

وبكل السبل حاول استرضاءها وتملقها. حاول إفهامها بأن الحب في عمرها هذا سراب وأي سراب، وحاول إقناعها بالحسنى أن تعيد رسائلها

تلك، وتعود إلى المدرسة لتطلب العفو والصفح راكعة على قدميها، بل ووعدها وعد شرف بأنه سيكون أول من يبحث لها عن عريس يستحقها فعلا، ولكنه كان كمن يخاطب إنسانة ميتة لا حياة فيها، وفي اللحظة، التي بلغ فيها يأسه منتهاه، وبدأت أعصابه تتفكك، وهو يأكل غذاءه في يوم من أيام الاثنين، على وشك الانفجار ويجاهد ليبتلع ما يود إطلاقه من شتائم وسباب للملة والدين، إذا بها تمسك بالسكين وتضعها في رقبتها، هكذا بغتة دون أي دراما، وبكل ثبات، وعيناها ذاهلتان مشدوهتان، عينان لم يقدر على النظر فيهما وقتها. حينئذ خطر على باله أن يخاطر، ويتكلم لخمس دقائق رجلا لرجل مع هذا الغريب المنحوس، الذي لم يره من قبل البتة، وإنما لحظه الغابر جاء هذا الفتى بشكل عارض ليدخل حياته، ولمجرد العادة أخذ مسدسه معه قبل خروجه من البيت، بيد أنه حرص على إخفائه تماما تحت قميصه.

وفلورنتينو أريثا لم يكن هدأ بعد، واستعاد تنفسه الطبيعي، حتى بعد أن أخذه لورينثو داثا من يده وعبر به ميدان الكاتدرائية إلى أن وصل به إلى رواق مقهى باروكيا، ودعاه للجلوس عند تراس القهوة، ولم يكن، في ذلك الوقت، زبون واحد في القهوة، وإنما امرأة مسنة سوداء البشرة رهيبة المنظر كانت تمسح أرضية الصالة الكبيرة الخاصة بالقهوة التي تحفل جدرانها بواجهات زجاجية مكسورة، وغطتها طبقات كثيفة من التراب، وفيها ما فيها من مناضد رخامية وضعت عليها الكراسي بالمقلوب، وكثيرا ما رآه فلورنتينو أريثا في ذلك المكان يلعب ويشرب الخمر مع هؤلاء العاملين في سوق المدينة والآتين من مقاطعة أستوريا في إسبانيا، بينما يصطخبون ويتشاجرون بالأيدي والأرجل بسبب حروب لا تمت لنا بصلة، ولأكثر من مرة كان يسأل نفسه، وهو يعلم تماما ما للحب من قدر لا مناص منه، كيف سيكون هذا اللقاء، الذي لا بد أن يحدث بينهما، لقاء لم يكن في مقدرة أي أحد على وجه الأرض أن يمنعهما منه، وذلك لأنه مكتوب لهما من فوق سبع سماوات، وافترض أنه

سوف يكون نزاعا غير متكافئ بينهما، وذلك ليس بسبب أن فيرمينا داثا لم تعلمه في رسائلها له بأي شيء عن شخصية أبيها العنيفة القاسية، وإنما لأنه هو نفسه لاحظ أن عينيه تقدحان بالشرر حتى وهو غارق في الضحك أمام منضدة اللعب. كل ما فيه يوحي بالفظاظة والغلظة الشديدة، من أول كرشه الكبير، وطريقة كلامه المفخمة المضخمة لكل شيء، وفوديه الرفيعين الحادين، وحتى يديه الخشنتين وأصبعه البنصر المختنق بذلك الخاتم المرصع بحجر الهر. السمة الوحيدة، التي بدت في عيني فلورنتينو أريثا أن بها بعض اللطف في لورينثو داثا ، أنه يمشي المشية الخفيفة الرشيقة التي تمشيها ابنته، ومع ذلك، فحينما أشار إليه ليجلس على الكرسي لم يجده فظا خشنا كما بدا له، وسرعان ما استعاد هدوءه وثباته حينما دعاه لشرب كأس من العرق، وهو أصلا لم يكن شرب شيئا منذ الساعة الثامنة صباحا، ولهذا قبل دعوته شاكرا، ولأنه فعلا كان في أمس الحاجة لهذا الكأس.

وحقيقة، لم تمر خمس دقائق وإذا بلورنيثو داثا يبوح بكل ما لديه من أسباب، والغريب أنه قال ما أراد قوله بصدق وصراحة ليس فيهما نبرة غضب واحدة، حتى أن فلورنتينو ذات نفسه اختلط عليه أمره ولم يدرِ ماذا يفعل. طريق طويلة عسيرة غير مأمونة بالنسبة لرجل مثل لورينثو. كان تاجرا للبغال، أميّا لا يقرأ ولا يكتب، وسمعته بكونه سارقا للدواب والماشية المنتشرة في أرجاء بلدة «سان خوان دي لا سياناجا»، رغم أن أحدا لم يتحقق ويتثبت منها، وأشعل سيجارته، الخاصة بالبغّالين، وقال له، وهو في غاية الحزن: «السمعة السيئة هي الشيء الوحيد الأكثر سوءا من المرض»، ومع هذا أخبره بأن السر الحقيقي وراء ثروته تلك أنه لم يكن يرهق أيا من بغاله بالعمل الشاق والشغل الكثير، وحتى في الأوقات الصعبة المتوترة، أيام الحروب حين تصبح البلدة كل يوم فتجد أمامها أكواما من الغبار والرماد والقرى المخربة المدمرة تدميرا، ورغم أن ابنته لم تكن تدرك مصيرها، الذي كان يخطط له بإصرار

وتعمد شديدين، إلا أنه كان يتصرف معها وكأن شيئا لم يكن، وكانت هي في غاية الذكاء والنظام لدرجة أنها علمت أباها القراءة بالسرعة نفسها، التي تعلمت بها القراءة، وحتى أنها حين بلغت من عمرها اثني عشر ربيعا صارت متحكمة في شئون البيت، وقادرة على تحمل مسئوليته دون مساعدة العمة إسكولاستيكا، وقال له متنهدا في حرارة: «حقا ابنتي هذه ليست إلا بغلة من الذهب الصافي»، ولما وجد ابنته استطاعت أن تنهي دراستها الابتدائية في المدرسة بتفوق في جميع السنين، بل استطاعت أن تنال تكريما شرفيا في حفل ختام الدراسة، حينها أدرك أن مدينة مثل «سان خوان ديه لا سياناجا» لا تتسع إطلاقا لأحلامها وطموحاتها. حينئذ صفّى كل ما كان لديه من أراض وحيوانات، وبكل ما فيه من حماس وحمية، وبما معه من ستين ألف بيزو من الذهب، انتقل إلى تلك البلدة المتداعية، وفيها ما فيها من أمجاد ومفاخر نخرها السوس، وأتى عليها، ولكن في هذه البلدة نفسها تستطيع فتاة مثل ابنته لها هذا الجمال والتعليم الراقي أن تحيا وتعيش وتتزوج من رجل ذي حسب وجاه، إلا أن هذا الاقتحام، الذي سببه فلورنتينو أريثا كان بمثابة عقبة غير متوقعة نهائيا في طريق تحقيق خططه، رغم قوتها وصرامتها، «وعلى هذا فقد أتيتك ومعي رجاء مني إليك»، قال هذا، وهو يبلل طرف سيجارته في العرق، ويتنهد في حرقة، وينهي كلامه قائلا له في صوت حزين منكسر:

– رجائي أن تبتعد عن طريق ابنتي.

كل هذا وفلورنتينو ينصت إليه مرتشفا العرق في بطء وتأن، ويشعر بدهشة عظيمة من تلك المكاشفة الصريحة من جانب أبيها، بعد أن كشف له عن ماضي فيرمينا داثا كله، حتى أنه من شدة دهشته لم يفكر ما الذي سيقوله حين يأتي دوره في الكلام، ولكنه عندما حانت لحظته، علم أن أيا ما سيقوله هذا، إنما يقوم عليه مصير حياته بأكملها. حينئذ سأل أباها:

– هل تكلمت معها؟

فقال له لورينثو داثا:

- هذا شأن لا يعنيك، ولا يحق لك أن تسألني فيه.

فقال فلورنتينو:

- أنا سألت هذا السؤال، لأنها في نظري صاحبة القرار وحدها.

فأجابه لورينثو:

- لا شيء من هذا مطلقا، إنما هذا أمر يخص الرجال وحدهم ولا يكون إلا بينهم فقط.

وكان واضحا ما في نبرته من تهديد، وضيق صدر، حتى أن أحد الزبائن بدأ ينتبه إليهما، ولكن رغم هذا، تحدث فلورنتينو بصوت خفيض للغاية، ولكن بقوة وثقة تبديان أنه لا يزال متحكما في الوضع، قال:

- على كل حال، لا يمكنني أن أجيبك بكلمة واحدة، إلا إذا عرفت فينا تفكر هي، فلو فعلت لكان هذا خيانة مني لها.

حينئذ استلقى لورينثو داثا إلى الوراء، وتخضبت رموشه بحمرة الغضب، وجعل عينه اليسرى تدور وتدور ناظرة إلى لا شيء، وقال له في صوت خفيض:

- لا تجعلني أطلق النار عليك.

حينئذ أحس فلورنتينو أريثا بأن مصرانه امتلأ عن آخره برغوة كثيفة باردة، مع ذلك، لم يهتز صوته قط وهو يتكلم، فقد أحس كأن بصيرته أنارتها له روح القدس.

قال، وهو يضع يده على صدره:

- إذن، أطلق النار عليَّ كما تود، فلا مجد عندي أعلى من مجد الموت في سبيل المحبوبة.

فنظر إليه لورينثو داثا نظرة جانبية، تماما كما يفعل الببغاء، حتى يجده بعينه هذه منحرفة النظر، وإذا به يهتف في حدة بكلمتين بديا كأنهما طلقات

يطلقها عليه حرفا حرفا:

-ا ب ن - ا ل ع ا هـ ر ة

في الأسبوع نفسه أخذ معه ابنته في رحلة النسيان. هكذا دون أي شرح منه، اقتحم عليها غرفة نومها وعلى شاربيه آثار التبغ وغضبه العارم، وأمرها بأن تحزم أمتعتها، وسألته إلى أين سيذهبان، فأجابها: «ذاهبين في داهية». هالتها إجابته، التي بدت واقعية أكثر من اللازم، فحاولت أن تواجهه بما تبقى فيها من شجاعة استمدتها من الأيام الماضية، ولكنه على الفور نزع حزامه ذا التوكة النحاسية الثقيلة، وإذا به يلف طرفه حول قبضته، ثم بكل قوة يهوي بالحزام على المنضدة. ضربة كانت من قوتها أن رن رنينها في الدار كلها كأنها ضربة بندقية. حينئذ أدركت فيرمينا خطورة الموقف، ومدى غضب أبيها، بحيث أنها حزمت أمتعتها بما فيها حصيرتان وسرير معلق وصندوقان كبيران فيهما جميع ملابسها، بعد أن تيقنت من أن هذه الرحلة ستكون بلا عودة البتة، وقبل أن ترتدي ملابسها ذهبت إلى الحمام وأغلقت الباب على نفسها واستطاعت أن تكتب رسالة وداع على ورق مناديل، ثم بمقص التشذيب قصت ضفيرتها كلها من أول رقبتها، ثم وضعتها في حقيبة مخملية مزينة بخطوط من الذهب، ووضعتها مع الرسالة الموجهة لفلورنتينو أريثا.

وكانت رحلة شاقة مجنونة، ففي المرحلة الأولى من الرحلة كانت على ظهر بغلة، واستغرقت نحو أحد عشر يوما وسط قافلة من البغالين الهنود بين سواحل «سيررا نيبادا»، سارا كل هذا دون سقف يظلهما، تصلي رؤوسهما الشمس الحامية، وتغرقهما أمطار شهر أكتوبر، وكانا دائما كأنهما مخدران بسبب هواء المنحدرات المهدئ للأعصاب، وفي اليوم الثالث من الرحلة، انزلقت بغلة براكبها بعد أن جننتها حشرات القرادة، وعلى الفور جرّت معها بقية ما كان مربوطا وراءها من بغال، حينها صرخ راكبها صرخة فزع شقت سكون الكون، وتبعته بقية حيواناته السبعة، التي كانت مربوطة في بعضها،

صرخة ظل صداها يتردد من شعب إلى شعب، وعلى مدى الجرف بأكمله، حتى بعد وقوعهم جميعا، صرخة ظل صداها يتردد في أذن فيرمينا لسنين طويلة، وضاع كل ما كانت تحمله من أمتعة، ضاعت مع تلك البغال التي وقعت، والغريب أنها في هذه اللحظة المشئومة، الطويلة كأنها قرون، إلى أن انطفأت صرخة الرجل، لم تفكر فيرمينا قط في البغّال الميت، ولا فيما تبعه من الحيوانات التي تقطعت إربا، وإنما كان كل تفكيرها في بغلتها، التي تحملها، ودت لو أنها كانت مربوطة بغيرها ووقعت معهم، وبذلك تموت هي الأخرى، وترتاح من ألمها.

وكانت هذه أول مرة تركب فيها دابة عموما، ولكن ما كانت فيه أثناء الرحلة من رعب واحتياجات لا تنتهي أبدا لم تبدُ لها أبدا مؤلمة وموجعة مثل ألمها العظيم كونها موقنة بأنها لن ترى فلورنتينو مرة أخرى، ولن ترتوي عيناها برسائله وكلماته، وهى منذ بداية الرحلة لم توجه كلمة واحدة إلى أبيها، وكان هو في غاية الحيرة والاضطراب حتى أنه لم يكن يتكلم معها إلا حين الضرورة، وأحيانا يبعث بما يريد قوله لها عن طريق البغالين.

حين ابتسم لهم الحظ قليلا وجدوا استراحة من تلك الاستراحات الموجودة في الطريق، وتقدم طعاما خاصا بأهل الجبال، رفضت فيرمينا أن تأكله، وكانت تؤجر فيها أسرَّة من القطن ملطخة بالعرق والبول، ومع ذلك، كثيرا ما قضوا لياليهم في تلك المخيمات الخاصة بالهنود، والتي هي مجرد غرف نوم متاحة للجميع، وفي الهواء الطلق، وعلى حافة الطرق، وتم بناؤها بألواح رقيقة من الخشب، وبدون سقف، إلا بعض أشجار النخيل، ومن يأتي إلى هذا المكان يحق له أن يبقى حتى طلوع الفجر، وهى بالطبع لم تستطع أن تنام ليلها كله، والعرق يتفصد منها بغزارة من شدة الخوف، تحس وسط هذه العتمة الشديدة بالضجيج والعجيج الصادر عن هؤلاء المسافرين المجهولين الغرباء، الذين يربطون دوابهم في تلك الألواح الخشبية ويضعون سريرهم

المعلق في أي مكان وينامون.

وعند مغيب الشمس، حين يصل أوائل المسافرين إلى ذلك المكان، الذي يكون، في ذلك الوقت، خالِيا تماما وهادئا كل الهدوء، وحين تشرق الشمس عليه ينقلب رأسا على عقب إلى سوق من الجلبة والصخب، وفيه ما فيه من أكوام الأسرة المعلقة على أكثر من ارتفاع، وتجد زمرة من هؤلاء الهنود الحمر من أصول تشيلية جالسين القرفصاء أو نائمين، ومن حولك تسمع الكباش المربوطة، وهى تستعر من الغضب، كما تجد الديكة تتصارع في أقفاصها فرعونية الشكل، وترى الكلاب الصامتة كأنها خرساء، تلك الكلاب الريفية، التي علمها أصحابها عدم النباح لما قد يجر عليهم من مخاطر، والوقت وقت حرب وصراع. كل هذه الأشياء كانت لا تمثل لأبيها أي شيء، بعد أن قضى نصف حياته يتاجر ويعمل في هذه البيئة، ودائما ما يلتقي بأصدقائه القدامى وقت طلوع الشمس، أما بالنسبة للفتاة، فالأمر لا محالة كأنه احتضار مؤبد فُرض عليها، فرائحة العفن، التي تطلقها حمولات السمك المملح بالإضافة إلى ما تعانيه من فقدان الشهية لشدة حنينها واشتياقها اللذين قضيا تماما على أي ميل للطعام، وإذا كانت لم تُجن ولم ينتهِ ما تبقى فيها من عقل، إنما لأنها دوما تجد راحتها في ذكرى فلورنتينو أريثا. وهى أبدا لم تشك في أن تلك الأرض هي الأرض الموعودة للنسيان.

وأيضا كان يحوم حولها على الدوام شبح الحرب، وما فيها من فظائع وأهوال، فمنذ بداية الرحلة والحديث دائر بين الرجال عن خطورة احتمال مصادفتهم إحدى دوريات الجيش المنتشرة في كل مكان، لذا كان هؤلاء البغالون يستعدون ويدربون أنفسهم على الطرق المناسبة ليعرفوا لأي فريق تنتمي هذه الدورية إذا صادفتهم، وبالتالي تكون تصرفاتهم واستجابتهم معها، ومن الشائع جدا أن يلتقوا في طريقهم فرقة من الجنود الفرسان راكبين خيولهم، وعلى رأسهم ضابط يأتمرون بأمره، ويكون المسئول عن التجنيد

الجبري لهؤلاء بحيث تجدهم مربوطين ببعضهم البعض في قارعة الطريق كأنهم مجرد قطيع من العجول والمواشي، وفيرمينا داثا من كثرة ما يخيفها ويثير هلعها، نسيت هذا الأمر، الذي بدا حدوثه لها بعيدا للغاية، إلى أن بوغتوا في إحدى الليالي بدورية لا يُعرف إلى أي جانب تنتمي، لكنها خطفت اثنين من المسافرين في القافلة، وقام جنود الدورية بقتلهما، وعلقوهما في إحدى الأشجار على بعد نصف فرسخ من المخيم، ولورينثو داثا، رغم أنه لا تربطه بهما أي علاقة إلا أنه أنزلهما من فوق الشجرة، وقام بدفنهما على الطريقة المسيحية، فعل ذلك لوجه الله، وحتى لا يحدث له نفس مصيرهما، ولكن هذا لم يكن كل ما حدث، فالأمر لم يقف عند هذا الحد، وإنما باغته المعتدون، أثناء نومه، مصوبين فوهات بندقياتهم إلى بطنه، وإذا بقائدهم بما عليه من أسمال بالية، وبوجهه الممتقع بلون الدخان الأسود، يوجه نحوه ضوء المصباح، ويسأله إذا كان من المحافظين أم من الأحرار، فقال له لورينثو داثا:

- لا هذا ولا ذاك، أنا مجرد أحد الرعايا الإسبان.

حينئذ قال له القائد، وهو يحييه برفع يده إلى أعلى:

- يا له من حظ! يعيش الملك.

وبعد يومين كانوا قد هبطوا إلى ذلك السهل المنبسط، حيث تكون بلدة بايدوبار، وهناك شعروا بأن السعادة تمشي على رجليها، فالديكة تتصارع في الميادين، وفي الأزقة والزوايا تصل إلى أذنيك أصوات الأكورديون الصادحة الهادرة، والفرسان على ظهور خيولهم الأصيلة، وحيث تحل قدماك لا بد أن تقع عيناك على تلك الألعاب النارية والأجراس المجلجلة، وكانت البلدة في ذلك الوقت تبني قلعة من الألعاب النارية، وكل هذا وفيرمينا لا تحس مطلقا بما حولها من جو البهجة والسرور، ونزلت فيرمينا وأبوها ضيفين عند بيت خالها ليسيماكو سانتشيث، والذي خرج لاستقبالهما في الطريق، على رأس موكب من الفرسان الشباب الأقارب راكبين أفضل ما أنجبته البلدة من خيول،

وقادوهما بين شوارع المدينة، وسط جلبة الألعاب النارية، وكانت دار خالها تقع على أطراف ميدان جرانديه، بجانب كنيسة تم بناؤها منذ أيام الاستعمار الإسباني، وكثيرا ما تمت إعادة بنائها وإصلاحها، والدار من يراها يحسبها كأنها شركة كبيرة للأموال، فحجراتها ضخمة واسعة معتمة، والطرقة هناك تفوح منها رائحة خمر عصير القصب الساخن، تطل على حديقة مكتظة بالأشجار المثمرة.

وما إن وضعت الخيل في الإسطبل، حتى كانت صالة الزيارات مكتظة عن آخرها بهؤلاء الأقارب، الذين لم تكن تعرف أحدا منهم، ولم ترتح البتة لهذا الجمع المطرد في ازدياد عجيب، فلا شك أن لا تشعر بذلك، وهى التي تم أخذها أخذا من أحب إنسان إلى قلبها، وتسلخت قدماها من طول ما قاست في هذه الرحلة، وتشعر بحاجة ماسة إلى النوم والراحة، وبطنها خاوية والجوع ينهشها، وكل ما ترغبه فيه، هذه اللحظة، أن تخلو بنفسها في مكان منعزل، بعيدا عن أعين الناس كي تبكي ما شاء لها البكاء، وابنة خالها، إيلديبراندا سانتشيث، التي تكبرها بعامين فقط، والتي لها نفس أنفتها الملكية وشموخها العالي، هي الوحيدة، التي ما إن رأتها حتى فهمت حالتها خير فهم، فهى أيضا عانت من جذوة الحب المضطرم، وحين جن الليل أخذتها إلى غرفة النوم، التي سوف تشاركها فيها، ولم تفهم كيف استطاعت فيرمينا أن تكون على قيد الحياة، وبين ردفيها هذه النار المشتعلة من طول ما ركبت. وبمساعدة والدتها، امرأة حلوة عذبة لينة لها نفس ملامح زوجها حتى أن من يراهما يحسبهما توأمين، استطاعت ابنة خالها أن تعد لها حماما، ووضعت فيه مقعدا لتجلس عليه، وراحا يخففان من أوار تلك النار بضمادات من زهور العُطاس، فعلا هذا بينما أعاصير جامحة من الغبار تكاد تهز أركان البيت هزا.

وعند انتصاف الليل انصرف المدعوون، وصارت تلك الحفلة الضخمة الصاخبة مجرد قطع متناثرة في كل مكان، وحينها أعطتها ابنة خالها قميص

نوم من القطن الصافي الناعم، بل وساعدتها لتنام على فراشها الوثير ذي الوسادة المبطنة بالريش، راحة جعلتها فجأة وللحظة تحس كأنها تخشى على نفسها السعادة، وأخيرا حينما صارا وحدهما في غرفة النوم، وضعت المزاليج والرُّتُج على باب الغرفة، ثم أخرجت من تحت حصيرة السرير ظرفا من الحرير مختوم بالشمع الأحمر عليه شعار مكتب التلغراف القومي، وهي، فيرمينا داثا، كفاها أن ترى تلك النظرة المشعة ألقا وفطنة من عيني ابنة خالها كي ينمو من جديد في قلبها ذكرى رائحة الياسمين الحجازي الأبيض اللون، التي شغلت بالها زمنا بحاله، وذلك قبل أن تنزع الختم بأسنانها، وتظل تتمرغ ليلها كله في دموع تلك التلغرافات الإحدى عشر المحمومة المليئة شجنا وحزنا.

عرف فلورنتينو إلى أين هي راحلة. ذلك أن لورينثو قبل رحلته الطويلة أخطأ وأخطر صهره ليسيماكو سانتشيث، وهو بدوره قام بإيصال الخبر لجميع أقاربه، المبعثرين في شتى أنحاء البلاد، على كبر عددهم وبعد أماكنهم، بحيث أن فلورنتينو أريثا لم يعلم فقط بمسار الرحلة بأكملها، وإنما استطاع كذلك أن يجمع لنفسه مؤيدين من عمال التلغرافات ليساعدوه في تقفي أثر فيرمينا داثا حتى آخر مخيم أقامت فيه في كابو ديه لا بيلا. ولذلك استطاع أن يكون على اتصال قوي بها منذ وصولها إلى مدينة بايدوبار، التي مكثت فيها نحو ثلاثة أشهر، إلى أن انتهت رحلتها الطويلة في ريوآتشا، بعد سنة ونصف حين أدرك لورينثو داثا أخيرا بأن ابنته نسيت بالفعل، وأنه باستطاعته العودة بها إلى البيت، وربما لم يدرك كم خفت حدة مراقبته لها، وتفكيره كله منصرف إلى إرضاء أصهاره، الذين، بعد سنين طويلة، رضوا بهدم كل ما بينهم من خلافات قبلية، وفتحوا له قلوبهم واعتبروه أخيرا واحدا منهم، وهذه الزيارة إنما هي اعتراف منهم متأخر للغاية، رغم أن هذا لم يكن الغرض منها البتة، والحقيقة أنه في ذلك الحين أبت بقوة عائلة فيرمينا سانتشيث أن تتزوج ابنتهم من رجل

مهاجر لا حسب ولا نسب له، ثرثار يحب الكلام، وحشي الطباع، دائما ما يكون في كل مكان، ببغلاته الوحشية غير المستأنسة. ببساطة شديدة لا يمكن الحكم عليه بأنه إنسان نظيف، إلا أنه غامر بكل ما لديه، لأن بغيته هذه الفتاة، الأكثر عزة، ومن عائلة ذات حسب ونسب على مستوى المنطقة كلها، عائلة معروف عنها أنها من قبيلة متشابكة من النساء القويات، والمتميزة برجالها ذوي القلوب الطيبة الحساسة، رجال شرفهم عندهم أغلى من حياتهم، مع ذلك، أصرت فيرمينا سانتشيث على حبها، ودافعت بعزيمة عمياء، وتزوجته، على الرغم منهم، تزوجت منه في عجالة وغموض، حتى بدا أنها فعلت ذلك لا عن حب، وإنما لترمي بغطاءً مبارك على غلطة عمر اقترفتها.

ومر خمسة وعشرون عاما ولورينثو داثا لا يعلم أن تشدده الصارم فيما يتعلق بأي حب عابر يمر بابنته لن يمنع ما حدث له في ماضيه بحذافيره، وشعر بألم شديد أمام أصهاره، الذين كانوا يرفضونه من قبل أشد الرفض، تماما مثلما كان هؤلاء يتألمون أمام أصهارهم. ومع ذلك، فما استغرقه من وقت في الأسف واللوم كسبته ابنته في سبيل حبها. وهكذا، بينما هو مستغرق في خصي العجول، وترويض البغال في أراضي أصهاره الخطرة، كانت فيرمينا تنقاد لتوجيه بنات أخوالها على رأسهن إيلديبراندا سانتشيث، أكثرهن جمالا وفطنة، التي تأكدت عاطفتها وحبها تجاه رجل يكبرها بنحو عشرين عاما، متزوج ولديه أبناء، من مجرد نظرات عابرة لا أكثر ولا أقل، حب ليس منه أي فائدة ترجى نهائيا.

وبعد تلك الإقامة الطويلة في بايدوبار واصلا رحلتهما عبر سلاسل الجبال والمراعي الواسعة الفسيحة المزهرة، ونجاد وهضاب غاية في الجمال والروعة، وكلما مرا على بلدة يُستقبلون بالموسيقى والألعاب النارية، وبالمزيد من بنات أخوالها المتعاطفين معها، والرسائل التلغرافية، وسرعان ما أدركت منذ ليلة وصولها إلى بلدة بايدوبار أنها فقط ليست مجرد ليلة واحدة

مختلفة فقط، إنما أيام هذه البلدة الخصبة المعطاءة كأنها أعياد واحتفالات متواصلة، فالزوار ينامون، حيث يدهمهم الليل، وفي أي موضع، ويأكلون بمجرد أن يجوعوا، ذلك أن أبواب البيوت هناك مفتوحة للجميع دائما، حيث توجد تلك الأسِرَّة المعلقة، وقدور اللحم المسلوق والموز فوق مواقدها، وفي كل قدر نحو ثلاث قطع من اللحم، كل هذا تحسبا لوصول أي أحد قبل وصول رسالته التلغرافية، التي يخطرهم فيها بمجيئه، وهذا فعلا ما يحدث دائما، أما إيلديبراندا سانتشيث، ابنة خالها، فظلت معها بقية الرحلة، وجعلت تحيي فيها خفقات ونبضات من السعادة تسريها في دمها حتى المنبع، وبدأت فيرمينا تشعر بنفسها وبقيمتها، فللمرة الأولى تحس بأنها مالكة لنفسها، وأن لها صحبة حلوة، وأنها في حماية واهتمام من الآخرين، بل إنها تشعر برئتيها كأنما امتلأتا بذلك الهواء النقي، هواء الحرية، الأمر الذي أثابها إلى رشدها وهدوئها وشعورها بالغربة في الحياة. رحلة ظلت تستدعيها إلى ذاكرتها في السنوات الأخيرة من عمرها، كل مرة تتذكرها كأنها لم تكن إلا بالأمس القريب، ذكراها لهذه الرحلة يشوبها مزيج من الحنين والاشتياق.

وذات ليلة عادت من نزهتها اليومية تشعر بذهول ودهشة لاكتشافها أنها لن تكون سعيدة بدون حب، وإنما كذلك إذا عاكست حبها، ولم تطاوعه. ذهولها منبعه ما عرفته من إحدى بنات أخوالها، التي نقلت إليها ما أسر به أبوها لورينثو داثا لوالديها بنيته تزويج فيرمينا من الوريث الوحيد لثروة «كليوفاس موسكوتيه» الهائلة الأسطورية، وفيرمينا داثا تعرف ذلك الرجل، الذي ينوي أبوها تزويجها منه، رأته وهو يدور في الميادين راكبا جواده الأصيل، الذي يكسوه دائما بكسوة فخمة غالية لا تكون عادة إلا في أيام القُدّاس، أنيق، ملامحه كلها تنم عن ذكاء وفطنة وبراعة، رموش عينيه فقط تجعل أقسى القلوب تهفو إليه، ولكنها مع هذا كانت تقارنه بذكراها لفلورنتينو أريثا، وهو جالس أسفل أشجار اللوز، بجسده الهزيل الضامر، وبفقره الواضح عليه،

ومعه كتاب أشعاره على حجره، ولم تكن تجد في قلبها حينئذ، ولو حتى سحابة من الشك.

في تلك الأيام، كانت ابنة خالها ايلديبراندا سانتشيث تهذى هذيانا، وتسبح في خيالاتها متأملة ما كان من لقائها مع تلك العرّافة، التي شقت شهرتها، وبصيرتها الآفاق إلى حد أدهشها. وفيرمينا كانت لخوفها من نوايا أبيها في المستقبل، سألتها أيضا أن تخبرها عن حظها في المستقبل، وأنبأتها أوراق اللعب بأنه ينتظرها مستقبل لن يقف أمامه أي حائل، زواج ميمون طويل الأمد تهنأ به. نبوءة العرافة أعادت إليها هدوءها، فهى لم تكن تصدق بأن سعادتها ومصيرها يمكن أن يكونا مع رجل آخر غير الذي تحبه، يقينها في هذه النبوءة بعث فيها الثقة لدرجة أنها صارت منذ ذلك الحين ممسكة بزمام إرادتها وقوتها، وعلى هذا لم تعد المراسلات التلغرافية بينها وبين فلورنتينو أريثا مجرد حفلة من النوايا والوعود الوهمية لا ترسو على بر في النهاية، وإنما صارت منظمة مرتبة وعملية للغاية، صارت أكثر عمقا وقوة من ذي قبل. كانا يحددان تاريخا لكل شيء، والطرق، التي سيحققان بها مرادهما، ونويا أن يبدآ حياتهما باتفاق فيما بينهما على الزواج دون استشارة أحد أيا كان، وأن يتزوجا في أي مكان، وبأي طريقة، وهذا بمجرد أن يلتقيا، وفي الواقع اعتبرت فيرمينا داثا هذا الالتزام المفروض عليها التزاما غاية في الشدة والصرامة لا بد أن تتقيد به، حتى أنها في تلك الليلة، التي سمح لها أبوها لأول مرة بأن تحضر حفلة رقص في مدينة فورنيسكا، رأت حينها أنه لا بد من موافقة فلورنتينو أولا، والذي كان ليلتئذ في الفندق يلعب الورق مع لوتاريو ثوجوت، وإذا بهم يخطرونه بأن لديه تلغرافا طارئا.

رسالتها هذه، التي بعثتها إليه اضطرت عامل التلغراف في فونيسكا إلى اللجوء لستة مواقع وسيطة كي يصل فلورنتينو استئذانها منه بالرقص، ولكنها بمجرد أن تسلمت رده بالموافقة، أحست بالشك في هذا الرد البسيط، لذا

طلبت ما يثبت أن من بعث لها الرد فعلا هو فلورنتينو أريثا، الذي كان ممسكا بمفتاح الإرسال على الطرف الآخر من الخط، فأرسل لها جملة لا تعرفها إلا هي، أرسلها، وهو في حالة من الدهشة والرضا معا: قل لها إني أقسم بحق الإلهة المتوجة، وعلى الفور فهمت فيرمينا كلمة السر هذه، وذهبت إلى أول حفلة رقص لها حتى الساعة السابعة صباحا، حينئذ اضطرت لتغيير ملابسها بسرعة كي لا تصل القُدّاس متأخرة، وحتى ذلك الحين كانت تحتفظ في قاع صندوقها برسائل وتلغرافات أكثر من تلك التي أخذها منها أبوها من قبل، بل وتعلمت أن تتصرف وتتكلم كأنها بالضبط امرأة متزوجة، والمضحك أن أباها ترجم تصرفاتها وتغيرها على أنه دليل دامغ بأن المسافة والوقت أبعداها أخيرا عن خيالاتها الشبابية، ولم يخطر بباله قط أنهما نويا الزواج أيضا. والجدير بالذكر أن علاقتهما صارت أكثر سلاسة منذ ذي قبل، بغض النظر عن التحفظ، الذي تبديه نحوه منذ أن طرد عمتها إسكولاستكيا، مما أتاح لهما نوعا من التعايش المريح فيما بينهما، تعايش لا يشك أحد أنه قائم على الحنان والرحمة.

في تلك الفترة قرر فلورنتينو أريثا أن يخبرها في رسائله بعزمه على انتشال ذلك الكنز الموجود في السفينة الشراعية الغارقة في قاع البحر، وهذا ما حدث فعلا، ونفذ قراره كأن وحيا جاءه يأمره بتنفيذه، في عصر يوم من الأيام كان البحر يبدو كأنه مفروش بصفائح الألومنيوم لكثرة ما طفا على سطحه من الأسماك، التي يرمي لها الصيادون بطعم فيه مواد مخدرة، وبالطبع في ذلك الحين ترى طيور السماء كلها تهرول لتنقض على الأسماك المقدمة لها على طبق من ذهب، لذا تجد الصيادين يفزعونها بمجاديفهم حتى لا تشاركهم في تلك الغنيمة المحرمة. واستخدام هذا الطعم الذي يخدر السمك دون الإنسان تم تقنين استخدامه منذ أيام الاستعمار، ولكنه ما زال مباحا حتى في عز النهار بين صيادي منطقة الكاريبي، إلى أن تم استبدال هذا الطعم الغريب بوسيلة

أخرى، وهى الديناميت. وإنها لمتعة كبيرة تلك التي كان يحس بها فلورنتينو أريثا، بينما فيرمينا داثا في رحلة نسيانها هذه، وهو عند إحدى ألسنة البحر يتأمل الصيادين، وهم يخوضون في الماء بزوارقهم، ومعهم تلك الشباك الضخمة، التي فيها ما فيها من السمك المخدر الناعس، وفي الوقت نفسه تسبح زمرة من الأطفال كأنهم كلاب البحر يطلبون من محبي الإثارة أن يرموا بقطع النقود في الماء ليجلبوها لهم من قاع البحر، وهم أنفسهم هؤلاء الأطفال، الذين يسبحون للغرض نفسه عند ملتقى السفن العابرة للمحيطات، وحينها يحظون على متونها برحلات ومغامرات مثيرة إلى الولايات المتحدة وأوروبا بما تأتى لهم من مهارة شديدة في الغوص والغطس. وفلورنتينو أريثا يعرفهم منذ وقت طويل، حتى قبل أن يعرف فيرمينا، ولكنه لم يخطر له من قبل أنهم قادرون على انتشال تلك الثروة الجبارة من قاع البحر، وخطرت له أخيرا تلك الفكرة في ذلك الأصيل، ومنذ يوم الأحد التالي حتى مجيء فيرمينا داثا، بعد سنة تقريبا، وهو لديه سبب إضافي للهذيان غير سبب حبه لفيرمينا.

كان هذا الطفل، الذي يدعي إوكليدس، أحد هؤلاء الأطفال السباحين، ومثل فلورنتينو تماما جذبته فكرة أن يستكشف ثروات تحت الماء، وذلك لمجرد أن تحدث مع فلورنتينو لعشر دقائق فقط، رغم أنه لم يخبره بما هو موجود تحت الماء، وإنما ظل يسأل الطفل عن إمكانياته في الإبحار والغطس. سأله إذا كان قادرا على الغطس لعشرين مترا تحت الماء دون الحاجة إلى هواء، وإوكليدس يجيبه بأنه يستطيع. سأله إذا كان قادرا وحده على أن يبحر في عرض البحر على زورق عادي وسط الزوابع والأعاصير، لا شيء معه إلا فطرته وغريزته، وإوكليدس يجيبه بأنه يستطيع. سأله أيضا إذا كان قادرا على تحديد الموضع المطلوب بالضبط على بعد ستة عشر ميلا بحريا في ناحية شمال غرب أكبر جزيرة في مجموعة جزر سوتابينتو، وإوكليدس يجيبه أيضا بأنه يستطيع، ثم سأله إذا كان يستطيع أن يبحر في عز الليل مهتديا فقط

بالنجوم، وإوكليدس يجيبه بأنه يستطيع. سأله إذا كان مستعدا أن يقوم بكل هذا بالأجر اليومي الذي يدفعه له هؤلاء الصيادون ليساعدهم في الصيد، وإوكليدس يجيبه: نعم أستطيع، ولكن بزيادة خمسة ريالات في أيام الأحد، وكذلك سأله عما إذا كان قادرا على الدفاع عن نفسه ضد أسماك القرش، فأجابه إوكليدس: نعم، ذلك أنه لديه وسائل سحرية يفزعهم بها. وأخيرا سأله إذا كان قادرا على أن يحفظ سرا حتى لو خضع لتحقيق شديد القسوة، وإوكليدس يجيبه: نعم أستطيع، فلا شيء عنده يستحق أن يجيب عليه بـ«لا»، وهو يستطيع أن يقول نعم بكل قوة بحيث لا يشك أحد نهائيا في مصداقيته، وأخيرا أخبره بالمبلغ المطلوب لشراء كل حاجتهما من أجل هذه المهمة: إيجار الزورق، والمجاديف، وشبكة الصيد حتى لا يعرف أحد حقيقة أمرهما. عليهما أيضا أن يجلبا معهما الطعام، وماء للشرب في أحد الجراكن، ومصباح زيت، ورزمة من الشمع، وطوق نجاة للمساعدة في حالات الطوارئ.

جدير بالذكر أن إوكليدس هذا يبلغ من العمر اثنى عشر ربيعا، ماكر، سريع الخطوات، لا يمل من الكلام أبدا، جسمه كأنه جسم ثعبان البحر، كأنما لم يخلق إلا ليمر به من ثقب الباب، ولأنه دائما في الهواء الطلق بجسده العاري، فمن يرى جلده المدبوغ هذا لا يمكن أبدا أن يعرف لون بشرته الأصلي، ولذلك فعيناه الصفراوان الكبيرتان يشع منهما بريق غريب، وعلى الفور قرر فلورنتينو أريثا أن هذا هو الشخص المطلوب والمناسب تماما لمهمة سيجني من ورائها ثروة كبيرة، وما إن جاء يوم الأحد التالي، حتى بدآ رحلتهما دون أي إجراءات شكلية.

أقلعا بالمركب في الصباح الباكر من ميناء الصيادين، مستعدين جيدا، معهما كل ما يحتاجانه لمثل هذه الرحلة، إوكليدس عاريا كيوم ولدته أمه إلا من ذلك السروال القصير، الذي يستر عورته، وفلورنتينو أريثا ببذلته الرسمية وقبعته، وحذائه ذي الكعب العالي المطلي بالورنيش الأسود، وحول

عنقه تلك الأشرطة الخاصة بالشعراء والفنانين، ومعه كتاب ليتسلى بقراءته أثناء اجتيازهما الجزيرة، منذ يوم الأحد الأول عرف فعلا مدى براعة ومهارة إوكليدس في الإبحار والملاحة، بالإضافة إلى كونه غطاسا لا يشق له غبار، كما أنه ملم تماما بطبيعة البحر وحديد الخردة المنتشر عند الخليج إلى حد أدهشه وأذهله، فهو يعرف كثيرا من كل التفاصيل الخاصة بتاريخ كل سفينة من السفن الغارقة، التي يظهر منها فقط سطحها المتآكل من الصدأ، بل ويعرف عمر كلا من تلك العوامات الموجودة هناك، وأصل وفصل كل الأنقاض، ويعلم كذلك كم حلقة في هذه السلسلة الطويلة، التي جعلها الإسبان عند مدخل الخليج ليغلقوه بها، ولهذا خشى فلورنتينو أيضا من أن يكون على علم بهدفه من هذه الرحلة، لذا جعل يوجه له بعض الأسئلة الماكرة الخبيثة، وعلم بأنه لا يعلم أي شيء عن تلك السفينة الغارقة بكنوزها، فاطمأن قلبه.

منذ أول مرة سمع فيها بخبر ذلك الكنز بالصدفة، حيث كان في الفندق، وهو يستقصي بكل استطاعته عن أي أخبار وأي معلومات عن تلك السفن الشراعية، وعلم، حينها، بأن تلك السفينة الشراعية المسماة «سان خوسيه» ليست مجرد سفينة غارقة بين الشعب المرجانية، وإنما علم أيضا بأنها كانت السفينة الأميرال أو القائدة لأسطول «تيررا فيرميه»، وأنها وصلت إلى هنا بعد اليوم السابع من مايو من عام ١٧٠٨، آتية من السوق الكبيرة الأسطورية، التي كانت في بلدة بورتوبيو في باناما، حيث كانت تحمل جزءا كبيرا من الكنوز: ثلاثمائة صندوق من الفضة من بيرو وبيراكروز، ومائة وعشرة صناديق من اللؤلؤ، الذي تم جمعه وعده في جزيرة كونتادورا، وهم خلال شهرهم الطويل، الذي قضوه هناك، كانت أيامهم ولياليهم كلها أعياد واحتفالات، يحملون ما تبقى من ثروات يُستهدف بها إنقاذ إسبانيا من قاع الفقر: مائة وستة عشر صندوقا من الزمرد تم جلبها من مدينتي موثو وسوموكوندو، في كولومبيا، هذا غير ثلاثين مليونا من العملة الذهبية.

يذكر أن أسطول «تيررا فيرميه» كان يتكون مما لا يقل عن اثنتي عشرة سفينة من مختلف الأحجام، وأقلعت سفن هذا الأسطول تحت حماية الأسطول الحربي الفرنسي، الذي كان مسلحا تسليحا جيدا، إلا أنه لم يستطع إنقاذ هذا الأسطول البحري الضخم من قذائف المدافع المحكمة، التي انطلقت من الأسطول الحربي الإنجليزي بقيادة كارلوس ويجر، الذي كان ينتظر تلك السفن عند مجموعة جزر سوتابينتو، عند مخرج الخليج. وعلى هذا فليست فقط سفينة «سان خوسيه» التي غرقت، وإنما غرق غيرها، رغم أنه لم يتم توثيق عدد السفن الغارقة، فلا أحد يعرف بالضبط كم سفينة غرقت، وكم منها استطاع الهرب من نيران الإنجليز، ولكن المؤكد أن السفينة التي تقود الأسطول كله من أوائل السفن التي غرقت، بما فيها جميعا من ملاحين وبحارة، وقائدها القابع في مؤخرتها، ولا شك أيضا أنها وحدها، التي كانت تحمل أكبر قدر من الثروات والكنوز.

وفلورنتينو أريثا علم الطرق البحرية، التي تسلكها تلك السفن الشراعية من الرسائل الخاصة بقادة السفن في هذه الفترة، لهذا فهو يظن بأنه يعلم جيدا أين يكون بالضبط موقع غرقها. شقا الماء مارين بين هاتين القلعتين الخاصتين بمدينة «بوكا تيشكا» الموجودة عند الخليج، وبعد أربع ساعات من الإبحار دخلا أخيرا في الناحية الداخلية الموجودة بين جزر سوتابينتو، حيث يمكنك هناك أن تأخذ بيديك جراد البحر النائم بين قيعان الشعب المرجانية. والهواء عليل خفيف، والبحر مياهه هادئة للغاية وشفافة تماما، حتى أن فلورنتينو أريثا أحس كأنه يرى انعكاس نفسه الصافية على الماء، وفي نهاية هذا الركود، على بعد نحو ساعتين من الجزيرة الكبرى، ترقد السفينة الغارقة.

بعدما صلت الشمس بنارها فلورنتينو أريثا، وسط هذا المنظر البديع الجنائزي، إذا به يأمر إوكليدس بأن يحاول الغوص على عمق عشرين مترا، وليجلب معه أي شيء يجده في القاع، والمياه شديدة الوضوح لدرجه أنه

استطاع رؤيته يغوص في قاع البحر كأنه سمكة قرش مشوهة تسبح بين أسماك القرش الزرقاء، وإكليدوس يعبر بينها دون حتى أن تلتفت نحوه، وبعد ذلك رآه يختفي بين كومة من الشعب المرجانية، وبالضبط حينما فكر في أنه لا يمكن أبدا أن تكون لديه ذرة هواء أخرى ليتنفس، إذا به يسمع صوته من الخلف ليراه واقفا في الماء الضحل، الذي بلغ وسطه رافعا ذراعيه إلى أعلى، وعلى هذا ظلا يبحثان في مواضع أكثر عمقا، متجهين إلى الشمال، يبحران فوق أسماك الراي السابحة في برود وفتور، وأسماك الحبار الهالعة، وشجيرات الورد المحبة للظلام، إلى أن أدرك إوكليدس أنهما يضيعان وقتهما، فقال له:

- إذا لم تقل لي ما هو الشيء، الذي تبحث عنه وتريد أن أجده لك، فلن أعرفه، ولن أصل إليه.

رغم ذلك لم يقل له فلورنتينو، حينئذ اقترح عليه إوكليدس أن ينزع رداءه وينزل معه الماء، فقط ليرى الطرف الآخر من العالم الموجود تحت الماء بين شعاب المرجان، ولكنه لم يكن منه إلا أن يقول له إن الله خلقه فقط لينظر إلى البحر من النافذة، وهو لم يتعلم السباحة أبدا، ثم بعد ذلك بقليل، وقت الأصيل، إذا بالسماء تتلبد بالغيوم والهواء يصير أكثر رطوبة وبرودة، وسرعان ما دهمهما الظلام فاهتديا بالفنار ليصلا إلى الميناء، وقبيل دخولهما الخليج، إذا بهما يريان عن قرب عابرة المحيطات الفرنسية وجميع أضوائها مشتعلة، ضخمة للغاية، بيضاء اللون، مخلفة وراءها بقايا القرنبيط المسلوق.

وظلا على هذا المنوال لثلاثة آحاد، وسوف يظلان هكذا في هذا الضياع لا يهتديان إلى شيء إذا ظل فلورنتينو على قراره بعدم مشاركة إوكليدس سره العتيد، ولكنه غيّر تماما خطة البحث، وقرر أن يكون إبحارهما عن طريق القناة القديمة للسفن الشراعية، التي كانت تبعد جهة الشرق نحو عشرين فرسخا بحريا من المكان، الذي كان فلورنتينو يتوقع فيه وجود الكنز، وقبل أن ينقضي شهران، في أصيل يوم من الأيام الممطرة، حينها قضي إوكليدس

مدة طويلة يغوص في قاع البحر، حتى أن المركب ابتعدت عنه، وسبح لنصف ساعة ليصل إليها، ففلورنتينو لم يستطع أن يصل إليه بالمجاديف، وعندما بلغ إوكليدس حافة المركب أخيرا، إذا به يفتح فمه في انتصار وفرح، مظهرا حليتين من حلى النساء.

وما حكاه له، وقتئذ، كان مدهشا للغاية لدرجة أن فلورنتينو قرر أن يتعلم السباحة، وأن يغطس إلى أقصى عمق يستطيع بلوغه، ليرى ما يقوله إوكليدس. حكي له أنه في هذا الموضع، على عمق ثمانية عشر مترا فقط، يوجد العديد من المراكب الشراعية الراقدة بين الشعب المرجانية، ومن المحال معرفة عددها بالضبط، وأنها تحتل مساحة كبيرة جدا لا يبلغها البصر، وحكى أيضا أن أشد ما أدهشه فعلا ، رغم رؤيته الكثير من السفن الصدئة الطافية على الماء عند الخليج، إلا أنه لم ير واحدة في حالة جيدة جدا مثل هذه السفن الغارقة تحت الماء، وأخبره بأنه يوجد الكثير من تلك السفن الشراعية السريعة ما زالت أشرعتها كأنها لم تمس من قبل، وأنه يمكن رؤية تلك السفن بسهولة تحت الماء، لدرجة تبدو معها أنها غرقت في التو واللحظة، بحيث أنها تتعرض لنفس ضوء الشمس منذ أن غرقت في يوم السبت التاسع من يونيو، كما حكى متأثرا بشطحات خياله، أن السفينة، التي يمكن رؤيتها بكل سهولة هي سفينة «سان خوسيه»، لأن اسمها مكتوب على مؤخرتها بحروف من الذهب، ولكنها في الوقت نفسه السفينة الأكثر ضررا وتحطما، وكذلك أخبره بأنه رأى في الداخل إخطبوطا يبدو أنه يبلغ من العمر نحو ثلاثة قرون، بحيث يمكن رؤية مجساته الخارجة من فوهات المدافع، إخطبوط ضخم جدا بحيث لا يمكن إخراجه من السفينة إلا بتفكيكها، كما أنه رأى جانبا من جسد قائد السفينة بزيه الحربي المحبوس في عنبر السفينة، وأنه لم يستطع الوصول لقاع السفينة، حيث توجد الكنوز بسبب نفاد الهواء من رئتيه. وأن ما يثبت صحة كلامه هو ذلك القرط المطعم بالزمرد، ووسام العذراء، الذي

تآكل بسبب ملوحة البحر.

وكانت تلك الرسالة هي الأولى، التي بعثها إلى فونسيكا، حيث توجد فيرمينا داثا، وذلك قبل عودته بقليل، كانت فيرمينا تعرف بالطبع قصة هذا الكنز، ذلك أنها كثيرا ما سمعت عنه من خلال أحاديث الكثيرين مع أبيها، والذي بدوره أضاع الكثير من الوقت والمال ليحاول إقناع فرقة من الغطاسين الألمان بمعاونته في استخراج الكنز من البحر، وكان سيصمم على هذا الموضوع لولا أن بعض أعضاء «أكاديمية التاريخ» أقنعوه بأنها مجرد أسطورة فقط اخترعها نائب محتال من نواب ملك إسبانيا، ليستطيع بهذه الإشاعة أن يستولى على ثروات المملكة. على كل، كانت فيرمينا داثا تعرف بأن تلك السفينة الشراعية تقع على عمق مائتي كيلومتر في الماء، بحيث لا يستطيع أي إنسان بلوغها، وليس على عمق عشرين مترا كما يقول فلورنتينو أريثا، ولكنها تعودت منه كثيرا هذه الشطحات الغريبة، فما هو إلا شاعر، وطبيعي منه هو الذي احتفل بمغامرته باكتشاف السفينة كأنما حقق أفضل ما في حياته على الإطلاق، ومع ذلك، لما وجدت أنه لا يزال يبعث لها برسائل فيها ما فيها من تفاصيل غريبة غير واقعية، بل ويسردها بكل جدية تماما كحينما يكتب لها وعوده في الحب، ذهبت إلى إيلديبراندا، واعترفت له بخشيتها من أن يكون حبيبها إنما يهذى بعدما ضاع عقله.

في تلك الأيام، استطاع أن يستخرج إوكليدس الكثير مما يثبت هذه الأسطورة الغريبة، والتي لم تعد مقتصرة على الخروج بتلك الأقراط والخواتم المتناثرة بين الشعب المرجانية، وإنما صار الهدف منها إنشاء شركة ضخمة بهدف انتشال تلك السفن الغارقة بما فيها من ثروة جبارة مهيبة، والتي يبلغ عددها نحو خمسين سفينة. حينئذ حصل ما ليس منه بد، طلب فلورنتينو المساعدة من أمه كي يستطيع أن يتم مغامرته ومشروعه كما يريد ودون نقصان، وهى بخبرتها يكفيها فقط أن تعض ما أعطاها ابنها من معادن الجواهر، كما

يكفيها أن ترى في الضوء تلك الأحجار الزجاجية، لتعلم بأن أحدا يستخف ويستغل براءة وسلامة نية ابنها، وأقسم له إوكليدس راكعا على ركبتيه بأنه لم يكن يخدعه أو يغشه، كما أقسم بأنه لن يعود للظهور مرة أخرى في ميناء الصيادين بداية من يوم الأحد التالي، بل ولن يظهر في أي مكان.

الشيء الوحيد فقط، الذي تبقى له من بين كل هذا الفشل الذريع حبه لفنار البحر، حيث وصل إلى هناك عبر زورق إوكليدس، في ليلة من تلك الليالي العاصفة، وهما في عرض البحر، ومنذ ذلك الحين ألف الحديث في عصر كل يوم مع عامل الفنار عن العجائب الخاصة بالبر والبحر، والتي لا تعد ولا تحصى، وكانت هذه بداية صداقة عمر امتدت بينهما، ولم تهتز لحظة أمام عوادي الدهر، وتعلم كيف يغذى الضوء الساطع من الفنار عن طريق الحطب، ثم بالمصابيح الزيتية، وهذا قبل أن تُوصل الطاقة الكهربائية إلى الفنار، كما تعلم كيف يزيد قوة الضوء، وكيف يوجهه عبر تلك المرايا، حين لا يقوم العامل بعمله، ما زال فلورنتينو يتأمل البحر ليلا من أعلى الفنار، كما تعلم أن يعرف السفن من أصواتها، ومن حجم الضوء الساطع منها على مدى الأفق، بل صار يحس عبر أضواء الفنار الخاطفة بأي واحدة من تلك السفن سوف تعود مرة أخرى.

أما خلال ساعات النهار، فمتعته تختلف، خاصة في أيام الأحد، ففي حي «لوس بيرريس»، حيث يعيش أثرياء المدينة العريقة، كانت شواطئ النساء منفصلة عن شواطئ الرجال بجدران من الطين اللبن، جدار على يمين الفنار، وآخر على يساره، وعلى هذا، ركّب عامل الفنار منظارا بعيد المدى كي يرى شاطئ النساء، بينما يدفع له الناس قيمة دخولهم الشاطئ، ودون أن يعلمن طبعا بأن أحدا يرقبهن، كن يظهرن أفضل ما في أجسامهن المخبوءة تحت سترات العوم ذات «الكشكشة» الكبيرة، يرتدين الشباشب والقبعات. سترات العوم كانت بالضبط مثل ملابس الشارع العادية، بل وأقل إغراء منها،

أما الأمهات فكن يجلسن عند الشواطئ تحت لهيب الشمس على الكراسي الهزازة المصنوعة من خشب الصفصاف، يجلسن باللبس نفسه، والقبعات ذات الريش، وفي أيديهن تلك الشماسي المصنوعة من قماش الأورجانزا، التي يذهبن بها إلى القُدّاس، كل هذا لخوفهن من أن يطلع عليهن أحد الرجال من أسفل الماء آتيا من الشاطئ المجاور، والحقيقة أنه عبر المنظار لا يُرى أكثر مما هو موجود في الشارع العادي، ولكن مع هذا فكثير من الزبائن يأتون يوم الأحد، ومعهم هذه التلسكوبات لمجرد الاستمتاع برؤية تلك الثمار الشهية، بعيدة المنال.

وفلورنتينو أريثا أحد هؤلاء الزبائن، فقط ليخفف من ملله أكثر من كونه استمتاعا وشهوة، وعلى كل، لم يكن هذا الانجذاب المشترك هو ما جعلهما أصدقاء بهذه القوة. السبب الحقيقي الكامن وراء هذه الصداقة أنه بعد الرفض، الذي تلقاه من فيرمينا، أصابته عدوى الحب المبعثر في كل مكان بحثا عن بديل يحل مكان فيرمينا، لم يكن يجد مكانا يسعده، وينسيه الهم أفضل من الفنار. كان أحب الأماكن إلى قلبه، ولسنين طويلة حاول أن يقنع أمه، وبعدها حاول مع عمه ليون الثاني عشر، ليساعداه في شراء ذلك الفنار، فأيامها كانت الفنارات في الكاريبي ملكية خاصة، وأصحابها يأخذون رسوما للمرور إلى الميناء على حسب حجم كل سفينة، وكان يفكر في أن هذه الوسيلة الوحيدة المشرفة، التي تضمن له تجارة رابحة إلى جانب الشعر، إلا أن أمه وعمه لم يكن تفكيرهما هكذا، وحينما استطاع أخيرا أن يجمع من ماله الخاص ليمتلك واحدا، كانت الفنارات كلها انتقلت إلى ملكية الدولة.

على كل، لم تكن كل هذه المساعي مجرد تضييع وقت، وقضي الأمر. كلا، فأسطورة السفينة الغارقة بكنوزها، ثم ما استحدثه هو من مشروع الفنار، خففا كثيرا من ألمه لغياب فيرمينا داثا، وفقط حينما صارت بالكاد تأتي على باله إذا بها تعود بعد طول غياب، والحقيقة أنه بعد تلك الإقامة الطويلة في ريوآتشا،

قرر لورينثو داثا أخيرا بأن يعودا، وفي تلك الفترة كان البحر كله اضطرابات وتقلبات، وذلك بسبب تلك الرياح العارمة الآتية من الشمال الشرقي الخاصة بشهر ديسمبر، والسفينة الشراعية التاريخية الوحيدة الجريئة، التي غامرت بخوض البحر عادت إلى نفس الميناء الذي أبحرت منه بسبب الرياح المعاكسة. عادت إلى الميناء بعدما قضت فيرمينا ليلة أوشكت أن تموت فيها، قضتها تتقيأ تلك المواد الصفراء متشبثة بالسرير الموجود في غرفة السفينة، التي كانت كأنها مرجل يفور بالماء المغلي، وليس فقط لضيقها الشديد، وإنما لجوها الخانق ولحرارتها المرتفعة للغاية، وحركة السفينة كانت عنيفة قوية لدرجة أنها حسبت أن أحزمة السرير، التي تثبته بها سوف تنقطع، بينما يصل إلى أذنيها بقايا صرخات مفزعة يبدو أنها تصدر من الغرقى، وما أفزعها وأخافها أشد الخوف ذلك الشخير الغريب المهيب كأنه شخير النمور، الصادر من أبيها النائم جنبها على السرير الآخر، وللمرة الأولى على مدار ثلاث سنين تمر ليلة دون أن تفكر في فلورنتينو أريثا، على عكسه في غرفته مؤرقا مسهدا على سريره المعلق في الغرفة، التي تقع خلف الدكان، يعد الدقيقة تلو الأخرى انتظارا لعودتها ويحس بأن كل دقيقة تمر عليه كأنها أعوام، وعند طلوع الشمس توقفت الريح فجأة، وعاد البحر مرة أخرى إلى صفائه وهدوئه، واستغربت فيرمينا من أنها استطاعت بالفعل أن تنام رغم الدوار، ورغم كل شيء، اكتشفت ذلك، حينما وجدت نفسها تستيقظ على صوت الجلبة الصادر من سلاسل مرساة السفينة. حينئذ نزعت أحزمة السرير وأطلت من الشباك، وخيالها يسبقها إلى رؤية فلورنتينو ينتظرها بين أفواج الناس المنتظرة عند الميناء، ولكنها لم تر إلا مستودعات الجمارك الرابضة بين أشجار النخيل، التي انعكست عليها أشعة الشمس الذهبية الساطعة، واللسان المائي المبني من ألواح الخشب الخاص بمدينة ريوآتشا، التي أقلعت السفينة منها في الليلة الماضية.

قضت فيرمينا بقية يومها في هذيان وهلاوس، ففي البيت الذي ودعت

من فيه بالأمس القريب، استقبلت نفس الوفود التي ودعتها قبلا، وتكلمت الكلام نفسه، وأحست بخوف من انطباعها بأنها تعيش قطعة من حياتها مرة أخرى، وفعلا تكرر كل شيء بلا زيادة أو نقصان، بحيث أنها خشت من أن تتكرر الليلة المشئومة التي قضتها على ظهر السفينة ثانية، مجرد أن تأتي ذكراها على بالها تثير فيها هلعا لا مزيد عليه. مع ذلك، فالسبيل الآخر الوحيد للعودة إلى البيت قضاء أسبوعين على ظهر البغلة عبر سلاسل الجبال وشعابها، بل وسوف تكون في ظروف أخطر بكثير عن المرة الأولى، ذلك أن حربا أهلية اندلعت في إحدى بلاد جبال الأنديز في كاوكا، وسرعان ما انتشرت الحرب إلى بقية بلاد الكاريبي، وعلى ذلك، وجدت نفسها مرة أخرى في الساعة الثامنة مساء مع أقاربها الصاخبين أنفسهم، وبكلماتهم الودودة نفسها، وبدموعهم وسلاماتهم ذاتها، والمتاع الذي فيه ما فيه من زاد ومؤونة ومن هدايا لا عد لها ولا حصر بحيث أن غرف السفينة الضيقة لا تسعها كلها، وفي لحظة إقلاع السفينة، قام رجال العائلة بتوديع السفينة برشقة من الطلقات في الهواء، ورد عليهم لورينثو داثا بخمس طلقات في الهواء من مسدسه، وهى سرعان ما ثابت إلى رشدها وزال قلقها، فالريح هادئة لينة طوال الليل، والبحر تفوح منه رائحة الورد حتى أنها نامت على سريرها دون أن تربط أحزمة الأمان، وحلمت أثناء نومها بأنها رأت فلورنتينو أريثا مرة أخرى، بعد أن نزع وجهه، الذي كانت تراه به دوما، لأنه حقيقة لم يكن إلا قناعا مزيفا، ولكن الغريب أن الوجه الأصلي مماثل تماما للوجه المنزوع. استيقظت من نومها في الصباح الباكر تحس باستغراب ودهشة من هذا الحلم الملغز، ووجدت أباها في كانتين القبطان يشرب قهوة سادة ممزوجة بشراب البراندي، وعينه تدور من أثر الكحول، ولكن لا يبدو عليه مطلقا أنه يشك في العودة.

ها هي السفينة تدلف إلى الميناء وتنساب في هدوء بين متاهة الزوارق الشراعية الراسية المحيطة بها من كل حدب وصوب في طريقها إلى ذلك

الخليج، حيث سوق المدينة، سوق من ازدحامه يكاد صخبه وجلبته يصلان إلى أذنيك، ولو كنت على بعد عدة فراسخ بحرية، ها هي أخيرا تشق الماء والوقت فجرا والسماء مشبعة بزخات خفيفة من المطر سرعان ما استحالت إلى سيول منهمرة. حينئذ كان فلورنتينو رابضا في شرفة مكتب التلغراف، وما إن رأى تلك السفينة حتى عرف أنها هي، التي تحمل فيرمينا، رأى السفينة تجتاز الماء مارة على خليج «لاس أنيماس» بأشرعتها المنكمشة من ماء المطر، ثم رآها ترسو أمام رصيف السوق، كان قد انتظرها في اليوم الفائت حتى الساعة الحادية عشرة صباحا، حين علم عبر رسالة تلغرافية، جاءته بالصدفة، أن السفينة عادت أدراجها بسبب الريح المعاكسة، وعاد في هذا اليوم لينتظر مرة أخرى بداية من الساعة الرابعة فجرا. ظل ينتظر وينتظر دون أن يصرف نظره لحظة عن تلك المراكب تشق الماء إلى الساحل حاملة على متنها القليل من المسافرين، الذين قرروا النزول إلى الأرض بسبب العاصفة، وأغلب هؤلاء المسافرين اضطروا إلى ترك هذه المراكب، التي رست في منتصف طريقها، ليصلوا إلى الرصيف البحري يخوضون في الوحل والطين، وبحلول الساعة الثامنة حين يئس الكل من توقف المطر، إذا برجل أسود يعمل حمالا يأخذ فيرمينا من الناحية الجانبية للسفينة، ويحملها على ذراعيه، ويخوض الماء الذي بلغ منتصفه ليوصلها إلى الشاطئ، ولكنها رغم هذا كان كل ما فيها مبللا لدرجة أن فلورنتينو لم يستطع التعرف عليها.

هى نفسها لم تكن تعلم كم نضجت وكبرت أثناء رحلتها، إلى أن دخلت البيت، وأغلق الباب عليها، وسرعان ما شرعت في محاولات طويلة لتعيد إلى جسدها الحياة بمساعدة الخادمة السوداء، جالا بلاسيديا، التي بمجرد أن أخطروها بعودة فيرمينا وأبيها، خرجت من معسكر العبيد القديم لتستقبلهما، وهى ليست فقط الابنة الوحيدة، المدللة والمظلومة من أبيها في الوقت نفسه، بل إنما سارت سيدة وصاحبة تلك الإمبراطورية العظيمة من الغبار وخيوط

العنكبوت، التي لا يمكن أبدا إنقاذها إلا بحب قوي قاهر لا يُغلب، وهى لم تخف ولم تتراجع، فقد ألقي في روعها أنها، وبما في داخلها من خفة روح جبارة قادرة على أن تحرك العالم بأكمله، وفي الليلة التي عادا فيها، حينما كانا يأكلان خبز الذرة المحشو بالجبن مع الشوكولا وهما أمام منضدة المطبخ، إذا بأبيها يفوضها للتحكم في شئون البيت وأموره، بل وقام بهذا بشكل رسمي كأنه يفعل أمرا مقدسا، قال لها:

– هاأنذا أسلمك مفاتيح حياتك يا فيرمينا.

قبلت فيرمينا، التي بلغت من العمر ستة عشر ربيعا، بتولي زمام البيت بقلب ثابت غير هياب، واعية مدركة كل الإدراك بأن كل شبر من حرية تكتسبه، إنما هو من أجل الحب وحده، ثم كان اليوم التالي، بعد ليلة طويلة من الأحلام غير المريحة، للمرة الأولى منذ عودتها أحست بجفاف ومرارة، وذلك حينما فتحت نافذة الشرفة لتقع عيناها على المطر الخفيف المتساقط على الحديقة الصغيرة، وذلك التمثال، الذي يمثل بطلا مقطوع الرأس، وذلك المقعد، حيث كان يجلس فلورنتينو أريثا، ومعه كتاب من كتب الشعر، ولم تعد تفكر فيه على أنه حبيبها المحرم عليها، وإنما تفكر فيه على أنه بالفعل زوجها، الذي تحل له دون منازع. أحست كم كان وقتها ثقيلا حين ذهبت، كم كلفها الأمر لتعيش بدونه، كم من الحب هي في حاجة إليه من هذا، الذي تعشقه عشق الجنون، العشق الذي يستحقه منها، كما أمر الله، واستغربت كونها لم تجده جالسا في مكانه المعتاد، كما في الأيام الخوالي حين كان يجلس هناك، رغم المطر، ورغم كل شيء، واستغربت أنها لم تصلها منه أي إشارة بأي طريقة أو وسيلة كانت، ولا حتى عبر نبوءة أو شيء من هذا القبيل، حينها أحست بالفزع لمجرد أن خطر على بالها أنه مات، ولكنها سرعان ما دفعت عنها أفكار السوء هذه، ذلك أنهما وسط تلك الجلبة من التلغرافات والرسائل في الأيام الأخيرة، وهى على وشك العودة، نسيا أن يذكرا الطريقة،

التي يواصلان بها اتصالهما حين تعود.

والحقيقة أن فلورنتينو أريثا كان موقنا تماما بأنها لم تعد إلى أن أكد له عامل التلغراف في ريوآتشا أنها أبحرت يوم الجمعة في السفينة، التي لم تصل في الأيام الفائتة بسبب الريح المعاكسة، وعلى هذا ظل نهاية الأسبوع يترقب أي شيء، في دار فيرمينا، ينم عن وجود حياة فيه، وبعد الساعة التاسعة بقليل في ليلة يوم الاثنين رأى ضوءا متحركا يسطع من نوافذ الدار، ثم وهو يُطفأ في حجرة النوم ذات الشرفة بعد الساعة التاسعة بقليل. حينها، لم ينم ليلته هذه، بل عانى من الغثيان المرير، الذي عانى منه في لياليه الأولى من حبه لفيرمينا، ومع الصيحات الأولى للديكة استيقظت أمه ترانسيتو أريثا فزعة أن يكون ابنها خرج إلى فناء الدار، ولم يدخل منذ انتصاف الليل، وفعلا لم تجده. كان قد خرج من البيت هائما على وجهه بين الألسنة البحرية عند شط البحر، وفمه لا يكف عن ذكر أبيات من الشعر خوفا من الريح وشرورها، يبكي فرحا وجزلا لعودة محبوبته، إلى أن طلع الصباح، وفي حدود الساعة الثامنة كان جالسا على أسفل الرواق الحجري الخاص بمقهى «باروكيا»، بعد أن هده التعب وكثرة الترقب والترصد، وهده التفكير في الطريقة، التي سيعرب بها عن ترحيبه بها وسعادته لمجيئها، إلى أن أحس بهزة عنيفة كادت تمزق أحشاءه تمزيقا.

ها هي أخيرا تجتاز ميدان «الكاتدرائية» ومعها الخادمة جالا بلاسيديا، التي تحمل في يدها السلال لتضع فيها ما سوف يشتريانه، ولأول مرة يراها ذاهبة بدون زيها المدرسي. وجدها أطول قامة مما كانت عليه قبل رحيلها، ممشوقة القوام، فارعة الطول، نضجت ثمارها وأينعت في انتظار من يقطفها، نعم هي فيرمينا، ولكن بجمال ناضج مستو، وضفيرتها، التي قصتها من أجله بدأت تنمو وتطول، ولكنها لم تكن مطلقة إياها على طول ظهرها، كما كان من قبل، وإنما أمالتها على كتفها الأيسر، تغيير رغم بساطته الشديدة إلا أنه عراها تماما من ملامح الطفولة، التي أدبرت دون رجعة. ذهل وهو في مكانه لا يريم

إلى أن رأى محبوبته عبرت الميدان للتو دون أن تغيب عن ناظريه، ولكن هذه القوة القاهرة، التي شلته في مكانه جعلته يهرول وراءها مجتازا الكاتدرائية ليضيع بعد ذلك في تلك الطرق الملتوية بين أفواج الناس المزدحمة بما تصدره من عجيج وضجيج.

ظل وراءها دون أن تغيب عن نظره لحظة، ظل وراءها يكتشف حركاتها العادية اليومية، خفة ظلها، نضجها السابق لأوانه، فهى أحب الناس إلى قلبه، وهو يراها بأم عينيه، فليست محض خيال، وإنما أخيرا حقيقة واقعة أمامه. أبهرته الانسيابية، التي تسير بها رغم الجموع الغفيرة من الناس. بينما جالا بلاسيديا تصطدم بالناس وتتشابك السلال التي تمسكها بيديها، وتهرول وتجري كي تلحق بها ولا تفقدها في الزحام، بينما فيرمينا تسير وسط كل هذا اللانظام كأنها سمكة تسبح بينهم، تسير في الشارع وهي في وادٍ آخر ووقت آخر ودنيا أخرى، ولا مرة تعثرت أو اصطدمت بشخص، فكأنها وطواط يطير وسط الظلام. ذهبت فيرمينا لأكثر من مرة إلى السوق مع عمتها إسكولاستكيا، ولكنها مرات قليلة جدا، فوقتها كان والدها من يأتي بما يحتاجه البيت ، وليس فقط قطع الأثاث والطعام وإنما أيضا كان يشتري لها ولعمتها ملابسهن. على هذا، فخروجها الممتع هذا هو الأول في حياتها، خروج كان أيام طفولتها حلما من أحلامها.

كانت تمشي لا تعير انتباها البتة إلى أصحاب الثعابين الذين يبيعون شرابا من أجل الحب الأبدي، ولا إلى رجاء هؤلاء الشحاذين المتسولين المتناثرين عند مداخل البيوت بعاهاتهم وجروحهم، ولا إلى هذا الهندي المزيف، الذي يبيع تلك التماسيح الأمريكية المروضة. إنما كانت تتجول في السوق بأناة وترو وتمهل دون هدف محدد تحس بمتعة أيما متعة، بروح كل شيء تقع عليه عيناها، وفي كل مرة تدلف إلى أي مكان يبيع أشياء أيا كانت، وفي كل موضع، وفي كل جزء تجد ما يزيد حبها للحياة والعيش. كانت بكل جارحة فيها

تستمتع بشذى نباتات نجيل الهند، الذي يضوع من تلك الأقمشة الموضوعة في صناديق كبيرة، وبذلك الحرير المطبوع، الذي تلفحت به منتشية بملمسه، بل إنها ضحكت على ضحكها حين رأت نفسها في مرآة إطارها بالكامل من البرونز الذهبي، تضحك على جمالها الباهر حين تنكرت في تلك الملابس الخاصة بعوام مدريد في ذلك الوقت ومعها مشط كبير ومروحة مصنوعة من الورود الملونة، وفي إحدى المحال، التي تبيع منتجات بلاد ما وراء البحار، إذا بها تجد برميلا مفتوحا فيه ما فيه من سمك الرنجة المملح، رائحته ذكرتها بتلك الليالي الخوالي حين كانت طفلة صغيرة جدا في «سان خوان ديه لا سيناجا»، أيام تلك الريح الآتية من الشمال الشرقي. وأعطوها قطعة من حلوى البودينج السوداء المجلوبة من آليكانتيه في إسبانيا طعمها يشبه طعم حلوى العرقسوس، فاشترت اثنين من أجل إفطار يوم السبت، واشترت أيضا لحم القدّ والخمر المعمول من ثمار المشمش، أما في دكان العطارة، فلمجرد أن تستمتع بحاسة الشم إذا بها تفرم في راحتي يديها أوراق المريمية والزعتر البري، واشترت بعضا من قرون القرنفل، وبعضا من الينسون المطحون، وأيضا اشترت الزنجبيل والعرعر، ثم خرجت غارقة في ضحك مميت والعطس القوي من أثر شمها للفلفل الأسود الخاص بكاينا، وفي الأجزخانة الفرنسية، وقفت لتشتري بعض الصابون المجلوب من روتر وكمية من الماء المعطر فيه بلسم البنزوين، وحينها وضعوا خلف أذنيها بضع قطرات من كولونيا شديدة الشهرة وقتها في باريس، وأعطوها أيضا أقراصا مزيلة لرائحة دخان السجائر.

كانت تتحرك هنا وهناك لتشتري كل ما حلا لها أن تشتريه، وكانت بمجرد أن تلقى ما تحتاجه تشتريه دون تفكير وترو، تشتري الشيء مرة واحدة دون أن تفكر أن هذه هي المرة الأولى لها في حياتها، التي تمتلك مثل هذه السلطة، فهى كانت مدركة تمام الإدراك أنها إنما لا تشتري فقط من أجلها وحدها، وإنما من أجله هو أيضا، ولهذا اشترت اثنتي عشرة ياردة من الكتان،

الذي سيكون كمفارش للمناضد الخاصة بهما، واشترت أيضا أقمشة من القطن الناعم، حيث ستكون ملاءات ينامان عليها يوم زواجهما ويصبحان في أول يومهما في طراوة ورقة، باختصار اشترت أغلى شيء من كل شيء من أجل بيت الزوجية، والغريب أنها، رغم كونها المرة الأولى لها، إلا أنها كانت تطالب البائعين بخصومات وتفاصلهم بمهارة وبراعة وبعزة نفس إلى أن تصل إلى السعر الذي تريده، وكانت تدفع لهم قطعا من الذهب الصافي كان أصحاب الدكاكين يلقونها على رخام طاولتهم لمجرد الاستمتاع بسماع رنينها المؤثر في نفوسهم.

وكل هذا، وفلورنتينو أريثا يراقبها في ذهول، لا يتوقف عن مطاردتها هنيهة، وكثيرا ما تعثر في السلال التي تحملها خادمتها، والتي ترد على اعتذاراته بالضحك والابتسام، وكانت فيرمينا أحيانا قريبة منه للغاية حتى يصل إلى أنفه نسيمها المعطر، بينما لم تره حتى ذلك الحين، رغم قربه منها لا لسبب إلا لتلك الأنفة والغطرسة، التي تميزان مشيتها. ظهرت له غاية في الجمال والسحر والجاذبية، بدت له لا تليق تماما بأن تكون وسط العوام، ولم يفهم كيف لهؤلاء الناس ألا يلتفتون لوقع كعبي حذائها على بلاط الشارع، كيف لا يتلفتون لهذه الموسيقى الرائعة التي يشعر بها، كيف لا تضطرب قلوبهم مثلما يضطرب قلبه لهذا النسيم العابر الذي تضوع به كشكشة ثوبها، بل وكيف لا يُجن العالم حبا بهذه الضفيرة، التي تشعل حبه فيها، كيف لا يلتفتون لحركات يديها الرشيقتين البضتين، لضحكاتها الذهبية المتألقة نورا وبهاء، كيف وهو الوحيد الذي يشعر بكل هذا؟!

لم يترك إشارة لها أبدا إلا ولاحظها وحفظها في عقله، لم يترك شيئا يدل على شخصيتها إلا وترسخ في ذهنه، بيد أنه رغم كل هذا لم يجرؤ البتة على الاقتراب منها لخشيته من أن يفسد على نفسه هذه اللحظة من السحر والسعادة. مع ذلك، فحينما رآها تندمج بين جموع الناس في «البورتال ديه لوس

إسكريبانوس» أحس بأنه يغامر بفقدان الفرصة، التي ينتظرها منذ سنوات.

كانت تشارك زميلاتها في المدرسة فكرتهن بأن هذا المكان، الذي اسمه «البورتال ديه لوس إسكريبانوس» مكان لم يخلق إلا ليضيع المرء فيه ويتوه، بل ومحرم بالطبع على آنسات المجتمع وغير لائق بهن أبدا، والمكان لم يكن إلا مجموعة من الأروقة الحجرية أمامها ساحة صغيرة، حيث تركن فيها سيارات الإيجار وعربات الشحن، التي تجرها الحمير، مكان تزداد فيه حركة البيع والشراء صخبا وجلبةً وكثافةً، وسُمي بهذا الاسم منذ أيام الاستعمار، فاسمه يعني «بوابة الكتبة»، فوقتها كان يقبع هناك هؤلاء الخطاطون قليلو الكلام بستراتهم الصوفية، ورُكب عليها أكمام إضافية، والذين كان يُكلفون بكتابة جميع أنواع الوثائق مقابل ثمن زهيد من أجل الفقراء، فمثلا يكتبون: مذكرات تهديد أو رجاء، مرافعات قضائية، كروت تهنئة أو عزاء، حتى أنهم كانوا يكتبون رسائل الغرام والحب وفقا لكل عمر، ولم يكن هؤلاء الذين أساءوا إلى سمعة المكان وحقروا من شأنه، وإنما من أساء فعلا الباعة المتجولون الذين جاءوا مؤخرا ليبيعوا خلسة أشياء ممنوعة مهربة من أوروبا، من أول البطاقات البريدية الماجنة الفاحشة إلى تلك المراهم، التي تستعمل لزيادة النشوة، إلى تلك الأوقية الذكرية الكاتالونية الشهيرة، التي عليها ما عليها من هذا العرف الخاص بسحالي إجوانا، والذي يهتز ويرتعش حين يحين وقته، أو معها تلك الورود عند أطراف الواقي، حيث يتم نزع أوراقها على حسب رغبة مستخدمها. وفيرمينا داثا بسبب قلة خبرتها بتلك الشوارع، دلفت إلى هذا المكان، وهى لا تعلم بأنها فيه، دخلت باحثة عن شيء يظللها ويحميها من شمس الظهيرة الحارقة.

وجدت نفسها تغوص بين تلك الجلبة الساخنة من مساحي الأحذية، وبائعي الطيور، وبائعي الكتب المستعملة، وهؤلاء الأطباء المعروفين بدجلهم، وتلك الدلالات اللاتي تنادين رغم الضوضاء، ورغم الزحمة على

تلك الحلوى المصنوعة من نواة الصنوبر من أجل البنات الصغيرات، وعلى حلوى جوز الهند من أجل المجانين، وعلى البسكويت. ولكنها كانت تسير بين كل هؤلاء في لامبالاة وعدم اهتمام إلى أن اعترض طريقها فجأة بائع ورق وقح ظل يقوم أمامها بحيل مذهلة باستخدام أحبار الكتابة، أحبار حمراء في لون الدم، وأحبار لها لمعان حزين كئيب من أجل كتابة رسائل العزاء، وأحبار فسفورية يمكن رؤيتها في الظلام، وأخرى غير مرئية لا تظهر إلا بإسقاط الضوء الشديد عليها، ولكنها أرادت شراءها جميعا كي تكتب بها رسائلها إليه وتدهشه، مفكرة بأنها بذلك ستروعه وتخيفه، ولكنها في نهاية المطاف اكتفت بشراء زجاجة صغيرة من الحبر الذهبي، ثم صادفت بعد ذلك مجموعة كبيرة من أطباق الحلوى الموضوعة خلف واجهات زجاجية ضخمة، فاشترت ستة من كل نوع، وهى تشير إلى ما تود أخذه عبر النافذة، فلا أحد بقادر على سماع أي كلام وسط كل تلك الجلبة والضوضاء العارمة. اشترت: ست قطع حلوى في شكل حصان ملاكي صغير، وستا أخرى من حلوى اللبن، وستا أخرى من مكعبات السمسم، وستا أخرى من حلوى العسل مع اليوكا، وستا أخرى من الحلوى على شكل شياطين صغيرة، وست قطع بسكويت محشو بالكريمة، وست شطائر من حلوى الملكة، باختصار اشترت ست قطع من كل شيء، من هذا ومن ذاك بلا أي استثناء، تأخذها وترميها بخفة لا تقاوم في السلال التي تمسك بها الخادمة، كل هذا وهى غير ملتفتة إلى السحب الكثيفة من الذباب تحوم هنا وهناك، أو إلى تلك الضجة الكبيرة حولها، أو إلى ذلك البخار المشبع بروائح العرق البشعة وسط الحر القاتل المميت، وإذا بامرأة زنجية مليحة باسمة ملفوفة القوام، وعلى رأسها قطع قماش مختلفة الألوان، إذا بهذه المرأة تنتشلها من سحر ما هي فيه وتعرض عليها تذوق نواة الصنوبر وضعتها على حافة السكين، فالتقطتها فيرمينا ووضعتها كلها في فمها، وظلت تتذوقها وعيناها سارحتان بين جموع الناس، حينئذ، فوجئت وذهلت لدرجة أنها تسمرت في مكانها لا تأتي بحركة واحدة، ذلك أنه جاءها من خلفها

صوت قريب للغاية من أذنيها بحيث تسمعه بوضوح وسط كل هذه الحشود، صوت سمعته يقول لها:

– هذا مكان لا يليق أبدا بإلهة متوجة.

فالتفتت برأسها، ورأت على بعد شبرين من عينيها عينيه المتجمدتين الجامدتين، رأت شفتيه، اللتين تحجرتا من الخوف والرهبة، تماما مثلما رأتهما حين كانت وسط الجموع الغفيرة في قُدّاس منتصف الليل في المرة الأولى التي كان فيها بهذا القرب منها، ولكن هذه المرة تولد لديها شعور مختلف تماما، لم تشعر بصاعقة الحب، وإنما أحست بأنها في هاوية من خيبة الأمل. في لحظة واحدة، أحست بكم الوهم والخداع الذي كانت تحياه. تساءلت كيف كانت كل هذا الوقت محاصرة محصّنة بكل هذه الوحشية داخل نيران الحب المضطرم في القلب، كيف؟

بالكاد أوشكت أن تقول له: «يا إلهي! يا لك من مسكين!»، وهو ابتسم، حاول أن يقول لها شيئا، وراح يتبعها، ولكنها كانت قد محته من حياتها محوا بإشارة من يدها. قالت له:

– لا، من فضلك. انسَ أمري.

في المساء نفسه، حين كان والدها ينام قيلولته، أمرت جالا بلاسيديا أن توصل له رسالتها المكونة من سطرين: اليوم، حين رأيتك، أدركت أن ما بيننا لم يكن إلا وهما من الأوهام. ولم تكتف بهذا، بل جعلت الخادمة توصل له جميع ما أرسله لها من تلغرافات وأشعار وورود الكاميليا البيضاء الجافة، بل طلبت منه أن يبعث لها بجميع رسائلها إليه وهداياها، التي كان منها: الكتاب المقدس الخاص بعمتها إسكولاستيكا، مجموعتها الخاصة من الأعشاب المجففة التي صورت على شكل تعاريق للزينة والزخرفة، السنتيمتر المربع من رداء القديس باردو كلابير، الميداليات الخاصة بالقديسين، ضفيرتها ذات الخمسة عشر عاما المربوطة بذلك الشريط الحريري الخاص بأيام المدرسة،

وهو، بعدما أوشك أن يهوى في مضارب الجنون، ما كان منه إلا أن كتب لها رسائل يعبر فيها عن خيبة أمله وشعوره باليأس المرير، وكان يضغط على الخادمة لتوصلها لها، ولكنها كانت ملزمة بما أمرتها به فيرمينا، فلم تكن تقبل إلا الهدايا العائدة فقط، وفيرمينا أصرت بشدة على أن يبعث لها بكل هداياها إليه. إلا تلك الضفيرة ، لم يرد أن يعطيها ضفيرتها إلا بشرط أن تأتي بنفسها وتأخذها منه، ولكنها أبت أشد الإباء حتى لا يدور بينهما أي حديث. لم يستطع أن يقنعها بمقابلته أبدا. وأمه، ترانسيتو أريثا، خافت أن يقضي ما حدث عليه تماما، لذا اضطرت أن تتساهل على كرامتها قليلا ورضيت وطلبت منها أن تسمح لها بخمس دقائق فقط لتقنعها بمقابلته، وفعلا قابلتها فيرمينا في دهليز الدار، ولم تبق معها إلا هنيهة واقفة على قدميها، ولم تدعها للدخول، ولا ظهر عليها أي ذرة ضعف أو تغير في الرأي، وبعد يومين، بعد جدال حاد بينه وبين أمه، أخيرا أنزل فلورنتينو من الحائط مشكاة من الكريستال، غطاها التراب، كان يضع فيها ضفيرة فيرمينا كأنها رفات أحد القديسين، وحملتها أمه إليها في علبة من القماش المخمل المزين بخيوط من الذهب، وبعدها لم تسنح لفلورنتينو فرصة واحدة ليلتقي بفيرمينا داثا على انفراد، ولا حتى سنحت له فرصة الكلام معها رغم ما كان من لقاءات كثيرة بينهما وعلى مدى علاقتهما العريضة المديدة، إلى أن مر واحد وخمسون عاما وتسعة شهور وأربعة أيام، حين كرر أمامها قسمه بإخلاصه الأبدي لها، وبحبه الدائم، الذي لا ينضب، كرر لها هذا في أول ليلة من ترملها.

(٣)

كان الدكتور أوربينو، حين بلغ من العمر ثمانية وعشرين عاما، رجلا أعزب ترغبه جميع فتيات المجتمع، كان ذلك عندما عاد من باريس بعد إقامة طويلة الأجل، حيث كان يقوم هناك بدراساته العليا في الطب والجراحة، و منذ أول مرة وطأت فيها قدماه أرض بلدته بدا واضحا عليه كل الوضوح أنه لم يصرف دقيقة واحدة من عمره الفائت إلا فيما ينفعه وينفع غيره. عاد من باريس أجمل مما كان، حين ذهب إليها، عاد، وهو متحكم متمكن من شخصيته أكثر من ذي قبل، ولا أحد من زملاء جيله له مثل ما له من قوة وعلم غزير واسع، وأيضا لا يضاهيه أحد في رقصه البارع على ألحان موسيقى ذلك الوقت، ولا أحد أيضا يملك براعته وارتجاله في العزف على البيانو، ولشرفه وحسبه وجاه وثروة عائلته الكبيرة، كانت فتيات المجتمع لا يدخرن جهدا كي يبقين معه ولو لحظة، وهو أيضا لم يكن يبخل عليهن بلقائه، ولكنه استطاع أن يبقى نفسه في رضا الله، فهو سليم تماما لم تمس فتاة جزءا منه، وهو مغر جذاب كحاله دائما، إلى أن وقع في سحر فيرمينا داثا، رغم أنها بدون حسب أو أصل عريق مثله.

كان يحب دوما أن يقول: إن حبه هذا كان مجرد ثمرة لخطأ طبي. لم يكن في باله قط أن هذا سيحدث، خصوصا في فترة كهذه من عمره، فترة كانت عاطفته كلها متجهة نحو مصير بلدته وحدها، تلك، التي كان يقول عنها باستمرار، ودون حتى أن يفكر مرتين، إنها البلدة الأفضل على مستوى

العالم كله، وهو الذي كنت تراه في باريس كل خريف شابكا ذراعه في ذراع عروس بارعة الجمال، هو الذي عاش السعادة كما يجب في تلك الأمسيات الذهبية، حيث تصل إليه الروائح الجبلية الريفية الخاصة بثمار الكستناء على الجمار المشتعلة، وأذنيه تتسمع ذلك الصوت الواهي، الذي تصدح به آلات الأكورديون، وعيناه تقع على هؤلاء العشاق، الذين لا يملّون من تقبيل بعضهم بعضا واقفين على الأرصفة، في الهواء الطلق، هو الذي شهد كل هذا يقول لك واضعا يده على قلبه: إنه غير مستعد أبدا أن يبادل كل تلك المتع بلحظة واحدة يقضيها على الكاريبي في شهر أبريل، وهذا طبيعي. فكان في ذلك الحين يافعا غض القلب، حتى أنه يعلم بأن ذكريات القلب وحدها كافية لتمحو أي ذكرى سيئة، بل وتعظم من كل حلو مر عليه بشكل مبالغ فيه، كان صغيرا جدا كي يعرف بأنه بفضل هذا يستطيع المرء أن يتخطى ماضيه أيا كان، ولكنه بمجرد أن شاهد تلك الصخرة البيضاء الشاهقة، التي تقع في البحر أمام البلدة، وهو واقف أمام درابزين السفينة، بمجرد أن رأى تلك الصقور السوداء الواقفة على أسقف البيوت بلا حراك، بمجرد أن رأى ملابس الفقراء المنشورة في شرفات البيوت لتجف في الهواء الطلق، بمجرد أن وقعت عيناه على كل هذا حتى عرف إلى أي حد كان ضحية سهلة لفخ الحنين والاشتياق إلى أرض الوطن المغري الجذاب.

والسفينة تشق طريقها في مياه الخليج المفروشة بالحيوانات النافقة والغارقة، وأغلب من كانوا في المركب من المسافرين هرولوا إلى غرفهم في السفينة، هربا من تلك الرائحة المقززة، ومن الوباء، الذي يحوم في كل مكان. نزل من المركب عبر ذلك الجسر الصغير، الذي يصل إلى البر، ملابسه من القطن الصافي، بعد أن ارتدى سترة ومعطفا يقيانه تراب الجو، له لحية مميزة تشبه لحية «باستر»، عالم الفيزياء المعروف، وشعره يشقه من النصف كخط طويل شاحب اللون، نزل مخفيا تلك الغصة الشديدة، التي اعترضت حلقه،

غصة منبع حالها الرعب والخوف لا الحزن والشجن، وعلى رصيف الميناء، حيث هناك جنود حفاة الأقدام لا يرتدون أي زي موحد، كان ينتظره أخواته البنات وأمه، ومعهن أخلص أصدقائه وأحبائه. فوجئ بهم في حالة من الهزال والضعف والوهن لا تلوح في أعينهم أي ثقة في مستقبلهم، رغم ما يبدو عليهم من حرص على الحياة وملذاتها، ثم تحدثوا عن الأزمة، وعن الحرب كأنها أشياء لا تخصهم، ولكن نبرات أصواتهم يملأها هروب وخوف، وفي أعينهم اضطراب يكشف حقيقة شعورهم، وأكثر من تأثر لها الدكتور خوبينال أوربينو كانت أمه، تلك، التي دفعت دفعا إلى الحياة ومشقاتها في عز شبابها، وبما لها من أناقة وقوة وحب للمجتمع والحياة، ولكن ها هي الآن كالوردة الذابلة، وعليها ثياب الحداد الحريرية برائحة الكافور حزنا وشجنا على زوجها المتوفى، وهى نفسها استطاعت أن تعرف ما في ابنها من اضطراب وقلق، ذلك أنها سبقته بسؤالها، وهى تدافع عن نفسها، سألته لماذا جاء وجلده شفاف هكذا مثل الشمع، فأجابها:

– إنها الحياة يا أمي، فأي شخص يعيش في باريس لا بد أن يصير عوده أخضر كما ترين.

وبعد ذلك بقليل، كان جالسا إلى جانبها في السيارة يكاد الحر يخنقه خنقا حتى أنه شعر بأنه لم يعد قادرا على احتمال قسوة الواقع، التي تكاد تغلي به غليانا، وهو خلف نافذة السيارة. فإذا نظرت إلى البحر لا ترى زرقة ولا يحزنون، وإنما رمادا وغبارا متناثرا على سطحه، وإذا نظرت إلى تلك القصور القديمة العريقة الخاصة بالسادة النبلاء في ذلك الزمن تجد أفواج الشحاذين يحومون حولها من كل حدب وصوب، ومن المحال أن تجد أنفك هناك تلك الرائحة الجميلة، التي تضوع بها أزهار الياسمين، فإنما شذاها هذا تخنقه وتبيده عن بكرة أبيه الرائحة العفنة للمجاري والبلاعات المفتوحة على آخرها. شعر بأن كل شيء في هذه البلدة صار أصغر عما كان من قبل، يروم

عليه الفقر والحاجة والحزن، وفيها ما يكفي وزيادة من تلك الجرذان الجائعة عند صناديق القمامة، جرذان تتعثر فيها خيول العربة فيصيبها الذعر والهلع، وخلال طريقه الطويلة، التي تصل بين الميناء والبيت، وحتى في قلب ذلك الحي العريق، حي «لوس بيريس»، لم يجد شيئا واحدا يستحق كل ما كان به من حنين وشوق. حينئذ أحس بقهر في نفسه، وبيأس يكتنفه، فأطرق برأسه في حزن كي لا تراه أمه في هذه الحالة، وراح يطلق عبراته في صمت وشجن.

والقصر القديم، قصر ماركيز كاسالدويرو، الذي يعد الإقامة الدائمة لآل أوربينو ديل كايه، لم يكن الأكثر أبهة وترفا وسط هذه الفوضى العارمة، التي تعم البلدة، دخله الدكتور أوربينو، وراح يكتشفه وقلبه مفطور يكاد يتهشم إلى شظايا، وهو يدلف إلى دهليز القصر الغارق في العتمة والظلام، ووقعت عيناه على النافورة المعفرة بالتراب في حديقة القصر الداخلية، وتلك الأشجار الجبلية الخالية من الأزهار، حيث تمرح فيها سحالي الإجوانا، ولاحظ حينها أن سلالم القصر الكبيرة ينقصها الكثير من البلاطات الرخامية، بل وكثير منها مكسور محطم، وهذه السلالم ذات الدرابزين النحاسي، تفضي إلى الغرف الأساسية للقصر، وأبوه الذي كان محبا للخدمة، وبذل النفس أكثر من الشهرة والجاه، مات بسبب وباء الكوليرا، الذي اكتسح البلدة منذ ستة أعوام، وبموته ماتت روح الدار بأكملها. أما والدته دونيا بلانكا، التي بدت أنها على استعداد أن تكون في حداد طيلة عمرها، استبدلت الحفلات الغنائية والموسيقية، التي كانت تقام كل ليلة أيام حياة زوجها بالجنازات والمآتم اليومية حزنا عليه وتخليدا لذكراه. أما أختاه، فعلى عكس طبيعتهما الاحتفالية المبتهجة وميلهما الطبيعي للمرح والدعابة، صار منظرهما كأنهما راهبتان معتكفتان في أحد الأديرة.

لم يغمض جفن الدكتور أوربينو منذ ليلة وصوله، كله خوف ورعب من هذا الهدوء والظلام الراقدين في المكان، بل وصلّى صلاة العذراء إلى روح

القدس ثلاث مرات متتالية وجعل يدعو ويدعو متوسلا إلى الله أن يجنبه شر القضاء، راجيا منه ألا يموت غارقا في يوم من الأيام، وأن يدفع عنه شر هذه الليلة، وكل هذا بينما طائر كروان حط عند باب الغرفة الموارب، وفي كل ساعة يطلق صياحه، كلما مرت ساعة بالضبط ينطلق صوته مدويا في أرجاء الغرفة، وفزع وأصابه الرعب والهلع لسماع ذلك الصريخ والعويل الصادر من هؤلاء المجانين الموجودين في مستشفى «لا ديبينا باستورا» للأمراض العقلية الموجودة بجانب الدار، وأصوات قطرات الماء، وهى تتساقط من الإناء الفخاري على أرضية الطشت ليتردد صداها القاسي المرعب في محيط الغرفة، وأصوات ذلك الكروان، الذي دخل الغرفة سائرا تائها بساقيه الطويلتين. خوفه من الظلام شيء فطري فيه، ولد به، فها هو يحس كأن روح والده تحوم في أرجاء الدار النائمة لتخيفه، وحينما صاح الكروان مؤذنا بحلول الساعة الخامسة في الوقت نفسه صاحت الديكة الموجودة في الجوار، وقتها كان الدكتور أوربينو توكل على العناية الإلهية كي تحفظ جسده وروحه، فهو لا يريد أن يعيش يوما آخر في وطن مخرب مهدم كوطنه، ومع هذا، فما شهده من محبة في بلدته، وما شهده من مناظر ريفية جميلة في أيام الأحد، وما رآه من تملق ووله في عيون العازبات اللائي رحن يتملقنه في كل وقت، كل هذا خفف فعلا من انطباعه المبدئي، وبدأ يتعوّد بالتدريج على حر وقيظ شهر أكتوبر، وعلى تلك الروائح النفاذة، وعلى ما يكون من أصدقائه من قرارات وأحكام، وبصيرة سابقة لأوانها، تعوّد منهم حين يودعونه، ويقولون له إلى الغد يا دكتور سوف نلتقي، لا تقلق يا دكتور، تعوّد إلى أن استحالت العادة إلى سحر لا يمكن له الاستغناء عنه، ولم يمر وقت طويل إلا و كوّن فكرة سهلة عن سبب هجرته. كان يقول لنفسه: إن هذا هو عالمه ودنياه، عالم حزين ومقهور أوقفه الله في طريقه، عالم يستحق واحدا مثله.

وكان أول ما قام به إدارة عيادة والده المتوفى، وأبقى ما كان هناك من

قطع الأثاث الإنجليزية غير المريحة، خشبها مشبع برائحة الخيوط الأولى من الصباح، ولكنه أمر بأن توضع كل الرسائل الطبية الملكية والأدوية الرومانية القديمة في غرفة المهملات أسفل حنية السقف، ثم وضع على الأرفف الزجاجية الأدوية الجديدة الخاصة بمدرسة الطب الفرنسية، وكل ما كان على الجدران من صور ولوحات زال لونها قام بنزعها جميعا باستثناء التي تصور طبيبا يعالج مريضة عارية، ويبدو كأنه مستعد لأن يفديها بروحه، وأيضا نزع تلك اللوحة، التي عليها القسم الطبي الشهير لأبوقراط مكتوبة بالخط القوطي، وعلق بدلا منها، إلى جانب شهادة دبلومة الطب الوحيدة الخاصة بوالده، كل ما ناله من شهادات من مختلف المدارس الأوروبية.

حاول أن يفرض آراءه الجديدة في الطب لتكون أساسيات مستشفى «لا ميسركورديا،» ولكنه لم يجد الأمر سهلا كما توهم، بما فيه من حماس الشباب، وذلك لأن المستشفى العتيق الموغل في القدم ما زال متشددا متمسكا للغاية بكل الخرافات القديمة، التي توارثوها أبا عن جد، منها مثلا: وضع سيقان السرير في أوعية من الماء لمنع انتشار المرض، أن يكون الطبيب في غرفة العمليات برداء رسمي، وفي يديه قفازان من جلد الظباء، وهذا لمجرد الالتزام بقاعدة الأناقة، التي في اعتقاده أساس من أسس النظافة والطهارة، كما أنهم لم يتحملوا أن يكون هذا الشاب الوافد الجديد لم يتذوق بول المريض ليعرف، إذا كان فيه نسبة من السكر أم لا، ولم يتحملوا كونه دوما يذكر اسم الطبيبين الفرنسيين «شاركوت» و«تروسيو» كأنهما زميلاه يعملان معه في الغرفة نفسها، وكونه أيضا دائما ما يحذر أثناء تدريسه للطب من التطعيم وأضراره، وكونه لديه شك كبير في هذا الاختراع الجديد، الذي يُسمّى «لبوس». كل شيء فيه كانوا يعترضون عليه في غلظة، روحه الميّالة للتطور والتجديد، هوسه بالوطن والوطنية، حسه الفكاهي وسط بيئة من أناس لا حس لهم ولا معنى، ولا يموتون أبدا، باختصار كان أجمل ما فيه من شمائل وسمات يثير حقد وغيرة

زملائه الأكبر منه، كما كان يثير سخرية كل شاب مثله.

الفكرة التي سيطرت على كل جوارحه ومشاعره أن حالة البلد الصحية في خطر جسيم. وبدأ بمراسلة السلطات العليا في البلاد حتى يقوموا بتغطية واستبدال البلاعات والمجاري، التي أنشئت في عهد الإسبان، والتي لم تكن إلا مزرعة للجرذان فقط، وطالب بأن يُبنى مكانها مجاري مغطاة لا يكون مصبها بما فيها من فضلات وقاذورات على الخليج، حيث يوجد سوق المدينة، كما هو الحال، وإنما يكون مصبها في مزبلة أخرى بعيدة. جدير بالذكر أن البيوت الفخمة المشيدة أيام الاستعمار لها مراحيض تفضي إلى حفر صغيرة عفنة، ولكن ثلثي المدينة كلها عبارة عن أكوام من الأكواخ الخشبية تقع على ضفاف المستنقعات، حيث يقضون هناك حاجتهم، وفي الهواء الطلق، ثم تجف تلك الفضلات المتراكمة بفعل الشمس وحرها، وبعدها تتحول إلى غبار ناعم خفيف، ليهب على الجميع بعد ذلك، فيشمونه ويتنفسونه، وهم في أوج احتفالهم وسرورهم بعيد الفصح في الوقت الذي يهب عليهم نسيم شهر ديسمبر المنعش، لذا جاهد الدكتور أوربينو أيما جهد عن طريق إعطاء الفقراء دروسا إجبارية في مباني البلدية والكنائس كي يبنوا مراحيضهم الخاصة، وكافح كفاحا مريرا حتى لا يرمي أحد القمامة بين أشجار المنغروف، التي استحالت منذ قرون إلى مستنقعات من العفن والتفسّخ، وحاول بكل جهده أن يجعلهم يلمون القمامة لمرتين على الأقل في الأسبوع ليلقوها في مكان مهجور ويحرقونها.

وأيضا كان يعلم تماما حجم التلوث القاتل الموجود في مياه الشرب، والفكرة الوحيدة في بناء مجاري وقناطر مائية كانت ممتازة، ذلك أن الذين يحثون عليها هم الذين في حقيقة الأمر لديهم خزانات كبيرة تحت الأرض، حيث يخزن فيها أسفل طبقة رقيقة من الطحالب الخضراء ماء المطر منذ سنين طويلة، وكان من بين قطع الأثاث، التي تحظى بقيمة عالية في ذلك الوقت أوعية خشبية لها فلاتر من الحجارة يترشح منها الماء خلال يوم وليلة

لتسقط بعد ذلك في الجرار، وحتى لا يشرب أحد من الوعاء المصنوع من الألومنيوم، الذي يؤخذ به الماء، سننت حوافه وتجدها حادة تماما، مثل الإكليل، الذي يتزين به الملوك، وكان الماء صافيا عذبا منعشا حين تنظر إليه في الجرة الفخارية، بل وحين تشربه يترك في فمك طعم الغابات والنسيم العليل، ومع هذا لم يقتنع الدكتور أوربينو بمثل هذه الخدع الغريبة في تصفية المياه، فهو يعرف تماما بأنه رغم كل هذه الاحتياطات، إلا أنه توجد في قاع هذه الجرار ديدان صغيرة، وأنه قضى في طفولته ساعات طويلة يتأمل ذلك في دهشة شديدة ، مقتنعا، مثل بقية الناس، بأن هذه الديدان الصغيرة ما هي إلا أنيمي، وهذه الأنيمي مخلوقات خارقة للطبيعة خلقت لتغازل العذراوات البكر، وهى تعيش بين تلك الرواسب المائية المدهشة، كانوا يعتقدون بأنها أيضا قادرة على الانتقام الشديد من الحب، ورأى خلال طفولته كيف تم تكسير بيت لاثارا كونديه، التي كانت تقوم بالتعليم في المدرسة حين احتقرت هذه الأنيمي، ورأى كيف غرق الشارع في الشظايا المتناثرة من زجاج نوافذ بيتها وأكوام الحجارة، التي ظلت ترمى على نوافذها لثلاثة أيام وليال متتابعة. بحيث ظل هذا الاعتقاد لسنين طويلة حتى اقتنع، وتعلم بأن هذه الديدان الصغيرة إنما هي يرقات البعوض، عرف هذا، ولم ينس أبدا طيلة حياته، فمنذ ذلك الحين علم بأنه ليس فقط تلك الديدان الصغيرة بقادرة على المرور من تلك المرشحات الساذجة لتنقية المياه، وإنما ثمة أشياء أخرى أكثر ضررا قادرة أيضا على المرور منها.

كان سكان البلدة ينسبون إلى هذه المياه الموجودة في الخزانات الكبيرة، وبكل غرور وخيلاء، أنها السبب في الفتق، الذي يحدث للكيس الخارجي الحاوي للخصيتين، والرجال يتحملون هذا بدون مسحة واحدة من الخجل والحياء، وإنما يعرضونها وبكل صفاقة كأنها فرض وطني، ففي كل مرة يذهب فيها الدكتور أوربينو إلى المدرسة الابتدائية يدهشه ويرعبه، لدرجة

تتسارع معها دقات قلبه، منظر هؤلاء الرجال المصابين بالفتق، وهم جالسون على أبواب بيوتهم في الأمسيات الحارة يهوون خصيهم، التي تبدو كأطفال صغيرة نائمة بين أرجلهم ، فهم يقولون إن هذا الفتق يصدر صفيرا كصفير الطائر الحزين في الليالي العاصفة، حي يتلوى من الألم المميت بسبب حرق ريشة من ريش الصقور السوداء بالقرب منه ، ولكن لا أحد يلتفت أبدا لمثل هذا البلاء، فالفتق كلما كبر في حجمه، واعتني به صاحبه إنما يعتبر شرفا، وأي شرف بالنسبة للرجل ورجولته. وبعدما عاد الدكتور أوربينو من أوروبا عرف كم الخداع والاستغفال العلمي في تلك المعتقدات الخاطئة كل الخطأ، ولكن الخطر كل الخطر أن يعترض على تلك الخرافات المحلية، وذلك لأن كثيرين يعارضون بشدة مد المياه بالأملاح المعدنية، حتى لا تحرمهم من هذا الفتق المشرف لرجولتهم.

ومثلما أيضا أرعبه ما في المياه من تلوث جسيم، أرعبته أيضا الحالة الصحية المتدهورة، التي كان يعاني منها سوق المدينة، مساحة كبيرة من الأرض العراء أمام خليج «لاس أنيماس»، حيث ترسو هناك جميع السفن الشراعية الخاصة بجزر الأنتيل. اكتشف هذا الخليج رحالة مشهور، وصار بذلك الخليج الأشهر على مستوى العالم، والحقيقة أنه كان فعلا وافرا غنيا بكل شيء، صاخبا، كثير الضوضاء، ولكنه أيضا الأكثر خطرا على الكل، فما هو إلا مزبلة بالنسبة للبحر، حيث يرمي فيها بكل أوساخه، ومن ير أرض السوق يحسبها كأن الخليج تجشأ عليها بما فيه من قاذورات المجاري والمصارف، وهناك أيضا يتم إلقاء بقايا السلخانة الملتصقة بالسوق، فتجد رؤوسا مهشمة وأحشاء متعفنة مقززة وكل ما تخلف من الحيوانات وقمامتها، ترى كل هذه المخلفات في عرض الطريق تطفو فوق بركة من الدماء، ومن الطبيعي حينئذ أن تجد الصقور السوداء تزاحم الجرذان والكلاب في شجار دائم معها لتنال قسطها من هذه الغنائم المعروضة بين تلك الغزلان والديوك

المخصية المعروفة بجودة طعمها، والمعلقة في أكواخ خشبية، بعد أن تم جلبها من سوتابينتو، كما تجد جميع أنواع البقول المختلفة مفروشة على الحصائر، وفعلا أراد الدكتور خوبينال أوربينو أن يقوم بتطهير المكان، وأن يتم نقل السلخانة إلى مكان آخر، وأن يقوموا ببناء أسواق مغلقة لها قباب زجاجية ملونة، كما كانت بالضبط الأسواق القديمة الموجودة في برشلونة، حيث الأطعمة والسلع نظيفة للغاية، ومعروضة بشكل يبهر العيون، حتى أنه يشق على الواحد منهم أن يأكلها من روعة شكلها وتنسيقها، ولكن حتى أخلص أصدقائه، رغم تعاطفهم الشديد معه، وتأييدهم المطلق له، إلا أنهم كانوا يرثون لما له من آمال من المحال تحقيقها في نظرهم. إنهم قضوا حياتهم ينادون باحترام أصالة المدينة وتاريخها العريق، وعلى أهلها أن يدفعوا ثمن قداستها وجمالها وبطولاتها، ولكنهم مع مرور الزمن صاروا لا يرون أي شيء من هذا. على عكس الدكتور خوبينال أوربينو، الذي كان فيه الكفاية من الحب ليراها بعين الحقيقة، فيقول لهم:

- أشهد لكم بأن هذه المدينة ستكون غاية في النبل والجمال، فعلى الرغم من مرور أربعمائة عام لم نألوا جهدا في التخلص منها، لكننا لم نستطع.

مع ذلك فهم حقيقة كانوا على وشك القضاء عليها. اكتسحها وباء الكوليرا الفتاك المميت، وكان أول ضحاياه هؤلاء، الذين سقطوا مصعوقين بين جموع السوق الغفيرة، فحقق ذلك الوباء أعلى نسبة وفيات على مدى تاريخها كله، وفي أحد عشر أسبوعا فقط، وإلى الآن هناك بعض الشخصيات المرموقة مدفونة تحت بلاط الكنائس، بجانب الأساقفة والرهبان، ومن هم أقل غنى وثروة كانوا يدفنون في ساحات الأديرة، أما الفقراء فمكانهم المقابر، التي أنشئت أيام الاستعمار عند تلك الربوة، المعزولة عن المدينة بقناة يجري فيها الماء الضحل يمر فوقها جسر مبني من الطوب اللبن، عند مدخله مظلة وضعت عليها لافتة منقوش عليها بأمر من أحد الحكام المشهورين هذه

الجملة: ليتخلّ عن أحلامه وآماله كل من يدخل إلى هنا. وصل الأمر إلى أنه في أول أسبوعين من اقتحام وباء الكوليرا صارت المقابر ممتلئة عن آخرها، ولم يعد هناك مكان واحد صالحا للدفن في الكنائس، رغم أنهم نقلوا جميع رفات الوجهاء، الذين لا يعرف لهم اسم، إلى المدفن المخصص لعظام الموتى، وصار الجو في الكاتدرائية خانقا، قليل الهواء، بسبب هذه الأبخرة المتصاعدة من سراديب الموتى، التي لم يتم إحكامها جيدا، لدرجة أنه لم يعد أحد إلى فتح أبوابها، إلا بعد ثلاث سنين، في تلك الفترة، التي رأت فيها فيرمينا داثا للمرة الأولى فلورنتينو أريثا، عن قرب، في يوم قدّاس منتصف الليل، وحتى أن دير «سانتا كلارا» بما فيه من ذلك الممر المحفوف بأشجار الحور لم يعد فيه موضع لقدم واحدة، وذلك في الأسبوع الثالث من الوباء، حتى أنهم اضطروا أن يتخذوا من حديقة الرهبان مقبرة للموتى، التي كانت أكبر مرتين من الدير، وهناك حفروا قبورا على عمق شديد، وعلى ثلاث مستويات تحت الأرض، حفروها بعجلة ووضعوا فيها الموتى بدون توابيت، استغنوا عنها، لأن الأرض فاضت بما فيها وامتلأت، حتى لكأنها تبدو كإسفنج كلما سار أحد عليها نزّت بالدم الفاسد الملوث، غث الرائحة، حينئذ استعدوا لمواصلة دفن الموتى في مزرعة «لا مانو ديه ديوس، الخاصة بتسمين المواشي، والتي تبعد عن المدينة أقل من فرسخ واحد، وقُدست بعد ذلك، واعتبروها مقبرة عالمية.

يذكر أنه منذ تم الإعلان عن انتشار وباء الكوليرا، والحامية العسكرية المحلية تطلق من قلعتها قذيفة مدفعية كل ربع ساعة، ليلا ونهارا، تفعل ذلك إيمانا بتلك الخرافة الوطنية بأن البارود بقادر على تنقية وتطهير الجو، وأمر طبيعي أن يستحكم الوباء على السود المقيمين في المدينة، لأنهم الأكثر عددا وفقرا، والحقيقة أن الكوليرا لم تكن تميز بين لون وآخر أو فصيلة وأخرى، وتوقف الداء بسرعة كما بدأ، ولم يعرف أحد أبدا كم الخسارة، التي خلفها،

وليس هذا لاستحالة تقييمها، وإنما لأننا كنا نخجل للغاية من عد مصائبنا أمام الجميع، وتلك ميزة من مزايانا.

وأبوه الدكتور ماركو أوريليو أوربينو كان بمثابة بطل شعبي في تلك الأيام المشئومة، وأيضا ضحيتها الأكثر شهرة، فرض على نفسه رسميا الاهتمام والإشراف شخصيا على تنفيذ استراتيجية الوقاية الصحية، ولكن بسبب طبيعته، انتهى به الأمر إلى أن اشترك في جميع شئون المجتمع، لدرجة أنه في اللحظات الحرجة من الوباء لم يكن هناك سلطة أعلى من سلطته، وبعد ذلك بسنين، حين راح الدكتور خوبينال أوربينو يراجع أحداث وأخبار تلك الأيام، عرف بأن الوسيلة، التي كان يتبعها أبوه رحيمة ومتساهلة أكثر من كونها علمية، وأنها في حالات كثيرة عكس تماما ما يفترضه أي عقل، وعلى هذا ساهم والده في انتشار الوباء واستحكامه دون قصد، وهو إنما عرف هذا بنفس هذا الشعور الذي يتملك الأبناء شيئا فشيئا فيشعرون بأنهم آباء لآبائهم، ولأول مرة أحس بالألم لعدم وجوده بجواره حين كان في عزلته تلك، مع أخطائه، ولكنه رغم كل هذا لم ينكر أبدا ما كان لأبيه من شمائل وصفات: حميته الشديدة، وحبه للتضحية وبذل النفس، وفوق كل هذا شجاعته وإرادته القوية، فكان جديرا بكل هذا الشرف، الذي منحته له البلدة، أثناء تعافيها من الوباء، بل وبقى اسمه محتلا الصدارة بين أسماء وجهاء ومشاهير خاضوا حروبا أقل شرفا من حربه.

لم يلحق أن يشاهد مجده بأم عينيه، فحين وجد نفسه مصابا بأعراض الكوليرا العصية، التي رآها عند غيره، لم يحاول قط أن يخوض تلك المعركة الخاسرة، وإنما انعزل بنفسه عن العالم كي لا يعدي أحدا. حبس نفسه في إحدى غرف مستشفى «لا ميسر كورديا» وامتنع عن الاستماع لنداءات زملائه وتوسلاتهم، وعما فيه المصابون بالوباء من الرعب أثناءاحتضارهم في أروقة المستشفى، الذي امتلأ بهم عن آخره، وراح يكتب لزوجته وأبنائه رسالة كلها

امتنان لأنه وُجد في هذه الدنيا، أعرب فيها عن حبه الكبير للحياة وطمعه فيها. كانت رسالته عبارة عن عشرين ورقة نزعت نزعا من إحدى الكراريس، ومن يقرأها يلاحظ التدهور التدريجي لحالته الصحية من خطه، الذي يزداد سوءا مرة بعد الأخرى، ولم يكن من الصعب، بالنسبة لمن كتب لهم هذه الرسالة أن يعرفوا أنه وقعها مع آخر نفس له ، وكما أمر هو، وضع جثمانه، بعدما تم حرقه، في المقبرة العامة دون أن يراه أحد من أحبائه.

تلقى الدكتور خوبينال أوربينو تلغرافا في باريس بعد ثلاثة أيام من موت أبيه، وكان ذلك أثناء عشائه مع أصدقائه، وحينها أقام نخبا من شراب الشمبانيا على روح أبيه، وقال فيما قال لهم: «كان رجلا صالحا»، وبعد ذلك أحس بلوم شديد، فما فعله كان نزوة من نزوات الشباب، فهو لم يبك قط حينها على والده. بيد أنه بعد ثلاثة أسابيع تلقى نسخة من رسالة أبيه، التي كتبها قبل وفاته، حينئذ وجد نفسه يستسلم مرة واحدة للحقيقة المُرّة. مرة واحدة بانت في مخيلته صورة هذا الرجل، الذي كان يعرفه جيدا قبل أي أحد، والده الذي رباه وعلمه، الذي شاطر أمه حياتها لاثنتين وثلاثين سنة، ومع ذلك فهو أبدا لم يستحضره في ذهنه بروحه وجسده هكذا قبل قراءته لهذه الرسالة، ولم يكن يفعل لخجله وحيائه، وحتى ذلك الحين كان الدكتور خوبينال أوربينو يرى أن الموت مجرد حادث يحصل للآخرين، لآباء الآخرين، لإخوة وأخوات الآخرين، ولأزواج الآخرين، ولكن ليس له، ولا لمن يحبهم. كان يراهم على أن لهم حياة عريضة مديدة، لا يشيخون ولا يمرضون ولا يموتون، وإنما يتلاشون رويدا رويدا مع الوقت، ليغدوا بعد ذلك مجرد ذكرى، سحابة في فترة ما من الماضي، إلى أن يأخذهم النسيان، ولكن هذه الرسالة، التي كتبها والده قبل أن يموت، وذلك التلغراف المشئوم بخبر موته جعلاه ينبطح أرضا أمام يقين الموت، ومع هذا فلديه ذكرى من أقدم ذكرياته ربما كانت في التاسعة أو الحادية عشرة من عمره، كانت علامة مبكرة من علامات الموت

جاءته عن طريق والده، حين كان كلاهما في غرفة المكتب بداخل بيتهما في ليلة من الليالي الممطرة، كان يرسم عصافير وورود عباد الشمس على بلاط الأرض باستخدام الطباشير الملون، بينما أبوه يقرأ جالسا في مواجهة الهواء الآتي من النافذة، بعد أن فك أزرار صدريته، وشمّر كمي قميصه، وفجأة توقف أبوه عن القراءة، وأمسك بتلك الحكاكة الطويلة ذات المقبض الفضي، وراح يحك ظهره، ولكنه لم يستطع، فطلب من ابنه أن يحك له بأظافره، ولبى نداءه، ولكنه ظل يفعل له ما أراد، وفي نفسه شعور غريب بأنه يحك شيئا لا يحس به، وأخيرا حدّق فيه أبوه من فوق كتفه، وعلى فمه ابتسامة حزينة مؤلمة، وقال:

– لو مت الآن، فأنت بالكاد ستذكرني حين تكون في مثل عمري هذا.

قال هذا، ولا سبب واضح يفسر ما قاله، قال هذا، وكأن ملاك الموت يرفرف حولهما في تلك العتمة الباردة لغرفة المكتب، وها هو ذلك الملاك يخرج من النافذة مخلفا وراءه ريشه الكثير، ولكن طبعا لم ير الطفل أيا من هذا، وها قد مر عشرون عاما على ذلك اليوم، وفي يوم وليلة صار لديه نفس عمر أبيه، حين كان في تلك الليلة. ها هو يعرف مثله تماما بأنه، علاوة على إدراكه لوجوده في هذا الكون، لديه الآن أيضا إدراك مباغت بكونه صائرا إلى موت محتوم، مثلما حدث لأبيه.

وأحال وباء الكوليرا حياته بأكملها إلى نوع من الوسواس الملح المزعج، فهو لم يكن يعرف عنه إلا ما تعلمه روتينيا في إحدى المحاضرات الهامشية، ووقتها بدا له أمرا غير معقول نهائيا أن تكون فرنسا منذ ثلاثين عاما من ذلك الحين، وبما فيها باريس نفسها، مات فيها أكثر من مائة وأربعين ألفا بسبب هذا الوباء الفتاك، ولكنه بعد وفاة أبيه عرف عن هذا المرض كل شيء يمكن أن يعرفه عن الكوليرا، وعن أشكاله المختلفة، فعل هذا كأنه يكفر عن ذنوب كانت لديه كي يهدئ من نفسه اللوامة القاسية، وغدا أيضا تلميذا ليس له نظير في علم الأوبئة، وهو من اخترع فكرة إقامة الحِجر الصحي. كان من

أشهر تلاميذ الدكتور أدريان بروست، ابن الروائي الفرنسي المعروف مارسيل بروست. بحيث أنه بمجرد عودته إلى وطنه، ووصلت إلى أنفه، وهو ما زال في عرض البحر، رائحة السوق العفنة، ورأى ما رأى من جرذان تسبح وتمرح عند فتحات المجاري والبلاعات، كما رأى الأطفال العراة يتخبطون في تلك المستنقعات، التي جعلت الشوارع أنهارا، حينها لم يشك لحظة في أن البلية قد تقع في أي وقت.

وفعلا كما توقع وحسب، لم يمر وقت طويل، وحدث ما كان يخشاه، فقبل أن تتم السنة، إذا بتلاميذه في مستشفى «لا ميسكورديا» يطلبون منه أن يساعدهم في تشخيص مريض كل جسده أزرق اللون، وكفاه أن يرى المريض، وهو عند باب الغرفة ليتعرف أخيرا على هذا العدو الفتاك المميت، ولكن الحظ كان في جانبهم هذه المرة، فهذا المريض جاء إلى البلدة منذ ثلاثة أيام عبر سفينة شراعية من بلدة كوراثاو، وبمجرد وصوله زار العيادة الخارجية في المستشفى، على حسابه الخاص، فعرفوا بأن ثمة احتمال كبير بألا يكون قد أصاب أحدا من الناس بالعدوى. على كل، قام الدكتور أوربينو بإخطار وتحذير جميع زملائه، وطالب جميع السلطات بأن تقوم بإخطار جميع الموانئ المجاورة حتى تقوم بتحديد موقع تلك السفينة الملوثة، ويفرضوا عليها حِجرا صحيا، واضطر أيضا أن يحيد قائد الحامية العسكرية عن عزمه بتطبيق القانون الحربي على البلدة والالتزام فورا بإطلاق قذيفة مدفعية كل ربع ساعة ظنا منه بأن هذا علاجا للوباء، ولكنه منعه قائلا له في هدوء وثبات:

– وفر على نفسك كل هذا البارود لتستعمله حين يأتيك الأحرار. نحن لسنا في العصور الوسطى لنقوم بذلك.

ومات المريض بعد أربعة أيام، مختنقا بذلك القيء الأبيض المتكتل، الذي خرج من أحشائه، ولكنهم لم يجدوا فيما تلا من أسابيع أي حالة مشبته فيها، رغم تدقيقهم المستمر وحذرهم الشديد، وبعد ذلك بقليل،

نشرت صحيفة «الكوميرسيو» خبرا مفاده بأن طفلين ماتا بالكوليرا في مناطق مختلفة من المدينة، وثبت أن أحدهما كان لديه التهاب في الأمعاء الغليظة، ولكن الطفلة الأخرى، التي كانت تبلغ من العمر خمس سنين بدا فعلا أنها أصيبت بداء الكوليرا. على الفور تم عزل أبيها وإخوتها الثلاثة في حجر فردي، وخضع الحي بأكمله لمراقبة طبية شديدة التدقيق، وكان أحد الأطفال أصيب بالكوليرا، ولكنه سرعان ما شفي منها، وعادت أسرته مرة أخرى إلى بيتها بعدما انقشع الخطر، وبعد ذلك تم رصد إحدى عشرة حالة مصابة بالكوليرا في خلال ثلاثة شهور، وفي الشهر الخامس استفحل الوباء بشكل خطر، ولكن مع نهاية العام اعتبر رسميا أنه تم السيطرة تماما على هذا الوباء، ولم يشك أحد لحظة أن تلك الأعجوبة تحققت بالفعل لما كان من دكتور خوبينال أوربينو من فرض إجراءات صحية شديدة الإحكام، ولكثرة ما حذر الناس علنا، وصارت الكوليرا منذ ذلك الحين، وحتى حينما أشرف هذا القرن على نهايته، محكومة مقيدة، ليس فقط في بلدته وإنما في جميع البلاد المطلة على ساحل الكاريبي، وعلى مستوى نهر «ماجدالينا» العظيم كله، هو فعلا موجود، ولكنه لم يكن أبدا يستفحل وينتشر كوباء. والبلاد كانت في حالة طوارئ كي يتم الاهتمام بجدية وقوة بكل ما حذر منه الدكتور خوبينال أوربينو من قبل السلطات العامة، وتم فرض حصص إجبارية في مدرسة الطب عن الكوليرا والحمى الصفراء، وتم التأكيد على الجميع بضرورة غلق أغطية البلاعات، وأن تكون السوق بعيدة كل البعد عن مكان رمي القمامة بالمدينة، ومع هذا، لم يكن الدكتور أوربينو وقتها يهمه أن يركب دوما عربته المكشوفة ذات عجلات الأربع، ولا حتى كان متحمسا للمواظبة على مهامه الاجتماعية، ذلك لأنه كان في ذلك الحين جريح النفس مهيض الجناح، في حالة من الذهول والتشتت، وقر قراره على أن يغير كل شيء، وعلى أن ينسى كل شيء في حياته، وكل هذا فقط من أجل ومضة الحب تلك، التي برقت فيه لفيرمينا داثا.

في الواقع، لقاؤه معها لم يكن إلا محض صدفة عابرة نتيجة لخطأ طبي، فطبيب صديق له اعتقد بأنه وجد أعراض الكوليرا الخبيثة في مريضة تبلغ من العمر ثمانية عشر عاما، وحينها طلب من الدكتور أوربينو أن يذهب ليراها ويفحصها، وفعلا ذهب في هذا المساء نفسه، وهو في غاية الدهشة والاستغراب كون هذا الوباء استطاع أن يجد له سبيلا بين أحياء المدينة القديمة المعروفة برقيها، وذلك لأن جميع الحالات، حتى ذلك الحين، كانت في الأحياء المهمشة، وأغلب الإصابات تكون بين هؤلاء السود الفقراء. ولم يلبث أيضا أن وجد ما أثار دهشته، وإن كان بصورة أقل، فذلك البيت الذي تحفه ظلال أشجار اللوز الموجودة في حديقة «لوس إبانخليوس» يبدو مهدما مخربا تماما من الخارج، كما هو حال بقية البيوت المبنية منذ أيام الاستعمار، ولكن في داخل الدار عجب وأي عجب، جمال منسق مهندم للغاية، وأضواء ساطعة تكاد تخطف الأبصار من روعتها، باختصار الدار من داخلها تبدو كأنها في عصر من العصور الأخرى، وكان دهليز الدار يفضي مباشرة إلى فناء إشبيلي الطابع مسوّر بسور من أحجار الجبس الأبيض، وفيه ما فيه من أشجار البرتقال المزهرة ، ورصت أرضيته ببلاط من القيشاني اللامع المبهر الموجود أيضا على الجدران، وكان ثمة تيار من الماء السيّال لا تراه الأعين، وفي الأركان والزوايا تجد أصص القرنفل، وعند الأروقة الحجرية أقفاص فيها طيور عجيبة الشكل والمنظر، وأغرب هذه الطيور تلك الغربان، التي حبست في قفص كبير للغاية. كانوا ثلاثة غربان بمجرد أن تحرك أجنحتها تصل إلى أنفك رائحة جميلة معطرة جو الفناء، وثمة عدة كلاب مربوطة بسلاسل راحت تنبح في شراسة حينما أتى ذلك الزائر بما له من رائحة جديدة تماما على أنوفها، ولكنها سكتت على الفور حين صرخت فيها امرأة الدار، وعلى الفور خرج العديد من القطط من كل حدب وصوب لتختفي بين الورود والأزهار، وأرعبتها تلك الصرخة. حينئذ عم الدار الهدوء، حيث يمكنك أن تحس بقوة بنسيم البحر العليل من بين كل هذه الفوضى العارمة من قبل

الطيور وضجيج قطرات الماء المتساقطة على الأحجار.

من شدة تأثره، ويقينه بأن الله فعلا موجود في هذه الدار، انطبع في نفسه أنه لا يمكن أبدا لهذه الدار أن يدخلها ذلك الوباء، وسار مع جالا بلاسيديا في الممر ذي الأقواس الحجرية، ومر أمام نافذة غرفة الخياطة، التي رأى فيها فلورنتينو فيرمينا لأول مرة حين كان الفناء عبارة عن أنقاض فوق أنقاض، ثم صعد الدكتور أوربينو السلالم الرخامية الجديدة إلى أن بلغ الدور الثاني، وانتظر السماح له بدخول غرفة المريضة، ولكن جالا بلاسيديا عادت لتقول له:

– سيدتي الصغيرة تقول إنها لا يمكن أن تسمح لك بالدخول لأن والدها ليس في البيت الآن.

وعلى هذا عاد إلى البيت مرة أخرى في الساعة الخامسة عصرا، كما طلبت منه الخادمة، وفتح له بوابة الدار لورينثو داثا بنفسه، وقاده إلى غرفة نوم ابنته، وظل جالسا وسط العتمة في زاوية من زوايا الغرفة عاقدا ذراعيه يجاهد ليكتم تنفسه المضطرب، بينما الطبيب يفحصها ليعرف ما بها، ولم يكن من السهل وقتها معرفة أيا منهما أكثر صلابة وثباتا، أهو الطبيب، الذي ظل يجسها بتعفف وحياء أم هي بما فيها من حذر العذراء البكر، وعليها قميص نومها الحريري، ولكن لا أحد منهما نظر إلى عيني الآخر، كل ما في الآمر أنه كان يسألها بصوت ثابت قوي، وهى ترد عليه بصوتها المرتعد المضطرب، وكلاهما معلق بهذا الرجل الجالس في العتمة، وأخيرا طلب الطبيب من المريضة أن تجلس، وفتح لها قميصها إلى خصرها بحرص شديد، فبان ثدياها النافران الشامخان في عظمة وخيلاء، ثديان لم يمسهما أحد من قبل، والتمعت حلمتاها الصبيتان للحظة كأنهما وميض انتشر بين ظلام الغرفة، قبل أن تشبك عليهما ذراعيها، ولكنه بكل ثبات ورباطة جأش أزاح ذراعيها دون أن ينظر لها، وبشكل مباشر راح يتسمع نبضها واضعا أذنه على صدرها، ثم على ظهرها.

بعدها، ظل الدكتور أوربينو يحكي طوال حياته أنه لم يحس وقتها بأي عاطفة أو إحساس معين، وهو يتعرف على المرأة، التي عاش معها لآخر يوم في حياته، فهو ما زال يذكر قميص نومها السماوي بأطرافه المبرومة بتطريز جميل خلاب، لم ينس أبدا عينيها المحمومتين النشيطتين، لم ينس شعرها الطويل الحريري المنسدل على كتفيها، رغم هذا فهو لم يلاحظ الكثير فيها، هي المراهقة، التي كانت حينئذ تتفتح براعمها لتستوِي، وهذا بسبب انشغاله واهتمامه بأمر هذا الوباء، وأخوف ما يخافه حينئذ أَن يكون اقتحم حصن الأغنياء من المدينة، لهذا لم ينتبه إلا إلى قليل من جمالها، وهو يظن أنها أصيبت بالداء، أما هي فلم تكن حائرة في تفكيرها، فها هو ذا أمامها الطبيب الشاب، الذي كثيرا ما سمعت الناس يتحدثون عنه بسبب الكوليرا، وبدا لها شديد التصنع والتكلف لدرجة أنه لا يمكن أن يحب أحدا أكثر من نفسه، وأخيرا انتهى تشخيصه لها على أنها مصابة فقط بعدوى معوية بسبب الطعام، وسوف يستغرق علاجها ثلاثة أيام فقط مع بقائها في البيت لا تخرج منه أبدا، ومن شدة سعادة أبيها أنها لم تصبها الكوليرا، اصطحب الدكتور أوربينو وأوصله حتى عربته، ودفع له بيزو من الذهب، أجر كان في ذلك الوقت عاليا جدا حتى بالنسبة لطبيب الأغنياء، بل وودع الطبيب وداعا فيه كثير من العرفان بالجميل والامتنان كأنه لم يدفع له شيئا، فهو مبهور بألقاب هذا الطبيب الشاب وبعراقة أصله، وهو فقط لم يكتف بإظهار إعجابه، وإنما حرص على أن يكون بينهما لقاء آخر يكون بشكل شخصي أكثر، وبعيدا عن الرسميات.

المفترض أن المشكلة انتهت، ومع ذلك، ففي يوم الثلاثاء من الأسبوع التالي، إذا بالدكتور أوربينو يزور البيت في الساعة الثالثة دون إخطار منه أو استدعاء من أحد، بل وجاء أيضا في وقت غير مناسب، وكانت فيرمينا داثا حينئذ في غرفة الخياطة تتدرب على الرسم بالألوان الزيتية مع اثنتين من صديقاتها، حينها ظهر هو أمام النافذة ببذلته الرسمية ناصعة البياض، كأنها لم

تُمس من قبل، وقبعته الطويلة البيضاء أيضا، وإذا به يطلب منها أن تقترب منه، فوضعت حمالة الرسم على الكرسي، وتوجهت إلى النافذة تسير على أطراف أصابع قدميها، رافعة تنورتها ذات الكشكشة، التي حسرتها إلى ركبتيها حتى لا تُجرجر أطرافها على الأرض فتتوسخ، وكان على رأسها تاج مزين بحلى صغيرة تتوسطها جوهرة براقة لونها في لون عينيها، كل ما فيها يشيع منه نسيم بارد يخدر الأعصاب، وما أثار دهشته أنها ترتدي ثوبا أنيقا للغاية كأنها ذاهبة لحضور حفلة عظيمة، بينما تقوم فقط بالرسم في بيتها، ومن موضعهما عند النافذة جس نبضها، وجعلها تخرج له لسانها، وفحص حنجرتها بعصا صغيرة من الألومنيوم، وفحص جفنها السفلي من الداخل، وفي كل مرة يفعل شيئا يشير بعلامة الرضا والارتياح. وكان أقل اضطرابا وارتباكا من المرة الفائتة، على عكسها هي التي كانت مرتبكة لأنها لا تعرف مغزى هذا الفحص المفاجئ، فحتى هو قال إنه لن يأتي إلا إذا حصل أي شيء جديد، وعلاوة على كل هذا، فهى لم تكن تود رؤيته نهائيا، وحينما انتهى من فحصه، وضع العصا في حقيبته الممتلئة عن آخرها بالأدوات والزجاجات الطبية وأغلقها بقوة. قال لها:

- أنت الآن كأنك وردة تفتحت للتو.

أجابت:

- شكرا.

فقال لها:

- الله وحده الشافي، وتذكري أن كل ما هو خير يأتيك من حيث لا تحتسبين، يأتيك بأمر من العناية الإلهية. أتحبين الموسيقى؟

سألها، وعلى شفتيه ابتسامة ساحرة خلابة. سؤاله لها كأنه شيء عارض خطر على باله، ولكنها لم تجبه، بل سألته بدورها:

- لماذا تسألني هذا السؤال؟

فأجابها:

- الموسيقى مفيدة للصحة.

وهو فعلا كان يقول هذا عن إيمان حقيقي فيه، وهى لم تلبث أن عرفت، وعلى مدار حياتها كلها، بأنه إنما يفتح موضوع الموسيقى كوسيلة سحرية يستخدمها حينما يود أن يصادق أحدا، ولكنها في تلك اللحظة لم تأخذ إجابته هذه إلا مجرد دعابة منه، أما صديقتاها فكانتا تتظاهران بالرسم، ويكتمان ضحكاتهما مخفيتين وجهيهما خلف حمالتي الرسم كأنهما جرذان، بينما هي والطبيب يتحدثان. أحست فيرمينا داثا بالحنق والغيظ يتصاعدان إلى وجهها، ومن شدة غضبها أغلقت النافذة في عنف وحدة، أما هو فحاول أن يجد طريقه إلى بوابة الدار ليخرج وأمامه تلك الستائر الصغيرة المطرزة، ولكنه ضل طريقه، ووسط ما فيه من ارتباك وحيرة تعثر في القفص، الذي يحوي تلك الغربان ذات الرائحة العطرة، والتي راحت تطلق من حناجرها صريخا مدويا يصم الآذان، وترفرف بأجنحتها في خوف وهلع، وبالطبع تشربت ملابس الدكتور بروائحها العطرة النسائية، والصوت المرعد للورينثو داثا جعله يقف في مكانه دون حراك:

- دكتور، انتظرني لو سمحت.

وأصل الحكاية أن لورينثو داثا رأى كل ما حدث من مكانه في الدور العلوي للبيت، ونزل السلالم، وهو يقفل أزار قميصه، ووجهه منتفخ محتقن في لون البنفسج، وحتى نظارته كانت مشوشة مضطربة من سوء ما رأى في منامه أثناء قيلولته، وجاهد الطبيب حتى يستطيع التحكم في نفسه.

- كل ما قلته لابنتك أنها كالوردة.

فقال له لورينثو داثا:

- وهى فعلا كذلك، ولكنها كثيرة الأشواك.

ثم مر بجانب الطبيب دون أن يسلم عليه، ودفع في عنف ضلفتي النافذة

الخاصة بغرفة الخياطة، وصاح مزمجرا في وجه ابنته بشكل مرعد:

- اعتذري للطبيب.

وحاول الدكتور أوربينو أن يثني أباها عن عزمه، ولكنه لم يلتفت إليه، بل وقال مصمما: «هيا، بسرعة»، فنظرت فيرمينا إلى صديقتيها في توسل خفي منهما ليعذراها، وأجابت والدها أنها غير مضطرة لتعتذر له، وأنها إنما أغلقت النافذة فقط لتحجب عن الغرفة ضوء الشمس، ولم يعترض الدكتور أوربينو، والتمس لها العذر، ولكن أباها كان مصرا على أن تنفذ ما أمرها به، حينئذ تقدمت فيرمينا داثا من النافذة مرتعبة شاحبة من غضبة أبيها، وقدمت قدمها اليمنى، وبأطراف أصابعها رفعت تنورتها قليلا، واعتذرت للدكتور في شكل مسرحي قائلة له:

- أقدم لك اعتذاري، وأسفي البليغ أيها الفارس النبيل.

فرد عليها الدكتور أوربينو مقلدا إياها في شيء من المرح، وهو يرفع قبعته الطويلة البيضاء شاكرا لها اعتذارها كأنه جندي ليس إلا، ولكنها لم تمنحه ابتسامة واحدة كما تمنى، ثم دعاه لورينثو داثا لشرب القهوة في غرفة المكتب كتعويض له عما حدث، وهو قبل مسرورا، حتى لا يشك أبوها في أنه لا يزال في نفسه شيء مما حدث.

وفي الأصل لا يشرب الدكتور أوربينو فنجان القهوة إلا على الريق، وعدا ذلك لا يشرب، كما لا يشرب الكحول عادة ، فقط كأس من الخمر أثناء الطعام في المناسبات المهمة، وهنا لم يقبل فقط بشرب القهوة، التي قدمها له لورينثو داثا، وإنما رضى كذلك بأن يشرب معه كأسا من العرق، بل وقبل فنجانا آخر وكأسا أخرى، ثم آخر وآخر، قبل بالشرب، رغم ما ينتظره من زيارات طبية معلقة، وهو في أول الأمر استمع بانتباه لكل ما كان ينتحله لورينثو داثا من اعتذارات لابنته، والذي أخذ يدافع عنها واصفا إياها بأنها طفلة ذكية وجادة، وتستحق أميرا من هنا أو من أي مكان، وعيبها الوحيد أن

لها شخصية البغلة ليس إلا، ولكن بمجرد أن عب الكأس الثاني من الخمر، أحس كأنه يسمع صوت فيرمينا داثا يبلغ أذنيه، وهى في أقصى فناء الدار، كل خياله كان يجري وراءها، وظل يتبعها بخياله حتى حينما جن الليل على الدار، وأضاءت المصابيح الموجودة في الطرقة، وهى ترش مبيد الحشرات في غرف الدار، وهى ترفع غطاء القدر، التي تحوي الحساء، الذي ستشربه مع أبيها هذه الليلة. وحينما جلسا، فيرمينا وأباها، أخيرا وحدهما على المائدة لم يرفعا نظرهما إلى بعضهما، ولم يشربا حساءهما حتى لا يربكا تلك الضغينة، التي بينهما، إلى أن استسلم أباها لها أخيرا، وطلب منها أن تصفح عنه لصلافته وشدته في هذا اليوم.

الدكتور أوربينو كان يعلم جيدا كيف هن النساء ليدرك أن فيرمينا داثا لن تمر قط على غرفة المكتب، إلا حينما يخرج هو، ولكنه على كل حال تأخر في الرحيل، فهو يعلم كيف أن كرامتها المجروحة لن تتركها تعيش في سلام بسبب تلك الإهانات، التي تلقتها ذلك اليوم، ولورينثو داثا سكر إلى حد أنه لم ينتبه إلى أن الدكتور شارد عن كلامه غير مصغ إليه. هو فقط غير مكترث إلا بثرثرته، التي لا تنتهي، فالكلام ينطلق من فيه بسرعة وقوة ودون توقف، بينما يلوك بين أسنانه التبغ المطفأ، ومن حين لآخر يسعل سعالا شديدا قويا محاولا إخراج ما تحشرج في صدره من مخاط، قلق الحركة، بالكاد يستقر على مقعده المستدير، وكل ما فيه من سحَابات تزأر كأنها حيوان ضار متوحش، فهو في كل مرة يدعو ضيفه لكأس يشرب ثلاثة كؤوس، وفقط توقفت كلماته حينما أدرك أخيرا أن لا أحد يرى الآخر في هذا الظلام، فقام ليضيء الأنوار. حينها نظر إليه الدكتور أوربينو مباشرة على ضوء المصباح الساطع، فلاحظ أن لديه عينا منحرفة كأنها بالضبط عين سمكة، وأن ما ينطقه من كلمات لا يتناسب مع حركة شفتيه، وحسب أن هذا ليس إلا هلوسة منه في عقله لإسرافه في شرب الخمر. حينئذ نهض من مقعده، وفي نفسه شعور عجيب كأن جسده

ليس بجسده، وإنما هو جسد شخص آخر تماما يجلس على المقعد الذي كان جالسا عليه، وكافح بما تبقى فيه من قوة كي لا يفقد رشده.

كانت الساعة تعدت السابعة حين خرج من غرفة المكتب يتبعه لورينثو داثا، وكان القمر في هذه الليلة بدرا منيرا، وفي اكتمال بديع، وفناء الدار بدا في عينيه المخمورتين بالعرق كأنه رسم يلوح من بعيد داخل لوحة زيتية الألوان، بل وكذلك بدت أقفاص الطيور المحجوبة بقطع من القماش كأنها أشباح نائمة تحفها رائحة أزهار البرتقال المنعشة، وكانت نافذة غرفة الخياطة مفتوحة، ويلوح منها مصباح مشتعل فوق المنضدة، وألواح الرسم، التي لم تنته بعد،على حواملها، فمن يراها يحسبها معرضا للرسم، وفجأة إذا بالدكتور أوربينو يقول: «إنكِ تكونين حيث لا تكونين»، ولكنها لم تسمعه، ولم تكن لتسمعه، لأنها كانت في غرفة نومها تبكي من شدة حنقها وإحساسها بالقهر، بعد أن استلقت على بطنها على الفراش منتظرة أباها حتى ترد له ثمن هذا الذل، الذي أذاقها إياه، وظن هو بأنه لن يرحل إلا قبلما يودعها بنفسه، ولكن أباها لم يقترح عليه، واشتاق أن يرى براءة نبضها، أن يرى لسانها الجميل كأنه لسان قطة صغيرة، لأن يجس لوزتيها الطريتين، ولكن ما كدّره إحساسه بأنها لا تود رؤيته قط، وأنها لم ولن تسمح له بذلك أيضا، وحينما دلف لورينثو داثا إلى دهليز الدار، إذا بتلك الغربان فواحة الرائحة تطلق من تحت الغطاء، الذي أسدل على قفصها، صرخة حزينة مؤلمة. «سوف أقتلع عيونكم»، قال الطبيب بصوت عالٍ، وهو يفكر في فيرمينا، والتفت إليه أبوها ليسأله ماذا قال، فأجابه:

– لست أنا من قال هذا. خمر العرق هو الذي قال.

واصطحبه لورينثو داثا حتى عربته، وهو يحاول أن يعطيه بيزو من الذهب على زيارته الثانية، ولكنه لم يقبل، ثم أعطى لسائقه الأمر بأن يقوده إلى هذين المريضين، اللذين ينتظران زيارته، وصعد إلى عربته دون مساعدة من أحد، ولكن حينما سارت به العربة في الشوارع المبلطة، وبدأت تتقافز أحس بآلام،

فأمر السائق بتغيير طريقه، وفي مرآة العربة نظر لحظة إلى نفسه، فرأى أن خياله لا يزال يسبح معها. حينئذ هز كتفيه، وأخيرا تجشأ، ومال برأسه على صدره ونام، وفي منامه بدأ يسمع أصوات الأجراس تدق لتعلن حدادها على شخص ما. في البداية سمع أجراس الكاتدرائية، ثم بعد ذلك أجراس الكنائس كلها، حتى كنيسة سان خوليان أوسبيلاتاريو بأجراسها المكسورة سمع دقاتها. فهمس، وهو مستغرق في نومه:

- يا للفظاعة والقرف.. مات الأموات.

حين دخل البيت، كانت أمه وإخوته جالسات أمام مائدة الضيوف الموجودة في غرفة الطعام يأكلن عشاءهن، المكون من خبز الذرة المحشو بالجبن والقهوة، وإذا بهن يرونه يدخل ووجهه شاحب حزين، وكل ما فيه يقشعر من تلك الرائحة الكريهة، التي تشربتها ملابسة بسبب الغربان، ودُق أكبر جرس في الكاتدرائية الملاصقة لهم وانتشر رنينه المدوي في صحن الدار الفسيح، وسألته أمه فزعة: أين كان كل هذا الوقت، لأنهم كانوا يبحثون عنه في كل موضع كي يزور الجنرال إجناثيو ماريا، الحفيد الأخير للماركيز خارايث دي لا بيرا، والذي مات هذا المساء لنزيف في المخ، وهو هذا الذي كانت الكنائس جميعا تدق أجراسها من أجله. ظل منصتا إليها دون أن يسمع منها كلمة واحدة، ممسكا بإطار الباب، ثم إذا به يدور بجسده ليحاول الوصول إلى غرفة نومه، ولكنه سقط على وجهه مخرجا من فيه كل ما في بطنه من خمر الينسون. حينئذ هتفت أمه في هلع وجزع:

- أيتها العذراء. لا بد أن شيئا غريبا مر بك كي تأتي البيت بهذه الحالة المريعة.

ومع ذلك، يا ليت الأمر توقف عند هذا الحد، فالأغرب فعلا هو ما حدث بعد ذلك. استغل الدكتور أوربينو زيارة عازف البيانو المشهور «روميو لوسيتش» إلى البلدة، التي جاءها ليقوم بعزف مقطوعات موسيقية

على البيانو لموزارت، وبالسرعة نفسها، التي استعادت بها البلدة طبيعتها، بعد حدادها على الجنرال إجناثيو ماريا، أمر الدكتور أوربينو بوضع البيانو الخاص بمدرسة الموسيقى على عربة تجرها البغال، حيث تكون فيرمينا داثا، قام ذلك الموسيقار بعزف مقطوعة موسيقية من أجلها، مقطوعة انتشر خبرها بين الناس جميعا، واستيقظت هي مع الألحان الأولى للموسيقى، ولم تكن مضطرة حينها أن تنظر من فتحات الستارة لتعرف من هذا الذي يقوم بمثل تلك الفعلة الغريبة، والشيء الوحيد الذي لامت نفسها عليه أنها لم تكن تملك الجرأة، التي تتمتع بها الجريئات من البنات حين يصببن كل ما في المرحاض فوق رأس العشاق، الذين لا يرغبن فيهم، وعلى النقيض، ارتدى لورينثو داثا ملابسه على عجل، وحين انتهت المقطوعة أخيرا أصر أن يدخلا بيته، حيث تكون صالة الزوار، ودخلا بملابسهما الأنيقة الخاصة بالحفلات، وشكرهما على هذه الموسيقى بكأس من البراندي الفاخر.

وسرعان ما أدركت فيرمينا داثا أن والدها يحاول أن يرقق من قلبها عليه، ففي اليوم التالي من هذه الليلة الموسيقية إذا به يقول لها بشكل عارض: «تخيلي لو أن والدتك علمت بأن أحدا من أبناء أوربينو ديه لا كاييه يتمناك»، فردت بكل جمود: «لكانت ماتت مرة أخرى في تابوتها». حكت لها صديقاتها اللائي يرسمن معها أن أباها تمت دعوته للغداء في «النادي الاجتماعي» من قبل الدكتور خوبينال أوربينو، فكان هذا سببا لإنذار شديد اللهجة من النادي لأنه بذلك يخالف قواعد وتقاليد النادي، فعلمت فيرمينا بأن أباها حاول أكثر من مرة الانضمام إلى «النادي الاجتماعي»، وفي كل مرة كان طلبه يقابل بالرفض العنيف لدرجة لا تصلح معها محاولة أخرى، ولكن مع هذا تحمّل والدها كل ذلك بقلب صاف، وكان يخترع الصدف كي يلتقي به، وهو لا يعلم أن الدكتور خوبينال أوربينو يرغب في لقائه أكثر منه، وكانا أحيانا يقضيان ساعات يتحدثان في غرفة المكتب، والدار كلها تصير معلقة

كأنها على هامش زمن آخر، وذلك لأن فيرمينا داثا لم تكن تسمح لشيء بأن يأخذ دورته، وهو موجود. كانت مقهى «لا باروكيا» حلا وسطا للقائهما معا. في ذلك المكان تعلّم الدكتور خوبينال أوربينو على يد لورينثو داثا الدروس الأولى في الشطرنج، وكان تلميذا شديد الاجتهاد، كما كان شديد الوله به، حتى اكتسحه وسيطر عليه لآخر يوم في حياته.

وبعد أيام قليلة من تلك الليلة، التي عُزفت فيها المقطوعة الموسيقية على البيانو، وجد لورينثو داثا ليلا في دهليز الدار ظرفا مختوما بالشمع الأحمر موجها إلى ابنته، وعليه الإمضاء المختصر للدكتور، مكتوبا بالشمع الأحمر أيضا. أخذ الظرف ورماه أسفل عتبة باب غرفة نومها حين مر أمامها، وهى لم تفهم كيف وصل ذلك الظرف إلى غرفة نومها هكذا، فأمر لا يعقل بالنسبة لها أن يكون والدها تغير وتبدل إلى هذا الحد كي يوصل لها رسائل عشاقها. وضعت الظرف على الكومودينو، وهى لا تعلم حقا ماذا تفعل به، وظل الظرف كما هو في مكانه لأيام لم تفتحه، إلى أن كان في عصر أحد الأيام الممطرة حلمت بأن خوبينال أوربينو جاء إلى بيتها ليهديها تلك العصا، التي فحص بها حنجرتها، ولم تكن العصا من الألومنيوم، وإنما من معدن لذيذ الطعم تذوقته لأكثر من مرة في أحلامها، حتى أنها كسرت العصا نصفين، وأعطته النصف الأصغر.

وفتحت فيرمينا الظرف أخيرا حين استيقظت، ووجدت الرسالة التي بداخلها بسيطة للغاية وكلامها مختصر منسق، والحاجة الوحيدة، التي كان يرجوها هي أن تطلب الإذن من أبيها لتسمح له بزيارتها. تأثرت ببساطتها وبصدقها وجديتها، وفجأة انطفأ كل هذا الحنق، الذي ظلت ترعاه باهتمام شديد لأيام متواصلة، ثم وضعت الرسالة في علبة لا نفع منها في قاع الصندوق، ولكنها تذكرت أيضا أنه في هذا المكان نفسه كانت تحفظ رسائل فلورنتينو أريثا المعطرة، حينئذ أخرجت الرسالة من تلك العلبة لتضعها في

مكان آخر، وهى تشعر بخجل شديد يسري فيها. حينئذ، خطر على بالها أن تعتبرها كأنها لم تتلقاها من الأصل، فأحرقتها على ضوء المصباح، وهى ترى كيف يذوب وينصهر ما فيها من شمع أحمر، وتتحول قطراته إلى فقاعات زرقاء من أثر اللهب، ثم تنهدت قائلة: «رجل مسكين». على الفور أدركت أن هذه المرة الثانية، التي تقول فيها هاتين الكلمتين، وفي خلال ما يزيد على عام بقليل، وللحظة أتى على بالها فلورنتينو أريثا، وهى نفسها مندهشة، كم هو الآن بعيد عن حياتها كل البعد: فعلا رجل مسكين.

وفي شهر أكتوبر، حيث تهطل آخر زخات المطر، وصلتها ثلاث رسائل، وجيء مع الرسالة الأولى بعلبة صغيرة تحوي أقراص البنفسج ماركة «أباديا ديه فلافينج»، أما الرسالتان الأخريان فقام بتسليمهما عند بوابة الدار سائق عربة الدكتور خوبينال أوربينو، الذي قام بتحية الخادمة جالا بلاسيديا من نافذة العربة، وذلك حتى لا يكون ثمة أي شك في أن هذه الرسائل من أجلها فقط، وثانيا حتى لا يقول له أحد إن رسائله لم تتسلمها هي منه، والرسالتان كانتا موقعتين بالحروف الأولى من اسمه بالشمع الأحمر، ومكتوبتين بخط غريب غامض تعرفه فيرمينا داثا جيدا، خط الأطباء، وكلتاهما ذكر فيهما باختصار ما كان مذكورا في أول رسالة، وكانتا مكتوبتين أيضا بنفس الروح المتوسلة الذليلة الراجية، ولكن رغم ما فيهما من أدب ولباقة، إلا أنها استطاعت أن تستشف من طياتهما نهما واشتياقا لم تجدهما أبدا في رسائل فلورنتينو أريثا شديدة الشح والتقتير، وقرأت فيرمينا رسائله بسرعة شديدة مثلما تسلمتها بسرعة أيضا، وبين كل رسالة نحو أسبوعين تقريبا، وحينما أوشكت أن تحرقهما مثلما أحرقت الرسالة الأولى، إذا بها تغير رأيها مرة واحدة ودون أي سبب، ومع هذا، لم تفكر أبدا في الإجابة عليهما.

والرسالة الثالثة، التي كانت في شهر أكتوبر نفسه تم تمريرها من أسفل بوابة الدار، محتواها مختلف تماما عن سابقتيها. الكلام الذي فيها مكتوب بخط صبياني للغاية ولا شك في أنه مكتوب باليد اليسرى، وهى لم تدرك ذلك

فقط، إلا عندما رأت الكلام نفسه الذي تجهل هوية كاتبه، وواضح تماما أن من كتبها يعرف تماما ما بينها وبين الدكتور خوبينال أوربينو من علاقات وتواصل وارتياح مبدأي بينهما، وهو من افتراضه هذا انتهى تحليله إلى الشر كل الشر، فختم كلامه قائلا: إنه إذا لم تتخلّ فيرمينا داثا عن رغبتها في التواصل مع أكثر من تطمع فيه بنات المدينة جميعها، فحتما سوف تعرض نفسها للإحراج أمام الجميع.

حينها أحست فيرمينا داثا أنها ضحية ظلم قاهر، ولكن رغم هذا لم يكن رد فعلها انتقاميا كما هو متوقع، بل كان على العكس تماما. أرادت أن تعرف كاتب هذا الكلام المجهول كي تقنعه بأكثر من برهان ودليل وحجة دامغة، فهي واثقة ومتأكدة تماما أن مهما كان السبب فهي لم ولن تتأثر أبدا بهذا الكلام الرقيق من الدكتور أوربينو، وفي الأيام التالية تلقت أيضا رسالتين مجهولتين فيهما تخوين وشك، كما في الرسالة الأولى، ولكن كان واضحا أن كل رسالة يختلف كاتبها عن الآخر، أو بالأحرى هي ضحية تآمر ما، أو أن من يكتب هذه الرسائل لديه روايات خاطئة ومزيفة عنها، وعن أن لها حبها السري، وأنه ذهب لدرجة أبعد مما كانت تتوقع. وما أقلقها أن يكون كل هذا إنما نتيجة فضفضة أو زلة لسان من الدكتور خوبينال أوربينو، ونتيجة لعدم كتمانه الأمر، وخطر على بالها أن الدكتور ربما يكون مختلفا تماما عما هو عليه من مظهر شريف نبيل، وأنه ربما زل لسانه في زيارة من زياراته، أو ربما تفاخر بما في خياله من شطحات، ككثير غيره ممن هم في طبقته الاجتماعية، وفكرت في أن تكتب له لتلومه وتوبخه على إهانته لشرفها، ولكنها في الآخر عدلت عن هذه الفكرة، فربما يكون هذا هو عين ما يريده منها أصلا، وحاولت أن تستخبر شيئا من صديقاتها علهن يعرفن شيئا ما، ولكن كل ما يعرفنه هو حادث المقطوعة الموسيقية، وما نالته من استحسان الناس وكلام رقيق لطيف. حينئذ أحست بالغضب والعجز والذل، وها هي، التي كانت تود ملاقاة ذلك العدو المجهول وجها لوجه كي تقنعه بخطأ وجهة نظره، تود لو أنها تقطعه بمقص التشذيب.

وقضت ليالي من العذاب والأرق والسهاد تفكر وتقوم بتحليل كل التفاصيل والتعبيرات، التي في تلك الرسائل المجهولة، وفي نفسها أمل واهم بأن تجد خيطا رفيعا يوصلها إلى هوية كاتب كل رسالة، وطبعا لم يكن هذا إلا وهما من أوهامها، فهى بعيدة كل البعد عن طبيعة العالم الداخلي لآل أوربينو ديل كاييه، ولديها فعلا الأسلحة لتدافع عن نفسها بشرف، ولكنها أبدا لا تعرف اللجوء إلى تلك الوسائل الخبيثة كي تدافع عن نفسها.

وما أثار حفيظتها أكثر تلك الدمية السوداء، التي وصلتها خلال هذه الأيام بدون أن يرفق معها أي رسالة، ولكن بدا لها أن مصدر هذه الدمية سهل تخمينه. فقط الدكتور خوبينال أوربينو هو الوحيد الذي يستطيع أن يبعث شيئا كهذا، ووفقا للبطاقة الملصقة على هذه الدمية فإنه تم جلبها من جزر مارتينيك في فرنسا، وعليها ملابس لطيفة، وشعرها مموج مزين بخيوط رقيقة في لون الذهب، وتغلق عينيها حين تمددها في وضعية النوم. حينئذ بدت الدمية لفيرمينا داثا ممتعة مسلية لها جدا حتى أنها تغلبت على ترددها ووساوسها، وأنامتها على وسادتها طوال اليوم، بل إنها صارت لا تنام إلا وهى بجانبها، وبعد مدة من الزمن، رأت فيرمينا داثا، بعد نومة مؤرقة، الدمية تكبر وتكبر، فما جيء مع هذه الدمية من ملابس أنيقة رائعة صارت صغيرة عليها حتى تكشّف عن ساقيها، وحذاؤها من صغره على قدميها أخذ يتمزق، وفيرمينا داثا كثيرا ما سمعت عن مثل هذا السحر الإفريقي، ولكن لم تر في حياتها شيئا مرعبا أكثر مما رأته، ومن ناحية أخرى، لا يمكن أبدا لشخص مثل الدكتور خوبينال أوربينو أن يكون قادرا على فعل مثل هذه الشناعة، ولديها الحق كل الحق، فهذه الدمية لم يأت بها إليها السائق الخاص بالدكتور خوبينال، وإنما أحد هؤلاء البائعين الجائلين، الذي يبيعون الجمبري، وهؤلاء لا يمكن أبدا أن يمسكهم أحد أو يعرف مكانهم، وللحظة فكرت فيرمينا في أنه ربما يكون فلورنتينو أريثا، بما لديه من غموض مخيف، ولكنها مع الوقت أدركت خطأ

ظنها، وهى لم تفهم أبدا هذا اللغز الغريب، بل وأن مجرد استحضارها لهذا المشهد يثير الرعب في قلبها، وظلت على هذا زمنا طويلا حتى بعد زواجها، وبعدما صار لها ابنان، وأيقنت بأنها المختارة فعلا لتكون أسعد إنسانة في الدنيا.

والمحاولة الأخيرة من الدكتور خوبينال أوربينو كانت حشر الراهبة فرانكا ديه لا لوث لتتوسط فيما بينهما، وهى نفسها، التي تدير مدرسة «لا بريسنتاسيون ديه لا سانتيسيما فيرجين»، والتي لم تستطع أن ترفض طلبا لعائلة لها أفضال كثيرة على مجتمعها منذ وجودها في الأمريكتين، وجاءت ومعها راهبة جديدة في التاسعة صباحا، وظلتا نحو نصف ساعة يستمتعان بالنظر إلى أقفاص الطيور، بينما تنتهي فيرمينا داثا من استحمامها. تلك الراهبة لم تكن إلا امرأة ألمانية المنشأ، رجولية المظهر لها صوت معدني غريب، ونظرة آمرة مريعة، مظهرها كله ليس له أي علاقة بعواطفها الصبيانية الطفولية، ولا شيء في هذا العالم تكرهه فيرمينا مثلما تكره تلك الراهبة، فماذا لو اضطرت أن تقابلها، وهى لمجرد أن يأتي على بالها فقط حنانها المزيف تحس بكراهية شديدة نحوها تعصر قلبها عصرا كأن في أحشائها عقربا ساما، وكفاها أن تتعرف عليها وهى عند باب الحمام حتى يأتي على بالها مرة واحدة العذاب والهوان، الذي قاستهما في المدرسة، نومها المؤرق القلق قبل قداسها اليومي المفروض عليها فرضا، الخوف والضغط اللذان كانت تحس بهما قبل الامتحانات، الحب المزيف، الذي كانت تراه في عيني الراهبات الجدد، باختصار حياتها كلها كانت في ذلك الوقت تدور في فقر روحي لا نهاية له. على النقيض، حيّتها الراهبة فرانكا ديه لا لوث، وسلمت عليها بسرور بدا صادقا لا مراء فيه، واندهشت أيما دهشة من مستوى البلوغ، الذي وصلته فيرمينا، ومن نضجها ورجاحة عقلها، وأشادت كثيرا بحسن تنظيم الدار وشئونها، وبذوقها الرفيع في تنسيق الفناء، وتلك المجمرة، التي تفوح

منها رائحة زهر البرتقال، وأمرت الراهبة فرانكا الراهبة الجديدة، التي أتت معها بأن تنتظرها هناك، وألا تقترب كثيرا من قفص الغربان، فإنهم قد يقتلعون عينيها في غفلة منها، ثم بحثت عن ركن خالٍ لتتحدث على انفراد مع فيرمينا، التي دعتها بدورها للجلوس في صالة البيت.

كانت زيارة مختصرة للغاية ومفاجئة وجافة، فالراهبة فرانكا ديه لا لوث لم تبدد وقتها في التمهيدات والمقدمات، ودخلت مباشرة مباشرة في الموضوع، الذي جاءت من أجله، عرضت على فيرمينا أن تدخل في فترة إعادة تأهيل تشرفها، وترفع من قدرها واعتبارها، وسبب طردها، الذي كان من قبل، ولم يُمح فقط من سجل أفعالها، وإنما المدرسة كلها نسيت الأمر برمته كأنه لم يكن، وعلى هذا فإنه يمكنها أن تنهي دراستها، وتحصل على دبلومة الفنون، وفي خضم ما اعتراها من حيرة سألتها عن الدافع وراء كل هذا، فقالت لها الراهبة:

- هذا ليس إلا رغبة من شخص يستحق الشكر كل الشكر، وكل ما يريده هو إسعادك. أتعرفين من هو؟

حينئذ فهمت فيرمينا كل شيء، وسألت نفسها بأي حق أباحت هذه الراهبة لنفسها بأن تكون وسيطة حب، هي التي عذبتها كل هذا العذاب فقط لأنها وجدتها تقوم بكتابة رسالة بريئة. فكرت فيرمينا في كل هذا، ولكنها لم تجرؤ أن تنطق بكلمة واحدة أمامها. على العكس، قالت إنها فعلا تعرف من هو هذا الشخص، وإنه في الوقت نفسه لا يحق له أن يتدخل هكذا في شؤون حياتها، التى تخصها هي وحدها.

قالت الراهبة :

- كل ما أرجوه منك فقط أن تسمحي له بالكلام معك لخمس دقائق فحسب، وأنا واثقة أن أباك موافق على هذا.

حينئذ أحست فيرمينا داثا بالغضب يشتد ويعلو إلى رأسها لمجرد أنها

علمت بأن أباها متواطئ أيضا في هذا الموضوع، وقالت لها:

– لقد رآني مرتين حين كنت مريضة، والآن ليس هناك أي سبب لنرى بعضنا.

فقالت لها الراهبة:

– أمر طبيعي جدا لأي واحدة لديها عقل على الأقل أن يكون رجل مثل هذا هدية من السماء بالنسبة لها.

وراحت تتحدث عن شمائله ومآثره، وعن ورعه وتقواه، وتقديسه لعلاج الضعفاء والمتألمين وخدمتهم، وبينما تتكلم أخرجت من كمها عقدا من الذهب عليه صورة المسيح منحوتة على عاج الفيل. أخرجته وظلت تحركه أمام عيني فيرمينا. العقد كان مما تبقى من ميراث العائلة، إذ يبلغ عمره أكثر من مائة سنة، ومن قام بصنعه ونقشه صائغ معروف من بلاد نهر «السين»، والبابا كليمينت الرابع بارك العقد بنفسه.

وقالت لها:

– إنه ملكك الآن.

شعرت فيرمينا بالدم يفور في عروقها، ثم تجرأت وقالت لها:

– أنا فعلا لا أفهم كيف لراهبة مثلك أن تقوم بمثل هذا الأمر، وأنت أساسا تعتقدين بأن الحب شيء آثم.

أحست الراهبة بحنق شديد، ولكنها كتمته ولم ترد، رغم تقطيب حاجبيها الواضح الجلي . كل هذا وهي لا تزال ممسكة بالعقد تهزه أمامها. قالت لها:

– الأفضل لك أن تتفاهمي معي الآن، فلا بد أنه سوف يأتي بعدي السيد مطران الكنيسة بنفسه، والأمور معه تختلف تماما.

فأجابتها فيرمينا:

– ليأتِ إذن.

وأخفت الراهبة العقد مرة أخرى في كمها، ومن الكم الآخر أخرجت

منديلا باليا من كثرة استعماله، كورته في يدها، وأبقته في قبضتها، وهى تنظر إلى فيرمينا، وعلى شفتيها ابتسامة شامتة. قالت لها:

- يا لكِ من مسكينة، ألا تزالين تفكرين في هذا الرجل؟

كظمت غيظها، وابتلعت إهانتها محدقة في عيني الراهبة بثبات وتحدٍّ، ودون أن تنطق بكلمة واحدة، وظلت كذلك صامتة مغيظة تنظر إليها مباشرة حتى رأت بنفسها ما شفى غليلها، رأت تلك العينين الرجوليتين تسح بالدموع. حينئذ مسحت الراهبة دموعها وقامت من مقعدها، وقالت لها:

- لديه حق والدك عندما قال إنك بغلة عنيدة.

ولم يأتِ المطران كما توقعت. بحيث أن ما كان من تضييق عليها وحصار انتهيا في ذلك اليوم، بالإضافة إلى أن ابنة خالها إيلديبراندا سانتشيث قررت أن تأتي إليها لتقضي معها أيام الاحتفال بأعياد الميلاد، وتغيرت حياتهما تغيرا كبيرا وقتها، وفي الساعة الخامسة فجرا استقبلوها، وهى تنزل من السفينة الشراعية الآتية من ريوآتشا، وسط فوضى عارمة من الركاب والمسافرين، الذين أنهكهم دوار البحر، ولكنها نزلت من السفينة نشيطة قوية كلها أنوثة وصحة، ولكن روحها معكرة قليلا بسبب تلك الليلة المشئومة، التي قضتها في البحر. جاءت ومعها صناديق تحوي طيور الديك الرومي الحية، وأخرى فيها ما فيها من تلك الثمار، التي تزرع هناك في أراضي بلدتها الخصبة الوفيرة، جاءت بكل هذا كي لا يحتاج أحد إلى الطعام أثناء وجودها، وكان أبوها، ليسيماكو سانتشيث أمرها بأن تسألهم إذا كانوا في حاجة إلى عازفين من أجل احتفالاتهم في عيد الفصح، ذلك أن لديه الكثير منهم تحت إمرته، وعلى أتم الاستعداد، ووعد أيضا بأن يرسل حمولة تحوي كمية كبيرة من الألعاب النارية، كما أخبرهم أيضا بأنه لن يستطيع المجيء لأخذ ابنته قبل شهر مارس، وعلى هذا فهي لديها وقت بما فيه الكفاية كي تقيم معهم وتستمتع.

ولم تنتظر الفتاتان، بل بدآ حياتهما العادية فورا، فمنذ أول يوم استحما مع

بعضهما، وتعرا أمام بعضهما، وكل واحدة قامت بتنظيف الأخرى وتطهيرها بماء البركة. كل واحدة تساعد الأخرى في الاغتسال بالصابون، وتنظيف الأخرى من القمل وبيوضه، وتقارنان في نفس الوقت بين عجيزتيهما، وثدييهما الثابتين، كل منهما تنظر إلى الأخرى وتتأمل لترى كم فعل الزمن بهما منذ آخر مرة رأيا فيها بعضهما عاريتين، وكانت إيلديبراندا ضخمة الجسد، جلدها ذهبي اللون، ولكن كل شعر جسمها أسمر اللون قصير وملتف على بعضه كأنه مجموعة من الأسلاك المتداخلة، أما فيرمينا داثا، فعلى العكس تماما منها، فهى في عريها شاحبة ضامرة، كل خطوطها طويلة، وجلدها رائق ناصع، وحتى ما فيها من شعيرات خفيفة ذابلة ذاوية.

وكانت الخادمة جالا بلاسيديا وضعت لهما سريرين متماثلين في الغرفة نفسها، ولكنهما أحيانا ينامان على سرير واحد، ويظلان يتحدثان طوال الليل والأضواء مطفأة إلى مطلع الصباح، وكلاهما تدخنان سيجار الباناتيلا الرفيع الطويل الخاص بقطاع الطرق، جلبته معها إيلديبراندا، وأخفته في بطانة صندوقها، وكانا بعد التدخين يحرقان الأوراق العطرة المجلوبة من أرمينيا كي يخفياً رائحة السيجار من غرفتهما. تذوقت فيرمينا هذا السيجار لأول مرة وهى في بايدوبار، وظلت تشربه وتدخنه، وهى في فورنيسكا، ثم في ريوآتشا، حيث كانت تنغلق على نفسها هي وعشرة من بنات أخوالها، ويمكثن يدخن في الخفاء، ويتحدثن عن الرجال كما يحلو لهن، بل وتعلمت أيضا أن تدخن بطريقة عكسية، حيث تبقي الجزء المشتعل داخل فمها، تماما كما يدخن الرجال في ليالي الحرب، وذلك حتى لا يفضحهم لهيب السيجار ويكشف ما يفعلونه، وفي كل ليلة كانت تدخن مع إيلديبراندا قبل النوم، ومن هذا الحين اكتسبت عادة التدخين، عادة ظلت عليها حياتها كلها في الخفاء، حتى عن زوجها وولديها، وليس فقط لأنه من السيئ أن تدخن أمام الناس، وإنما أيضا لأنها تحس بلذة شديدة، وهى تدخن في سرية تامة عن أعين الناس.

وأصلا تلك الزيارة الطويلة من إيلديبراندا كانت فكرة من أفكار والديها كي يقصياها عن التفكير في حبها المستعصي، رغم أنهما جعلاها تظن بأنها مسافرة فقط لتساعد فيرمينا في العثور على عريس جيد يناسبها، فوافقت متوهمة بأنها أيضا يمكنها مواصلة الاتصال بحبيبها، مثلما فعلت فيرمينا، ولهذا فإنها اتفقت مع عامل التلغراف في فونيسكا ليتسلم رسائلها في سرية شديدة، ولهذا صُدمت حين علمت بأن فيرمينا بالفعل هجرت فلورنتينو بمحض اختيارها، وإيلديبرانادا لديها مفهوم عام عن الحب لا تحيد عنه، فهي تظن أن شيئا يحدث لحب الواحد لا بد أن يؤثر على حب الآخرين في العالم كله، ورغم ذلك، لم تتخلّ عن تفكيرها ونيتها، بل إنها ذهبت وحدها، وبجرأة أفزعت فيرمينا، إلى مكتب التلغراف، وفي نيتها أن تستميل عطف فلورنتينو.

فوجئت، وأقرت بأنها فعلا رأت شخصا آخر تماما لما كوّنته في خيالها من الكلام، الذي قالته عنه فيرمينا داثا، فمن النظرة الأولى بدا لها أنه فعلا لا يناسب أبدا فتاة مثل فيرمينا، بل إنه غير معقول البتة أن تُجن به فتاة مثلها، وهو هذا الموظف، الذي يكاد لا يلتفت إليه أحد، بل إن مظهره العام يوحي لمن يراه بأنه مجرد كلب ذليل يضربه كل الناس، وحتى تلك الفخفخة، التي يتحلّى بها كأنه حاخام يهودي، وحتى حركاته، التي فيها ما فيها من احترام ووقار لا يمكن أبدا أن تؤثر بقلب واحدة أيا كانت، ولكن ما لبثت أن ندمت على انطباعها الأول عنه، فهو ما إن رآها حتى سارع لمساعدتها بلا شروط وبلا قيود مع أنه لا يعرفها أصلا ولا يعرف أنها ابنة خال فيرمينا، ولم يكن سيفهمها أحد كما فهمها هو، وعلى هذا فإنه لم يطلب منها أن تعرف نفسها ولم يطلب منها حتى أي عنوان، وكل ما أراده كان سهلا بسيطا لا صعوبة فيه، وهو أن تقضي فقط عصر كل يوم أربعاء من كل أسبوع في المكتب كي يسلمها بنفسه الردود، التي تنتظرها.

ومن ناحية أخرى، فإنه حين قرأ الرسالة، التي كانت إيلديبراندا تحملها

ليوصلها هو، استأذنها أن تسمح له بأن يجري بعض التعديلات المقترحة منه على رسالتها، وسمحت له. حينئذ قام أولا بكتابة ما أراد تصحيحه فوق سطور رسالتها، وألغى منها أشياء، وعاد يكتبها مرة أخرى بشكل صحيح، وأخيرا قطع الورقة، وكتب رسالة أخرى تماما عن التي كتبتها، بدت لها مؤثرة للغاية لدرجة أنها بالكاد كانت تحبس دموعها كي لا تنهال، وهى خارجة من مكتب التلغراف.

وحين وصلت الدار قالت لفيرمينا:

- نعم، إنه قبيح وحزين جدا، ولكنه الحب كل الحب.

وأكثر ما جذب انتباه إيلديبراندا إلى فيرمينا تلك الوحدة المقيتة، التي تحياها، حتى أنها ذات مرة قالت لها إنها تشبه تماما امرأة عانسا تبلغ من العمر عشرين عاما، وإيلديبراندا أساسا تعودت أن تعيش في بيت أفراد عائلة لا يحصى عددهم، حتى أن بعض بيوتهم لا تعرف بالضبط كم شخصا يعيش فيها، ولا حتى من يأكل هناك في كل مرة، لهذا لا يمكنها أبدا تخيُّل أن ثمة فتاة بمثل سن فيرمينا تعيش في دير وتحيا حياة خاصة بهذه الطريقة الغريبة. فحياتها تعيشها هكذا: من أول استيقاظها في الساعة السادسة صباحا إلى لحظة إطفاء النور في غرفتها لتنام، أقدس شيء عندها هو تضييع الوقت ليس إلا، فحياتها ليست بيدها، وإنما تُفرض عليها فرضا من خارج الدار. بداية من صياح الديكة، وبائع اللبن، الذي يطرق بوابة الدار، حينئذ تستيقظ على صوت الطرقات وتنهض من سريرها، ثم بعد ذلك تأتي بائعة السمك وتطرق البوابة، ومعها صندوق كبير يحوي أسماك القجّاج، وعليها ما عليها من الطحالب الخضراء، ثم تلك البائعات الزنجيات اللاتي يرتدين الفخم من الملابس، ويبعن البقل والخضراوات الخاصة ببلدة ماريا لا باخا، وفواكه مدينة سان خاسينتو.

ثم بعد ذلك، خلال النهار كله يأتي الجميع ليطرق بوابة الدار: الشحاذون، وبائعات اليانصيب، والحدادون ومعهم الناي، والراهبات الطالبات للصدقة،

وهؤلاء الذين يشترون الزجاجات والذهب الكسر وورق الجرائد، ونساء الغجر اللائي يعرضن قراءة البخت من أوراق اللعب أو قراءة الكف أو فنجان القهوة، أو حتى قراءة الطست بما فيه من ماء مترسب، والخادمة جالا ذاهبة آتية تفتح البوابة وتغلقها لتقول لهم لا، وعليهم أن يعودوا يوما آخر، أو أن تصيح بهم في قوة وغضب شديد أن يكفوا عن إزعاجهم المستمر، وأنها اكتفت منهم جميعا، واشترت كل ما تحتاجه الدار، فلا حاجة لها بما يعرضونه عليها، والحقيقة أن جالا بالفعل احتلت مكانة العمة إسكولاستيكا بنشاطها الأخاذ، ولطفها الشديد، حتى أن فيرمينا نفسها خلطت بينهما وأحبتها فعلا، ومشكلة جالا أن لديها وسواس الاستعباد، فبمجرد أن تجد نفسها في وقت فراغ تهرول مسرعة إلى غرفة العمل لتقوم بكي الملابس البيضاء وتطبقها جيدا، ثم تحفظها في الدولاب، وتضع معها ورود الخزامي المعطرة، ولم تكن حتى تكوي وتطبق ما غسلته للتو من ملابس، وإنما كانت تكوي وتطبق الملابس، التي فقدت رونقها من قلة الاستعمال، بنفس الحرص والتفاني كانت تقوم بكل هذا مع الملابس الخاصة بفيرمينا سانتشيث، والدة فيرمينا، التي ماتت أصلا منذ أربعة عشر عاما، ولكن فيرمينا كانت تقوم بتحديد كل ما يلزم من شئون البيت، فهى التي تحدد ما سيأكلونه في هذا اليوم، وما ينبغي شراؤه، وكل ما ينبغي فعله في كل شيء، وبهذه الطريقة كانت تحدد وتقرر الحياة في هذه الدار، التي لا يصعب فيها شيء، وحينما تنتهي من تنظيف وغسل جميع أقفاص الطيور، وتضع لها الطعام، وتتأكد تماما أن لا شيء في الدار في حاجة إلى تنظيف أو غسل، حينها تمكث وحدها وتحس بفراغ شديد، ولهذا كانت كثيرا ما تمتد قيلولتها إلى اليوم التالي، وهذا بعدما طُردت من المدرسة، ودروس الرسم، التي تتعلمها لم تكن إلا مجرد وسيلة لملء فراغها.

وعلاقة فيرمينا بأبيها خلت كثيرا من العطف والحنان، بعد رحيل العمة إسكولاستيكا، رغم أن الاثنين وجدا الطريقة، التي يتعايشان بها دون أن يزعج أحدهما الآخر، فهى حين تستيقظ، يكون والدها ذهب إلى عمله، وقليلا جدا

ما يخالف عادة أكل الغداء معها، رغم أنه أصلا بالكاد يأكل، وفقط يكتفي في طعامه بما يأكله من مقبلات ومشهيات قشتالية موجودة في مقهى لا باروكيا. أيضا لم يكن يأكل عشاءه، فتترك له حصته من الطعام في طبق مغطى بطبق آخر، مع أنه لن يأكله إلى صباح اليوم التالي، بعدما يعاد تسخينه ليأكله في إفطاره، ولمرة واحدة في الأسبوع يعطيها النقود لتنفق على احتياجات الدار، نقود يعدها بحرص وتأن شديدين، وتنفقها فيرمينا بذكاء وحرص، ولكن أباها، رغم هذا كان يدفع لها عن طيب خاطر أي مال تطلبه من أجل أي نفقات طارئة، ولم يكن يدقق معها نهائيا في النقود، أو حتى يحاسبها فيما أنفقتها، ولكنها كانت تسلمه كشفا بما اشترته كأنها بالضبط أمام محكمة تفتيش، كما أنه أبدا لم يحك لها عن سمة شغله وحجمه بالضبط، وأيضا لم يأخذها معه يوما ليريها مكاتبه الموجودة في الميناء، مكان ممنوع على السيدات النبيلات في مثل سنها، رغم أنهن دائما يكن في صحبة آبائهن، وهو لا يصل إلى البيت إلا بعد الساعة العاشرة ليلا، التي كانت في ذلك الوقت الساعة المخصصة لحظر التجوال في الفترات، التي تكون فيها الحرب على أخف ما تكون، ويظل كل هذا الوقت في مقهى لا باروكيا، يلعب ما شاء له أن يلعب من صنوف اللعب، فهو حقا خبير في كل أنواع هذه الألعاب الخاصة بالصالونات، بل إنه حقا أستاذ فيها، ودوما يصل بيته صاحي الذهن، دون أن يوقظ ابنته، رغم أنه حين يستيقظ يشرب العرق ، ويقضم بأسنانه طرف السيجار المطفأ، وطوال اليوم يشرب بعض الكؤوس على فترات متباعدة، ومع هذا، فذات ليلة أحست به فيرمينا، وهو يدلف إلى البيت. سمعت وقع خطواته المترنحة على درجات السلم، ثم وهو يلهث بشراهة أثناء مروره في طرقة الطابق الثاني، ثم إذا به يطرق براحة يده على باب غرفتها.

فتحت له، ولأول مرة في حياتها تحس برعب من عينه، منحرفة النظر، ومن طريقة كلامه الثقيلة والبطيئة في آن، قال لها:

– لقد أفلسنا. أفلسنا تماما، ها أنت تعرفين يا فيرمينا.

هذا كل ما قاله لها، ولم يعد لمثل هذا القول مرة أخرى، ولم يشر إليه لا من بعيد ولا من قريب، ولم يقل إذا كان فعلا هذا حقيقة أم لا، ولكن، فيرمينا أحست بأنها وحيدة تماما في هذا العالم بعد هذه الليلة المشئومة. أحست بأنها تعيش على حافة المجتمع، وزميلاتها القدامى، منذ أيام مدرستها، كن جميعا محرمات عليها، خصوصا بعد طردها غير المشرف، كما لم تكن تجاري أحدا من الجيران، وذلك لأن هؤلاء كانوا يعرفونها بلا أي ماض، وكانوا فقط يرونها بزي المدرسة الرسمي، كما أن عالم أبيها كله عالم تجار وحمّالين في السفن، ولاجئي حرب، وكل هؤلاء مكانهم في وكرهم الرسمي «مقهى لا باروكيا»، إنه عالم خاص بالرجال فقط، ولكن عموما في السنة الأخيرة لها أحست ببعض الراحة، وتخففت من شعورها بالوحدة قليلا بسبب دروس الرسم، وذلك لأن المعلمة كانت تفضل الدروس في مجموعات، وكانت تأتي معها بتلميذات أخريات إلى غرفة الخياطة الخاصة بفيرمينا، ولكن كن جميعهن من طبقات اجتماعية مختلفة، وكلهن غير صالحات، فكن بالنسبة لفيرمينا مجرد صديقات مؤقتات تنتهي صداقتهن بانتهاء الحصة.

وأرادت إيلديبراندا أن تفتح البيت للجميع، ودت لو تنعش هواءه، وتجلب إليه الموسيقيين، والصواريخ والألعاب النارية الخاصة بوالدها، وأن تقيم مهرجان رقص من المؤكد أنه سوف تثير حماس فيرمينا، ولكنها سرعان ما أدركت عدم فائدة كل هذا. والسبب بسيط: ليس هناك من تكون معه.

على كل، هي التي وضعتها على حافة الحياة. ففي عصر كل يوم، تأخذها إلى المدينة للتعرف على شوارعها، وذلك بعدما تنتهي من درس الرسم، وكانت فيرمينا داثا تريها الطريق التي كانت تسير فيها يوميا مع عمتها إسكولاستيكا، والمقعد، حيث كان يجلس فلورنتينو أريثا يدعي القراءة بينما يراقبها بعينيه، وأيضا تلك الأزقة، التي كان يتتبعها فيها، والمخابئ الخاصة برسائلهما، وذلك القصر المنذر بالشر، حيث فيه زنازين محكمة التفتيش،

والذي تحول فيما بعد، وأعيد بناؤه ليكون مدرسة «لا بريسنتاسيون ديه لا سانتيسما فيرجين»، التي تكرهها من كل قلبها، كما صعدا تلك الربوة الخاصة بمقبرة الفقراء، حيث كان فلورنتينو يعزف الكمان فوقها حسب اتجاه الرياح كي تسمعه، وهى متمددة على سريرها، ومن هناك رأتا بشكل مكتمل تلك المدينة الأثرية، بأسقفها المكسورة، وجدرانها المتآكلة، وأنقاض قلاعها بين الأدغال والآجام، وتلك الجزر التي لا تعد ولا تحصى، ويتميز بها خليجها، وتلك الأكواخ الخشبية البائسة، وما حول المستنقعات والبرك، إنها باختصار الكاريبي في أسوأ حالاته.

وليلة عيد الميلاد ذهبا لحضور القدّاس في الكاتدرائية، وجلست فيرمينا داثا على مقعد قريب بحيث تسمع، بأفضل شكل ممكن، تلك الموسيقى السرية، التي يعزفها فلورنتينو، وكشفت لابنة خالها الموضع، الذي رأت منه عينيه المريعتين عن قرب لأول مرة. وكانا يخاطران بالذهاب وحدهما إلى «البورتال ديه لوس إسكريبانوس»، ليقوما بشراء الحلوى، والاستمتاع بالنظر إلى ذلك الورق السحري المعروض في أحد المحلات هناك، وهناك أشارت لها فيرمينا إلى الموضع، الذي اكتشفت فيه فجأة أن حبيبها هذا لم يكن إلا سراب. لم تكن تدرك حينها أن كل خطوة من بيتها إلى مدرستها، كل موضع في هذه المدينة، كل لحظة من لحظات ماضيها القريب غير موجودين إلا بفضله هو، فلورنتينو، وفعلا أخبرتها إيلديبراندا بذلك، ولكنها لم تقر بذاك، لأنها أصلا غير مقرة بواقع فلورنتينو، فهو في الحلوة والمرة إنما مجرد حدث مر في حياتها، وفقط.

وفي تلك الأيام جاء إلى المدينة مصور بلجيكي أقام أستوديو تصوير له عند مدخل «البورتال ديه لو إسكريبانوس»، كل حرفته أن يصنع صورة لمن يدفع له، وكانتا من أوائل زبائنه، حينئذ قاما بإخلاء جميع ما في دولاب أمها، فيرمينا سانتشيث، من ملابس، وراحا يقتسمان الثياب الأكثر فخامة،

والشمسيات، والأحذية الحريمي الخاصة بالحفلات، والقبعات، ثم ارتديا هذا اللبس، فبدتا كأنهما سيدتان من منتصف القرن، وساعدتهما جالا بلاسيديا ليربطا الكورسيه على جسديهما، وعلمتهما كيف يتحركان داخل الهيكل السلكي في تنورتيهما المنتفختين، وألبستهما قفازيهما، وقفلت أزرار حذائهما عالي الكعب، طويل الرقبة، وفضلت إيلديبراندا قبعة عريضة مزينة بريش النعام يمتد إلى ظهرها، أما فيرمينا ففضلت قبعة أخرى أكثر موضة من الأخرى مزينة بفواكه صناعية ملونة وبأزهار مصنوعة من شعر الحصان، ثم إذا بهما تسخران من بعضهما حين نظرا إلى نفسيهما في المرآة وشعرا بأنهما تشبهان كثيرا جداتهما الموجودات في تلك الصور القديمة للغاية أيام وجود كاميرا الداجيرية، كما أحسا وقتها بسعادة غامرة والضحك يقتلهما قتلا، ثم انطلقا من البيت ليأخذا صورة العمر. رأتهما جالا بلاسيديا من شرفتها، وهما يجتازان الحديقة، وكل منهما تحمل شمسيتها المفتوحة، وبالكاد يستطيعان المشي بحذائهما ذي الكعب العالي للغاية يدفعان تنورتيهما الكبيرتين دفعا، بل إنهما يتحركان فيها كأنها مشّاية طفل، حينئذ دعت لهما وباركتهما كي يوفقهما الله في صورة حلوة يفرحان بها.

وجدا أمام أستوديو التصوير زحاما كبير، لأن المصور كان مستغرقا في تصوير بيني سينتينو، الذي كسب خلال هذه الأيام بطولة الملاكمة في باناما، وكان يرتدي حينها البنطال الخاص بالملاكمة، واضعا القفازين في يديه، وعلى رأسه إكليل من الأزهار، ولم يكن من السهل تصويره لأنه لا بد عليه أن يبقى في وضعية الهجوم لدقيقة كاملة، بل وعليه أن يحبس تنفسه قدر الإمكان، وبمجرد أن يرفع ذراعيه إذا بمحبيه والمتعصبين له يضجون بالتهليل له، وهو لا يستطيع مقاومة إغراء إظهار بعض ما عنده من مهارات وفنون القتال أمامهم، وحين أتى عليهما الدور تلبدت السماء بالغيوم وثمة نذير وشيك بهطول المطر، ورضيا بأن تُرش وجهيهما ببعض النشا ثم استندا

على عمود من المرمر، وبانا في وضعية طبيعية، واستطاعا أن يمكثا وقتا أطول من المعقول لا يقومان بحركة واحدة، وكانت الصورة. صورة أبدية خالدة، صورة العمر بحق، فحين ماتت إيلديبراندا في عزبتها في فلوريس دي ماريا، بعد أن ناهزت من العمر مائة عام تقريبا، وجدوا نسخة من تلك الصورة في دولاب ملابسها داخل غرفتها محشورة حشرا بين الملاءات جميلة الرائحة، وبجانبها بقايا آثار رسالة كانت تفكر في كتابتها، وكانت حروفها تآكلت بفعل السنين، أما فيرمينا داثا، فاحتفظت بنسختها لسنين طوال في الصفحة الأولى من ألبوم العائلة، ولكنها اختفت دون أن تعلم كيف ولا متى وصلت تلك الصورة إلى يدي فلورنتينو أريثا عبر سلسلة غريبة من الصدف غير المنطقية، بعدما ناهزا الستين من عمريهما.

الميدان الواقع أمام «البورتال ديه لو إسكريبانوس» ازدحم فيه جمع من الناس، حتى شرفات العمارات الموجودة فيه، وذلك حينما خرجا من الأستوديو ونسيا أن وجهيهما أبيضان من النشا، وأن شفتيهما مدهونتين بمرهم في لون الشوكولا، وأن ملابسهما لا تليق بمثل هذا الزمن، وإذا بالشارع كله يستقبلهما بالصفير والسخرية، وهما منزويتان على بعضهما يحاولان ما استطاعا أن ينأيا بنفسيهما عن تلك السخرية المريرة، وحينئذ شقت عربة تجرها خيول شقراء، ذهبية اللون، طريقها إليهما. حينئذ خفتت الأصوات تماما، وكل هؤلاء الناس العدوانيين تبعثروا في كل مكان، ولم يعد لهم أي أثر، ولم تنس إيلديبراندا في حياتها قط تلك النظرة الأولى حين وقعت عيناها على ذلك الرجل، وهو يبرز من العربة بقبعته العالية المصنوعة من القماش الأطلسي، وصدريته الحريرية المقصّبة، واختلاجات شفتيه الخلابتين، وما تقطر من عينيه من حلاوة وعذوبة غير عاديتين، وما في حضوره من هيبة وقوة.

عرفت في الحال من هو هذا الرجل، مع أنها لم تره من قبل. كانت فيرمينا داثا حدثتها عنه بشكل عارض وبلامبالاة، ذات مساء من الشهر الفائت، بعد أن

رفضت المرور أمام بيت الماركيز كاسالدويرو، لمجرد أنها رأت تلك العربة، التي تجرها الخيول الذهبية رابضة أمام بوابة البيت، وشرحت لها وقتها من هو مالكها، ولماذا تستثقله، ولا تستلطفه أبدا، ولم تقل لها كلمة واحدة أبدا عن طموحاته وآماله فيها، وسرعان ما نسته إيلديبراندا، ولكنها بمجرد أن رأته بحضوره البهي الأسطوري، وهو عند باب العربة رجلا على الأرض والأخرى عند سلم العربة، لم تفهم أسباب استثقال فيرمينا له.

قال لهما الدكتور خوبينال أوربينو:

- اصنعا لي معروفا واركبا العربة، سوف أوصلكما إلى حيث تريدان.

فسارعت فيرمينا تحاول أن تظهر تحفظها، ولكن ابنة خالها وافقت على الفور. حينئذ نزل الدكتور إلى الأرض، وبأطراف أصابعه أصعدها إلى العربة، وهو بالكاد لم يلمسها، ثم وجدت فيرمينا أنه ليس أمامها حل آخر غير صعود العربة، فصعدت والخجل والحنق يكادان يقتلانها.

وكان البيت يبعد أربع كوادرات فقط، ولكنهما لم يدركا أن الدكتور خوبينال اتفق مع السائق سرا، وذلك لأن العربة تأخرت أكثر من نصف ساعة لتصل إلى الدار، مؤكد أنه اتفق مع السائق على هذا، بعد أن جلستا على المقعد الأساسي في العربة، بينما هو جالس في الجهة المقابلة لهما، ظهره في عكس اتجاه سير العربة، والتفتت فيرمينا برأسها إلى النافذة، وأخذت تسرح بنظرها في اللاشيء. على النقيض، كانت ابنة خالها في غمرة من السعادة، والدكتور أوربينو سعيد أكثر لسعادتها. وبمجرد أن أقلعت العربة وبدأت تسير وصلت إلى أنفها تلك الرائحة الدافئة الخاصة بالجلد الطبيعي لمقاعد العربة، ومن شدة ما استعذبت حلاوة هذه المودة، التي وجدتها داخل العربة المبطنة بالجلد قالت إنها تود لو تعيش في مكان مثل هذا بقية عمرها، وسرعان ما بدأ كلاهما يضحكان ويتبادلان النكت والدعابة كأنهما صديقا العمر، بل إنهما أخذا يلعبان مع بعضهما لعبة من تلك اللعب الخاصة بالعقل، وكانت لعبتهما

أن يدخلا بين حروف كل كلمة حروفا أخرى متفقا عليها، وبرطانة عجيبة أخذا يلعبانها، وادعى كلاهما أن فيرمينا لا تفهم شيئا مما يقولانه، رغم أنهما يعرفان فعلا أنها ليست فقط تفهم قولهما وإنما أيضا مهتمة جدا بكلامهما، ولهذا استمرا في لعبهما، وبعد وقت، بعدما ضحكا كثيرا، أقرت إيلديبراندا بأنها لا تستطيع أن تتحمل أكثر عذاب حذائها ذي الرقبة العالية، فقال لها الدكتور أوربينو:

– لا شيء أسهل من هذا. هيا، لنرَ من سينزع حذاءه أولا.

وجعل يفك أربطة حذائه، ووافقت إيلديبراندا على تحديه، ولم يكن الأمر سهلا عليها، ذلك لأن الكورسيه يمنعها من الانحناء، ولكن الدكتور أوربينو تعمّد أن يتأخر كي تسبقه هي، إلى أن نزعت حذاءها، وهى تقهقه بقوة شاعرة بالنصر، كأنها اصطادت للتو حذاءها من مستنقع عكر، ثم نظر كلاهما إلى فيرمينا، وبهرهما منظرها الجانبي، بدت كأنها طائر الأوربول الذهبي الخلاب في مواجهة أشعة شمس المغيب، وكان غضب فيرمينا مضاعفا ثلاث مرات، أولا لوجودها في هذا الموقف السخيف جدا بالنسبة لها، ولتصرفات ابنة عمتها المتهورة الخليعة، وليقينها بأن العربة إنما تدور وتدور بلا هدف محدد، كي تتأخر في وصولها للبيت، ولكن إيلديبراندا تمادت، ولم تكتف بما فعلته، وقالت:

– الآن فهمت، فما يضايقني ويتعبني ليس حذائي، وإنما هذا القفص من الأسلاك، الذي يحيط بساقي.

وفهم الدكتور أوربينو أنها تشير إلى جيبتها المنتفخة، وعلى الفور اقتنص الفرصة، فقال لها: «لا شيء أسهل من هذا. اخلعيها»، وفي حركة سحرية منه نزع منديلا من جيبه وعصّب عينيه به، ثم قال:

– ها أنا الآن لا أرى شيئا.

وحين حجب عينيه بالمنديل بان أكثر وأكثر حلاوة وجمال شفتيه

وحولهما لحيته السوداء المستديرة وطرفا شاربه الحادين، وحينها أحست برعشة من الخوف تنتشر في جسدها. حينئذ نظرت إلى فيرمينا، ولم تجدها غاضبة هذه المرة وإنما مرعوبة خائفة من أن تكون فعلا جريئة لدرجة أن تنزع جيبتها، فأشارت لها إيلديبراندا بجدية تسألها: «ماذا نفعل؟»، فأجابتها فيرمينا أيضا بالطريقة نفسها بأنها ستلقي نفسها في الطريق، والعربة سائرة إذا لم تصل إلى بيتها.

قال الطبيب:

– ها أنا منتظر.

فقالت له إيلديبراندا:

– يمكن أن ترى.

فنزع المنديل من أمام عينيه ووجد شكلها اختلف تماما، حينئذ عرف أن اللعبة انتهت، بل وانتهت بشكل مريع، وبإشارة منه فهم السائق، ودار بالعربة، ودخل بها إلى حديقة «لوس إبانخليوس» في اللحظة، التي يقوم فيها الفوانيسي بإشعال الأنوار في الشارع، وكل الكنائس وقتها كانت تتلو الصلوات، وحين توقفت العربة، نزلت إيلديبراندا على الفور دون انتظار، وهى مضطربة بعض الشيء أن تكون ضايقت فيرمينا، وودعت الدكتور خوبينال، وسلمت عليه بيدها دون أي مجاملة منها، وفعلت فيرمينا الأمر نفسه، ولكنها حين همت بنزع يدها من يده، إذا به يمسك بأصبعها الأوسط بقوة، ويقول لها:

– أنا أنتظر ردك.

فنزعت يدها بقوة من يده، وبقى قفازها المصنوع من الأطلس في يد الدكتور، ولكنها لم تعد لأخذه. ونامت دون أن تأكل طعامها، وإيلديبراندا، بعدما أكلت طعامها مع الخادمة، دخلت إلى غرفة فيرمينا، وكأن شيئا لم يحدث، بل وراحت تعلق بظرفها المعهود على أحداث اليوم، ولم تخفِ حماسها تجاه الدكتور، وظرفه وأناقته وخفة ظله، وكل هذا وفيرمينا صامتة

لا تتكلم، ولكنها عموما تجاوزت الأمر، ولا تحس بأي حنق، وفي لحظة ما، إذا بابنة خالها تعترف لها بأنها حين رأت الدكتور خوبينال أوربينو يعصب عينيه بالمنديل، ورأت أسنانه الساحرة تتلألأ ببياضها الناصع البراق بين شفيته الورديتين القرمزيتين، حينها ودت لو تأكلهما بقبلاتها، فتململت فيرمينا، وهى مستندة على الحائط ووضعت حدا لهذا الحوار، بلا رغبة منها في الجدال والغضب، بل إنها قالت لها باسمة مداعبة، وبصدق شديد في الوقت نفسه:

– يا لك من داعرة ماجنة!

ثم نامت نوما متقطعا، ورأت في منامها الدكتور أوربينو موجودا في كل مكان، رأته يضحك ويغني ويطلق من أسنانه شرارات خاطفة، بينما عيناه معصوبتان، ويتهكم عليها برطانة عجيبة ليس لها أي قاعدة معينة تجمعها، وكل هذا وهما في عربة أخرى في طريقها إلى مقبرة الفقراء، واستيقظت من نومها قبل طلوع الشمس بكثير، تحس بإعياء وتعب، وظلت على استيقاظها مغمضة عينيها تفكر في كل تلك السنين، التي أمامها من عمرها، وبعد ذلك، بينما كانت إيلديبراندا تستحم، بكل سرعة وعجلة كتبت رسالة وطوتها ووضعتها بسرعة في الظرف، وقبيل خروج إيلديبراندا من الحمام أعطت الرسالة لجالا بلاسيديا لتوصلها للدكتور خوبينال أوربينو. رسالة من تلك الرسائل الخاصة بها وحدها، رسالة ليس فيها حرف يشير لشيء مما في نفسها لا من قريب ولا من بعيد، وفيها تقول أنها سوف تكلم أباها.

حين علم فلورنتينو أريثا أن فيرمينا سوف تتزوج من دكتور ذي حسب وجاه، متعلم في أوروبا، وله شهرة واسعة جدا بالنسبة لشخص في عمره، لم يعد باستطاعته أن يواجه ما فيه من ذل وانحطاط، وحاولت أمه بكل جهدها أن تعزيه، وأن تبعده عن فيرمينا ببنات أخر، وذلك حينما أدركت أنه ممتنع عن الكلام والطعام، ويقضي ليلته كلها في بكاء ونشيج مستمر، واستطاعت فعلا بعد أسبوع كامل أن ترغمه إرغاما على الأكل، وحينها تحدثت مع عمه

السيد ليون الثاني عشر، وهو الوحيد الذي بقي على قيد الحياة من بين الإخوة الثلاثة، ودون أن تشير له إلى السبب الرئيسي رجت منه أن يمنح ابن أخيه أي وظيفة تصلح له في شركة الملاحة، وظيفة تكون في أحد الموانئ البعيدة المقفرة من نهر ماجدالينا، حيث لا يكون هناك لا بريد أو تلغراف قد يلجأ إليه، ولا حتى يجد أي شخص يحكي شيئا عن تلك المدينة المخرّبة، ورغم كونه لا يطيق مجرد وجود ابن غير شرعي، فإنه فقط لم يستجب لطلب أرملة أخيه، وإنما منح فلورنتينو وظيفة عامل تلغراف في «لا بيّا ديه ليبا»، مدينة مذهلة ساحرة تقع على بعد عشرين فرسخا، وعلى ارتفاع ثلاثة آلاف ميل تقريبا من مستوى مدينة «لا كايه ديه بينتاناس».

وفلورنتينو لم يدرك أبدا السبب الرئيسي وراء تلك الرحلة العلاجية أساسا، وكانت رحلة لا تُنسى، تماما مثل كل ما حصل له في هذه الفترة، رحلة ظل يذكرها طول حياته كلما رأى انعكاس مصيبة حبه عليه، وحينما تلقى تلغرافا بتعيينه لم يفكر حتى في أن يأخذ الأمر على محمل الجد، ولكن لوتاريو ثوجوت أقنعه بكل ما فيه من براعة ألمانية بأن مستقبلا باهرا ينتظره في الإدارة العامة. قال له: «التلغراف هو مهنة المستقبل يا فلورنتينو»، وحينئذ أهداه قفازين مبطنين بجلد الأرانب، وقبعة خاصة بأهل البادية، ومعطفا له ياقة طويلة من القطيفة كان ارتداها في الأيام الشتوية قارصة البرودة أيام وجوده في ولاية بافاريا في ألمانيا، أما عمه ليون الثاني عشر فأهداه رداءين من القماش وأحذية من ذات الرقبة العالية، والمشمعة لتمنع دخول الماء إليها كانت ملكا لأخيه الكبير في الماضي، ثم أعطاه تذكرة سفر على متن أول سفينة تبحر إلى هناك، وأخذت أمه هذه الملابس وفصّلتها على مقاس ابنها، الذي كان أقل حجما وضخامة من أبيه وأقصر كثيرا من لوتاريو، واشترت له أيضا جوارب من الحرير وسراويل داخلية كاملة كي يستطيع مواجهة البرد القارص في تلك المنطقة المتجمدة، وكل هذا وفلورنتينو أريثا من كثرة ما عانى في حياته كان

يستعد لهذه الرحلة كأنه يتحضر لمراسم دفنه، فهو لم يقل لأحد أنه راحل، لم يودع أحدا، كان كما هو بغموضه الشديد وكتمانه بالضبط حين باح لأمه في الماضي عن حبه الدفين، وبكل صعوبة، ولكنه في ليلة سفره ارتكب غلطة وأي غلطة، غلطة كانت من الممكن أن تكلفه حياته، ففي منتصف الليل ارتدي البذلة الخاصة بيوم الأحد، وأمام شرفة فيرمينا داثا عزف فالس الحب، الذي ألفه من أجلها في السابق، فالس لا يعرفه إلا هو وهي فقط، فالس كان بمثابة شعار لشراكتهما المتناقضة أشد التناقض خلال ثلاث سنين. راح يعزفه، وهو يهمس لها بأنشودته، راح يعزف لها مغرقا الكمان بدموعه، راح يعزف في حالة إلهام ونشوة غير عاديتين، بمجرد أن بدأ يعزف، وإذا بالكلاب تنبح وتنبح، بداية من كلاب الشارع حتى تتبعها كلاب المدينة كلها، ولكنها بعد ذلك أخذت تصمت شيئا فشيئا حين سرى فيها سحر موسيقاه، ثم انتهى الفالس بصمت مطبق ساحر خيم على كل شيء، ورغم هذا لم يُفتح باب الشرفة، ولا أطل أحد من إحدى نوافذ الدار ليرى ما يحدث في الشارع، ولا حتى أتى عليه ذلك الحارس الليلي، الذي يأتي تقريبا كل ليلة ومعه قنديله مفتشا عن أحد يقوم بالعزف ليلا لحبيبته، وحقيقة فما فعله فلورنتينو في هذه الليلة أراح نفسيته كثيرا، فهو حينما حفظ الكمان في غلافه، وراح يبتعد ويجوس خلال تلك الشوارع المقفرة دون أن يعقب، حينها أحس بأنه راحل منذ الصباح التالي، بل أحس بأنه رحل منذ أعوام طويلة، وفي نفسه شعور لا رجعة فيه بأنه لن يعود مرة أخرى.

السفينة، التي أبحر على متنها، إحدى تلك السفن الثلاث المتشابهات، التي تملكها شركة الكاريبي للملاحة النهرية، وتمت مباركتها مرة أخرى في ذكرى تكريم مؤسس الشركة بيو كينتو لوياثا، وتلك السفينة لم تكن إلا بيتا عائما عبارة عن طابقين من الخشب قائمين على هيكل كبير مستو من الحديد، وغاطس السفينة كان على أقصى تقدير يصل إلى خمسة أقدام، مما يمنحها

قدرة جيدة على الإبحار في النهر على اختلاف مستويات عمقه، وكانت السفن الأكثر قدما تم بناؤها في شركة سينسيناتي منتصف القرن بالطراز الأسطوري نفسه، الذي تُبنى به السفن في أوهايو والميسسبي، حيث تجد على كل من جانبيها عجلة دفع كبيرة يحركها مرجل من الحطب، مثل هذه السفن كانت أيضا سفن شركة الكاريبي للملاحة النهرية بمحركاتها البخارية والمطابخ الموجودة في الأسفل، بالكاد عند نفس مستوى الماء، وحظائر الدجاج الكبيرة، حيث تجد ملاحي السفينة يضعون هناك سررهم المعلقة للنوم، وعلى ارتفاعات مختلفة، وفي هذه السفن تجد في الطابق العلوي منها كابينة القيادة، والغرف الخاصة بضباط السفينة وقبطانها، وحيث تتم أيضا دعوة النبلاء من المسافرين، على الأقل، مرة واحدة للعشاء ولعب الورق، أما في الطابق الأوسط منها فثمة ست غرف من الدرجة الأولى على جانبي الممر، الذي يُستخدم أيضا كغرفة للطعام للجميع، وفي مقدمتها ردهة تطل على النهر، ولها درابزين خشبي قوائمه من الحديد، حيث يعلق هناك المسافرون العاديون سررهم ليلا، ولكن ما يفرق هذه السفن عن الأقدم منها أن عجلاتها لم تكن على جانبيها، وإنما عجلة كبيرة جدا في مؤخرتها وألواحها أفقية، موجودة أسفل تلك المراحيض الخانقة المقززة، التي تقع في الطابق الخاص بالمسافرين، واستطاع فلورنتينو أريثا دون جهد كبير استكشاف نظام السفينة، بمجرد صعوده على سطحها في شهر يوليو وفي يوم من أيام الأحد في الساعة السابعة صباحا، وهو ما كان يفعله الذين يسافرون لأول مرة على متن سفينة. لكن فقط حين أذنت الشمس بالمغيب والسفينة تبحر أمام قرية كالامار الصغيرة، فقط حينها أدرك حقيقة هذه السفينة، وذلك حينما ذهب إلى مؤخرة السفينة ليتبول، فرأى من فتحة المرحاض تلك العجلة الضخمة ذات الألواح السميكة وهى تدور أسفل قدميه مسببة زوبعة ضخمة من الفقاعات والبخار الساخن الحار.

لم يكن فلورنتينو قد سافر من قبل في حياته، وكان يحمل معه صندوقا من الصفيح فيه ملابسه الخاصة بالشتاء القارص، ومجموعة من الروايات الشهيرة، التي كان يشتري أجزاءها المسلسلة كل شهر، ويجلدها بعد ذلك بنفسه بخياطتها في ورق الكرتون، ومعه أيضا دواوين من الشعر الغزلي كان يحفظها عن ظهر القلب، فهى بالكاد صارت أشبه بالتراب من كثرة ما أعاد قراءتها، ولكنه لم يأخذ معه الكمان، فهو يرى أنه يربطه أكثر بحظه الأغبر الذي كان فيه، ولكن والدته أجبرته على أن يحمل بقجة كان فيها أشهر وأحسن وسائل النوم في ذلك الوقت. يوجد بداخل البقجة وسادة وملاءة، ومبولة صغيرة من القصدير، وسقيفة تحميه من الناموس، كل هذا ملفوف في حصيرة تم إحكامها بحبلين ينفعان في تعليق السرير في الحالات الطارئة، ولم يكن فلورنتينو أريثا يريد أخذها معه، لأنه فكر في أنها لن تكون نافعة له نهائيا، وهو أصلا سيقيم في غرفة السفينة، حيث توجد سرائر عادية، ولكنه منذ أن أتت عليه الليلة الأولى وجد نفسه يحمد الله كثيرا على ذكاء والدته، والحقيقة أنه في آخر لحظة، صعد إلى ظهر السفينة شخص يبدو عليه النبل، أنيق الملبس والهندام، كان آتيا من أوروبا بحرا في ضحى ذلك اليوم، وفي صحبته المحافظ نفسه، وكان هذا الرجل في حاجة لمواصلة رحلته بسرعة، ومعه زوجته وابنته وخادمه بزي الخدم الرسمي، والصناديق السبعة بما لها من حواش في لون الذهب والتي بالكاد استطاعوا الصعود بها عبر سلالم السفينة، واستطاع قبطان السفينة، وهو رجل ضخم من بلدة كوراثاو، أن يثير نخوة ووطنية المسافرين العاديين في السفينة كي يوفروا الراحة الممكنة لهؤلاء المسافرين غير العاديين، وبالنسبة لفلورنتينو أريثا فشرح له بخليط من كلمات اللغة الإسبانية ولغة البابيامينتو الخاصة بسكان جزر الأنتيل، أن ذاك الرجل الأنيق هو الوزير الجديد المفوض من قبل إنجلترا في رحلة له إلى عاصمة الجمهورية، وذكّره بأن المملكة البريطانية ساهمت في العديد من الوسائل والطرق النافدة، التي حررتهم بها من سيطرة الإسبان، وعلى هذا

فتضحية كهذه شيء قليل للغاية لأن تشعر عائلة، لها مقام عال جدا كهذه، بالدفء والراحة في وطننا أكثر من وطنها، وطبعا وافق فلورنتينو أن يستغني عن غرفته في السفينة.

ولم يشعر في البداية بأي ندم على قراره، فمستوى النهر كان في ذلك الوقت من السنة مرتفعا، والسفينة تبحر إبحارا هادئا، ولم تحدث أي تقلبات في الليالي الأولى، وبعد الغداء، في حدود الساعة الخامسة عصرا، وزع ملاحو السفينة سرائر يسهل طيها، مبطنة بالكتان، على المسافرين بحيث يقدر أي منهم أن يفردها، ويفرش عليها ما معه في بقجته من أقمشة، ويضع فوقها ناموسية من القماش، وينام، أما الذين كانت لديهم تلك السرائر المعلقة، فكانوا يعلقونها في بهو السفينة، وأما من ليس معهم، فكانوا ينامون على مناضد الطعام، ويتغطون بتلك المفارش، التي لا تُغيّر إلا مرتين خلال الرحلة كلها، وبقى فلورنتينو أريثا معظم الليلة في سهر، وهو يظن بأنه يسمع صوت فيرمينا داثا مع النسيم العليل للنهر، مصرا على وحدته راعيا لها بكل ما فيه. كان كأنه يسمع صوتها، وهى تغني، والسفينة مبحرة تمخر عباب النهر في بطء وئيد كأنها حيوان ضخم يسير في الظلام، إلى أن ظهر الخيط الأبيض من الخيط الأسود في الأفق البعيد، وسرعان ما أطل اليوم الجديد لتلوح أمام عينيه المراعي المقفرة، والمستنقعات الموحلة فوقها طبقات متراكمة من الضباب. حينئذ أحس بأن هذه الرحلة فعلا دليل من دلائل حكمة أمه وذكائها، فها هو يشعر الآن بأنه يود أن يعيش النسيان بلا رجعة.

ورغم أن السفينة ظلت ثلاثة أيام تبحر بلا أي مشاكل، حيث كانت المياه صافية هادئة، إلا أنها بعد ذلك صارت تجد صعوبة بالغة أثناء مرورها بين شواطئ الرمال، وما يبرز لها من مخاطر خادعة واهمة. كل هذا والنهر تزداد عكارته واضطرابه في كل مرة، بل إنه كان يضيق أكثر فأكثر، فتجد على ضفتيه أدغالا من الأشجار الضخمة المتشابكة، وأكواخا من القش فيها ما فيها من

أكوام الحطب من أجل محركات السفن، والجلبة الشديدة، التي كانت تسببها طيور الببغاء وتلك القرود التى لا تراها الأعين، جلبتها الشديدة هذه توحي كأنها تزيد من حرارة شمس الظهيرة الحارقة، وعندما جن الليل، كان لا بد لهم أن يربطوا السفينة كي يناموا، وحينئذ مجرد أن تبقى على الحياة هناك أمر لا يحتمل، فعلاوة على هذا الحر الخانق والبعوض المؤذي كان الجو كله مشبعا برائحة مقيتة رهيبة بسبب ذلك اللحم المملح المعلق على سور الدرابزين ليجف، وأغلب المسافرين حينها، خاصة الأوروبيين منهم تركوا حجراتهم وراحوا يتنزهون على سطح السفينة، وهم يهشون ويذبون أيا من تلك الحيوانات الصغيرة المؤذية بمناشفهم، التي في الوقت نفسه يستخدمونها ليجففوا عرقهم الذي لا يتوقف أبدا، وطلع عليهم الصباح، و أنهكهم التعب إنهاكا شديدا، وتورمت جلودهم من كثرة ما نالوا من قرص ولدغ.

في هذا العام اندلعت الحرب الأهلية بين الأحرار والجمهوريين مرة أخرى، بعد سلسلة انقطاعات، وحينها التزم القبطان بأقصى درجات الحيطة والحذر، ووضع قيودا مشددة للغاية من أجل فرض النظام داخل السفينة من أجل سلامة الركاب، وفي خضم محاولاته لتجنب أي خطأ قد يقع أو إثارة وتهييج قد يحدثان، منع ما كان يعد التسلية الوحيدة والمفضلة في رحلات ذلك الوقت منعا باتا، كانوا يتسلون بإطلاق النار على التماسيح النهرية، وهى تتشمس على الشاطئ، حتى أنه فيما بعد، حينما حدثت مشادة حامية بين مجموعتين من الرجال، صادر على الفور ما معهم من أسلحة، ووعدهم بأن يعيدها إليهم ما إن تنتهي الرحلة في سلام، وكذلك كان شديدا جازما في تعامله مع الوزير، الذي أصبح منذ اليوم التالي للرحلة مرتديا ملابس الصيد، ومعه بندقية قنص خفيفة وبندقية صيد ذات ماسورتين خاصة بصيد النمور، ولم ينته الأمر عند هذا الحد، فالإجراءات صارت أكثر حزما وتشددا حينما مرت السفينة على ميناء تينيريفه، حيث مرت أمامهم سفينة ترفع العلم الأصفر

الخاص بالوباء، ولم يستطع القبطان حينها أن يحصل على أي شيء ينبئه بخبر تلك الإشارة الخطرة، وذلك لأن السفينة الأخرى لم ترد على إشاراته، ولكنهم في ذلك اليوم مروا على سفينة أخرى كانت تحمل على متنها ماشية ومتجهة إلى جاميكا، وهذه أخبرتهم بأن السفينة، التي كانت ترفع علم الوباء كانت تحمل على سطحها مريضين بالكوليرا، وكذلك فإن الوباء عاث فسادا على مدى طريق هذا النهر، الذي لا يزال عليهم الإبحار فيه، حينئذ منع أي مسافر من ترك السفينة، ولم يمنعهم فقط من النزول للموانئ التالية، بل حتى تلك الأماكن المقفرة الخالية، حيث يقترب منها ليمد السفينة بما تحتاجه من حطب. لدرجة أنه خلال بقية الرحلة، التي استغرقت نحو ستة أيام، وحتى وصول السفينة إلى محطتها الأخيرة كان المسافرون حكموا على أنفسهم بعادات لا يفعلها إلا المساجين. بين هذه العادات، التأمل الضار لمجموعة كبيرة من الكروت البريدية الإباحية الهولندية، والتي كانت تنتقل من يد إلى يد ولا أحد يعرف من أين أتت إليهم، ولكن لا يخفى على أي شخص محنك عاش على النهر أن تلك مجرد عينات مما يملكه القبطان من تشكيلات خرافية، ولكن حتى هذه التسلية، التي لا مستقبل من ورائها لم تزدهم إلا قرفا ونفورا.

وفلورنتينو أريثا تحمل كل مشاق الرحلة بصبره الحديدي، الذي أحزن به أمه، وأغاظ به أصدقاءه. لم يكن يتبادل كلمة واحدة مع أحد. الأيام سهلة عليه، يقضيها كلها متكئاً على الدرابزين متأملا التماسيح النهرية، وهى تتشمس دون حراك وأفواهها مفتوحة عن آخرها كي تدخلها الفراشات، وكان يرى أيضا جحافل طيور مالك الحزين، وهى مذعورة، وتطير على الفور إلى حيث تكون المستنقعات، وخرفان البحر، وهى ترضع صغارها بأثدائها الضخمة، مدهشة المسافرين بدموعها، التي تشبه دموع النساء، وأيضا في يوم واحد من أيام الرحلة رأى ثلاث جثث طافية على الماء اخضرّ لونها وانتفخت تماما، وفوقها بضعة نسور سوداء. في البداية رأى جثتين لرجلين، أحدهما

بلا رأس، ثم بعد ذلك رأى جثة طفلة صغيرة العمر وشعرها الغزير يتموج مع الآثار، التي تخلفها السفينة على الماء. لم يعرف أبدا، لأنه من المستحيل أن يعرف أساسا، إذا كانت هذه الجثث لضحايا حرب أم لضحايا وباء الكوليرا، ولكن الغريب أن رائحتهم العفنة المسببة للغثيان ذكرته بفيرمينا داثا.

الحكاية دائما تسير معه هكذا، فأي حدث سواء كان حلوا أو مرا يذكره بها، فحين يمسى المساء، وبينما هم آخذون في ربط السفينة بالبر ومعظم الركاب يتسلون بالتنزه على سطحها، كان هو أمام المصباح الخاص بغرفة الطعام، المصباح الوحيد الذي يظل مشتعلا إلى مجيء الصباح، يتسلى بقراءة الروايات المسلسلة الشهيرة، التي إنما يقرأها عن ظهر القلب، ورغم كثرة ما قرأ من هذه الأعمال الدرامية المؤثرة، لم يملّها حتى، لأنه كان في كل مرة يضع أشخاصا يعرفهم محل أشخاص الرواية الوهميين، ويحتفظ لنفسه ولفيرمينا بأدوار الحب الأكثر غرامية واضطراما، وهو في بعض الليالي يكتب لها رسائل حائرة قلقة، لتتبعثر فقراتها بعد ذلك في مياه النهر كأنما تسبح دون توقف لتصل إليها، وهكذا كان يقضي أصعب أوقاته، واضعا نفسه أحيانا في دور أمير خجول أو فارس حب مغوار، وفي أحيان أخر يظل في حيرة وقلبه مضطرم مشتعل لكونه عاشقا هجرته حبيبته، إلى أن تتحرك السفينة، وتهب عليها نسمات رقيقات، فيجلس على إحدى تلك المقاعد الوثيرة الموجودة عند الدرابزين ويغفو.

وذات ليلة، قطع قراءته في وقت مبكر عن عادته، وتوجه شارد الذهن إلى حيث المراحيض، وأثناء مروره عند غرفة الطعام إذا بباب يُفتح ويد تمسك بكم قميصه في قوة لتأخذه إلى إحدى الغرف. بالكاد استطاع أن يحس وسط هذا الظلام بجسد امرأة عارية لا يدري كم عمرها، أحس بها غارقة في عرق ساخن حار وبزفيرها الفاحش الماجن، وإذا به يجد نفسه نائما على ظهره على سرير الغرفة بدفعة منها، وإذا بها تفك حزام بنطلونه، وتفك أزراره وتلتصق به

في قوة وترغمه على النوم معها، عرته كما ولدته أمه، ولم تلتفت البتة لعذريته وبكارته، وغرق كلاهما في الآخر، وتلاحما فكأنهما وقعا في هاوية سحيقة بلا قرار رائحتها كرائحة أسماك الجمبري، وبعد ذلك بقيت فوقه للحظة تلهث بقوة عجيبة، ولا هواء يسعفها من شدة الحر، وتركته وسط الظلام قائلة له:

- اذهب الآن، وانس كل ما حصل. اعتبره لم يحدث أصلا.

كان هجومها عليه سريعا وخاطفا ومحكم التدبير بحيث فهم أنه لا يمكن أبدا أن تكون نشوة عابرة التي دفعت تلك المرأة لتفعل ما فعلته، وإنما خطة محكمة للغاية بحيث تستغل كل لحظة بالضبط، وعلى أقصى تقدير، وحتى تلك التفاصيل الصغيرة للغاية واضح أنها استعدت لها جيدا. يقينه في كل هذا زاد من نهمه وشراهته، حتى أنه في قمة النشوة بينه وبينها كان يحس بنفسه تصارحه بأنه استبدل هذا الحب الخادع، الذي كان لفيرمينا بعاطفة غريزية بحتة، وراح فيما تبقى من أيامه في السفينة يحاول معرفة هوية تلك المرأة، التي اغتصبته اغتصابا، فربما بغريزتها تلك يجد علاجا لمصيبته، ولكنه لم يستطع البتة معرفة هوية تلك المرأة، بل على العكس، كان كلما تعمق أكثر فأكثر في بحثه تاه أكثر عن الحقيقة.

كان الهجوم عليه في الغرفة الأخيرة من السفينة، ولكن هذه الغرفة متصلة بالتي قبلها عبر باب داخلي بينهما، بحيث أن الغرفتين كانتا غرفة واحدة عائلية فيها أربعة أسرة. وكان هناك امرأتان شابتان، وأخرى ثالثة ذات جمال بارع، ورضيع يبلغ من العمر بضعة شهور، وكلهن رحلن من بارانكو ديه لوبا، وهو الميناء الذي يتم منه شحن السفينة بالحمولات والركاب الآتين من مدينة مومبكس، وذلك بعدما صار ميناؤها غير صالح لعبور السفن لضعف مجرى النهر فيها، وفلورنتينو أريثا أقصى ما جذب انتباهه إليهن أنهن يحملن الطفل نائما في قفص كبير خاص بالطيور.

وكن يرتدين كما ترتدي النساء الراقيات في السفن الكبيرة العابرة

للمحيطات، وكن يضعن تلك الحشوة تحت تنانيرهن الحريرية كي تضخم من حجم أردافهن، وحول رقابهن تطريز جميل من القماش القطني، وعلى رؤوسهن قبعات عريضة مزينة بأزهار مصنوعة من شعر الحصان، والصغريان منهما كانتا تغيران ملابسهما أكثر من مرة في اليوم، حتى بدتا كأنهما تعيشان في جو ربيعي مختلف عن الجو الواقعي، والجو أصلا يكاد بقية المسافرين يختنقون منه حرا، وكل واحدة متمسكة بمظلة تحملها في يدها وفي اليد الأخرى مروحة من الريش، ولكن لأهداف أخرى تماما لا يمكن لأحد فهمها، خاصة بنساء مدينة مومبكس في هذه الفترة، وفلورنتينو أريثا ذات نفسه لم يستطع أن يعرف العلاقة بينهن بالضبط، رغم أنه واضح تماما أنهن من عائلة واحدة، وحسب أن أكبرهن هي أمهما، ولكنه أدرك بعد ذلك أنها ليست كبيرة بما فيه الكفاية لتكون أما لهما، بالإضافة إلى أنها الوحيدة بينهن، التي ترتدي ملابس حداد. ما لم يستطع فهمه أنه كيف تجرؤ إحداهن على فعل ما فعلته معه، بينما الأخرتان نائمتان على سريريهما الملاصقين لسريرها، والحاجة الوحيدة المقتنع بها أنها استغلت وقتا معينا، متأكدة منه أو غير متأكدة، بأنها وحدها في الغرفة، ولاحظ أن اثنتين منهن يخرجان بمفردهما كي يستنشقا بعض الهواء المنعش إلى أن يحل المساء بينما المرأة الثالثة في الغرفة ترعى رضيعها، ولكن ذات ليلة كان الحر فيها على أشده فإذا بالثالثة تخرج معهما ومعها طفلها في القفص المصنوع من الصفصاف والمغطى بقماش من الكتان الشفاف.

دلائل مختلفة كلها مختلطة ببعضها، ورغم هذا سارع بإقصاء احتمال أن تكون أكبرهن هي من قامت بهذا الهجوم الشرس، وبنفس السرعة أيضا أقصى أصغرهن، التي كانت أجملهن وأكثرهن جاذبية. وكل هذا ولا سبب واضح لديه لما حدث معه، إنما هو من كثرة رقابته أُوحي له لرغبة ملحة في نفسه أن تكون تلك العاشقة المؤقتة، هي أم الرضيع الموضوع في القفص. افتراضه

هذا أغراه كثيرا حتى أنه كان يفكر فيها مرارا وبقوة أكثر من فيرمينا نفسها، ولا يهمه أبدا كونها أساسا أما تحيا فقط من أجل طفلها. عمرها لم يكن يتعدى الخامسة والعشرين عاما، ملفوفة القوام، شعرها ذهبي، لها حاجبان كحواجب البرتغاليين جعلاها تبدو مختلفة كثيرا عن غيرها، ويكفي أي رجل القليل مما تقدمه من حنان لابنها، وهى من ساعة الإفطار، وحتى النوم تهتم به، وتحنو عليه في ردهة السفينة، بينما الأخرتان تلعبان لعبة الداما الصينية، وحين تفلح في تنويمه أخيرا تعلق القفص في الجزء الأكثر طراوة عند درابزين السفينة، ولكنها، وابنها نائم، لم تكن عيناها تغفل أبدا عنه، وإنما تظل تهدهد القفص وتهمس بتلك الأغاني الخاصة بالعرائس، بينما أفكارها جميعا تحوم بعيدا عن احتياجاتها في تلك الرحلة، وهو موقن تماما بأنه إن عاجلا أو آجلا سوف تفضحها إشارة ما أو حركة معينة، فكان حتى يراقب تنفسها محدقا في عقدها المتدلي على بلوزتها القطنية الرقيقة، ناظرا إليها بثبات من فوق كتابه، الذي يدعي قراءته، بل إنه تجرأ على تغيير موقعه في غرفة الطعام، وبكل وقاحة فقط لمجرد أن يكون أمامها، ولكنه مع هذا لم يحصل حتى ولو على إشارة صغيرة توصله إلى النصف الآخر من السر، وكل ما عرفه عنها هو أن اسمها روسالبا، حينما نادتها المرأة الأصغر منها.

وفي اليوم الثامن كانت السفينة بالكاد تمخر الماء العكر في ناحية ضيقة جدا من النهر وعلى جانبيها صخور رخامية، وأخيرا استطاعت بعد وقت الغداء أن تستقر عند ميناء بويرتو ناريه، وهناك كان لا بد أن يبقى في السفينة الركاب الذين ينوون مواصلة رحلتهم إلى محافظة أنتيوكيا، وهى إحدى المحافظات، التي تأثرت للغاية بالحرب الأهلية، التي اندلعت مؤخرا، والميناء كان عبارة عن ستة أكواخ من جريد النخل ومستودع من الخشب سقفه مصنوع من الخارصين، ويحرسه بضع دوريات من جنود حفاة الأقدام، وغير مسلحين جيدا، وذلك لأنه بلغهم أنه ثمة خطة من قبل المنتفضين المتمردين

بسلب السفن ونهبها، ووراء البيوت قمم الجبال الشامخات تكاد تنطح عنان السماء من علوها، شكلها من فوق كأنها حدوة حصان صنعت لتناسب تماما مقاس الهاوية السحيقة، التي خلفها، ولم يهنأ أحد بنومه تلك الليلة، رغم أنه لم يحدث أي هجوم، وأطل الصباح على الميناء، الذي تحول إلى معرض بشري ضخم، كان اليوم الأحد، وهناك هؤلاء الهنود، الذين يبيعون التعاويذ المصنوعة من العاج النباتي، ويبيعون أيضا شراب الحب، وكل هؤلاء وسط أفواج غفيرة من الناس مستعدة للصعود لستة أيام متواصلة لتصل إلى غابات أشجار السحلب، التي تقع عند السلسلة الرئيسية للجبال.

كل هذا وفلورنتينو أريثا يتأمل مستمتعا هؤلاء العمال السود، وهم يقومون بإفراغ السفينة، رآهم وهم يحملون أقفاصا تحوي الخزف الصيني، آلات البيانو، التي تباع من أجل عازبات مدينة إنبيجادو، وفقط بعد وقت طويل أدرك أن مجموعة روسالبا سوف ترحل أيضا من السفينة. رآهن عند الجانب الآخر من السفينة، يرتدين أحذية عالية الرقبة، وفي أيديهن شمسيات ذات ألوان استوائية، حينئذ جرؤ على ما لم يجرؤ عليه من قبل أشار إلى روسالبا بإشارة الوداع، وردت عليه الفتيات بالطريقة نفسها، وبود شديد حتى أنه حزن وتألم لهذه الجرأة المتأخرة للغاية. رآهن وهن يدرن حول المستودع وتتبعهن حقائبهن المحمولة مع الصناديق، والعلب الخاصة بالقبعات والقفص الذي كان يحوي الرضيع، ثم بعد ذلك رآهن وهن يصعدن الجبل على ظهر البغال، فكن من شدة بعدهن كأنهن نمل صغير يدب على الأرض، ثم أخيرا تبتلعهم الأرض ليختفين من حياته إلى الأبد، حينئذ أحس بأنه وحيد في هذه الدنيا، وذكراه لفيرمينا داثا، التي ظلت تلاحقه في الأيام الأخيرة أينما كان، قضت عليه بالضربة القاضية.

كان يعلم بأنها سوف تتزوج زواجا غير عادي، وهو الذي يعد أكثر شخص يحبها على وجه الأرض، والذي عليه أن يحبها بقية حياته ليس لديه

حتى الحق في أن يموت من أجلها. شعر بالغيرة والحنق يكتنفان روحه كلها، بينما دموعه تسح من عينيه بغزارة، وكم تمنى من الله وترجاه لو أن بصيصا من نور العدالة الإلهية ينير لفيرمينا بصيرتها وذلك عندما تستعد لتحلف بالحب والطاعة لرجل يريدها فقط زوجة كمجرد زينة اجتماعية له، وفلورنتينو يود أن يراها عروسته هو فقط، أو لا تكون أي شيء، يود أن يراها، وهى مستلقية على وجهها وسط بلاط الكاتدرائية مع أزهار البرتقال، التي تفوح منها رائحة الموت، وطرحة عرسها الكبيرة البيضاء كزبد البحر افترشت الأرض المدفون تحتها أربعة عشر راهبا، أمام المذبح الرئيسي في الكاتدرائية، ومع ذلك بمجرد أن فار ما في نفسيته من انتقام وحقد، أحس بلوم في نفسه على تلك الأفكار السوداوية الحاقدة، وحينها أحس كأنه يرى فيرمينا داثا تنهض قائمة ولا شيء فيها نهائيا، بدت كأنها واحدة أخرى، ولكنها حية ترزق، فهو لم يكن يستطيع أن يتصور دنياه بدونها. ليلتها لم يستطع النوم مرة أخرى، ولو أنه كان من حين لآخر يقرص أي شيء أمامه لظنه بأن فيرمينا موجودة فوق المنضدة، أو على العكس حتى ينفي عن نفسه شبهة صيامه عن الطعام من أجلها، وكان يحس براحة حين يتخيل أنها في أوج حفل الزفاف، وحتى أثناء الليالي المحمومة لشهر العسل، عانت ولو لحظة، لحظة واحدة على الأقل، لحظة واحدة فقط تحس فيها بخيال عريسها، الذي رفضته، أمامها، ذليلا خانعا، وقتها سوف تشعر بسعادتها تتبخر.

وليلة وصوله إلى ميناء كاراكولي، حيث تنتهي تلك الرحلة الطويلة الشاقة، أقام قبطان السفينة حفلة وداع تقليدية تؤمها فرقة موسيقية تعزف على آلات النفخ، قوامها من بحارة السفينة، وقدم أيضا عرضا من الألعاب النارية الملونة المبهرة أطلقها من كابينة القيادة، والحقيقة أن الوزير الإنجليزي تحمل بقوة وعزيمة جبارة ما كان في الرحلة من مشقات وصعوبات، فكان حينها يصور بالكاميرا أي حيوان لم يكن يُسمح له بصيده ببندقيته، ولم

تمر ليلة واحدة إلا والكل يراه بلباسه الأنيق المهندم، وهو في غرفة الطعام، ولكنه في تلك الحفلة الأخيرة للسفينة ظهر بملابس اسكتلندية خاصة بقبيلة ماكتافيش، بل إنه عزف على مزمار القربة، وكل من يريد أن يرقص الرقصة الشعبية الاسكتلندية يعلمها له ويساعده على أدائها، وقبل مطلع الصبح اضطروا أن يحملوه إلى غرفته، وهو في حالة يرثى لها، بالكاد يجر قدميه. وفلورنتينو أريثا من شدة ألمه وتوجعه ذهب إلى الركن الأكثر عزلة من ظهر السفينة بحيث لا تصل أذنيه، ولو أقل القليل مما حوله من قصف وعربدة ومجون، وارتدى حينها ذلك المعطف، الذي أهداه له لوتاريو ثوجوت، وهو يجاهد ليكبت ذلك الارتعاش، الذي يسري في عظامه، واستيقظ من نومه في الساعة الخامسة صباحا، بالضبط كأنه سجين محكوم عليه بالإعدام في هذا الصباح، وقضى بقية اليوم لا يفعل شيئا إلا تخيل كل دقيقة من زفاف فيرمينا داثا بكل صغيرة فيه، وحين عاد إلى البيت، عرف أنه أخطأ تقدير التواريخ، وأدرك أن كل ما كان يتخيله خطأ في خطأ، حتى أنه ضحك على نفسه، وعلى شطحات خيالة البلهاء.

على كل، عانى الكثير من الآلام في ذلك السبت، وانتهى به المطاف بإصابته بحمّى خطيرة، حينها بدا له أن كل من تزوجوا حديثا يهربون سرا في هذه اللحظة عبر الأبواب الخلفية حتى يتمتعوا عن آخرهم بملذات الليلة الأولى، وبالصدفة رآه شخص وهو يرتعد من الحمّى، فأخبر القبطان الذي ترك ما فيه من صخب الحفل، وذهب إليه ومعه الطبيب، وكله خوف أن يكون مصابا بالكوليرا، وأمر الطبيب بأن يوضع فلورنتينو في غرفة تم تعقيمها جيدا بكمية جيدة من البروميد، ومع ذلك، فمجرد أن لمحوا تلك الصخور الخاصة بمدينة كاراكولي، كان قد تعافى من الحمّى، ومن جديد عاد إليه حماسه ونشاطه، ولكنه بينما كان غارقا فيما يأخذه من مسكنات ومهدئات إذا به يقرر بلا رجعة، ودون تردد أن يلقي بذلك المستقبل المشرق الذي ينتظره عرض

الحائط ، وقرر العودة في السفينة ذاتها إلى بلدته كايه ديه لاس بينتاناس.

ولم يكن صعبا أن يرجعوا به في الغرفة، التي تخلّى عنها من أجل الوزير الإنجليزي، وحاول القبطان بكل ما أوتي من حيلة إقناعه بالحجة والمنطق بأن التلغراف هو علم المستقبل، بل إنه أخبره بأنهم الآن يحاولون اختراع نظام ما بحيث يتم تركيب التلغراف في السفن، ولكنه كان أقوى من أي حجة أن تقنعه، وانتهى الأمر بأن رضى القبطان بالرجوع به من حيث أتى، وليس لأنه أصلا يدين له بتلك الغرفة، التي أخذها منه لصالح الوزير الإنجليزي، وإنما لأنه فعلا يعلم صلته الحقيقية بشركة الكاريبي للملاحة النهرية.

ورحلة العودة لم تستغرق أكثر من ستة أيام، وأحس فلورنتينو أريثا بأنه أخيرا في بيته بمجرد أن بدأوا الدخول فجرا إلى بحيرة مرسيدس، ورأى تلك الشلالات المبهرة من الأضواء والأنوار المنبعثة من زوارق الصيد، وهى تنعكس على الماء الهادر حول السفينة، وكان الوقت ما زال ليلا حينما اقتربت السفينة من رصيف خليج نينيو بيرديدو، الميناء الأخير حيث ترسو البواخر النهرية، والذي يبعد نحو تسعة فراسخ عن الخليج، وذلك قبل أن يعمّقوا بالجرافات الطريق الإسبانية القديمة ويجعلونها صالحة من جديد لمرور السفن. كان على الركاب أن ينتظروا إلى الساعة السادسة صباحا حتى يقترب منهم أسطول الزوارق المؤجرة، التي ستقلهم إلى محطتهم النهائية، ولكن فلورنتينو أريثا كان شديد الشوق والحماس، ورحل مبكرا جدا عن الباقين عبر زورق مكتب البريد، حيث إن من كان موجودا من الموظفين عرفوه بسرعة، وقبل أن يترك السفينة لم يستطع مقاومة إغراء رمي البقجة في الماء، وتبعها بنظره، وهى تسبح بين أضواء المشاعل الخاصة بهؤلاء الصيادين، الذين لا يراهم أحد، إلى أن اختفت في البحيرة وابتلعتها المياه. إنه يعلم علم اليقين بأنه لن يحتاجها أبدا فيما تبقى له من أيام عمره لأنه لن يترك أبدا بلدة فيرمينا داثا.

في هذا الصباح، الخليج بأكمله وادع ساكن، ومن فوق الضباب العائم

رأى فلورنتينو قمة الكاتدرائية، التي تنعكس عليها أولى أشعة الشمس الذهبية، ورأى أبراج الحمام فوق الأسطح، ثم استطاع بعينيه أن يجد بينها جميعا شرفة قصر الماركيز ديه كاسالدويرو، حيث تنام فتاة أحلامه ومصائبه هناك على كتف زوجها الشابع الهانئ الآن. تفكيره هذا مزق نفسه تمزيقا، ولكنه لم يفعل شيئا ليكتمه أو يغيره، بل على العكس تماما كان كمن يستمتع بألمه ويستلذ به، وأخذت الشمس ترسل دفئها شيئا فشيئا بينما زورق مكتب البريد يشق طريقه بين المراكب الشراعية الراسية، حيث تفوح منها روائح سوق المدينة مختلطة بروائح عفنة صعبة حتى تحسبهم جميعا وباء كاسحا، وكانت السفينة الشراعية الخاصة بريوآتشا أتت لتوها في ذلك الوقت ومجموعات من الحمالين بلغ الماء وسطهم يستقبلون ركابها عند حافتها ليحملونهم إلى الشط. وكان هو أول من قفز إلى الشط من مركب البريد، ومنذ ذلك الحين لم يشعر قط بتلك الرائحة العطنة الخاصة بالخليج، وإنما أحس بالرائحة الخاصة بفيرمينا داثا تسرح في المدينة بأسرها، بل إن كل شيء ذي رائحة يذكره بها.

لم يعد للعمل في مكتب التلغراف، وكان شغله الشاغل حينئذ هو قراءة قصص الحب المسلسلة، وكتب المكتبة العامة، التي لا تزال أمه تشتريها، فكان يقرؤها منبطحا على سريره المعلق، يقرأها مرة ومرتين وثلاثة إلى أن يحفظها، ومنذ عودته لم يفكر حتى أن يسأل عن كمانه، وأعاد اتصالاته مرة أخرى مع أصدقائه المقربين، وكانوا أحيانا يلعبون البلياردو أو يتحدثون في المقاهي في الهواء الطلق، وفوقهم أروقة ميدان الكاتدرائية، ولكنه لم يعد البتة إلى حفلات الرقص الخاصة بيوم السبت، إنه لا يستطيع أن يدرك معنى الرقص بدونها.

وفي الصباح الذي عاد فيه من تلك الرحلة الطويلة علم بأن فيرمينا داثا تقضي شهر عسلها في أوروبا، وقلبه الفزع هيأ له أنها فعلا ستعيش هناك، إن لم يكن عمرها كله فبضع سنين، نعم سنين طويلة سوف تبقى هناك، هذا مؤكد.

يقينه هذا أوحى له أخيرا بأول بصيص نور في نسيانها. حينئذ فكر في روسالبا، التي أصبحت ذكراها في كل مرة أكثر حمية، في حين أن باقي ذكرياته تنطفئ وتتلاشى رويدا رويدا، ومنذ ذلك الحين أطلق شاربه الغليظ المصمّغ دائما، والذي لم يقصه لبقية حياته، بل إن تصرفاته كلها تغيرت وتبدلت، وفكرة أن يستبدل حبه بآخر جعلته يسلك طرقا أخرى لم يكن يتوقعها، ورائحة فيرمينا داثا، التي كان يشمها صارت في كل مرة أقل قوة وكثافة، وأخيرا لم يعد يتذكرها إلا حينما تمر على أنفه رائحة أزهار الياسمين الحجازي المميزة.

كله على بعضه متروك للريح تأخذه كيفما تشاء دون أن يعرف إلى أين تتجه به الحياة. وذات ليلة من ليالي الحرب لجأت إلى بيته أرملة ناثاريت الشهيرة، لأن بيتها دمرته تماما قذيفة مدفعية، وذلك خلال حصار الجنرال المتمرد ريكاردو جايتان أوبسيسو. وحينها اقتنصت أمه الفرصة وجعلت الأرملة تقيم في غرفة فلورنتينو، بحجة أنه لا مكان في حجرتها، ولكنها حقيقة تأمل أن ينشب بينهما حب يرعاه ويعوضه خيرا عن حبه الذي لا يترك له فرصة للحياة أساسا، وهو لم يمارس الحب منذ أن فقد عذريته على يد روسالبا في السفينة، وبدا له الأمر طبيعيا في ليلة ضغط عليه إحساسه بالشبق، بدا له طبيعيا وهو نائم على سريره المعلق، وهى على السرير العادى، ولكنها قررت أن تبادر بالأمر من أجله. كانت حينئذ جالسة على حافة السرير، بينما هو متمدد عليه لا يعرف ماذا يفعل، وبدأت تحدثه عن ألمها ومعاناتها بعدما مات زوجها منذ ثلاث سنين، كانت تحدثه، بينما تنزع عن نفسها ملابسها الحريرية الخاصة بالأرامل، وترميها في الهواء إلى أن انتزعت خاتم زواجها أيضا. راحت تخلع بلوزتها الحريرية الرقيقة الموشاة بالخرز الملون وألقته على المقعد في إحدى زوايا الغرفة، ثم خلعت حمّالة صدرها من كتفها، وألقتها عند الطرف الآخر من السرير، وفي جذبة واحدة خلعت تنورتها الطويلة ذات الكشكشة، وجوربها الحريري ذا الأربطة، التي تمتد على طول ساقيها. كل هذا كانت

تلقيه على أرض الغرفة بلا حساب حتى أنها صارت جميعها مفروشة بآخر ما تبقى من زي حدادها على زوجها. تقوم بهذا في سرور ولذة عظيمة، وبين كل شيء وآخر تخلعه تتوقف لمهلة محسوبة تماما منها، فكأن كل حركة منها احتفال بتلك القذائف، التي أطلقتها القوات المعتدية، كل قذيفة كانت ترج المدينة رجا، وحاول فلورنتينو أن يساعدها في فك مشبك الكورسيه، ولكنها سبقته، وفكته بمهارة وسرعة فائقة، فهى خلال خمس سنين من زواجها تعلمت أن تعتمد على نفسها تماما أثناء الحب، حتى في بداياتها لم تكن تلجأ لمساعدة أحد، وأخيرا خلعت الكلسون المطرز وتركته ينساب على ساقيها بنعومة ورقة، وها هي أمامه متوهجة بلحمها العاري الخلاب.

كانت تبلغ من العمر خمسة وعشرين عاما، وحملت ثلاث مرات، ولكن ما زال لحمها العاري كأنه لم يمس، كأنها عذراء عزباء ما تزال تحتفظ بكل نضارتها، وفلورنتينو لم يستطع أن يفهم أبدا كيف لمثل هذه الملابس المتصوفة أن تخفي هذا العنفوان، وهذا الفوران لامرأة كالمهرة الصغيرة في حيويتها ونشاطها. راحت تنزع عنه ملابسه وشبقها يكاد يخنقها. لم تكن تفعل هذا مع زوجها حتى لا يظنها امرأة فاسدة ماجنة، هي بالأحرى كانت متلهفة لإشباع غايتها بعد فترة صوم طويلة بسبب الحداد، بعد خمس سنين من حياتها الزوجية، التي عاشتها ببراءة وإخلاص ووفاء لزوجها، لم تنم مع رجل آخر قبل هذه الليلة، التي عاشرت فيها فلورنتينو، منذ أن ولدتها أمها، وقبل هذه الليلة لم تنم أبدا مع رجل غير زوجها المتوفى.

الغريب أنها لم تلم نفسها قط بعد ما حدث، ولم تحس بأي تأنيب ضمير، على العكس، ظلت ساهرة على ضوء الشمع المتراقص على سقف الغرفة إلى أن أتى الصباح، وهى تستدعي إلى ذاكرتها ما كان لزوجها من شمائل ومزايا، وكل عتابها عليه أنه مات بدونها وتركها وحدها. تفكر فيه مرتاحة البال، بل تشعر بأنها لم تكن ملكه كما هي الآن، زوجها الذي بداخل صندوق دقت فيه مسامير عرض كل منها ثلاث بوصات، وعلى عمق مترين تحت الأرض.

قالت:

- أنا الآن سعيدة جدا. أخيرا عرفت أين يكون وهو خارج البيت.

في تلك الليلة خلعت ثياب حدادها مرة واحدة. هكذا فجأة ودون أي تمهيد، لم ترتب حتى خلع تلك البلوزات ذات الورود الرمادية، ومرة واحدة امتلأت حياتها كلها بأغاني الحب وأضحت ترتدي ملابس مثيرة للغاية عليها رسومات فراشات وطيور الببغاء، وصارت تعطي جسدها لكل من تشاء، وبعدما انهزمت قوات الجنرال جايتان أوبيسو، بعد نحو ثلاثة وستين يوما من الحصار، أعادت بناء الدار، التي دُمرت من قبل، وبنت له أيضا تراسا على اللسان الممتد في البحر أمام البيت، وكان هذا اللسان تتكسر عليه الأمواج في قوة وعنف في الأيام، التي يضطرب فيها الجو بالعواصف والزوابع. بيتها هذا كان عش حبها، كما كانت تطلق عليه بكل جدية، وفي دار حبها هذا تستقبل فقط من يحلو لها استقباله، في الوقت الذي تشاء وكيفما تشاء، ودون أن تأخذ من أحد ولو أقل القليل من المال، ذلك أنها كانت تعتبر الرجال هم من يمنحونها المتعة، وليس هي، وفي حالات قليلة جدا تقبل الهدية ما دامت ليست من الذهب، والهدية تأتيها بشكل لا يمسك عليها أي أحد أي دليل يشير إلى حقيقة ما تفعله. مرة واحدة فقط كان سيفتضح أمرها، كان ذلك في الوقت، الذي سرت فيه شائعة أن المطران دانتيه ديه لونا لم يمت بشكل عارض لكونه أكل طبقا من عيش الغراب الفاسد، وإنما لأنه أكل الطبق عن عمد، وذلك لأنها هددته بذبحه إذا ظل مصرا على ملاحقته الدءوبة للدعارة، ولم يسألها أحد إذا كان فعلا ما حدث حقيقة، بل إن أحدا لم يتكلم أساسا في الموضوع، وبالتالي لم يتغير أي شيء في حياتها، إنما هي، تماما كما تقول بالضبط، المرأة الوحيدة الحرة في هذه البلدة.

ولم تكن تلك الأرملة تخذل أبدا فلورنتينو في مواعيد حبه، حتى في تلك الفترات، التي يكون انشغالها فيها على أشده، ودوما يذهب وقلبه خال

من حبه لها وهى كذلك، رغم أنهما دوما يبقيان على أمل الحب، ولكن دون مصاعبه ومعوقاته المريرة، وأحيانا يذهب إلى بيتها، وحينئذ يحلو لهما أن يبقيا عند التراس المطل على البحر ينعمان برائحة الملح المنعشة، يتأملان طلوع الصباح من الأفق البعيد.

وضع فلورنتينو كل جهده ليعلمها ما كان يراه في الفندق بالصدفة من خلال الثقوب، وأيضا تلك الطرق النظرية، التي كان ينادي بتطبيقها لوتاريو ثوجوت على الملأ في ليالي عربدته. كان يشجعها كثيرا على أن يرى كل منهما الآخر أثناء ممارستهما للحب، على تغيير وضعية الجماع، وليس في كل مرة تكون هي تحت وهو فوقها، وإنما يلجآن إلى طرق أخرى كأن يكون هو تحت وهى فوق، وإلى غير تلك الطريقة من طرق أخرى كثيرة، وكانا من شدة لذتهما واستمتاعهما كادا أن يفقدا حياتهما حين انقطعت حبال السرير المعلق، وهما يحاولان ممارسة الحب بأسلوب مختلف، والحقيقة أن أي طريقة مختلفة كان لا فائدة منها أبدا. ذلك أنها تلميذة حب جسورة وجريئة جدا، ولكن ليس لديها أي مهارة في ممارسة الحب. لم تكن تعرف ولا تفهم سحر الهدوء على السرير، ولم تكن لديها أي لحظة إلهام أثناء الممارسة، وحتى هزاتها أثناء الجماع كانت في الوقت غير المناسب ولا فائدة منها، باختصار النشوة معها خفيفة. وفلورنتينو أريثا ظل أياما كثيرة يظن أنه عشيقها الوحيد، وهى مسرورة سعيدة بظنه، إلى أن كان حظها السيئ وباحت بسرها وهى نائمة، فأثناء نومها كانت تتكلم كلاما مبعثرا مفرقا، ولكنه شيئا فشيئا عرف مغزى كلامها، وعرف كم كانت مغامراتها، وكم رجلا حطت عليه في حياتها السرية الخاصة بها، ومن أحلامها أيضا علم بأنها لم تكن تسعى للزواج منه، ولكنها تشعر بأن حياتها موثقة بحياته لأنها ممتنة له لشعورها بأنه حقا من مدها بتلك المتع المحرمة، فهى كثيرا ما كانت تقول:

- أعشقك عشقا لأنك حولتني إلى امرأة حقيقية.

بطريقة أو بأخرى، كلامها صحيح تماما، فإنه فك عنها إسار زواجها السابق، فك عنها عذريتها، التي كانت لزوجها فقط. كانت في حالة سيئة للغاية أكثر حتى مما كانت عليه قبل أن تُفض بكارتها، ومما كانت عليه من صوم تام بعد وفاة زوجها. علّمها فلورنتينو أن لا شيء غير أخلاقي من ممارسات الحب ما دام يقصد به دوامه واستمراره، بل إنه أقنعها بسبب وجودها في هذه الحياة، أقنعها بأن أي شخص يأتي إلى هذه الدنيا له عدد معين من هزات النشوة محددة ومضبوطة للغاية، وأنها إذا لم تطلق في وقتها سواء لأي سبب خاص أو غير خاص، عنوة أو اختياريا، فإن هذه النشوة سوف تضيع إلى الأبد. وفعلا أخذت كلامه هذا وسمعته ونفذته بالحرف الواحد، ومع هذا، لظن أن لا أحد يعرفها ويفهمها أكثر منه، كان كثيرا ما يستغرب لماذا مثل هذه المرأة الطفلة الصبية مرغوبة جدا بهذه الطريقة، بل إنها أيضا لا تكف أثناء نومها عن البوح بضيقها وكربها من أجل زوجها. والتفسير الوحيد الذي جاء على باله حينئذ، تفسير لم يستطع أحد تكذيبه أنها أرملة ناثاريت الشهيرة، التي كانت تملك من الحنان بما فيه الزيادة والكفاية في نفس الوقت، الذي تفتقد فيه فنون ممارسة الجنس، وبدأت لقاءاتهم تقل مع الزمن كلما اتسعت دائرة عشاقها، وهو في كل مرة يستكشف فتيات غيرها ويحاول أن يجد الراحة في قلوب أخريات، راحة لألمه المرير، الذي سببته له فيرمينا، وأخيرا وصل بهما الأمر أن نسيا بعضهما بلا عذاب وبلا ألم.

كانت هي فعلا أول حب جنسي له، ولكن بدلا من أن يتوثق رباطهما ويقوى، كما تمنت أمه، استغل كل منهما هذا الحب لينطلق في حياته. حتى فلورنتينو استطاع أن يطور لنفسه وسائل أخرى في الجنس كثيرا ما بدت مستحيلة وغير معقولة لرجل مثله، هزيل ضامر محب للصمت والسكوت، وأيضا لبسه كله أشبه بملابس العجزة. رغم هذا إلا أنه لديه سمتان لا يملكهما أحد غيره، الأولى: أنه بنظرة واحدة من عينه الثاقبة يعرف بسرعة إذا كانت هذه المرأة تنتظره أم لا، وعلى هذا يندمج بين الناس، ورغم يقينه من رغبتها

فيه إلا أنه يغازلها بحذر تام، فهو يشعر بأن لا شيء في هذه الدنيا مخز ومذل وأصعب من الرفض، والثانية: أن الفتيات كن سرعان ما يتعرفن عليه بكونه أعزب وحيد يحتاج إلى الحب، هو مجرد محتاج على باب الله، ذليل كأنه بالضبط كلب وفي مطيع، يكون كالخاتم في أصبعهن دون شروط، ودون أن يطلب شيئا ودون أن ينتظر شيئا من أحد، بالإضافة إلى أن الفتاة تشعر بالرضا وراحة الضمير حين تمنحه ما يريد. تلك السمتان كانتا كل أسلحته، وبهذين السلاحين استطاع أن يخوض معارك شرسة، وفي سرية تامة، كان يدونها جميعا في أجندة له، وبحماس شديد، يدونها كلها بحروف مشفرة لا يفهمها إلا هو، وكلها تقع تحت عنوان موحد الكل يطلقها على مغامراته النسائية، كان يطلق عليهن اسم: هنّ، وأول امرأة دونها في أجندته كانت بالطبع أرملة ناثاريت، وبعد خمسين سنة، في الوقت الذي مات فيه زوج فيرمينا داثا، كان لديه خمس وعشرين أجندة مسجل فيها ستمائة وعشرون مغامرة حب، هذا بخلاف تلك المغامرات العابرة، التي لا حصر لها، والتي لم تكن تستحق حتى أن يذكر اسمها في أجندته.

وأخيرا، وبعد ستة شهور من الحب العنيف المحموم مع أرملة ناثاريت، أخيرا اقتنع فلورنتينو بأنه استطاع بالفعل أن ينجو بنفسه من عاصفة فيرمينا داثا، بل إنه أيضا فوق اقتناعه هذا كان يحدث أمه بذلك لأكثر من مرة خلال السنتين اللتين استغرقتهما رحلة زواجها، وظل على ظنه واقتناعه بأنه تحرر تماما، إلى أن جاء ذلك الأحد التعس، حين رآها فجأة دون حتى أن يستعد قلبه، رآها خارجة من القُدّاس شابكة ذراعها بذراع زوجها يحاصرها فضول الآخرين، وتملقهم لها، فالآن بعدما كانت النبيلات من سيدات المجتمع يحتقرنها ويسخرن من أصلها ويتضاحكن عليها، ها هن الآن يتحرقن شوقا إليها، ففيرمينا تشعر بأنها ليست أقل منهن، حتى أنهن صرن يثملن بسحرها. استطاعت فعلا أن تتولى دورها ومسئوليتها كزوجة اجتماعية ذات شأن، حتى أن فلورنتينو أريثا ذات نفسه احتاج إلى بعض الوقت كي يتعرف عليها. نعم

هي فيرمينا، ولكنها تغيرت تماما. صارت الآن ناضجة ولها هيبة، وترتدي تلك الأحذية ذات الكعب العالي والرقبة الطويلة، وتضع على رأسها قبعة محاطة بغلالة رقيقة وفوقها ريشة متنوعة الألوان أخذت من أحد الطيور الخاصة بالمشرق، باختصار كل شيء فيها صار مختلفا تماما عن ذي قبل، ولكنه سهل وبسيط، كأن هذا أصلها، الذي ولدت به. الحقيقة أنه وجدها أجمل وأكثر حيوية وشبابا أكثر من أي وقت مضى، عصية وقوية، ورغم هذا، إلا أنه لم يفهم كيف لا يرى استدارة بطنها تحت قميصها الحريري، كانت حامل في الشهر السادس، ومع ذلك، فأكثر ما انطبع في وجدانه أنها وزوجها يبدوان رائعين، وكلاهما كأنهما يتحكمان في العالم كله بانسيابية غريبة، كأنهما بالضبط لا يواجهان أي مشكلة في حياتهما، ولم يحس بأي غضب أو غيرة، إنما أحس فقط باحتقار نفسه وازدرائه لها. أحس بأنه فقير، مسكين، قبيح، ودنيء، وأنه ليس فقط لا يستحقها هي، وإنما لا يستحق أي امرأة على وجه الأرض.

هكذا عادت فيرمينا إلى بلدتها، ولم تعد تلوم نفسها على ذلك الانقلاب، الذي حدث في حياتها، بل على العكس في كل مرة يقل هذا اللوم، خاصة بعدما استطاعت أن تجتاز محنتها خلال السنوات الأولى من زواجها، وما يحمد لها أنها دخلت زفتها مع زوجها وهى تعرف معنى الجنس. بدأت تعرفه شيئا فشيئا أثناء إقامتها في بلدة ابنة خالها إيلديبراندا.

حين كانت في بايدوبار فهمت أخيرا لماذا الديوك تتودد إلى الدجاجات، وشاهدت عن قرب تلك الطقوس الوحشية، التي تمارسها الحمير، ورأت كيف تُولد العجول، وسمعت بنات أخوالها، وهن يتحدثن بكل صراحة عن الذين يمارسون الحب في عائلتهن، وكيف ومتى، وأيضا يحكين لماذا أعرض هؤلاء عن الحب، رغم كونهم لا يزالون يعيشون كأزواج. في ذلك الحين بدأت تعرف وحدها كيف يكون الجنس ومتعته، بدأت تمارسه مع نفسها، وأحست بشعور غريب كأنها تستكشف أشياء موجودة بها منذ ولدت، فكانت تمارس الجنس في أول الأمر على سريرها، تفعل هذا كاتمة

أنفاسها حتى لا تفضح، ومعها في نفس الغرفة نحو ست من بنات أخوالها، ثم بيديها الاثنتين، وهى منبطحة بكل كسل على أرضية حوض الاستحمام، مطلقة شعرها، وتدخن ما تبقى من تلك السجائر الخاصة بالبغالين. دوما تقوم بهذا، وفي ضميرها شيء من اللوم والذنب، ولكن انتهى ذلك تماما بعدما تزوجت، ولم تبح لأحد أبدا بعادتها السرية، بينما بنات أخوالها يتحدثن بكل حرية عن عدد المرات، التي مارسن فيها الجنس، ولا يكتفين بهذا بل يأخذن في سرد الطريقة، التي فعلن بها هذا، ويصفن مدى نشوتهن، ومع ذلك، فرغم هذا السحر، الذي تشعر به من ممارساتها للجنس، لم تزل تظن أن كونها تفقد عذريتها تضحية دموية وبشعة للغاية.

حتى أنها في حفل زفافها، الحفل الذي لم يكن له مثيل ، صخبا ولا فخفخة على مدى نهاية القرن الماضي، أحست حينها بالرعب والهلع، واكتئابها مما سيحدث في شهر العسل أثر فيها أكثر من الضجة الاجتماعية لكونها تتزوج من رجل لا يتكرر منه اثنان على مدى سنوات، والغريب أنه منذ بدأت الخطب تُلقى في القُدّاس بالكاتدرائية، ومن وقتها، وهى تتلقى رسائل مجهولة الهوية، بعضها فيها تهديد بالقتل، ولكنها بالكاد لم تؤثر فيها، إنما فعلا أخوف ما تخافه أن عذريتها أوشكت أن تنتهك، أوشكت أن تُغتصب ورسميا.

تجاهلها أساسا لم يكن عن عمد، وإنما تلك الطريقة هي الأفضل بين كل الطرق للتعامل مع مثل هذه الرسائل المجهولة الغريبة، وبالنسبة لطبقة اجتماعية مثل هذه تعودت أن تحني رأسها لمثل هذه الأمور القدرية الفاصلة حتى لا يسخر منهم الآخرون، وبهذا فأي شيء «معاكس» يبدو لها في حياتها إنما هو مسئوليتها فقط لا غير، بقدر ما تعلم أن زفافها أصبح لا رجعة فيه، ومثل هذه الأمور كانت تلاحظها فيما طرأ على تودد تلك النساء الشاحبات من تغيير، يكاد يقتلهن ما يعانونه من التهاب في المفاصل ومن حقدهن المشتعل في نفوسهن، بحيث أنهن ذات يوم اقتنعن تماما بغرورهن وبدسائسهن ومرة واحدة ظهرن في حديقة «لوس إبانخليوس»، يتصرفن

وكأنهن في بيوتهن، يحملن معهن وصفات طعام من أجل الطبخ، وبعضا من تلك الهدايا المشئومة. ووالدة فلورنتينو كانت تعرف أكثر عن هذا النوع من الناس، رغم أن معاناتها هذه المرة صارت شخصية، فهى تعلم بأن زبائنها يظهرن في ليالي الحفلات الكبيرة يطلبن منها أن تخرج أوانيهن المدفونة وتعطيهن ما رهنّه عندها من جواهر، فقط لأربع وعشرين ساعة، على أن يدفعن لها فوائد أكثر، وفي ذلك الحين مر وقت طويل لم تحصل فيه مثل هذه الأمور، خلت الأواني في هذه الليلة من الجواهر تماما حتى تستطيع السيدات ذات الألقاب العريقة أن يتركن ما فيه من ظلمة، ويظهرن أمام الجميع بمظهر براق جديد بمثلهن، يظهرن بحليهن الخاصة بهن والمرهونة عندها في الوقت نفسه، فذلك الزفاف لم تشهد البلدة مثيلا له من قبل، وكان أشرف ما في الزفاف وجود الأب الروحي للدكتور رافاييل نونيث، رئيس البلاد لثلاث فترات، الذي وفقا لبعض القواميس الموسوعية الحديثة هو شاعر وفيلسوف، ومؤلف النشيد القومي للبلاد. وصلت فيرمينا داثا إلى المذبح الأكبر، الخاص بالكاتدرائية، شابكة ذراعها في ذراع أبيها، الذي منحته بذلته الفخمة، ليوم واحد فقط، نوعا من الاحترام الخادع. وتزوجت إلى الأبد، وهى أمام مذبح الكاتدرائية في قُدّاس أقامه ثلاثة قساوسة، في الساعة الواحدة صباحا من يوم الثالوث المقدس، ووقتها لم يكن من مشفق واحد على فلورنتينو أريثا، الذي كان حينئذ يهذى من الحمّى، يموت من أجلها، في الهواء الطلق على متن تلك السفينة، التي لم تستطع أن تنسيه إياها، وبعد الاحتفال، أثناء لحظات أداء طقوس الزواج، كانت محتفظة بابتسامة باردة مرسومة على شفتيها، ابتسامة بدون روح فسرها البعض على أنها ليست إلا ابتسامة النصر، بينما في الحقيقة هي ابتسامة تخفي بها رعبها كعذراء بتول، وها هي تتزوج الآن.

ولحسن حظها، مرت أحداث لم تكن في الحسبان، علاوة على تفهم زوجها لها، لذا عدّت الليالى الثلاث الأولى من زواجها على خير. باختصار كان الله في عونها تماما، فمن حسن حظها أعلنت شركة الملاحة الفرنسية

للسفن العابرة للمحيطات قبل بدء الرحلة بثلاثة أيام فقط أنه لسوء أحوال الجو في منطقة الكاريبي، سوف تُقدّم الرحلة يوما واحدا، وعلى هذا لن تبحر السفينة إلى بلدة «لا روشيل» في اليوم التالي من زفافها، كما هو متفق عليه قبل ستة شهور، وإنما ستنطلق في ليلة زفافها نفسها، ولم يتخيل أحد أبدا أن هذا التغيير البسيط كان من إحدى المفاجآت اللطيفة في زفافهما، فالحفل انتهى بعد منتصف الليل على متن السفينة بكل ما فيها من أضواء تبهر الأعين، حيث كانت هناك أوركسترا فيينية عزفت في هذه الرحلة لأول مرة أحدث الألحان، التي ألفها جون ستراوس، حتى أن بعض الرجال الغارقين في الشمبانيا للثمالة كانت زوجاتهن تدفعهم دفعا إلى البر، وهن في غاية الحزن، فقد وجدن أزواجهن يسألن النُدُل إذا كان ثمة غرف متاحة في السفينة ليكملوا ما هم فيه من عربدة وشراب إلى باريس، وآخر من نزلوا من السفينة إلى البر رأوا لورينثو داثا عند المقاهي في الميناء جالسا على الأرض في قارعة الطريق ببذلته الأنيقة، وهو في حالة يرثى له. كان يبكي بالضبط، كما يبكي العرب على موتاهم، مفترشا الأرض الغارقة بالمياه المتسخة، ربما تكون مياه دموعه.

لم تر فيرمينا داثا، على مدار حياتها الزوجية الطويلة العريضة ما رأته من حوادث عنيفة كتلك، ولا حتى في ليلة زفافها، ولا حتى فيما تلا من أيام وديعة هانئة من الإبحار، فأول ما حدث لها، رغم حجم السفينة الضخم، ورغم فخامة الغرف، مرت بالضبط بما مرت به، وهي على متن سفينة لا ريوآتشا، وزوجها الطبيب الخدوم لم يأل جهدا في علاجها، وتطييب خاطرها، لدرجة أنه لم يكن ينام البتة من أجلها، ولم يكن في يديه أن يقوم بأكثر من هذا، وهو الطبيب الذي لا يعلو عليه طبيب آخر، ولكن بدءا من اليوم الثالث بدأت تخف حدة دوارها شيئا فشيئا، بعدما اجتازت السفينة ميناء لا جوايرا، ومنذ ذلك الحين، وهما يمكثان مع بعضهما أكثر وقتهما، وصارا يتبادلان شؤون الحديث كثيرا، كما لو أنهما صديقان قديمان، وفي الليلة الرابعة، بينما كل منهما مستغرق في عاداته اليومية العادية، استغرب الدكتور خوبينال أوربينو من أن زوجته الشابة

لا تصلي قبل النوم، فحدثته بكل صراحة أن ما رأته من الراهبات من نفاق ورياء جعلاها تحس بنفور من الطقوس الدينية عموما، ولكن هذا لا يعني أن ثمة خلل في إيمانها، بالعكس إيمانها قوي لا تشوبه شائبة واحدة، إيمان استطاعت أن تبقيه في هدوء بعيدا عن أي منغصات. قالت له: «أفضل أن يكون تواصلي وتفهمي مع الله مباشرا دون وساطة من أحد». تفهم أسبابها، ولم يجادلها أو يعارضها حتى، وصارا منذ ذلك الحين كل منهما مؤمن بالدين نفسه، ولكن كل بطريقته. جدير بالذكر أنهما قضيا قبلا فترة خطوبة قصيرة، ولكنها كانت غير رسمية بما يكفي، بحيث أن الدكتور خوبينال كان يزورها في بيتها دون انتظار أو رقابة من أحد، وفي عصر كل يوم بلا انقطاع، وهى لم تكن لتسمح له بأن يمس، ولو حتى أنامل أصابعها إلا قبل مباركة القساوسة، وفي الوقت نفسه لم يكن هو أيضا يحاول مسها.

تلك الليلة كانت الأولى، التي يهدأ فيها البحر ويصفو، كلاهما على سرير غرفتهما، ولكن لا يزالان بكامل ملابسهما، حينئذ بدأ لأول مرة يداعب جسدها بيده، بحذر شديد جدا وبحرص، وأحست وقتها بأنه من الطبيعي أن يلمح هو لتقوم وترتدي قميص نومها، فذهبت إلى الحمام، ولكنها أقفلت جميع أنوار الغرفة قبلها، وبعدما خرجت، وهى بقميص نومها حشرت بعض الأقمشة، في فتحات وفجوات باب الغرفة، وذلك لتعود إلى السرير في ظلام شامل دامس، وبينما تسد فتحات الباب، إذا بها تمازحه وتقول له:

- ماذا تريد يا دكتور. إنها المرة الأولى، التي أنام فيها مع رجل غريب.

وشعر بها الدكتور خوبينال أوربينو تنساب إلى جانبه كأنها حيوان صغير أليف مرعوب، وهى تحاول أن تكون بعيدة عنه بأقصى ما تستطيع والسرير في الأصل من المستحيل أن ينام عليه اثنان دون أن يلمس أحدهما الآخر. حينئذ أمسك بيدها ووجدها باردة ترتعش من الخوف، وراح يشبك أصابعه بأصابعها، وبصوت هامس أخذ يحكي لها عن ذكريات رحلاته البحرية، ومرة أخرى أحست بالتوتر يعصرها، وذلك لأنها وهى تتقلب على السرير

أدركت أنه تعرى تماما حينما كانت ترتدي قميص نومها في الحمام، ولهذا صارت مرعوبة من الخطوة القادمة، التي لا بد أن تحدث، ولكن الخطوة التالية تأخرت ساعات، فهو لم يزل يكلمها عن ذكرياته، وفي كل مرة يسيطر ويستحوذ على ثقة جسدها رويدا رويدا. كلمها عن باريس، وعن الحب في باريس، وعن العشاق الذين يقبلون بعضهم هكذا أمام الناس، وبشكل عادي جدا، يقبلون بعضهم البعض في الأومنيبوس، وعند أرصفة المقاهي المليئة بالأزهار والورود، والمفتوحة أمام حرارة الصيف، وتلك الأصوات الخفيضة العذبة الصادرة من آلات الأكورديون، بل وإنهم يمارسون الحب عند شط نهر السين، ولا أحد يضايقهم أبدا، وكل هذا، وبينما هو يحدثها ويهمس لها كان يداعب بأنامله انحناءة رقبتها، وشعرها الخفيف الحريري المنتشر على ذراعيها، بطنها التي تقلصت من مداعبته، وأخيرا حين أحس بتوترها يهدأ ويخف حاول للمرة الأولى أن ينزع عنها قميصها، ولكنها منعته بدفعة من يدها تتميز بها، وقالت له: «أعرف كيف أقوم بهذا وحدي»، وفعلا خلعت قميصها، وبقيت بعد ذلك لا تتحرك قيد أنملة، وكان سيظن أنها ليست معه لو أن جسدها العاري لم يبرق في الظلام.

وبعد، حين أمسك بيدها مرة أخرى، وجدها فاترة خاملة مستسلمة، ولكنها لا تزال رطبة ندية ببعض العرق، وظلا على هذه الحال لبعض الوقت لا يأتيان بحركة واحدة، وهو يترصد اللحظة المناسبة ليقوم بخطوته التالية، وهي تنتظره ولا تعرف من أين سيقوم بحركته، وفي الوقت نفسه كان ظلام الغرفة يزداد حلكة من زفيرهما، الذي يزداد كثافة في كل مرة، وفجأة إذا به يطلق يدها ثم يقفز عليها، ووضع أصبعها الأوسط في فمه وجعل يمصه بلسانه، وبالكاد لمس حلمتها في غفلة منها، وشعرت حينها كأنها ستموت، كأنه لمس عصبا حساسا للغاية فيها، وفرحت أنهما لا يزالان في الظلام، وإلا كان رأى تلك الحمرة القانية، التي سرت في رأسها حتى جذورها، وإذا به يقول لها في هدوء شديد: «اهدأي، تذكري أني عرفت ثدييك من قبل»، فأحس بها تبتسم في هذا

الظلام، وصوتها أصبح أكثر عذوبة وحلاوة عن ذي قبل.

وقالت له:

- أنا أذكر هذا جيدا، بل إنني أيضا لا أحس بأي غضب.

حينئذ علم بأنهما ولجا منطقة الأمل، وحينئذ أمسك بيدها الرخصة الطرية الكبيرة، وراح يلثمها ويطبع عليها قبلاته الحارة. في البداية أخذ يلتهم سيف يدها بقبلاته، ثم أصابعها الرشيقة الطويلة، وأظافرها الشفافة الرائعة، ثم قلب يدها وراح يقبل راحتها المتعرقة بكل تلك الخطوط المتعرجة، التي فيها، ولا تعرف كيف وصلت يدها مرة واحدة إلى صدره، وإذا بأصابعها تصطدم بشيء لم تكن تعرف كنهه، فقال لها: «إنها مجرد كتفية تغطي صدري وظهري»، ثم تخللت بأصابعها شعر صدره الكثيف، ثم مرة واحدة قبضت بيدها كلها عليه وراحت تجذبه كأنه تود لو تقتلع شعره من جذوره، وهو يقول لها ويحثها: «هيا، اجذبي بقوة أكثر»، وفعلا حاولت، إلى أن أحست أنها لا تؤلمه البتة، حينئذ راحت تبحث بيدها عن يده، التي كانت ضائعة حينئذ في دياجير الظلام، ولكنه لم يتركها حينئذ تتخلل أصابعها بأصابعه، وإنما أمسك بمعصمها وراح يمدد بيدها على جسده بقوة، رغم أنه لا شيء يُرى، إلا أنه يعرف أين يضع يدها تماما، إلى أن أحست هي بكائن غريب له ملمس غريب، كأنه حيوان نابض بالحياة له شهيق وزفير، شعرت به حارا دافئا، لا شكل محدد له، ولكن العنفوان والغضب كليهما فيه، وعلى عكس ما كان يتوقعه هو، وعكس أيضا ما كانت تتوقعه هي، لم تسحب يدها، بل إنها لم تتركه بلا حراك في نفس الموضع، وإذا بها تفوض جسدها وروحها للعذراء مريم، وإذا بها تغلق فمها بقوة مصطكة على أسنانها حتى لا تُسمع ضحكاتها، ضحكاتها على نفسها وعلى هذا الجنون، الذي ركبها، وبيدها راحت تتعرف على هذا العدو المتربص المشبوب كالحصان، راحت تتعرف على حجمه وقوته ومتانته ومدى عرضه، كانت تحس برعب من هذا الثبات والقوة، التي

وجدتهما فيه، ولكنها في الوقت نفسه اطمأنت لكونه العضو الوحيد، تعاملت معه كأنه ملكها، تعاملت معه بحرص وبدقة شديدة حتى أن لو شخصا أقل خبرة من الدكتور خوبينال أوربينو لكان اختلط عليه الأمر بين ما تفعله وبين كونها تداعبه بيدها فقط، والدكتور أوربينو أثناء كل هذا استعصم بكل ما تبقى لديه من قوى ليكتم هذه النار المستعرة بداخله، حتى تركت أخيرا عضوه بحركة طفولية مضحكة، كأنها ترميه في القمامة، وقالت له:

– أنا في حياتي لم أفهم قط كيف يكون هذا العضو من جسد الرجل.

حينئذ أخذ يشرح لها بكل جدية بأسلوبه التعليمي الرائع ماسكا يدها يوجهها، حيث المواضع، التي يذكرها لها، وهى تطيعه لا تعترض كأنها تلميذة مجتهدة مطيعة، وفي لحظة ما لمّح لها بأن كل هذا سوف يكون أسهل إذا ما أضيئت أنوار الغرفة، وهمّ أن يضيئها، ولكنها صدت ذراعه، وهى تقول له: «أنا أرى أفضل بيدي»، والحقيقة أنها فعلا ودت أن تضاء الأنوار، ولكنها أرادت أن تفعل هذا بنفسها دون أمر من أحد، وهذا ما حدث. حينئذ رآها في هذا النور المفاجئ في وضع كوضع الجنين في بطن أمه، وغطت نفسها بملاءة السرير، ولكنه مع هذا رآها مرة أخرى تمسك بعضوه بدون أي تصنع منها ولا تكلف، وراحت تهز عضوه ذات اليمين وذات اليسار، وتتفحصه بدقة متناهية كأنها بالضبط عالمة تجري تجاربها، وليست مجرد امرأة عادية، وأخيرا قالت له: «يا له من شكل قبيح للغاية، شكله أقبح من عضو النساء أنفسهن»، ووافقها على كلامها، بل وذكر لها أنه ثمة عيوب أخرى له أخطر من قبح شكله. قال لها: «إنه كالابن البكر، حيث يقضي الأب حياته كلها يعمل من أجله، يضحي بكل شيء من أجله، وحين تأتي ساعة الشدة تجدينه يفعل ما يحلو له». مع كل هذا ظلت تفحصه، وتسأله ما نفع هذا وما نفع ذاك، وحين أحست بأنها روت فضولها بما تريده من معلومات إذا بها تزنه بيديها الاثنتين كي تتأكد بنفسها أن وزنه لا يستحق العناء، ثم تركته في احتقار وازدراء، وقالت:

- علاوة على هذا، أظن أن لديه أشياء زائدة عما يستحقه.

شعر بحيرة غريبة، فأصلا كان هدفه في مشروع تخرجه أن يثبت سهولة تركيب العضو الذكري وسهولة وظائفه، كان يبدو له قديما للغاية، له وظائف كثيرة لا حاجة إليها، ولكن لا غنى عنها في مراحل معينة من عمر الإنسان، ولكن ليس بالنسبة لنا ولا لعمرنا. نعم يمكن أن يكون سهلا وبسيطا، وفي الوقت نفسه أقل حساسية، وإذا به يختم كلامه قائلا: «هو شيء الله وحده قادر على خلقه بالطبع، ولكن على كل حال ربما من الأفضل أن نتركه في حاله مع ما له من نظريات»، فضحكت مستبشرة، ضحكة طبيعية صافية، فاستغل الفرصة وعانقها، ولأول مرة يقبلها من فمها، واستجابت له ولم تمنعه، وواصل قبلاته لها، قبلات ناعمة طرية على خديها وأنفها وحاجبيها، بينما يده تمتد وتمتد أسفل الملاءة إلى أن جعل يجس عظام تفاحتها الشهية المستديرة الرخوة، كان ملمسها بالضبط كأنها قطعة صابون. الغريب أنها لم تبعد يده، ولكنها كانت متوجسة مستعدة لأنه تصده بيدها إذا ما حاول القيام بخطوة أخرى، وحينئذ قالت له:

- ألا نكمل درس الطب.

فقال لها:

- لا، هذه المرة سوف يكون الحب والجنس.

حينئذ نزع الملاءة من فوقها، وهى فقط لم تستجب له، وإنما أزاحت تلك الملاءة عن السرير كله بحركة سريعة من قدميها، فهي لم تعد تطيق الحر، وبان جسدها الغض المموج اللدن، بان أكثر جدية حتى، وهى بكامل ملابسها، له رائحة مميزة، رائحة الحيوانات البرية، رائحة يمكن تمييزها بسهولة من بين جميع نساء العالم. خاملة عاجزة أمام الضوء الساطع للغرفة، وإذا بموجة من الدم الحار الدافئ أخذت تتدفق إلى وجهها تدفقا، فلم تجد أمامها إلا أن تتشبث برقبته كي تخفي عنه احمرار وجهها، وراحت تقبله بقوة

واشتياق ولهفة، إلى أن بدا هواء الغرفة كله كأن قبلاتهما امتصته عن آخره.

كان يعرف جيدا أنه لا يحبها، وإنما تزوجها لأنه أعجب أيما إعجاب بشموخها وجديتها وقوتها، وأيضا لما تتسم به من اعتزاز وإعجاب بنفسها، ولكنها حين قبلته للمرة الأولى أيقن وقتها أنه ليس ثمة عائق البتة أمام نمو حب صادق بينهما. لم يتكلما عن الحب في أول ليلة حب بينهما، رغم أنهما تكلما في كل شيء إلى مطلع الصباح، ولا حتى تكلما عن الحب أبدا بعد ذلك، ولكن على مدى عمرهما الطويل مع بعض لم يخطئ أحدهما في حق الآخر نهائيا.

وحين طلعت الشمس، حينما نام كل منهما، كانت لا تزال عذراء بتول كما هي، ولكنها لن تبقى على هذا الحال وقتا طويلا، والحقيقة أنه في الليلة التالية، بعدما علّمها الرقص على إيقاع الفالس الفيني أسفل تلك السماء الأثيرية الخاصة بالكاريبي، اضطر أن يذهب إلى الحمام قبلها، وبعدما عاد إلى الغرفة وجدها تنتظره على السرير عارية تماما. هذه المرة هي التي بادرت، وليس هو، سلمت له نفسها دون خجل ودون خوف ودون ألم، بل سعيدة مبسوطة لمغامرة على متن سفينة ضخمة كهذه تعبر بهما المحيط، ولم يخلّف جماعهما أي آثار دموية، إلا بقعة الشرف من الدم، التي انطبعت على الملاءة، وكلاهما مارسا الأمر كما يجب، كأن فيه معجزة، وظلا يقومان بهذا خلال ساعات النهار والليل من كل يوم، وفي كل مرة يتحسن أداؤهما أثناء الرحلة، وحين بلغا مدينة لا روشيل الفرنسية كانا بالضبط كأنهما عاشقان قديمان.

وقضيا وقتهما كله يسافران إلى البلاد المجاورة في أوروبا، ومكان إقامتهما الأساسي كان في باريس، وخلال هذه الفترة كانا يمارسان الجنس في كل يوم، وفي أيام الأحد الشتوية قد يمارسانه أكثر من مرة، وهما على السرير يمرحان بالحب إلى أن تحين ساعة الغداء، وهو كرجل بارع في خلق تلك النشوة، بالإضافة لكونه مدرّبا جيدا على مثل تلك الأمور، وهى لم تكن أصلا مخلوقة لتعتمد على مزايا أحد غيرها، لهذا كانا يقضيان وقتهما على

السرير في انسجام بين قدرات كل منهما مع الآخر، وبعد ثلاثة أشهر من الجنس المحموم بينهما، أدرك هو أن أحدهما مصاب بالعقم، وخضع كلاهما لفحوصات مشددة في مستشفى لا سالبيتري في فرنسا، التي تعلم فيها الطب وتدرب عليه، وبذل كل منهما جهده، ولكن بلا فائدة، ومع هذا، حين بدآ يفقدان الأمل تماما، واستنفدا جميع حيل الطب في مثل هذه الأمور، حدثت المعجزة، وحين عادا إلى البيت كانت حامل في ستة أشهر، وكانت تحس بأنها حقا أسعد امرأة في الدنيا، وعلى شرف والد الدكتور خوبينال، الذي مات بالكوليرا، تم تعميد طفلهما الأول البكر، الذي كثيرا ما انتظراه، وولدته بلا مشاكل في يوم من أيام برج الدلو.

ومن المحال أن تعرف وقتها إذا كانت أوروبا، أو الحب، ما جعلهما مختلفين هكذا، فالشيئان حدثا في الوقت نفسه. اختلافهما ليس هما فقط من يحسان به، وإنما أحس به جميع الناس، حتى أن فلورنتينو أريثا نفسه أحس بذلك حين رآهما، وهما يخرجان من قُدّاس يوم الأحد، الذي وقع كالشؤم كله على رأسه، بعد أسبوعين من رجوعهما. عادا وفي نفسيهما فهم جديد تماما للحياة ومبادئ جديدة تماما عرفاها عن هذا العالم، مستعدين تماما لأن يتحملا مسئوليتهما على أفضل ما يكون. كان هو يهتم كثيرا ببواكير الأعمال الأدبية والموسيقية، وأهم شيء عنده تخصصه العلمي، لذا كان مشتركا في العدد اليومي لجريدة لوفيجارو الفرنسية، حتى يكون دائما على صلة بواقع الأحداث وما حوله، وأيضا له اشتراك في مجلة لارويه دو دوكس موند كي يكون دائما على إطلاع بكل ما هو جديد في الشعر وفنونه، كما أنه أيضا اتفق مسبقا مع صاحب المكتبة في باريس ليتسلم منه الكتب الأكثر مبيعا وقراءةً، من بينها كتب لمؤلفين، مثل أناتول فرانس وبير لوتي وكل من كان يحبهم الدكتور خوبينال، مثل ريمي ديه جورمنت وباول بورجت، ولكنه لم يكن يحب إيمل زولا، فهو في نظره كاتب لا يطاق أبدا، رغم اقتحامه الشديد

الجريء في موضوع قضية دريفيوس الفرنسية، التي أحياها من جديد بعدما نشر عنها مقالته. وصاحب الكتب اتفق معه أن يورد له عبر البريد أجمل ما في الألحان الخاصة بدار «ريكوردي» للموسيقى، خاصة موسيقى الحجرة، التي تُعزف دون وجود مايسترو، وكل هذا كي يحتفظ باللقب الذي اتسم به أبوه كونه أول من شجع على إقامة الحفلات الموسيقية في البلدة.

أما فيرمينا داثا، فكانت أغرب سماتها أنها دائما ضد الموضة السائرة في ذلك الوقت، فجلبت معها ستة صناديق فيها ما فيها من ملابس تنتمي إلى عصور مختلفة، فهى لم تكن مقتنعة نهائيا بماركات الملابس الفخمة، حتى أنها كانت في قصر التويليري في باريس، في عز الشتاء، كي تحضر الاحتفال بعرض تصميمات مصمم الأزياء الشهير وورث، المتخصص في تصميم أفخم الملابس وأغلاها، وكل ما حصلت عليه حينها مجرد نزلة شعبية حادة ألزمتها السرير لخمسة أيام، وبدت لها حينها ماركة ملابس «لافيري» الشهيرة غاية في التبذير والإسراف والطمع، فكان قرارها الحكيم بأن تجلب كل ما يحلو لها من تلك المحلات، التي تبيع الملابس الرخيصة، رغم إصرار زوجها على أن ما هناك من ملابس لا يصلح من رداءتها ورخصها إلا للموتى فقط، ولم يكفها هذا حتى، بل إنها اشترت لنفسها أحذية إيطالية الصنع ليس لها ماركة أو علامة، أحذية فضلتها كثيرا على تلك الشهيرة ذائعة الصيت الخاصة بالمصمم «فيري»، كما اشترت شمسية من تصميم دوبوي، حمراء قانية كأنها بالضبط في لون نار الجحيم، كانت موضوعا للكتابة بالنسبة للمؤرخين الاجتماعيين، وفقط اشترت قبعة من تصميم مدام روبوكس، ثم بدلا من هذا ملأت صندوقا لها بعناقيد الكرز الصناعي وباقات الورود المصنوعة من اللباد التي يمكنها شراءها في أي وقت، ومجموعة كبيرة من ريش النعام، ومجموعة من عرف الديك الرومي وذيول القطط الآسيوية، وديوك برية كاملة غير منقوصة، وكذلك طيور الطنّان، وغيرها من الطيور الأجنبية المتنوعة المحنطة بالكامل،

من يراها يحسبها تغني، ولكنها حقيقة ميتة، وكل هذا كان نفعه خلال العشرين سنة الأخيرة أن تبدو نفس قبعاتها بأشكال أخرى مختلفة، كما أحضرت مجموعة من المراوح المستوردة من عدة بلدان، وكل منها مختلف ومناسب لكل فترة ولكل مناسبة، كما جلبت عطرا شديد القوة والتأثير من مصنع عطور اسمه بازار ديه شاريتيه، ولم تستعمله إلا مرة واحدة في عمرها، فإنها حين وضعت بضع قطرات منه أنكرت نفسها، وأنكرت ما تغير في رائحتها، لذا لم تضعه مرة أخرى، كما أحضرت أيضا علبة مستحضرات تجميل، كانت أحدث صيحة في عالم الموضة في سوق الإغراء وجاذبية المرأة، وكانت هي المرأة، التي تحمل تلك العلبة معها حين تذهب للحفلات، حين كان مجرد التجمل أمام الناس شيئا غير لائق البتة.

شهدا معا في رحلتهما ثلاث حوادث كل منها ذكراها أشد أثرا من الأخرى: تمثيل أوبرا قصص هوفمان لأول مرة في باريس، وذلك الحريق العظيم، الذي التهم معظم الزوارق في فينيسا أمام ميدان سان مرقص، وحضرا المشهد من نافذتهما في الفندق، وقلبها في غاية الحسرة والحزن، والحادث الثالث والأخير رؤيتهما أوسكار وايلد بشكل عابر في يوم من أيام شهر يناير، حين يسقط الثلج لأول مرة في السنة، ولكن في خضم كل هذه الذكريات وغيرها، إلا أن الدكتور أوربينو كان يحتفظ لنفسه بذكرى ندم أشد الندم على أن زوجته لم تشاركه فيها، فكان حينئذ لم يزل طالبا أعزب في باريس، وتلك هي ذكرى رؤيته لفيكتور هوجو، الذي كان حينئذ يتمتع هنا، في كولومبيا، بصيت مؤثر للغاية بغض النظر عن شهرته كمؤلف كتب، وذلك لأن أحدا ذكر زورا أنه ذات مرة قال إن دستور بلدنا ليس دستورا لبلد بشرية عادية، وإنما هو من أجل الملائكة فقط، ومنذ ذلك الحين وفيكتور هوجو له حظوة خاصة في قلوبنا، وأغلب من يذهب هناك إلى فرنسا من أتباعه ومحبيه يفعلون كل شيء ليروه، حتى أن ستة طلبة كان بينهم الدكتور خوبينال أوربينو أقاموا إقامة

شبه دائمة أمام بيته في شارع إيلو وأمام المقاهي المعروف بارتياده لها، ولكنه أبدا لم يكن يذهب إليها، وأخيرا طلبوا كتابةً أن يكون لهم لقاء خاص معه، باسم ملائكة دستور كولومبيا، وبالطبع لم يتلقوا أبدا أي رد، وذات يوم كان خوبينال أوربينو يمر بالصدفة أمام حديقة لوكسمبورج، وإذا به يراه خارجا من مجلس الشيوخ ومعه امرأة شابة كانت تسنده من ذراعه، رآه بعد أن بلغ من العمر أرذله، عجوزا للغاية، بالكاد يخطو خطواته، ولحيته وشاربه أقل بريقا مما يبدوان في صوره، وعليه معطف يبدو كأنه كان ملكا لشخص أكبر حجما بكثير. وقتها لم يرد خوبينال أوربينو أن يحييه، ويسلم عليه كي لا يفسد تلك الذكرى. اكتفى فقط بنظرة إليه، نظرة تكاد تكون غير واقعية بالمرة، ظلت معه في ذكراه حياته كلها، وحينما عاد إلى باريس بعد أن تزوج من فيرمينا، وأراد رؤيته بشكل رسمي أكثر من ذي قبل، كان فيكتور هوجو مات.

ولكن حدث ما عوضه خيرا، كانت تلك الذكرى المثيرة المشتركة بينه وبين فيرمينا، وذلك في ليلة من ليالي الشتاء القارصة المثلجة، إذا بهما يريان مجموعة من الناس ينتظرون أمام باب مكتبة صغير في شارع لوس كابتشينوس، رغم العاصفة والبرد، ومبلغ الأمر أن أوسكار وايلد ذات نفسه بداخلها.

وحين خرج أخيرا، في غاية الأناقة والرشاقة، يشعر بنفسه وبعظمته بقوة لا مثيل لها، إذا بهؤلاء الناس يتدافعون عليه يطلبون منه توقيعه على كتبه، التي اشتروها. أثناء ذلك اكتفى الدكتور أوربينو بالنظر إليه فقط، ولكن زوجته المندفعة أرادت أن تجتاز الشارع لكي يوقع لها، ولكن ليس على كتاب، فهي لم يكن معها أي كتاب، وإنما على قفازها، المصنوع من جلد الغزال الناعم الطري، لونه في نفس لون جلدها، الذي تتميز به كامرأة تزوجت مؤخرا، وكانت وقتها موقنة بأن رجلا مهذبا مرهف الحس مثل أوسكار وايلد سوف يقدر لها ما أرادته، ولن يأبى، ولكن وجدت من زوجها صدا حاسما قويا،

حينما حاولت الذهاب إليه، رغم قوة حجتها، فهو أحس وقتها بأنه لن يقدر أن يعيش لحظة أخرى إذا فعلت مثل هذه الفعلة المحرجة، قال لها:

- إذا عبرت الشارع، فأؤكد لك أنك حينما تعودين سوف تجدينني ميتا.

واللافت أن اندفاعها وحميتها هذه أمران طبيعيان فيها، فهي حتى قبل سنة من زواجها كانت تجول في أرجاء هذه الدنيا بالحرية ذاتها، التي كانت بها، وهي طفلة تعيش في ذلك المكان المقفر الخاوي من بلدة سان خوان ديه لا سيناجا، وبأنها لم تولد إلا هكذا، فكان سهلا عليها للغاية التعامل مع الغرباء لدرجة أن زوجها تعصف به الدهشة والحيرة وهو يراها معه بهذه الطريقة، وكان لها أيضا موهبة غير عادية في فهم جميع لهجات اللغة الإسبانية أيا كانت جنسية هذا الشخص، وأيا كان مكانه، حتى كانت تقول ضاحكة مازحة: «لا بد لأي شخص أن يعرف جميع اللغات إذا أراد أن يبيع شيئا ما، ولكن إذا أراد أن يشتري، فساعتها كل الناس ستفهمه أيا كانت لغته»، وغريب فعلا قدرتها على التأقلم السريع مع ملذات الحياة اليومية الباريسية، لتجدها تتمنى دوما باريس، وتتذكرها رغم سمائها الممطرة دائما، ومع ذلك، فإنها حين عادت إلى بيتها واكتفت بكل التجارب والخبرات، التي اكتسبتها في رحلتها، أرهقها السفر، وتكاد تغفو من آثار الحمل ومشقته، فأول ما كان الناس يسألونها، وهي في الميناء كيف بدت لها عجائب وغرائب أوروبا، كانت تكتفي بجملة واحدة فقط ترد بها على كل من يسألها هذا السؤال، وعلى مدار شهور من بعد عودتها:

- إنها أكثر من هذا وذاك، إنها قارة عادية جدا.

(٤)

في اليوم، الذي رأى فيه فلورنتينو أريثا فيرمينا داثا في ردهة الكاتدرائية، وهى حامل في ستة شهور، ولها ما لها من تحكم وسيطرة، وإحساسها بأنها امرأة هذا الزمان، حينئذ اتخذ قرارا لا رجعة فيه ولا هوادة أن يكسب شهرة وثروة كي يكون كفؤا لها. فكر في هذا ونوى وقرر، ولم يضع حتى في اعتباره أنها أصلا متزوجة، وذلك لأنه موقن بأن أجل الدكتور أوربينو آت آت، وكأن الأمر كله راجع إليه وحده. هو لا يعلم متى ولا كيف سيموت الدكتور أوربينو، ولكنه في كل الأحوال مصمم على أنه سيموت سيموت، أمر لا مفر منه أبدا، ولينتظر موته بكل هدوء واطمئنان وترو، فهكذا ينتهي كل أمر في هذه الدنيا، وهكذا ينتهي قرن من الزمان ليبدأ قرن جديد.

وبدأ فعلا أولى خطواته، وبدون أي مقدمات أو إخطار مسبق ذهب بنفسه إلى مكتب عمه ليون الثاني عشر، رئيس الجمعية الإدارية، والمدير العام لشركة الكاريبي للملاحة النهرية، وعرض عليه استعداده لتنفيذ كل ما يأمره به، وما يريده منه. وكان عمه غاضبا عليه حين أضاع على نفسه تلك الفرصة الجيدة كعامل تلغراف في بيا دي ليبا، ولكنه مع هذا أقنع نفسه بأن الإنسان عادة لا يولد يوم ينزل من بطن أمه، ذلك أن الحياة نفسها قد تجبر الإنسان لأكثر من مرة أن يولد من جديد، بالإضافة إلى أن أرملة أخيه ماتت العام الفائت، وعليها ما عليها من حقد وضغينة على جميع الناس، ولكن لم يكن لها ورثة ، ولهذا

وافق على أن يمنح ابن أخيه الشريد وظيفة مما عنده.

وكان قرارا نموذجيا مثاليا من عمه، فرغم ما يبدو عليه من كونه تاجرا بلا روح ولا رحمة، إلا أنه يحمل في داخله طباعا شاذة طريفة للغاية، من ظرفها كأنها ينابيع تخرج بالليموناضة في صحراء جواخيرا الجدباء، هو قادر على أن يغرق جنازة بحالها بالحزن بغنائه الحزين المشجي لأنشودة «في ظلام القبر». له شعر مجعد وشفتان غليظتان للغاية كشفتي إله الريف عند الرومان، ولا ينقصه إلا قيثارة وإكليلا من الغار ليبدو شبيها بإمبراطور الرومان «نيرون»، الذي أحرق روما، وكان يقضي وقت فراغه في إثراء ما عنده من موسوعة لغوية غنائية. وقت فراغه بالكاد ينتشله انتشالا من بين إشرافه على إدارة سفن الشركة المتهالكة، سفن لا تزال تطفو على سطح الماء بمعجزة، وبين ما تحاصره هو من مشاكل الشركة، التي تزداد تعقيدا في كل مرة. لا شيء أحب عنده من الغناء في الجنازات، فصوته كصوت العبيد، ليس له أي قواعد معينة تحكمه، ولكنه قادر على أن يثير عاطفة الجميع بلا استثناء، وذات مرة حكى له شخص ما أن إنريكو كاروسو يستطيع أن يهشم زهرية بصوته فقط، فمكث سنوات وسنوات يحاول أن يفعل مثله، ويجرب صوته حتى على زجاج النوافذ، وكان أصدقاؤه يجلبون له، خلال رحلاتهم، الخفيف الرقيق للغاية من الزهريات، وينظمون حفلات خاصة من أجله كي يحققوا له حلمه، ولكنه أبدا لم يستطع. مع هذا فصوته في أعماق أعماقه ثمة بصيص من الحنان كثيرا ما يطرب له سامعوه، أثره عليهم بالضبط كأثر تلك الزهريات حين تتهشم من صوت كاروسو العظيم، ولهذا وجوده مرغوب جدا في الجنازات. باستثناء مرة واحدة، حيث قرر أن يغني: « حين يعلو بي المجد» «When I wake up in glory»، أغنية جنائزية خاصة ببلدة لويسيانا، فيها كثير من الجمال والتأثير، وأوقفه كاهن الكنيسة لأنه لم يستطع أن يفهم كلمة واحدة من تلك الكلمات اللوثرية، بروتستانتية الأصل.

هذه كانت شخصيته، فحبه للأوبرا والموسيقى النابولية، وموهبته وإبداعه وروحه الخلاقة في إدارة الشركة، كل هذا جعله من الشخصيات المرموقة في الملاحة النهرية في فترة ازدهاره. هو لم يكن شيئا من قبل بالضبط مثل بقية إخوته الموتى، وكلهم وصلوا لما أرادوه رغم تألمهم لكونهم أبناء غير شرعيين، ولم يكن في حسبانهم أن يصيروا شخصيات مرموقة معروفة. كانوا نتيجة لما سمّي في ذلك الوقت بـ «الأرستقراطية الوهمية» مكانها الأساسي هو نادي التجارة، ومع ذلك فحينما صار لديه الكثير من المال والموارد ليعيش عيشة الأباطرة الرومانيين، كان يعيش في المدينة القديمة بما يدر عليه عمله من مال وفير، ولكنه يقتر على نفسه غاية التقتير، حتى أنه يقيم في بيت ليس فيه أي ترف ولا بذخ، ولهذا ظل حياته كلها مظلوما موصوفا بالبخل، ولكن رغم هذا، فالبذخ الوحيد عنده شيء بسيط جدا، بيت يطل على البحر، ويبعد عن مكاتب شركته نحو فرسخين، خال تماما من قطع الأثاث إلا من ستة كراسي بلا ظهر، وقلل للماء العذب، وسرير معلق في التراس ينام عليه كل يوم أحد مريحا نفسه من أفكار الدنيا وأعبائها، وليس أفضل من وصفه لنفسه حين قال:

- لست غنيا، إنما أنا رجل فقير معه نقود، الأمران مختلفان.

ولهذا، فشخصيته الغريبة هذه، التي امتدحها أحد ذات مرة قائلا عنها إنها شخصية مجنونة ظريفة، أتاحت له أن يعرف في حينه ما لا يعرفه أحد لا في الماضي ولا في المستقبل عن فلورنتينو أريثا، فمنذ ذلك اليوم، الذي جاءه فيه فلورنتينو، بمظهره الجنائزي، وبعمره البالغ ستة وعشرين عاما، يطلب منه العمل في مكاتبه، حتى وافق فورا على أن يعمل لديه، ولكن واضعا إياه تحت الاختبار بنظام قاس للغاية يفل عزيمة أجرأ إنسان على هذه الأرض، ولم يفلح في تخويف فلورنتينو أبدا، وأدرك بخبرته أن ابن أخيه، القوي العزيمة هذا، لم يأته لأنه بحاجة إلى عمل يقيم به أوده أو لجرأة فيه ورثها عن أبيه، وإنما لأن في نفسه حبا دفينا، حبا لا يستطيع شيء في هذا العالم أن يثنيه عنه.

وأسوأ سنوات فلورنتينو هناك كانت سنواته الأولى، حين عيّنوه كاتبا في الإدارة العامة. وظيفة بدت أنها أنشئت خصيصا من أجله، ولوتاريو ثوجوت، الذي كان بمثابة أستاذ ليون الثاني عشر في الموسيقى، هو من نصحه بتعيين ابن أخيه في إحدى الوظائف التي تحتاج إلى كتابة، وذلك لما له من حب وشغف للأدب جميعه، حلوه وقبيحه، وإن كان قبيحه يعجبه أكثر، وعمه ليون الثاني عشر لم يهتم كثيرا لكون ابن أخيه لا يقرأ إلا الأدب دون المجالات الأخرى، وذلك لأن لوتاريو ثوجوت كان يقول عن ليون إنه من أسوأ تلاميذه على الإطلاق في الغناء، ومع هذا فما سمعه أحد إلا وبكي حتى بلاط الأضرحة تبكي من صوته. على كل، ثبت بعد ذلك أن لوتاريو ثوجوت على حق فيما قاله من قبل بخصوص فلورنتينو، ذلك أنه يكتب أي شيء بحس رهيف للغاية، فحتى الوثائق الرسمية تبدو كأنها رسائل حب وغرام، فمثلا البيانات الرسمية الخاصة بشحن السفن تجد كلامه فيها مسجوع منغّم، رغم محاولاته المستميتة كي يتجنب هذه الطريقة، وحتى الرسائل التجارية الروتينية كل كلماتها غنائية مشبوبة بالعاطفة، وليست جادة. وذات يوم جاءه عمه بنفسه في مكتبه، ومعه حزمة كبيرة من رسائله، التي لم يكن يجرؤ على توقيعها باسمه، وليعطيه آخر فرصة لينقذ موقفه، قال له:

- أعدك بأنك لو لم تستطع أن تكتب رسالة تجارية واحدة عادية، فإني سوف أرسلك لتجمع القمامة الملقاة عند رصيف الميناء.

وقبل فلورنتينو التحدي، وبذل جهدا جبارا كي يكتسب المهارات البسيطة المطلوبة لكتابة رسالة تجارية، مقلدا الأسلوب الموجود في وثائق الشهر العقاري بنفس الدقة والاجتهاد اللذين بذلهما مع الأشعار الخاصة بشعراء عصره. في تلك الفترة كان يقضي وقته في «البورتال ديه لوس إسكريبانوس» يساعد العشاق، الذين يفتقدون الحس الأدبي ليكتب لهم رسائل حبهم المعطرة، رسائل كلها كلمات غرامية مؤثرة من تلك المختزنة

فيه، التي لا يستطيع استعمالها في التقارير الجمركية، ولكنه بعد ستة شهور لم يستطع أن يصرف نفسه عن غريزته الشعرية، رغم كثرة محاولاته، واعترف أمام عمه بخسارة التحدي حين جاءه يلومه للمرة الثانية، اعترف، ولكن في شيء من الاعتزاز بالنفس والثقة، قال له:

- لا شيء يهمني إلا الحب.

فرد عليه عمه:

- والسيئ أنه لا حب إلا إذا نجحت في هذه الشركة.

وفعلا نفذ عمه ما هدده به قبلا، وجعله يقوم بجمع القمامة عند رصيف الميناء، ولكن وعده بأن تتم ترقيته شيئا فشيئا إلى أن يصل للمكان الذي يستحقه ما دام أجاد عمله وأتقنه. وفعلا هذا ما حصل، فلا عمل يضعه فيه، رغم قسوته ومذلته إلا وينتصر فيه، فلم تحط من عزيمته كونه يأخذ أجرا زهيدا من المال، وأبدا لم تهن عزيمته ورباطة جأشه، رغم قلة الدخل، ورغم تثبيط رؤسائه له، ولكنه أيضا لم يكن ساذجا بريئا، فأي شيء يعترضه في طريقه يجد منه ثباتا وحزما غير عاديين، قادرين على تحطيم أي عقبة، رغم مظهره الواهن الخادع، وهذا بالضبط ما أراده، واستعد له عمه ليون حتى لا تكون أي صغيرة أو كبيرة في الشركة، إلا وهو عالم بها، ولهذا عمل فلورنتينو في جميع وظائف الشركة على مدار ثلاثين عاما، وبكل إصرار وعند واهتمام لكل تجربة يمر بها. كان يمارس كل وظيفة يتولاها بإتقان شديد، ويدرس بدقة شديدة خيوطها المتشابكة المعقدة مثلما كان يفعل مع الشعر والشعراء، ولكنه فعل كل هذا، ولم ينل أكثر ما تمناه: أن يكتب رسالة تجارية واحدة، واحدة فقط، دون أن يعلم، ودون أن يكون هذا هدفه كان بالضبط يثبت الحكمة، التي ظل أبوه يرددها إلى آخر نفس فيه: أنه لا أحد في هذه الدنيا عملي وخبير مثل الشعراء، فلا هؤلاء النحاتون بما لهم من صنعة ودراية، ولا هؤلاء المدراء بما لهم من فطنة وذكاء بمثل الشعراء في خبرتهم. هذا على الأقل ما كان يحكيه له عمه

ليون الثاني عشر، الذي اعتاد في الماضي أن يقضي وقت فراغه يتحدث عن أبيه حين يصفو له قلبه، أخبره بكلام جعله يكون فكرة أن أباه كان إنسانا حالما أكثر من كونه صاحب شركة وإداريا.

وحكي له ذات يوم أن أباه بيو كينتو لوياثا كان يستغل مكاتب الشركة للمتعة أكثر من العمل، وكان كل يوم أحد يخرج من بيته إليها بحجة أن عليه استقبال أو إرسال سفينة ما على وجه السرعة، واليوم أصلا يوم إجازة، بل إنه لم يكتف بهذا، فقد وضع في مستودع الميناء محرك باخرة تالف له صفير مزعج، حيث يقوم أحد ما بتشغيله، حتى لا تشك زوجته في أنه لا يعمل، وتخيّل العم ليون الثاني عشر أن فلورنتينو أريثا كان في بطن أمه عند إحدى هذه المكاتب مغلقة الأبواب جيدا، في ليلة من ليالي يوم الأحد، حيث يسكر أبوه ويعربد، وكل هذا بينما زوجته تسمع متوهمة بأن هناك سفينة ترحل عن الميناء، وحين اكتشفت أخيرا فعلته، كان الأوان فات لتعاقب زوجها على رذالته، لأنه مات، وعاشت كثيرا بعد ذلك، يؤلمها للغاية كونها لم ترزق بابن راجية الله ليلا نهارا أن يُحل اللعنة الأبدية على ابن زوجها غير الشرعي.

وفي الواقع كانت صورة الأب مشوشة للغاية في ذهن فلورنتينو أريثا، فأمه كانت تحدثه عنه على أنه رجل عظيم لم يكن له أي باع في التجارة، وانتهى به الأمر أن اندمج اندماجا في الملاحة النهرية، وذلك لأن أخاه الأكبر كان مساعدا مقربا جدا من قائد الأسطول الألماني خوان بي إلبيرس، الذي يعد أول من بدأ الرحلات النهرية. كانوا أبناء غير شرعيين من الأم نفسها، التي كانت تعمل طباخة، ولكن كل منهم من رجل مختلف، وحملوا جميعا لقب أمهم إلى جانب اسم بابا تم أخذه بالصدفة من سير القديسين، باستثناء العم ليون الثاني عشر، الذي كان اسم البابا في ذلك الوقت حين ولد، وفلورنتينو كان اسم جد أم الجميع، وعلى هذا وصل ذلك الاسم لابن ترانسيتو أريثا، اسم بعيد كل البعد عن أي اسم من أسامي الباباوات في أي جيل من الأجيال.

وفلورنتينو كان دوما يحتفظ معه بأجندة أبيه، التي كان يكتب فيها أشعاره، بعضها كان بإلهام وإهداء إلى ترانسيتو أريثا، وكانت أوراقها مزينة برسومات لقلوب شقت نصفين. شيئان أدهشاه كثيرا، أولا نوع الخط، الذي يكتب به أبوه، المماثل تماما لنوعه هو، رغم أنه أصلا اختار هذا النوع من الخط لأنه أعجب به من بين أنواع الخطوط الأخرى، والشيء الثاني، الذي أدهشه أنه وجد جملة يظن أنه من ألفها، وليس أبوه، جملة كتبها أبوه قبل أن يولد هو بزمن: الشيء الوحيد الذي أخشى أن أموت دونه هو ألا يكون سبب هذا الموت الحب.

رأى فلورنتينو الصورتين الوحيدتين، اللتين كانتا لأبيه. إحدهما أخذت في «سانتا في»، حين كان لا يزال في مقتبل عمره، في العمر نفسه، الذي رآه فيه لأول مرة، وفي الصورة يرتدي معطفا كبيرا بدا بالضبط كأنه داخل دب ضخم مستندا على قاعدة تمثال لم يتبق منه إلا الأجزاء السفلية منه، وذلك الصغير، الذي كان بجانبه هو عمه ليون الثاني عشر يضع على رأسه قبعة صغيرة تشبه تلك، التي يضعها قبطان السفينة، وفي الصورة الفوتوغرافية الأخرى كان أبوه إلى جانبه مجموعة من المحاربين، لا يدري أحد فيما كانت الحرب وقتها، وكان ممسكا ببندقية طويلة للغاية، وبالكاد تطفر من شاربه رائحة البارود، فيشمها كل من يرى الصورة. أبوه كان ماسونيا ينتمي إلى الأحرار، وأيضا إخوته، ورغم هذا أراد، في ذلك الوقت، أن يلحق ابنه بمدرسة إكليريكيّة، وفلورنتينو لم يكن يرى أي تشابه بينه وبين أبيه كما يقولون هم، ولكن عمه ليون الثاني عشر قال: إن أباه أيضا كانوا يلومونه على أسلوبه العاطفي للغاية في رسائله الرسمية. على كل، لم يكن بينه وبين أبيه أي تطابق في الشكل، ولا حتى فيما يذكر من ذكريات عنه، ولا حتى ثمة تشابه بينه وبين الصورة، التي رسمتها له أمه في مخيلته، يحركها حبها وغرامها له، ولا حتى مع تلك الصورة المشوهة، التي رسمها له عمه بقسوته الفكاهية المرحة، بل إنه اكتشف هذا

التشابه بعد سنين طويلة من ذلك الحين، حيث كان يمشط شعره أمام المرآة، وحينئذ فقط عرف كيف يشيخ الإنسان حين يبدأ في ملاحظة الشبه بينه وبين والده.

لم يكن يذكر شكله حين كان في مدينة كايه دي بينتاناس، وهو يظن أن أباه قضى فترة ما ينام هناك في بيت أمه، في بداية حبه معها، ولكنه لم يعد لزيارتها بعد ولادتها له، ووثيقة العمادة هذه التي ظلت لسنين كثيرة الوسيلة الوحيدة لتحديد الهوية في بلادنا، وكذلك بالنسبة لفلورنتينو، ذُكر فيها فقط أنه ابن غير شرعي من ابنة غير شرعية اسمها ترانسيتو أريثا، هذه الوثيقة مكانها في خورنيّة «سانتو توريبيو»، وفيها لم يظهر قط اسم أبيه الذي ظل يرعى نفقاته سرا حتى آخر يوم في حياته، ولهذا أُغلقت في وجه فلورنتينو أبواب المدرسة الإكليريكية، ولكن في الوقت نفسه نفعته في الهرب من الخدمة العسكرية في فترة كانت الحرب فيها على أشدها، وذلك لأنه الابن الوحيد لامرأة وحيدة.

كان يقضي كل يوم جمعة، بعد خروجه من المدرسة، أمام مكاتب شركة الكاريبي للملاحة النهرية، ويراجع كتابا يحوي صور الحيوانات، كتاب اهترأ من كثرة تصفحه له، ثم يأتي الأب بوجهه الشبيه بوجه يوحنا المعمدان، وبسترته الصوف، التي بعد ذلك تأخذها ترانسيتو أريثا، وتفصلها على مقاس ابنها، ويدخل مكتبه دون أن يراه، وبعد ساعات طويلة يخرج الأب، ويعطي ابنه المال اللازم لمصاريف الأسبوع، يعطيه، وهو حريص كل الحرص على ألا يراه أحد حتى سائق عربته، كل هذا ولا يدور بينهما أي حديث، وذلك ليس فقط لأن أباه لا يحاول أن يتكلم معه من الأساس، وإنما لأنه هو أيضا يشعر بخوف شديد منه، وذات يوم، بعدما انتظره طويلا أكثر مما تعود، أعطاه والده المال، وهو يقول له:

- خذ المال، ولا تعُد إلى هنا مرة أخرى.

وكانت تلك آخر مرة يرى فيها أباه، ولكنه مع مرور الوقت علم بأن عمه

ليون الثاني عشر، الذي يصغر أباه بنحو عشرة أعوام، هو من كان يحمل المال إلى ترانسيتو أريثا، وهو أيضا من كان يهتم بشؤونهما بعدما توفى والده إثر مغص في أمعائه أهمل علاجه، مات دون أن يترك أي وصية أو أي إجراءات، أو قرارات بخصوص ابنه الوحيد فلورنتينو، ابنه غير الشرعي.

والمأساة، التي كان يعانيها فلورنتينو أريثا حين عمل ككاتب في شركة الكاريبي للملاحة النهرية هو أنه لم يكن يستطيع تجنب الأسلوب الغنائي العاطفي بسبب تفكيره المستمر في فيرمينا داثا، ولم يتعلم أبدا أن يكتب دون التفكير فيها، وبعد ذلك، حين انتقل للعمل في وظائف أخرى، كان يفيض به شعوره بالحب، حب لم يكن يعرف ماذا يفعل معه، فكان يهديه إلى هؤلاء العشاق، حيث يمكث عند «البورتال ديه لوس إسكريبانوس»، ويأخذ في كتابة رسائل الحب من أجلهم دون أي مقابل منهم، وعادة يذهب إلى هناك بعد الانتهاء من عمله، وحينها ينزع سترته بكل هدوء ووقار ويعلقها على الكرسي، ثم يضع تلك الأكمام الإضافية، حتى لا تتوسخ أكمام قميصه، ويفك أزرار صدريته ويريحها كي يستطيع التفكير بشكل أفضل، وأحيانا ما يبقى هناك إلى وقت متأخر جدا من الليل يحاول أن يحيي حماس هؤلاء البؤساء برسائل فيها ما فيها من كلام مستعر مجنون، ومن حين لآخر تأتيه مثلا امرأة فقيرة لديها مشكلة مع ابنها، محارب قديم يصمم على المطالبة بدفع نفقات إقامته في البنسيون، شخص تعرض لسرقة ويريد الشكوى إلى الحكومة، ولكنه رغم كل محاولاته لم يكن يفلح في إرضائهم، وذلك لأنه أساسا لا يستطيع إقناع أحد بشيء، إلا من يريدون منه كتابة رسائل غرامية، ومن براعته لم يكن حتى يسأل الزبائن الجدد، فيكفيه أن يرى أعينهم ليقوم بما يرجونه، ويأخذ في كتابة الورقة تلو الأخرى بكلام غرامي محموم، لاجئا إلى طريقته الخاصة، التي لا تخطئ أبدا، حيث يكتب مفكرا دائما في فيرمينا داثا، ولا يفكر في أي شخص سواها، وفي نهاية الشهر الأول اضطر أن يضع نظاما

بالحجز المسبق، حتى لا يطمع فيه هؤلاء العشاق برغباتهم التي لا تنتهي.

وأكثر ذكرى أحبها في هذه الفترة هي ذكرى تلك الشابة الصغيرة، التي بالكاد تكون في سن الطفولة، ومع ذلك طلبت منه، وهى ترتعش من الخوف، أن يكتب لها ردا على رسالة مؤثرة للغاية تسلمتها للتو، رسالة عرف فلورنتينو بأنه هو أصلا من كتبها ليلة أمس، فوافقها وراح يرد عليها بأسلوب مختلف، أسلوب يناسب طفلة في مثل عمرها ويناسب عواطفها، بل وكتبها أيضا بخط يشبه خط الأطفال، فهو يعرف كيف يكتب بخط يناسب كل شخصية يكتب لها. كتبها وهو يتخيل فيرمينا داثا ترد عليه وتحبه كثيرا بالضبط كما تحب هذه الشابة الطفلة حبيبها، وبعد يومين كان عليه أيضا أن يكتب رد الحبيب على رسالتها بالأسلوب والخط نفسيهما، ومستوى الحب، الذي به كتب الرسالة الأولى، وهكذا انتهى به الأمر أن صار هو وحده الملتزم عن تلك الرسائل المحمومة بينه وبين نفسه، وقبل مرور شهر ذهب كلا الحبيبين إليه على حدة ليشكراه، وكان هو من وضع اقتراح الزواج في رسالة الحبيب، كما كان هو من وافق في رسالة الشابة، وأخيرا سوف يتزوجان.

وفقط حين وُلد طفلهما الأول عرفا بالصدفة من كلامهما مع بعضهما بأن كاتب رسائلهما واحد لم يتغير، ولأول مرة ذهبا إليه معا ليطلبا منه أن يكون الأب الروحي لتعميد ابنهما، ومن شدة تأثره بهذا الموقف، ومن أن أحلامه تتحقق أمامه أخيرا، قرر أن يوجه بعض وقته، رغم انشغاله الشديد ليكتب نسخة جديدة تحمل نفس اسم كتاب «أسرار العشاق» القديم لتكون أكبر حجما، وأكثر شاعرية من هذه الموجودة في الأسواق، والتي تباع مقابل عشرين ريالا في الحارات والأزقة، والتي تعرفها المدينة كلها عن ظهر القلب، ووضع في كتابه بالترتيب المواقف، التي تخيلها بينه وبين فيرمينا داثا، وعند كل موقف يكتب نماذج مختلفة من الرسائل، التي قد تكون بين الحبيب وحبيبته، وأخيرا كان كتابه هذا عبارة عن ثلاثة آلاف رسالة مجزأة في ثلاثة

مجلدات، ومبوبة بدقة شديدة، كما في معجم «كوباروبيا»، ولكن لم يجرؤ أي ناشر في البلدة كلها على أن ينشره، وانتهى به الأمر أن ألقي في الغرفة، التي تقع أسفل حنية السقف، بما معه من أوراق الماضي، وذلك لأن أمه رفضت أن تضيع مدخرات عمرها من أجل نشر هذا الجنون، وبعدها بسنوات، صار لديه ما يكفيه من وسائط وأموال خاصة لينشر كتابه، ولكن كلفه الأمر كثيرا حتى يعلم بأن رسائله الغرامية لم تعد مواكبة لعاشقي عصره.

وبينما يخطو خطواته الأولى في الشركة، ويقوم بالكتابة في «البورتال ديه لوس إسكريبانوس»، كان أصدقاء صباه لديهم يقين بأنهم يفقدونه شيئا فشيئا، وبلا رجعة، وفعلا هذا ما حصل، فبعد عودته من رحلته النهرية هذه كان لا يزال يرى ويقابل بعضهم على أمل أن يخفف من ألمه بسبب فيرمينا، فيلعب معهم البلياردو، ويحضر آخر حفلات رقص في عمره، ويترك نفسه للبنات تجري القرعة عليه ليعلمن أيهن ستصحبه، هو باختصار كل ما يجد فيه تسليته يتجه إليه بلا تفكير كي يرجع كما كان قبلا، وبعد ذلك حين قيده عمه ليون الثاني عشر كموظف في الشركة، صار يلعب الدومينو في نادي التجارة مع زملائه في المكتب، وهؤلاء ألفوه واعتبروه واحدا منهم، ذلك أن حديثه كله عن الشركة، التي لم يكن يذكر اسمها بأكمله، وإنما الحروف الأولى منها فقط، وحتى عاداته في الأكل تغيرت تماما، فهو الذي كان لا يبالي أبدا بطعامه وغير منظم البتة، غدا شديد النظام والتقتير على نفسه إلى آخر يوم في حياته: فنجان كبير من القهوة السوداء على الإفطار، وعلى الغداء شريحة من لحم السمك المسلوق مع الأرز الأبيض، وقبل النوم يأخذ فنجان قهوة باللبن ومعه قطعة من الجبن، وعلى الدوام تجده طوال اليوم يشرب فنجان قهوة، مهما كان المكان والظروف، التي فيها، حتى بلغ عدده الفناجين في اليوم ثلاثين فنجانا. قهوته هذه التي يفضل دوما إعدادها بنفسه تشبه في سوادها لون البترول الخام، ودوما يحفظها في تُرمس، حيث يجدها وقتما يطلبها. فعلا تغير تماما،

تغير رغم أنه صار عكس هدفه الأساسي، ومحاولاته المستميتة ليكون ذلك الـ «فلورنتينو»، الذي كان قبل عثرة الحب المميتة.

والحقيقة أنه لم يرجع أبدا إلى ما يريد، فهدفه الحقيقي في الحياة استعادة فيرمينا داثا، وكان واثقا من أنه إن عاجلا أو آجلا سوف ينالها، حتى أنه أقنع أمه بأن تواصل تجديد البيت كي يكون على أهبة الاستعداد لاستقبالها، إذا حدثت المعجزة ورضت به، وبغض النظر عن كونها لم ترض باقتراح نشر كتابه «أسرار العشاق»، كانت حينها في وادٍ آخر. اشترت البيت كله، وأخذت في تجديده بالكامل، فبنوا ردهة مكان غرفة النوم، وفي الطابق العلوي تم بناء غرفة نوم للزوجين وغرفة للأولاد، الذين سيولدون منهما ذات يوم، وكلا الغرفتين فسيحتين للغاية ومضاءتين جيدا، ومكان المكتب القديم الخاص بشركة التبغ شيدوا حديقة كبيرة فيها كل ما لذ وطاب من أنواع الورود والأزهار، التي كان فلورنتينو يهتم بنفسه بها في أوقات فراغه الصباحية. المكان الوحيد الذي لم تمسه يد التجديد هو دكان أدوات الخياطة، الذي بقى ليشهد على الماضي، وأيضا الغرفة، التي كانت خلف الدكان، والتي كان ينام فيها فلورنتينو تُركت كما هي بما فيها من سرير معلق، وبمنضدتها الكبيرة، التي ازدحمت بما عليها من كتب، ولكنه على العموم تركها، وأقام في الغرفة الموجودة في الطابق العلوي، والتي من المتوقع أن تكون غرفة الزوجية، وكانت هي الموضع الأكثر طراوة واتساعا في الدار، وفيها تراس داخلي يهب عليه ليلا نسيم البحر المنعش وشذا الورود الموجودة في الحديقة، فيكون من الجميل البقاء فيه ليلا، لذا كانت تلك الغرفة هي الأنسب لشخص مثل فلورنتينو يحب العزلة عن الناس كأنه راهب في صومعته. جدرانها كانت خشنة مستوية مبنيّة من الجير الحي غير المطفأ، وليس فيها أثاث إلا ذلك السرير الخاص بالسجون، وكومودينو فوقه زجاجة وضع في فمها شمعة، ودولاب قديم، وأيضا إبريق لغسل الأيدي، ومعه الوعاء والطست الخاصان به.

واستمر تجديد البيت نحو ثلاث سنوات، وفي الوقت نفسه، من وقت لآخر، كانت البلدة تتعرض لبعض الإصلاحات المؤقتة بسبب إطلاق الملاحة النهرية والتجارة البرية فيها، ولذلك ظلت شامخة عظيمة خلال سنين الاستعمار الإسباني، وظلت لقرنين من الزمان الميناء الرئيسي لأمريكا كلها، ولكن أيضا في هذه الفترة بدأت ترانسيتو أريثا يظهر عليها أعراض مرضها، الذي لا شفاء منه، وكانت زبوناتها الدائمات عندها يأتين إلى دكانها في كل مرة أكثر كبرا وضعفا وشحوبا، حتى إنها لم تعد تستطيع التعرف عليهن، بعد أن ظلت نصف عمرها معهن، وصارت أمورهن تختلط عليها ولا تميز بينها، وطبعا أمر كهذا خطير للغاية، فهناك لا عقد يوقع ولا أي شيء، وإنما هي الكلمة تصدر من قائلها، فتكون عهدا وميثاقا، كلمة الشرف عندهم بمثابة الضامن الوحيد والكافي، وفي البداية ظنت بأنها تعاني من صمم ما في سمعها، ولكن سرعان ما ظهر أنها تعاني فقدانا حاد في الذاكرة، ولهذا صفّت تماما هذه التجارة، وبما لديها من جواهر مدفونة استطاعت أن تنهي إعادة بناء الدار وتأثيثها من جديد، بل وبقى الكثير من الجواهر الأكثر قيمة على مستوى البلدة، ولم يعد مالكوها لديهم أي مال لاستعادتها.

في تلك الفترة وجب على فلورنتينو أن يهتم بأكثر من أمر في الوقت نفسه، ولكن لم تهن عزيمته أبدا في زيادة فتيات الليل الخاصة به، فهو بعد تجربته مع أرملة ناثاريت، التي فتحت أمامه الطريق للجنس الخاص بالشوارع، استمر في اصطياد فتيات الليل ولسنوات طوال، وهو ما زال في فكره أنه بهذا يجد سلواه عن ألمه بسبب فيرمينا، ولكنه بعد ذلك لم يكن يعرف إذا كانت ممارسة الجنس بلا أمل هكذا كانت تمثل احتياجا خاصا به أم لمجرد وجود نقص ما في جسده، ولم يعد يذهب كثيرا إلى الفندق، وهذا ليس فقط بسبب أنه وجد متعته في أماكن أخرى، وإنما لأنه لم يكن يحب أن يراه أحد، وهو في خضم مغامراته الجنسية، هو الذي يعرفه الجميع هناك على أنه إنسان عفيف

أليف ليس له باع في أمور الجنس، ومع هذا لثلاث مرات اضطر أن يستأنف وسيلة كان الكثير يلجأون إليها في فترة لم يعشها، تلك الوسيلة كانت أن تتنكر صديقاته اللاتي يخفن أن يعرفهن أحد في شكل رجل، ويدخلن الفندق بكل غطرسة وعجرفة على أنهم أصدقاء جاءوا ليقضوا سهرتهم، ولم يفلت الأمر، فلا بد أن أحدا ما اكتشف الأمر على الأقل في مرة أو مرتين، خاصة أن فلورنيتنو يأخذ صاحبه هذا، عشيقته، مباشرة إلى الغرفة، وليس إلى الكانتين، ولهذا قُضي على سمعة فلورنتينو، التى هي واهنة من الأصل، بضربة واحدة، وأخيرا لم يعد يذهب إلى هناك، والمرات القليلة جدا، التي يذهب فيها إلى هناك ليس سببها تأخره في ممارسة الجنس، وإنما العكس تماما: قضاء وطره مع من فاض عددهن عن حاجته.

كثيرا ما يجد أي عاهرة يريدها، فهو لا يترك مكتبه إلا عند الساعة الخامسة عصرا، وحينها يخرج في رحلة بحث عن فريسة له تشبع غريزته، وكان في البداية يجد من تقضي معه الليلة. خادمة في إحدى المتنزهات يأخذها معه، زنجيات من الموجودات في السوق، وقد يجد شابة أنيقة عند شاطئ المدينة أو إحدى الأمريكيات، التي تكون على متن سفن نيو أورليانز. يأخذهن إلى حيث تكون تلك الألسنة البحرية، المكان الذي يلجأ إليه نصف رجال المدينة عند مغيب الشمس، يأخذهن إلى حيث يستطيع، بل أحيانا إلى حيث لا يستطيع، فمرات قليلة يضطر فيها إلى أن يلجأ بعشيقته إلى أحد الدهاليز المظلمة، خلف إحدى البوابات، ويقضي وطره معها.

كان الفنار ملجأه الدائم، المكان الذي فيه يتذكر، والحنين يعصره، بعدما تبسمت له الأيام حين أشرف على الشيخوخة، ففعلا المكان مناسب جدا لسعادة أي شخص، خاصة في الليل، كان يستحضر أيام شبابه هناك، وهو يفكر في أنه لا بد أن بعض علاقاته وصل إلى هؤلاء الملاحين. مع كل ومضة ضوء كان يذهب إلى هناك أكثر من أي مكان آخر، وصديقه عامل الفنار يسعد بلقائه،

ويرحب به بوجهه الأحمق، الذي كان خير ستار على فتيات ليله الهالعات، فثمة بيت أسفل الفنار، ومنه يصل إلى أذنيك صخب الأمواج، وهى تصطدم في عنف بحافة الجرف، فيصير الحب أكثر عمقا وقوة، فإحساسه بالغرق يرفرف عليه حينها، لكن فلورنتينو لم يكن يفضل إلا الضوء في أعلى الفنار، فمن هناك يرى المدينة كلها أمامه، ويرى أنهار الأضواء الخاصة بالصيادين في البحر، وحتى تلك الأضواء الآتية من المستنقعات البعيدة كل البعد.

في هذه الفترة جاءته تلك النظريات الفكرية البسيطة للغاية حول العلاقة بين جسد المرأة ورغباتها في الحب، وهو لم يكن يثق أبدا في النساء العاطفيات، فباستطاعتهن أكل لحم التمساح النيء، هن عادة في الحب لا فائدة ولا متعة ترجى منهن، إنما النوع المفضل لديه مختلف تماما، وهو تلك الفتيات الهزيلات، اللاتي لا يكلف أحد نفسه النظر إليهن لمرة ثانية، اللاتي حين ينزعن ملابسهن يبدون لا شيء، هن مثيرات للشفقة حين يطقطق عظامهن مع بداية الحب، ومع هذا فهن مستعدات تماما لأعتى العتاة من الرجال.

ظل يدون كل ملاحظاته السابقة لأوانها على أمل أن يكتب ذات يوم صفحات عملية يلحقها بكتابه «أسرار العشاق»، ولكن باء مشروعه بالفشل، مثلما حصل في المرة السابقة بعدما اقتحمته أوسينسيا سانتانديرلتقلب رأسا على عقب ما علمه من تجاربه السابقة، كانت كأنها ولدته بنفسها من جديد، رفعته للسماء ثم انخفضت به، ليولد إنسانا جديدا تماما، وكل نظرياته في الشهوة الجنسية حطمتها وبددتها كليةً، هي من علمته الشيء الوحيد، الذي لا بد له أن يعلمه عن الحب: أن لا أحد بقادر على توجيه وتعليم الحياة على هواه.

هذه المرأة كانت متزوجة رسميا لعشرين عاما متواصلة، ومن هذا الزواج صار لها ثلاثة أبناء تزوجوا، وخلفوا البنين والبنات، لدرجة أنها كانت تفخر

بكونها الجدة الأفضل في أمور الجنس على مستوى البلدة، ولم يكن واضحا أبدا إذا كانت هي من تركت زوجها، أم أنه هو الذي تركها، أم أن الاثنين تركا بعضهما في الوقت نفسه حين ذهب الزوج ليعيش مع عشيقته إلى الأبد، وأحست هي بالحرية لتستقبل في عز النهار من الباب الرئيسي للدار القبطان روسيندو ديه لا روسا، الذي كانت تستقبله في ليال كثيرة من الباب الخلفي، وهو نفسه من حمل إليها فلورنتينو أريثا دون تفكير.

جاء به ذات مرة للغداء، ومعه دورق العرق، بيتي الصنع، ومعه ما معه من أفضل المكونات لطبخ يخنة اللحم: الدجاج البيتي، ذلك اللحم الطري، الذي يكون حول العظم، لحم الخنزير، والبقول والخضراوات الخاصة بالقرى المحاذية للنهر، ومع هذا، فمنذ اللحظة الأولى لم يظهر فلورنتينو حماسا كبيرا لما أمامه من جودة الطعام، ولا لتلك الحيوية والنشاط اللتين تفيض بهما أوسينسيا، كل ما شده هو الجمال الموجود في بيتها، لأنه أعجب أشد الإعجاب بطراوته وإضاءته الجيدة، وبالنوافذ الأربع المطلة على البحر وعلى المدينة القديمة من بعيد، كما راقه هذا الكم الكبير من البذخ، الذي يضفي على الصالة جوا غامضا وقويا في الوقت نفسه، وما فيه من تلك التحف، التي يجلبها معه القبطان، بعد عودته من كل رحلة، حتى من كثرتها لم يعد هناك موضع آخر لها، وفي تراس البيت المطل على البحر يقف على طوق خاص ببغاء ماليزي كبير الحجم، لونه أبيض ناصع، وعليه هدوء عجيب كأنه مستغرق في أفكار ما. ببغاء في نظر فلورنتينو أجمل ما رأى في حياته.

وتحمس القبطان، وفرح لحماس فلورنتينو، وراح يشرح له بالتفصيل تاريخ كل شيء في البيت، وأثناء شرحه يأخذ رشفات سريعة من مشروب العرق دون توقف، ويبدو كأنه كتلة من الأسمنت المسلح: ضخم، كل أجزاء جسمه كثيفة الشعر باستثناء رأسه، له شارب غليظ مفتول، وصوته كصوت آلات رفع الأثقال، صوت يخصه وحده، ظريف غاية الظرف، ولكن لا يوجد

أي جسد بشري في هذا العالم بقادر على كميات الشراب الضخمة التي يتجرعها، فهو بالكاد انتهى من نصف الدورق قبل أن يجلس إلى المنضدة، وإذا به يهوي على الأرض مهشما ببطء الأقداح والقوارير الزجاجية، واضطرت أوسنسيا أن تطلب من فلورنتينو مساعدتها في جرّ جسد القبطان الخامد بالضبط كأنه حوت كبير جنح على الشاطئ، ثم مساعدتها في نزع ملابسه، وبعد ذلك، إذا بهما يشعران كأن إلهاما هبط عليهما في الوقت نفسه ظانين بأن ما حدث كان بسبب توافق بين البرجين الفلكيين لكل منهما، إذا بهما يتعريان أمام بعضهما في الغرفة الملاصقة دون اتفاق مسبق بينهما، ولا حتى أحدهما ألمح للآخر أو اقترح عليه، وظلا سبع سنوات يتعريان أمام بعضهما أثناء غياب القبطان في رحلاته النهرية، وليس ثمة أي مخاطرة أو مفاجأة قد يواجهانها، وذلك لأن القبطان من عادته الجيدة كبحار أن يخطر الجميع عند وصوله الميناء باستخدام صفارة السفينة، حتى في عز الفجر، يطلق أولا ثلاث صفارات طويلة ممطوطة من أجل زوجته وأبنائه التسعة، ثم صفارتين كئيبتين متقطعتين من أجل عشيقته.

وأوسنسيا سانتاندير تبلغ من العمر خمسين عاما، وعمرها واضح عليها، ولكن لديها غريزة جنسية غير عادية، غريزتها لا يمكن أبدا أن تقف أمامها أي نظرية علمية أو مهنية حتى، وفلورنتينو كان يعلم من الطرق التي تسلكها البواخر والسفن، متى يذهب إليها، ودوما يكون عندها بلا سابق إنذار وقتما يريد، نهارا أو ليلا، ولم يحدث أن وجدها مرة واحدة ليست في انتظاره. ظلت لسبع سنين تفتح له الباب في كل مرة وتستقبله عارية تماما، ولكن حول رأسها شريط من الأورجانزا، ولم تكن تتركه أبدا يخطو أي خطوة أخرى إلا قبلما تنزع عنه ملابسه كلها، فهى تتشاءم من وجود رجل في البيت بملابسه، ولهذا كانت دائما تتشاءم من القبطان روسيندو ديه لا روسا، لأنه متمسك بخرافة أن التدخين بدون ملابس شؤم كبير، حتى إنه أحيانا يفضل تأجيل ممارسة

الجنس إلى حين ينتهي من سيجاره الكوبي، على النقيض تماما، فلورنيتنو أريثا لا يستطيع أن يقاوم إغراء التعري، وهى آخذة في نزع ملابسه ما إن تغلق البيت، ولا تعطيه فرصة حتى لكي يسلم عليها أو حتى لينزع نظارته أو قبعته، وتظل تنزع عنه ملابسه، وتقبله بلا توقف، بينما تفك أزراره من أسفل إلى أعلى، تبدأ أولا بسرواله، زرا زرا بعد كل قبلة، ثم إبزيم الحزام، وأخيرا أزرار سترته وقميصه، فيبدو كأنه سمكة حية مكشوفة تسعى في الماء، ثم بعد ذلك تأخذه وتجلسه في الصالة، وتنزع حذاءه ذا الرقبة العالية، ثم تمسك بساقي بنطلونه وتنزعه في الوقت نفسه، الذي تنزع عنه سرواله الداخلي الطويل الذي يصل إلى ركبتيه، وأخيرا ترخي رابطي جوربيه عند سمانتي ساقيه وتنزعهما، ثم بعد ذلك يكف عن قبلاته وقبلاتها ليقوم بالشيء الوحيد، الذي يؤول له وحده خلال كل هذه الطقوس: ينزع عنه نظارته، ويأخذ الساعة بسلسلتها من عروة سترته، ثم يضعهما في حذائه، وكل هذا كي يتأكد أنه لن ينساهما. هذه عادته دائما، التي لا يخذلها أبدا حين يتعرى في بيت غير بيته.

وبمجرد أن يقوم بهذا إذا بها تنقض عليه دون أن تعطيه أي فرصة، على الكنبة نفسها، التي عرته عليها، وأحيانا قليلة فقط يمارسان الجنس فوق الفراش، تضعه تحتها وتتحكم في كل شيء عنده كأنه لها وحدها، وتنغلق في ذاتها، وتأخذ في جس كل شيء فيه، وهى مغلقة عينيها لا ترى شيئا إلا ظلامها الداخلي، تتقدم هنا وتتراجع هناك، تصحح اتجاهها، تحاول تنفيذ طريقة أخرى أكثر قوة، طريقة أخرى تسير بها دون أن تغرق في مستنقع ما يسيل منها. كل هذا، وهى تسأل نفسها وتجيب بصوتها الهامس الخفيض كأنه طنين الدبابير، وبرطانتها الخاصة بها وتظل تسأل نفسها: أين هذا الشيء الموجود في الظلام، الذي تعرفه وترغب فيه وحدها فقط، إلى أن تستسلم مرة واحدة للشهوة دون أي انتظار له، وإذا بها تغوص في هوة الشهوة الجنسية، وتضحك ضحكة مدوية فرحة بانتصارها أخيرا، حينها يحس فلورنتينو بإجهاد عظيم،

يحس بأنه ناقص، كأنه يطفو فوق بركة من العرق الذي ينضح منهما بلا توقف، وفي نفسه انطباع بأنه ليس إلا مجرد وسيلة للتسلية، فيقول لها حينئذ: «أنت تعاملينني كأنني زائدا على الحاجة»، فأطلقت ضحكة مدوية، وقالت: «بل على العكس تماما، إني أعامل على أنك أقل، فبعدي تنهد كل قواك». قالت له هذا لأنه يبقى بعدها بانطباع أنها سلبت منه قواه الجنسية جميعا بشهوتها العارمة، ولكن مرة غلبته أنفته وقرر حين يخرج من بيتها ألا يعود إليه مرة أخرى، ولكنه سرعان ما استيقظ في الليل ووجد قلبه خاويا فارغا يحيط به جو قاتم من العزلة والوحدة، وظهرت له ذكرى هذا الحب القوي مع أوسنسيا سانتنديو على أنه فخ من السعادة يمله ويرغبه في الوقت نفسه، ولكنه لا يستطيع أبدا الهرب منه.

وفي يوم من أيام الأحد، بعد سنتين من تعارفهما، كان أول شيء فعلته معه بدلا من أن تنزع عنه ملابسه، هو أن نزعت عنه نضارته لتقبله، وبهذا عرف أخيرا أنها بدأت تحبه، ورغم شعوره بالراحة منذ أول يوم دخل فيه هذا البيت، الذي أحبه كأنه بيته، إلا أنه لم يكن يبقى هناك أكثر من ساعتين، ولا حتى يبقى هناك للنوم، ومرة واحدة فقط رضى بأكل الطعام لأنها أصلا دعته بشكل رسمي. هو حقيقة يذهب إليها بغرض أن يهديها وردة، هديته لها دوما، ثم يختفي بعد ذلك إلى أن تحين فرصة أخرى غير متوقعة، ولكنه في يوم الأحد هذا الذي نزعت فيه عنه نظارته لتستطيع تقبيله، قضيا بقية النهار عاريين على الفراش الكبير الخاص بالقبطان، وذلك لأنه من ناحية هذا هو السبب، ومن ناحية أخرى لأنهما بقيا نائمين بعدما استراحا من ممارسة الحب، وحين استيقظ من قيلولته وجد نفسه ما زال يتذكر صيحات الببغاء الماليزي، الذي تتناقض مع جماله الباهر الأسلاك النحاسية الخاصة بقفصه، ولكن حينها كان الهدوء يخيم على جو الغرفة الخانق من الحر، ومن نافذتها ترى المدينة القديمة على ضوء شمس الأصيل بقبابها الذهبية وبحرها الممتد إلى جامايكا

تتموج عليه تلك الأشعة الذهبية. حينها مدت يدها المغامرة تبحث عن هذا الحيوان الرابض، ولكنه أبعدها عنه. قال لها: «لا. الآن، لا. أنا أشعر بشيء غريب كأن أحدا يرانا»، فانفجرت ضاحكة بطريقة أزعجت الببغاء، وقالت: «هذه الحجة لا يمكن أن تخدع امرأة مثل امرأة سيدنا يونس، التي تصدق كل ما يقال لها». اقتنعت بحجته بعد ذلك، وأقرت بأنها حجة جيدة، أحب كل منها الآخر في صمت دون أن يكررا شيئا من الجنس، وفي الساعة الخامسة، حيث لا تزال الشمس تتوسط كبد السماء، إذا بها تقفز من السرير بعريها الأبدي وبشريط الأورجانزا الملتف حول رأسها لتبحث لها عن شيء تشربه في المطبخ، ولكنها بمجرد أن خطت خطوة أخرى خارج الغرفة وإذا بها تصرخ صرخة فزع شقت سكون الدار.

لم تصدق عينيها، فالبيت كله خال إلا من تلك المصابيح المعلقة في السقف، أما باقي الأثاث الفخم بما فيه من سجاجيد هندية وفرنسية، وتلك التحف الصغيرة التي لا تعد ولا تحصى بما فيها من أحجار كريمة ومعادن غالية، كل هذه الأشياء، التي جعلت من بيتها الأكثر فخامة وأناقة على مستوى البلدة كلها، كل شيء، حتى ذلك الببغاء الماليزي المقدس أشد التقديس، كل شيء أبيد عن بكرة أبيه. لم يبق إلا تلك الغرف الخاوية المقفرة بشبابيكها الأربعة مفتوحة على مصراعيها وثمة كلام مكتوب بخط عريض على الجدار: سرقنا كما شئنا لأنكما كنتما مستغرقين في الحب.

لم يفهم القبطان روسيندو فيما بعد لماذا لم تعلن عن هذه السرقة، ولا حتى لماذا لم تحاول أن تتصل بهؤلاء التجار، الذين يبيعون المسروقات، ولا حتى كانت تسمح لأحد أن يتكلم عن هذا الأمر من الأساس.

وظل فلورنتينو أريثا يزور بيتها بعد هذه السرقة، بعدما صار كل ما فيه من أثاث مجرد ثلاثة كراسي بلا ظهر، نسيها اللصوص في المطبخ، وكذلك تركوا غرفة النوم، التي كانا فيها، ولكنه عموما لم يعد يزورها كما كان سابقا،

وهذا ليس بسبب ذلك البؤس، الذي خيّم على بيتها كما كانت تعتقد، وتقول في نفسها، وإنما لأنه مع بداية القرن الجديد صار في المدينة ترام تجره البغال، وأضحى بالنسبة له المأوى الأصلي الممتلئ بفتيات الليل، وكان يركبه أربع مرات في اليوم، مرتين ليذهب إلى مكتبه ومرتين ليعود إلى بيته، وأحيانا يقرأ حقا، وأحيانا أخرى كثيرة يتظاهر بالقراءة، يوفق على الأقل في موعد واحد، وبعد ذلك، حين وضع عمه ليون الثاني عشر تحت إمرته عربة تجرها بغال سمراء، صغيرة الحجم، عليها أغطية ذهبية اللون، تشبه تماما تلك الخاصة بالرئيس رافاييل نونيث، إذا به يشتاق إلى تلك الفترة، التي كان يركب فيها الترام، الذي تجره البغال، ففيها ازدهر صيده لفتيات الليل ازدهارا لا مثيل له ولا مزيد عليه، ومعه الحق كل الحق، فلا شيء أسوأ للحب السري من عربة تنتظر أمام الباب، ولهذا كان كثيرا ما يترك عربته في بيته، بل لنقل أنه دوما يخفيها هناك، ثم يخرج ماشيا على قدميه في طرق خاصة به، هو يفضل ألا يركبها حتى لا تترك عجلاتها آثارها على الطريق، ولهذا كان يتذكر بكل حنين أيام الترام القديم تجره تلك البغال الهزيلة، التي فيها ما فيها من القشرة والقمل ويكفيك أن تنظر إليها، ولو خطفا لتعرف أين يكمن الجنس حينها، ورغم كثرة ذكرياته المؤثرة لديه، إلا أنه أبدا لم يستطع أن ينسى ذكرى تلك الفتاة الشريدة، التي لا يعرف لها اسم، رغم أنه بالكاد صاحبها فقط لنصف ليلة من الجنون المحموم، ولكن تلك المدة كانت كافية لتعكر عليه بقية حياته كلما جاء ميعاد احتفالات الكرنفال السنوي بما فيه من فوضى بريئة مبهجة.

لفت نظره، وهو في الترام ما بدا عليها من قوة ورباطة جأش وسط كل ما حولها من جو المجون والعربدة. عمرها أكثر من عشرين عاما، وظاهر جدا أنها غير متحمسة للكرنفال، إلا أنه يبدو عليها كأنها متنكرة في شكل إنسانة عاجزة، مع أن لها شعرا أشقر فاتح اللون طويل وناعم منسدل على كتفيها في حرية تامة، وترتدي تنورة من القطن العادي بلا رسومات. بدت

في واد آخر بعيد تماما عن صخب وجلبة الموسيقى الدائرة حولها، وحفنات الأرز والأشياء الملونة الني يلقيها الناس على راكبي الترام، حتى أن البغال، التي تجره غدت بيضاء اللون من كثرة ما ألقي عليها من النشا، وعلى رأسها أكاليل الأزهار، خلال أيام الكرنفال الثلاثة. استغل هو ما حوله من فوضى، ودعاها لتأكل معه الجيلاتي، لأنه فكر في أنها لن تقبل أكثر من هذا، ونظرت نحوه دون أي دهشة، وقالت: «أقبل دعوتك بكل سرور، ولكني أحذرك، فأنا مجنونة»، فضحك من ظرفها وأخذها معه ليريا من شرفة دكان الجيلاتي طابور عربات الخيل أثناء سيرها، وبعد ذلك ارتدى كل منهما الزي الخاص باحتفالات الكرنفال، واندمج كلاهما بين جموع الناس الراقصة في ميدان أدوانا، وتمتعا بالرقص كأنهما عشيقان ولدا من جديد، وبلغت شدة لا مبالاتها أقصى الحدود، مع هبوط الليل راحت ترقص رقصا محترفا للغاية، مندمجة كل الاندماج في هذه العربدة، وبكل قوة، وكانت ساحرة فاتنة بحق، وإذا بها من عدوى الكرنفال تصيح به ضاحكة:

- أنت لا تعرف مع من ورطت نفسك. أنا يا سيدي مجنونة جاءت من مستشفى المجانين.

وهو في وادٍ آخر تماما، يشعر بأنه عاد في هذه الليلة إلى تلك الأيام البريئة الخاصة بمراهقته، حينما كان غير مصاب بسهم الحب، ولكنه كان يعلم أيضا، لمجرد عبرة يؤمن بها، وليس بسبب بخبرته، أن أي سعادة سهلة بهذه الطريقة مآلها أن تنتهي، وهذا ما حصل، فكما يحدث دائما حين توزع الجوائز على أفضل من لبسوا الأزياء التنكرية، أوشك الليل أن ينتهي ليطلع الصباح، وهنا اقترح عليها بأن يذهبا إلى الفنار ليشاهدا شروق الشمس من هناك، ووافقت على اقتراحه مسرورة، ولكن بعدما يتم توزيع الجوائز.

بعدها، أدرك فلورنتينو بكل يقين أن هذا التأخير منها كان سببا في إنقاذ حياته، وفي الواقع أنه حينما ألمحت إليه الفتاة بأن الوقت حان للذهاب إلى

الفنار، إذا بحارسين قويين وممرضة من مستشفى «ديبينا باستورا» ينقضون عليها، كانوا يبحثون عنها منذ هروبها في الساعة الثالثة عصرا، وليس هم فقط، وإنما جميع رجال الحكومة، بعد أن ذبحت أحد الحراس، وجرحت اثنين جروحا غائرة بساطور سرقته خلسة من البستاني، وكل ذلك لأنها أرادت الرقص في الكرنفال، ولكن لم يخطر على بال أحد قط أنها سترقص في الشارع، بل كانوا يظنون أنها اختبأت في أحد البيوت، حتى أنهم بحثوا في الخزانات الموجودة تحت الأرض.

وحين وجدوها أخيرا، لم يكن سهلا أبدا أن يحملوها معهم، كان في يدها مقص تشذيب خبأته في حمالة صدرها، واحتاجوا إلى ستة رجال ليلبسوها القميص الخاص بالمجانين، بينما جموع الناس تشاهدهم في الميدان، وتصفق لهم وتصفر معتقدين بأنه مجرد مشهد من تلك المشاهد المسرحية الهزلية التي تقام في الكرنفال. قضي فلورنتينو وقته بعدها يحس كأن قلبه سينفطر، ومنذ يوم أربعاء الرماد، الذي يتبع أيام الكرنفال الثلاثة، صار يمر على الشارع، الذي فيه مستشفى «ديبينا باستورا»، ومعه علبة فيها شوكولا إنجليزية من أجلها، ويظل هناك ينظر إلى سجناء المستشفى يصيحون فيه بكل أنواع السباب من نوافذهم، ويظل هو يغريهم بعلبة الشوكولا على أمل أن تلوح هي من بين القضبان الحديدية، ولكنه لم يرها أبدا، وبعد ذلك بشهور، بينما هو نازل من الترام إذا بطفلة صغيرة مع أبيها تطلب منه أن يعطيها قطعة شوكولا من علبته التي يحملها في يده، فعاتبها أبوها ووبخها وراح يعتذر له، ولكنه أعطاها العلبة كلها، وهو يظن أنه بذلك يمحو كل ما في نفسه من مرارة وألم، ورجا أباها بأن يهدأ رابتا على كتفه، وقال له:

- هذه الشوكولا كلها لم تكن إلا من أجل حب ضاع وانتهى.

وظل أيضا يركب هذا الترام عله يجد تعويضا عما حدث له، وحينها عرف ليونا كاسياني، المرأة الحقيقية التي ولجت حياته بكل قوة، رغم أنه لا

هو ولا هي كانا يعلمان هذا، ورغم أنهما لم يمارسا الحب مطلقا.

شعر بها تنظر إليه قبل أن يراها أصلا، وذلك حين كان عائدا إلى بيته في الترام، وكانت الساعة الخامسة تقريبا، لم تكن نظرتها عادية، إنما كانت نظرة من هولها شعر كأن إصبعا مسه. حينئذ رفع عينيه ورآها في أقصى العربة. يسهل تمييزها جيدا عن بقية الراكبين، أما هي فلم تخفض من عينيها، بل حدقت فيه بثبات ووقاحة، حينها لم يأت على باله إلا أن هذه المرأة الزنجية الشابة الجميلة ما هي، بدون أدنى شك، إلا عاهرة، وعلى الفور أزاحها من عقله لأن في نظره لا شيء أسوأ في هذه الدنيا من دفع مقابل للحب، وهو لم يفعل ذلك قط.

ثم نزل فلورنتينو إلى ميدان «لوس كوتشيس»، المحطة الأخيرة، التي يقف عندها الترام، وعلى الفور هرول بين هذا التيه من الناس والبائعين، فأمه تنتظره في الساعة السادسة، وحين خرج من الناحية الأخرى من الزحام، إذا به يسمع وقع كعب حذاء نسائي خليع على الأرض، فالتفت ليتأكد من ظنه، وفعلا وجدها هي. وجدها ترتدي ما ترتديه الإماء الموجودات في الصور، عليها تنورة لها كشكشة كانت ترفعها بحركات راقصة رشيقة كي تستطيع المرور من فوق برك المياه، التي تملأ الشارع، وفتحة ثوبها من فوق واسعة بحيث تكشف عن كتفيها، وعلقت على رقبتها بضعة عقود مختلفة الألوان، وعلى رأسها قبعة بيضاء اللون، وهو كان يعرف هؤلاء الفتيات من وجوده في الفندق، وكثيرا ما يحدث أن يستيقظن في الساعة السادسة عصرا، ولم تدخل حلوقهن لقمة واحدة، وحينها لم يكن أمامهن إلا استعمال الجنس كأنه سكين يبرزها قاطع الطريق للمارة، ويخطفن أول رجل يصادفنه في الشارع: الجنس أو حياتك.

ولمرة أخيرة جرّب فلورنتينو أن يتأكد من سوء ظنه، فدلف إلى زقاق «الكانديليخو» المقفر من الناس، ووجدها تتبعه أيضا، بل، وفي كل مرة

تقترب منه أكثر. حينئذ توقف والتفت إليها وسد طريقها واقفا على الرصيف متكئاً بكلتا يديه على شمسيته، فوقفت أمامه مباشرة، فقال لها:

- أنت مخطئة كل الخطأ أيتها الجميلة. أنا لست من هذا النوع.

فردت قائلة:

- بالطبع نعم، عرفت هذا ما إن رأيت وجهك.

وهو منذ أن كان طفلا يذكر جملة قالها له طبيب العائلة، الذي كان أبوه بالعمادة، حينما وجده يشكو من إمساك مزمن: «العالم كله مقسم بين هؤلاء الذين يستطيعون التبرز ومن لا يستطيعون». عبارة قالها الطبيب لتصير بعد ذلك عقيدة، ونظرية يحكم بها على شخصية أي إنسان، بل وآمن بها أكثر من الأبراج الفلكية، ولكنه مع مرور السنين والتجارب صاغها فلورنتينو بشكل آخر: «العالم كله مقسم بين هؤلاء الذي يستطيعون الجنس ومن لا يستطيعون»، وهو لم يكن يثق في هؤلاء، الذين ما إن ينتهوا من الحب، الذي في نظرهم شيء غير عادي، يخرجون ليتباهوا به كأنهم من اخترعوه. على العكس، من يمارسونه كثيرا إنما يعيشون فقط من أجل الحب وللحب، وهم لا يرتاحون إلا إذا كانوا في كتمان تام، لأنهم يعلمون جيدا أن هذا التحفظ والكتمان عماد حياتهم. ولذا فهم لا يتحدثون مطلقا عن مغامراتهم، ولا يثقون في أحد، يدعون السهو والذهول لدرجة أنهم قد يُتهمون بالعجز والبرود الجنسي، بل قد يتهمون بالشذوذ الجنسي، ولا يهمهم، وهذا بالضبط ما يبدو عليه فلورنتينو. هذا الخطأ لا يتضايقون منه، وإنما يرتاحون إليه لأنه أصلا يحميهم. هم يكونون جماعة غاية في الغموض، أعضاؤها كلها يعرفون بعضهم بعضا، وعلى مستوى العالم كله دون حاجة إلى لغة مشتركة يتواصلون بها، ولهذا لم يستغرب فلورنتينو من رد الفتاة الشابة، فهى واحدة من هؤلاء، وأيضا تعرف بأنه يعرف بأنها تعرف.

كان خطأ حياته، الذي ظل يجرح ضميره باستمرار، حتى آخر يوم في

حياته، فهي لم ترد منه الحب ولا حتى الحب مقابل المال، وإنما جاءته تترجاه بأن يمنحها أي وظيفة في شركة الكاريبي للملاحة النهرية مهما كان أجرها، وكيفما كانت هذه الوظيفة، فأحس حينها فلورنتينو بخجل شديد من تصرفه معها، وعرضها فعلا على رئيس الموظفين، الذي بدوره منحها عملا متدنيا للغاية في قسم الشؤون العامة للشركة، والتي زاولته بكل جدية وتواضع وإتقان وحرص لثلاث سنوات.

جدير بالذكر أن مكاتب الشركة، منذ نشأتها، موجودة أمام الرصيف النهري دون أن يربطها أي شيء مشترك بالميناء الخاص بالسفن العابرة للمحيطات والموجودة عند الناحية الأخرى من الخليج، ولا حتى لها الرصيف الخاص بسوق خليج «لاس أنيماس». الشركة كانت عبارة عن مبنى من الخشب له سقف من الخارصين بانحدارين، وشرفة واحدة طويلة ذات أعمدة في الواجهة، والعديد من النوافذ في الجوانب الأربعة من المبنى، كل نافذة عليها شبك من السلك يغطيها كلها، ومن هذه النوافذ ترى البواخر الراسية عند الرصيف، فتبدو كأنها لوحات معلقة على الحائط، وحين بناها مؤسسوها الألمان دهنوا الخارصين الخاص بالسقف باللون الأحمر، ودهنوا ألواح الخشب باللون الأبيض الناصع، بحيث يبدو المبنى كله كأنه باخرة نهرية، ثم بعد ذلك دهنوا كل شيء باللون الأزرق، وحينما دخل فلورنتينو الشركة للعمل بها كان المبنى كله كأنه مستودع معفر بالتراب ليس له أي لون محدد، كما أنه وُضع فوق ألواح السقف القديمة، التي أكلها الصدأ ألواح أخرى جديدة، وخلف هذا المبنى كان يوجد فناء مفروش بالحجارة الصغيرة، ومسوّر بتلك الأسلاك، التي تحوط بها حظائر الدجاج، وبداخله يوجد مستودعان كبيران بنيا حديثا، وفي أقصى الفناء يوجد مخزن كبير، تحت الأرض، مغلق، قذر، تفوح منه رائحة كريهة للغاية، وفيه يتعفن كل ما يتبقى من سفن النهر: أنقاض لبواخر تاريخية، من أول تلك النماذج الأولية،

ذات المدخنة الواحدة، التي دشنها سيمون بوليفار بنفسه، إلى هذه النماذج الأكثر تطورا، حيث يوجد في حجراتها مراوح كهربائية، وأغلب هذه السفن فككت لتستعمل أجزاؤها في بواخر أخرى، ولكن أكثرها في حالة جيدة جدا بحيث يبدو كأنه لا ينقصها إلا بعض الدهان، ولتنطلق بعد ذلك في عرض البحر، دون إثارة الفزع بين كل هذه السحالي، التي أقامت واستقرت هناك، وهذه الأغصان الملتفة الكثيفة، ذات الورود الصفراء الضخمة، التي اشتبكت بهذه البواخر، وترعرعت فيها.

في الطابق العلوي من المبنى يوجد القسم الإداري للشركة عبارة عن مكاتب صغيرة، ولكنها مريحة ومجهزة جيدا، بالضبط كأنها تلك الغرف الموجودة في البواخر، وذلك لأنه من أسسوها وبنوها لم يكونوا مهندسين مدنيين عاديين، وإنما مهندسي بواخر وسفن. في أقصى الطرقة تجد العم ليون الثاني عشر كأنه موظف عادي بين بقية الموظفين، يجلس في مكتب مثل بقية المكاتب، وكل الاختلاف أنك تجد عنده في صباح كل يوم على منضدته زهرية زجاجية فيها ما فيها من أنواع الورود، ذات الرائحة الحلوة العطرة. أما الطابق السفلي من المبنى، ففيه القسم الخاص بالمسافرين، وبجانبه ردهة وضعت فيها مقاعد قديمة غير مريحة بالمرة، وثمة مكتب لقطع التذاكر وحزم الأمتعة، وفي آخر كل هذا يوجد ذلك القسم الفوضوي الخاص بالشؤون العامة، مجرد اسمه فقط يعطي انطباعا عن كم الغموض بخصوص المهام المحددة له، وفيه تقبع كل المشاكل الخاصة بالشركة التي لم يستطع لها حلا، لتموت إلى الأبد أسوأ ميتة، وهناك تجد ليونا كاسياني جالسة خلف مكتب مدرسي صغير بين آلاف مؤلفة من رزم الذرة المرصوصة فوق بعضها، وأكوام الأوراق. كانت هناك منذ اليوم الذي ذهب فيه العم ليون بشخصه ليرى ما نفع هذا القسم الخاص بالشؤون العامة، وبعد ثلاث ساعات من الأسئلة، والافتراضات النظرية، والتحقيق الجدي مع كل الموظفين في ردهة المبنى،

عاد إلى مكتبه، وهو في غاية من الحيرة والاستياء، لأنه أيقن بأنه ليس هناك أي حل لكل هذه المشاكل الكثيرة، بل على العكس مشاكل أخرى جديدة تضاف إلى القديمة، وتبقى أيضا بلا حل.

في اليوم التالي، بينما كان فلورنتينو داخلا مكتبه إذا به يجد مذكرة لليونا كاسياني تترجاه بأن يدرس ما فيها، ثم يعرضها بعد ذلك على عمه، إذا وجد ما فيها يستحق التقدير. كانت الوحيدة، التي لم تقل كلمة واحدة، خلال كل هذا التفتيش، الذي حدث في عصر اليوم السابق. كانت تعلم جيدا بأنهم وظفوها فقط لوجه الله، ولكنها قالت في مذكرتها إنها لم تعرضها عليهم، وقتها، لا لتجاهل أو إهمال منها، وإنما احتراما لرؤسائها وتقديرا لهم. كتبت ليونا مذكرتها ببساطة شديدة ومؤثرة، والعم ليون الثاني عشر فكر في أن يعيد تنظيم الشركة تنظيما جذريا، أما هي فرأيها مختلف تماما، بافتراضها أن قسم الشؤون العامة أصلا في الحقيقة يعتبر غير موجود، فما هو إلا سلة القمامة تلقى فيها بكل المشاكل المتعبة قليلة الأهمية في الوقت نفسه لباقي الأقسام في الشركة، وبالتالي، فالحل هو إلغاء قسم الشؤون العامة، ولترجع هذه المشاكل مرة أخرى إلى أصحابها في الأقسام المختلفة.

والعم ليون لم يكن لديه أدنى فكرة عمن تكون ليونا كاسياني هذه، ولا حتى يذكر إذا كان فعلا رآها عصر اليوم السابق أم لا، ولكنه بمجرد أن قرأ مذكرتها استدعاها على الفور إلى مكتبه، وراح يتحدث معها لساعتين، بعد أن أغلق باب غرفته. قضيا وقتا قليلا يتحدثان عن كل شيء، وهذه كانت طريقته ليتعرف على الناس، والمذكرة كانت هي الموضوع المشترك، وهى فعلا الحل الذي ينتظره، ولكنه حقيقة لم يكن يعنيه هذا الأمر، وما يعنيه هي ذاتها، وأكثر ما جذب انتباهه أنها تعلمت في مدرسة لتصنيع القبعات، بعد حصولها على الابتدائية، وأنها تدرس الإنجليزية في بيتها بطريقة سريعة وبدون معلم، وأنها منذ ثلاثة شهور تأخذ دروسا ليلية لتتعلم الكتابة على الآلة الكاتبة، وظيفة

المستقبل حينها، كما قالوا من قبل عن وظيفة التلغراف، وقبلها عن الماكينات البخارية.

وبعدما خرجت من مقابلتها معه بدأ يناديها دوما باسم ليونا، وبجرة قلم ألغى هذا القسم المثير ووزع المشاكل مرة أخرى على من قاموا بها ليصلحوها بأنفسهم، تماما كما اتفق معها، وأنشأ من أجلها وظيفة لا لها اسم محدد ولا مهام معينة، وظيفة عمليا يمكن تسميتها مساعدة شخصية، وفي هذا المساء، بعدما تم إلغاء هذا القسم، سأل العم ليون فلورنتينو من أين أحضر ليونا هذه، فأخبره بالحقيقة، حينئذ قال له العم ليون:

– إذن عُد مرة أخرى إلى هذا الترام ولتحضر معك كل من تجدها شبه ليونا. عد باثنتين أو ثلاث منهن يمكننا بذلك أن ننقذ سفينتك يا فلورنتينو.

حسبه يداعبه، ويمزح معه ليس أكثر، ولكنه في اليوم التالي لم يجد العربة، التي وضعت تحت إمرته منذ ستة شهور، العم ليون أخذ العربة منه فعلا كي يبحث له عن مواهب جديدة في الترام، أما ليونا كاسياني، فانتهى كل ما كان بداخلها من وساوس وإحراج، وأخرجت ما كان مخبوءا بدهاء في داخلها أول ثلاث سنين لها من عملها في الشركة، وخلال ثلاث سنين أخرى استطاعت أن تتحكم في كل شيء، وفيما تلاهن من أربع سنين أخرى شارفت على ولوج أبواب السكرتارية العامة، ولكنها رفضت نيل هذه الوظيفة لأنها بذلك تكون أقل بدرجة واحدة من فلورنتينو. كانت حتى ذلك الحين تمتثل لأوامره، وتريد أن يبقى على ذلك إلى الأبد، رغم أن الحقيقة مختلفة تماما، كانت هي من تتحكم فيه دون أن يحس، فالأمر ليس إلا أنه كان ينفذ ما تقترحه هي على الإدارة العامة لتساعده في تخطى عقباته من قبل أعدائه الغامضين.

كانت لديها مهارة شيطانية لتتحكم بكل قوة في الأسرار جميعا، ودوما تعرف متى تكون اللحظة المناسبة لكل شيء. هي حقا إنسانة عملية، هادئة، رزينة، حكيمة في لين ورفق، ولكنها في الحالات الضرورية للغاية تطلق العنان

لشخصيتها الحديدية بلا خوف، وفي روحها بعض الألم، ومع هذا لم تلجأ للقسوة أبدا. هدفها الوحيد أن تكنس السلالم الوظيفية بأي ثمن، ولو كان هذا الثمن هو الدم، إذا لزم الأمر، حتى يعلم فلورنتينو أريثا مكانه الحقيقي، دون أن يحسب جيدا قوتها الحقيقية، وبعد ذلك فعلا قامت بهذا، وبكل السبل بميلها وغريزتها القوية للسلطة، ولكن الحقيقة أنها تقوم بهذا، وهى مدركة تماما أنها شاكرة له تماما فضله عليها. كان هذا قرارها بلا رجعة، أن يتيه فلورنتينو بنفسه في قدراته وسلطاته، ولتأتي تلك اللحظة، التي يسد عليها الطريق معتقدا بأنها تحاول أن تسدها أمامه، ولكنها وضعته عند حده، حيث قالت له:

– لا تخطئ الظن. سوف أترك كل هذا متى تريد، ولكن فكر جيدا قبل أن تتخذ هذا القرار.

حقيقة رغم أنه قبلا لم يكن فكر جيدا، إلا أنه هذه المرة فكر مليا، وحاول بقدر المستطاع أن يزن الأمور جيدا، وقرر أخيرا بأن يسلمها أسلحته. المحقق أنه وسط كل هذه الحرب الباردة، التي تدور رحاها في شركة تعاني دوما من مشاكل لا تنتهي، وسط كل هذه الكوارث بكونه ممارسا للجنس بلا توقف، ووهمه عن فيرمينا داثا يزداد اضطرابا في كل مرة، وسط كل هذا لم يكن يملك أي راحة داخلية ولا أي سلام مع نفسه أبدا أمام هذا المشهد الساحر لتلك الزنجية الشجاعة الملطخة بالعار والجنس، وحولها كل هذا النزاع المحموم، وكثيرا ما كان يتألم سرا أنها لم تكن كما تخيلها في عصر ذلك اليوم البعيد حين تعرف عليها، كم ود لو أنه يمارس الحب معها، ويمس مؤخرتها بعضوه، ولو كان المقابل نقودا من الذهب الخالص، فهى لا تزال على الشكل نفسه الذي عرفها عليه حين وجدها في الترام، بملابسها الماجنة الفاتنة، وتلك القبعات الغريبة على رأسها، وأقراطها وأساورها المصنوعة من العظام، وعقودها الكثيرة المعلقة على جيدها، وخواتمها المرصعة بالأحجار المزيفة التي تضعها في كل أصابعها، تبدو حقا كأنثى النمر تسير في الشوارع، ومع

مرور تلك السنين القليلة اكتسبت المزيد من الفتنة والإغراء. صارت أكثر نضجا وفتنة من ذي قبل، مفاتنها كامرأة مشوبة بحرارة تثير الشبق، وجسدها كامرأة إفريقية غدا أكثر حمية وإغراء، وهو لم يلمح لها بأي شيء خلال عشر سنوات كاملة، كأنما يكفر ويتوب عما بدا من سوء ظن بها، وقتها، وكانت هي تساعده في كل شيء، إلا هذا.

وذات ليلة، تأخر عن موعد انصرافه من العمل كثيرا، كعادته بعد وفاة والدته، ثم، أثناء خروجه من الشركة إذا به يجد نور مكتب ليونا كاسياني مضاء، ففتح باب غرفتها دون استئذان ووجدها هناك، وحيدة أمام مكتبها، شاردة الذهن، جادة الملامح، تضع على عينيها نظارة جديدة أضفت عليها شكلا أكاديميا جميلا، حينها أدرك بكل سعادة أنهما الوحيدان في المكان كله، فرصيف الميناء خالٍ لا يوجد فيه نفس واحد، والمدينة كلها نائمة، وظلام الليل الحالك يخيم على البحر كله، وهناك سفينة تصدر عجيجا حزينا متواصلا، وتأخرت نحو ساعة عن ميعاد وصولها. استند بكلتا يديه على شمسيته، بالضبط مثلما فعل حين كان في زقاق الكانديليخو ليسد عليها طريقها، ولكن هذه المرة لا لشيء إلا ليحجب عنها ما في ركبتيه من اهتزاز وارتعاش. قال لها:

- قولي لي شيئا واحدا يا أنثى روحي: متى سنخرج من هذا وننام مع بعضنا؟

فخلعت نظارتها دون أي استغراب منها، وفي ثبات ورباطة جأش غير عاديين، بل وارتسمت على شفتيها ابتسامة مشرقة ساحرة، وكلمته بضمير المخاطب أنت، هي التي لم تكن تكلمه أبدا إلا بكلمة حضرتك. قالت:

- آه يا فلورنتينو، لقد انتظرتك عشر سنوات كي تسألني هذا السؤال.

فات الأوان، فبالنسبة لها ضاعت الفرصة حين كانت في الترام، هي التي دوما تجلس بجانبه على المقعد نفسه، ولكن الآن ذهبت الفرصة بلا رجعة،

والحقيقة أنها بعدما دبرت ما دبرت من المقالب الخفية لتوقع به، بعدما تحملت الكثير من الصمت من أجله، الحقيقة أنها كانت ناضجة عقليا كثيرا، في ذلك الوقت، حين كانت تبلغ من العمر عشرين عاما، ميزة كان يراها هو فيها: هي باختصار اختارت أن تشيخ من أجله، وباختصار أشد تحبه حبا جما بحيث أنها فضلت أن تحبه بدلا من خداعها له، رغم اضطرارها.

قالت له:

- لا. فأنا أحس كما لو أني أضاجع ابني، الذي لم يولد مني.

ظل طوال حياته كلها يعيش على شك في أن رفضها هذا كان جوابا نهائيا منها، فهو يظن أن المرأة حين تقول لا، تظل منتظرة من الرجل أن يصر حتى تتخذ قرارها النهائي، ولكن الأمر معها مختلف وبعيد كل البعد، فهو لا يستطيع أن يغامر ويخطئ أمامها لمرة ثانية. انسحب حينها من أمامها، وليس في نفسه أي شيء نحوها، حتى أنه شعر بامتنان لم يكن سهلا عليه أبدا أن يشعر بمثله، ومنذ هذه الليلة انقشع كل ما قد يكون بينهما من سحب الشك والكراهية، وأخيرا أدرك فلورنتينو بأنه من الممكن أن يكون صديقا لامرأة دون ممارسة الجنس معها.

ليونا هي المرأة الوحيدة، التي كان فلورنتينو يود لو يكاشفها بسر فيرمينا داثا، وأصلا من كانوا يعرفون سره على قلتهم بدأوا ينسونه لأمور خارجة عن إرادتهم. ثلاثة من هؤلاء وافتهم المنية، أمه، التي قبل أن تموت بزمن طويل محته محوا من ذاكرتها؛ جالا بلاسيديا، التي ماتت، بعد أن بلغت من العمر أرذله في خدمة من كانت تعتبرها ابنتها، وأخيرا تلك المرأة الخالدة إسكولاستيكا داثا، المرأة التي حملت له داخل الكتاب المقدس أول رسالة حب تلقاها في حياته، والتي لم تستطع مواصلة حياتها بعد عمر مديد، أما لورينثو داثا، الذي لم يكن يعلم وقتها إذا كان مات فعلا أم لا، ربما كشف سر فلورنتينو للراهبة فرانكا ديه لا لوث كي لا تطرد ابنته، وعموما فاحتمال قليل

جدا أن يكونا أذاعا سره، ولم يبق إلا عمال التلغراف الأحد عشر الموجودين في تلك المحافظة البعيدة عن إيلديبراندا سانتشيث، وهؤلاء قاموا بإيصال التلغرافات باسمهم كاملا وبعناوين صحيحة، ثم إيلدبراندا نفسها، وبنات أخوالها بما لهن من نزق وشقاوة.

وما لم يكن في حسبان فلورنتينو أن الدكتور خوبينال أوربينو لا بد أيضا أن ينضم إلى تلك القافلة العارفة بسره مع فيرمينا داثا، بعد أن كاشفت إيلديبراندا الدكتور بسر فلورنتينو في إحدى هذه الزيارات الكثيرة، التي كانت في السنين الأولى، ولكنها كاشفته بطريقة عارضة للغاية كأنها محض صدفة، وفي وقت غير مناسب بحيث أن الدكتور نفسه سمع كلامها من هذه الأذن وأخرجه من الأذن الأخرى، تماما كما اعتقدت هي، بل لنقل أن كلامها لم يدخل إحدى أذنيه أساسا، وهى حقيقة ذكرت فلورنتينو أريثا على أنه شاعر مغمور، الذي وفقا لها، قد ينجح في كسب جائزة المسابقة الشعرية، وكلفه الكثير حتى يتذكر الدكتور من هو فلورنتينو، فقالت بما تسمح به الضرورة، وبلا خبث أيضا، إنه كان الحبيب الوحيد لفيرمينا قبل زواج الدكتور منها. قالت له هذا، وهى مقتنعة للغاية بأنها لم تقل إلا شيئا بريئا وعارضا، سريع الزوال، بل ويبدو أيضا مؤثرا غاية التأثير، وقال لها الدكتور حينئذ دون أن ينظر إليها: «لم أكن أعرف أنه شاعر»، وفي الحال محاه من ذاكرته من بين أمور كثيرة عديدة محاها، وذلك لأن عمله يحكم عليه أخلاقيا أن ينسى كل شيء.

ولاحظ فلورنتينو أن من يحملون سره كلهم من مجتمع فيرمينا داثا باستثناء أمه، ويبقى هو يحمل هذا العبء الجسيم في صدره، ويود لو يشاركه أحد ما فيه، ولكن لا أحد حتى ذلك الحين يستحق ثقته ليذكر له سره، وليونا كاسياني هي الوحيدة المحتملة لمثل هذه الثقة، ولا ينقصه إلا الوقت المناسب، والطريقة التي يبوح بهذا السر لها. كان يفكر في كل ذلك في عصر يوم صيفي وصلت فيه درجات الحرارة إلى أعلاها، حينها بالضبط

كان الدكتور خوبينال أوربينو يرتقى سلالم الشركة الطويلة، وعند كل درجة يتوقف قليلا ليتغلب على حر الساعة الثالثة، وأخيرا برز أمام مكتب فلورنتينو وهو يلهث بقوة، بعد أن أغرقه عرقه من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، وبآخر ما عنده من قوة قال: «أظن أنه رغم كل هذا سوف تهجم علينا زوبعة من زوابع البحر»، وفلورنتينو كثيرا ما رآه هناك يبحث عن عمه ليون الثاني عشر، ولكنه لم ينطبع في وجدانه، كما الآن، أن ظهوره المفاجئ، غير المرغوب فيه، له صلة ما بحياته.

والدكتور أوربينو كان أيضا، في تلك الفترة، اجتاز عقبات مهنته جميعها، ويكاد يسير من باب إلى باب كالمتسول يمد يده باحثا عمّن يساهم في مشاريعه الفنية، وأكثر من كانوا يتحمسون له في دأب وبذخ دوما هو العم ليون الثاني عشر، الذي كان في تلك الساعة بالضبط بدأ ينام قيلولته اليومية لمدة عشر دقائق جالسا على مقعد مكتبه الوثير، ورجاه فلورنتينو أن ينتظر في مكتبه الملاصق لمكتب عمه، الذي أحيانا ما يكون ردهة لانتظار الضيوف.

رأيا بعضهما أكثر من مرة، قبل ذلك، ولكن أبدا لم يكن عن قرب بهذا الشكل، وجها لوجه، وحينها شعر فلورنتينو بغثيان يعصر أمعاءه، غثيان يأتيه حين يحس بأنه أقل شأنا ممن أمامه. أحس كأن هذه الدقائق الدقائق العشر أبدية، دقائق لم ولن تنتهي، حتى أنه نهض من مقعده ثلاث مرات عسى أن ينهض عمه قبل موعده المحدد، بل إنه خلال هذه الدقائق شرب نحو تُرمس كامل من القهوة السوداء، ولم يقبل الدكتور أوربينو بشرب فنجان واحد من القهوة قائلا له: «القهوة كالسم»، وظل الدكتور يحدثه ويكلمه، ويخرج به من موضوع إلى موضوع آخر دون توقف، ودون أن يهتم حتى إلى أن سامعه غير منصت إليه، أما هو فلم يكن يحتمل تلك الأناقة الطبيعية، التي يبدو عليها الدكتور، ولا ما في لسانه من طلاقة ودقة ووضوح، ولا رائحة الكافور الخفية، التي تضوع من أنفاسه، ولا حتى بقادر أن يحتمل سحره الشخصي، والسهولة

التي يعبر بها عن موضوعه، وفجأة غيّر الدكتور الموضوع وسأله:

- أتحب الموسيقى؟

فوجئ فلورنتينو، فهو لم يترك حفلة موسيقية واحدة أو أوبرا تقام فعالياتها في المدينة إلا ويحضرها، ولكنه مع هذا ليس باستطاعته النقد أو إبداء رأيه عن الموسيقى بشكل ملائم، فهو كان مغرما بموسيقى عصره في ذلك الوقت، خاصة الفالس قوي الأثر، المشبوب بالعاطفة، ولا يمكنه أبدا بحال من الأحوال أن ينكر انسجامه مع معزوفات الفالس، التي ألفها أيام مراهقته ولا مع ما كان يؤلفه من أشعار لم يعلنها لأحد. كان يكفيه أن يسمع اللحن مرة واحدة، وبعد هذا ليس ثمة أي قوة على وجه هذه الأرض بقادرة على أن تستل من رأسه اللحن، ولليال كاملة. ولكنه رغم هذا لم يجب عليه بشكل جاد لسؤال بدا جادا للغاية من قبل شخص متخصص، قال له:

- أحب سماع المغني جارديل.

ففهمه الدكتور أوربينو، وقال له: «عرفت، إنه عصري للغاية»، ثم عاد مرة أخرى يحكي عن مشاريعه الجديدة، التي كان عليه تحقيقها دون أي معونات رسمية، وكلمه عن كم الانحطاط المحزن الموجود عموما في العروض المسرحية الحالية، على عكس الازدهار، الذي كان في القرن السابق، وضرب له مثلا، وقال له إنه ظل سنة بحالها كي يبيع اشتراكات الثلاثي الموسيقي الشهير كورتوت-كاساليس-ثيبود لصالح مسرح الكوميديا، ولم يكن هناك واحد من الحكومة يعرف من هؤلاء، بينما في نفس هذا الشهر تم حجز جميع الأماكن من أجل فرقة التمثيل المتخصصة في الدراما البوليسية «رامون كارالت»، وفرقة السيد مانولو ديه لا بريسا الخاصة بأداء الأوبريت والمسرحيات الدرامية الإسبانية، وأيضا فرقة لوس سانتانيلاس، التي اشتهر ممثلوها بقدرتهم البهلوانية الفائقة، وما لهم من إيماءات وحركات مبهرة، وهم قادرون على تغيير ملابسهم أثناء المشهد المسرحي، وفي غمضة عين

دون أن يدري أحد، وأيضا لـ«دانيس ديه ألتاين»، التي اشتهرت بأنها الراقصة القديمة في أشهر كباريه بفرنسا، كباريه فوليس بيرجر، حتى هذا الشخص الملعون، الذي اسمه أورسوس حُجزت جميع أماكنه، وما هو إلا ممسوس جاء من إقليم الباسك من إسبانيا وقادر على أن يصارع ثورا بحاله وجها لوجه، والأمر لا يستحق الشكوى أساسا، فإذا كان الأوروبيون أنفسهم هم أسوأ مثال للحرب الهمجية الشرسة، في حين أننا بدأنا نعيش في سلام، بعد تسع حروب أهلية، وعلى مدى نصف قرن، كلها إذا حسبناها جيدا نجدها كأنها حرب واحدة. وأكثر ما جذب انتباه فلورنتينو في حديثه الآسر هذا، هو إمكانية أن يعيش مرة أخرى أيام المسابقة الشعرية السنوية، التي ساهم فيها الدكتور أوربينو بنفسه في الماضي، وظل يشجعها ويساهم في استمراريتها وبريقها. حينها انعقد لسان فلورنتينو، ولم ينطق بحرف واحد حتى لا يحكي له أنه كان من المشاركين الأقوياء في هذه المسابقة السنوية، حتى أنه استطاع أن يلفت انتباه شعراء كبار مخضرمين، وليس فقط في هذه البلاد، وإنما على مستوى بلاد الكاريبي بأسرها.

وما إن بدآ حوارهما، وإذا بذلك الهواء الحار، شديد الرطوبة، تخف حدته فجأة ويبرد، وإذا بريح من كل حدب وجهة تهز الأبواب والنوافذ هزا عنيفا مدويا، والمكتب كله بالطبع بما فيه يطقطق بعنف كأنه بالضبط سفينة شراعية في مهب الريح، والدكتور خوبينال حينما باح بظنه أنه ربما تهجم عليهم زوبعة، إنما قال هذا بمحض الصدفة دون تنبؤ لأي شيء، فمعروف أن شهر يونيو تهب عليه زوابع غريبة الأطوار، ثم إذا بالدكتور يتحدث فجأة وبلا أي مناسبة عن زوجته، فهى ليست فقط شريكته الأكثر حماسا ونشاطا، وإنما هي الروح الجوهرية في إسهاماته. قال: «أنا لست شيئا بدونها»، وفلورنتينو ينصت إليه في رباطة جأش موافقا على كل ما يقوله بحركة خفيفة من رأسه دون أن ينطق بحرف واحد خشية أن يفضحه صوته، ورغم كل هذا الكلام، فمجرد أن سمع منه جملتين أو ثلاثا عنها أدرك بأن الدكتور أوربينو، رغم

انشغالاته، ما زال الوقت أمامه حتى يعشقها كما يعشقها هو، حقيقة أفزعت فلورنتينو شخصيا، ولكنه مع هذا لم يستطع أن يتفاعل مع الموقف كما أراد، وذلك لأن قلبه اضطرب أيما اضطراب، أحس بأنه وهذا الرجل الذي كان يعتبره دوما عدوه الشخصي، إنما هما ضحيتان لنفس المصير، ويتشاركان قدرهما بعاطفة تجمعهما، وكأنهما ثوران مربوطان إلى بعضهما، ولأول مرة خلال ستة وعشرين عاما من الانتظار المضني يشعر بألم لكون هذه الشخصية الرائعة لا بد لها أن تموت كي يسعد هو.

ومرت الزوبعة وانتهت، ولكن رياحها قلبت أحياء المستنقعات، ووسط المدينة رأسا على عقب، وكل هذا خلال ربع ساعة فقط، والدكتور خوبينال لم ينتظر أن تنقشع الزوبعة كلها فقام بعدما أخذ من كرم وسخاء العم ليون الثاني عشر ما أرضاه، ودون أن يدري أخذ الشمسية الخاصة بفلورنتينو، الذي أعارها له فقط ليحملها حتى يبلغ عربته، ولكن لم يهمه، بالعكس سعد حين فكر بأن فيرمينا داثا سوف تفكر وتفكر حين تعلم من هو صاحب هذه الشمسية.

وبينما هو على هذه الحال المضطربة إثر لقائه بالدكتور خوبينال، إذا بليونا كاسياني تمر على مكتبه، حينئذ بدت له الفرصة سانحة ليكشف لها عن سره مع فيرمينا داثا دون تفكير، سره المستغلق، شديد الإحكام، فإما الآن أو لا، وبدأ يسألها عن رأيها في الدكتور خوبينال أوربينو، وأجابته دون أن تفكر تقريبا: «هو رجل يفعل الكثير، وربما بشكل يبدو زائدا عن الحد، ولكن أعتقد بأن لا أحد يعرف فيما يفكر»، ثم فكرت، وهى تمزق ممحاة القلم الرصاص بأسنانها الحادة الكبيرة، التي يتميز بها الزنوج، وفي النهاية هزت كتفيها مبدية عدم اهتمامها بالموضوع، ثم قالت له:

- يلوح لي أنه يقوم بأشياء كثيرة للغاية حتى لا يضطر للتفكير.

فحاول فلورنتينو أن يستبقيها معه قليلا، وقال لها:

- ما يؤلمني أنه سوف يموت.

فقالت:

- كل من في هذه الدنيا لا محالة ميت ميت.

فقال:

- نعم، ولكن هذا الرجل بالذات لا بد له أن يموت.

لم تفهم كلامه، ومرة أخرى هزت كتفيها دون أن تنطق بحرف، وذهبت، حينئذ علم فلورنتينو بأنه في ليلة ما في المستقبل لا يعلم متى بالضبط، سيكون حينها مستلقيا في سعادة على الفراش الوثير، وبجانبه فيرمينا ليحكي لها أنه لم يكشف سر حبه لأحد، ولا حتى للإنسانة الوحيدة، التي استحقت معرفته. كلا، هو لم ولن يكشف سره لأحد أبدا، ولا حتى لليونا كاسياني نفسها، وذلك ليس لأنه لا يريد أن يفتح لها صندوقه، الذي ظل مغلقا إياه نصف حياته كلها، وإنما لأنه أدرك أنه أساسا ليس معه المفتاح ليفتح هذا الصندوق.

مع ذلك، لم يكن ما حصل هو أكثر ما هز مشاعره في عصر هذا اليوم، لأنه شعر بحنين إلى أيام شبابه، وغدا يستعيد أيام المسابقة الشعرية السنوية كأنه يعيشها في لحظتها، مسابقة تبدأ فعاليتها في الخامس عشر من أبريل على مستوى جزر الأنتيل جميعها، كان هو دائما أحد أبطالها، ولكنه بطل خفي كعادته دوما في كل شيء. شارك عدة مرات في هذه المسابقة منذ أول مرة أقيمت، ولم يكن يحصل حتى على الترتيب الأخير، ولكن لم يكن هذا ما يشغله، فهو لا يتقدم للمسابقة فقط كي يحصل على الجائزة، وإنما لشيء إضافي فيها كان يغريه بالتقدم لها، وهو أن فيرمينا داثا هي المسئولة عن فتح المظاريف المختومة بالشمع الأحمر، ثم تعلن عن أسماء الفائزين في الموسم الأول، ومنذ هذا الحين رسا قراره بأن يستمر في المسابقة خلال الأعوام التالية.

وبينما هو جالس وسط العتمة في الجزء السفلي من المسرح، وفي

تلابيب سترته وردة كاميليا تصعد وتهبط من أثر خفقان قلبه الشديد من شدة انتظاره، فها هو يراها تفتح المظاريف الثلاثة واقفة على خشبة المسرح القومي القديم، ليلة الاحتفال بالموسم الأول من المسابقة. ظل حينها يساءل نفسه ماذا سيحدث لها لو أنها فتحت الظرف، واكتشفت أنه هو من فاز بالوردة الذهبية، التي على شكل ورود السحلبية. كان موقنا بأنها سوف تفهم الأمر برمته، أنها سوف تستحضر ساعات العصاري البعيدة، أيام كانت تطرز وتخيط تحت ظلال أشجار اللوز، سوف تتذكر رائحة الياسمين الحجازي، التي كانت تفوح بها رسائله، لا بد أنه سوف يأتي على بالها أيضا هذا الفالس، الذي عزفه لها في فجر ذلك اليوم العاصف، لحنه لها هي التي اعتبرها إلهته المتوّجة، ولكن، لم يكن كل هذا. بل أسوأ بكثير. تلك الوردة الذهبية، التي يطمع فيها أي شاعر، كانت من نصيب مهاجر جاء من الصين. مما تسبب في ضجة عامة أثارت الشكوك حول جدية هذه المسابقة الأدبية بسبب هذا القرار الطائش الغريب. ولكن القرار كان صحيحا، وبإجماع حكام المسابقة جميعا، فإن ثمة ما يبرر استحقاق قصيدته للجائزة.

لم يصدق أحد أبدا أن الفائز هو هذا الرجل الصيني، الذي جاء البلاد في أواخر القرن الماضي هاربا من وباء الحمّى الصفراء، الذي اكتسح باناما، خلال تشييد خط السكة الحديدية، الذي يربط البلاد من الشرق إلى الغرب، إلى جانب الكثير من الصينيين، الذين بقوا هناك حتى وافتهم المنية، يعيشون بالطريقة الصينية، ويتكاثرون بالطريقة الصينية، وكلهم يشبهون بعضهم لدرجة أن لا أحد يستطيع التمييز بينهم. هم كانوا في أول الأمر لا يزيد عددهم على عشرة، بعضهم معهم زوجاتهم وأبناؤهم وكلابهم، هذه التي يأكلونها، ولكنهم استطاعوا في أعوام قليلة أن يملأوا أربعة أزقة بحالها من تلك الموجودة عند ضواحي الميناء، هؤلاء الصينيين الجدد، الذين لم يتوقعهم أحد، والذين دخلوا البلاد دون أن يخلفوا أثرا واحدا في سجلات الجمارك، وبعض شبانهم

صاروا في لمح البصر شيوخا أجلّاء يحترمهم الجميع، ولا أحد يعرف كيف شاخ هؤلاء بهذه السرعة، وعامة الناس قسموهم بالبداهة إلى صنفين: صنف سيئ وصنف جيد. الصنف السيئ الذين يسكنون ضواحي الميناء الكئيبة، حيث تجد الشخص يأكل كأنه ملك أو يموت فجأة أمام منضدة عليها طبق من الجرذان وزهور عباد الشمس، والجميع يشك فيهم أنهم يتاجرون سرا في الجواري البيض ويستطيعون تهريب أي شيء، أما الصنف الجيد منهم الذين يعملون في غسل الملابس، هم ورثة علم مقدس أشد التقديس، يرجعون لك القميص نظيفا للغاية كأنه جديد، والياقة والكمين مكويين بعناية فائقة، وهذا الرجل، الذي نال الوردة الذهبية من الصنف الجيد، نالها رغم أنف اثنين وسبعين من المتنافسين، الذين أعدوا أنفسهم خير إعداد.

لم يستطع أحد أن يفهم اسم هذا الصيني الفائز عندما قرأته فيرمينا مبهورة حيرانة، وليس فقط لأن الاسم غير منطقي، وغريب جدا، وإنما لأن لا أحد يعرف بالضبط كيف ينادي الصينيون أنفسهم بأسمائهم، ولكن لم يكن أمرا في حاجة إلى كثير من التفكير، فالرجل الصيني الفائز مرة واحدة بزغ من بين جموع الناس في الصالة وعلى شفتيه تلك الابتسامة الساحرة، التي يبتسمها الصينيون لو وصلوا بيوتهم مبكرا. ذهب إلى هناك موقن تماما من الفوز حتى أنه ارتدى من أجل هذه الجائزة قميصا من الحرير، أصفر اللون، خاص بفصل الربيع، وتسلم الوردة المصنوعة من ذهب «عيار ١٨»، وقبلها في سعادة، بينما تحوم حوله صيحات الاستنكار والسخرية، إلا أنه لم يضطرب نهائيا، بل انتظر رابط الجأش، وهو على خشبة المسرح كأنه حواري من أنصار الله، وما إن عم الهدوء المكان حتى بدأ ينشد قصيدته الفائزة، ولم يفهم أحد حرفا واحدا، ولكن حينما هدأت تلك الضجة الجديدة من الصفير والعجيج، قرأتها مجددا فيرمينا داثا في هدوء وروية، بصوتها الهامس الخلّاب، ومن البيت الأول سيطرت الدهشة على جميع الحاضرين. القصيدة كانت حقا خلاصة

اتجاه الفن للفن، قصيدة رائعة بحق، فيها ما فيها من وحي وخيال جامح، وتشي بأن ثمة يد كبرى تواطأت في تأليفها، والتفسير الوحيد لهذا اللغز أن شاعرا كبيرا أراد أن يسخر من المسابقة الشعرية، وأن هذا الرجل الصيني رضى بأن يُنسب إليه تأليفها بوعد أن يحفظ هذا السر حتى موته، وحاولت صحيفة «الكوميرسيو»، الجريدة التقليدية لدينا، أن تنقذ ما تبقى من ماء الوجه بمقال بليغ، أو بالأحرى لا يمكن لأحد استساغته، عن العراقة والتأثير الثقافي للصينيين، الذين يعيشون في الكاريبي، وحقهم الطبيعي في المشاركة بالمسابقة الشعرية، ومن كتب المقال لا يشك في أن مؤلف هذه القصيدة يدَعى تأليفها، وراح يبرر كلامه بدون مواربة، حتى من العنوان الذي كان: كل الصينيين شعراء بالفطرة. ولا يبقى إلا هؤلاء أصحاب فكرة هذه المؤامرة العجيبة، إذا كانت أصلا موجودة، الذين تعفنوا في مدافنهم مع سرهم العتيد، وأما ذلك الرجل الصيني فمات بعد عمر طويل دون أن يبوح بأي شيء أبدا، ودُفن ومعه في تابوته تلك الوردة الذهبية، ولكن مات، ويحز في نفسه أنه لم يستطع أن ينال الشيء الوحيد، الذي تمناه في حياته، أن يعترف به الآخرون كشاعر، وحين مات، راحت الصحف تستحضر هذا الحدث الذي نساه الجميع، وتم طبع قصيدته مرة أخرى، وحولها عذراوات بكر يمسكن بقرون الخصب الذهبية، وجاءت آلهة الشعر مرة أخرى لتضع كل شيء في نصابه: القصيدة كانت بالنسبة للجيل الجديد سيئة للغاية، حتى أن أحدا لم يشك لحظة أن مؤلفها هو هذا الرجل الصيني.

وفلورنتينو كان دوما يستحضر هذا الحدث الغريب بذكرى امرأة ثرية لم يكن يعرفها وكانت جالسة بجانبه. انتبه إليها منذ أن جلس على مقعده، ولكن سرعان ما نساها من شدة ترقبه وخوفه قبل إعلان اسم الفائز. لفت انتباهه إليها ما رأى من بياض بشرتها كأنها اللؤلؤ، جسدها المكتنز الدسم تضوع منه رائحة السعادة والغنى، صدرها الكبير الندي المتوج بزهرة مانوليا اصطناعية، وثوبها

المصنوع من القطيفة السوداء، شديد الضيق، سواده بالضبط كالعيون السود حين تشع حرارة وشهوة، والأغرب أن سواد شعرها أشد حلكة من ثوبها، كان مسدولا من الخلف على طريقة الغجر، وكان عُقدها له شكل القرطين اللذين تضعهما في أذنيها، وكذلك خواتمها الكثيرة في أكثر من أصبع من يديها، كل ما فيها يبرق ويلمع، وعلى خدها الأيمن هلال مرسوم بالقلم الرصاص، وفي خضم التصفيق الحاد الأخير في الحفل، إذا بها تنظر إلى فلورنتينو نظرة صادقة مواسية، وتقول له:

– صدقني، أنا آسفة لك من كل قلبي.

تأثر فلورنتينو أيما تأثر، ليس لتعزيتها، التي يستحقها فعلا، ولكن لأنه دهش كون أحدا يعرف سره، ولكنها أضافت له موضحة كلامها: «أدركت ما أدركته أنا حينما وجدت تلك الوردة البيضاء، التي تضعها في تلابيب سترتك، ترتعش وتهتز بينما يفتحون المظاريف»، وأظهرت له زهرة المانوليا الاصطناعية التي كانت تحملها بيدها، وقالت له وهى تظهر له الوردة:

– أنا لهذا نزعت وردتي.

أحس بأنه على وشك البكاء لهزيمته المريرة، ولكن سرعان ما تغيّر حماسه حين نهضت فيه غريزته كصياد ليل، قال لها:

– هيا، لنر لنا ركنا نذرف فيه دموعنا.

وصاحبها إلى بيتها، وحين وصلا إلى الباب، والوقت بالكاد عند منتصف الليل، ولا أحد في الشارع، أقنعها بأن تدعوه لشرب كأس من البراندي، بينما يتسليان بالنظر إلى الألبومات التي تحوي قصاصات الورق والصور، وتمثّل أكثر من عشر سنوات من الأحداث العامة، ألبومات قالت إنها تملكها. تدبيره كان حيلة قديمة حينها، ولكن هذه المرة كان تدبيره غير مقصود، فهى من ساعة خروجهما من المسرح القومي تحدثه عن هذه الألبومات، ثم دخلا البيت، وأول ما لاحظته عيناه وهو في الصالة، أن باب غرفة النوم الوحيدة مفتوح،

وأن السرير كبير ضخم غاية في الترف، عليه حشية من الحرير المقصّب، ورأس السرير مصنوع من البرونز المتشابك كأغصان الأشجار. منظر كهذا أثار اضطرابه، وهى لا بد أنها أدركت اضطرابه، ذلك أنها سبقته عبر الصالة وأغلقت باب الغرفة، ثم دعته للجلوس على أريكة، قماشها من القطن مرسوم عليه ورود وأزهار، وعليها قطة نائمة، ووضعت على المنضدة، التي تتوسط الصالة، الألبومات التي حدثته عنها، وجعل فلورنتينو أريثا يتصفحها دون عجل وتفكيره كله مستغرق في خطواتها التالية أكثر من تفكيره فيما يراه أمامه، وفجأة رفع ناظريه ووجد عينيها مخضلتين بالدموع، فأشارت عليه أن يبكي كما يود ودون خجل، فلا أروح للنفس من البكاء، ولكنها ألمحت إليه برغبتها في فك صدريتها كي تأخذ راحتها في البكاء، وفورا هرول ليساعدها، فصدريتها كانت مربوطة بإحكام من ظهرها بصف طويل من الأربطة المتشابكة، ولم يكن عليه أن يكمل فك باقي الأربطة، فالصدرية انفكت وحدها من الضغط الشديد لجسدها، وأخيرا تنفس ثدياها العملاقان الصعداء.

أما هو فلم تبارحه قط رهبته، التي تستولي عليه في بداية مواقفه، حتى الأسهل منها، وإذا به يمد في حذر شديد يده ليداعب رقبتها بأنامل أصابعه، وأخذت هي تتثنى وتتلوى وتئن بصوت ناعم كأنها بالضبط طفلة مدللة، كل هذا وهي مستغرقة في بكائها. حينئذ قبلها في نفس الموضع، قبلة حريرية ناعمة مثلما بالضبط ملّس بأصابعه عليها، ولم يستطع أن يقبلها مرة أخرى، فقد التفتت هي إليه بجسدها الضخم الأسطوري، تفح منها الرغبة والدفء، وانخرط كلاهما في عناق حار يتدحرجان على الأرض. حينها استيقظت القطة، وهى تموء مواءً مزعجا، وقفزت فوقهما، وهما يمارسان الحب ويتحسسان بعضهما كأنهما يقومان بهذا لأول مرة، ويتقلبان فوق الملابس والألبومات التي ضعضعها جسديهما، يسبحان في أنهار من العرق اللزج، وكلاهما يجاهد ليتجنب مخالب القطة الغاضبة، رغم ما هما فيه من نشوة

الحب، ولكنهما رغم هذا ظلا سنوات يمارسان الحب المجنون منذ ثاني ليلة وجروحهما من القطة ما زالت تدمي.

وحينما أدرك أنه بدأ يحبها، كانت بلغت أوج عمرها لتشيخ بعد ذلك، بينما هو آخذ في إنهاء عامه الثلاثين، وكان اسمها سارة نوريجا، وكانت في شبابها حظيت فقط بربع ساعة من الشهرة لأنها كسبت في مسابقة شعرية، بكتاب من أشعارها عن حب الفقراء، والذي لم يحظ أبدا بأي فرصة لنشره، وتعمل مدرسة تربية وطنية وأخلاق في المدارس العامة، ومن مرتبها تعيش في بيت مؤجر يقع في شارع «باساخيه ديه نوبيوس»، شديد الازدحام، في الحي القديم خيتسيماني، وفي كل مناسبة تجد لها أكثر من عاشق، ولكن لا أحد منهم فكرت في الزواج منه، وذلك لأنه من الصعب جدا على أي رجل من زمنها ووسطها الاجتماعي أن يرضى بالزواج بواحدة ضاجعها، وحتى هي لم تعد إلى مثل هذا الخيال أبدا بعدما هرب خطيبها الرسمي، الذي عشقته عشقا لا حد له، حينها كانت تبلغ من العمر ثمانية عشر ربيعا فقط. هرب خطيبها قبل أسبوع من ميعاد الزفاف المتوقع، وتركها ضائعة تائهة كعروس يسخر منها الجميع، أو لنقل عزباء مستعملة، كما كانت تقول حينئذ. مع ذلك، فتجربتها الأولى هذه، رغم قسوتها وقصرها إلا أنها لم تترك في نفسها أي مرارة، وإنما خلفت فيها اقتناعا شديدا بأنها بالزواج أو بدونه، بدون الله أو بدون القانون، فالحياة لا تستحق أن تعيشها إذا لم يكن ثمة رجل تضاجعه على الفراش، وكان أكثر ما أعجب فلورنتينو أريثا فيها، هو أنها خلال ممارسة الحب تمصّ حلمة الرضاعة الخاصة بالأطفال حتى تبلغ قمة النشوة. بلغ بهما الأمر أن صار لديهما سلسلة طويلة من تلك الحلمات بأحجام وأشكال وألوان مختلفة كانا يجلبانها من السوق، وكانت تعلقها عند رأس السرير حتى إذا حانت اللحظة الطارئة لديها تجدها دون مشقة.

ورغم أنها إنسانة حرة تماما مثله، بل ربما لم تكن تمانع أن يشتهر بين الناس حبهما، إلا أن فلورنتينو من البداية تعامل بسرية تامة في علاقته معها،

فهو يتسلل إلى الدار من باب الخدم، ودائما في وقت متأخر من الليل، ثم مع مطلع الصباح تجده يخرج على أطراف أصابع قدميه. كانا يعلمان تماما أن منزلا كثير الحجرات، وآهل بالسكان مثل منزلها، لا بد أن يكون الجيران علموا بما يتظاهران به سرا، رغم هذا ورغم بساطة الموضوع إلا أنه ظل على طبعه، بل هو هكذا مع كل النساء على مدى حياته كلها. لم يكن يرتكب أي غلطة، لا معها ولا مع أي واحدة، وهو أبدا في حياته لم يخن أحدا ائتمنه على سر أو شيء. مرة واحدة فقط ترك أثرا مثيرا للشبهة، أو ربما نقول دليلا مكتوبا، وهما الأمران اللذان كانا من الممكن أن يكلفاه حياته ثمنا لهما، وفي الواقع كان دائما يتصرف كأنه الزوج الأبدي لفيرمينا داثا. نعم، هو زوج خائن، ولكنه عنيد كل العند، يصارع بلا هوادة ليتحرر من عبوديته لها، ولكن دون أن يترك في نفسها أي امتعاض من خيانته.

غموض كهذا لا يمكن أبدا أن يزدهر وينمو دون وقوع أخطاء، فحتى أمه نفسها ماتت مقتنعة بأن كونه يعيش ويحيا للجنس وبالجنس، فهو بذلك محصن تماما ضد أي صيغة من صيغ الحب التي جرَت عليه بليته أيام صباه، ومع هذا، فأقرب الأشخاص إليه، بالطبع هم أقل حنانا عليه من أمه، بما يعرفونه عنه من شخصية غامضة كتومة، وميله الحاد للفخفخة والزينة الروحانية، صوفية الشكل، واستعمال أنواع عجيبة من المنظفات، إلا أنهم جميعا يتشاركون شكهم في كونه غير محصّن ضد الحب، وإنما ضد المرأة. كان يعلم هذا، ولم يقم بأي شيء ليثبت العكس، وأيضا سارة نوريجا لم يكن يعنيها البتة أنه لا يحبها. كانت كغيرها من النساء اللائي أحبهن، وحتى هؤلاء اللائي أمتعهن هو وأمتعوه هن دون حب حقيقي، قبلته على حقيقته، فإنه مجرد رجل عارض في حياتها.

وانتهى به الأمر أنه كان يظهر في بيتها أي وقت شاء، خاصة في صباح أيام الأحد، الذي كان دوما أجمل الأيام، وتترك ما في يدها، أيا كان هذا الشيء،

وتتمنى غاية التمنى، وبكل جوارحها، أن تجعله سعيدا على ذلك السرير الأسطوري الضخم، الذي دوما مهياً من أجله، وهى دوما حريصة أن يكون حبهما فوق السرير وألا يكون أبدا مجرد أداء واجب، وفقط، وهو لم يفهم أبدا كيف لامرأة عزباء بلا ماض مثلها، لها ما لها من خبرة في شؤون الرجال بهذا الشكل، ولا يفهم أيضا كيف لهذا الجسد المكتنز الأملس أن يتحرك بكل هذه الخفة والحنان كأنه ينساب أسفل الماء، وهى تدافع عن نفسها، قائلة له: إن الحب قبل كل شيء ما هو إلا مهارة طبيعية وغريزية. تقول له: «إما تولد عارفا للجنس، وإما لا تعرف شيئا أبدا طوال حياتك»، وفلورنتينو أريثا تصليه الغيرة بنارها مفكرا في أنها ربما يتوددها الرجال أكثر مما تدعي، ولكن ينتهي الأمر بأن يبتلع كل شيء، وذلك لأنه هو أيضا يقول لها، كما يقول لغيرها، أنها حبيبته الوحيدة، ومن بين الأشياء، التي لم يكن يحبها هناك هو أنه مضطر للقبول بوجود تلك القطة العنيفة معهما، والتي قامت سارة بقص مخالبها حتى لا تنهشهم بها أثناء الحب.

يسرحان ويمرحان في بعضهما على السرير حتى يبلغ منهما التعب مبلغه، حينئذ كانت تحب أن تثري قريحتها الشعرية خلال وقت راحتهما من الحب. هي تملك ذاكرة مدهشة تعي كل الأشعار العاطفية الخاصة بهذا الوقت، أشعار كان كل جديد منها يُنشر في كتيبات تباع في الشوارع بريالين للكتيب الواحد، إضافة أنها كانت تعلّق على الحائط بالدبابيس أحب القصائد إلى قلبها كي تقرأها في أي وقت بصوت عالٍ، حتى أنها قامت بتأليف قصيدة تلخص نصوص مادة التربية الوطنية والأخلاق، بالضبط كما هو موجود في مادة قواعد الكتابة والهجاء، ولكنها لم تحصل على أي موافقة رسمية لنشرها. الشعر عندها عشق تنشده بانفعال شديد أثناء ممارستها الحب، وفلورنتينو يضطر لوضع حلمة الرضاعة في فمها بالقوة، كما يفعل الناس مع الأطفال ليكفوا عن البكاء.

وفي أوج علاقتهما، كان فلورينتينو يسائل نفسه في أي الحالتين يكون الحب الحقيقي، أحيانا يكون على ذلك السرير غاية في الاضطراب والحمية، أم في تلك الأمسية الوديعة في أيام الأحد، وهى تطمئنه بحجتها البسيطة بأن كل ما يقومان به فوق السرير عاريين هو حب. قالت له: «هو حب للروح من أول الخصر إلى أعلى، وحب للجسد من أول الخصر إلى أسفل». تعبير بدا في نظرها أكثر من رائع كي يصلح عنوانا لقصيدة عن الحب المجزّأ، وكتباها هما الاثنان بكل تفانٍ، وقدمتها هي في الموسم الخامس للمسابقة الشعرية، مقتنعة كل الاقتناع بأن لا أحد شارك حتى ذلك الحين بقصيدة أصيلة، مثل قصيدتها، ولكنها عادت صفر اليدين.

عادت إلى البيت، وهى في قمة الغضب والسخط، بينما فلورنتينو يسير إلى جانبها، وهي لشيء لا تدري كيف تعبر عنه تحس بأن ثمة مؤامرة تُحاك ضدها من قبل فيرمينا داثا كي لا تفوز قصيدتها، ولم يلتفت فلورنتينو لكلامها وأفكارها، لأن فيه ما يكفيه منذ لحظة تسليم الجوائز. مضى عليه زمن طويل لم ير فيرمينا، وهذه الليلة انطبع في وجدانه أنها تعرضت لتغيير جذري، فلأول مرة يلاحظ عليها بكل بساطة تصرفاتها كأم، ولم يكن هذا بالجديد عليه، فهو يعلم بأن ابنها يذهب إلى المدرسة، ومع ذلك فتلك الأمومة لم تبدُ عليها بقوة كما بدت هذه الليلة، لاحظها من عرض خصرها، ومن مشيتها اللاهثة قليلا، ومن تلك الحشرجة الدخيلة على صوتها، وهى تقرأ اللائحة الخاصة بالفائزين.

وعاد إلى الألبومات الخاصة بالمسابقة الشعرية السنوية يتصفحها كأنما يحاول توثيق ذكرياته، بينما سارة نوريجا تقوم بإعداد شيء للأكل. رأى صورا مأخوذة من المجلات وبطاقات بريدية يميل لونها إلى الصفار كانت تباع للذكرى في الحارات المكتظة بالمحلات والدكاكين. كان وقتها كأنه يطل بنظرة على زيف حياته الخاصة. هو حتى ذلك الحين كان في خياله أن العالم

كله هو الذي يمضي، فالعادات والموضات تختفي وتأتي غيرها إلا فيرمينا لا تظهر عليها آثار الزمن، ولكنه هذه الليلة لأول مرة يرى بكل وعيه كيف أن العمر يمضي بها، وكذلك عمره أيضا، بينما هو لا يفعل شيئا أكثر من الانتظار. لم يتحدث أبدا لأحد عنها، لأنه يعلم جيدا أنهم سيلاحظون شحوب شفتيه ما إن ينطق اسمها فقط، ولكنه هذه الليلة، بينما يتصفح تلك الألبومات، مثلما يفعل حين يشعر بالملل أثناء سهرته يوم الأحد في بيت سارة، إذا بها تقول جملة من تلك الجمل العارضة، التي يتجمد لها الدم في العروق. قالت له:

- هذه المرأة ليست إلا عاهرة.

قالت هذا، وهى تمر عليه، وترى أمامها صورة لفيرمينا داثا متنكرة على شكل فهد أسود في حفلة رقص تنكرية، قالت هذا، ولم تذكر اسما آخر حتى يعلم فلورنتينو من تقصد بالضبط بكلامها. خشي أن يفضح نفسه، فتتعكر حياته إلى الأبد، لذا انبرى يدافع عن فيرمينا بحذر. أخبرها فلورنتينو بأنه فقط يعرفها من بعيد لبعيد، فالأمر لم يتعدى مجرد السلام الرسمي، وهو لا يعرف أي شيء عن حياتها الخاصة ليعرف فعلا إذا كانت عاهرة أم لا، ولكنه مقر، على كل حال، بأنها امرأة رائعة، إنها شيدت لنفسها مكانة من العدم بما لها من إسهامات خاصة بها.

فقاطعته سارة قائلة:

- إنما فضل هذا يرجع كله لزواجها النفعي من رجل لا تحبه، وهذه الطريقة أقبح الطرق، التي قد تسلكها عاهرة.

نفس الأمر بالنسبة لأمه، التي قالت له نفس الكلام عن فيرمينا، وإن كان بشكل أخف حدة، ولكن بثبات وجرأة حين أرادت أن تعزيه في محنته، وأحس هو باضطراب شديد حتى النخاع، ولم يجد في ذهنه أي رد مناسب على فظاظتها، وحاول بقدر المستطاع أن يغير الموضوع، ولكن سارة لم تسمح له حتى بتغيير الموضوع، بل إنها لم تخفف من حدة كلامها عن فيرمينا،

فهي مقتنعة بأن فيرمينا دبرت هذه المؤامرة كي تسلبها الجائزة، ولم يكن ثمة أي سبب لتصديق هذا الكلام، فلا هما يعرفان أي شيء، ولا هما أصلا رأيا أي شيء، وفيرمينا ذات نفسها ليس لها أي دخل بقرارات المسابقة حتى لو كانت على علم بأسرار الجائزة، وإذا بسارة تقول منهية كلامها: «النساء جميعا عرافات يستطعن تخمين الغيب»، وأنهت الكلام.

منذ هذا الحين، وسارة لم تعد في نظر فلورنتينو، كما كانت من قبل، وهى أصلا كرت عليها السنون والأعوام، وها هو كل ما كان فيها من عنفوان وقوة بدآ في الذبول بلا إذن منها، وصارت تقضي وقت الحب كله في النحيب والنشيج، وجفونها بدأت تظهر عليها ما كان مترسبا فيها قديما من شكوك وآلام نفسية. صارت وردة الأمس الدابر، بل إنها إبّان غضبها من الهزيمة تجرعت كميات مهولة من البراندي، وفي هذه الليلة لم تكن رائقة المزاج، فبينما كانا يأكلان الأرز المعمول بجوز الهند، الذي أعادت تسخينه، إذا بها تحاول أن تعرف كم كان إسهام كل منهما في القصيدة التي ألفّاها معا، على افتراض أنهما لو كسبا وردة السحلبية الذهبية، فكم ورقة من الوردة سيأخذ كل منهما، ومن الطبيعي أن يكون بينهما مباريات حامية يتسليان بها، فهذه لم تكن المرة الأولى، وهو استغلها لينفس عما في صدره من ذلك الجرح الجديد، فحمي الوطيس بينهما في جدال عنيف هيّج من جديد العداوات، التي كانت خلال خمس سنين من الحب المتبادل.

وحين تبقت عشر دقائق على مجيء الساعة الثانية عشرة، جلبت سارة كرسيا ووقفت عليه لتعبئ الساعة البندول، ثم ضبطت عقاربها على الساعة الثانية عشرة، ربما أرادت بهذا أن تذكره بطريقة غير مباشرة بأن ميعاد رحيله أتى، حينها أحس فلورنتينو أريثا بضرورة قطع هذه العلاقة بدون حب من جذورها، وظل يفتش عن مناسبة يكون فيها المبادر، كما هو حاله دائما مع غيرها، وتمنى من الله لو أنها تمنحه فرصة البقاء على الفراش، فيقول لها:

إن كل شيء انتهى بينهما تماما، وطلب منها أن تجلس بجانبه حين تنتهي من تعبئة الساعة، ولكنها فضلت أن تجلس على مقعد بعيد عنه، حينها مد لها أصبعه السبابة، الذي أغرقه بالبراندي كي تمصه كما كانت تحب أن تفعل في بدايات حبهما، ولكنها تجنبته، وقالت له:

- لا شيء من هذا الآن. أنا في انتظار شخص ما.

جدير بالذكر أن فلورنتينو منذ رفض فيرمينا له، تعلّم دوما أن يحتفظ لنفسه بالقرار الأخير، ولو كانت حينها الظروف أقل مرارة لأصر على حصار سارة أكثر وأكثر، فهو متأكد من أنه حتما سيتقلب معها على الفراش، وذلك لأنه مقتنع بأن أي امرأة تضاجع رجلا مرة سوف تضاجعه في أي وقت يريد، ما دام هو قادر على استلطافها. تحمّل فلورنتينو كل شيء في سبيل مبدأه هذا، حتى أنه كان يتغاضى عن كل شيء حتى في أحلك ظروف الحب بهدف ألا تحظى أي امرأة ولدت من امرأة بفرصة القرار الأخير، ولكنه هذه الليلة شعر بالخزي وأي خزي، وتجرع في مرة واحدة ما في القدح من براندي، فعل كل ما بوسعه لتعرف مدى حنقه وغضبه، ورحل دون أن يقول لها كلمة وداع، ولم يريا بعضهما ثانية.

علاقته بسارة نوريجا كانت من أطول علاقاته، وأكثرها استقرارا، رغم أنها لم تكن العلاقة الوحيدة، خلال تلك السنوات الخمس. بعدما عرف كيف يرتاح مع سارة، خاصة على الفراش زادت لياليه كصياد فتيات ليل. كان ينسق لياليه تنسيقا يتناسب مع وقته وطاقته الجسدية. لم يستطع أبدا أن يضع سارة محل فيرمينا داثا. مع هذا استطاعت سارة بأعجوبة أن تمنحه الراحة النفسية، ولو لبعض الوقت. على الأقل عرف أن يعيش دون أن يرى فيرمينا، على عكس ما كان منه قبل ذلك، حيث كان يتوقف فجأة عما في يده، ويقوم ليبحث عنها في أماكن يصعب وجودها نهائيا فيها، يهيم على وجه في شوارع وحارات غير متوقعة، وفي مناطق، أساسا، لا يمكن بحال من الأحوال أن تكون هناك،

ويظل على هذه الحال دون كلل أو ملل، رغم أنه أصلا لا يراها ولو لحظة. قطيعته مع سارة نوريجا أيقظت ما كان فيه من حنين نائم، ومن جديد شعر بشعوره أيام الحديقة الصغيرة، وعكوفه على القراءة، ولكن أضف إلى هذه المشاعر إحساسه بأن الدكتور خوبينال أوربينو لا بد أن يموت.

كان يعلم، منذ وقت طويل، بأنه مهيأ تماما لإسعاد أي أرملة، وهي بدورها أيضا تسعده، وهذا أمر لا يقلقه أبدا، بالعكس هو على أهبة الاستعداد، فمن كثرة من عرفهن في جولاته الليلية كصائد لفتيات الليل، عرف كيف أن هذا العالم مليء بالأرامل السعيدات. نعم، يرى الأرملة منهن تكاد تتمزق من الألم أمام زوجها، تتمنى لو أن الناس يدفنونها حية معه في التابوت نفسه كي لا تواجه مستقبلها بدونه، ولكن هؤلاء الأرامل كلما أخذن في التعود على حقيقة واقعهن الجديد نفضن عن أنفسهن رماد الماضي وصحون مفعمات بحيوية لا مثيل لها. تجدهن في أول الأمر يعشن كأنهن طفيليات تقتات على الظلام الراقد في البيوت الكبيرة الخاوية، ويثقن في خدمهن ويلزمن فراشهن بلا رحمة، ولا يفعلن شيئا بعد كل هذه السنين من الأسر المذل. يقضين أوقات فراغهن في خياطة أزرار ملابس الميت، ملابس لم يكن وقتهن يسمح لهن أبدا بإصلاح أزرارها، ثم يكوين لأكثر من مرة قمصانهم بأكمامها وياقاتها المشمّعة كي تظل دائما على سن ورمح. هن، رغم موت أزواجهن، يظللن يضعن الصابون في حوض الاستحمام، حتى أغطية الفراش المطبوعة عليها الحروف الأولى من أسمائهم يظللن يضعنها على السرائر، وحتى الأطباق وباقي أدوات المائدة ترص في مكانها كما هي، حتى إذا صحا أزواجهن فجأة، كما كانوا يفعلون في حياتهم، يجدون كل شيء معدا كما كان، باختصار يظللن على ما كن فيه أيام حياتهم، ولكن، أثناء كل هذه الوحدة المحيطة بهن يبدأن في إدراك أنهن صرن متحكمات في مصيرهن، وفي اختيارهن، لم يعدن مرتبطات باسم العائلة، ولا حتى بهويتها الخاصة

بها، وكل هذا مقابل أمان كان ضربا من الخيال أيام عرسهن. وحدهن يعلمن كيف كان أزواجهن غاية في الملل، أزواجهن الذين عشقنهم عشق الجنون، وربما يكونون هم أيضا أحببنهن، ولكن عليهم أن يرعونهم حتى آخر نفس في حياتهم، يعطونهم أثداءهن يرضعنها، يغيرن لهم حفاضاتهم الملطخة بالبراز، وعليهن طول الوقت أن يلهونهم بتلك الحيل التي تستعملها الأمهات حتى يخففن رعبهم من الخروج لرؤية وجه الحقيقة عيانا، ومع هذا فحين يرون رجلهن يخرج من البيت مدفوعا بتشجيعهن كي يواجه العالم، حينئذ يشعرن بالخوف بألا يرجع إليهن رجلهن إلى الأبد. هذه هي الحياة. والحب لو كان موجودا، فشيء آخر مختلف تماما: حياة أخرى.

حين يجدن أنفسهن في هذا الفراغ الشاسع بعد موت أزواجهن، فراغ يجعلهن يعدن حساباتهن، حينئذ يكتشفن أن الوسيلة الوحيدة المشرفة ليعشن هي إشباع رغبات الجسد، فيأكلن فقط حين يجعن، يحببن بلا كذب وبلا رياء، ينمن دون أن يدعين النوم كي يهربن من بذاءة الحب الرسمي، هن أخيرا مالكات لحقهن على الفراش بالكامل، فلا أحد ينازعهن في النصف الآخر منه، ولا حتى في نصف هواء غرفتهن، ولا حتى نصف ليلتهن، إلى أن تتشبع أجسادهن بأحلامهن الخاصة، ويصحون أخيرا لوحدهن.

وفلورنتينو في الصباحات التي تنهض فيها غريزته كصياد، يلتقي بهن خارجات من قدّاس الساعة الخامسة، يتشحن بالسواد كأن على أكتفاهن غراب الموت، وما إن يلمحنه على ضوء الفجر، حتى يجتزن الشارع، ويسرن على الرصيف الآخر بخطى صغيرة متقطعة، خطى فتيات الليل، وهن يبعدن عنه لأن مرورهن فقط بجانب رجل، أي رجل، أمر جلل قد يلوّث شرفهن. ومع هذا كان مقتنعا جدا بأن أي أرملة مهمومة يمكن أن تحمل في داخلها بذرة السعادة أكثر من أي امرأة أخرى.

أرامل كثيرات في حياته، منذ معرفته بأرملة ناثاريت، جعلنه يعرف

كيف أن إناثا مثلهن يكن سعيدات بعد موت أزواجهن، وما كان حتى ذلك الحين مجرد خيال محض منه استحال بفضلهن إلى شيء ملموس ممكن أن يمسكه بكلتا يديه. لم يجد أي سبب كي لا تكون فيرمينا داثا أرملة كهؤلاء الأرامل، أعدتها الحياة لتتقبله كما هو، دون أن تشعر بالذنب من شبح زوجها، هي وحدها من بيدها القرار بأن تكتشف معه سعادة أن تكون سعيدة مرتين، بحب يومي يحيل كل شيء إلى معجزة مدهشة تعينها على الحياة، وبحب آخر منها فقط، محمي تماما من أي عدوى بسبب تلك المناعة، التي اكتسبتها من الموت.

ربما كان حماسه سيزول لو أنه فكر في أن فيرمينا بعيدة عن حساباته، حينها بالكاد بدأ يتبين أفق عالم جديد كل شيء فيه متوقع، إلا الخصومة، وأن يكون غنيا في هذه الفترة شيء له الكثير من المزايا، وأيضا العيوب بالطبع، ولكن نصف العالم كله يتمنى الغنى ويرغب فيه كأنه الدافع المحتمل وراء الخلود، وفيرمينا داثا رفضت فلورنتينو في عز نضجها بحيث أنها دفعت ثمن ذلك بإحساس شديد عصف بها عصفا، ولكنها أبدا لم تشك في حتمية قرارها. في ذلك الحين لم تستطع أن تشرح لنفسها هذه الأسباب الغامضة المنطقية التي جعلتها تأخذ قرارها هكذا بكل حسم، ولكن بعد سنين طويلة جدا، بعدما دخلت في طور الشيخوخة، إذا بها تكتشف هذه الأسباب فجأة، ولا تعرف كيف، أثناء حديث عارض لها عن فلورنتينو أريثا، كان كل رفقائها في السهر يعلمون حق العلم مهارته الشديدة في إدارة شئون شركة الكاريبي للملاحة النهرية في أوج ازدهارها، كانوا جميعا متأكدين أنهم رأوه أكثر من مرة بأم عينيهم، بل ربما تعاملوا معه أيضا، ولكن لا أحد يذكره بوضوح. في تلك الفترة عرفت فيرمينا داثا الأسباب الغامضة، التي دفعتها للكف عن حبه. قالت: « كأنه ليس إنسانا من لحم ودم، وإنما ظل من الظلال». هكذا هو: مجرد ظل لشخص لا أحد يعرف عنه شيئا البتة، ولكنها حينما كانت تقاوم

حصار الدكتور خوبينال أوربينو لها، الذي كان رجلا مختلفا تماما، أحست برعب يداهمها من شبح ذنبها: الشعور الوحيد الذي لم تكن تستطيع تحمله، فهي حين تشعر به يقترب ويحوم حولها يتمكن منها ذعر لا تستطيع منه فكاكا، إلا إذا وجدت من يهدئ ضميرها. كانت منذ صغرها، حين تكسر طبقا في المطبخ، أو أحد ما يقع على الأرض، أو حتى هي نفسها حين تكبس أصبعها في الباب، تتجه في فزع إلى أي شخص يكون بقربها، وتسارع في اتهامه: «الذنب ذنبك». ومع أنها حقيقة لم يكن يهمها من هو المذنب فعلا ولا حتى كانت أصلا مقتنعة ببراءتها، إلا أن هذا الأمر تأصّل فيها وترسّخ.

إحساسها بشبح الذنب صار أمرا شهيرا جدا، حتى أن الدكتور أوربينو كان يدرك الأمر قبل فوات الأوان، وقبل أن يضيع الهدوء والراحة من البيت، وبمجرد أن يلمح هذا الشبح يهرول ليقول لها: «لا تقلقي يا حبي، الذنب ذنبي»، فلا شيء يخشاه كخشيته من القرارات المفاجئة الحاسمة التي تتخذها زوجته، وهو مقتنع بأن قراراتها المفاجئة هذه يعود سببها إلى إحساسها بالذنب. مع ذلك، الاضطراب والحيرة اللذان يسيطران عليها بسبب رفضها لفلورنتينو لم يكن حلهما في جملة مريحة تعزيها، وحسب. ظلت شهورا تفتح شرفتها كل صباح، وتشعر دوما باشتياق إلى هذا الشبح، الذي كان يتربص لها في الحديقة الصغيرة، فترى تلك الشجرة الخاصة به، ترى ذلك المقعد غير المرئي أساسا، والذي كان يجلس عليه يقرأ ويفكر فيها، يعاني من أجلها، ثم تضطر إلى أن تغلق النافذة وتتنهد قائلة: «يا له من رجل مسكين». عانت من الهم ما عانت لكونه ليس عنيدا مصرا كما توقعته ، بعدما فات الأوان لإصلاح أخطاء الماضي، وما زال في نفسها شعور بأنها تنتظر منه رسالة، رسالة لم ولن تأتيها أبدا، ولكن حين جاءتها اللحظة الفاصلة لتقرر إذا كانت ستتزوج من الدكتور أوربينو أم لا، إذا بها تجد نفسها في خضم أزمة حقيقية، حينما أدركت أنها فعلا ليس لديها أسباب مؤكدة تجعلها تفضله

بعدما رفضت فلورنتينو لأسباب غير واضحة، وهى في الواقع تحبه قليلا جدا كما الآخر، ولكن أيضا لا تعرف عنه إلا قليل القليل، ورسائل دكتور أوربينو ليست محمومة كرسائل فلورنتينو، ولا حتى أثبت لها حبه بدلائل مؤثرة، والحقيقة أن ادعاءات الدكتور أوربينو لم تكن أبدا تحت مسمى الحب، هو على الأقل كأنه محارب كاثوليكي يمنحها أشياء مادية بحتة: الأمان، النظام، السعادة، وإشارات كثيرة إذا جمعناها قد تتخذ شكلا من أشكال الحب: شكل تقريبي منه فقط، ولكنها لم تحظ بها، بل وزادت شكوكها هذه من اضطرابها وحيرتها، لأنها أيضا ليست مقتنعة بأن الحب هو أمس ما تحتاج إليه كي تبقى على قيد الحياة.

على كل، الشيء الرئيسي الذي كان ضد الدكتور خوبينال أوربينو هو تشابهه الشديد بالرجل المثالي، الذي تمناه لها أبوها. كان مستحيلا ألا تراه الشخصية، التي من أجلها تآمر أبوها، مع أنه في الحقيقة ليس كذلك، اقتنعت بذلك منذ ثاني مرة دخل فيها البيت كزيارة طبية غير مرغوب فيها، وحواراتها مع ابنة خالها لم تفعل إلا أن زادت من اضطرابها، ولأن إيلديبراندا كانت ضحية لموقف من مواقف الحب قررت أن تعرف فلورنتينو أريثا ناسية أنها أصلا ربما استغلها لورينثو داثا كي تستميل قلب فيرمينا نحو الدكتور خوبينال أوربينو، ويعلم الله كم من جهد بذلته فيرمينا كي لا تصحب ابنة خالها، وهى ذاهبة للتعرف على فلورنتينو في مكتب التلغراف، وأرادت فيرمينا أساسا اللقاء به مرة أخرى كي تواجهه بشكوكها، كي تتحدث معه على انفراد، أرادت أن تعرفه بشكل أعمق كي تتأكد فعلا بأن قرارها النزق لن يدفعها إلى مشكلة أخطر، قرارها الذي كان استسلاما في الحرب ضد أبيها، ولكنها في اللحظة الفاصلة في حياتها مضت في قرارها دون أن تأخذ في اعتبارها الجمال الباهر للدكتور خوبينال أوربينو، ولا ثروته الأسطورية، ولا لما حازه من مجد مبكر، ولا لأي ميزة من مزاياه، التي لا تحصى ولا تعد، هي فقط إنما

خشيت أن تضيع منها تلك الفرصة ومن سن العشرين، التي أوشكت على أن تناهزها، السن التي تعتبرها الحد الأقصى، الذي عنده يحدد المرء مصيره. وقتها لم يكن ينقصها إلا دقيقة واحدة فحسب كي يكون قرارها هذا معلنا أمام الله والرجال جميعا، قرار سيقيدها حتى الموت. حينئذ تبددت جميع شكوكها، واستطاعت أخيرا أن تفعل ما يمليه عليها المنطق بأنه ملائم لها دون أي إحساس بالذنب أو اللوم. كانت كمن مسحت ذكرياتها مع فلورنتينو أريثا كلها بإسفنج دون أن تذرف عليه دمعة واحدة، هكذا محته من عقلها تماما، ووضعت موضع ذكرياتها معه مرجا من أزهار الخشخاش، والحاجة الوحيدة، التي سمحت بها لنفسها هي تنهيدة أخيرة حارة أكثر من المعتاد: «يا له من رجل مسكين!».

مع ذلك، عانت من مخاوف أشد وأنكى بمجرد عودتها من رحلة زواجها، فما إن انتهوا من إفراغ الحقائب ونزع الأغطية عن الأثاث، وتفريغ أحد عشر صندوقا جلبتها لتكون صاحبة وسيدة القصر القديم لماركيز كاسادلويرو، ما إن كان كل هذا حتى أدركت على الفور، بكل اشمئزاز، أنها ليست إلا سجينة في البيت الخطأ، بل وأسوأ من هذا، أنها ليست مع الرجل، الذي كان من قبل، واحتاجت أن تبقى هناك ست سنوات لتخرج من هذه الدار. هناك قضت أسوأ سنوات حياتها، فكم أحنقتها تلك المرارة والحزن المسيطران على حماتها، وكم عانت من التخلف العقلي لأخوات زوجها اللائي لم يتم حبسهن في زنزانة مغلقة، لأن هذه الزنزانة أساسا موجودة في نفوسهن.

والدكتور خوبينال أوربينو خاضع مستسلم تماما لتقاليد عائلته العريقة، لهذا كان يصم أذنيه عن توسلاتها واثقا في أن حكمة الله، والقدرة اللامحدودة للزوجة في التكيف والتأقلم مع الواقع من المؤكد أنهما سوف يضعان كل شيء في مكانه. كان يتألم أشد الألم لهذا الانهزام المسيطر على أمه، ففي الماضي كانت سعادتها بالحياة تبث في الجميع الرغبة في البقاء على قيد

الحياة وحتى الكافر يحس بهذا الشعور. حقيقي تماما هذا الكلام، فتلك المرأة الجميلة، الذكية، التي تتمتع بروح جياشة عاطفية غير موجودة عند قريناتها من النساء، كانت جنته الاجتماعية في روحها وجسدها خلال أربعين سنة، ولكن ترملها كدّر نفسيتها للغاية، حتى ظنت بأنها ليست هي، صارت بعد ترملها هزيلة الجسد قاسية المعاملة، تعادي العالم كله. التفسير الوحيد لهذا الانحطاط المرير هو حنقها لأن زوجها ضحّى بحياته عن وعي منه من أجل عصابة من السود، كما تقول هي، بينما تضحيته الوحيدة المفترضة أن يعيش من أجلها. على كل، لم تسعد فيرمينا في زواجها إلا في تلك الفترة التي استغرقتها رحلة زفافها، والشخص الوحيد القادر أن ينتشلها من هذا الغرق، مشلول من الرعب أمام قوة وقدرة والدته. فيرمينا تراه المسئول الوحيد وليست حماتها نصف المجنونة، أو أخوات زوجها المعتوهات، تراه مسئولا عن هذا الفخ الذي وقعت فيه، وبعد وقت طويل جدا بدأت تشك في أن وراء السلطة المهنية والبريق اليومي لهذا الرجل الذي تزوجت منه، ضعفا ليس منه خلاص: كأنه شيطان مسكين تدفعه ألقابه العائلية الطويلة.

حينها، كان ملاذها الوحيد ابنها الرضيع. شعرت به يخرج من جسدها سعيدا بتحرره من شيء لا يخصه، وعانت كثيرا حين أحست بأنها لا تشعر بذرة حنان تجاه هذا الحمل الصغير حين أخرجته الداية بلحمه الحي ملطخا بشحم الأمعاء والدم، مشتبكا برقبته حبله السري،ولكنها وسط الوحدة المحيطة بها في القصر تعلمت أن تعرفه، وعرفا بعضهما، واكتشفت أخيرا، بسعادة غامرة، أن الأبناء يحبهم آباؤهم، ليس لأنهم أبناؤهم فقط، وإنما لتلك الصداقة التي تنشأ من تربيتهم لهم. حتى انتهى بها الأمر إلى أنها لم تعد تحتمل أي شيء في هذه الدار المشئومة إلا هو. لم تكن تحتمل أبدا تلك الوحدة المقيمة، كأنها في مقبرة شنيعة، وهذا الوقت الطويل، الذي تقضيه في تلك الغرف الكبيرة الخاوية، التي تبدو كأنها بلا نوافذ. تكاد تجنّ حين

تجد نفسها في تلك الليالي الطويلة مع تلك الصرخات المجنونة الصادرة من مستشفى المجانين القريب من الدار، وكثيرا ما كانت تُحرج من أكل طعامها كل يوم على المائدة الخاصة بالولائم، وعليها ما عليها من مفارش مطرزة وأدوات الطعام الفضية والشمعدانات الكئيبة، وكل هذا فقط من أجل خمسة أشباح يأكلون عشاءهم المكوّن من فنجان قهوة وخبز الذرة المحشو بالجبن. كم كرهت تلك الصلوات الخاصة بعصر كل يوم، كم كرهت ما تراه دوما من تصنّع، وتكلف على المائدة، وترى انتقادهم الدائم لأسلوبها في استخدام أدوات المائدة، انتقادهم لمشيتها المتعجلة دائما كأنها امرأة شوارع، وملابسها، التي تشبه السيرك، حتى أنهم كانوا ينتقدون أسلوبها الريفي غير المتمدن حين تعامل زوجها، وكونها، في الوقت نفسه، ترضع ابنها دون أن تغطي ثديها، وفي المرات الأولى، التي دعت فيها من دعت لشرب الشاي في الساعة الخامسة عصرا، مع البسكويت الفاخر ومربى الورد، كما يفعل الناس في إنجلترا، إذا بالسيدة بلانكا تعترض كل الاعتراض أن يشرب أحد في بيتها هذه الأدوية المعالجة للحمّى بدلا من الشوكولا مع الجبن المتعفن وأقراص الخبز المعمول من اليوكا. حتى أحلامها انتقدوها، فذات صباح حكت فيرمينا أنها حلمت بشخص لا تعرفه يتنزه عاريا في صالونات القصر، ويرش الأرض بالرماد، فإذا بالسيدة بلانكا تقاطعها في حدة قائلة:

– أية امرأة عاقلة رشيدة لا يجب أن يكون لها مثل هذا النوع من الأحلام.

بالإضافة لشعورها بأنها ليست في بيتها، كان لديها مصيبتان كبيرتان. الأولى: كان عليها كل يوم أن تأكل الباذنجان بجميع صنوفه وطرق طبخه، والسيدة بلانكا لم تكن ترضى له بديلا احتراما لذكرى زوجها المتوفى، مصرة على أن تأكله فيرمينا، وهى أصلا تمقت الباذنجان أشد المقت منذ طفولتها، حتى قبل أن تتذوقه، وذلك لأنه دوما يبدو لها في لون السم، ولكنها

هذه المرة مقرة بأن حالها أفضل كثيرا من ذي قبل، فمرة واحدة على المائدة اعترضت على الباذنجان، حين كان لديها من العمر خمس سنوات، وأرغمها أبوها حينئذ على أن تأكل حلة كاملة تكفي ستة أشخاص، حينها اعتقدت بأنها ستموت حقا، أولا من كثرة ما تقيأته من الباذنجان المهروس، ثم من فنجان زيت الخروع، الذي أرغموها إرغاما على شربه كعلاج لعقابها، وتلازم الشيئان في ذهنها طويلا على أنهما مطهرات، فهى تخاف من طعمه بالضبط كأنه سم فعلا، وفي كل مرة تجلس إلى المائدة لتأكل غداءها البغيض في قصر الماركيز كاسالدويرو كانت لا تنظر أبدا إلى هذا الباذنجان كي لا يعاودها ذلك الغثيان المقيت الذي يسببه زيت الخروع.

المصيبة الثانية هى: البيانو والقيثارة، فذات يوم قالت السيدة بلانكا بكل وعي منها: «لا أظن أن أية امرأة عاقلة لا تعرف عزف البيانو». كلامها كان كأمر منها كي تتعلم فيرمينا البيانو، حتى ابنها حاول أن يناقشه معها، فأجمل سنوات طفولته قضاها في فصول تعلم البيانو، التي يمقتها أشد المقت، مع أنه عندما كبر حمد لها ذلك. لم يستطع أن يتخيل امرأة تخضع لهذا الحكم القاسي، خاصة أنها تبلغ من العمر خمسة وعشرين عاما، ولها شخصية مستقلة مثله تماما. ولكن كل ما استطاع تغييره من قرار أمه هو استبدال البيانو بالقيثارة، مقنعا إياها بحجة صبيانية أنها آلة الملائكة، وعلى هذا جلبوا من فييّنا قيثارة رائعة، تبدو كأنها فعلا مصنوعة من الذهب وعلى أي وضعية تضعها تصدح بالصوت العذب، قيثارة كانت من ضمن الآلات الأكثر قيمة في متحف المدينة إلى أن أتت عليه النيران بكل ما فيه، وخضعت فيرمينا داثا لهذا الحكم القاسي محاولة جهد المستطاع أن تمنع وقوع المصيبة الكبرى بتضحية أخيرة منها. بدأ يعلمها أستاذ كبير جاء خصيصا من مدينة مومبوكس، و مات فجأة بعد خمسة عشر يوما، فظلت تتعلم بعدها لسنوات على يد موسيقار كبير جاء من مدرسة إكليريكية، كان خلوف فمه يكاد يخرب أوتار الآلة من رائحته الكريهة.

كانت فيرمينا مستغربة جدا من أنها صارت مطيعة هكذا، فرغم أنها من داخلها لا تقر بذلك نهائيا ، ولا حتى أمام زوجها، في تلك المناقشات العقيمة، التي تدور بينهما لساعات، والتي كانت من قبل مخصصة للحب فقط، إذا بها تجد نفسها، بأسرع مما توقعت، داخل أدغال من اتفاقيات وأوامر صادرة من عالمها الجديد. كانت، في البداية تقول دوما جملة تؤكد بها حريتها: «في داهية المروحة، فالجو أصلا منعش»، ولكنها بعد ذلك، وهى في قمة تيقظها من المزايا التي اكتسبتها، إذا بها تخشى من الإحراج والسخرية، وأبدت استعدادها لأي مذلة، على أمل أن يحنن الله قلب السيدة بلانكا عليها، وهى تتمنى لها دوما، في صلواتها، أن يأخذها الله.

والدكتور خوبينال أوربينو كان يبرر ضعفه بحجج مختلفة، دون أن يسأل نفسه حتى إذا كانت تلك الحجج ضد الكنيسة أم لا. لم يعترف بأن هذه الصراعات مع الزوجة أصلها تلك البيئة الفاسدة الخاصة بالدار، وإنما أصلها وسببها الأساسي طبيعة الزواج: الذي هو إنما مجرد اختراع مناف للعقل لا توجده إلا القدرة اللانهائية للرب. كان ضد أي مبرر علمي يبرر أن شخصين، بالكاد يعرفان بعضهما، وليس بينهما صلة قرابة، وشخصيتاهما مختلفتان تماما، وكذلك ثقافاتهما، وحتى جنساهما، وبعد كل هذا يلزمان فجأة بأن يعيشا مع بعضهما البعض، وينامان على الفراش نفسه، و يتشاركان مصيرا واحدا، وربما يكونان متباعدين جدا. كان يقول: «مشكلة الزواج أنه ينتهي في كل ليلة، بعد ممارسة الحب، ولا بد بعد ذلك من إعادة بنائه في كل صباح عند ساعة الإفطار». ويقول أيضا أن حالهما أسوأ وأسوأ، فهما من طبقتين اجتماعيتين متناقضتين، ويعيشان في بلدة ما زال ناسها يحلمون برجوع زمن الملوك الإسبان، والبلسم الوحيد غير الممكن أبدا، بل والمتقلّب، هو الحب إذا كان أصلا موجودا، وفي حالتهما لم يكن موجودا حين تزوجا، ولم يفعل القدر إلا أن جعلهما يتواجهان في الواقع، حينما أوشك كلاهما على اختيار قدره بنفسه .

على هذا المنوال كانت حياتهما في فترة القيثارة، ولكن رغم ما يحدث بينهما من جدل، ورغم الباذنجان المسمم، ورغم أخواته المخبولات، ورغم أمهن، التي ولدتهن، إلا أن حياتهما لم تكن تخلو من بعض الصدف الحلوة كأن يطلب منها أن تغسله بالصابون خلال استحمامه. تفعل هذا بما تبقى لها من لباب الحب الذي كان أيام أوروبا، وكلاهما يستسلم للذكريات الجميلة، ويرق قلباهما دون إرادة منهما، يتحابان دون كلمة واحدة، وينتهي بهما الأمر أن يضاجعا بعضهما على الأرض تلطختهم فقاقيع الصابون العطرة، بينما يسمعان الخدم يتحدثون عنهما في غرفة الغسيل: « ليس عندهما أبناء أكثر لأنهما لا يتضاجعان أساسا»، ومن حين لآخر، تراهما حين يعودان من إحدى الحفلات المجنونة كأن الشوق والحنين يتربصان لهما خلف الباب ليصرعاهما على الأرض صرعا، وحينئذ تحدث تلك المعجزة الرهيبة بحيث يعود كل شيء حلوا كما كان، وفي خلال خمس دقائق فقط تجد الحبيبين العاريين اللذين كانا أيام شهر العسل.

بغض النظر عن هذه المرات النادرة أصلا، فدوما لا بد أن يكون أحدهما يشعر بالتعب والإنهاك عندما تحين لحظة الجنس. كانت تتأخر في حوض الاستحمام تلف سجائرها ذات الأوراق المعطرة، وتظل تدخن وحدها، وأحيانا تمارس براحة كبيرة العادة السرية مع نفسها كأيام شبابها وحريتها حين كانت في دارها، حينما كانت المالكة الوحيدة لجسدها. دوما تتحجج عن مضاجعته بصداع في رأسها أو بحرارة الجو العالية، أو تفتعل النوم، أو تتحجج بأنها حائض، دوما تتحجج بالحيض. من كثرة ما تحججت بالحيض جعلت الدكتور أوربينو يؤمن بالأمر إلى أن قال ذات مرة في إحدى محاضراته الطبية إن المرأة بعد عشر سنين من الزواج يأتيها الحيض لثلاث مرات في الأسبوع، قال هذا كي يستريح ويوفر على نفسه اختلاط الأمور.

مصيبة فوق مصيبة، أخيرا كان عليها أن تواجه خلال أسوأ سنوات حياتها،

ما كان لا بد من مواجهته إن آجلا أو عاجلا: حقيقة تلك الثروة الأسطورية المجهولة، التي يمتلكها أبوها، ذلك أن حاكم البلدة استدعى الدكتور أوربينو إلى مكتبه ليطلعه على مصائب والد زوجته، ولخص حاله كله في جملة واحدة: «ليس ثمة أي قانون إلهي أو إنساني يسمح لهذا الشخص أن يعيش». المصائب الكبيرة التي قام بها كانت تحت ظل زوج ابنته الدكتور أوربينو، لذا كان من العسير ألا يخطر ببال أحد أنه وزوجته لا يعرفان ما يقوم به أبوها. والدكتور أوربينو كان يعلم تماما بأن سمعته هي الوحيدة التي تحمي حماه ، لأنها أيضا الوحيدة، التي لا تزال واقفة على قدميها، لذا تدخل بكل ما لديه من قوة وثقل، واستطاع أن يغطي على الفضيحة بكلمة شرف منه، وبهذا خرج لورينثو داثا من البلاد بلا رجعة مع أول سفينة تخرج من البلدة. عاد إلى مسقط رأسه كأنه في رحلة قصيرة من تلك، التي يقوم بها الناس من وقت لآخر ليطفئوا أشواقهم إلى وطنهم الأصلي، والواقع أنه في عمق هذا المنظر ثمة شيء من الحقيقة: فهو فعلا منذ زمن كان يصعد على متن السفن الآتية من وطنه ليأخذ كوب ماء من خزانها الذي مُلئ بمياه الينابيع الخاصة بوطنه. ذهب ولم يعد دون أن يسمح لأحد أن يلوي ذراعه، متحججا ببراءته، وحاول إقناع زوج ابنته بأنه كان ضحية مؤامرة سياسية. رحل وهو يبكي بكاءً مرا على طفلته، كما كان يناديها منذ تزوجت، وعلى حفيده، وعلى تلك الأرض التي اغتنى فيها وعاش حريته، والتي استطاع فيها أن يجعل من ابنته سيدة مجتمع ثرية بالاعتماد على أمواله المشبوهة. رحل، بعد أن بلغ من العمر عتيا، ونخره المرض، ولكنه مع هذا عاش أكثر مما تمنى ضحاياه الكثيرون. ولم تستطع فيرمينا داثا، حين جاءها خبر موته، أن تمسك نفسها من تنهيدة ارتياح، ولم تلبس الحداد حتى لا تثير التساؤلات والشبهات، ولكنها ظلت شهورا طويلة تبكي في حرقة وصمت حين تجد نفسها وحيدة في الحمام، ولا تعرف أنها كانت تبكي من أجله.

أغرب ما كان في علاقتهما أنهما لم يكونا بهذه السعادة أمام الجميع كما كانا في تلك السنوات العجاف الحافلة بالمصائب، وذلك لأنه في الحقيقة كانت هذه سنوات انتصاراتهما الكبيرة على تلك العداوة المطمورة من قبل وسط مجتمعي لم يكن يقر أبدا بهما كما هما: مختلفان وحديثان كل الحداثة، بل وكذلك معاديان تماما للتقاليد والعادات. ومع ذلك، كان هذا الجزء السهل بالنسبة لفيرمينا داثا، فحياة المجتمع، التي أثارت لديها الكثير من الشكوك قبل أن تعرفها أصلا، لم تكن بالنسبة لها إلا مجرد مواثيق ورثوها أبا عن جد، مجرد طقوس تافهة لا فائدة منها أبدا، وكومة من كلمات معدة سلفا، حياة اجتماعية يسلي بها كل فرد الآخر كي لا يغتالوا بعضهم. الرمز الرئيسي في جنة الطيش المحلية هذه هو الخوف مما هو مجهول، وكانت تحدد الأمر كله بشكل بسيط للغاية قائلة: «المشكلة الرئيسية في الحياة العامة هي تعلّم كيفية التحكم في الخوف، ومشكلة الحياة الزوجية هي تعلّم كيفية التحكم في البغض والكراهية». سرعان ما اكتشفت ذلك بكل وضوح، حين كاشفت نفسها، منذ أن دخلت النادي الاجتماعي، تجر خلفها ذيل فستان عرسها الطويل، وهواء النادي مشبع برائحة الزهور والورود، وبأصوات الفالس وجحافل الرجال تنز بالعرق، والنساء اللائي يقرفصن من الخوف واللائي ينظرن إليها، ولا يعرفن كيف يتفادين هذا التهديد الواضح، الذي دخل عليهن من العالم الخارجي. إلى أن بلغت عمرها الحادي والعشرين كانت بالكاد تخرج من بيتها لحضور دروسها، ولكن كفاها نظرة واحدة شاملة لتدرك أن خصومها ليسوا في غمرة من الشعور بالكراهية والمقت، وإنما حقا ما يشلهم هو الخوف والرعب. وبدلا من أن ترعبهم أكثر، كما هو حالها، أسدت لهم معروفا بالتعرف إليها. ولم يكن أحد البتة مختلفا عما أرادته هي، فهي ترى أن كون هذا الشخص جيدا أو لا، أمر ليس في يده البتة، وإنما بيد قلبها فقط لا غير، هي التي تحدد بقلبها إذا كان هذا جيدا أم لا. الأمر نفسه بالنسبة للبلاد والمدن. كانت دوما تذكر باريس على أنها أجمل مدينة في العالم، رغم مطر

دائم لا ينقطع، ورغم أصحاب دكاكينها، الذين يصمون الناس بصريخهم وعجيجهم، ورغم سائقيها غلاظ الكلام. بدت لها أجمل مدينة في العالم ليس لأنها في الحقيقة كذلك أو ليست كذلك، وإنما لأنها كانت دوما مرتبطة جدا بحنينها إلى أسعد أيام حياتها، والدكتور أوربينو من ناحيته تسلّح ضد المجتمع بنفس الأسلحة التي يصوبونها ضده، ولكنه يتحكم فيها بذكاء أكثر، وبوقار محسوب للغاية، فلا شيء يحدث على ظهر هذه البلدة، إلا بوجودهما: الرحلات الداخلية، المسابقة الشعرية السنوية، الأحداث الفنية، مشاريع اليانصيب الخيري، الفعاليات الوطنية، وحتى أول رحلة عبر المنطاد الكروي. تجدهما متصدرين كل هذه الأحداث والاحتفالات، بل ودائما تقريبا هما أساس وجودها. ولا يمكن لأحد على وجه الأرض أن يخطر على قلبه أنه، رغم أيامهما السود، التي مروا بها، ثمة من هم أسعد منهما، وأن ثمة زواج سعيد متناغم أفضل من زواجهما.

وجدت في بيت أبيها، بعدما خلا منه، ملاذا خاصا من القصر العائلي الخانق، فمجرد أن تهرب من عيون الناس حتى تلوذ بالفرار خفية إلى حديقة «لوس إبانخليوس»، وتستقبل هناك ما شاء لها أن تستقبل من صديقاتها الجدد والقديمات من أيام المدرسة ودروس الرسم، مجرد استبدال بريء لما لا تؤمن به. هناك تحظى بساعات وديعة هانئة كأنها أم عزباء تعيش مع كثير مما تبقى من ذكريات طفولتها الكثيرة، وعادت مرة أخرى تشتري طيور الغراب المعطرة، بل وصارت تجمع في بيتها ما حولها من قطط الشوارع، ووضعتها جميعا تحت رعاية الخادمة جالا بلاسيديا، التي ما زالت ترغب في إحياء الدار مرة أخرى، رغم كبر سنها والروماتيزم، ومن جديد فتحت الغرفة الخاصة بالخياطة، التي رآها فيها فلورنتينو لأول مرة، والتي بها جعلها الدكتور أوربينو تخرج له لسانها كي يستكشف قلبها، وجعلتها كصومعة لها تمثل الماضي والأيام الغابرة، وفي عصر يوم من أيام الشتاء راحت لتغلق نافذة

الشرفة، قبل أن تهجم العاصفة على بيتها، وإذا بها ترى فلورنتينو عند مقعده الموجود أسفل أشجار اللوز، رأته ببذلة أبيه المفصلة على مقاسه، وكتابه المفتوح الموضوع على حجره، ولكنها لم تره هذه المرة كما رأته عدة مرات بالصدفة البحتة، وإنما رأته بالعمر، الذي في خيالها دوما في أيام الماضي، حينها خشيت من أن يكون ذلك علامة على الموت، وتألمت، بل إنها جرأت أن تقول لنفسها إنها ربما لو عاشت معه لأحست بالسعادة، هي وحدها معه فقط في بيت كانت ستبنيه من أجله بكل حب كما بناه هو من أجلها. تفكيرها هذا وحده أرعبها، لأنها بهذا عرفت كم التعاسة، التي بلغتها، ولذلك فهى بعدها استدعت كل قواها، وأرغمت زوجها بأن يتحدث معها دون تهرُب، بأن يواجهها، أن يتعارك معها، أن يبكيا معا من الحنق على ما ضاع منهما من جنة السعادة، وظلا على كل هذا، حتى صاح آخر ديك في الصباح، وانطفأت الأنوار في أرجاء القصر، وغمرته أخيرا أشعة الشمس، وزوجها يحس بالورم والتعب من كثرة الكلام وعدم النوم، وفي الوقت نفسه، ارتاح قلبه من كثرة ما بكى، وإذا به يحكم أربطة حذائه ذي الرقبة العالية في عنف وشدة، ويضع حزامه حوله، ويغلق بإحكام أي شيء أمام يديه، وقال لها أن نعم، نعم يا حبي، سوف نذهب لنبحث عن هذا الحب، الذي ضاع في أوروبا: في هذا الصباح نفسه، وإلى الأبد. قرار اتخذه فعلا كما قال، فاتفق مع المدير العام للبنك المركزي أن يصفي بسرعة ثروته العائلية الضخمة الموزعة ما بين أصول في فروع كثيرة من الأعمال والتجارة والاستثمارات ووثائق مهمة تحتاج إلى وقت طويل، هو يعلم أن ثروته ليست ضخمة إلى هذا الحد، الذي صورته الأساطير، فهى بالكاد تكفي بالضبط كي لا يفكر فيها، وتم تحويل هذه الثروة إلى عملات ذهبية وشيئا فشيئا تم تحويلها إلى البنوك في الخارج، صفوها جميعا حتى لم يبق لا له، ولا لزوجته في وطنهما، هذا الذي لا يرحم أبدا، شبر واحد من الأرض يكفي حتى ليدفنا فيه .

وفي الواقع، على عكس ما ظنت هي تماما، رأت بالفعل فلورنتينو أريثا. كان عند الرصيف الذي ترسو عليه عابرة المحيطات الفرنسية، حين وصلت هي وزوجها وابنها في عربة الخيل الذهبية، ورآهم يهبطون من العربة، كما يراهم دوما في المناسبات العامة، رآهم في أبهى شكل لا ينقصهم شيء. سارا ومعهما ابنهما الذي بدا مهذبا لدرجة تبين كم سيكون ناضجا في المستقبل، وهو فعلا كذلك. حيّا الدكتور خوبينال أوربينو فلورنتينو في سعادة رافعا قبعته، وهو يقول: «نحن ذاهبون لاحتلال فنلندا»، بينما أحنت فيرمينا داثا رأسها تحية له، فحسر هو عن رأسه، وانحنى بجسده بخفة احتراما لها، وحينها انتبهت، دون إشفاق لصلعته التي تزداد تدهورا بشكل سابق لأوانه. ها هو أمامها، ها هو مثلما كانت تراه: ظل لشخص لم تعرفه أبدا.

وفلورنتينو أيضا لم يكن في أحسن أحواله، فعمله كل يوم عن يوم يزداد صعوبة، ودأبه كصياد ليلي يواجه الكثير من العراقيل، يعيش سنين ساكنة تماما، بالإضافة إلى تلك الأزمة الأخيرة بسبب أمه ترانسيتو أريثا، التي ضاعت ذاكرتها، لدرجة أنها كانت أحيانا تلتفت نحوه، وتسأله في دهشة، وهو جالس على مقعده يقرأ: «وأنت ابن من؟». فيجيبها دوما بالحقيقة، ولكنها سرعان ما تلتفت إليه وتقاطعه قائلة:

– قل لي شيئا آخر أيضا: من أنا؟.

زاد وزنها، وسمنت لدرجة أنها لم تعد تستطيع الحركة بتاتا، وصارت تقضي يومها في دكانها الذي لم يعد فيه أي شيء للبيع، وتظل طيلة يومها تتزوق وتتزين منذ مطلع الصباح حتى مجيء اليوم التالي. لم تكن تنام إلا ساعات قليلة. كانت تضع أكاليل من الورد على رأسها، وأحمر الشفاه، وتضع البودرة على وجنتيها وذراعيها، وفي الآخر تسأله عن نفسها، كيف يراها، والجيران يعرفون بأنها دائما تنتظر نفس الإجابة: «أنت مثل مارتينث الصرصارة الصغيرة». هم يطلقون عليها هذا الاسم تشبها باسم إحدى

الشخصيات القصصية المعروفة، والخاصة بالأطفال، اسم فعلا يلاءمها كثيرا، فهي هناك على كرسيها الهزاز، تهوّي نفسها بمروحة من الريش الكبير، وردي اللون، إلى أن تبدأ من جديد عاداتها: إكليل من الأزهار الورقية، بعض المسك على جفونها، أحمر الشفاه، وطبقة من البودرة البيضاء على وجهها. ومرة أخرى تسأل أقرب واحد أمامها: «كيف أنا؟»، وبعدما صارت ملكة المزاح والسخرية من جميع الجيران، قام فلورنتينو ذات ليلة بإزالة مكتبها الخاص بها في المحل، وما فيه من دواليب بأدراجها الكثيرة، ثم أغلق باب الشارع تماما، وحوّل المحل إلى غرفة نوم شبيهة بغرفة الصرصارة الصغيرة مارتينث، مثلما وصفتها له أمه ذات يوم، وهكذا لم تعد ترى أحدا لتسأله عن نفسها.

وبتلميح من عمه ليون الثاني عشر قام بالبحث عن امرأة كبيرة السن لتقوم على خدمتها، ووجدها فعلا، ولكنها كانت تنام أكثر وقتها، وأحيانا تترك انطباعا بأنها أيضا ستنسى من هي، وعلى هذا يظل فلورنتينو أريثا في البيت منذ أن يخرج من مكتبه إلى حين ينوّم أمه، ولم يعد يلعب الدومينو في نادي التجارة، ولم يعد يلتقي لفترة طويلة بصديقاته القليلات القديمات اللائي تعودهن، ذلك أن ثمة شيئا ما في قلبه تغيّر منذ لقائه المرعب مع أوليمبا ثوليتا.

لقاؤه بها كان صاعقا بحق، ففي يوم من أيام شهر أكتوبر، حيث تلك العواصف الشديدات الماحقات، كان انتهى لتوه من إيصال عمه ليون الثاني عشر إلى بيته، حينئذ رأى من مكانه في عربته شابة هزيلة الجسد، خفيفة للغاية، عليها رداء حافل بالكشكشة المصنوعة من قماش الأورجانزا، لبسها، على وجه الدقة، بدا أكثر كملابس العرائس. رآها وهى تسير في خوف وفزع من موضع لآخر، فأطاحت الريح بشمسيتها فطارت إلى البحر، فأنقذها من هذا الجو العاصف، وأدخلها عربته، التي غيّر اتجاهها ليوصلها إلى بيتها. بيت ريفي قديم على البحر فناؤه مليء ببيوت الحمام، التي يمكن رؤيتها من

الشارع. حكت له، في الطريق، أنها منذ أقل من سنة تزوجت من رجل يبيع الخزف في السوق، والذي كثيرا ما رآه فلورنتينو أريثا فوق سفن الشركة، يقوم بإنزال صناديق تحوي أشياء مختلفة غير قيمة ليعرضها للبيع، وأعدادا غفيرة من طيور الحمام موضوعة في قفص مصنوع من خشب الصفصاف يشبه تلك الأقفاص، التي تضع فيها الأمهات أطفالهن الرضع حين يكن على متن السفينة. بدت أوليمبيا ثوليتا كأنها تنحدر من عائلة امتازت أجسامها بالخصر الرفيع الملفوف كأنها حشرات الدبابير، وليس ذلك لأنها مكتنزة الأرداف، ونصفها العلوي ضئيل، وإنما كل ما فيها: شعرها الذي يبدو كأسلاك الذهب، الزغب الخفيف الذهبي المنتشر على أنحاء جسدها، عيناها النجلاوان تشعان حياة وحمية، وبعيدتان عن بعضهما بطريقة غير طبيعية، وصوتها الرفيع الحاد، الذي لا ينطلق من فمها إلا بأظرف الكلام وأمتعه. بدت، في نظر فلورنتينو، خفيفة الظل أكثر من كونها جذابة مثيرة، ونساها تماما بمجرد أن تركها عند بيتها حيث تعيش مع وزوجها وحماها وباقي أعضاء العائلة.

وبعد ذلك بأيام، إذا به يرى زوجها في الميناء، كان هذه المرة يشحن بضائع على متن السفينة، التي، حين أقلعت، ومخرت عباب البحر، إذا بفلورنتينو يسمع بكل وضوح صوت الشيطان يوسوس في أذنيه. في عصر هذا اليوم، بعدما اصطحب العم ليون الثاني عشر إلى بيته، مر على بيت أوليمبيا ثوليتا كأنه يمر عليه بالصدفة، ورآها حينئذ من فوق سياج البيت تطعم الحمام الهائج المضطرب، ومن مكانه في عربته صاح بها قائلا: «كم يبلغ ثمن الحمامة الواحدة؟»، فعرفته على الفور وأجابته في سعادة: «هذا الحمام ليس للبيع»، فسألها: «إذن ماذا يفعل الواحد ليملك واحدة؟»، فأجابته، وهي لا تكف عن رمي الطعام إلى الحمام، قالت: «يحمل صاحبة الحمام في عربته حين تشعر بالضياع والتيه في وسط جو عاصف ممطر»، وعلى هذا رجع فلورنتينو بيته ومعه هدية شكر منها له: كانت هديتها عبارة عن حمامة زاجلة في ساقها حلقة من المعدن.

في عصر اليوم التالي، في نفس ساعة إطعام الحمام، إذا بمربية الحمام الجميلة ترى الحمامة نفسها، التي أهدتها له أمس تعود إلى برجها، وفكرت في أنها جاءت إلى هنا هاربة منه، ولكنها حين أخذتها لتفحصها أدركت وجود ورقة صغيرة في الحلقة المعدنية مكتوب عليها كلام حب، وكانت هذه أول مرة يكتب فيها كلام حب لغير فيرمينا، وليست أيضا المرة الأخيرة، كانت أول مرة رغم أنه أخذ حيطته، ولم يوقع اسمه، وفي عصر اليوم التالي، يوم الأربعاء، بينما هو داخل بيته، إذا بطفل من الشارع يسلمه قفصا فيه نفس الحمامة قائلا له: هذا من السيدة مربية الحمام، وأنها تترجاه أن يرعى الحمامة جيدا، ويتأكد من غلق القفص، لأنه إذا لم يفعل فسوف تطير مرة أخرى، وهذه آخر مرة ستعيد له الحمامة. حينها لم يعرف كيف يفسر فعلتها هذه، فهل وقعت الورقة الصغيرة من الحمامة وهي في طريقها، أو أن صاحبة الحمام تدعي الغفلة لا أكثر ولا أقل، أو أنها أرسلت له الحمامة ليرسلها إليها بدوره مرة ثانية، وإذا كان هذا الاحتمال الأخير هو الوارد، فكان الأولى بها أن ترسل الحمامة، ومعها أي رد على رسالته.

في صباح يوم السبت، بعد تفكير طويل، قرر فلورنتينو أن يرسل الحمامة مرة أخرى، ومعها رسالة منه بدون توقيع اسمه، وهذه المرة لم ينتظر إلى مجيء اليوم التالي، ففي عصر هذا اليوم، جاءه نفس الطفل بنفس الحمامة، ولكن في قفص آخر، وقال له بأمر منها: إنها أرسلت له الحمامة، التي طارت وهربت مرة أخرى، ففي أول أمس أرجعتها له تأدبا، وهذه المرة ترجعها له شفقة منها، ولكن لو طارت منه مرة أخرى، فهذه المرة فعلا لن ترجعها له.
في هذه المرة أخذت أمه ترانسيتو أريثا تتسلى بالحمامة حتى وقت متأخر من الليل، تخرجها من قفصها، وتظل تهدهدها وتناغيها، وتحاول أن تنيمها بتلك الأغاني، التي تُغنى للأطفال، وإذا بها تدرك فجأة أن ثمة شيء في الحلقة المعدنية الموجودة حول ساق الحمامة، ورقة صغيرة كتب عليها في سطر

واحد: أنا لا أقبل مجهولي الهوية. قرأها فلورنتينو وقلبه يكاد يجن، كأنه لأول مرة يقوم بمغامرة في حياته، وبالكاد استطاع أن ينام في هذه الليلة منتظرا اليوم التالي على أحر من الجمر، وفي اليوم التالي، في وقت مبكر للغاية، قبل أن يذهب لمكتبه، ترك الحمامة تطير، بعد أن علّق في حلقتها المعدنية ورقة فيها كلام حب، وموقعة باسمه بكل وضوح، ووضع أيضا في الحلقة الوردة، التي وجدها الأكثر نضارة وعطرا في حديقته، ومع ذلك، لم تلن المرأة، فبعد ثلاثة شهور من حصاره المستمر لها برسائله، ما زالت مربية الحمام الجميلة تجيبه بالإجابة نفسها: «لست من هؤلاء النساء»، ولكنها أبدا لم تكف عن تلقي رسائله، وحضور مواعيده، التي يبتكرها فلورنتينو ابتكارا لتكون كأنها محض الصدفة. هو أساسا رجل تصعب معرفته: محب فعلا، ولكنه لا يكشف أبدا عن وجهه، هو صحيح أكثر الرجال شراهة للحب، ولكن في الوقت نفسه مسكين وخبيث، لا يعطي أي شيء، ويريد كل شيء، لا يسمح لأحد أبدا بأن يترك في القلب ولو بصمة عابرة، ولكن ها هو الصياد الخفي يلقي بنفسه في قارعة الطريق برسائله المحمومة، التي يوقعها باسمه، وهداياه التي يتودد بها إليها وبجولاته المتهورة حول بيتها، حتى أنه لمرتين زارها، وزوجها ليس غائبا في رحلة من رحلاته أو يعمل في السوق. تلك كانت لأول مرة، منذ أيام حبه الأول، يشعر بسهم الحب يخترق قلبه.

بعد ستة شهور من أول لقاء لهما، تقابلا أخيرا في غرفة من غرف إحدى البواخر النهرية، التي كانت راسية عند الرصيف النهري كي يعاد دهانها. كانت ليلتهما ولا كل الليالي، فهى ظريفة مشاغبة سعيدة فرحة بالحب، ويحلو لها أن تقضي ساعات عارية، في راحة بطيئة طويلة تعشقها كثيرا كما تعشق الجنس. حجرة السفينة كانت بالكاد خالية تماما من الأثاث، نصفها مدهون والنصف الآخر خال من الدهان، تفوح منها رائحة زيت التربنتين المستخدم في الدهان، رائحة تكفي لأن تكون ذكرى لهذه الليلة السعيدة. فجأة قامت على فلورنتينو

رغبة غريبة غير مألوفة ، فنزع غطاء جردل يحوي دهانا أحمر اللون، كان قريبا من سريرهما، ثم بلل أصبعه الأوسط بالدهان، ورسم على التفاحة الشهية لتلك المرأة الجميلة سهما متجها للجنوب، وكتب على بطنها: هذه الجميلة الفاتنة لي أنا وحدي. في هذه الليلة، تعرت أمام زوجها، ولم تتذكر ما كتبه فلورنتينو على بطنها، ولم ينطق زوجها بحرف واحد، بل إن أساريره حتى لم تختلج، لا شيء مطلقا، ولكنه بكل هدوء ذهب إلى الحمام وأحضر موس الحلاقة، بينما ترتدي هي قميص نومها، ثم ذبحها بحركة واحدة.

لم يدر فلورنتينو أريثا بالأمر إلا بعد أيام طويلة، بعدما تم القبض على الزوج الهارب، وحكى للجرائد أسباب جريمته، وكيف قام بها، وبعدها ظل فلورنتينو سنوات يفكر في خوف في تلك الرسائل، التي بعثها موقعة باسمه، كان يحسب كل سنة من سنين سجن زوجها القاتل، الذي يعرفه جيدا من تجارته الكثيرة على متن البواخر، ولكنه لم يكن يخشى كثيرا الذبح أو الفضيحة العامة، كما كان يخشى أن تعلم فيرمينا بعدم وفائه لها. وخلال سنوات انتظاره للزوج المسجون، تأخرت ذات مرة تلك المرأة، التي ترعى ترانسيتو أريثا، وهى في السوق بسبب هطول بعض الأمطار المفاجئة، ولما عادت البيت أخيرا وجدتها ميتة. لما دخلت، ألفتها جالسة على الكرسي الهزاز، متزينة بالزواق والأزهار، كما تفعل دائما، وعيناها تشعان حياة، وعلى شفتيها ابتسامة ماكرة خبيثة لدرجة أن المرأة لم تدرك بأنها ميتة، إلا بعد ساعتين من الزمن. قبل موتها بقليل، راحت ترانسيتو توزع على أطفال الجيران ثروتها من ذهب وأحجار كريمة كانت مدفونة في أوان أسفل السرير، وزعتها عليهم قائلة لهم إنهم يمكنهم أكلها على أنها حلوى، أعطتهم ثروتها لتضيع بلا رجعة. قام فلورنتينو أريثا بدفنها في «لا مانو ديه ديوس»، التي كانت من قبل عبارة عن مزرعة، وصارت بعدها غير معروفة إلا باسم «مقبرة الكوليرا». دفنها هناك، وزرع فوق قبرها الورد.

في زياراته الأولى لقبرها اكتشف فلورنتينو أن أوليمبيا ثوليتا مدفونة على مقربة من قبر أمه، وليس على قبرها أي شاهد، ولكن منقوش على الأسمنت بأصبع اليد اسمها وتاريخها، حينها خطر بباله، وهو في قمة الفزع أن هذا ليس إلا مزحة ثقيلة من زوجها. حين أينعت الورود، كان يترك على قبرها وردة دون أن يراه أحد، وبعدها بزمن أخذ «شتلة» من الورد وزرعها عند قبرها. وكانت الورود والأزهار تتكاثر بوفرة وفوضى على كلا القبرين حتى أنه كان يأتي معه بمقص كبير وبأدوات الحديقة الأخرى ليقوم بتشذيبها وتنظيم شكلها، ولكن تلك الشجيرات من الورد كانت أقوى منه، فبعد سنين تشابكت شجيرات القبرين، ولم تعد تلك المقبرة تسمى بمقبرة الكوليرا، بل صار اسمها مقبرة الورد، إلى أن جاء يوم، ومر على القبر حاكم البلدة، الذي لم يكن مقتنعا بالحكمة، التي يفرضها الرأي العام، لذلك قام في ليلة واحدة بنزع كل هذه الشجيرات، ووضع لافتة ذات طابع جمهوري الشكل عند مدخل المقابر كتب عليها: المقبرة العامة.

أتاح له موت أمه مرة أخرى العودة لالتزاماته المهووسة القديمة: مكتبه في الشغل، لقاءاته السرية للغاية مع عشيقاته اليوميات، مباريات الدومينو في نادي التجارة، كتب الحب التي كان يقرأها، بالإضافة لزيارته كل يوم أحد للمقابر. كان عبدا للروتين، الروتين الذي يحط من شأن الفرد، ويزيد من مخاوفه، ولكن بالنسبة له شيء يحميه من إدراك عمره، الذي يمر بين يديه، ورغم ذلك، ففي يوم من أيام الأحد في شهر ديسمبر، حينما تغلبت شجيرات الورد على ما تتعرض له من قطع وتشذيب بالمقص الكبير، رأى بعضا من طيور السونونو تقف على كابل كهرباء رُكّب منذ وقت قريب، حينها أحس فجأة بالزمن الذي مر منذ موت أمه، واغتيال أوليمبيا ثوليتا، وكم وكم مر من الوقت الطويل جدا على عصر ذلك اليوم من شهر ديسمبر حين بعثت فيرمينا له رسالة تقول: نعم، إنها سوف تحبه إلى الأبد. كان حتى ذلك الحين يعيش

حياته كأن العمر يمضي فقط بالآخرين، وليس به، هو بالكاد في الأسبوع الفائت التقى في الشارع بأكثر من زوجين تزوجا بفضل رسائل كتبها بنفسه، بل إنه لم يتعرف على ابنه الأكبر، ابنه بالعمادة. حتى أنه قال لنفسه في حدة مصطنعا حركة غريبة، الكل يعرفها، قال: «يا للغرابة! إذا كان صار رجلا، فكيف لي أن أتعرف عليه». ظل على هذه الحال، حتى بعدما بدأ جسمه يصدر إشارات منذرة بالشر، لأنه دوما لديه صحة المعرضين للمرض. كانت أمه تقول عنه عادة: «المرض الوحيد، الذي أصيب به ابني هو الكوليرا». كانت أعراض الكوليرا عنده تختلط بأعراض الحب منذ وقت طويل جدا حتى قبلما تعي ذاكرته، ولكن أمه، على كل حال، كانت مخطئة في حكمها، فابنها عانى سرا لست مرات من السيلان المخاطي في البول، وقال له الطبيب إنهم ليسوا ست مرات كما يقول، وإنما هي مرة واحدة تنكأ مرة أخرى، بعد كل معركة خاسرة، وكذلك عانى من خُرّاج، وأربعة التهابات على شكل عرف الديك في القضيب، ولست مرات عانى من الطفح الجلدي، ولكن لا هو، ولا أي رجل قد يخطر على باله أن يحكي عنها كمجرد أمراض يعاني منها، وإنما هي في نظره تذكار للنصر في الحروب الجنسية.

بمجرد أن تعدّى عمره الأربعين، وإذا به يذهب إلى الطبيب ليشتكي من آلام في مختلف المناطق من جسده، وبعد فحوصات كثيرة، قال له الطبيب: «إنها أشياء نتيجة العمر»، ودائما يعود إلى بيته، دون أن يسأل نفسه، حتى إذا كان كل هذا له علاقة به وبتصرفاته، فالمرجع الوحيد لماضيه هو ما كان من حبه العابر لفيرمينا داثا، وإذا كان ثمة شيء ما يريد معرفته عنها فما عليه إلا أن يبحث في حياته، وما فيها من حسابات. لدرجة أنه في عصر ذلك اليوم حين رأى طيور السنونو واقفة على كابل الكهرباء إذا به يستعيد ماضيه منذ أقدم ذكرى يذكرها، استعاد علاقاته الغرامية، عثرات وعقبات واجهها في حياته كي يصل إلى هذا المركز المرموق، تلك الحوادث التي لا تعد ولا تحصى،

والتي جعلته يقرر أن فيرمينا داثا من نصيبه وحده، وأنها فوق كل هذا له وحده، ورغم أنف كل شيء، حينها أدرك كم من العمر فاته. حينها سرت قشعريرة في أحشائه حجبت عنه الرؤية، حتى أنه ترك أدوات الحديقة، واستند إلى جدار القبر، حتى لا تطيح به أول نطحة من نطحات الشيخوخة. قال لنفسه في فزع: يا للهول، كل هذا كان منذ ثلاثين عاما!

وفعلا كل هذا منذ ثلاثين عاما. ثلاثون عاما أيضا مروا مرورا على فيرمينا داثا، ولكنها كانت أجمل سنين حياتها. ولت الأيام المرعبة لقصر كاسالدويرو، وصارت في مزبلة الذكريات، وعاشت سيدة حرة في مصيرها في بيتها الكائن في حي «لا مانجا»، ومعها رجل لو رجع بها الزمن لاختارته مرة أخرى بين رجال العالم أجمعين، ولها ابن سار على خطى آبائه بدراسته في مدرسة الطب، ولها ابنة تشبهها للغاية حين كانت في مثل عمرها والتي أحيانا تثير اضطرابها لشعورها بأن أيامها تتكرر معها مرة أخرى. سافرت مجددا إلى أوروبا ثلاث مرات بعد تلك الرحلة المشئومة، التي قامت بها لتنأى بنفسها وبزوجها عما كانا فيه من رعب دائم.

وكأن الله سمع دعاء أحدهما، فبعد سنتين تقريبا من الإقامة في باريس، حين بدآ بالكاد يبحثان عما تبقى من حب بين الأنقاض، جاءهما تلغراف في منتصف الليل أيقظهما ليعلما بأن السيدة بلانكا أوربينو في حالة مرضية خطيرة للغاية ثم تبعه تلغراف آخر ينعي إليهما خبر موتها. عادا على الفور إلى الوطن. وصلا، ونزلت فيرمينا من السفينة عليها قميص حداد طويل، رغم وسعه، إلا أنه لم يخفِ ما آل إليه حالها، فهي حامل مرة أخرى، حتى أن خبر حملها أصبح مصدرا لأغنية شعبية خبيثة في غير أذية، أغنية ظلت جملتها الشهيرة تعاد على ألسن الناس لبقية السنة: آه لو يكون مثل هذا الرجل الذي لديه جميلة في باريس، كلما أتت إلى هنا تأتي حاملا في رضيع. مع ذلك، فرغم بذاءة كلام هذه الأغنية، كان الدكتور خوبينال أوربينو يأمر بغنائها في

حفلات النادي الاجتماعي، ولسنين طويلة، كأنها دليل على صفاء مزاجه وروحه.

غدا ذلك القصر العريق، قصر الماركيز كاسالدويرو، بشعاراته وألقابه ووجوده كله في مهب الريح، بيع في أول الأمر إلى خزانة البلدية مقابل ثمن معقول، وبعدها بيع بثمن خرافي إلى الحكومة المركزية، حيث كان يقوم، في ذلك الوقت، باحث هولندي بالتنقيب في مكان ستبني عنده فيرمينا بيتها الجديد، ليثبت وجود القبر الحقيقي لكريستوفر كولومبس، أما أخوات الدكتور خوبينال أوربينو فأقمن في دير للراهبات، وصرن في عزلة تامة، فلا تسمع لهن همسا، أما فيرمينا فبقت في بيت أبيها القديم إلى أن يتم بناء بيتها الجديد في حي «لا مانجا». بيت دخلته بخطوات واثقة جريئة، دخلته لتأمر لا لتُؤمر، ووضعت فيه الأثاث الإنجليزي الذي أحضرته بعد رحلة زفافها، وأيضا قطع الأثاث، التي أحضرتها بعد رحلة المصالحة بينهما، ومنذ يومها الأول فيه، وهى تملأه بكل أنواع الحيوانات الغريبة، التي كانت تشتريها بنفسها من تلك السفن الشراعية الخاصة بجزر الأنتيل. دخلت بيتها أخيرا، بعد أن استعادت زوجها، بولدها الذي ربي خير تربية، وبرضيعتها، التي ولدت خلال أربعة شهور من عودتها، والتي عمّدوها باسم أوفيليا. في ذلك الحين، أدرك الدكتور أوربينو جيدا أنه من المستحيل أن يستعيد الزوجة، التي كانت بشكل كامل، كما كانت أيام رحلة زفافهما، وذلك لأن هذا الجزء من الحب، الذي يريده منها توجهه هي الآن إلى ولديها معطية إياهما الشطر الأفضل من حبها، ولكنه علّم نفسه بأن يسعد بما تبقى لديها من رواسب الحب، والانسجام الذي بينهما، وبلغ ذروته عند شيء لم يكن في حسبانهما البتة، حيث إنهما ذات يوم حضرا حفلا للعشاء وقُدم لهما طبق لذيذ للغاية لم تستطع فيرمينا أن تعرف مكوناته. ملأت طبقها عن آخره بهذا الطعام، ومن لذته ملأت لها طبقا ثانيا، بل إنها لامت نفسها على أنها لم تطلب طبقا ثالثا لولا شعورها بأن هذا

مناف للذوق العام، ودهشت أيما دهشة حين علمت بأنها إنما أكلت بكل لذة واستمتاع طبقين ممتلئين ببوريه الباذنجان!

أخيرا فُكت عقدتها من الباذنجان، فمنذ ذلك الحين، ولا يُقدم في البيت الجديد بـ«لا مانجا» إلا الباذنجان بجميع أشكاله، وتقريبا كل يوم مثلما كان في قصر كاسالدويرو، وأحبه الجميع، حتى أن الدكتور أوربينو حين بلغ طور الشيخوخة كان يمزح، ويقول إنه يود لو تكون له ابنة أخرى ليسميها بأحب شيء يحبه أهل البيت: باذنجانة أوربينو.

وكانت فيرمينا داثا تعلم، في ذلك الوقت أن الحياة الخاصة، على عكس الحياة العامة، متقلبة، ولا يمكن توقعها أبدا. لم يكن سهلا عليها أبدا أن تعرف الفرق جيدا بين الأطفال والناضجين، ولكن تحليلها وأفكارها رست على الأطفال وفضلتهم، فشخصياتهم أكثر ثباتا. حين أوشكت أن تتم نضجها، حين لم يعد أمامها أي سراب لا نفع منه، بدأت تتبين عدم ارتياحها لأنها لم تكن أبدا ما كانت تحلم به أيام شبابها، أيام حديقة «لوس إبانخليوس»، وإنما صارت شيئا لا تجرؤ هي نفسها على أن تذكره في سرها حتى صارت مجرد خادمة عالية المقام ليس إلا، فهى أمام الناس أجمعين الإنسانة، التي يحبها الجميع، أسعد إنسانة في الدنيا، ولكنها في الوقت نفسه الأكثر خوفا وقلقا، فهى في بيتها لا غنى عنها أبدا، ولا يمكن أن ترتكب هفوة واحدة. دائما تحس بأن حياتها ملك زوجها فقط، ومن أجله وحده، وإن كانت فعلا هي التي بيدها السلطة الكبرى على إمبراطورية السعادة، التي بناها، ومن أجله هو وحده. هي تعلم بأنه يحبها حبا لا مزيد عليه، يحبها أكثر من أي أحد في هذه الدنيا، ولكن فقط من أجله، من أجل خدمته المقدسة.

إذا كان ثمة شيء في الدنيا يقهرها ويؤلمها، وهو أنها محكوم عليها بالمؤبد في تقديم الطعام اليومي، فالأمر ليس مجرد أن يُقدم الطعام في مواعيده وانتهى الأمر، لا وألف لا، فلا بد أن يكون الطعام ممتازا، ولا بد أن

يكون أيضا موافقا تماما لرغباته دون سؤاله حتى!. ولو فاتها، وسألته: ماذا يحب أن يأكل، مجرد سؤال طقسي من الطقوس اليومية المنزلية، لا يكلف نفسه حتى رفع عينيه عن الجريدة ويجيبها قائلا: «أي حاجة»، وحقيقة يقول ذلك بصدق، وبطريقة ودية فيها حب وتفان، لأنه لا يقبل أبدا بمبدأ الزوج المستبد، ولكن حين تأتي ساعة أكل الطعام، فلا يمكن أن يكون أي شيء فحسب، وإنما لا بد أن يكون ما يريده ويحبه هو، وبدون أدنى خطأ، فاللحم يكون طعمه لحم، والسمك يكون طعمه سمك، ولحم الخنزير، يكون طعمه لحم خنزير، والدجاج يكون طعمه دجاج، وكان يصمم على شراء الهليون، وبأي ثمن حتى لو كان في غير موسمه، فقط ليشم رائحته من بخار بوله، وهو يتبول. هي لم تكن تُغلّطه، وإنما ترى أن الحياة صاحبة أكبر غلط، ولكنه أيضا بطل صعب المراس في هذه الحياة، فيكفيه فحسب بعض الشك لينحي عنه الطبق ويقول: «هذا الطعام مطبوخ من غير حب»، وهو في هذا الشأن دوما له جمل غريبة يعبر بها عن شعوره، فذات مرة، بالكاد تذوق منقوع البابونج، فأعاده قائلا: «هذا الشيء طعمه كالنافذة»، ولا هي، ولا الخدم فهموا كلامه، فلا أحد بالطبع جرب منقوع النوافذ، ولكن حينما تذوقوه ليفهموا، فهموا أخيرا معنى طعمه كالنافذة.

جدير بالذكر أن الدكتور خوبينال أوربينو زوج بحق وحقيق، فمثلا لا يلتقط شيئا من الأرض، ولا يطفئ الأنوار، ولا يغلق الباب حتى، وفي عتمة الفجر حين يجد مثلا ثوبه ينقصه زرا ما، تسمعه فيرمينا يقول: «الواحد منا محتاج زوجتين، زوجة لتحبه وتعشقه، وزوجة لتخيط له الأزرار»، وهو في كل يوم، حين يرتشف أول رشفة من قهوته، حين يأخذ أول ملعقة من الحساء الساخن، إذا به ينفخ بقوة في ضجر، ولكن لم يعد أحد يقلق من تصرفه هذا، وعلى الفور يقول في ارتياح: «اليوم الذي سأغور فيه من هذه الدار، سيعرف الجميع أني مللت دوما السير، وفمي محترق ملسوع»، وكان يقول أيضا أنه

في اليوم، الذي لا يستطيع فيه الأكل بسبب الأدوية المطهرة التي يأخذها، حينئذ يطبخن هن طعاما ولا أي طعام في لذته واختلافه، ولذلك فهو يحس بأن هذا غدر من زوجته، حتى انتهى به الأمر إلى أنه لم يعد يأخذ مطهرات إذا لم تأخذ هي أيضا.

ولما بلغ بها نفاد صبرها مبلغه لعدم تفهمه وضعها، طلبت منه هدية غريبة جدا في عيد ميلادها، أن يقوم ليوم واحد بمهام البيت، وقبل مسرورا، والحقيقة أنه تولى زمام البيت منذ الصباح الباكر. قدّم إفطارا رائعا، ولكنه نسى أنها لا تستسيغ البيض المقلي، وأنها أصلا لا تشرب القهوة باللبن، ثم بعد ذلك أخذ يوزع أوامره على الجميع لتجهيز طعام عيد الميلاد، الذي سيحضره ثمانية مدعوين، وهيأ الدار لاستقبالهم، وحاول بكل استطاعته أن يسيطر على حكومة البيت بشكل أفضل منها، ولكن قبل الظهر إذا به يعلن استسلامه بلا خجل. هو منذ اللحظة الأولى أدرك أنه ليس عنده أي فكرة عن مكان وجود أي شيء في البيت، خاصة المطبخ، خصوصا أن الخادمات تركنه يقلب المكان رأسا على عقب سعيا وراء كل شيء يريده في المطبخ، فهن أيضا كن يشاركن فيرمينا لعبتها، وفي الساعة العاشرة لم يكن اتخذن أي قرار بعد، فيما يتعلق بالطعام لأنهن ما زلن لم ينتهين بعد من النظافة، ولا حتى انتهين من تنظيم غرف النوم، والحمام متروك لم ينظفه أحد، لأنه نسى أن يضع المناديل الورقية، وأن يغيّر الملاءات، وأن يأمر السائق بالبحث عن ولديه، بل واختلطت عليه مهام كلا من الخادمات، فمثلا أمر الطباخة بأن تنظم السرائر، وجعل النادلات تقمن بالطبخ، وفي الساعة الحادية عشرة، حين أوشك المدعوون على المجيء، كانت الفوضى العارمة تعم الدار كلها، وحينها أخذت فيرمينا منه زمام الدار، وهى تكاد تموت من الضحك، ولكن بدون أن تتكبر، أو تعلن انتصارها كما ودت، وإنما تأثر قلبها لزوجها عديم النفع في البيت، وأما هو، فكان يعلل دوما ما حصل قائلا: «على الأقل لم أكن بهذا السوء مثلما لو كنت أنت من

تعالجين المرضى» ولكن، استفاد الجميع من هذا الدرس، وليس هو وحده من استفاد. ومع مرور السنين أدرك كلاهما بشكل أو بآخر أنهما لا يمكن أبدا أن يعيشا بطريقة أخرى، ولا حتى يمكنهما الحب بطريقة أخرى، فلا شيء في هذه الدنيا بأسرها بأصعب من الحب.

في خضم حياتها الجديدة تلك، كثيرا ما رأت فلورنتينو أريثا في المناسبات الرسمية، وكلما واصل صعوده المطرد في عمله وشغله رأته أكثر وأكثر، ولكنها عرفت كيف تكتم شعورها نحوه بحيث لا تبدر منها أي خلجة، حتى أنها ذات مرة نست أن تحييه، شرودا منها، وكثيرا تسمع من يتكلم عنه، صار هو الموضوع الرئيسي في عالم التجارة والأعمال نتيجة لصعوده الحذر والمتواصل في شركة الكاريبي للملاحة النهرية. رأت كيف تتحسن تصرفاته وعاداته، رأت كيف أن ما فيه من خجل تلاشى واضمحل كأنه شيء لم يكن، رأت وزنه، الذي زاد ليلائم مظهره أكثر، حتى بطء حركته نتيجة السن، ولاحظت أنه عرف كيف يقضى على الصلع المكتسح لرأسه بإصرار. الشيء الوحيد، الذي بقي عليه عِندا في الزمن والموضة هو لبسه الكئيب، فلا زال يرتدي تلك السترات الصوفية التي عفا عليها الزمن، ونوعا واحدا من القبعات لا يلبس غيره، وروابط عنقه الخاصة بالشعراء المصنوعة من شرائط يجلبها من دكان والدته، وأخيرا شمسيته هذه المنذرة بالشر الوبيل. تعودت فيرمينا أن تراه بشكل مختلف، وانتهى الأمر بها أنها لم تعد تراه مجرد مراهق هزيل البنية يتنهد بحرقة، وهو جالس في خضم تلك الأوراق الصفراء الذابلة التي تحيط به في حديقة «لوس إبانخليوس». وعلى كل، لم تكن تنظر نحوه أبدا بلا مبالاة أو عدم اهتمام، وأيضا كانت دوما تسعد لما يصلها عنه من أنباء سارة مبهجة، لأنها بذلك تحس بوطء ذنبها يخف قليلا قليلا عنها.

ومع ذلك، فحينما اعتقدت أخيرا أنها محته تماما من ذاكرتها، إذا به يظهر لها مرة أخرى، بل ومن آخر موضع كانت تتوقع ظهوره فيه، ظهر لها

طيفه مثيرا فيها الحنين والعذاب. ذلك أنها عندما بدأت تلوح عليها علامات الشيخوخة وكبر السن، بدأت تحس بأن شيئا ما لا يمكن إصلاحه أبدا حدث في حياتها، صار يخالجها هذا الشعور عندما تسمع السماء ترعد وتقصف قبل هطول المطر. جرح غائر لا يندمل يعقب هذا الرعد الوحيد المنعزل المدوي، الدقيق في موعده تماما، رعد يدوي ويهدر في الساعة الثالثة مرة واحدة كل يوم من أيام شهر أكتوبر، رعد تسمع صوته يأتيها من فوق سلسلة جبال بيانويبا، ذكراه لا تنمحي أبدا، بل ويبقى في خيالها يتجدد دوما، وعلى مدار سنين طوال. اختلطت عليها في ذلك الحين ذكرياتها التي تجددت في عقلها بأحداث أيامها العادية، فذكريات رحلتها الأسطورية في المحافظة الخاصة بابنة خالها إيلديبراندا عادت من جديد، حتى لتحس كأنها حدثت في الأمس القريب، مختلطة بهذا الصفاء الزائف المنحرف الناتج عن حنينها. إنها لتذكر أيام مدينة ماناوريه، التي تقع عند السلسلة الجبلية، تذكر الشارع الوحيد فيها، شارع مستقيم، وكل ما فيه أخضر في أخضر، تذكر طيورها بأشكالها الجميلة تبث في النفوس الأمل، بل، وتذكر هذا البيت الرهيب المرعب، حيث كانت تستيقظ فيه، فتجد قميص نومها مبللا بدموع بيترا موراليس، التي ماتت بسبب الحب منذ سنين طويلة على نفس السرير الذي تنام عليه فيرمينا. إنها لتذكر طعم ثمار الجوافة، التي كانت في ذلك الحين، طعم لم تجد له مثيلا بعد ذلك أبدا، تذكر تنبؤاتها، التي من عمقها وغورها تحس بطنينها يكاد يغطي على صوت سقوط المطر في ذلك الحين، تذكر تلك الأمسية النادرة في مدينة سان خوان ديل سيسار، حينما خرجت للتنزه مع بنات أخوالها المضطربات، وتذكر كيف كانت تجز على أسنانها كي لا يخرج قلبها من فمها كلما اقتربت من مكتب التلغراف. لذلك باعت بيت أبيها لأنها لم تعد تحتمل آلام أيام مراهقتها، فمنظر الحديقة الخاوية المقفرة تحدق بها من شرفة البيت، والنسيم الفوّاح لأزهار الياسمين الحجازي في ليالي الحر، رعبها من صورتها حين كانت في ذلك المساء من شهر فبراير، حيث حددت

مصيرها، وفي كل موضع تقع عليه عيناها تتذكر أوقاتها العسيرة، التي قضتها مع فلورنتينو أريثا. ومع ذلك، لم يزل ذهنها صافيا رائقا لتعلم بأن ذكرياتها هذه ليست ذكريات حب، ولا حتى ذكريات ندم ولوم، وإنما هي مجرد صورة لا طعم لها تستنزل منها بضع دموع، وهي لا تعلم بأنها كذلك مهددة بالشفقة، التي أضاعت الكثير من ضحايا فلورنتينو الغافلات.

تشبثت بزوجها بكل قوة، وبالضبط في الفترة، التي هو في أمس الحاجة إليها، لأنه كان يتقدمها بعشر سنين يتخبط وحده في دياجير الشيخوخة العقيمة، وأضيف إلى ذلك كونه رجلا وضعيفا. انتهى بهما الأمر إلى أن عرفا بعضهما أكثر وأكثر، وقبل أن يتما عامهما الثلاثين من الزواج كانا كأنهما كائن واحد مقسم لنصفين، حتى أنه ليقلقهما كثيرا وقتها أنه في كل مرة يتوقع أحدهما تفكير الآخر قبل حتى أن ينوي عليه، أو يقلقهما أن يسارع أحدهما بقول ما كان الآخر سوف يقوله أمام الناس، عرفا كيف يجنبان أنفسهما ما كان من سوء تفاهم يومي، وأحقاد لحظية، وتساؤلات متبادلة لا نفع منها، واستطاعا أن يتفاديا تلك الومضات الخرافية الناتجة من التباهي بحياتهما الزوجية المشتركة. كانت هذه الفترة التي عرفا فيها كيف يحبان بعضهما بشكل أفضل، وبلا إفراط أو تعجل، وكلاهما واع تماما وشاكر جدا لانتصارهما العظيم على خصوماتهما، وبالطبع لم تكن الحياة تتوقف أبدا عن مدهما بالتجارب الفظيعة القاتلة، ولكن لا شيء يهم، فهما في وادٍ آخر تماما.

(٥)

بمناسبة الاحتفالات بالقرن الجديد صارت هناك قائمة جديدة من الأحداث العامة الخاصة بالبلدة، أهم هذه الأحداث القيام بأول رحلة بالمنطاد كنتيجة من تلك الاقتراحات، التي لا تنضب أبدا من قبل الدكتور خوبينال أوربينو. نصف البلدة كلها تجمعوا عند شاطئ الأرسينال كي يشهدوا طيران ذلك المنطاد الكروي المصنوع من قماش التفتا، والمزين بنفس ألوان علم الدولة، أول منطاد يحمل أول رسالة بريدية جوية إلى مدينة سان خوان ديه لا سياناجا، التي تبعد ثلاثين فرسخا في خط مستقيم من الناحية الشمالية الشرقية، وكان أول من صعد إلى تلك السلّة الخاصة بالمنطاد الدكتور خوبينال أوربينو وزوجته، اللذان رغبا في الطيران، حينما كانا في المعرض العالمي بباريس، ومعهما مهندس الطيران وستة من الرجال النبلاء، وكان معهم رسالة من المحافظ إلى السلطات البلدية الكائنة في سان خوان ديه لا سياناجا، حيث قُيّد فيها أن هذا أول بريد جوي على مر التاريخ، وأحد صحفيي جريدة الكوميرسيو سأل الدكتور خوبينال أوربينو ماذا تكون آخر كلماته لهم قبل بدء الرحلة، وعلى الفور أجابه دون أي ترو لتكون إجابته محل مزاح وسخرية، قال:

- في رأيي، إن القرن التاسع عشر مر على بلاد العالم كلها، إلا بلدنا.

ووسط كل هذه الجموع الحاشدة، التي كانت تغني النشيد القومي للبلاد، بينما المنطاد يرتفع في السماء كان فلورنتينو أريثا في هذه اللحظة

متفقا تماما في الرأي مع شخص سمعه يقول: إن هذه الرحلة لا تناسب أبدا أي امرأة، خاصة واحدة في مثل عمر فيرمينا داثا، ولكن على كل حال لم تكن الرحلة بهذه الخطورة، أو على الأقل لنقل إنها لم تكن خطيرة للغاية مثلما كانت مقبّضة للنفس مثبّطة للعزيمة. وصل المنطاد إلى هدفه دون أي مشاكل، بعد رحلة وديعة هادئة عبر سماء زرقاء صافية. استطاعوا أن يحلقوا به جيدا على علو منخفض للغاية، والريح كانت هادئة كل الهدوء وفي صالح ما يشتهيه المنطاد بالضبط، حلقوا فوق قمم الجبال المغطاة بالجليد، ثم فوق ذلك الفضاء الواسع العريض «سان خوان ديه لا سياناجا».

ومن السماء، رأوا بالضبط، كما يرى الله الأرض، تلك الأطلال الخاصة بتلك المدينة الأسطورية العريقة للغاية «كارتاخينا ديه إندياس»، أجمل أطلال في العالم، تركها ساكنوها بسبب ذعرهم من وباء الكوليرا، بعدما قاوموا ما قاوموا من حصار الإنجليز لهم، ووحشية القراصنة، وعلى مدار ثلاثة قرون. رأوا تلك الأسوار التي بدت كأن أحدا لم يمسها من قبل، والأدغال اكتسحت وغزت شوارعها غزوا، والحصون التي نهشتها أزهار الثالوث، والقصور المبنية من الرخام، وغرف المذبح الذهبية، حيث يوجد فيها الملوك ببذلهم الحديدية بعد أن تعفنوا من الوباء.

كما حلقوا فوق تلك الأكواخ المقامة على أوتاد في مياه المستنقعات الواقعة في «لا تروخاس ديه كاتاكا»، جميعها مزينة بألوان مجنونة، وفيها ما فيها من حظائر لتربية سحالي الإجوانا الصالحة للأكل، والحدائق المكتظة بنباتات البيلسان وأزهار الأليستروميريا، حدائق كانت في الماضي بحيرات ومستنقعات، ومئات من الأطفال العراة ينطلقون من كل صوب نحو المياه وأفزعهم صريخ الجميع، أخذوا يقذفون أنفسهم من النوافذ، وأسقف البيوت، ومن تلك الزوارق، التي يوجهونها بمهارة فائقة، ثم يغطسون غطسا كأنهم أسماك لينتشلوا الحقائب المليئة بالملابس، وزجاجات الأدوية المهدئة

للسعال، والطعام الذي ترميه لهم جميعا تلك المرأة الجميلة، التي على رأسها قبعة من الريش من مكانها في سلة المنطاد.

حلقوا فوق غابات من أشجار الموز، هدوء شامل يعم المكان بأسره، حتى أنه من عمقه وكثافته كأنه بخار مميت يتصاعد إليهم، وهنا تذكرت فيرمينا داثا نفسها حين كانت تبلغ من العمر ثلاثة أعوام، أو ربما أربعة، حين كانت تتنزه في أرجاء الغابة الصغيرة ممسكة بيد أمها، التي كانت أيضا بالكاد تكون طفلة بين نساء أخريات يلبسن ملابس مصنوعة من الموسلين مثلها تماما، ممسكات بشمسيات بيضاء اللون، وعلى رؤوسهن قبعات من الكتان الرقيق.

وقال مهندس الطيران الموجود معهم، والذي كان حينها يراقب العالم حوله بمنظار بعيد المدى: «هم يبدون تماما كأنهم أموات»، ثم أعطى المنظار للدكتور خوبينال أوربينو، وحينها رأى العربات، التي تجرها الثيران موجودة بين المزارع والحقول، والطرق حيث خطوط القطار، والسواقي متجمدة الحركة، وحيث تقع عيناه يجد أجسادا بشرية مبعثرة في كل مكان، وقال أحدهم: إن وباء الكوليرا اكتسح، وأطاح بسكان مدينة لا سياناجا جرانديه، أما الدكتور أوربينو، فكان يتكلم بينما لا تكف عيناه عن النظر من خلال المنظار البعيد المدى. قال:

– لا بد أن هذه كانت طريقة خاصة جدا بوباء الكوليرا، لأنه ما من ميت في هذا المكان إلا وفي عنقه طلقة القتل الرحيم.

ولم يمر وقت طويل إلا وكلهم يحلقون فوق مساحات شاسعة من زبد البحر، ثم ما لبثوا أن هبطوا بشكل مستقر على شاطئ كبير عريض شديد التوهج، فأرضه المشبعة بملح البحر تكاد تكون نيرانا مشتعلة. هناك انتظرتهم السلطات، ولا يحميها شيء من الشمس إلا شمسياتهم العادية اليومية، وأيضا كان هناك تلاميذ المدارس الابتدائية يحملون أعلاما صغيرة يهزونها هزا

على إيقاع النشيد القومي، وأيضا ملكات الجمال، وفي أيديهن ورود يكاد قيظ الشمس يحرقها، وعلى رؤوسهن تيجان في لون الذهب مصنوعة من الكرتون، وفي كل مكان ثمار البابايا المزروعة في جايرا، حيث كانت تمثل ثمارها الأفضل على مستوى الساحل الكاريبي بأسره، والحاجة الوحيدة، التي كانت ترغب فيها فيرمينا داثا بحق أن ترى مرة أخرى مسقط رأسها، حيث ولدت، كي تتأكد وتواجهه بما عندها من ذكريات قديمة للغاية، ولكن لم يسمح لأحد أبدا بدخول هذه الأرض بسبب الوباء، وسلّم الدكتور خوبينال أوربينو الرسالة التاريخية التي ضاعت بعد ذلك إلى الأبد، وجميع من في الموكب يكاد يخنقهم الحر خنقا، وهم في حالة من الخدر العميق يستمعون إلى ما يلقى إليهم من خطب وكلام، وأخيرا حملوهم على ظهر البغال إلى مرفأ السفن الخاص بمدينة «بويبلو بييخو»، حيث تتحد المستنقعات بالبحر، وهذا لأن مهندس الطيران لم يستطع أن يرتفع بالمنطاد في الجو مرة أخرى، أما فيرمينا داثا، فكانت متأكدة من أنها حين كانت طفلة صغيرة للغاية مرت هي وأمها على هذا المكان في عربة يجرها زوج من الثيران. وحين كبرت كانت تحكي هذا لأبيها لأكثر من مرة، وهو مات مصرا أنه لا يمكن أبدا أن تذكر شيئا كهذا، كان يقول لها:

– أنا فعلا أذكر تماما هذه الرحلة، وكلامك صحيح جدا، ولكن هذا حدث على الأقل قبل خمس سنين من ولادتك.

وعاد أعضاء الرحلة بعد ثلاثة أيام إلى الموضع الذي انطلقوا منه، وأضنتهم ليلة مشئومة من العواصف والرياح المؤذية، وتلقاهم الناس كأنهم أبطال، وبين هذه الحشود جميعا اندمج بينهم فلورنتينو أريثا، الذي تعرف على وجه فيرمينا، وما زالت عليه آثار هلعها ورعبها، ومع ذلك، ففي هذا اليوم رآها مرة أخرى في معرض ركوب الدراجات، حيث كانت موجودة أيضا تحت رعاية زوجها، وكانت هناك لا يبدو على ملامحها أي تعب أو إرهاق،

وكانت حينئذ على ظهر دراجة غريبة للغاية، بالأحرى هي شيء من هذه الأشياء الموجودة في السيرك، حيث إن عجلتها الأمامية كبيرة ومرتفعة جدا، وفوقها جلست فيرمينا، وفي الخلف عجلة صغيرة جدا بالكاد تسند الدراجة، وكانت راكبة الدراجة مرتدية كلسونا فضفاضا مطرزا بكثير من الحواشي الملونة، الذي أثار فضيحة بين النساء واضطرابا شديدا بين الرجال النبلاء، ولكن لا أحد أنكر مهارتها وبراعتها في ركوب الدراجة.

في مثل هذه المناسبة، وفي مناسبات كثيرة غيرها على مدار سنين طويلة كان يراها فلورنتينو أريثا كمجرد خيال عابر أمامه إن حالفه حظه، ثم تختفي بعد ذلك بالطريقة نفسها تاركة في قلبه شيئا من الأمل والشوق، ولكن رغم هذا، فهذه الرؤية العابرة كانت تمثل قاعدة أساسية في حياته، فمن خلالها يعرف كم أن الزمن يسيء معاملته، وليس نحوه فقط، وإنما لتلك التغيرات الطفيفة التي يلحظها على فيرمينا داثا في كل مرة يراها فيها.

وذات ليلة دخل نُزُل دون سانتشو، حيث مطعم عريق منذ أيام الاستعمار الإسباني لا يدخله إلا المترفين، وجلس في الركن الأكثر عزلة من المطعم، كما يفعل دوما حين يجلس وحده ليأكل عشاءه الخفيف كأنه طائر صغير، وفجأة رأى فيرمينا داثا في المرآة الموجودة في أقصى المطعم، جالسة مع زوجها، ومعهما زوجان آخران على المنضدة نفسها. كانت فيرمينا جالسة في زاوية بحيث يراها منعكسة على المرآة بكل سحرها وفتنتها، أما هي فلا تدري بشيء من هذا، بينما تدير الحوار بين رفقائها في خفة ظل وابتسامة ساحرة لها وميض أخّاذ كالوميض الذي تطلقه الألعاب النارية، بل إن جمالها زاد فتنة وبراعة، وهو يراها من خلال دموعه الغزيرة، فكأنها «أليس» عادت لتخرج من المرآة.

وراح فلورنتينو ينظر إليها بتمعن، وكما شاء له، وهو بالكاد يتنفس من الرهبة، رآها وهى تأكل، وهى تأخذ رشفة واحدة من الخمر التي أمامها، وهى

تمزح مع السيد سانتشو، ظل يتأملها، ويعيش معها لحظات من حياته، وهو في مكانه أمام منضدته المنعزلة، ولأكثر من ساعة جعل يتجول في نطاق أنسه، دون أن يراه أحد البتة، وبعدها شرب أربعة فناجين قهوة ليبرر جلوسه كل هذا الوقت هناك، إلى أن رآها أخيرا تخرج مختلطة بأفراد مجموعتها. مروا بالقرب منه بشدة حتى أنه استطاع أن يميز رائحتها بين هبات الروائح الخاصة برفقائها.

ومنذ هذه الليلة، وإلى أن مر نحو عام تقريبا، وهو يضيق الخناق بقوة على صاحب النُزُل يعرض عليه أن يبيعه تلك المرآة مقابل أي شيء سواء مالا أو خدمات، مقابل حتى أكثر ما يرغب فيه، ولم يكن الأمر بهين أبدا، فالسيد سانتشو يعتقد في أسطورة هذه المرآة بإطارها الذي تفنن في صناعته نجارون من فيينا، هو يعتقد بأن هذه المرآة لها توأم آخر كانت تملكه الملكة ماريّا أنطوانيت، واختفى دون ترك أي أثر يدل عليه، فالمرآتان ليس منهما إلا اثنتين فقط. وعندما استسلم له أخيرا، علّق فلورنتينو هذه المرآة في بيته، وكل هذا ليس لجمال إطارها، وحسن الفن الموجود فيه، وإنما لمساحتها الداخلية، التي احتلتها صورة محبوبته لساعتين كاملتين.

كلما رأى فيرمينا يجدها شابكة ذراعها بذراع زوجها في توافق تام بينهما، كلاهما تحسبهما يسيران داخل بيئة خاصة بهما وحدهما، يتبعهما فوج من القطط السيامي، ولا تضطرب فيرمينا أبدا إلا حين يسلمان عليه، وفي الحقيقة دوما يسلّم عليه الدكتور أوربينو مادا يده في حرارة ودفء، حتى أنه في بعض المناسبات يربت على كتفه. على عكسها هي، فقد كانت معه شديدة الالتزام بالشكليات والرسميات، ولم تكن تظهر له أي هفوة، ولو بسيطة، يعرف منها أنها تذكره منذ كانت عزباء لم تتزوج. كل منهما فعلا يعيش في عالم مختلف تماما، ولكن بينما هو يحاول بكل ما أوتي من جهد أن يقصّر المسافات بينهما، كانت لا تخطو خطوة إلا في العكس تماما، ومر وقت طويل قبل أن يجرؤ

على التفكير بأن لا مبالاتها هذه ليست إلا مجرد درع تتقي به الخوف، و خطر على باله هذا الخاطر أثناء مناسبة مباركة أول باخرة تسبح في المياه العذبة يتم بناؤها بالكامل في الترسانات المحلية، وتلك أيضا كانت أول مناسبة يمثل فيها فلورنتينو عمه ليون الثاني عشر على أنه النائب الأول لشركة الكاريبي للملاحة النهرية، وهذا التوافق بين مباركة السفينة وكونه صار نائبا لعمه جعل للمناسبة أهمية خاصة للغاية، ولذلك فهو لم يترك أحدا ذا شأن في البلدة كلها إلا ودعاه.

وبينما كان فلورنتينو أريثا منشغلا بالمدعوين في الصالون الأساسي بالباخرة، التي لا تزال تفوح منها رائحة الدهان الجديد والقطران، وإذا بموجة من التصفيق الحاد تعم الأرصفة كلها وإذا بالفرقة الموسيقية تعزف موسيقى النصر. اضطر إلى أن يخفيً هزته العنيفة، التي اعترته، والتي تعتريه منذ زمن سحيق، حين تقع عيناه على جميلة أحلامه شابكة ذراعها بذراع زوجها، مزهوة بنضجها وأنوثتها، تخطو كأنها ملكة من زمن آخر تسير بين جموع الحرس الشرفي بزيه الرسمي، بينما من فوقها تلقى عليها الشرائط الملونة، وأوراق الورد من شرفات البيوت والمنازل، وكلاهما جعلا يلوحان بأيديهما تحية لهذا التهليل العارم، ولكنها كانت فاتنة ساحرة، حتى أنها بدت كأنها الوحيدة بين جموع الناس الغفيرة، كل لبسها في لون الذهب الإمبراطوري، من أول حذائها ذي الكعب العالي إلى ذيل الثعلب الملفوف حول رقبتها، وقبعتها التي تضعها على رأسها.

وكان فلورنتينو ينتظرهما فوق الجسر الذي يصل إلى الباخرة، وبجانبه سلطات البلدة، وحوله ضجيج الموسيقى والصواريخ والصفارات الثلاث الطويلة العميقة الخاصة بالباخرة، صفارات جعلت الرصيف كله مشبّعا بالبخار، وصافح الدكتور خوبينال أوربينو من وقفوا في استقباله واحدا واحدا، وببساطة شديدة تجعل كل شخص يفكر في أنه يخصه هو وحده

بالمودة، صافح أولا قبطان السفينة، الذي ارتدى زيا رسميا شديد الأناقة، ثم المطران، ثم حاكم البلدة وزوجته، ثم عمدة المدينة وزوجته أيضا، ثم القائد العسكري، الذي جاء مؤخرا من جبال الأنديز، ثم بعد كل هذه الشخصيات كان فلورنتينو أريثا ببذلة من الصوف الغامق، بالكاد لا يميزه أحد بين هذا العدد الكبير من النبلاء، وفيرمينا بعدما سلّمت على القائد العسكري للجند إذا بها تتردد أمام يد فلورنتينو الممدودة أمامها، وحينئذ سألها القائد، وفي نيته أن يقدمهما لبعض، إذا كانا لا يعرفان بعضهما، وهى لم تقل لا أو نعم، وإنما مدت يدها إلى فلورنتينو وعلى شفتيها ابتسامة باردة كتلك الابتسامات الخاصة بالصالونات، وهذا الأمر نفسه حدث مرتين في الماضي، وسوف يحدث أيضا في المستقبل، ودائما يعزو فلورنتينو هذا التصرف منها على أنه شيء خاص جدا بشخصيتها وحدها، ولكنه في هذا المساء ساءل نفسه بخياله الواسع الفسيح، إذا كانت هذه اللامبالاة الشرسة منها ليست إلا حيلة ماكرة منها لتخفي ما يضطرم في نفسها من حب وشوق.

فكرة كهذه فقط مرت بخياله جعلت أشواقه تهتز هزا، ومن جديد عاد يلف حول بيتها الجديد بالشوق نفسه الذي كان في السنين الماضية، أيام حديقة «لوس إبانخليوس»، ولكن ليس بغرض أن تراه هي ، وإنما رغبته الوحيدة في أن يراها ليعرف فحسب أنها لا تزال حية مستمرة في هذه الدنيا، ولكن من العسير للغاية أن يمر هناك ولا يلحظه أحد، خاصة هي، فحي لا مانجا ليس إلا جزيرة شبه خالية منفصلة عن المدينة القديمة بقناة تجري فيها مياه خضراء اللون، ولا تقع عيناك على موضع من هذه الجزيرة إلا وتجد أشجار الكريز الملتفة ببعضها، والتي كانت أيام حكم الاستعمار الإسباني تمثل غطاء وسترا للعشاق في أيام الأحد من كل أسبوع. وخلال السنين الأخيرة تهدّم الجسر الحجري القديم، الذي بني أيام وجود الإسبان، وبنوا بدلا منه واحدا آخر من مواد البناء العادية، ووضعوا فوقه فوانيس للإضاءة، وكل هذا كي يسمحوا

عنده بمرور عربات الترام الجديدة تجره البغال. في البداية تحمل سكان حي لا مانجا الكثير من العذاب الذي ما كانوا يتحسبون له منذ بداية المشروع، عذابهم أنهم ينامون على مقربة شديدة من أول محطة كهرباء أُقيمت في المدينة، محطة رجفاتها فقط تهز أرض الحي هزا، وحتى الدكتور أوربينو بكل ما له من سلطة وقوة، لم يستطع أن يجعلهم يعدلوا فيها بحيث لا تزعجهم كل هذا الإزعاج، حتى أنه كان يتشفع إلى الله بأعماله الحسنة كي يزيل عنهم هذا البلاء، وذات ليلة انفجر مرجل المحطة انفجارا مدويا مرعبا، بل إنه طار في السماء، وحلق فوق البيوت الجديدة واجتاز نصف المدينة بأسرها ليقع على الرواق الكبير الخاص بالدير القديم «سان خوان ديه أوسبيلاتاريو» مخربا إياه تخريبا شنيعا. الدير عموما كان قديما للغاية تهدم منه الكثير، وصار مهجورا منذ أول ذلك العام، ولكن رغم هذا سبب هذا المرجل الطائر موت أربعة من السجناء الذين هربوا لليلة الأولى من السجن المحلي، وكانوا مختبئين في مُصلّى الدير.

وتلك الضاحية الوديعة الهادئة بما كان فيها من عادات جميلة للحب، لم تعد ملائمة الآن للحب ولا لأي شيء بعدما تحولت إلى حي خاص بالأغنياء فقط، فالشوارع معفرة بالتراب صيفا، وحافلة بالمستنقعات شتاء، وطول السنة تجدها خاوية مقفرة، وبيوت الحي كلها، رغم قلتها، مختفية خلف حدائق مكتظة بالأشجار الملتفة الكثيفة، وكل بيت له تراس من الفسيفساء بدلا من تلك الشرفات العالية التي كانت قديما، والتي كأنما بنيت خصيصا لإشباع رغبات الحب العابرة، والحمد لله أنه في تلك الفترة كان التنزه شائعا وقت الأصيل، في العربات المؤجرة القديمة المكشوفة، ذات العجلات الأربع، التي يجرها حصان واحد فقط، ثم ينتهي بها المطاف عند ربوة عالية، حيث يشهد منها الناس منظر الغروب، خاصة في شهر أكتوبر، ومن هناك يكون المنظر خلابا وجذابا عن الوقوف في برج الفنار، ويرون أسماك القرش،

التي تترصد سرا طلاب اللاهوت عند الشط، وفي يوم الخميس يرون عابرة المحيطات الضخمة، بيضاء اللون، التي يمكنك أن تلمسها بيدك حين تمر في القناة الخاصة بالميناء، واعتاد فلورنتينو أن يستأجر عربة من هذه العربات، بعد أن ينتهي من يوم عمله المضني الشاق، ولكنه لم يكن يثني غطاءها، كما يفعل الناس في شهور الحر، وإنما يجلس في أقصى العربة، لا يراه أحد، ودائما يكون وحده، ويأمر السائق بالسير في طرق غير متوقعة، حتى لا يظن به السائق سوءا، والحقيقة أن الشيء الوحيد، الذي شغف به فعلا في نزهته هذه، هو هذا الرخام الوردي الكبير بنصفه المحجوب خلف أشجار الموز والمانجو، هي بمنظرها هذا طبق الأصل تماما، وبصورة غير متعمدة إطلاقا لتلك البيوت الرعوية الموجودة في مزارع القطن في لويسيانا. أما ولدا فيرمينا فيراهما يعودان غالبا إلى البيت في حدود الساعة الخامسة، عائدين في عربة العائلة، ويرى الدكتور خوبينال أوربينو، وهو خارج من الدار لأجل زياراته الطبية الروتينية، ولكن رغم مرور عام تقريبا من التجول حول الدار، إلا أنه لم يستطع حتى أن يرى طيفها أو نسمة منها.

وفي عصر يوم من الأيام أصر على الخروج للتنزه، رغم نذير السماء بأول قطرات تلك السيول الكاسحة الخاصة بشهر يونيو، وفعلا انزلق الحصان في الوحل وانكفأ على وجهه، وهنا أدرك فلورنتينو، بكل رعب، أنه بالضبط أمام دار فيرمينا داثا، وترجّى السائق أن يحاول استئناف طريقه، وهو لا يدرك بأن ذعره هذا يفضحه أساسا. صاح به قائلا: ليس هنا، لو سمحت. في أي مكان إلا هنا.

وحاول السائق، بعد أن عماه إلحاح فلورنتينو عليه، أن ينهض الحصان، دون أن ينفصل عن العربة، ولكن محور العربة انكسر. حينها خرج فلورنتينو، وتحمّل خزي الوقوف تحت المطر الغزير إلى أن عرض عليه بعض المارة أن يحملوه إلى بيته، وأثناء وقوفه رأته إحدى الخادمات، التابعة لعائلة أوربينو

حين أغرقت ملابسه كلها في المياه، ثم وهو يخوض في الوحل، الذي بلغ ركبتيه، وحينها حملت إليه شمسية وآوته في تراس الدار، وهو حقيقة لم يكن يحلم ولا يتوهم حتى أن يصل حظه إلى هذا المستوى، ولكنه في عصر هذا اليوم كان يفضل الموت على أن تراه فيرمينا في مثل هذه الحال.

حين كانوا يعيشون في المدينة القديمة، كان الدكتور أوربينو وعائلته يذهبون سيرا على الأقدام في كل يوم أحد إلى الكاتدرائية، لحضور قُدّاس الساعة الثامنة صباحا، يفعلون هذا بحكم العادة أكثر من التزامهم بالدين وشرائعه، وبعدما غيّروا مكان إقامتهم، استأنفوا الذهاب إلى الكاتدرائية بالعربة ولعدة سنوات، وحتى أنهم أحيانا كانوا يتأخرون قبلها سامرين مع أصدقائهم أسفل أشجار النخيل الموجودة في الحديقة، ولكن بعدما بنيت الكنيسة في حي لا مانجا ملحقا بها مدرسة إكليريكيّة، ولها قطعة أرض كبيرة ومقبرة خاصة بها، حينها لم يعودوا يذهبون إلى الكاتدرائية، إلا في المناسبات الخاصة للغاية، وكل هذا التغيير، الذي حصل يجهله تماما فلورنتينو، الذي كان ينتظر كل يوم أحد في تراس مقهى باروكيا يراقب من مكانه كل من يخرج هناك من القَدَاديس الثلاثة، التي تُقام على مدار اليوم، وبعد ذلك أدرك خطأه، وذهب فعلا إلى الكنيسة الجديدة، التي ظلت شهيرة حتى منذ سنوات قليلة، وهناك وجد الدكتور خوبينال أوربينو وولديه يحضرون في الساعة الثامنة بالضبط القُدّاس في كل يوم أحد من شهر أغسطس، ولكنه لم يجد فيرمينا داثا معهم، وفي يوم من أيام أحد نفس هذا الشهر، زار المقبرة الجديدة الملاصقة للكنيسة، حيث كان المقيمون في حي لا مانجا يبنون أضرحتهم الأنيقة الفخمة، وحينها أحس كأن قلبه سيقفز من فمه حين ميّز من بين ظلال أشجار السيبا الضخمة أفخم هذه الأضرحة جميعا، زينت جوانبها بألواح الزجاج الملونة وأشكال الملائكة المنحوتة من الرخام، وتجد شاهدة قبر لكل فرد في العائلة نقش عليها اسم كل منهم بأحرف من الذهب، وبين هذه الشواهد،

رأى شاهدة قبر السيدة فيرمينا داثا أوربينو ديه لا كاييه، وبعدها مباشرة شاهدة قبر زوجها، وعلى كليهما عبارة مأثورة: معا إلى الأبد في معية الرب.

خلال بقية هذا العام، لم تحضر فيرمينا داثا أي مناسبات وطنية أو اجتماعية، ولا حتى حضرت احتفالات عيد الميلاد، مناسبات كانت هي والدكتور خوبينال عادة يكونان الشخصيتين الرئيسيتين فيها، ولكن أكثر مناسبة لوحظ فيها غيابها كانت مناسبة افتتاح موسم الأوبرا الجديد، وأثناء فترة الاستراحة دهش فلورنتينو حين وجد مجموعة من الناس كانوا بلا شك يتحدثون عنها، رغم أنهم لم يذكروا اسمها بتاتا. قالوا إن أحدهم رآها في منتصف الليل من شهر يونيو الفائت تصعد إلى متن عابرة المحيطات «كونارد»، المتجهة إلى باناما، وإنها كانت متشحة بطرحة غامقة اللون كي تحجب آثار المرض الخطير، الذي افترسها افتراسا، وتساءل أحدهم: ما هذا المرض الخطير للغاية، الذي أذاها؟ فكانت الإجابة، التي تلقاها من أحدهم مشبعة بالحقد الأسود:

– امرأة مشهورة مثلها لا يمكن أن يكون عندها إلا السل.

جدير بالذكر أن فلورنتينو أريثا كان يعلم أن لا أحد من أغنياء بلده حين يصيبه مرض يكون مرضا قصيرا، أو أنهم يموتون فجأة، ودائما تقريبا في ليلة حفل من الحفلات الكبيرة، التي تضيع بعد ذلك في الحداد، أو أنهم تنطفئ شعلتهم شيئا فشيئا لإصابتهم بأمراض فتاكة لكنها بطيئة، هم باختصار حياتهم الخاصة ملكية عامة للجميع، والعزلة في باناما هي تقريبا كفارة مفروضة فرضا في حياة الأغنياء الموسرين. هم يخضعون لما يريده الله منهم في مستشفى «لوس آدبينتيستاس»، التي ليست إلا مستودعا ضخما كله أبيض في أبيض منعزلا في منطقة خليج دارين حيث تهطل فيها الأمطار من قبل بدء التاريخ، وهناك يفقد المرضى شعورهم بالزمن القليل المتبقي من حياتهم، وفي غرفهم المنعزلة، ذات النوافذ الشبكية، لا أحد أبدا يستطيع

أن يميز بوضوح الموت من الحياة بسبب رائحة التعقيم الطاغية، ومن يشفى منهم يعود محملا بالهدايا الفاخرة ليوزعونها بسخاء وكرم، هم يحسون بشيء من الذنب كونهم لم يأخذوا حذرهم وظلوا على قيد الحياة. بعضهم يعود وتجد في بطنه آثار خياطة غليظة كأنها خيطت بخيط الأحذية، حتى أنهم في زياراتهم يرفعون قمصانهم ليرونها لمن معهم، ويأخذون في مقارنتها بآثار الخياطة الأخرى الموجودة عند هؤلاء، الذين ماتوا مختنقين بجرعة زيادة من السعادة، ولبقية أيامهم يظلون يحكون ويعيدون فيما رأوه من مظاهر الملائكة تحت تأثير مخدر الكلوروفورم، وعلى النقيض، لم يعرف أحد شكل، الذين لم يعودوا، وعلى الأخص أسوأهم حالا، من يموتون في عزلة تامة في تلك الخيام الكبيرة الخاصة بمرضى السل، يموتون يحيط بهم جو ممطر كئيب أكثر مقتا من أعراض المرض نفسها.

ولو خيرنا فلورنتينو نفسه، فهو لم يكن يدري ماذا يتمنى بالضبط لفيرمينا، ولكنه قبل كل شيء يفضل أن يعرف الحقيقة، فالأمر هكذا لا يطاق، ورغم دأبه في البحث عنها، إلا أنه لم يقف على أي شيء يدله عليها. بالنسبة إليه شيء غير مفهوم أن لا يستطيع أحد أن يحصل، ولو على أقل القليل، ليثبت ما تم حكيه عنها. في عالم البواخر النهرية، العالم الخاص به أيضا، ليس ثمة سر يمكن كتمه أو ثقة يمكن ائتمانها، ومع هذا، فهو أصلا لم يسمع أحدا يتكلم عن تلك المرأة ذات الحجاب الأسود اللون. لا أحد يعرف عنها أي شيء في مدينة كل شيء فيها معلوم ومعروف حقا، في مدينة كل شيء يُعرف فيها حتى قبل حصوله، خاصة كل ما يخص الأغنياء، ولكن لا أحد عنده أي تفسير لاختفاء فيرمينا داثا، وفلورنتينو رغم هذا، ما زال يتجول في حي لا مانجا، يستمع بدون إحساس إلى القُدّاس المقام في الكنيسة، يحضر المناسبات الوطنية، التي أصلا لم تكن تهمه البتة مهما كان حالها، ولكن مرور الوقت يوما عن يوم لا يفعل أي شيء، إلا أن يزيد من ثقته فيما سمعه من كلام عنها.

كل شيء سائر على طبيعته في بيت الدكتور أوربينو، باستثناء غياب الأم.

وفي خضم تحقيقاته عنها، وجد أخبارا جديدة لم يكن يعلمها، أو أنه بالأحرى لم يبحث عنها من الأساس، ومن بين هذه الأخبار موت لورينثو داثا في مسقط رأسه بإحدى القرى. هو يذكره، حين كان يراه في خضم معارك الشطرنج الشرسة في مقهى باروكيا، وبح صوته من كثرة الكلام، وكلما تقدم به العمر والسن زاد صلافة وخشونة وسمنة، وهما لم يتبادلا كلمة واحدة منذ القرن الماضي، منذ لقائهما المشئوم ساعة الإفطار، حين شربا خمر الينسون، وفلورنتينو موقن تماما بأن لورينثو يذكره بكل قرف مثله بالضبط، حتى بعدما استطاع أن يحصل لابنته على زواج الحظ والجاه، زواج كان السبب الوحيد في بقائه على قيد الحياة، ولكن فلورنتينو، رغم كل هذا مصمم على أن يحصل على معلومة صادقة بخصوص صحة فيرمينا، لذا عاد مرة أخرى إلى مقهى باروكيا ليحصل على هذه المعلومة من أبيها، في فترة كان خيريميا ديه سانت-أمور يحتفل بأنه واجه وحده في دورة شطرنج واحدة اثنين وأربعين خصما. ومن هنا علم فلورنتينو بأن لورينثو قضي نحبه، وفرح بهذا الخبر من كل قلبه، رغم أن هذا على حساب سعادته بمعرفة حقيقة أمر فيرمينا، وفي نهاية المطاف أقر بما قالوه عنها بدخولها المستشفى الذى لا يدخله إلا اليائسون، ولا عزاء له إلا تلك الحكمة الشهيرة المعروفة: امرأة مريضة، هي حقا امرأة خالدة، وفي خضم أيام يأسه هذه، سلّم بفكرة أنها لو فعلا ماتت، فمؤكد أن خبر موتها سيأتيه على أي حال دون أن يتعب نفسه بالبحث عنه.

ولم يأته خبر موتها أبدا، فهى في الحقيقة على قيد الحياة، وصحتها على أفضل ما تكون، تقيم في المزرعة، التي فيها ابنة خالها إيلديبراندا سانتشيث، وتعيش حياتها ناسية العالم كله، على بعد نصف فرسخ من قرية فلوريس ديه ماريّا. رحلت من بيتها هكذا بدون أن تثير ضجة في الرأي العام، رحلت باتفاق تام بينها وبين زوجها بعدما اشتبكا كالمراهقين في أول أزمة حقيقية بعد سنين

من الزواج الهانئ المستقر. أزمة فاجأتهما، وهما في قمة النضج العقلي، بعدما أحسا بأنهما بعيدان عن أي خصام، كبر ولداهما وربيانهما أحسن تربية، ووثق كلاهما في المستقبل بكونهما سيتعلمان تنحية خلافاتهما جانبا، بينما العمر يمضي بهما. فجأة حصل هذا الأمر الذي لم يكن في حسبانهما أبدا، ولم يودا حل الخلاف بالصريخ والدموع ووجود الوسائط بينهما، كما هو الحال في بلاد الكاريبي عموما، إنما أرادا حل الخلاف بالمبادئ الأوروبية الحكيمة الراقية، ولأنهما أصلا لم يلتزما لا بهذا الجانب ولا حتى بالجانب الأوروبي انتهى بهما الأمر أن خاضا مواقف صبيانية لا تنتمي إلى كلا الجانبين. أخيرا، قررت أن ترحل، ولا حتى تعرف لماذا أساسا، ومن أجل ماذا، ولكنها رحلت لمجرد شعورها بالحنق الخانق، وهو لم يستطع أن يثنيها عن عزمها، وما منعه شعوره بالذنب.

وفي الواقع، فيرمينا داثا سافرت في منتصف الليل، وفي سرية تامة، واتشحت بطرحة الحداد، ولكنها لم ترحل على متن عابرة المحيطات «كونارد» نحو باناما، وإنما على متن باخرة صغيرة عادية تماما إلى سان خوان ديه لا سياناجا، البلدة التي ولدت فيها، وعاشت أيام مراهقتها، والتي مع مر السنين كان شوقها إليها يتزايد حتى لم تعد تستطيع. وعلى عكس رغبة زوجها والعادات المنتشرة في هذه الفترة، لم يكن معها من رفيق إلا ابنة لها بالعمادة تبلغ من العمر خمسة عشر ربيعا، كانت ربتها مع بقية الخدم في البيت، ولكن تم إخطار جميع قادة السفن والسلطات المسئولة عن كل ميناء بسفرها. حين اتخذت قرارها أخيرا، بعد تفكير طويل، قالت لولديها إنها ذاهبة لتستجم قليلا لمدة ثلاثة شهور مع ابنة خالها إيلديبراندا، ولكنها في الحقيقة ذاهبة لتستقر معها مدة طويلة، والدكتور خوبينال أوربينو يعلم جيدا ما تتسم به من حزم وثبات على مواقفها، ووقتها كان حزينا جدا لدرجة أنه قبل بكل استسلام هذا الأمر كعقاب رباني على ذنوبه، ولكن لم تغب عن نظرهما أضواء الباخرة

بعدما أحس كلاهما بحزن شديد على ما كان منهما من ضعف ووهن.

مع أنهما كانا يتراسلان رسميا عن حالة ولديهما والشؤون الأخرى الخاصة بالبيت، إلا أنه مر نحو سنتين دون أن يجدا طريقا للعودة لبعضهما دون جرح كرامة أحدهما. والولدان قاما بقضاء عطلتهما المدرسية في السنة الثانية في فلوريس ديه ماريّا، وحينها فعلت فيرمينا داثا المستحيل لتثبت لهما تكيفها مع حياتها الجديدة، أو هذا الذي على الأقل استشفه الدكتور خوبينال أوربينو من الرسائل، التي تلقاها من ابنه، وكذلك فأثناء هذه الأيام كان مطران بلدة ريوآتشا في جولة رعوية، في هودج، على متن بغلته الشهيرة بيضاء اللون، بردائها، المطرزة أطرافه بالذهب، وجاء خلفه الكثير من الحجاج في مواكب متباعدة عن بعضها، وعازفو الأكورديون، وبائعون جائلون يبيعون الطعام والتمائم، وصارت المزرعة كلها ممتلئة عن آخرها بالبائسين والمقعَدين، الذين لم يأتوا حقيقة ليشهدوا الخطب الحكيمة من نيافته، وما يعقده من جلسات غفران، وإنما أتوا فقط ليتبركوا بالبغلة، حيث يقال إنها تقوم بالمعجزات في غفلة من مالكها!!!

والمطران كان ممتنا للغاية لآل أوربينو دي لا كاييه منذ أن كان راهبا، لذا في ظهيرة يوم من الأيام هرب، مما فيه من معارض بشرية غفيرة ليأكل الغداء في مزرعة إيلديبراندا، وبعدما أكل الطعام، الذي، لم يكن يتحدث أثناه إلا في الشؤون الدنيوية، انتحى جانبا بفيرمينا داثا، وأراد منها أن تسري له باعترافها وتوبتها، ولكنها أبت، وامتنعت بطريقة ودية حاسمة، في نفس الوقت، بحجة أنها ليس لديها ما تندم عليه، وهذا لم يكن السبب الحقيقي وراء رفضها، وإنما خشيت أن تصل كلمات اعترافها إلى حيث لا تود.

والدكتور خوبينال أوربينو عادة ما يقول بدون أي خجل أن صاحب الذنب وراء تلك السنتين اللتين ذاقا فيها من المرارة أصنافا ليست زوجته ولا شيء، وإنما تلك العادة السيئة الخاصة بزوجته، عادتها بأن تشم أي لبس

ينزعه أي فرد من العائلة، وحتى لبسها هي ذات نفسها، وذلك لتعرف إذا كان يجب غسل هذا اللبس أم لا، رغم أنه من الوهلة الأولى يبدو نظيفا تماما، تقوم بذلك منذ طفولتها، وأبدا لا تعتقد أنها تفعل شيئا غريبا، إلى أن لاحظها زوجها في ليلة زفافها نفسها، بل إنه لاحظ أيضا أنها تدخن على الأقل ثلاث مرات في اليوم، بعد أن تغلق باب الحمام على نفسها، ولكن هذا لم يثر فيه أي استغراب، وذلك لأنه من العادي جدا عند نساء مجتمعه أن ينغلقن في مجموعات، ويدخن وهن يتحدثن عن الرجال، وحتى قد يشربن نحو لتر كامل من شراب العرق إلى أن تجدهن مستلقيات على الأرض، صريعات ثملات كما يثمل عمال البناء تماما، ولكن عادتها في شم أي لبس تجده في طريقها، لم تكن بالنسبة له فقط أمرا غير لائق بالمرة، وإنما عادة خطيرة كل الخطر على الصحة، أما هي فلم تأخذ كلامه على محمل الجد، مثل أي شيء لا تحب مناقشته، وكانت تقول أيضا: إن هذه الأنف التواقة النهمة الصغيرة الموجودة على وجه الإنسان لم يخلقها الله فقط للزينة. وذات صباح، بينما هي ذاهبة للتسوق وشراء حاجات البيت، إذا بها تجد الخدم الموجود في البيت المجاور في حالة هرج ومرج لأن طفلا صغيرا يبلغ من العمر ثلاث سنين لم يستطعن أن يجدن مخبأه في البيت، فدلفت إلى الدار في وسط كل هذه الضجة، وراحت تتجول فيه نحو مرتين أو ثلاث كأنها بالضبط كلب «درواس» ضخم، وأخيرا وجدت الطفل نائمًا في دولاب من دواليب البيت، في آخر مكان يتوقع أحد وجوده فيه، وحين سألها الزوج المذهول كيف وجدته، أجابته :

– من رائحة البراز.

وفي الواقع، حاسة الشم عندها لم يكن نفعها فقط في غسل الملابس أو البحث عن الأطفال التائهين، إنما كانت عندها الشيء، الذي يوجهها في كل شئون حياتها، خاصة في حياتها الاجتماعية، ولاحظ ذلك الدكتور خوبينال

أوربينو منذ زواجه منها، خاصة في البداية، حينما كانت فيرمينا حديثة العهد ببيئة كلها مستعدة ضدها، منذ ثلاثة قرون من الزمان، ومع ذلك فهى استطاعت أن تسبح بين شعب المرجان الملتفة الشائكة دون أن تتعثر بأحد ، وحبتها الطبيعة بقدرة غير عادية. قدرة مخيفة مهيبة قد تكون بذرتها في قلب حجر من أحجار الصوّان، شديدة الصلادة منذ ألف عام. وجرّت عليها قدرتها هذه الشؤم، ففي يوم من أيام الأحد قبل إقامة القُدّاس، حين كانت فيرمينا تشم كعادتها دوما ملابس زوجها التي ارتداها عصر اليوم الفائت، وحينها أحست بشعور مريب، فكأن لديها رجلا آخر غيره ينام معها على سريرها.

شمّت أولا سترته، ثم صدريّته، بينما تنزع من عروتها الساعة ذات السلسلة الذهبية، ثم نزعت القلم الرصاص والمحفظة، وما تبقى من بضعة نقود في جيوبه، ثم أخذت تعلق كل شيء من ملابسه على التسريحة، وبعدها راحت تشم قميصه، بينما تنزع المشبك الخاص برابطة العنق، ثم فكت أزرار كمي القميص المصنوعة من الزمرد، ثم فكت الزر الذهبي الخاص بالياقة، وبعدها أخذت تتشمم البنطلون، بينما تنزع منه السلسلة ذات الإحدى عشر مفتاحا، ثم سكين الجيب، ذات المقبض المصنوع من عرق اللؤلؤ، وأخيرا راحت تشم سرواله التحتاني، وجوربيه ومنديله الحريري، الذي طُرز به اسمه. لم يخالجها حينها، ولو حتى سحابة شك واحدة، ففي كل قطعة من ملابسه ثمة رائحة لم تكن موجودة فيها منذ سنين طويلة من الحياة المشتركة، رائحة من الصعب جدا تحديدها، لأنها لم تكن رائحة ورد، أو أي من تلك المواد الصناعية، وإنما رائحة خاصة بالطبيعة الإنسانية، ولم تقل شيئا، ولم تعد تجد تلك الرائحة كل يوم، ولكنها لم تكن تشم ملابسه فقط لمجرد أن تعرف إذا كانت في حاجة إلى الغسل أم لا، وإنما كانت تشمها بنهم لا حد له، نهم من شدته تكاد نفسيتها تتآكل أكلا بسببه.

لم تكن تعرف أين هذه الرائحة بالضبط من روتين زوجها، فلا يمكن أن

تكون بين محاضرته الصباحية، وموعد غدائه، فهي تظن بأنه ليست هناك امرأة رشيدة على وجه الأرض سوف تمارس حبا محمومًا في مثل هذا الوقت، خاصة إذا كان الأمر مجرد زيارة طبية قصيرة، بينما وراءها كنس البيت، وتنظيم الفراش، والتسوق وإعداد الغداء، وربما تكون حينئذ مشغولة البال قلقة من أن يأتي أحد أولادها قبل ميعاده إلى البيت لضربة حجر شجت رأسه أو لأي سبب آخر، وحينها يجد أمه عارية تماما في الساعة الحادية عشرة في غرفتها لا تفعل أي شيء، بل وعليها طبيب فوق جسدها، ومن ناحية أخرى، ففيرمينا داثا كانت تعلم كذلك بأن الدكتور خوبينال أوربينو لا يمارس الحب إلا في الليل، بل ويفضل أن يمارسه في عتمة تامة، وفي أقصى حالاته قد يمارسه قبل الإفطار إلى حين يسمع زقزقة العصافير، وبعد هذه الساعة، كما يقول هو، فلا أهم من نزع ملابس لارتداء ملابس أخرى، ولا شيء يضاهي الحب والجنس في منتصف الليل. بحيث أن ملابسه فقط قد تتوسخ في إحدى زياراته الطبية، أو في أي لحظة من هذه اللحظات، التي يسرقها من أجل ليالي الشطرنج والسينما، وهذا الأمر الأخير يصعب جدا توضيحه، فهى على عكس صديقاتها تفخر بكونها تراقب زوجها، وتتجسس عليه، أو أن تطلب من شخص معين أن يقوم بمهمة التجسس، وجدول زياراته عموما، الذي يبدو أنسب وقت لارتكاب الخيانة إلا أنه أساسا يسهل جدا التجسس عليه، وذلك لأن الدكتور خوبينال أوربينو علاقاته دقيقة جدا مع كل من زبائنه، حتى في حساباته المالية مع الشرفاء والنبلاء من مرضاه، منذ أول مرة يزورهم فيها إلى أن يودعهم من هذه الدنيا بحركة صليب أخيرة وجملة مواساة فيها كثير من العزاء.

وبعد ثلاثة أسابيع، لم تجد فيرمينا رائحة ملابسه لعدة أيام، بل إن الرائحة عادت مرة أخرى، أو أن فيرمينا سرعان ما وجدتها من آخر موضع تتوقعها فيه، بل إنها مرة أخرى، ولعدة أيام تجدها، وبصورة خفيفة جدا أكثر من أي

وقت، رغم أن أحد هذه الأيام كان يوم الأحد، حيث احتفلوا عائليا، ولم يفترقا عن بعضهما هنيهة، وفي عصر يوم من الأيام إذا بها تجد نفسها في مكتب زوجها على عكس عادتها دائما، وعلى عكس رغبتها أيضا، كأنها ليست هي، كأنها امرأة أخرى تفعل شيئا لم تكن تفعله قط، كانت تحاول أن تفك بمنظارها الدقيق للغاية كل هذه الشفرات المتشابكة الخاصة بزياراته الطبية في الشهور الأخيرة، وهذه كانت المرة الأولى، التي تدخل فيها مكتبه المشبع برائحة المطهر النفاذة، مكتب مكتظ بالكتب المجلدة بجلود حيوانات غير معروفة البتة، وبصور غير واضحة من تلك الخاصة بالمجموعات المدرسية، وتلك الرقائق، التي وُثِّق فيها نسل العائلة الشريف، وبتلك الآلات المستخدمة في رصد النجوم، وقياس أبعادها، والتي تسمى أسطرلاب، ومكتظ بخناجر فانتازية جمعها زوجها على مدار سنين طويلة. مكتبه بالضبط محراب مقدس، المكان الوحيد حيث حياة زوجها الخاصة به، والتي لم تكن تدخله لأنه ليس مدرجا من ضمن أماكن الحب أبدا، ولمرات قليلة فقط تكون هناك بدونه في هذا المكان، ولأمور عابرة للغاية. أحست فيرمينا فعلا بأنه ليس لديها الحق أبدا في دخول هذه الغرفة، خاصة أن هدفها القيام بتفتيش غير لائق ، ولكن ها هي الآن هناك، تريد أن تعثر على الحقيقة، حقيقة تبحث عنها بنهم يزاحمه بنفس القوة خوف شديد من إيجادها، كأنها مدفوعة بريح قوية للغاية لا يمكن التحكم بها، ريح أقوى كثيرا من شموخها، وعزة نفسها، أقوى كثيرا من كرامتها حتى، هي باختصار في حالة عذاب رائعة.

ولم تستطع أن تنتشل أي شيء يخرجها من حيرتها، وذلك أيضا لأن مرضى زوجها، باستثناء أصدقائه، الذين تعرفهم، هم أيضا يقعون تحت سيطرتها المحكمة للغاية، أناس ليست لهم هوية محددة، أناس يعرفهم فقط من مرضهم، وليس من وجوههم، أناس لا يعرفهم من لون عيونهم أو من خلجات قلوبهم، وإنما من حجم الكبد، من رواسب في اللسان، من تخثر

البول، مما يصدر عنهم من هلاوس إذا أصيبوا بالحمّى. هم أناس يعتقدون أشد الاعتقاد في زوجها، هم أناس يظنون بأنهم يعيشون بسببه، بينما هم حقيقة يعيشون من أجله، هم أناس ينتهي أمرهم عنده في جملة واحدة يكتبها بخط يده في أسفل روشتته الطبية: هدوء، فالرب لدى الباب ينتظرك. وأخيرا، وبعد ساعتين لا فائدة منهما خرجت فيرمينا من غرفة مكتبه، وفي نفسها شعور بالذنب لأنها استسلمت لرغبتها.

بدأت تجري وراء هواجسها وخيالها، فراحت تحاول أن تستكشف أي تغيير طرأ على زوجها، ووجدته يتهرب ويتملص من كل شيء، دوما شهيته مسدودة أمام الطعام الممدود أمامه على المائدة، وأيضا شهيته على الفراش تكاد تكون منعدمة، وجدته يميل للغضب، والردود الساخرة، ولم يعد هذا الرجل الهادئ حين يكون في بيته وإنما صار كأنه أسد محبوس في قفصه، ولأول مرة منذ زواجهما تحسب كم تأخر في وصوله للبيت، بالدقيقة والثانية، وتخترع له الأكاذيب اختراعا كي تنتزع منه الحقيقة، ولكنها بعد ذلك أحست بأنها مجروحة جرح الموت لما اقترفته من كذب أمامه، وذات ليلة استيقظت فجأة، ووجدت أمامها طيفا شبحيًا غريبًا لم يكن إلا زوجها، الذي كان يحدق فيها وسط الظلام بعينين بدتا ممتلئتين عن آخرهما بالبغض والكراهية. عانت فيرمينا هذه الهزة النفسية في عز شبابها، حين رأت فلورنتينو أريثا واقفا أمام فراشها، وكل الاختلاف أن نظرته لم تكن حاقدة كارهة، وإنما نظرة العاشق الولهان، لكن هذه المرة ليست خيالا، إنما حقيقة كل الحقيقة، فزوجها استيقظ في الساعة الثانية صباحا، ونهض من فراشه لينظر إليها نائمة، ولكنها حين سألته بعد ذلك لماذا فعل ذلك، نفى ما قالته، ووضع رأسه مرة أخرى على الوسادة قائلا لها:

– لا بد أنك كنت تحلمين.

بعد هذه الليلة، صارحت نفسها بأنها فعلا أصابها الجنون، حصلت لها

أحداث مماثلة لما حدث في هذه الليلة، أحداث لم تكن تعرف أنها تستطيع أن تفصل فيها، من أين تنتهي الحقيقة، ومن أين يبدأ الخيال، وأخيرا لاحظت أن زوجها لم يتناول القربان في يوم الخميس الخاص بتناول القربان، وحتى لم يتناوله في أي يوم أحد من الأسابيع الأخيرة، وأنه لم يكن يجد الوقت من أجل الخلوات الروحانية على مدار هذه السنة، وحين سألته عن سبب تغيره هكذا من ناحية صحته الروحانية، إذا بها تتلقى منه إجابة غامضة لا تبين. إجابته هذه كانت خير دليل، وذلك لأنه لم يمتنع ولو لمرة واحدة عن تناول القربان، خاصة في الأيام الدينية المهمة، منذ أن تناول أول قربان له حين بلغ عمره ثمانية أعوام، وبهذه الطريقة لم تدرك فقط أن زوجها واقع في ذنب عظيم، وإنما هو أيضا مصر كل الإصرار على الاستمرار فيه، وذلك لأنه لم يكن يعترف أمام القسيس، كما كان يفعل. لم تتخيل فيرمينا أبدا أبدا أنها قد تعاني من شيء يبدو أنه مناقض كل التناقض للحب، ولكن ها هي الآن تعاني مما لم يخطر على بالها قط، وقررت بأن الوسيلة الوحيدة كي لا تموت من الحنق والغيظ هي أن تصب النار على تلك الأفاعي السامة، التي تلدغها في أحشائها، و فعلت ما قررته، ففي عصر يوم من الأيام، كانت في التراس تقوم برتق ما انقطع من كعوب الجوارب، بينما زوجها ينهي قراءته اليومية، بعدما نام قيلولته، وفجأة إذا بها تتوقف عن عملها، وترفع نظارتها إلى جبهتها، وتستجوبه دون أن تبدو منها أي غلظة في كلامها، قالت:

- دكتور.

كان الدكتور غارقا حتى أذنيه في قراءة رواية «جزيرة البطريق»، التي كانت قراءتها شيئا شائعا جدا في هذا الوقت، وحينها أجابها بالفرنسية، دون أن يرفع عينيه إليها:

- نعم.

فقالت في إصرار:

- انظر إلى عيني.

فنظر إليها مباشرة، دون أن يراها من عدسات نظارة القراءة، التي استوت على أرنبة أنفه، ولكنه أيضا لم يكن عليه خلعها ليواجهها بنظراتها الناريّة الحارقة. سألها:

- ما الأمر؟

فقالت:

- أنت تعلم أنك تعرف أفضل مما أعرف أنا.

ولم تزد على كلامها هذا كلمة واحدة، ومرة أخرى وضعت نظارتها على أنفها وواصلت رتق الجوارب. حينها علم الدكتور خوبينال أوربينو أن تلك الساعات الطويلة من الانتظار والقلق انتهت. الغريب أنه أحس بعكس ما كان يتخيله تماما، فهو لم يشعر بهزة عنيفة مثلا تهد أركان قلبه هدا، وإنما شعر براحة عجيبة تجتاح نفسيته. راحة عظيمة كانت عاجلا لا بد من حصولها، وليس آجلا، فأخيرا دخل البيت شبح السيدة باربارا لينش.

عرفها الدكتور خوبينال أوربينو قبل أربعة شهور، حيث كان ينتظر نوبته في العمل في العيادة الخارجية بمستشفى لا ميسركورديا، وحينها أدرك في التو واللحظة أن شيئا ما لا رجعة فيه حدث بالفعل في حياته، وباربارا امرأة من أصل مختلط، طويلة، أنيقة، عريضة، لون جلدها كلون ثُفل قصب السكر بالضبط، وكانت في ذلك الصباح مرتدية فستانا أحمر اللون مزينا بأقمار بيضاء، وعلى رأسها قبعة من نفس نوع الفستان وكانت قبعة عريضة جدا بحيث تلقي بظلها على رموشها. بدت فعلا من جنس مختلف تماما عن بقية بني الإنسان، والدكتور خوبينال أوربينو لم يكن من عادته أن يعالج المرضى في العيادات الخارجية، ولكنه دوما يمر هناك حين يسمح وقته ليذكر تلاميذه الكبار بأن لا شيء أفضل في الطب من حسن تشخيص حالة المريض، وبلغ به الأمر أن نسق وقته تماما بحيث يكون موجودا وقت فحص تلك المرأة

غير المتوقعة، حريصا كل الحرص أن لا أحد من تلاميذه يلاحظ عليه أي ملحوظة عابرة، وكان بالكاد يثبت عينيه عليها، ولكنه دوّن جيدا في ذاكرته عنوانها. وفي عصر ذلك اليوم، بعدما انتهى من آخر زيارة طبية له، مر بعربته على العنوان الذي ذكرته في العيادة، وفعلا كانت هناك في تراس دارها تشرب بعض الشراب المنعش.

بيتها له الطابع الخاص السائد في جزر الأنتيل، كل ما فيه أصفر اللون، حتى سقفه المبني من الخارصين، ونوافذه شبكية الشكل، وثمة أصص تحوي نبات القرنفل، وعند البوابة تجد نباتات السرخس المتسلقة، التي ثُبتت قاعدتها بوتد كبير في شارع «مالا كريانثا»، وعند تلك الأفاريز الموجودة عند السقف يوجد طائر يشبه الشحرور. وعلى الرصيف المواجه للدار ثمة مدرسة ابتدائية خرج منها الأطفال جماعات مثيرين ضجة عالية مما جعل السائق يمسك بزمام الحصان كي لا يفزع، ومن حسن حظ الدكتور أنه كان لديها الوقت لتتعرف عليه، فحيّته بإشارة من يدها كأنهما صديقان قديمان، وبعدها دعته لشرب فنجان من القهوة إلى أن تمر تلك الجلبة العارمة، وهو على عكس عادته دوما قبل دعوتها مسرورا، وأخذ ينصت إليها تتكلم عن نفسها، فهي الشيء الوحيد الذي اهتم به منذ هذا الصباح، وسيظل مهتما بها دون دقيقة من الراحة، وعلى مدار شهور بحالها. في الماضي، بعد أن تزوج بوقت قليل، قال له أحد ما، في إحدى المناسبات، إنه إن عاجلا أو آجلا سوف يواجه عاطفة ما ستطيح بعقله، عاطفة قد تضع زواجه كله على المحك، وهو، الذي يظن بأنه يعرف نفسه جيدا، الذي يظن بأنه يعرف جيدا جذوره الأخلاقية ومناعتها القوية، أخذ يضحك من تلك النبوءة. ولكن ها هو الآن كما توقع له هذا الشخص.

والسيدة باربرا لينش، التي تعمل دكتورة في علم اللاهوت، هي الابنة الوحيدة للعظيم «جوناثات بي لينش»، أحد القساوسة البروتستانت، زنجي، ضامر الجسد، كان يسير راكبا بغلته بين القرى الصغيرة الفقيرة عند

المستنقعات، وهناك يأخذ في إلقاء مواعظ إحدى آلهته الكثيرة الخاصة به كرجل إفريقي، مواعظ كان الدكتور أوربينو يدوّنها بخط صغير كي يميزها عن بعضها، وكانت باربرا تتحدث الإسبانية جيدا لكنها تتعثر بشكل طفيف في قواعد اللغة، عثراتها هذه لم تفعل إلا أن زادت من فتنتها وظرفها، كانت ستتم الخامسة والعشرين من عمرها في شهر ديسمبر، و طلقت منذ مدة قليلة من أحد القساوسة، الذي كان تلميذ أبيها ولم تسعد معه في زواجها الذي دام لسنتين، وبعدها لم يعد لديها أي رغبة في الزواج مرة أخرى. كانت تقول: «ليس عندي حب إلا هذا الذي أكنه لطائري العزيز»، ولكن الدكتور خوبينال أوربينو كان جادا للغاية كي يفكر في أنها تعني فعلا ما تقوله. بل على النقيض: ساءل نفسه حيرانا: إذا كان وجود تسهيلات كثيرة هكذا مجرد شرك يدبره الله لنا لنحصد بعد ذلك نتائجه أكواما، ولكنه سرعان ما تخلى عن تفكيره كما لو أنه ارتكب ذنبا عظيما، وذلك لما يحس به من حيرة وارتباك.

وأخيرا، حين همّ بتوديعها أشار لها بشكل عارض إلى وجودها في العيادة صباحا، وهو يعلم جيدا بأن لا شيء أفضل عند المريض من التحدث عن آلامه، وكانت باربرا مبهرة في كلامها عن نفسها، بحيث أنه وعدها بأن يأتيها في اليوم التالي في الساعة الرابعة بالضبط، كي يكشف عليها بشكل أدق. حينئذ خافت، فهي تعلم أن طبيبا مثله أعلى بكثير من إمكاناتها المالية، ولكنه هدأها قائلا: «نحن في هذه المهنة نعتمد على ما يدفعه الأغنياء من أجل الفقراء»، وبعدها دوّن في مذكرته: السيدة باربرا لينش، منطقة «لا مالا كريانثا»، السبت، الساعة الرابعة عصرا، وبعد شهور، لا بد أن فيرمينا داثا قرأت ذلك التاريخ الذي كتب معه تفاصيل الحالة المرضية والعلاج وتطور المرض، ولفت الاسم نظرها للغاية، وسرعان ما خطر على بالها بأن هذه المرأة إحدى هؤلاء الرسامات التائهات بين سفن الفاكهة الخاصة بنيو أورليانز، ولكن عنوانها جعلها تفكر في أنه ربما تكون هذه المرأة من جامايكا، وأنها سوداء البشرة بالطبع، وحينها

استبعدتها دون ألم من رغبات زوجها.

جاء الدكتور خوبينال أوربينو بيت باربرا في يوم السبت، قبل ميعاده بعشر دقائق، حينها كانت السيدة لينش لم تنته بعد من ارتداء ملابسها لتتهيأ لاستقباله، واللافت أنه لم يعانِ قط من مثل هذا التوتر الشديد منذ كان مقيما في باريس، في موعد الامتحانات الشفوية. وتمددت السيدة لينش على سرير من القماش المبطن بالحرير، فبدا جمالها الساحر اللانهائي. كل شيء فيها كبير وعميق: فخذاها كأنها أفخاذ العاهرات الفاتنات، جلدها المستوى على نار هادئة، ثدياها الرجراجان المدهشان، لثتها الشفافة الرقيقة التي تكشف تحتها عن أسنان نضيدة ناصعة البياض، باختصار كل قطعة من جسدها يخرج منها بخار ينم عن قوة صحتها، وتلك هي الرائحة البشرية، التي وجدتها فيرمينا داثا في ملابس زوجها، والسيدة لينش راحت إلى المستشفى لأنها تعاني من شيء كانت تطلق عليه، بكل سخرية «القولون المعوج»، و فكر الدكتور أوربينو حينها في أن أعراضها هذه لابد أن تؤخذ بعين الاهتمام، لدرجة أنه راح يجس أعضاءها الداخلية ولكن عن متعة ونية، وليس بمجرد الحس الطبي العادي، وكلما تقدم به الوقت نسي حكمته الخاصة به، واكتشف في دهشة وذهول أن تلك المرأة المعجزة جميلة أيضا من الداخل، كما هو مظهرها من الخارج، حينئذ كفّ عن متعة لمسها، توقف، ولكن ليس بصفته الطبيب الأفضل على مستوى بلدان الكاريبي هذه المرة، وإنما مجرد رجل على باب الله حائر من تلك الربكة العارمة التي اعترضت غرائزه. مرة واحدة فقط خلال حياته المهنية المتشددة مر بمثل هذا الموقف، وكان يوما مشئومًا عليه، حيث أحس وقتها بخجل عظيم، لأن المريضة نحت يديه في غضب، ثم جلست على السرير، وقالت له: «ما تريده حضرتك من الممكن أن يحصل، ولكن بهذه الطريقة فلا وألف لا». على العكس، كانت السيدة لينش مستسلمة تماما بين يديه، وبعدما أدركت بكل تأكيد أن الطبيب لا يفكر في عمله، قالت له:

- كنت أظن أن هذا غير مسموح به أخلاقيا يا دكتور.

أما هو، فكان غارقا حتى أذنيه في العرق، كأنه خارج للتو بكامل ملابسه من بركة من العرق، وكان حينها يجفف يديه ووجهه بمنشفة كانت معه. قال لها:

- في علم الأخلاق يصوّر الأطباء على أنهم مجرد عصا جماد لا حس لها ولا حاجة.

فمدت يدها شاكرة، وقالت:

- كل ما في الأمر يا دكتور أن ما كنت أعتقده لا يمنع ما نستطيع فعله . تخيل ما سيكون لواحدة زنجية فقيرة مثلي يطمع فيها رجل له مثل هذه الشهرة العارمة.

فقال لها حينئذ:

- أنا حقيقة لم أصرف تفكيري عنك، ولو حتى لحظة واحدة.

اعترافه كان محملا بكثير من الرهبة والرعشة بحيث يستحق فعلا أن يُشفق عليه، ولكنها نحت كل المشاعر غير المستحبة، بضحكة مدوية تردد صداها في الغرفة، قالت له:

- أعرف هذا منذ أول مرة رأيتك في المستشفى يا دكتور، والحقيقة أنني فعلا زنجية ولكني لست متوحشة، كما تتخيل.

لم يكن الأمر هينا أبدا، فالسيدة لينش تريد شرفها نظيفا، تريده عن حب وأمان وثقة، وهى معتقدة بأنها تستحق كل هذا خير استحقاق. هي فعلا أعطت الدكتور أوربينو الفرصة لإغوائها، ولكن دون أن تسمح له بدخول غرفتها، رغم وجودها وحدها في البيت، وأبعد ما كانت تسمح به أن يجس أعضاءها ويتسمّعها بأذنيه خارقا كل المعايير الأخلاقية، ولكن دون أن تنزع ملابسها، وهو، من ناحيته، لم يستطع أبدا أن يترك ما تلقيه إليه من طُعم، لذا ظل على حصاره لها كل يوم تقريبا، وهو يعلم من الناحية العملية أن علاقته

بالسيدة لينش من المحال أن يكتب لها الاستمرار، ولكنه كان ضعيفا للغاية بحيث يتوقف بإرادته في الوقت المناسب، كما لا بد أن يحصل بعد ذلك، فهو شخصية لها حدودها.

والعظيم لينش، أبوها، لم تكن حياته منظمة البتة، ففي أي لحظة قد يخرج على ظهر بغلته المحملة على أحد جانبيها بكتب الإنجيل والكتيبات، التي تبشر بالمسيح، وعلى الجانب الآخر المؤن والطعام، ثم يعود في آخر وقت يتوقعه أحد، وعائق آخر يعترض علاقته معها، أن الأطفال في المدرسة يقرأون ويغنون دروسهم ناظرين إلى الشارع من النوافذ، وأكثر ما يكون واضحا أمامهم في الشارع هو هذا البيت الموجود على الرصيف المقابل، بنوافذه وأبوابه المفتوحة على مصراعيها من الساعة السادسة صباحا، ويرون السيدة لينش وهي تعلق قفص الطائر عند إفريز السطح كي يتعلم طائرها تلك الدروس التي يغنيها الأطفال، وكذلك يرونها، وقد وضعت على رأسها قبعة مكتظة بالألوان، تغني معهم بصوتها الساحر الخلاب الخاص بالكاريبي، بينما تقوم بوظائفها المنزلية، ثم بعدها يرونها وقت الأصيل جالسة عند رواق الدار تغني وحدها المزامير بالإنجليزية.

وكان عليه أن يختار وقتا لا يوجد فيه الأطفال، ولهذا كان أمامه حلان فقط لا ثالث لهما: في موعد الطعام، بين الساعة الثانية عشرة والساعة الثانية، حيث يأكل طعامه أيضا، أو في آخر النهار، حيث يكون الأطفال ذهبوا إلى بيوتهم، والحل الثاني كان دوما الموعد المناسب، والأفضل له، يكون الدكتور في ذلك الحين انتهى من زياراته الطبية، ويهيئ نفسه بضع دقائق كي يأكل طعامه مع العائلة. المشكلة الثالثة، وأخطرها جميعا، تكمن عنده هو بالذات. ذلك أنه لا يمكن أن يخرج من بيته إلا بالعربة، التي لا شخص في البلدة إلا ويعرف أنها عربته ، وكذلك فالعربة دوما تركن أمام باب الدار، وكان يستطيع أن يتآمر مع السائق الخاص به، كحال جميع أصدقائه في النادي الاجتماعي، ولكن

هذا أيضا أمر خارج عن مألوف عاداته، حتى حينما صار واضحا جدا كثرة زياراته للسيدة لينش جرؤ سائقه، الذي لا يبدو أمام الناس إلا بزي الخدم، أن يسأله إذا كان من الأفضل أن يوصله بالعربة، ثم يرحل بها، ويعود بعد ذلك ليأخذه كي لا تبقى العربة وقتًا طويلًا مركونة أمام بيتها، فانفعل عليه الدكتور خوبينال أوربينو، على عكس طبيعته المعتادة تماما، وقاطعه في حدة قائلا:

– هذه أول مرة منذ أن عرفتك تقول شيئا غير لائق . حسنا، حسنا: سأعتبرك لم تقل شيئا، وانتهى الأمر.

وانتهى الأمر أيضا إلى طريق مسدود، ففي بلدة كهذه من المحال أن يخفى مرض شخص ما عن الجميع، بينما عربة الدكتور أمام الباب، وأحيانا كان الدكتور نفسه يبادر ويذهب سيرا على قدميه إذا كانت المسافة غير بعيدة، أما لو العكس، فكان يذهب في تلك العربات المؤجرة، وكل ذلك لكي يتجنب أي افتراضات خبيثة أو سابقة لأوانها من قبل الناس، ومع هذا، فمثل هذه الخدع منه لا تنطلي على الجميع، وذلك لأن الوصفات التي يكتبها وتبعث إلى الصيدليات كفيلة بفك شفرات الحقيقة بأسرها، لدرجة أنه كان يصف بعض أدوية لا حاجة إليها، إلى جانب مفعولها الأساسي، كي يحتفظ للمريض بحقه في الموت بسلام دون أن يعرف أحد سر مرضه، وكذلك فهو أحيانا يبرر بطرق آمنة وجود عربته بالذات أمام باب دار السيدة لينش، ولكنه لم يكن يستطيع هذا لمدة طويلة، خاصة، طبعا، كما يريد هو: مدى الحياة.

العالم صار له جحيما مستعرة، فهما بمجرد أن يشبعا أول جنون لهما، وإذا بهما يحسان بكم الخطر الذي في مواجهتهما، والدكتور خوبينال أوربينو بالذات ليس لديه الجرأة لمواجهة مثل هذه الفضيحة إذا افتضح أمره فعلا، وهو في أوج النشوة والجنون يهذي بوعود كثيرة، ولكن بعدما يمر كل شيء، لا يبقى شيء إلا من أجل المرة القادمة. والغريب أنه كلما زادت رغبته فيها زاد خوفه من فقدانه لها، لدرجة أن لقاءاتهما تصير في كل مرة أكثر عجلة

وصعوبة. هو لا يفكر في أي حاجة أخرى، إنما ينتظر لقاءه معها بفارغ الصبر، حتى أنه ينسى بقية التزاماته، ينسى كل شيء إلا هي، ولكنه كلما اقتربت العربة من منطقتها زاد رجاؤه من الله أن يحصل أي عائق، ولو في اللحظة الأخيرة، يصرفه عن لقائها. كان يذهب إليها، وفي نفسه شيء من القلق والترقب، حتى أنه كان يسعد حين يرى رأس القديس «لينش»، ذات الشعر الأبيض كالقطن، وهو يقرأ في التراس، وابنته في صالة البيت، تعلّم أطفال الحي الدين المسيحي وتتلو بعضا من آيات الإنجيل. حينها يدلف إلى بيتها في سعادة كي لا يترك نفسه يواجه الحظ بما يأتي به، ولكنه بعد ذلك أحس بعقله يكاد يجنّ من القلق لأنه صار كل يوم يعيش على هاجس الساعة الخامسة عصرا.

وصار الحب بينهما مستحيلا، إذ كانت العربة واقفة بكل وضوح أمام باب الدار، وبعد ثلاثة شهور صار هذا الحب أمرا مثيرا للسخرية بحق، فهما ما إن يتبادلا كلمة واحدة حتى تدخل السيدة لينش غرفة نومها على الفور بمجرد أن ترى حبيبها الخائف، حتى أنها كانت تحتاط وتلبس تنورة واسعة في أيام انتظارها له، تنورة رائعة مستوردة من جامايكا بها كشكشة على شكل أزهار وورود ملونة، وكانت ترتديها على اللحم، دون أي شيء تحتها، معتقدة بأن هذه السهولة سوف تساعده في القضاء على خوفه، ولكنه لم يكن منه إلا أن يستغل كل لحظة أسوأ استغلال، بينما هي تكرس كل وقتها لتسعده، وهو ما إن يدخل البيت حتى يتبعها إلى غرفة نومها في لهاث مستمر، والعرق يكاد يغرق كل جسده، يدخل مطيحا بكل ما أمامه، ملقيا بكل شيء على الأرض، عكازه، حقيبته الخاصة بالأطباء، قبعته القشّ، ثم يمارس الحب في خوف وفزع وبنطلونه قد تكوّر حتى ركبتيه، وقد أغلق سترته كي لا تضايقه، وساعته ذات السلسلة الذهبية تبقى في صدريته كما هي، وحذاؤه في قدميه، باختصار يمارس الحب دون نزع شيء من ردائه، يفعل كل شيء، وهو متعلق للغاية بالرحيل بمجرد أن يقضي وطره، وبعدها تبقى باربرا في حالة فراغ رهيبة،

تحس أنها بالكاد في وسط نفق من العزلة والوحدة، بينما هو انتهى، ويستعيد كل شيء له، ويغلق الأزرار في غاية من الإرهاق والتعب، وكأنه مارس الحب المطلق في منطقة فاصلة تقع بين الحياة والموت، بينما هو حقيقة لم يقم بأبعد مما يكون عليه الحب كمغامرة جسدية ملموسة، ولكن الحب في نظره وقانونه هو: بالضبط كأنه يأخذ حقنة روتينية في الوريد، ثم بعدها يعود إلى بيته في قمة الحياء من ضعفه وخزيه، يتمنى لو يفترسه الموت افتراسا، يلعن من أعماقه أنه لا يستطيع أن يأمر زوجته أن تنزل له بنطلونه ليقعد على مجمرة مشتعلة عقابا له. صار لا يأكل عشاءه، يصلي دون اقتناع وخشوع، يتظاهر بمواصلته قراءة وقت العصرية، وهو ممدد على سريره، بينما زوجته تذهب وتجيء في أركان الدار تصلح من وضع دنيا البيت قبل ميعاد النوم، وكلما مالت رأسه من رغبته في النوم سرح تفكيره أكثر فأكثر في مستنقع السيدة لينش، في تلك الأبخرة التي تنز من غابتها الصغيرة الراقدة، سريرها الذي يموت من أجله، وحينها لا يفلح إلا أن يفكر في الساعة الخامسة عصرا إلا خمس دقائق من يوم غد، وهي تنتظره على الفراش لا عليها شيء إلا شعرها الكثيف الملتف كالليف تحت تنورتها الغريبة المجلوبة من جامايكا: نصفها السفلي باختصار.

منذ سنين قليلة بدأ يدرك ثقل جسده، وبدأ يتعرف على بعض الأعراض. أعراض قرأ عنها في الكتب والورق، أعراض رآها فعلا في حياته الواقعية، رآها في مرضى عجزة ليس لهم سوابق مرضية خطيرة، وهم سرعان ما يبدأون في وصف أعراض متزامنة مطابقة تماما لتلك الموجودة في كتب الطب، ومع هذا من يسمع عنها يحسبها من وحي الخيال ليس إلا، وكان أستاذه في طب الأطفال في مستشفى «لا سالبيتريه» في فرنسا أشار عليه بأن يتخصص في طب الأطفال لأنه التخصص الأكثر عفة واحتشاما وأمانة، ذلك أن الأطفال يمرضون فعلا حين يأتيهم المرض ولا يمكنهم التواصل مع الطبيب بأي من تلك الكلمات المتعارف عليها، وإنما تظهر أمام الطبيب أعراض حقيقية

لأمراض حقيقية، على عكس الناضجين، فهم من سن معينة، وربما يتواصلون مع الطبيب بمجرد أن يشعروا بالأعراض دون وجود مرض، أو أسوأ من هذا وذاك: أمراض خطيرة لها أعراض أمراض أخرى ليست خطيرة، وهو حينها يهدئهم ويسليهم ببعض المهدئات والمسكنات، ويضيف الوقت تلو الآخر، حتى يتعلموا ألا يحسوا بمرضهم من الأساس، يجبرون على التعايش في مزبلة الشيخوخة، وما لم يخطر على بال الدكتور خوبينال أوربينو أبدا أنه، وهو طبيب في مثل هذا العمر، حيث يظن أنه رأى وشاف كل شيء في هذه الدنيا، لا يستطيع التغلب على قلقه بإحساسه بمرض غير موجود، أو أن الأمر أسوأ من هذا، فهو لا يعتقد في وجود المرض لحجج علمية طبية واضحة، بينما المرض، ربما يكون فعلا موجودا. هو نفسه حين بلغ عمره الأربعين، قال ذات مرة ما بين الجد والهزل، أثناء محاضرة له في مدرسة الطب: «الحاجة الوحيدة، التي أحتاجها في الحياة أن أجد من يفهمني»، ولكنه حينما التقى وسط هذا التيه بالسيدة لينش، لم يعد يفكر في الأمر إلا بجدية تامة.

وكأن كل الأعراض الحقيقية منها والمتخيلة، التي كان يشتكي منها مرضاه كبار السن، كأنها جميعا تراكمت فيه، وصار مصابا بها جميعا، فها هو يحس فعلا بشكل كبده، وبكل وضوح، بحيث أنه يستطيع أن يقول لك ما حجمها دون أن يلمسها. ها هو يشعر بكليتيه كأنها تموء مثل القطط، يشعر بهذا اللمعان لمرارته، يشعر بالدم يتدفق تدفقا شديدا في شرايينه. أحيانا يستيقظ، ويشعر كأنه سمكة لا تجد هواءً تتنفسه، وكأن في قلبه ماء، فهو يشعر به حين يتوقف هنيهة، يشعر به حين يتأخر نبضه كأنه يقوم بمارشات عسكرية، لمرة واثنتين وثلاثة، وأخيرا يشعر بقلبه يستعيد نبضه العادي لأن الله كبير ورحيم بعباده، ولكنه بدلا من استئناف تلك اللامبالاة، التي كانت تجاه المرضى، هذه المرة أحس برعب عظيم، لذا فأمر مؤكد: أن الشيء الوحيد الذي يحتاج إليه في حياته، وحتى وهو في عمر الثامنة والخمسين، أن يجد من يفهمه. لدرجة

أنه لجأ إلى فيرمينا داثا، أكثر إنسانة يحبها على وجه هذه الأرض، وفي هذه الدنيا، وأخيرا رمى بعبء ضميره فوقها.

حصل ذلك بعدما قاطعت قراءته، وقت الأصيل، لتطلب منه أن ينظر إليها في عينيها مباشرة، حينها عرف أن حلقته الجهنمية هذه صارت مكشوفة أمامها، ومع هذا لم يكن يعرف كيف كشفت الأمر، فهو يرى أنه من المحال أن تكون اكتشفت الأمر برمته بحاسة الشم فقط. على كل، هذه البلدة ليست المكان، الذي فيه تختبئ الأسرار، وذلك معروف منذ وقت طويل، فمجرد أن امتدت إلى البلدة خطوط التليفون المنزلية، قطعت الكثير من روابط الزواج، التي كانت تبدو في غاية الاستقرار، وكل هذا بسبب مكالمة هاتفية مجهولة الهوية، ولهذا فعائلات كثيرة أصابها الرعب، وأوقفت خدمة التليفون عندها وأسر كثيرة رفضت أن تدخل التليفون لبيوتها، والدكتور أوربينو يعلم حق العلم بأن فيرمينا من ذلك النوع من النساء اللائي يحترمن أنفسهن للغاية، فلا يمكن أن تسمح، بأي حال من الأحوال، بأن تعكر صفوها مكالمة هاتفية من شخص مجهول تخبرها بخبره، وأيضا لم يكن يتخيل أبدا أن أي أحد معروف اسمه سيجرؤ أن يخبرها بخبر خيانته. على النقيض، أخوف ما يخافه هو تلك الوسيلة القديمة: ورقة تنساب من أسفل باب الدار من شخص مجهول، ولكن وارد جدا أن تفعل به وبها الأفاعيل، وليس فقط لأن المستقبل والمرسل أصلا مجهولان، وإنما أيضا لأنه من الأساس عائلته الأسطورية هذه تؤمن بأن هذه الطريقة تدبير الله وحده، وليس بفعل شخص أو إنسان عادي.

واللافت أن الغيرة لم تعرف طريقها أبدا إلى البيت من قبل، خلال ثلاثين عاما من حياة زوجية سلمية، حتى أن الدكتور أوربينو كان كثيرا ما يتباهى بهذا أمام الناس، وإلى ذلك الحين كان متأكدا تماما من أن الأعوام الثلاثين كالفسفور الجاف، الذي يشتعل فقط في بيته، ولكنه أصلا يجهل كيف سيكون ردة فعل امرأة مثل زوجته لها ما لها من عزة نفس وشموخ وكرامة

وشخصية قوية، ماذا ستفعل حين تتأكد من خيانته لها. بحيث أنه عندما نظر إليها كما طلبت منه، لم يخطر على باله حينها إلا أن يخفض عينيه كي لا ترى ما طرأ عليهما من اضطراب، وواصل قراءته مدعيا استمتاعه بأحداث الرواية، التي تدور في جزيرة ألكا، بينما هو حقيقة يفكر ماذا سيفعل، وفيرمينا أيضا، من ناحيتها، لم تقل كلمة أخرى واحدة، وحينما انتهت من رتق الجوارب، ألقت بكل شيء بإهمال في علبة الخياطة، ثم أعطت تعليماتها للخدم في المطبخ من أجل العشاء، وبعد ذلك ذهبت إلى غرفة نومها.

حينئذ اتخذ قرارا لا رجعة فيه بأنه لن يمر على بيت السيدة لينش في الساعة الخامسة عصرا، هكذا ومرة واحدة نقض كل وعوده بالحب الأبدي، خياله بأن يكون لها بيت سري خاص بها وحدها حيث يزورها فيه دون مفاجآت من أحد، أن يسعدا معا دون عجلة وهرولة إلى أن يقضيهما الموت، كل هذه الوعود، التي أعطاها إياها في نشوة حبه معها صارت في مهب الريح وإلى الأبد، وكان آخر شيء حصلت عليه السيدة لينش منه هو تاج من الزمرد الذي سلمه لها سائقه دون أي تعليق، دون أن يبلغها رسالة شفهية منه، أو حتى عبارة واحدة مكتوبة، التاج كان في صندوق صغير مغلف بالورق الخاص بالصيدليات، حتى يظن السائق نفسه بأنه مجرد صندوق صغير يحوي أدوية طبية مهمة. لم يعد يراها، ولو حتى بالصدفة إلى آخر حياته، ويعلم الله وحده كم من الألم تحمّل في سبيل هذا القرار البطولي منه، ويعلم الله كم من دمع سخين ذرفه بعدما يحبس نفسه داخل الحمام، فقط لمجرد أن يتجاوز تلك الكارثة الحميمة، وفي الساعة الخامسة، بدلا من الذهاب إليها، أعلن توبته على كرسي الاعتراف في الكنيسة، وفي يوم الأحد التالي قام بتناول القربان، وقلبه ممزق تمزيقا، ولكن روحه هادئة مستقرة.

في تلك الليلة، التي اتخذ فيها قراره بالبعد عن السيدة لينش، بينما كان ينزع ملابسه لينام، أعاد أمام فيرمينا شكواه الطويلة من الأرق الصباحي، من

الآلام والوخزات المفاجئة، رغبته في البكاء عند مغيب الشمس، هو باختصار يشرح لها معاناة حبه السري على أنها مجرد أعراض شيخوخة، و لا بد أن يقوم بهذا كي لا يموت، كي لا يحكي لها الحقيقة، وفي نهاية الأمر فهذه الشكاوى مقدسة أشد التقديس في طقوس الحب المنزلية اليومية، ظلت تنصت إليه باهتمام، ولكن دون أن تنظر إليه، دون أن تتفوه بكلمة واحدة، بينما تتسلم منه ما يخلعه من لبسه. كانت تشم كل قطعة دون أن يبدر منها أي شيء يشي بغضبها وحنقها، ثم تلفها بأي طريقة، وتلقيها في السلة الخاصة بالملابس المتسخة. لم تجد تلك الرائحة، ولكن لن يغير هذا من قرارها، فالغد سوف يكون يوما آخر، وقبل أن يجثو على ركبتيه أمام المذبح الصغير، الذي في غرفة النوم، إذا به يختصر أمامها قلة حيلته، وفقره المعنوي في تنهيدة واحدة غاية في الحزن والصدق قائلا لها: «أظن أنني سأموت»، أما هي فلم يطرف لها جفن، ولم ترد عليه حتى، بل قالت:

– فعلا، سيكون هذا أفضل وأحسن، فهكذا يهدأ كلانا ولا نقلق.

منذ سنوات، تحدث هو ذات مرة عن احتمال موته، بينما كان يمر بأزمة مرضية خطيرة، وما كان منها إلا أن أجابته بالإجابة الوحشية نفسها، و رأى هو أن هذا يرجع لما في النساء من قسوة طبيعية، قسوة من شدتها يمكن أن تجعل الأرض تواصل دورانها حول الشمس، فهو يرى أن هذا هو السبب، لأنه يعلم أساسا أنها تخفي خوفها وراء حاجز من الحنق والغضب، و أخوف ما تخافه هي في هذه الدنيا أن تعيش بدونه.

هذه الليلة، على عكس طبيعتها، كانت فعلا تتمنى له الموت من أعماق قلبها، يقينها من شر رغبتها هذه جعلها في حالة من الرعب والاستغراب. شعر بها بعد ذلك تنتحب في صمت بالغ وببطء شديد وسط العتمة والظلام، تعض وسادتها كي لا يشعر بها، وفي الحقيقة أحس بدهشة عظيمة، لأنه يعلم جيدا أنها لا تبكي بسهولة أبدا، فيرمينا لا تبكي حتى لو

كانت تتألم جسديا أو معنويا، إنما تبكي فقط إذا أحست بحنق شديد، خاصة لو لديها دليل على ذنبه، وحينها يزداد حنقها أكثر كلما بكت، لأنها أساسا لا تسامح نفسها على هذا الضعف، وهو لم يجرؤ حتى أن يهدئها بأي كلام، لأنه يعلم بأن أمامه نمر كاسر مجروح، بل إنه لم يجرؤ حتى أن يقول لها إن أسباب حنقها اختفت بلا رجعة في عصر هذا اليوم، بل واقتلعت تماما من جذورها ومحيت محوا من ذاكرته.

غلبه التعب، فنام لعدة دقائق، ثم استيقظ ليجدها أضاءت الأباجورة ذات الضوء الواهي، ما تزال عيناها مفتوحتين دون دموع، وكأن شيئا غريبا مختلفا حدث لها بينما هو نائم، فتلك الأشياء المترسبة في أعماق عمرها على مدار سنين طويلة وكأنها ماجت وثارت بسبب عذاب غيرتها، هاجت لتطلع على السطح، فتبدو كأنها شاخت فجأة، وفي لحظة واحدة. تأثر واضطرب أيما اضطراب لتلك التجاعيد والغضون اللحظية المفاجئة، ولشفتيها الذابلتين الذاويتين، ولتلك الخصلات البيضاء، التي بانت في شعرها، فوجد نفسه يخاطر ويرجوها بأن تحاول النوم، فالساعة تعدت الثانية صباحا، حينها تكلمت معه، دون أن تنظر إليه، تكلمت معه، وليس هناك أي أثر لحنقها، بل ربما كلمته بوداعة، وحلم، قالت:

- حقي أن أعرف من هي .

حينئذ، حكى لها كل شيء، وهو يشعر بأنه أخيرا يلقي من فوق كاهله عبئا عظيما كان ينوء به، حكى لها لأنه مقتنع بأنها تعلم وتعرف، ولا ينقصها إلا بضعة تفاصيل دقيقة. ولكن اقتناعه هذا بالطبع كان خاطئا كل الخطأ، فعادت تبكي من جديد أثناء حديثه، ولم تكن تبكي منتحبة في خجل كما كانت، بل إنها أطلقت لدموعها الغزيرة العنان، دموع أخذت تسيل سيلا شديدا على وجهها لتصل إلى قميص نومها لتشتعل حياتها اشتعالا، وذلك لأنه لم يقم بما كانت تنتظره أو تتوقعه منه على أحر من الجمر، كانت تحس بأنها رافضة إياه

حد الموت، أنها مستاءة بقوة مما سيكون من نميمة، نميمة يظهر برازها بكل وقاحة أمام الجميع في مجتمع كله شر، مجتمع لا يتوانى أبدا عن وطء شرف الآخرين ودعسه بأي طريقة، هي لا تزال رابطة الجأش ثابتة الجنان، رغم ما أمامها من أسباب الخيانة الهدّامة منه كرجل، وبعد ذلك، حين حكى لها أنه كان في أصيل هذا اليوم يعترف بتوبته أمام القسيس، خشيت حينها أن يعميها غضبها، فهي منذ أن كانت في المدرسة مقتنعة بأن أناس الكنيسة كلهم ليس لديهم أي علاقة بالله من الأساس، لذا وقع خلاف مرير أطاح باستقرار البيت بأسره، خلاف ظلا لسنين يتفادونه، ولكن زوجها لم يكتفِ بهذا، بل إنه سمح للقسيس بأن يتدخل حتى في هذه النقطة من الحميمية، التي لا تخصه وحده، بل تخصها هي أيضا. حقيقة كان هذا بالنسبة لها أمرا تعدى حدود العقل بمسافة. قالت له:

- كأنك بالضبط اعترفت أمام هؤلاء الحواة، الذين يمسكون بالثعابين أمام الأبواب.

هذه النقطة عندها نهاية علاقتهما، فهي واثقة بأن شرفها الجريح سوف ينتقل من فم إلى فم قبلما حتى أن يتم زوجها توبته، وشعورها بالخزي والذل من هذا كان أقل احتمالا بكثير من خجلها وحنقها وإحساسها بظلم زوجها لها بخيانته البشعة، وأسوأ ما في الأمر أنه خانها مع امرأة سوداء، فقال لها مصححا كلامها: «امرأة من أصول مختلطة»، ولكن الأمر انتهى، ولم يعد يجدي أي شيء: الأمر انتهى بلا رجعة بالنسبة لها. ردت عليه قائلة:

- لا فرق، الآن فقط فهمت: هذه الرائحة كانت رائحة امرأة زنجية سوداء.

حدث كل هذا في يوم الإثنين، وفي الليلة السابعة، يوم الجمعة، كانت مبحرة على متن باخرة صغيرة عادية خاصة ببلدة سان خوان ديه لا سياناجا، ليس معها إلا صندوق واحد، وبصحبتها ابنتها بالعمادة. غطت رأسها بطرحة كي تجنّب نفسها وزوجها الأسئلة، إذا حاول أحد السؤال، وباتفاق بينهما لم

يودعها الدكتور خوبينال أوربينو عند الميناء، اتفاق وصلا إليه بعد ثلاثة أيام متواصلة من السجال المضني بينهما، حيث قررا أنها سوف تذهب إلى تلك الضيعة، التي تعيش فيها ابنة خالها إيلديبراندا سانتشيث، في قرية فلوريس ديه ماريّا، كي تأخذ ما شاء لها أن تأخذ من الوقت لتفكر في قرارها الأخير، والولدان فهما الأمر، دون أن يعرفا مطلقا الأسباب الحقيقية، على أن أمهما مسافرة في رحلة كثيرا ما تم إرجاؤها وتأجيلها، حتى هما كانا يتمنيان القيام بها منذ وقت طويل، والدكتور أوربينو رتب الأمور كلها بحيث لا أحد في عالمه الصغير الغادر قد يمر بباله حتى أي تفكير خبيث، وضبط الأمور جيدا حتى لو أن فلورنتينو أريثا نفسه لم يجد أثرا واحدا يدله على اختفاء فيرمينا، فسيكون لأنه فعلا ليس ثمة أثر يدله على ذلك، وليس لأنه تنقصه المصادر، التي قد يتحقق منها، والدكتور أوربينو لم يخالجه الشك أبدا في أنها سوف تعود ما إن يزول حنقها، بينما هي كانت موقنة تماما بأن غضبها هذا لم ولن يذهب أبدا.

مع ذلك، سرعان ما علمت بأن هذا القرار القاسي منها لم يكن نابعا من غضبها كما هو نابع من شوقها وحنينها، وهي بعد رحلة شهر العسل عادت مرات ومرات إلى أوروبا، رغم أيام البحر العشرة بكل متاعبها، وفي كل مرة تسافر، ولديها من الوقت ما يفيض وزيادة لسعادتها، فهي تحب أن تستكشف العالم وتعرفه، تعلمت أن تعيش وتفكر بطريقة مختلفة، ولكنها أبدا لم تعد إلى سان خوان ديه لا سياناجا بعد رحلتها الفاشلة عبر المنطاد. عودتها إلى بلدة ابنة خالها إيلديبراندا كانت لها فداء وخلاصا مما هي فيه، خلاصا كانت تنتظره من زمان. عودتها هذه ليس سببها الحقيقي تلك الكارثة، التي حلت بزواجها، إنما هو أمر قديم للغاية، ولهذا فمجرد فكرة أنها ستزور أماكن صباها وأيام المراهقة، عزتها كثيرا عن مصابها الحقيقي.

حينما أبحرت بصحبة ابنتها بالعمادة على متن باخرة سان خوان ديه لا

سياناجا، استأنفت ما كان فيها من ذكريات وحنين للماضي، ونأت بنفسها وبالبلدة عما كانت فيه من غم وهم، والقائد العسكري، الذي أُوصى عليها خير توصية، دعاها للانتظار في عربته الرسمية المكشوفة بينما تنتظر قطار مدينة سان بيدور أليخاندرينو، حيث ودت أن تذهب إلى هناك لتتأكد من هذا الكلام، الذي أخبروها به، فقالوا إن السرير، الذي مات عليه المحرر العظيم لأمريكا اللاتينية «سيمون بوليفار» كان صغيرا للغاية بحيث لا يسع إلا الأطفال الصغار، وبالمرة أيضا سوف ترى بلدتها، مسقط رأسها، في حدود الساعة الثانية بعد الظهر، حيث يعم الخمول والهدوء البلدة في هذه الساعة. مرة أخرى رأت شوارع البلدة، التي بدت كأنها شواطئ كبيرة لمستنقعات تغطيها الطحالب، مرة أخرى رأت تلك البيوت الخاصة بالبرتغاليين بشعاراتهم المنقوشة نقشا على الأبواب، ونوافذهم ذات الشباك المصنوعة من البرونز، ومن نفس صالونات هذه البيوت يصدح، بلا إحساس، بأنغام دروس البيانو الحزينة، التي كانت أمها بعد زواجها تدرسها لطفلات العائلات الغنية. رأت الميدان المقفر الرملي الخالي من الأشجار، ورأت صفا طويلا من العربات الجنائزية، التي نامت خيولها واقفة على أرجلها، ورأت أخيرا القطار الأصفر اللون الخاص بمدينة سان بيدرو أليخاندرينو، وعند زاوية من زوايا الكنيسة الكبيرة. رأت أكبر وأجمل بيت في البلدة، فيه ممرات مسقوفة لها أعمدة من الحجارة، خضراء اللون، له بوابة كبيرة ضخمة كبوابات الأديرة، ورأت كذلك نافذة غرفة النوم، حيث سيولد فيه ألبارو بعد سنين طويلة، حينما تكون ليس لديها أية ذاكرة لتتذكر. سرح فكرها في عمتها إسكولاستيكا، عمتها التي بحثت وفتشت عنها في السماء، وفي الأرض بلا فائدة، عمتها التي ما إن تفكر فيها تجد نفسها في الوقت نفسه تفكر في فلورنتينو أريثا، بملابسه التي تشبه ملابس الأدباء، وكتب الشعر في يده، بينما يجلس أسفل أشجار اللوز في الحديقة الصغيرة. تذكره حين تستحضر أيام المدرسة الجاحدة الغابرة، وقليلا ما كانت تستحضرها أصلا، وبعد كثير من اللف والتجول في

أرجاء البلدة لم تستطع أن تتعرف على بيت الأسرة القديم، ذلك أن الموضع، الذي توقعت وجوده فيه لم تجده إلا زريبة للخنازير، ثم بينما هي عائدة من جولتها عند الزاوية، إذا بها تجد نفسها في شارع الدعارة الخاص بالبلدة، وقد اصطفت على جانبيه فتيات ليل الدنيا كلها أمام أبواب البيوت ينمن قيلولتهن، هن يفعلن هذا، إذ ربما يأتيهن بريد من أجلهن في هذا الوقت. باختصار هذه البلدة لم تعد بلدتها.

منذ أن بدأت نزهتها هناك غطت نصف وجهها بطرحة، وذلك ليس لأنها تخشى أن يعرفها أحد ما، فهذا المكان ليس فيه أحد أصلا يعرفها، وإنما فعلت ذلك لأنها ترى الموتى حولها انتفخت أجسادهم وتعفنت في العراء، وتحت أشعة الشمس. جثث الموتى في كل مكان، من أول محطة القطار إلى حيث تقع المقابر، وقال لها القائد المدني والعسكري الخاص بالبلدة: «إنها الكوليرا»، وكانت تعلم، ذلك أنها رأت تلك الخثرات بيضاء اللون الموجودة حول أفواه جثث الموتى، التي لفحتها أشعة الشمس، ولكنها لاحظت كذلك أنه لا أحد من هؤلاء تلقى طلقة القتل الرحيم في رقبته، كما رأت قبلا وهي في سلة المنطاد حينها، وقال لها المسئول الحكومي موضحا:

– هكذا سار الأمر، فحتى هذه الوسائل تغيرت بعون الله.

وبين بلدة سان خوان ديه لا سياناجا، والبلدة القديمة العريقة سان بيدرو أليخاندرينو، تسعة فراسخ فقط، ولكن رغم هذا تأخر القطار اليوم كله ليصل، وذلك لأن سائق القطار كان صديقا لجميع الراكبين والمسافرين، الذين كانوا يطلبون منه التوقف كل لحظة كي يفكوا تكبيلاتهم من طول الجلوس عبر التنزه في المروج الخاصة بملعب الجولف التابع لشركة زراعة الموز. هناك أيضا يمر القطار على أنهار مياهها شفافة شديدة البرودة آتية من السلاسل الجبلية، وفي هذه الأنهار يستحم الرجال عراة، وهم أنفسهم حين يحسون بالجوع يذهبون إلى أقرب بقرة يجدونها ويحلبونها ويشربون لبنها. بالطبع

وصلت فيرمينا داثا في حالة مريعة، بالكاد استطاعت أن تتأمل أشجار التمر هندي المقدسة، التي عليها علّق المحرر العظيم سريره ليموت عليه، هي بالكاد وجدت الوقت بين كل هذا لتعرف أن هذا السرير أصلا، الذي مات عليه سيمون بوليفار، وفقا لما قالوه لها، أنه لم يكن فقط صغيرا جدا على رجل عظيم مثله، وإنما أيضا صغيرا حتى على مولود رضيع ولد قبل أوانه. مع هذا، فقال لها أحد الزائرين، بدا أنه يعلم كل شيء فعلا، إن خبر ذلك السرير كله كذب في كذب، فالحقيقة المرة أنهم تركوا ذلك المحرر العظيم يموت ممددا على الأرض الجرداء. وحقيقة أحست فيرمينا بخيبة أمل شديدة مما رأته وسمعته منذ أن خرجت من بيتها، فبقية الرحلة بأسرها لم تتوافق مع ما كان لديها من ذكريات من الرحلة القديمة السابقة، هي التي تمنت كثيرا لو تُعاد تلك الرحلة مرة أخرى، بل إنها صارت تتجنب المرور على القرى والمدن التي كانت تحن إليها، وهكذا صانت هذه المدن، وصانت نفسها أيضا من خيبة الأمل. كانت في رحلتها تبلغ أذنيها أنغام آلات الأكورديون، حيث كانت تسير في الطرق المختصرة لتتجنب المرور بمدن ماضيها فتجنب نفسها خيبة الأمل، كانت تسمع أصوات الديكة تتعارك، وأصوات طلقات نارية مدوية، ربما تكون مجرد عربدة من بعض الناس، أو ربما هي فعلا حرب حقيقية، وأخيرا حين لم يبق أمامها، إلا أن تمر داخل البلدة مضطرة، غطت وجهها كله بطرحتها كي لا ترى أي شيء.

وذات ليلة، بعدما تجنبت الكثير من الماضي وتفادته تفاديا، وصلت أخيرا إلى ضيعة ابنة خالها إيلديبراندا، وحين رأتها تنتظرها لدى الباب أحست كأن روحها ستصعد، ذلك أنها بالضبط كأنما ترى نفسها في مرآة الحقيقة. كانت ابنة خالها سمنت وهرمت، تحمل أبناء شكلهم كأنهم خيول غير مروضة، أبناء لم تلدهم من الرجل، الذي أحبته بلا فائدة، وإنما من رجل عسكري متقاعد يحظى بثروة جيدة أحبها بجنون، وتزوجته هي عن كره، ولكنها عموما من

الداخل، ورغم جسدها المدمر هذا، ما زالت هي هي ، لم تتغير، واستطاعت فيرمينا أن تتعافى من انطباعها المبدئي بعد بضعة أيام من الذكريات الحلوة، التي قضتها مع إيلديبراندا في الريف، ولكنها لم تكن تخرج من الضيعة، إلا ريثما تذهب إلى القُدّاس في يوم الأحد، ومعها ما معها من أحفاد بنات أخوالها اللائي كن غاية في العند والصعوبة، فها هن على صهوة جيادهن مروضات ساكنات هادئات أولادهن البنات الشابات في غاية من الجمال والأناقة كما كانت أمهاتهن اللائي يذهبن واقفات في العربات، التي تجرها الثيران، يغنين غناءً جماعيا جميلا، إلى أن يصلن إلى الكنيسة الموجودة في آخر الوادي.

وبلدة فلوريس ديه ماريّا، التي تقع فيها ضيعة إيلديبراندا، لم تزرها فيرمينا في رحلتها السابقة لأنه وقتها خطر على بالها أنها لن تعجبها وتحبها، ولكنها بمجرد أن عرفت هذه البلدة حق المعرفة، حتى وقعت في غرامها وأحببتها حبا لا مزيد عليه. ومشكلتها، أو لنقل مشكلة البلدة كلها، أنها لم تستطع أن تتذكر البلدة على حقيقتها بعد ذلك، وإنما ظلت تتذكرها دوما بالانطباع نفسه الذي أخذته عنها قبل أن تراها.

اتخذ الدكتور خوبينال أوربينو قرارا بالذهاب إليها خصيصا، بعد أن يتلقى من مطران ريوآتشا خبرا يفيده بوضعها، وعرف الدكتور أن سبب تأخر فيرمينا ليس لأنها لا تريد الرجوع إلى البيت، وإنما لأنها ترى في رجوعها للبيت اعترافا منها بهزيمتها. ولذلك شد رحاله إليها دون أن يخطرها، بعد العديد من الرسائل المتبادلة بينه وبين إيلديبراندا. ومن هذه الرسائل عرف أن الحنين والشوق بدآ يغلبان الزوجة، فها هي الآن في هذا الحين لا تفكر إلا في بيتها.

كانت فيرمينا في المطبخ في الساعة الحادية عشرة تقوم بإعداد الباذنجان المحشو، حينما بلغ أذنيها أصوات أقدام تدق الأرض دقا، وخيول تصهل في شدة وحمية، ونيران تطلق في الهواء، ثم بعدما بلغ أذنيها صوت خطوات

واثقة تخطو خطوا في دهليز الدار، إذا بها تسمع صوت رجل يقول:

– فعلا يستحق الأمر العناء أن أصل في الوقت المحدد على أن أكون مدعوا من الجميع.

حينئذ أحست بأنها سوف تموت من الفرحة، وبلا تفكير، غسلت يديها كيفما اتفق، وهمست في نفسها قائلة: «الحمد لله، الحمد لله، كم أنت جميل يا الله». قالت هذا بينما تفكر في أنها لم تستحم بعد وتنظف نفسها من آثار الباذنجان الملعون، الذي طلبته منها إيلديبراندا دون أن تقول لها من هذا، الذي سيأتي ليأكله معهم، قالت هذا، وهي تفكر في أنها قبيحة وعجوز للغاية، وأن وجهها سلخته الشمس من كثرة ما تعرضت لأشعتها الحارقة، بل فكرت في أنه سوف يندم حين يراها على هذه الحال، يااللعنة، ولكنها مع هذا لم تفعل إلا أن جففت يديها في المنشفة، وأصلحت من مظهرها بقدر المستطاع، واستأنفت شموخها وعزة نفسها، التي ولدت بهما كي تستطيع التحكم في قلبها المجنون، ثم سارت إلى زوجها بخطواتها الرشيقة الحلوة كأنها حيوان الأيل، ورفعت رأسها في اعتزاز، وعيناها تشع منها ألقا غريبا خلابا، وأنفها شامخ، وتشعر براحة عظيمة كونها ستعود أخيرا إلى بيتها، والأمر لم يكن بغاية السهولة كما توقع هو قبلها، فهي بعد ذلك سوف تذهب سعيدة مسرورة معه، ولكنها أيضا مصممة كل التصميم على أن تجبي منه في صمت ما سببه لها من عذاب مرير أودى بهما إلى هذه القطيعة.

بعد عامين من اختفاء فيرمينا داثا، حدثت معجزة لم تكن أبدا في الحسبان، معجزة صنفتها ترانسيتو أريثا على أنها مزحة حقيقية من الله، ذلك أن فلورنتينو أريثا لم يكن يكف أبدا عن إبداء إعجابه باختراع السينما، وحدث أن صحبته ليونا كاسياني ذات مرة، ودون اعتراض منه بالطبع، لحضور العرض الأول لفيلم «كابيريا». كان أكثر ما يميزه أن حواراته كلها معتمدة على ما كتبه الشاعر جابريل ديه أنونثيو، وأخيرا صار ذلك الفناء الكبير غير المسقوف،

الخاص بالسيد جاليليو داكونتيه، مليئا عن آخره بزبائن تم انتقاؤهم بعناية، فناء كان سابقا مسرحا للاستمتاع بمنظر النجوم، قبل أن يكون معرضا للحب الصامت على شاشة السينما، وكانت ليونا كسياني حينئذ تتابع الأحداث، وقلبها وروحها على المحك، أما فلورنتينو فعلى عكسها تماما، كانت رأسه تتأرجح يمنة ويسرة من شدة احتياجه إلى النوم، من كثرة ما مل الدراما، التي يشاهدها، ومن خلفه، إذا به يسمع امرأة تقول كأنها خمنت تماما ما يفكر فيه:

– يا إلهي، هذا حتى أطول ومؤلم من الألم نفسه.

وكانت هذه الجملة الوحيدة، التي قالتها، فقد أخرسها ما سمعته من صدى صوتها، الذي تردد في أرجاء الظلام، فقد كانوا ما زالوا، في ذلك الحين، لم يتعلموا أن يصحبوا الأفلام الصامتة بأنغام البيانو، ومن في المقصورة جميعا يسمعون وسط كل هذا الظلام الدامس صوت آلة العرض، الذي يشبه صوت تساقط المطر، والغريب أن فلورنتينو أريثا، الذي لا يذكر الله أبدا حتى حينما يمر بأصعب المواقف، إلا أنه هذه المرة إذا به يشكر الله من كل قلبه، فهو قادر على أن يعرف ذلك الصوت المعدني المكتوم، الذي لا ينساه أبدا، صوت يحمله في روحه منذ أن سمعه يقول له: «اذهب الآن، ولا تعد قبل أن أقول لك»، صوت قادر أن يسمعه حتى لو جاءه من تحت الأرض، صوت فيرمينا داثا، الإلهة المتوجة، فهو يعرف أنها جالسة خلفه، وبجانبها زوجها، الذي دوما معها كأنه القدر، يعلم أنها خلفه، يحس بشهيقها وزفيرها الدافئين المحسوبين بدقة، وها هو الآن يستنشق بعشق ما تزفره هي من هواء صفّاه صحتها القوية. حقيقة، أحس بها لم تتأثر نهائيا بمواجهتها للموت، لم يتخيلها الآن كما كان يتخيلها سابقا، خلال تلك الشهور الأخيرة البائسة اليائسة، إنما تخيلها مشرقة سعيدة كل السعادة حين تقوست بطنها أسفل تنورتها تحوي بذرة أول ابن لها. تخيلها بالضبط، وكأنه ينظر وراءه ويراها، تخيلها بعيدة كل البعد عن تلك الكوارث التاريخية التي تدور أمامه على شاشة السينما. أحس بنفسه كأنه من

شدة الأنس والسعادة يشم عبير أشجار اللوز أيام الماضي البعيد، يتخيلها ترى الحب بين الناس لا بد أن يكون مثل حب النساء في السينما كي يكون هذا الحب أقل إيلاما من الحب الواقعي، وقبيل انتهاء العرض بوقت قليل، أدرك في شيء من السعادة أنه لم يكن في حياته قريبا بهذا الشكل، وبهذه المدة من شخص يعشقه. ئ

وحين أضيئت الأنوار، انتظر أن ينهض الجميع، ثم قام بعد ذلك دون عجل، وراح يغلق في شرود أزرار صدريته التي يتركها دوما حرة وقت العمل، وأخيرا التقى أربعتهم، وعن قرب شديد بحيث لا بد لهم أن يحيّوا بعضهم حتى لو قرر واحد منهم ألا يرد السلام أو التحية. سلّم الدكتور خوبينال أوربينو أولا على ليونا كاسياني، التي يعرفها جيدا، ثم مد يديه بعد ذلك مسلما على فلورنتينو أريثا بظرفه المعهود، أما فيرمينا داثا فوجهت لكليهما ابتسامة فيها كثير من الأدب، ولكن لا شيء أكثر من الأدب، ابتسامة من رأى أشخاصا لأكثر من مرة، ابتسامة من يعرف من هم هؤلاء الأشخاص، وبالتالي لا داعي لأن يقدمهما أحد إليها، وردت عليها ليونا كاسياني بلطف جميل يتسم به هؤلاء ذوو الأصول المختلطة، أما فلورنتينو فلم يكن يعرف ماذا يفعل حينها، دهش بشدة حين رآها.

كانت امرأة أخرى، فليس على وجهها مسحة واحدة من المرض المريع المعروف في هذا الوقت، ولا حتى لأي مرض آخر، بل إن جسدها ما زال ممتلئا رشيقا، كما كانت في الماضي، وفي أفضل فتراتها، ولكن كان واضحا جدا أن هاتين السنتين مرتا عليها كأنهما عشر سنين ماحقات قبيحات، فشعرها القصير، بتلك الخصلات الهلالية، التي رقدت على وجنتها، يليق بها للغاية، ولكن لونه لم يعد عسليا كما كان، وإنما هو في لون الألومنيوم، وعيناها الحوراء الجميلتان فقدتا ما كان لهما من ضوء خلاب بعدما وضعت تلك النظارة الخاصة بالعجائز، ورآها فلورنتينو أريثا تبتعد عن زوجها لتسير

بين جموع الناس الخارجة من قاعة السينما، وأذهله أنها وقفت في موضع بين عوام الناس وعليها طرحة بائسة، وفي قدميها بلغتان من تلك التي نستخدمها في البيت، ولكن أبلغ ما أثر فيه، وهز مشاعره هو أن زوجها أمسك بذراعها ليوجهها إلى الطريق الصحيح للخروج، ومع ذلك حسبت خطواتها خطأ، وكادت تتعثر وتقع على السلالم الموجودة قرب الباب.

والحقيقة أن فلورنتينو أريثا شديد التأثر للغاية بما يخلفه الزمن على عمر الإنسان، ففي شبابه، كان كثيرا ما يتوقف عن قراءة الأشعار، وهو في المتنزهات، ليراقب هؤلاء الأزواج العجزة وكلا من الزوجة والزوجة يساعدان بعضهما ليعبرا الشارع، دروس حياتية تعلم منها كيف يستشف قوانين تقدمه هو في العمر. جدير بالذكر أن العمر، الذي عليه الدكتور خوبينال أوربينو حين كان في السينما تلك الليلة يكون الرجال في حالة من خريف الشباب، فهم يبدون أكثر مهابة واحتراما أول ما يزحف الشيب إلى شعرهم، ويصبحون أكثر ذكاء وإغراء، خاصة في عيون الشابات، بينما زوجاتهم الذابلات عليهن أن يُمسَكن بأذرعهم حتى لا يتعثرن وينكفئن على وجوههن بمجرد أن يتعثرن بظل، ورغم ذلك، فبعد سنوات قليلة، إذا بهؤلاء الرجال يسقطون في هاوية الشيخوخة المشينة، شيخوخة الجسد والروح، وحينها زوجاتهم هن من عليهن أن يسندوهم بأيديهن كأنهم مجرد مكفوفين في حاجة إلى الشفقة، يهمسن في آذانهم كي لا يجرحن كرامة بعولتهن بأن السلّم ثلاث درجات وليس درجتين، بأنه ثَمة بقعة من الماء في الشارع، بأن هذه الكومة الملقاة على جانب الرصيف هي شحاذ ميت، هن يساعدونهم بشق الأنفس ليعبروا الشارع، وكأنه آخر طريق لهم في نهر الحياة. وكثيرا ما رأى فلورنتينو نفسه في تلك المرآة، هو لا يخاف الموت بقدر ما يخاف أن يأتي عليه يوم يبلغ هذا العمر المشين المذل، ويضطر إلى أن يستند على ذراع امرأة في سيره. يعلم أنه إذا بلغ هذا اليوم، هذا اليوم فقط، فإنه حينئذ عليه أن يتخلى عن أمله في فيرمينا داثا.

لقاؤه بفيرمينا أطار النوم من عينيه، وبدلا من أن يصحب ليونا كاسياني في العربة، إذا به يسير معها على قدميه في أرجاء المدينة العريقة، حيث رنت خطواتهما كأنها حدوات حصان على الأرض المبلطة، وأحيانا يبلغ أذنيهما بقايا أصوات إنسانية صادرة من شرفات البيوت المفتوحة، نجوى بين حبيبين على الفراش، شهقات الحب مصحوبة بتلك الأصوات الشبحية وبالعطر الفواح الآتي من أشجار الياسمين الراقدة في الشوارع النائمة. لمرة أخرى، أحس فلورنتينو بنفسه يجاهد بشدة كي لا يبوح لليونا بسر حبه لفيرمينا، بينما يسيران متلاصقين في خطوات وئيدة محسوبة، كل منهما يشعر بحب عميق نحو الآخر كأنهما خطيبان قديمان، هي تفكر في متعتها بفيلم «كابيريا» الذي شاهدته على شاشة السينما، بينما هو يفكر في مصيبته، وكان ثمة رجل في ميدان «آدوانا» يغني في شجن، بينما صوت غنائه يتردد صداه في أرجاء المكان صدى وراء صدى، كان يغني: وسأعوم في البحر وحدي بلا معين

وحينما بلغا شارع سانتوس ديه بيدرا، وبالضبط حين حانت لحظة تركه إياها أمام بيتها، طلب منها دعوته لشرب البراندي، وهذه كانت ثاني مرة يطلب منها طلبا كهذا، وفي ظروف مشابهة لهذه الظروف. المرة الأولى كانت منذ حوالي عشر سنين، وقالت له :«إذا صعدت في هذه الساعة فعليك إذن أن تبقى هناك إلى الأبد»، وحينها لم يصعد إلى بيتها، ولكن هذه المرة صعد فعلا، رغم أنه مُجبر بعد ذلك أن يخلف كلمته معها، ولا يبقى عندها إلى الأبد، ولكن هذه المرة ليونا دعته لدخول بيتها دون أي شروط.

وهكذا وجد نفسه في وقت أسرع مما تخيل داخل صومعة من الحب، الذي انقرض من قبل أن يولد هو حتى، وكان أبواها ماتا، وأخوها الوحيد كوّن له ثروة في بلدة كوراثاو، وبقيت هي وحدها تعيش في بيت العائلة. قبل سنوات، حينما كان لا يزال على أمل أن يكون حبيبها، عادة ما كان يزورها في بيتها يوم الأحد من كل أسبوع بموافقة أبويها، وأحيانا يبقى حتى وقت

متأخر جدا من الليل، وكثيرا ما كان يجلب معه أشياء إلى بيتها حتى صار كأنه بيته، ورغم ذلك، ففي تلك الليلة، التي شاهدا فيها السينما انطبع في نفسه أن صالة بيتها كأنه تم عزلها عزلا من ذكرياته، التي شهدها فيها، فقطع الأثاث غيّرت مواضعها، وثمة صور أخرى علقت على الجدران، وجال بفكره أن هذه التغييرات الجذرية كان الهدف منها التأكيد على أنه لم يكن هناك من قبل وإلى الأبد، حتى قطتها لم تتعرف عليه، فامتعض من هذا النسيان، الذي اعترى القطة، وقال: «ها هي لا تذكرني»، ولكن ليونا أجابته من الخلف، بينما تصب البراندي في الأقداح، أنه يمكنه النوم في هدوء، إذا كان هذا الأمر يقلقه، فالقطط أصلا لا تذكر أي أحد.

جلس كلاهما على الأريكة متلاصقين للغاية، يتحدثان عن أنفسهما، عن أشياء حدثت لهما قبل أن يعرفا بعضهما في الترام. قضيا حياتهما معا، كل منهما مكتبه ملتصق بمكتب الآخر، لا يتحدثان إلا عن العمل وللعمل، وبينما هما آخذان في الحديث إذا بفلورنتينو يضع يده على فخذها، وراح يتحسسه ويداعبه بأنامل رجل محنك يعرف كيف يغوي امرأة، وهي تركته يفعل ما يشاء، ولكن لم يعتر جسدها أية رعشة مجاملة منها له، وحين حاول أن يرمي إلى أبعد من ذلك إذا بها تمسك بيده المستكشفة وتقبلها قائلة له:

- انتبه لنفسك يا فلورنتينو، فمنذ مدة طويلة أدركت أنك لست الرجل الذي أبحث عنه.

عندما كانت في عز شبابها قام رجل قوي البنية، شديد المراس، رجل لم تر وجهه أبدا، بالإطاحة بها فجأة على الأرض عند إحدى الألسنة البحرية، وفي لمحة واحدة عراها، وقضى وطره معها في لحظة محمومة، وكانت، وهي ملقاة على الحجارة وجسدها مكتظ بالسحجات والرضوض في كل مكان، كانت تتمنى لو يبقى هذا الرجل في جسدها إلى الأبد، تتمنى لو تموت من الحب بين ذراعيه. لم تر وجهه، ولم تسمع صوته حتى، ولكنها موقنة تماما

بأنها ستعرفه جيدا لطريقته وأسلوبه وتصرفاته في ممارسة الحب بين آلاف الرجال، ومنذ ذلك الحين لا تقابل أحدا إلا وتقول له: «إذا رأيت ذات مرة رجلا ضخما وقوي البنية معروفا بأنه اغتصب امرأة زنجية بائسة في الشارع، في الخامس عشر من شهر أكتوبر، في الساعة الحادية عشرة والنصف ليلا، فقل له أرجوك أين يجدني»، وكانت تقول هذا بحكم العادة، وقالت لكثيرين إلى أن فقدت الأمل في إيجاده، وكثيرا ما سمع فلورنتينو هذه الحكاية منها، وعندما حانت الساعة الثانية صباحا، كان كل منهما قد شرب ثلاثة أقداح من البراندي، وهو قد عرف فعلا بأنه ليس الرجل، الذي تبحث عنه ، وقال لها، وهو خارج من بيتها:

- برافو يا ليونا، لقد قتلنا معا هذا النمر، الذي كان يتربص بنا.

ولم يكن هذا كل ما حدث في تلك الليلة، فتلك الشائعة الخبيثة، التي انتشرت حينها بأنه ثمة خيمة عظيمة لمرضى السل أطارت النوم من عينيه، فأُلقي في روعه أن فيرمينا مرضت بمرض فتاك للغاية، وأنها سوف تموت قبل زوجها، ولكنه حين رآها تتعثر خارجة من السينما، دخلت توقعاته أكثر وأكثر في هوة عميقة لا قرار لها، تنبأ بأنه هو، وليست هي من سيموت أولا. نبوءة من أكثر نبوءاته رعبا له، لأنها حقيقية وليست مجرد محض خيال، وفي الخلف ثمة سنين طويلة من الانتظار، الذي لا نفع منه والآمال المبهجة السارة، ولكن في الأمام، عند الأفق، يلوح محيط عظيم غاية في العمق من جميع الأمراض، التي يمكن تخيلها، فتلك القطرات من البول، التي تسقط منه لا إراديا في الفجر تجعله يحس بأنه لن ينقضي نهار هذا اليوم إلا وهو ميت لا محالة. يفكر في أن كل لحظة من كل يوم كانت من قبل مجتمعات متوافقات معه، ها هن الآن يتآمرن ضده، ومنذ سنوات قليلة فقط غامر وذهب إلى بيتها دون أي موعد مضروب، ودخل وقلبه يكاد يتمزق من الخوف من القدر والمصير، فوجد الباب غير مغلق ومفاصله زيتت للتو، كأنما أعدت له كي يدخل دون

أي ضجة، ولكنه لام نفسه في آخر لحظة، لأنه خشى أن يسبب الموت لامرأة خدومة تحب النفع لمجتمعها مثل فيرمينا، ولا دخل لها في أي من أموره، وهي على فراشها، فمن الطبيعي إذن أن يفكر أن أكثر امرأة يحبها على وجه هذه الأرض، المرأة التي انتظرها منذ القرن الفائت إلى القرن التالي دون حتى أن يعقد لحظة هدنة مع نفسه أبدا، تلك المرأة بالكاد لديها القوة لتأخذه من ذراعه، وتعبر به شارعا مكتظا بالتوابيت هلالية الشكل وأزهار الخشخاش، التي بعثرتها الرياح، تأخذ بذراعه لتوصله سالما معافى إلى الرصيف الآخر، رصيف الموت.

والحقيقة أنه بالنسبة لمعايير تلك الفترة من الزمن، يعتبر فلورنتينو أريثا قد شارف بالفعل على حافة الشيخوخة بلا رجعة. لديه من العمر ستة وخمسون عاما، أتمها خير إتمام، ويفكر أنها أفضل سني حياته، وذلك لأنها كانت سنين حب وعشق. ولكن لم يواجه رجلا واحدا في مثل زمنه سخرية أن يكون شابا في مثل هذا العمر، هكذا كان هذا الزمن أو هكذا كان اعتقاد الناس في هذا الوقت، فلا أحد فيهم يجسر على الاعتراف بدون خجل بأنه ما زال يبكي في الخفاء لأنه تعرض لإهانة ما في القرن الماضي. كان القرن الفائت أسوأ وقت لأي شاب. كان ثمة طابع معين في الملبس لكل شريحة عمرية، ولكن الملابس الخاصة بالعجزة كانت تبدأ في ذلك الوقت، بعد سن المراهقة بقليل، وتستمر إلى أن يبتلعه القبر، فالأمر كان أكبر وأجل من العمر والسن، الأمر كان بمثابة كرامة اجتماعية لا بد من صيانتها والحفاظ عليها. الشباب أيامها كانوا يلبسون كما يلبس الأجداد، يكسبون المزيد من الاحترام بارتداء النظارات، بل إن العكاز صار شيئا رئيسيا للغاية منذ سن الثلاثين، أما النساء فلم يكن لهن إلا عمران فقط: عمر الزواج، الذي لا يتعدى عادة الاثنين والعشرين عاما، وعمر العزباء الخالدة: العوانس. أما الأخريات، المتزوجات، الأمهات، الأرامل، الجدات، فما هن إلا نوع مختلف للغاية لا

يمكن إدراجهن في أي عمر فيما يتعلق بما مر عليهن من أعوام، وإنما عمرهن محسوب بما تبقى لهن من سنين على الموت.

على النقيض، جاهد فلورنتينو أريثا كثيرا ليواجه بكل شراسة تلك الأحابيل، التي تنصبها له الشيخوخة، رغم أنه يدرك جيدا أنه لسوء حظه يبدو عجوزا منذ شبابه. الأمر كان في البداية نتيجة للفقر والفاقة، كانت أمه محطمة ماليا تماما، لذا عكفت على خياطة ما كان أبوه يقرر إلقاءه في القمامة، وبذلك كان يذهب إلى المدرسة الابتدائية بسترات من الصوف كان يلم أطرافها لمًّا حين يجلس، وأيضا كان يضع على رأسه قبعات من تلك التي يضعها الوزراء كانت تغوص إلى أذنيه، رغم أنها حشيت بالقطن حشوا كي تتماشى مع مقاس رأسه، وأيضا لكونه يضع على عينيه نظارة قصر نظر منذ أن كان عمره خمس سنوات، ولكون شعر رأسه كشعر الهنود مثل أمه تماما، مجعد وغليظ كذلك الشعر الموجود عند عرف الفرس، لهذا كله لم يكن منظره أبدا ثابتا على أية حال، ولحسن حظه، فإنه في ذلك الوقت بعدما تعاقبت على البلاد الكثير من الحروب الأهلية حرب بعد حرب، مما عرض الحكومة لكثير من الاضطرابات والمشاكل، فحينها لم تعد للمدارس مقاييس محددة كما كان قبلا، بل وحصلت بلبلة عظيمة في الأصول والأعراف الاجتماعية في المدارس العامة. أطفال لم تكتمل تربيتهم بعد يصلون إلى الفصول وقد تشبعوا بتراب الخنادق، وكل ما عليهم من ملبس ما هو إلا أزياء رسمية ونياشين خاصة بالمتمردين، الذين انتصروا في حروب لا أحد يعلم عنها شيئا، بل ويحملون معهم أسلحة يمكن رؤيتها جيدا تلوح من خصورهم. هم لمجرد أي قضية تشتعل بينهم، تجدهم يطلقون النيران على بعضهم، بل بلغ بهم الأمر أن يهددوا الأساتذة إذا أعطوهم تقديرات سيئة في الامتحانات، حتى أن أحدهم كان تلميذا في الصف الثالث في مدرسة لا سايه، كان قبلا قائدا لإحدى الميليشيات، أردى بطلقة واحدة خوان إرميتا، الذي كان راهبا مميزا،

لأنه قال في إحدى حصصه في التعليم المسيحي إن الله عضو في حزب المحافظين.

وعلى الجانب الآخر، كان أطفال العائلات الكبرى، التي هوت إلى الحضيض، كانوا يذهبون وعليهم ملابس الأمراء القدامى، وبعضهم من شدة الفقر يمشون حفاة الأقدام، ومن بين كل هذه الهيئات الغريبة الشاذة كان فلورنتينو أريثا الأكثر غرابة بينهم جميعا، ولكن ليس لدرجة أن يلفت انتباه أحد منهم، وأسوأ ما بلغ أذنيه عن هيئته، أن صاح به شخص ما ذات مرة قائلا له: «الفقير والقبيح، كلاهما بجانب بعضهما لا يفترقان». على كل، هذه الهيئة العجيبة، التي فرضت عليه في بداية حياته بسبب الفقر والحاجة، إنما صارت ملازمة له بقية حياته، ولنقل أنها كانت ملائمة تماما لشخصيته الملغزة الغريبة الكئيبة، بل إنهم حين منحوه أول وظيفة مهمة في شركة الكاريبي للملاحة النهرية أمر الخياط بأن يصنع له ملابس على نفس الطراز، الذي كان يلبسه أبوه. أبوه الذي دوما يذكره على أنه رجل عجوز مات في عمر شائك للغاية، العمر الذي توفي فيه المسيح: الثالثة والثلاثون، وهكذا كان دائما ما يبدو فلورنتينو أكبر من سنه، حتى أنه ذات مرة قالت له تلك المرأة، عديمة الحياء بريخيدا ثوليتا، التي كانت إحدى عشيقاته، ومن سماتها أنها دوما تقول الحقيقة دون أي تزويق، قالت له إنها تحبه أكثر حين ينزع ملابسه، لأنه حين يتعرى يقل عمره نحو عشرين عاما، ومع ذلك، لم يعرف قط كيف يعالج هذه المشكلة، أولا لأن ذوقه الشخصي لا يسمح له بأن يغير من شكل لبسه، وثانيا لأن لا أحد يعرف البتة كيف كان لبسه حين كان في مقتبل عمره يبلغ نحو عشرين عاما، إلا إذا أخرج من دولابه تلك البنطلونات القصيرة، والطاقية الخاصة بالبحارة الصغار، ومن ناحية أخرى، فهو نفسه لم يستطع الهرب من المفهوم العام عن الشيخوخة، الذي كان سائدا في تلك الفترة، ولهذا كان طبيعيا أن يحس برعب حين رأى فيرمينا وهى تتعثر بالسلالم خارجة من السينما، ألقي في روعه

حينئذ أن شبح الموت القذر سوف ينتصر عليه في حرب حبه.

حتى الآن كانت أكبر حرب حاول الانتصار فيها بكل ما أوتي من جهد، حرب خسرها بلا أي شرف، هي حربه ضد الصلع، فمنذ أول مرة رأى خصلات من شعره معلقة في مشطه الصغير، أدرك بأنه محكوم عليه بجهنم عذابها لا يمكن تخيله بالنسبة لمن كانوا لا يعانون من الصلع، وظل يقاوم ويقاوم سنين طويلة، ولم يترك علاجا أو دواءً عرفه إلا وجربه واستخدمه، ولا حتى اعتقاد ما إلا وعرفه، ولا حتى تضحية ، إلا وضحى كي يوقف هذا الاحتلال الكاسح، الذي يغزو كل شبر من رأسه، حتى أنه حفظ عن ظهر القلب التعليمات الخاصة بألمانيكه بريستول المتخصصة في الزراعة، وذلك بمجرد أن سمعه يقول لأحد ما إن نمو الشعر مرتبط ارتباطا وثيقا بمواعيد حصاد الزرع، بل إنه ترك الحلاق، الذي حلق عنده معظم عمره، والذي كان أيضا أصلع تماما، وراح عند آخر أجنبي وصل البلاد مؤخرا كان يحلق الشعر فقط في الهلال الرابع من الشهر، وحينما بدأ يثبت الحلاق الجديد أن يديه فعلا مبسوطتان ماهرتان، إذا بالجميع يعرفون أنه خارق للقانون، وأن الشرطة تبحث عنه في كل مكان، وأخيرا جروه مكبلين إياه بالسلاسل والقيود.

وقتها، كان فلورنتينو أريثا يقص أي إعلان عن الصلع يجده في أية جريدة تنشر في منطقة الكاريبي بأسرها، إعلان تجد فيه صورتين لنفس الرجل، في الصورة الأولى تجد رأسه خالية تماما كأنها بطيخة، وفي الثانية شعر رأسه أكثف من شعر الأسد ذات نفسه، وذلك بعد وقبل استخدام هذا الدواء، الذي لا تشوبه أية شائبة. هو بعد ست سنين كان قد جرب نحو مائة واثنين وستين علاجا للصلع، هذا غير ما طبقه من إرشادات موجودة في نشرات الأدوية، وكل ما ناله من هذا البلاء هو طفح جلدي كريه الرائحة، مثير للحكة، في فروة رأسه، أطلق على هذا المرض وقتها «قرع قديسي جزيرة مارتينيك»، وذلك لأنك تجده في الظلام له وميض فسفوري غريب، وآخر ما لجأ إليه

كانت بضعة أعشاب من تلك الخاصة بالهنود الحمر، التي ينادون عليها في الأسواق العامة، كما جرب الكثير من الحيل السحرية ونقيع النباتات الخاصة ببلاد الشرق، التي كانت تباع في «البورتال ديه لوس إسكريبانوس»، ولكنه عندما أدرك أخيرا بأن كل هذه الوسائل غش وخداع، كان أصيب بتلك البقعة المباركة في رأسه الشبيهة بتلك الخاصة بالرهبان، حيث يقصون مقدمة شعرهم زيادة في التدين، وفي أول سنة من القرن الجديد، حينما كانت الحرب الأهلية «ميل دياس» في عنفوانها مستنزفة البلاد كلها، جاء إلى هناك رجل إيطالي يصنع باروكة من الشعر الطبيعي تكون محددة بالضبط على مقاس الرأس، و درّت على صانعها ثروة كبيرة، والذي كان يخلي مسئوليته عن الباروكة بعد ثلاثة شهور من الاستخدام، وقليلون هم من المصابين بالصلع من استطاعوا الصمود لهذا الإغراء، وكان فلورنتينو بالطبع أول زبائن هذا الرجل الإيطالي، و جرب باروكة تشبه تماما شعره الطبيعي، كثيرا ما يخشى عليها أن تتعرض لأي سوء، ولكنه في نفس الوقت لم يتحمل فكرة أن يضع على رأسه شعر رجل آخر ميت، وعزاؤه الوحيد في محنته هذه أن الصلع يكتسح رأسه اكتساحا وبلا أية رأفة، وبالتالي فهو لن ينتظر حتى يعرف كيف سيكون شكل الشيب في رأسه، وذات يوم، إذا بأحد هؤلاء السكرانين الذين يملأون الرصيف النهري يحضنه بقوة حين رآه خارجا من مكتبه، وإذا به ينزع عنه قبعته بينما من هناك من العمال يهزأون ويسخرون، ثم يقبله من مقدمة رأسه قبلة مدوية، ويقول هاتفا:

- يا لها من صلعة مقدسة.

في هذه الليلة، عمره كان حينها ثمانية وأربعين عاما، قام بحلق كل ما تبقى من شعر رأسه ناحية الصدغين والرقبة، لقد تقبل إلى الأبد حقيقة أنه أصلع، ولهذا، لم يكن كل صباح يضع كريم الحلاقة فقط على ذقنه، وإنما على بقية رأسه، حيث بدأت تنبت براعم شعر صغيرة، ويحلقها جميعا بموس الحلاقة

ويتركها كلها كأنها مؤخرة طفل رضيع من شدة نعومتها. حتى ذلك الحين لم يكن يخلع قبعته حتى، وهو في مكتبه، فإن يظهر هذا الصلع أمام الناس هو في نفسه شعور كأنه تعرى أمامهم، لذا لا يخلع قبعته قط، ولكنه حين تقبل الواقع تماما إذا به يخلع على ذلك صفات ذكورية رجولية كان يسمعها قبلا، كان يحتقرها ويعتبرها مجرد محض خيال ممن يعانون من الصلع، وبعد ذلك تعود أن يغطي صلعته بشعره الطويل، الذي على جانب رأسه الأيمن، وبعدها لم يتخلّ أبدا عن تلك العادة، ولكنه رغم هذا لم يتخلّ عن القبعة، ودوما يستعمل هذا النوع من القبعات، جنائزية الشكل، حتى بعدما صارت القبعات فاقعة الألوان موضة لا يتركها أحد.

من ناحية أخرى، فقدانه لأسنانه لم يكن أمرا من قبل الطبيعة، وإنما سببه الرئيسي طبيب متخلف قرر ذات يوم أن يستأصل من فمه عدوى عادية جدا، ولم يكن فلورنتينو يذهب إلى طبيب الأسنان، رغم آلامه المبرحة في ضروسه لشدة خوفه من ذلك المثقاب، الذي يشبه البريمة، الذي يستعمله طبيب الأسنان، ولكنه حين بلغ به الأمر مبلغا لا يُحتمل استسلم وذهب. أمه كانت مرعوبة أشد الرعب من أنينه الليلي المتواصل، وهو في غرفته الملاصقة لغرفتها، فبدا لها هذا الأنين مشابها تماما لأنين كان في زمن غابر، كان انمحى من ذاكرتها المتداعية، ولكنها حين أرغمته على أن يفتح فمه لترى ما هذا الذي يؤلم ضناها، اكتشفت أنه يعاني من دمامل لا حصر لها.

وحينها أمره عمه بأن يذهب للطبيب فرانسيس أدوناي، رجل زنجي ضخم الجثة يرتدي حذاء ذا رقبة عالية، وبنطلونا من تلك البنطلونات الخاصة بركوب الخيل، رجل كان يتجول في أرجاء الغابات النهرية، ومعه صندوق يحوي عدة طبيب الأسنان موضوع داخل جراب كبير من ذلك الخاص برؤساء العمال، هو بالأحرى كان يبدو حينها كأنه شرطي رحّال يثير الرعب في القرى المنتشرة على جانبي النهر، وبنظرة واحدة في فم فلورنتينو قرر أنه

لا بد من خلع أسنانه وضروسه جميعا حتى الصحيح المعافي منها، وبالتالي يتجنب أية مخاطرة في المستقبل من أسنانه، وعلى عكس تماما ما كان منه أمام مشكلة الصلع، فهو لم يقلق مطلقا لهذا العلاج المتخلف، وإنما كان وقتها كل خوفه فقط من تلك المذبحة، التي ستجول وستصول في أسنانه دون أي مخدر أو بنج، ولم يقلقه أيضا كونه سوف يضع طقم أسنان، وذلك لأنه دوما يتذكر بحنين أيام طفولته حين رأى أحد هؤلاء السحرة، وهو ينزع فكيه ويتركهما يتكلمان وحدهما موضوعين على المنضدة، وثاني شيء أنه بذلك سينتهي تماما من تلك الآلام المبرحة، التي كان يعانيها في ضروسه منذ طفولته، فكم عانى منها بكثرة، مثلما عانى من تباريح حبه مع فيرمينا، الأمر لم يبدُ له مطلقا ضربة من ضربات الشيخوخة، كما بدا له الصلع، لأنه أصلا مقتنع بأنه رغم تلك الرائحة الحريفة الخاصة بطقم الأسنان المطاطي الصلد، إلا أن مظهره سوف يكون أجمل وأصفى، خاصة إذا ضحك. لهذا خضع لكماشات الدكتور أدوناي في اللحم الحي دون أي اعتراض، وقضى فتره نقاهته بروح صافية متقبلة للواقع تماما.

وعمه ليون الثاني عشر اهتم بتفاصيل العملية كأنه هو من ستجرى له العملية، وليس فلورنتينو. كان لديه شغف خاص بأطقم الأسنان، شغفه هذا اكتسبه في رحلة بحرية من رحلاته النهرية الأولى في نهر ماجدالينا، وذلك بسبب هوسه الشديد بغناء الأوبرا، فذات ليلة كان القمر فيها بدرا، على مقربة من ميناء جامررا، راهن ضد مهندس مساحة ألماني أنه قادر على إيقاظ كل من في الغابة بغنائه أغنية رومانسية إيطالية من موقعه عند مقصورة قبطان السفينة. لولا القليل جدا لكان خسر رهانه، ففي أرجاء الظلام الدامس شعروا بطيور مالك الحزين، وهى تخفق بأجنحتها طائرة من أشجار الموز، والتماسيح النهرية، وهى تضرب بذيلها على الأرض، حتى أسماك الشابل، التي تشبه السردين بلغهم منها صوت غضبها في الماء وهى تحاول الخروج إلى البر،

وحين بلغ أوجه، وخشي الكل أن تنقطع أحباله الصوتية من قوة وعلو صوته، إذا بطقم أسنانه يقذف قذفا من فمه مع آخر نفس منه ليغوص في قاع المياه.

ووجب على الباخرة أن تتأخر نحو ثلاثة أيام في ميناء تينريفه، بينما يصنعون له طقم أسنان آخر كحالة طارئة، وكان مناسبا تماما، ولكنه في رحلة عودته، حينما كان يحاول أن يشرح لقبطان الباخرة كيف فقد طقم أسنانه في المرة الفائتة، إذا به يشد من منخريه نفسا عميقا من هواء الغابات الدافئ، ويغني بأعلى صوته، وحتى آخر نفس محاولا إفزاع تلك التماسيح النهرية، التي تتشمس في استرخاء ناظرة إلى الباخرة دون أن تطرف أعينها، ومرة أخرى فقد طقم أسنانه، الذي غاص في المياه إلى القاع، لذا منذ ذلك الحين لديه أكثر من طقم أسنان في كل مكان، حتى أنه لديه أكثر من طقم في مواضع مختلفة داخل بيته ، وأيضا في درج مكتبه بالشركة، وكذلك في كل باخرة من البواخر الثلاث الخاصة بالشركة، وكذلك حين يأكل خارج بيته عادة ما يحمل طقما آخر احتياطيا ، يحمله معه في علبة خاصة بأقراص الكحة، وذلك لأنه في مرة من المرات انكسر الطقم، وهو يحاول أكل اللحم شديد الاستواء في مأدبة من تلك المآدب الريفية، وخوفا على ابن أخيه من مثل ما حصل له من أمور طارئة، أمر الدكتور أدوناي أن يصنع له طقمين: واحد مصنوع من مواد رخيصة للاستخدام اليومي في المكتب، وواحد آخر للاستخدام في يوم الأحد، والأيام الباردة مع ضرس ذهبي ليكون كالشرارة حين يبتسم، مما أضفى على فلورنتينو فعلا نوعا من الأناقة الإضافية، وأخيرا، في يوم الأحد السابق لعيد الفصح، عاد فلورنتينو إلى الشارع مكتسبا شخصية جديدة، فابتسامته لم تعد معوجة كما كانت قبلا، فكأن شخصا آخر تماما أخذ مكانه في الدنيا بدلا منه.

وكان هذا في الفترة، التي ماتت فيها أمه، وبقي وحده في البيت، الذي صار مكانا مناسبا تماما لممارسة الحب، وذلك لأن الشارع الخاص بالبيت

غير مزدحم بالناس، مع أنه ينطبع في النفس أن ثمة عيونا كثيرة تراقب كل شيء خلف خصاص النوافذ، والحقيقة أن البيت كله مهيأ أساسا من أجل سعادة فيرمينا، هي وحدها فقط، بحيث أن فلورنتينو آثر أن تضيع منه الكثير من الفرص خلال سنين ازدهاره، ولا يلوث بيته بممارسة الجنس. هو لحسن حظه، كلما صعد درجة في السلم الوظيفي في الشركة، اكتسب المزيد من المزايا الخاصة، وبالطبع من ضمنها المزايا السرية الخاصة جدا، وكان أهمها أنه باستطاعته الوجود في مكاتب الشركة ليلا، في أيام الأحد أو أيام البرد القارص، وكل هذا مع رضاء حراس الليل في الشركة، وذات مرة، حينما أصبح النائب الأول لرئيس الشركة، كان يمارس حبا طارئا مع إحدى الفتيات، التي تخدم في الشركة في أيام الأحد، هو جالس على مقعد المكتب، بينما هي فوقه آخذة في مضاجعته، وإذا بباب الغرفة يُفتح فجأة. أطل العم ليون الثاني عشر برأسه من باب الغرفة، كأنه بالضبط أخطأ في اختيار الغرفة، وراح ينظر إلى ابن أخيه المرعوب من خلف نظارته الطبية، وقال له دون أن يبدو عليه أي دهشة: «يا للعجب! نفس ما كان يعمله أبوك تماما!»، ثم قال قبل أن يغلق باب الغرفة، و ساح بنظره في الفراغ:

– وأنت يا سيدتي الصغيرة، واصلي عملك دون أي قلق. أحلف لكِ بشرفي أني حتى لم أرَ وجهك أساسا.

ولم يتكلم مرة أخرى أبدا عما حدث، ولكن صار مستحيلا العمل في مكتب فلورنتينو أريثا، خلال الأسبوع التالي بأكمله، ففي يوم الإثنين إذا ببضعة كهربائيين يدخلون الغرفة على عجل ليركبوا في سقفها مروحة كهربائية، ثم جاء صانعو الأقفال دون سابق إنذار وأثاروا ضجة شديدة، كأنها حرب ضروس، فقط ليركبوا في الباب قفلا بحيث يغلق من الداخل، ثم إذا بالنجارين يجيئون ويأخذون في قياس الأشياء، ولا أحد يعرف لماذا، وإذا بالمنجدين يدخلون الغرفة، ومعهم نماذج من الأقمشة القطنية ليعرفوا أيا منها

سيليق بلون جدران الغرفة، وفي الأسبوع التالي دخلوا حاملين أريكة كبيرة مرسومًا عليها ورود وأزهار، أريكة بدت كأنها سرير زواج، و اضطروا أن يضعوها أمام النافذة، فلم يعد ثمة مساحة، إلا أمام باب الغرفة، وكانوا جميعا يعملون في إصرار وقح، وفي ساعات لا يتخيلها أحد، إصرار بدا أنه مقصود تماما، وإذا اعترض أي أحد يقولون له: «أوامر من الإدارة العليا للشركة»، ولم يعرف فلورنتينو أبدا إذا كان هذا التدخل محبة ومجاملة من عمه كي يمارس الحب كيفما شاء، أم أن كل هذا طريقة خاصة جدا به ليعاقبه على سلوكه المشين.

أما الحقيقة، فلم تخطر له أبدا على بال، فعمه فعلا أراد تحفيزه، وبلغه أن ابن أخيه لديه عادات أخرى مختلفة تماما عن عادات الرجال، وهذا ما أفزع عمه شخصيا، فتلك العادات قد تكون عقبة كئود أمام تعيينه كوريث أساسي للشركة.

والعم ليون الثاني عشر كان عكس أخيه تماما، فقد تزوج زواجا مستقرا دام ستين عاما، وكان دوما يقدس الراحة من العمل في يوم الأحد. وُلد له أربعة أولاد وبنت، وكلهم جميعا كان يعدهم خير إعداد ليكونوا ورثة إمبراطوريته، ولكن إذا بالحياة تفرض عليه حادثا من تلك الحوادث، التي لا تحدث إلا في القصص والروايات، التي كانت منتشرة وقتها، حوادث لم يكن أحد يظن أبدا أنها قد تحدث في الحياة الواقعية، فقد توفى أبناؤه الصبيان الأربعة، الواحد تلو الآخر، كلما صعدوا أكثر فأكثر في سلمهم الوظيفي، أما ابنته فكانت خالية تماما من أي ميل للملاحة البحرية، وفضلت أن تموت، وهى تتأمل سفن خليج هدسون في كندا من نافذة تقع على علو خمسين مترا فوق الأرض، هكذا تم الأمر، حتى أنه لم يعد أمام أي أحد إلا التفكير بأن فلورنتينو، بهيئته المنذرة للشر وشمسيته، التي تشبه شمسية مصاصي الدماء، هو من دبر تلك المصادفات العجيبة، الواحدة تلو الأخرى، ليكون هو الوريث الوحيد للشركة.

حينما تقاعد العم ليون، على خلاف إرادته، ولأسباب صحية قاهرة،

حينها بدأ فلورنتينو يضحي عن طيب خاطر ببعض من ممارسات الحب الخاصة بيوم الأحد، وكان يصحب عمه إلى ملاذه الريفي، على متن إحدى تلك السيارات، منذ أول ظهور لها في البلدة، و«الفتيس» الخاص بها من تصلبه يحتاج إلى قوة جبارة تسببت في خلع كتف أول سائق يسوقها. يظلان هناك في الريف يتحدثان لساعات طويلة، عمه العجوز ممدد على سريره المعلق حيث يوجد اسمه عليه مطرزا بخيوط من الحرير. نأى بنفسه عن أمور الدنيا معطيا ظهره إلى البحر، في إحدى تلك الضياع، التي كانت يوما خاصة بالعبيد، ومن تراس الدار الحافل بأزهار الألسترومبليا، ينظر وقت الأصيل إلى قمم التلال الجبلية المغطاة بالجليد، تقريبا لا يتكلمان إلا في شئون الملاحة النهرية، حتى في تلك الأمسية، حين صار شبح الموت غير المرئي موجودا في كل وقت، وكان مما يشغل بال العم ليون بشكل مستمر هو أن أمور الملاحة النهرية لا تنتقل إلى أيدي المدراء المحليين، الذين لهم علاقة بالاتحادات الأوروبية. كان يقول: «هذا خداع وغش، فحين يمسك بمقاليد الأمور هؤلاء الشبان، إذا بهم يهدونها إلى الألمان، وبدون أي مقابل». وقلقه هذا نتيجة طبيعية لقناعة سياسية كثيرا ما كان يذكرها حتى بدون مناسبة، يقول:

- أنا بالفعل قاربت أن أنهي مائة عام من عمري، وشاهدت كل شيء يتغير حتى أماكن النجوم في الكون شهدتها، وهى تتغير، ولكني لم أر أي شيء يتغير في هذه البلد، فحقا هم اخترعوا دساتير جديدة وقوانين جديدة وحروبا جديدة كل ثلاثة شهور، ولكن لا زلنا نعيش في أيام الاستعمار الإسباني.

ودائما ما يقول لإخوانه الماسونيين، الذين ينسبون كل فشل في هذه البلد إلى النظام الفيدرالي، يقول لهما: «حرب ميل دياس، التي أصلا اندلعت في البلاد عام ١٨٩٩، هي أساسا بدأت أوراها منذ حرب عام ١٨٧٦، أي منذ ثلاثة وعشرين عاما»، أما فلورنتينو أريثا فلامبالاته بشؤون السياسة تعدت حدود المعقول، فهو يسمع مثل هذه الخطب المسهبة عن السياسة كأنها

ضجيج البحر ليس إلا. على النقيض تماما فيما يخص شؤون الشركة، تجده هنا معارضا شرسا لسياسة الشركة. هو ضد وجهة نظر عمه ليون تماما، فإنه يظن أن حل هذا التأخر المخزي في الملاحة النهرية، التي دوما تبدو موشكة على الحضيض، هو التخلي عن احتكار السفن البخارية، الذي في يد المجلس القومي لشركة الكاريبي للملاحة النهرية لتسعة وتسعين عاما ويوم، ويحتج عليه عمه قائلا : «مؤكد أن هذه الأفكار حشرتها في دماغك حشرا الأستاذة ليونا بما لها من خيالات هدامة مخربة»، وكلامه هذا لم يكن إلا نصف الحقيقة فقط، فأفكار فلورنتينو هذه أساسها التجربة الفاشلة لقائد الأسطول الألماني خوان بي إلبيرس، الذي صرف كل عبقريته في طموحاته الشخصية الزائدة عن الحد، وعمه، على العكس منه، كان يرى أن فشل القبطان إلبيرس ليس لما كان له من مزايا احتكارية خاصة به وحده، وإنما لما فرضه على نفسه من التزامات غير معقولة أبدا. كان يناقضها في الوقت نفسه، التزامات بالضبط كأنه يلقي عن عاتقه مسئوليته عن جغرافية البلاد. حمّل نفسه الاهتمام بشؤون الملاحة النهرية، بناء الموانئ والمرافئ، تشييد الطرق البرية، وحمّل نفسه أيضا مسئولية وسائل المواصلات، وكان يقول أيضا إن المعارضة الشديدة الشرسة من قبل الرئيس سيمون بوليفار لم تكن عائقا يستهان به.

وأغلب الشركاء كانوا يأخذون ما يدور من جدل بين فلورنتينو وعمه على أنه مجرد مهاترات من تلك التي تحدث بين الزوج والزوجة، وفي الوقت نفسه كلا الطرفين على حق. وهذا العند، الذي يتسم به العم بدا لهم أمرا طبيعيا، وذلك ليس لأن تلك الشيخوخة جعلته أكثر شطحا في خياله عما كان من قبل، كما يقول هو عن نفسه، وبكل سهولة، وإنما لأن التخلي عن هذا الاحتكار هو بالضبط بالنسبة له كأنه يرمي في صندوق القمامة بتذكار النصر، الذي ناله هو وأخواه في معركة بطولية تاريخية ضد خصوم أقوياء من العالم كله، ولذلك لم يعارضه أحد عندما أمسك بكل الحقوق في يديه، فلا أحد

بقادر حتى أن يمس هذه الحقوق، إلا بعد أن ينطفئ قانونيا، وبمجرد أن سلّم فلورنتينو جميع أسلحته، في تلك الأيام، التي قضى أكثرها في التأمل وقت الأصيل، أعلن حينها العم ليون الثاني عشر عن موافقته للتخلي عن إتمام مائة عام من الاحتكار، ولكن بشرط واحد: ألا يفك هذا الاحتكار قبل موته.

وهذا هو آخر تصرف له فيما يخص الشركة، وبعدها لم يعد مطلقا للحديث عن التجارة والأعمال، ولا حتى يسمح لأحد أن يستشيره في شيء من شؤونها، رغم أنه في كامل صحته، فرأسه نفسها لم تقع منها شعرة واحدة من شعره المجعد المفلفل، وما لديه من وعي لم يفقد منه، ولو طرفة عين، فأصلا هو فعل كل ما يمكن كي لا يرى شفقة عليه في عيون الناس. أيامه صار يقضيها في تأمل الجليد من مكانه في تراس الدار، بينما يهز جسده ببطء على الكرسي الهزاز، وبجانبه منضدة صغيرة يضع عليها الخدم فناجين القهوة على الدوام، وكوبا من الماء المشبع بالكاربوناتو وضع فيه طقمي أسنان، وأصلا لم يعد يستعملهما إلا حين يستقبل أحدا يزوره . يزوره القليل جدا من أصدقائه، ولا يتكلم هو إلا عن ماض سحيق عميق كان قبل الملاحة النهرية نفسها، ورغم كل ذلك، فقد سيطر على عقله موضوع جديد: رغبته في أن يتزوج فلورنتينو أريثا، وكثيرا ما عبر عن رغبته له، و الطريقة نفسها دائما، حيث يقول له:

– لو كان عمري أقل بخمسين عاما، لكنت تزوجت من ليونا. حقيقي لا يمكنني أن أتخيل امرأة أفضل منها كزوجة.

حينها ثار الرعب في نفس فلورنتينو أن يكون بعد كل هذه السنين يبوء بفشل ذريع بسبب شرط غير متوقع كهذا من عمه، فهو يفضل أن يُقال من منصبه في الشركة، وأن يقذفوا بكل شيء في الماء، أن يموت، وتكون فيرمينا له، ولحسن الحظ لم يصر العم ليون على موقفه، وحين ناهز اثنين وتسعين عاما من عمره أقر بأن ابن أخيه هو وريثه الوحيد، وسحب يديه من الشركة.

وبعدها بستة شهور، تم، بإجماع كل الشركاء، تعيين فلورنتينو رئيسا للإدارة، والمدير العام للشركة، وفي يوم تسلمه منصبه، وبعدما شرب المدعوون كؤوس الشمبانيا، إذا بالعم ليون العجوز يطلب السماح له بالكلام من مكانه على الكرسي الهزاز، وارتجل خطبة قصيرة كانت بالأحرى مرثاة، وليست كلمة عادية. قال إن حياته بدأت وانتهت بمعجزتين غريبتين للغاية، الأولى: أنه حمل المحرر العظيم سيمون بوليفار على ذراعيه، حينما كان في قرية توورباكو في رحلته المشئومة إلى الموت، أما المعجزة الأخرى: أنه وجد أخيرا الوريث الحقيقي، الذي يستحق الشركة، رغم كل العقبات، التي حالت دون ذلك، وأخيرا قال، وهو يحاول أن ينزع صفة الدراما من كلام أصلا كله دراما:

– الشيء الوحيد، الذي فشلت فيه على مدار حياتي كلها هو أني غنيت وشدوت في جنازات ومآتم كثيرة إلا مأتمي أنا.

ولكي ينهي الحفل، إذا به يغني «سلام أيتها الحياة»، الخاصة بأوبرا توسكا، من تأليف جاكومو بوتشيني. غناها على طريقة الرهبان كما يحب دوما، وبصوت ثابت مستقر، وتأثر فلورنتينو للغاية واهتزت مشاعره، ولكن بالكاد لاحظ أحد اهتزاز صوته، وهو يلقي كلمة شكره، فأصلا هو يفكر ويتصرف دوما كدأبه طول حياته، فالوصول للقمة عنده لم يكن دافعه، إلا أن يكون في أحسن حال حين يسلمه قدره إلى فيرمينا داثا.

ومع ذلك، لم تكن ذكراها الوحيدة، التي تحكمت في عقله هذه الليلة، فحين دعته ليونا كاسياني لحضور حفلة أقامتها على شرفه أتت على باله ذكريات جميع من عاشرهن: من هن في قبورهن الآن، ربما يفكرن فيه هو الذي يبذر بذور أشجار الورد فوقهن، وهؤلاء اللاتي لا زلن ينمن تحت القمر على نفس الوسادة، التي ينام عليها أزواجهن المخدوعون. تمنى لو يكُنَّ جميعا معه في الوقت نفسه باستثناء واحدة فقط دائما ما يحس الخوف

منها. في أصعب فترات حياته وأسوأها، كان دائما يحتفظ بخيط رفيع جدا مع عشيقاته الكثيرات ولسنوات طويلة: دوما يتبع خيوط حياتهن، ويعرف من منهن على قيد الحياة، ومن منهن وافتها المنية.

ولهذا في هذه الليلة تذكر روسالبا، أقدم عشيقاته جميعا، التي قضت على عذريته، ذكراها دوما تؤلمه، مثل أول مرة. يكفيه أن يغلق عينيه ليراها بردائها المصنوع من الموسلين، وقبعتها ذات الأشرطة الحريرية الطويلة، بينما تهز ذلك القفص المعلق في حاجز السفينة، وبداخله طفلها الرضيع. هو لأكثر من مرة، خلال سنوات طويلة من عمره، كان يستعد تماما لأن يبحث عنها، وهو لا يعرف أين تكون، ولا حتى يعرف ما لقبها، ولا يعرف إذا كانت فعلا من يبحث عنها، ولكنه موقن تماما بأنه يوما ما سيجد قبرها وسط غابة من أزهار الأوركيديا، وفي كل مرة ينوي البحث عنها، يحدث عائق ما في آخر لحظة، أو تخور عزيمته، وحينها يؤجل الرحلة بينما الباخرة على وشك الإقلاع، ودوما يكون السبب له علاقة بفيرمينا داثا.

أيضا كان يتذكر أرملة ناثاريت، الوحيدة التي معها انتهك قداسة بيته الكائن في شارع كايه ديه لاس بينتاناس، رغم أن من شجعه وشجعها لم يكن هو فقط، وإنما أمه ذات نفسها. تلك الأرملة كانت الوحيدة، التي تفهمها أكثر من أية امرأة أخرى، فهى الوحيدة، التي منحته دفقات من الحنان الجارف بحيث عوضته عن فيرمينا داثا خير تعويض، رغم أنها أساسا شديدة البله في أمور الجنس، ولكن طبعها، الذي يجعلها كأنها قطة شاردة، كان أقوى كثيرا من حنانها، وبالتالي حكم عليهما أن يخون كل منهما الآخر، ولكنهما مع ذلك استطاعا أن يبقيا على حب متقطع بينهما ولثلاثين عاما متواصلة، وذلك بفضل تمسكهما بشعار أنهما مجرد شاهدين على أفعالهما، فهما يخونان بعضهما فعلا، ولكن لا أحد يغدر بالآخر. هي أيضا كانت الوحيدة، التي انحاز لها فلورنتينو ودافع عنها، فحينما أعلموه بموتها، وأنها سوف تدفن في

مقابر الصدقة، قام بدفنها من ماله الخاص، وحضر وحده مراسم دفنها.

هو أيضا يتذكر أرامل أخريات غير أرملة ناثاريت. يتذكر برودينسيا بيتري، أقدمهن جميعا من بين من بقين على قيد الحياة، المشهورة بين الجميع «بأرملة الاثنين»، لأنها فعلا ترملت مرتين، ويذكر كذلك «برودينسيا» الأخرى، أرملة السيد أريانو، التي عشقته عشق الجنون حتى أنها كانت تنزع أزرار ملابسه كي تؤخره عن الخروج من البيت، بينما تخيط له الأزرار مرة أخرى، وأيضا يتذكر خوسيفا، أرملة السيد ثونيجا، التي أيضا جُنَّت حبا به حتى أنها ذات مرة أوشكت أن تقص خصيتيه بمقص التشذيب، وهو نائم، كي لا تملكه امرأة أخرى، رغم أنه أصلا لن يكون ملكها هي أيضا.

وأيضا يذكر أنخيليس ألفارو، أقربهن جميعا إلى قلبه، والتي كانت كسحابة صيف عابرة. جاءت إلى البلدة لستة أشهر لتقوم بتدريس العزف على الآلات الوترية في مدرسة الموسيقى، وكانت تقضي معه الليالي القمرية فوق سطح بيته عارية تماما، كما ولدتها أمها، تقوم بالعزف على الكمان الكبير أجمل ما عرفته من ألحان، ألحان تستحيل إلى صوت جهوري بين فخذيها الذهبيين. هما، منذ أن تبدأ أول ليلة قمرية في الشهر، يفنيان أنفسهما في ممارسة الحب كأنهما لم يمارساه من قبل، ولكن وللأسف الشديد رحلت أنخيليس ألفارو كما أتت، رحلت وأخذت معها لذات جنسية كلها حنين، وكمانها المؤثر الخلاب، رحلت على متن سفينة عابرة للمحيطات، سفينة رايتها الوحيدة هي النسيان، والشيء الوحيد، الذي تبقى منها عند السطح هو منديلها الأبيض المحمل بدفقات الوداع الحارة، منديل بدا كأنه حمامة بيضاء تلوح في الأفق، حمامة وحيدة غاية في الحزن، بالضبط مثل تلك الأبيات الشعرية، التي ألقيت في المسابقة الشعرية السنوية، ومنها تعلم فلورنتينو ما ظل يعاني منه كثيرا دون أن يدرك لماذا: تعلم أنه يمكن أن يحب أكثر من واحدة في الوقت نفسه، وكلهن يحبهن، ويتألم لهن ودون أن يخون واحدة

منهن، حتى أنه ذات مرة، وهو واقف بين جموع الناس الموجودين عند رصيف الميناء، قال فجأة في غضب عارم: «القلب فيه غرف عددها أكثر من غرف فندق المومسات». كان غارقا في دموعه من شدة تألمه لوداع حبيباته، ومع ذلك، فما إن تختفي السفينة، التي على متنها حبيبته، في عرض البحر، حتى تحتل فيرمينا داثا مساحة ذكرياته كلها.

تذكر أيضا أندريا بارون، التي مر على بيتها في الأسبوع الفائت، ولكنه حينما لاحظ ذلك الضوء البرتقالي يسطع من نافذة الحمام، عرف بأنه لن يسمح له بالدخول، فأحد ما سبقه، وأخذ مكانه معها. أي أحد، سواء كان رجلا أو امرأة، فهي لم تكن تميز بين كلا الجنسين في خضم الحب والجنس. هي الوحيدة، التي كانت في قائمته الطويلة من المومسات، التي تعيش من جسدها، ولكنها كانت تعطي جسدها على حسب مزاجها، لا يشرف عليها أي قواد أو شيء من هذا. استطاعت في أزهى سنواتها أن تصنع لنفسها قائمة أسطورية من المشاهير الوجهاء، حتى أنها استحقت لقب «سيدة الجميع». جننت الكثير من الحكام وأمراء البحار، رأت بنفسها وجهاء الحرب والأدب يبكون ضارعين أمامها، منهم المشهور جدا، ومنهم العادي، وحقيقة فعلا أن الرئيس رفائيل رييس لمجرد أن قضى معها نصف ساعة فقط في خلال زيارتين عاجلتين له للمدينة، قام بتخصيص بنسيون لها مدى الحياة مقابل خدماتها لوزارة المالية، رغم أنها أصلا لم تعمل فيها يوما واحدا، وهناك كانت توزع شهواتها إلى أقصى ما تستطيعه، رغم أنها أصلا ملك للجميع، ولكن لا أحد يستطيع أن يشهد عليها بدليل قاطع يهدمها هدما، وذلك لأن لها وجهاء وعظماء يحمونها كما يحمون حياتهم الخاصة، فهم يعلمون أنها ليست وحدها من ستتعرض للفضيحة، وإنما سوف يجرون معها، ومعها خرق فلورنتينو مبدأه المقدس عنده أشد التقديس بأن لا حب مقابل المال، وكذلك خرقت مبدأها بأن لا مجانية حتى لو مع زوجها. اتفقا على سعر

رمزي، يدفع لها بيزو واحد في كل مرة، ولكنها لم تكن تتلقى أجرها أبدا في يدها أو يسلمه هو لها بيده، وإنما يضعان المال في حصالة صغيرة، حتى يكون هناك مال كاف لشراء أي من تلك التحف، التي تجلب من بلاد ما وراء البحار، والموجودة في «البورتال ديه لوس إسكريبانوس». هي من كان لها الفضل في أن جعلت لتلك الحقن الشرجية، التي يأخذها لعلاج الإمساك إحساسا آخر، بل إنها أقنعته بأن يتشاركا تلك الحقنة معا، يحقنان بعضهما بها في جنون مستعر بينهما، يحاول كل منهما أن يستكشف وسيلة أخرى للجنس داخل الجنس نفسه.

ومن بين كل تلك اللقاءات الجنسية المغامرة الوحيدة، التي جعلته يذوق نوعا من المرارة في حلقه هي تلك المراوغة سارة نوريجا، ويرى أنه من حسن حظه أن الأمر انتهى بها في مستشفى المجانين «لا ديبينا باستورا» تردد أبياتا شعرية شديدة الفحش، حتى أنهم عزلوها عن بقية المرضى كي لا تثير جنونهم بأشعارها الماجنة.

رغم كل ذلك، فعندما تسلم مهام إدارته للشركة بالكامل، وصار مسئولا عنها مسئولية كاملة، لم يعد لديه وقت كاف ولا حتى حماس كبير كي يحاول فقط أن يستبدل امرأة أخرى مكان فيرمينا داثا: كانت امرأة لا يمكن استبدالها بأخرى، وشيئا فشيئا بدأ يتعود الذهاب إلى من تعود عليهن. ينام معهن ويضاجعهن في أي مكان يجدهن، وبقدر ما يسمح له وقته وجهده، يمارس معهن الجنس إلى أن تأخذهن الحياة، وفي يوم قدّاس العنصرة، الذي مات فيه الدكتور خوبينال أوربينو، لم يكن عنده وقتها إلا واحدة، واحدة فقط، بالكاد أتمت أربعة عشر ربيعا من عمرها، كان لديها شيء لم يكن لدى الأخريات ممن عاشرهن فلورنتينو، فقد استطاعت أن تحيي فيه جنون الحب وشهوته.

كان اسمها أمريكا بيكونيا، جاءت منذ سنتين من مدينة ساحلية تُدعى بويرتو بادريه، ووصت كثيرا على فلورنتينو أريثا، الذي هو راعيها كطالبة علم،

وأيضا بينه وبينها صلة قرابة معروفة. أهلها أرسلوها على نفقة الدولة لتدرس في مدرسة المعلمين العليا، ذهبت ومعها بقجتها وصندوقها الصفيح، الأشبه بصناديق الدمى، ومنذ أول لحظة نزلت فيها من السفينة بحذائها الأبيض ذي الرقبة العالية، وضفيرتها الذهبية البراقة، جاءه هاجس على الفور بأنهما سوف ينامان معا في أيام الأحد. هي أساسا لم تزل طفلة بطقم التقويم المركب في أسنانها والسحجات الموجودة على ركبتيها منذ كانت طالبة في المدرسة الابتدائية، ولكنه استطاع أن يستشف على الفور النوع، الذي ستكونه هي كامرأة في المستقبل القريب، وظل يرعاها من أجله على مدار سنة بطيئة في أيام السبت، حيث يذهب معها إلى السيرك، وأيام الأحد يأخذها لتناول المثلجات، كما قضيا معا أمسية طفولية بريئة إلى أن استطاع كسب ثقتها وحنانها. بالأحرى كان يحملها في خبث من طور الجد الرحيم الحنون الطيب إلى حيث مأواه السري الخاص به، أما هي فالأمر وشيك جدا بالنسبة لها، فكأن أبواب السماء فتحت لها. كانت كوردة يانعة تتفتح جعلها تدخل دائرة السعادة، وكان حافزها في دراساتها، ف كانت دوما تحافظ على تقدمها في الدروس، وفي الفصل كي تستطيع الخروج في نهاية الأسبوع، أما هو فكانت بالنسبة له ملاذه الآمن في خليج شيخوخته، فبعد سنين طويلة من الحب والجنس مع كثير من النساء، كان لمتعة البراءة رغم تفاهتها سحر، وأي سحر، على نفسه.

وتوافقت رغبتهما. هي تتصرف كما يكون، طفلة بريئة مستعدة لأن تستكشف الحياة تحت إشراف رجل محنك لا يذهله أي شيء، وهو يتصرف معها ومدرك تماما أقصى ما كان يخشاه في حياته: أن يكون عاشقا عجوزا. هو أبدا لم يعرفها في نفسه على أنها فيرمينا داثا، رغم شدة التشابه بين الاثنتين، ليس فقط لأنها في مثل العمر، الذي رأى فيه فيرمينا، وإنما أيضا لزيها المدرسي وضفيرتها، ومشيتها الريفية المرحة، حتى أنها تميزت بنفس الشموخ والأنفة، التي تميزت بهما فيرمينا. محا أساسا فكرة أن يستبدل امرأة

بأخرى مكان فيرمينا تماما، رغم كونها فكرة مغرية جدا بالنسبة له كرجل يحتاج الحب. أعجب بتلك الفتاة كما هي ، وانتهى به الأمر أن أحبها بجنون مع استمتاعه بها وقت الغروب. هي الوحيدة، التي معها أخذ حذره تماما كي لا تتعرض للحمل، وبعد نصف دستة من اللقاءات بينهما، لم يعد أمامهما من حلم إلا أمسية يوم الأحد.

ولأنه الوحيد المسموح له بإخراجها من المدرسة الداخلية، كان يذهب ليأخذها في السيارة الهدسون، بمحركها المكون من ست أسطوانات، وأحيانا كانا يكشفان السقف المتحرك الخاص بالسيارة في الأيام التي تحتجب فيها الشمس ليتنزها بها على الشاطئ، هو بقبعته الكئيبة، وهى تكاد تموت من الضحك، ويداها على طاقيتها البحرية، الخاصة بملابسها المدرسية، كي لا تأخذها الرياح منها. تتنزه مع فلورنتينو، رغم أن أحدا ذات مرة قال لها ألا تسير معه إلا عند اللزوم فقط، ألا تأكل شيئا أكل منه، ألا تشم نفسه حتى، وذلك لأن شيخوخته قد تعديها، ولكن لم يهمها مطلقا. كلاهما كانا لا يباليان بأي مما قد يقوله الناس عنهما، لأن صلة قرابتهما معروفة للجميع أصلا، وأيضا، فالفرق الشاسع في العمر بينهما يبعدهما عن أي ريبة أو شك.

وفي يوم قُدّاس العنصرة، حين انتهيا من ممارسة الحب، حوالي الساعة الرابعة، إذا بهما يسمعان الكنائس تدق أجراسها دقا متواصلا. وقتها أحس فلورنتينو بصعوبة قوية ليتجاوز ذلك الاضطراب العظيم، الذي اعترى قلبه. دقات الأجراس المتواصلة هذه كانت في شبابه تُدرج ضمن تكاليف الجنازة، ولم يكن الوجهاء الفقراء يحظون عند وفاتهم بهذا التكريم، ولكن بعد تلك الحرب الأخيرة، في الفترة ما بين نهاية القرن الماضي، وبداية القرن الحاضر، قام النظام الحاكم المحافظ بدعم وتوطيد ما كان من عادات وتقاليد أيام الاستعمار، وصارت تلك المفرقعات، التي تُفجر في الجنازات أمرا مكلفا للغاية لا يدفع كلفتها إلا الأغنياء فقط، وعندما توفى المطران دانيته ديه لونا،

دُقت جميع الأجراس في البلدة بلا توقف لمدة تسعة أيام متواصلة، وثارت زوبعة عارمة من عامة الناس بحيث ألغى الحاكم دق الأجراس لكل من هب ودب ويقدر على الدفع، وصار الأمر حكرا فقط على العظماء من الموتى، ولهذا فعندما سمع فلورنتينو أجراس الكاتدرائية تدق هذا الدق المتواصل في الساعة الرابعة عصرا من يوم الأحد، يوم قُدّاس العنصرة، أحس حينها كأن شبح الشباب والفتوة في زيارة له. لم يتخيل قط أن هذا الدق المتواصل هو الدق، الذي تمناه طوال سنوات وسنوات، من أول يوم أحد رأى فيه فيرمينا داثا، وهى حامل في ستة شهور خارجة من القُدّاس، وإذا به يقول وسط الظلام:

- يا للعجب. لا بد أنه شخصية مرموقة جدا كي يدقوا له أجراس الكاتدرائية نفسها.

فاستيقظت أمريكا بيكونيا، وهى عارية تماما، وقالت:

- لا بد أن هذه الأجراس تدق لأن اليوم يوم قُدّاس العنصرة.

والحقيقة أن فلورنتينو أريثا معلوماته قليلة جدا عن الدين، هو حتى لم يذهب من قبل إلى قُدّاس منذ آخر مرة عزف فيها الكمان في جوقة الكنيسة مع ذلك الألماني، الذي علمه أيضا علم التلغراف، والذي لا يعرف أي شيء عنه الآن، ولكنه يعلم دون شك أن تلك الأجراس لا تُدق بسبب قُدّاس العنصرة، فلا بد من وجود حداد في المدينة، بل إنه موقن تماما، ففي ذلك الصباح جاءه وفد من لاجئي الكاريبي يخبره بأن خيريميا ديه سانت-أمور طلع عليه الصباح، وهو ميت في أستوديو التصوير الخاص به. ورغم أن فلورنتينو أريثا لم يكن صديقا مقربا منه، إلا أنه يعد الصديق المقرب لكثير من هؤلاء اللاجئين، الذين يدعونه دوما لحضور مناسباتهم العامة، ومآتمهم بشكل خاص، ولكنه أيضا موقن بأن تلك الأجراس لا تُدق من أجل خيريميا ديه سانت-أمور، فمعروف عنه أنه كان ملحدا محاربا ومؤمنا بعدمية هدّامة للغاية، وأنه أيضا مات بيده، مات منتحرا.

قال لها فلورنتينو:

- أجراس كهذه لا تُقرع إلا من أجل حاكم فما فوق.

أما هي ، أمريكا بيكونيا، بجسدها الشاحب، الذي غطته الشمس بأشعتها المخططة من خلال الشباك، الذي لم يغلق جيدا، لم تأت على بالها فكرة الموت من الأساس. مارسا الحب بعد الغداء، وكل منهما راقد ينام قيلولته، كلاهما عاريان تماما أسفل المروحة الكهربائية، التي لم يغط عجيجها على ذلك الدوي المزعج، الذي تصدره تلك النسور السوداء، وهى تمشي على سقف البيت المصنوع من الخارصين، الذي لفحته حرارة الشمس. والحقيقة أن فلورنتينو أريثا أحبها كما أحب غيرها من النساء العابرات في حياته الطويلة المديدة، ولكن هي بالذات كان يحبها بشجن أكثر من غيرها، فهو موقن بأنه سيموت قبل أن تتم دراساتها في المدرسة.

والغرفة بالأحرى كأنها قمرة في سفينة، جدرانها من الخشب، الذي دُهن لأكثر من مرة فوق الدهان الأصلي، تماما كما يحدث في السفن، ولكن الحر كان شديدا جدا عما يكون في غرف البواخر النهرية في الساعة الرابعة عصرا، رغم تلك المروحة الكهربائية المعلقة فوق السرير بالضبط والمسببة اهتزازات عجيبة في السقف المعدني، وأساسا لم تكن تلك الغرفة غرفة نوم بالمعنى المعروف، وإنما كأنها حجرة من حجرات السفينة، ولكن على البر، وأمر ببنائها فلورنتينو أريثا خلف مكاتب الشركة، دونما سبب أو ذريعة، إلا أن يكون له وكر آمن من أجل علاقاته الغرامية، وفي الأيام العادية من الصعب جدا النوم هناك بسبب الصريخ المتواصل من قبل الحمالين وأصوات الرافعات المدوية الموجودة في الميناء، وأيضا ذلك الصفير المزعج، الذي تصدره البواخر النهرية، ورغم كل هذا، فقد كانت تلك الغرفة بالنسبة لهذه الفتاة كأنها جنة حقيقية كل يوم أحد.

وفي ذلك اليوم كانا يفكران في قضاء الوقت مع بعضهما إلى أن تعود هي

لمدرستها قبل أن تدق الأجراس بخمس دقائق معلنة الصلاة، ولكن إذا بتلك الدقات المتواصلة من دقات الكنائس تذكره بوعده بحضور جنازة خيريميا ديه سانت-أمور، وعلى الفور ارتدى ملابسه في سرعة أكثر من المعتاد، وقبل أن يخرج، فعل ما يفعله دوما، ربط ضفيرتها، التي يفكها بنفسه قبل ممارسة الحب، ثم أقعدها على المنضدة ليربط رباط حذائها، الذي دائما لا تجيد هي ربطه. هو يساعدها عن حب وطيب خاطر، وهى كانت تساعده ليساعدها كأنه واجب عليه، والحقيقة أن كلاهما فقد الإحساس بفارق العمر بينهما منذ لقاءاتهما الأولى، فبالأحرى هما يتصرفان مع بعضهما بثقة عمياء كأنهما زوجان،فكل منهما يحجب عن الآخر أشياء كثيرة في حياة لم يتبق فيها شيء ليقولانه.

في ذلك الوقت، كانت المكاتب جميعا مغلقة، وخيم عليها ظلام دامس في يوم هادئ وديع، وعند الميناء لم يكن هناك إلا باخرة وحيدة انطفأت محركاتها، وإذا بهذا الحر القائظ ينذر بالمطر، الأمطار الأولى في السنة، ولكن تلك الشفافية المسيطرة على الهواء، وهذا الهدوء الخاص بيوم الأحد في الميناء يوحي بأن الشهر سيكون جوه لطيفا رقيقا. من هناك، يكون الكون كله في حالة نضارة أكثر بالطبع مما في عتمة هذه الغرفة المظلمة، ومن هناك كانت تلك الدقات المدوية أكثر إيلاما للنفس، رغم أن أحدا لا يعرف لمن تدق الأجراس، وهبط كلاهما إلى الفناء الرملي المشبع بملح البحر، الفناء الذي كانا خاصًّا بالإسبان، والذي كان من قبل ميناء للعبيد السود، حيث ما زال هناك بعض ما كان من أثقال، وقطع حديدية صدئة من بقايا تجارة العبيد أيامها، والسيارة كانت في انتظارهما أسفل الظلال الممتدة لمستودعات الشركة، ولم يوقظا السائق، الذي كان نائما على مقود العربة، حينما لم يكونا فيها. دارت العربة حول المستودعات المحوطة بسور من الأسلاك، ثم اجتازت أرضا كانت قديما سوق خليج لاس أنيماس، حيث ثمة بعض

الغلمان الناضجين يلعبون الكرة عراة، ثم خرجت من الميناء مخلفة وراءها سحابة من الغبار الساخن، وفلورنتينو موقن تماما بأن قرع الأجراس هذا لم يكن من أجل خيريميا، ولكن لما وجد الدقات متواصلة لا تهدأ أبدا بدأ يخالجه الشك، حينها وضع يده على كتف السائق، وسأله صائحا : من أجل من هذا يدقون له الأجراس بهذا الشكل؟ فأجابه السائق قائلا:

- إنها من أجل هذا الطبيب زوج تلك المرأة الجميلة. ما اسمه يا سيدي؟

وطبعا مثل هذه الإجابة لم تكن في حاجة إلى تفكير ليعرف فلورنتينو من هو المقصود بالضبط، ومع ذلك، فحين حكى له السائق كيف مات الطبيب، ما كان توهمه للحظة مُحي في الحال، وبدا له حادث موته غير معقول نهائيا، فلا شيء يشبه المرء أكثر من طريقة موته، وتلك الطريقة بالذات، التي مات بها الطبيب لا تناسبه أبدا، لا تناسبه مطلقا، ولكنها كانت الحقيقة، رغم عدم معقوليتها: الطبيب الأكبر سنا، والأكثر مهابة واحتراما في المدينة بأسرها، وأحد رجالها الوجهاء لكثرة ما قدّم لها من خدمات، مات بعدما تهشم عموده الفقري، مات بعدما ناهز من العمر واحدا وثمانين عاما، بعدما وقع من فوق شجرة المانجو، وهو يحاول الإمساك بالببغاء.

كل ما فعله فلورنتينو أريثا من أجل فيرمينا داثا كان معلقا على هذا الخبر، ومع ذلك، فحين حانت تلك اللحظة، التي تمناها لسنين طوال، لم يشعر بعاطفته تهتز هزا لمثل هذا الانتصار، الذي طالما تمناه في ليال من السهد والأرق، إنما أحس فقط بالخوف والرعب، فأدرك أن ما حصل للدكتور خوبينال قد يحدث له أيضا. حين رأته أمريكا بيكونيا على هذه الحال، وهى جالسة بجانبه في العربة، التي راحت تقفز، وهى تسير في شارع مليء بالحجارة، أحست بالخوف عليه وجعلت تسأله لتطمئن، حينئذ أمسك فلورنتينو يدها بيده المتجمدة، وقال متنهدا في حرقة:

- آه يا طفلتي العزيزة، إنه لينقصني حقا خمسون عاما كي أحكي لك.

نسى تماما مأتم خيريميا ديه سانت-أمور، وترك الفتاة عند باب مدرستها الداخلية واعدا إياها في عجالة بأنه سوف يعود من أجلها في يوم السبت القادم، ثم أمر السائق بأن يحمله إلى بيت الدكتور خوبينال أوربينو، ووجد أمام البيت زحاما شديدا من السيارات والعربات المؤجرة تقف في الشوارع الملاصقة، وحشدا كبيرا من الناس الفضولية واقفا أمام البيت، الذي وصل إليه في عجلة المدعوون، الذين كانوا عند الدكتور لاسيديس أوليبيا، وجاءهم خبر موت الدكتور خوبينال، وهم في أوج احتفالهم، وكان عسيرا جدا التحرك داخل الدار بسبب الزحام الشديد، ولكن فلورنتينو استطاع أن يشق لنفسه طريقا إلى غرفة النوم الرئيسية، وهناك وقف على أطراف أصابعه لكي يرى من فوق أكتاف هؤلاء، الذين يسدون باب الغرفة بأجسادهم، وأخيرا رأى خوبينال أوربينو ممددا على فراش الزوجية، يتمرغ في الموت، مثلما أراد أن يراه دائما، منذ أول مرة سمع من يتكلم عنه، ثم انتهى النجّار من قياس أطوال الدكتور خوبينال ليصنع تابوتا يليق به، وبجانب الدكتور المتوفى، ذابلة وذاوية وفي حالة ذهول، فيرمينا داثا بملابسها نفسها، التي وضعتها من أجل حضور الحفل قبل أن يتوفى زوجها، ملابس جعلتها تبدو كأنها جدة عجوز تزوجت للتو.

والحقيقة أن فلورنتينو أريثا تخيل هذا المشهد بحذافيره، وبكل تفاصيله مهما كانت تفاهتها، تخيله منذ أيام شبابه، التي كانت كلها من أجل حبه لفيرمينا. من أجلها كسب الشهرة والجاه دون أن يتوقف كثيرا عند كل وسيلة حقق بها مراده، من أجلها رعى صحته واهتم بها، من أجلها حافظ على مظهره الشخصي وبشدة حازمة لم تكن تبدو ذكورية المظهر بالنسبة لكثير من الرجال مهمة في ذلك الوقت، انتظر ذلك اليوم انتظارا لا مزيد عليه، انتظارا لم يكن فيه هدنة واحدة على الأقل. إدراكه بأن الموت أخيرا تدخل لصالحه، أشاع في نفسه الجرأة، التي يحتاجها كي يعيد عليها، فيرمينا داثا، في أول ليلة

من ترملها، قسمه بالإخلاص الأبدي لها، وبحبه الخالد.

هو لم يلم نفسه أنه قام بذلك دون أي تفكير أو ترو، حتى أنه لم يفكر لا متى ولا كيف، بل إنه تعجل خوفا من أن تضيع منه الفرصة، التي يمكن ألا تتكرر مرة أخرى أبدا. هو بالضبط أراد أن يكون هذا الموقف معها، وكم من مرة تخيله معها، وبشكل أقل فظاظة مما كان، ولكن وللأسف الشديد لم يرحمه حظه وقتها. خرج من بيتها، وفي داخله ألم أنه تركها في حالة الصدمة نفسها، التي هو أيضا فيها، ولكن ليس في الإمكان بأبدع مما كان، فهو يحس بأن هذه الليلة مكتوبة في قدرهما منذ أبد الآبدين.

مر أسبوعان بعدها لا يهنأ بنوم طبيعي كبقية الناس، يسائل نفسه في يأس أين تكون فيرمينا داثا بدونه، فيما تفكر هي ، ماذا ستفعل في بقية سنين حياتها، ومعها ما معها من هذا الخوف المريع، الذي بين يديها. في ذلك الحين عانى من أزمة إمساك شديدة سببت له انتفاخا في بطنه جعلتها تبدو كالطبلة، واضطر إلى اللجوء لأقراص وأدوية أقل شراسة من الحقن الشرجية. آلامه وأمراضه كرجل كبير في السن أصبح يستطيع تحملها بشكل أفضل كثيرا من غيره، وذلك لأنه أصلا يعاني منها منذ الصغر، ولكن إذا بها كلها جميعا تجتمع في الوقت نفسه، وفي يوم الأربعاء ذهب إلى مكتبه بعد أسبوع من الغياب، وجزعت ليونا كاسياني جزعا شديدا حين رأته في هذه الحالة من الشحوب والإهمال، ولكنه هدأها محتجا بأنه يعاني مجددا من الأرق، كما يقول لها دوما، ووجد مشقة بالغة كي يمنع لسانه من النطق بحقيقة قلبه، وكانت السماء وقتها يسقط منها المطر باستمرار دون أن يدع الشمس تظهر ولو هنيهة، ومضى عليه أسبوع آخر لم يكن طبيعيا أبدا ، أسبوع لم يستطع فيه التركيز في أي شيء، غذاؤه سيئ، ونومه أسوأ، يحاول أن يجد أية إشارة أو شفرة تدله إلى طريق الخلاص مما هو فيه، ولكن حين أتى يوم الجمعة عليه، إذا بهدوء عميم يجتاح نفسيته دون أي سبب، هدوء فسره بأن لا شيء جديدا سوف يحصل،

أن كل ما فعله في حياته كان لا طائل منه وأنه انتهى، فهذه هي النهاية. ومع ذلك، ففي يوم الإثنين حين وصل إلى بيته الكائن في شارع كايه ديه لاس بنتاناس، إذا به يجد رسالة طافية على الماء، الذي أغرق بهو دهليز بيته، وفي الحال تعرف على ذلك الخط العزيز المكتوب على المظروف المبلل، خط لم تستطع الحياة بأسرها أن تغيره رغم طول السنين، حتى أنه ظن بنفسه يشم تلك الرائحة الليلية الخاصة بورود الياسمين الذابلة، فأنبأه قلبه بكل شيء منذ أول وهلة، ها هي الرسالة، التي انتظرها على مدى نصف قرن من الزمان، دون لحظة واحدة من الراحة.

(٦)

لم تكن فيرمينا داثا تعلم بأن رسالتها هذه، المحملة بشحنات كبيرة من الغضب والحنق، سوف يأخذها فلورنتينو أريثا على أنها رسالة حب وغرام منها. هي حقا وضعت فيها كل ما في نفسها من غضب أحمر قانٍ بكل ما أمكنها ذلك، كتبت أسوأ وأقسى كلمات عرفتها، كل ما خطر على بالها من إهانات مشينة جارحة كتبته، إهانات كان منها الظالم الجائر بالطبع، والتي بدت لها أيضا قليلة جدا، وتافهة جدا بالنسبة لحجم الانتهاك الذي قام به فلورنتينو. رسالتها هذه كانت فعلة أخيرة منها من ضمن أفعال أخرى كثيرة كي تحصن نفسها خير تحصين من أحزانها على زوجها المتوفى، كانت تلك الرسالة كأنها ميثاق تصالح مع ما هي فيه من واقع جديد تماما عليها، فهى تود أن تكون ما كانت عليه هي نفسها، ودت أن تستعيد كل ما كانت فيه لنصف قرن من الخدمة، التي كانت سعيدة بها بلا أدنى شك، ولكن ما إن اختفى زوجها من حياتها، فإذا بها لا تدرك حتى معالم هويتها. لم تكن إلا كشبح في بيت آخر غير بيتها، بيت يوما بعد يوم يصير أكثر عزلة وكبرا في مساحته، بيت صارت فيه تنساق مع التيار أيا كان، وهى تسائل نفسها من هو الميت حقا فيهما: أهو زوجها، الذي مات فعلا، أم هي التي بقيت بعده على قيد الحياة.

لم يكن بإمكانها أن تتجنب إحساسا خفيا بالغيظ والحنق على زوجها لأنه تركها في خضم المحيط بلا أي معين، وكل شيء يخصه يستثير بكاءها: بيجامته الموجودة أسفل الوسادة، نعاله التي كانت دائما تبدو لها كأنها خاصة

بالمرضى، حتى ذكرى صورته المنعكسة على المرآة، حين كان يقوم بنزع ملابسه، بينما هي تمشط شعرها قبل النوم، رائحة جلده، التي طالما صممت على أنها رائحتها هي لوقت طويل بعد موته. كان يتوقف فجأة في منتصف أي شيء يفعله، ثم يخبط جبهته براحه يده في خفة، وذلك لأنه تذكر كلاما نسى إخبارها به. كان في كل لحظة تأتي على باله أسئلة كثيرة يومية هو الوحيد الذي يمكنه الإجابة عنها، وذات مرة قال لها كلاما لم تستطع فهمه حينها: إن الذين بُترت أعضاؤهم يحسون بآلام وتشنجات ودغدغة في سيقانهم، التي أصلا لم تعد موجودة، وهكذا تحس هي الآن، تشعر به، وهو أصلا غير موجود.

حينما استيقظت في أول صباح لها كأرملة، تقلبت على فراشها دون أن تفتح عينيها بعد، بحثا عن وضعية مريحة أكثر لها كي تواصل نومها، وفي هذه اللحظة بالذات أحست فعلا بأنه مات من أجلها. ذلك أنها حينئذ أدركت بأنه لأول مرة يقضي ليلته خارج البيت، ثم كان انطباعها الثاني، وهى أمام المائدة، انطباع شعرت به، ليس لمجرد أنها أحست بالوحدة، بل هي صارت وحيدة بالفعل، وإنما لأنه انطبع فيها يقين قوي بأنها إنما تأكل طعامها مع أحد غير موجود، وانتظرت ابنتها أوفيليا أن تأتي من نيو أورليانز، مع زوجها وبناتها الثلاث، ليحتلوا مكانهم مرة أخرى أمام المائدة، ولكن ليست المائدة نفسها، التي يأكلون أمامها دوما، وإنما أمام مائدة أخرى جديدة، أصغر حجما، وضعت في طرقة البيت، وفيرمينا أساسا كانت حتى ذلك الحين غير ملتزمة بأي مواعيد في الطعام. كانت تمر على المطبخ في أي وقت بمجرد أن تحس بالجوع، وهناك تضع الشوكة في هذه الحلة، وفي تلك، وتأكل شيئا قليلا من كل صنف ونوع دون أن تضع طعامها في أي طبق ، واقفة على قدميها أمام فرن المطبخ، تتحدث إلى الخادمات اللائي تحس معهن وحدهن بالراحة والتفاهم، ومع ذلك، رغم كثرة ما حاولت إلا أنها أبدا لم تستطع تجنب خيال

زوجها المتوفى، فأينما سارت وأينما مرت، لا بد أن تتعثر بشيء يذكرها به. كان طبيعيا جدا لمثل هذه الأشياء أن تثير مواجعها باستمرار، لهذا أرادت أيضا أن تفعل ما يمكنها كي لا تتمرغ في هذا الألم، وبهذا الشكل. لهذا اتخذت قرارا فظيعا بنفي أي شيء في الدار قد يذكرها بزوجها، وهذا هو الحل الوحيد، الذي خطر على بالها حينئذ كي تستطيع مواصلة الحياة بدونه.

وكان حلها هذا ما هو إلا كإبادة جماعية شرسة لكل ما يذكرها بزوجها، فابنها وافق أن يأخذ معه مكتبة والده كي تضع مكانها أدوات الخياطة ولوازمها، التي لم تمتلكها أبدا أيام زواجها. ومن ناحية أخرى، أخذت ابنتها معها الكثير من قطع الأثاث والتحف، التي بدت لها ملائمة كثيرا لبيعها في أحد المزادات في نيو أورليانز. كل هذا فعلا أراح فيرمينا داثا، ومع ذلك لم يفلح هذا لجعلها تدرك بأن ما اشترته، وهى في رحلة زفافها صارت آثارا عفا عليها الزمان، وضد تلك الدهشة الصامتة من قبل الخدم والجيران وصديقاتها المقربات اللاتي رحن يزرنها في تلك الأيام الحالكات، ضدهم جميعا، قامت بعمل محرقة في أرض قفر تقع خلف البيت، وهناك حرقت كل ما يذكرها بزوجها: ملابسه الفخمة، غالية الثمن، التي رأتها المدينة كلها منذ القرن الماضي، أحذيته الأكثر غلوا وأناقة، قبعاته التي كانت تشبهه كثيرا عما كانت تبدو في صوره، الكرسي الهزاز، حيث ينام قيلولته، والذي من عليه قام لآخر مرة في حياته كي يواجه موته المحتوم، والكثير جدا من أشيائه، التي كانت مرتبطة ارتباطا في حياته بهويته. قامت بهذا، وليس فيها سحابة شك واحدة، كانت متأكدة تماما بأن زوجها لو كان على قيد الحياة لسمح لها، وليس فقط لمجرد الوقاية والصحة العامة. ذلك أنه كثيرا ما عبر لها عن رغبته في أن يتم حرق جثته، ألا يُحبس في ظلام دامس دون أي بصيص من نور في صندوق من خشب الأرز، وطبعا منعها الدين أن تحرق جثته، بل إنها تجرأت على أن تطلب من المطران هذا الطلب، فكان رده بالنفي القاطع. الأمر ليس إلا خيالا

محضا، وذلك لأن الكنيسة لم تكن تسمح بوجود تلك الأفران المخصصة لحرق الجثث في مقابرنا، ولا حتى من أجل أية استخدامات أخرى بغرض الدين، ولم يخطر على بال أحد قط، إلا الدكتور خوبينال أوربينو، بناء مثل هذه الأفران، ومع هذا لم تنس فيرمينا ما كان يخشاه زوجها، ورغم ذلك الاضطراب العارم، الذي عمّ الساعات الأولى، إلا أنها استطاعت أن تأمر النجار بصنع فتحة في التابوت كي يدخل منها الضوء.

على كل، لم يُجدِ ما قامت به من حرق لكل أشياء زوجها الخاصة به، فسرعان ما عرفت بعد ذلك بأن ذكرى زوجها المتوفى أقوى كثيرا من تلك النار، كما سيبدو لها مع مرور الأيام، بل أسوأ، فبعدما أحرقت ملابسه، لم تظل فقط تحن إلى ما كانت تحبه منه، بل أيضا ظلت تحن إلى أقصى ما كانت تكرهه منه، مثل تلك الضوضاء، التي كان يفتعلها افتعالا لدى قيامه من النوم، والحقيقة أن ذكرياتها معه ساعدتها في تخطي فترة الحداد المريعة، وهى أصلا فوق كل هذا اتخذت قرارا لا رجعة فيه بأن تواصل حياتها، وتذكر زوجها كأنه لا يزال على قيد الحياة، فهى تعلم بأن مجرد استيقاظها كل صباح أمر يصعب تقبله للغاية، ولكن صعوبته في كل مرة تخف حدة يوما بعد يوم.

والحقيقة، أنها عند نهاية الأسبوع الثالث من وفاة زوجها، بدأت تتبين أول بصيص من النور والأمل، ولكن كلما زاد مقدار هذا الضوء، وبدأت تلك الغمامة تنقشع من حياتها، أدركت أكثر فأكثر أن ثمة شبح في حياتها لا يتركها لحظة في سلام، ولم يكن هذا شبح الشفقة، الذي طالما ترصد لها، وهى في حديقة «لوس إبانخليوس»، والذي طالما استحضرته في مخيلتها بشيء من الحنان، منذ أن كبرت في السن، وإنما كان شبحا بغيضا منفرا ذا سترة مريعة شبيهة بسترات الجلادين، وتلك القبعة، التي يضعها على صدره حين يحييها، شبح وقح غبي أثار فيها اضطرابا شديدا لدرجة استحال معها أن تصرف تفكيرها عنه، وهى منذ أن رفضته، حينما كان لديها ثمانية عشر ربيعا،

دائما ما تحس بأنها تركت فيه بذرة من الكراهية لم تفعل الأيام إلا أن رعتها ونمتها، ولذلك فهذا الشبح يعتمد على هذا الكره اعتمادا لا مزيد عليه، هي تكاد تشم هذه الكراهية من الهواء بمجرد أن تشعر بقرب وجود هذا الشبح، شبح مجرد رؤيتها له يثير فيها رعبا شديدا، يخيفها خوفا لدرجة أنها لا تجد أية علاقة بين فلورنتينو وبين هذا الشبح. وفي تلك الليلة، التي أعاد عليها ولاءه لها بالحب، بينما لا تزال تلك الورود الخاصة بعزاء زوجها تفوح منها رائحتها العطرة، في تلك الليلة لم تستطع أن تفهم إلا أن مثل هذه النزوة لم تكن مجرد الخطوة الأولى ممن تعلم حق العلم كم يدبر من انتقام شرير لها.

وإصرار وجود ذكراه في عقلها ما فعل إلا أن زاد من نار غضبها، فحينما استيقظت تفكر فيه، في اليوم التالي ليوم الدفن، استطاعت فعلا أن تنزعه من عقلها بإشارة واحدة من إرادتها القوية، ولكن دوما يعاودها الغضب، وسرعان ما أدركت أن رغبتها في نسيانه أقوى حافز يدفعها لتذكره، حينئذ تجرأت لأول مرة، بعد أن غلبها الحنين، أن تستحضر تلك الفترة الخيالية من الحب الوهمي. حاولت أن تتذكر كيف كانت الحديقة في ذلك الوقت، أشجار اللوز، المقعد الذي كان يجلس عليه ومنه أحبها، حاولت أن تستحضر كل ذلك لأن لا شيء من هذا موجود الآن، فكل شيء تغير تماما. أزيلت تلك الأشجار بما كان مفروشا تحتها من أوراق صفراء، وبدلا من ذلك التمثال، مكسور الرأس الخاص بأحد الأبطال، وضع تمثال آخر عليه لباس السهرة بلا أي اسم أو تاريخ أو أي سبب يبرر وجوده حتى، على قاعدة فخمة الشكل، ركب في داخلها أجهزة كهربائية خاصة بالحي، أما بيتها، الذي بيع منذ سنوات، فعاثت فيه يد التخريب والتدمير من قبل حكومة المحافظة، ولم يكن سهلا عليها أن تتخيل فلورنتينو أريثا، كما كان في ذلك الحين، خاصة أنه عليها تخيل هذا الفتى الصموت، العاجز تماما تحت المطر، هو نفسه هذا العجوز، الذي وقف أمامها دون أي اعتبار لحالتها، دون أي احترام لألمها، بل و ألم روحها بشدة

إهانته النارية، التي لا تزال تثير اضطرابا شديدا في تنفسها.

جدير بالذكر أن ابنة خالها إيلديبراندا سانتشيث زارتها في بيتها، بعد فترة قليلة من وجود فيرمينا في ضيعتها، حيث كانت تتعافى من تلك الأيام الكالحات بسبب السيدة لينش. جاءتها و بلغ منها العمر أرذله، سعيدة، سمينة الجسد، ومعها ابنها الأكبر، الذي كان كولونيلا في الجيش، مثل أبيه، ولكنه سُرّح منه بسبب تصرفه غير اللائق بقتله لعمال شركة زراعة الموز في سان خوان ديه لا سياناجا.

كلما رأيا بعضهما، يقضيان ساعاتهما يحنان إلى تلك الفترة، حيث عرفا بعضهما، وفي الزيارة الأخيرة لها، كانت إيلديبراندا أكثر حنينا من أي وقت مضى، ومتأثرة للغاية بما تنوء به من عبء الشيخوخة والكبر، ولهذا أحضرت معها، كشيء تستحضر به أيامها الحلوة، نسختها من الصورة التي التقطها لهما المصور البلجيكي في عصر ذلك اليوم، الذي فيه طعن الشاب خوبينال أوربينو كرامة وعزة نفس الشابة فيرمينا طعنة نجلاء، وأما النسخة، التي مع فيرمينا فضاعت، وأما التي مع إيلديبراندا فهى بالكاد تُرى، لأنها بليت وضاعت معالمها من شدة قدمها، ولكن كلتاهما استشفتا أنفسيهما في الصورة على حقيقتها: شابتان جميلتان، ولن يعودا كذلك إلى الأبد.

وبالنسبة لإيلديبراندا كان مستحيلا ألا تتكلم عن فلورنتينو أريثا، لأنها دوما ترى أن حظها من حظه. فهى تتذكره مثلما رأته أول مرة، حينما أرسلت أول تلغراف لها، ولم تستطع أن تنزع من قلبها أبدا ذكراها عنه بأنه مجرد طائر صغير حزين محكوم عليه بالنسيان، ومن ناحية فيرمينا، فإنها رأته لأكثر من مرة بعد ذلك دون أن تتبادل معه كلمة واحدة، ولم تستطع أن تفهم قط كيف يكون هذا هو أول حب لها.

وفيرمينا دوما تصلها أخبار عنه، كأي خبر لأي شخصية مهمة في هذه البلدة لا بد أن يصل إن عاجلا أو آجلا. الناس تقول إنه لم يتزوج لأن له عادات

مختلفة، ولكن هذا أيضا لم يلفت انتباهها، لأنها من ناحية لم تكن تهتم لما يقوله الناس من شائعات، ولأنه من ناحية أخرى، كثيرا ما يقولون مثل هذه الأخبار عن كثير من الرجال، الذين أصلا فوق كل الشبهات. على النقيض، بدا لها غريبا جدا أن يصر فلورنتينو كل هذا الإصرار على أبهته التصوفية، وتلك العطور الغريبة، كونه مصمما على هذا الغموض حتى بعدما شق له طريقا خاصا في حياته، طريقا مشرفا بالأحرى. لم يمكنها أبدا أن تظن أنه كان نفس الشخص، ودوما تندهش من إيلديبراندا حين تتنهد قائلة: «يا له من رجل مسكين! لا بد أنه عانى كثيرا»، وذلك لأنها دوما تراه لا يبدو عليه أي ألم ومنذ وقت طويل، فإنما هو كظل واختفى.

ومع ذلك، ففي تلك الليلة، حيث التقت به في السينما، في تلك الفترة، التي فيها عادت من ضيعة فلوريس ديه ماريا، ثمة شيء غريب حدث في قلبها، فهي لم تندهش كونه في صحبة امرأة، وسوداء أيضا، إنما أدهشها حقا أنه ما زال يحظى بصحة جيدة، يتصرف في خفة وطلاقة، ولم يخطر على بالها قط أنها ربما هي ، وليس هو من تغير، بعد ذلك الاقتحام الغادر من السيدة «لينش» لحياتها الخاصة، ومنذ ذلك الحين، ولأكثر من عشرين عاما ظل إحساسها نحوه فيه شيء من الشفقة، وليلة سهرها على زوجها الميت، لم يبدُ فقط وجوده لها أمرا طبيعيا، وإنما فهمت تصرفه هذا على أنه نهاية للحقد والضغينة: اعتذار ونسيان منه، ولكنها لم تتوقع أبدا أن يعيد أمامها بذلك الشكل الدرامي حبه، الذي بالنسبة لها لم يكن موجودا أصلا، وأيضا في عمر بالنسبة لها وله لم يتبق لهما شيء أساسا من الحياة لينتظرانه.

غضبها المميت منه ظل كما هو لم يُمس، حتى بعدما قامت بتلك المحرقة الرمزية لزوجها، بل إنه يزيد، ويتفرع أكثر فأكثر كلما شعرت بأنه لا يمكنها التحكم فيه، بل حدث ما هو أسوأ من هذا: فتلك المساحة، في عقلها من ذكرياتها عن زوجها، التي استطاعت أخيرا أن تطفئها، يغزوها شيئا

فشيئا مرج من أزهار الخشخاش حيث ذكريات فلورنتينو أريثا مدفونة هناك، وهكذا وجدت نفسها تفكر فيه دون رغبة منها، وكلما فكرت أكثر غضبت أكثر، وكلما غضبت أكثر فكرت أكثر، حتى صار أمرا لا يطاق أخرجها عن طورها. حينئذ جلست أمام مكتب زوجها، وكتبت إلى فلورنتينو رسالة من ثلاث أوراق حملتها بكل ما في عقلها من إهانات واتهامات مشينة، أحست بعدها بالراحة، رغم أنها قامت بأكثر تصرف غير لائق على مدار حياتها الطويلة.

وأيضا تلك الأسابيع كانت بالنسبة لفلورنتينو أريثا أسابيع احتضار، ففي الليلة، التي أعاد عليها حبه، هام على وجهه في الشوارع، التي بددها الظلام بددا، يسائل نفسه في خوف ماذا سيفعل بعدما جرح نمرا ظل نصف قرن من الزمان يحاصره، والبلدة كانت كلها في حالة طوارئ من السيول، التي انهمرت عليها انهمارا، وفي بعض البيوت تجد رجالا ونساء نصف عرايا يحاولون إنقاذ ما يستطيعون من هذا الطوفان المنهمر، حينها أحس فلورنتينو بأن تلك الكارثة، التي حلت بالجميع لها علاقة ما بكارثته هو، ولكن رغم هذا كان الهواء صافيا وديعا والنجوم تسطع في السماء ثابتة في مكانها، وفجأة ميز فلورنتينو من خلال هذا الهدوء، الذي عم جميع أركان المكان، ميز صوت الرجل نفسه، الذي سمعه هو وليونا كاسياني من قبل منذ سنوات في هذا المكان نفسه، وفي هذا الوقت، وإذا بي أنزل من الجسر غارقا في دموعي. هذه الأغنية بالذات كانت في تلك الليلة، ومن أجله هو وحده لها علاقة ما بالموت.

في تلك اللحظة أحس بشوق لم يحسه من قبل إلى أمه ترانسيتو أريثا، إلى كلماتها الحكيمة، وإلى رؤية رأسها، التي ملكت مزاح الناس جميعا بما تضعه من ورود ورقية عليها. دوما يشتاق إلى أن يكون في حماية امرأة حينما يجد نفسه مشرفا على الهلاك. لدرجة أنه مر على مدرسة أمريكا بيكونيا،

وحاول أن يحدد مكانها هناك من بين بقية الطلبة إلى أن وجد ضوءا يسطع من نافذة غرفتها، حينها ملك نفسه بقوة كي لا يجرفه تيار الجنون كجد محب لها، ويأخذ تلك الطفلة البريئة، التي لا زالت ندية بآثار النوم تفوح منها رائحة سرير الأطفال، من المدرسة في الساعة الثانية صباحا.

وفي الطرف الآخر من المدينة توجد ليونا كاسياني وحيدة، حرة، ومستعدة بكل تأكيد للاعتناء به والسهر عليه حتى في الساعة الثانية صباحا، بل وفي الساعة الثالثة صباحا، هي باختصار مستعدة له في أي ساعة يريدها، مستعدة لأن تمنحه عطفها في أية مناسبة تعصف به، ولو كان أنه فعل وذهب إليها، فهذه ليست أول مرة يلجأ إليها حين يدهمه الأرق والسهد، ولكنه يعلم بأنها ذكية للغاية، وأنهما يحبان بعضهما كثيرا، كي يبكي هو في حجرها ولا يخبرها بالسبب الحقيقي، وبعد تفكير طويل، هائما على وجهه في أرجاء المدينة المقفرة الخالية من الناس، خطر على باله أخيرا بأنه لن يجد راحته إلا مع برودينسيا بيتريه، المعروفة بالمترملة مرتين. حالها أفضل منه. تعارفا في القرن الماضي، وكف عن لقائها لأنها كانت مصممة كل التصميم ألا يراها أحد وهي على هذه الحال، نصف عمياء، على حافة الشيخوخة، ولكنه بمجرد أن تذكرها، إذا به يتجه فورا إلى بيته ويضع في كيس من أكياس السوق زجاجتين من خمر الأوبرتو وزجاجة مخللات، ثم اتجه مباشرة إليها دون أن يعرف حتى إذا كانت أصلا في بيتها، الذي تكون فيه دوما إذا كانت وحدها، أو لنقل إذا كانت أساسا على قيد الحياة أم ميتة.

الغريب أنها أبدا لم تنس ما كان بينهما من كلمة سر كي يدخل دارها، كلمة ظل يعرف بها نفسه في تلك الفترة، التي عاشا فيها على ظن أنهما لا زالا في عز شبابهما، بينما هما حقيقة عكس ذلك تماما. المهم، أنها فتحت له الباب بلا أي سؤال، والشارع كان وقتها غارقا في ظلام دامس، ومن الصعب جدا رؤية فلورنتينو بملابسه، التي كلها أسود في أسود، وقبعته المخيفة والشمسية،

التي تشبه شماسي مصاصي الدماء، معلقة على ذراعه، وهى أصلا ليس لديها بصر لتراه حتى لو كان المكان كله نور، ولكنها تعرفت عليه من وميض عمود النور، الذي انعكس على معدن نظارته، هو بالأحرى يبدو كأنه سفاح لا تزال يداه ملطختين بالدماء.

قالت له:

- ملجأ ليتيم مسكين.

وهذا كل ما استطاعت قوله، فقط لمجرد أن تقول شيئا، وهو استعجب كم كبرت وشاخت عن آخر مرة رآها فيها، وكان واثقا من أنها أيضا تراه بنفس انطباعه عنها، ولكنه هدّأ نفسه مفكرا بأنه بعد لحظة، حين يتعافى كلاهما من ذلك الانطباع الأولى الصادم، سوف لا يحس كل منهما بما فعلته به الحياة، ومرور الأعوام، بل وسوف يريان بعضهما على أنهما في شرخ الشباب مثل تلك الفترة، التي عرفا فيها بعضهما.

قالت له :

- أنت تبدو كأنك ذاهب إلى مأتم.

وفعلا مظهره كان هكذا، وهى أيضا ظلت رابضة عند نافذة بيتها منذ الساعة الحادية عشرة، مثل بقية سكان المدينة كلهم تقريبا، تتأمل أكبر وأفخم موكب رأته في حياتها منذ موت المطران ديه لونا. وقتها كانت تنام قيلولتها، وإذا بدقات عنيفة تهز الأرض هزّا، وفرق عسكرية هنا وهناك، وأناشيد جنائزية يعلو صوتها على صوت أجراس الكنائس الصاخب، التي ظلت تدق وتدق بلا توقف منذ اليوم الفائت، ورأت من شرفتها العساكر وهم على صهوة جيادهم بزيهم الرسمي المهيب، ورجال الدين، وطلبة المدارس، وعربات ليموزين طويلة سوداء اللون لا يرى من بداخلها، وعربات فارهة تجرها خيول على رأسها قبعات من الريش وأجسادها مغطاة بأغطية في لون الذهب، ثم التابوت، أصفر اللون، المغطى بعلم البلاد، موضوعا على هيكل

بعجلات من خلفه يظهر جزء من مدفع تاريخي، ثم أخيرا صف من عربات الخيل القديمة، ذات العجلات الأربع ، المكشوفة التي لم تزل موجودة من أجل المناسبات الملكية، وبمجرد أن مر ذلك الموكب المهيب أمام شرفة برودينسيا بيتريه، بعد الظهيرة بقليل، وإذا بطوفان من المطر ينهمر من السماء انهمارا، ليتفرق الموكب تفرقا، ويلوذ الكل بالفرار.

قالت حينئذ:

- يا لها من طريقة غريبة جدا للموت.

فرد عليها فلورنتينو:

- الموت لا يمزح أبدا.

ثم قال، وهو في غاية الحزن :

- خاصة في عمرنا هذا.

كلاهما كانا جالسين في تراس الدار، وأمامهما البحر الواسع مفتوحا على مصراعيه، يتطلعان إلى القمر، وقد تكاثفت حوله هالة من الضوء غطت نصف السماء تقريبا، ينظران إلى تلك الأنوار الملونة الصادرة من السفن البعيدة في الأفق، يستمتعان بذلك النسيم العليل، جميل الرائحة، نسيم ما بعد هبوط تلك العاصفة الجبارة، وكانا حينها يشربان من خمر الأوبرتو ويأكلان المخلل مع قطع من الخبز، الذي جلبته من المطبخ. كثيرا ما شهدا ليالي مثل هذه الليلة، بعدما ترملت ورحل أولادها، والحقيقة أن فلورنتينو أريثا وجدها في فترة كانت تستقبل حينها أي رجل يود مصاحبتها، وإن كانت تحدد صحبتها معه كأنه إيجار لعدة ساعات فقط، ولكنهما استطاعا أن يقيما بينهما علاقة جادة وأطول مما كان متوقعا.

ومع أنها لم تلمح له من قبل، إلا أنها تكاد تكون باعت روحها للشيطان كي يتزوجها فلورنتينو، فيكون بذلك الزوج الثاني لها بعد زوجها الأول، الذي مات. هي تعلم بأنه ليس بهين أبدا أن تخضع لمذلته، لتلك الحماقات كرجل

سوف يشيخ قبل أوانه، لهوسه الذي لا حد له، لجشعه في طلب كل شيء مقابل لا شيء منه، ولكن رغم كل هذا، ليس ثمة أي رجل ترتاح معه مثلما ترتاح مع فلورنتينو، فهو بالنسبة لها ضرورة أساسية في الحب. ولكن أيضا ليس هناك رجل أصعب منه، بحيث أنه لا يشعر بأي حب يكون نحوه، فإلى متى ينتهي إصراره بالحفاظ على نفسه من أجل فيرمينا داثا، ومع ذلك امتدت علاقتهما لسنين طويلة، حتى بعدما قام بتنسيق الأمور تنسيقا محكما كي تتزوج من وكيل تجاري كان يأتي البلدة ثلاثة شهور ويتركها ويرحل لثلاثة شهور أيضا، والتي ولد منها ابنة وأربعة أبناء، أحدهم وفقا لها، وكما حلفت له مرارا هو ابن فلورنتينو أريثا.

وظلا يتحادثان دون قلق من ناحية الوقت، فقد تعودا أن يتشاركا أرقهما منذ الشباب، فما بالك حين كبرا في السن، ورغم أن فلورنتينو دوما لا يتعدى كأسين في الجلسة، إلا أنه في هذه المرة لم يحس بأية راحة حتى بعد الكأس الثالثة، وإذا بالعرق يسيل منه أنهارا، فاقترحت عليه أن ينزع سترته، وصدريته، وبنطلونه، ولو أراد فلينزع كل ملابسه. فيا للعجب، فهما حقا يعرفان بعضهما عاريين بشكل أفضل مما يكونان بملابسهما، ولكنه قال لها إنه سوف يفعل إذا هي فعلت أولا، ولكنها رفضت، فمنذ فترة رأت نفسها في مرآة دولابها، وأدركت على الفور بأنه ليس لديها ذرة جرأة كي تتعرى أمام فلورنتينو أو أي أحد.

رغم الكأس الرابعة، لا يزال يشعر بحالة هيجان لم يعرف لها سكونا، فراح يتحدث عن ماضيه، وعن ذكرياته الحلوة، ذكريات كانت موضوع حديثه الأساسي منذ مدة طويلة، ولكنه راغب في أن يجد في ماضيه طريقا سريا ما يخفف عنه ولو قليلا، وهذا فعلا ما هو في حاجة ماسة إليه. يود لو يلقي بروحه من فمه، ثم حينما أحس بأول نور يبزغ في الأفق، إذا به يسألها، كأنه يطرح سؤالا عارضا: «ماذا ستفعلين لو اقترح عليك أحد ما الزواج، وأنت في هذه

الحالة، أرملة وفي مثل هذا العمر؟»، فضحكت ضحكة معوجة جديرة بامرأة عجوز مثلها، وسألته بدورها:

- أنت تقصد إذن أرملة الدكتور أوربينو؟

الحقيقة، أن فلورنتينو أريثا دائما ما ينسى أن النساء عموما يفكرن دوما في المعنى الخفي وراء السؤال أكثر من السؤال نفسه، وعلى الأخص بروديسنيا بيتريه، فهى أكثر من تفهم المعنى الخفي للكلام، وذهل للغاية كونها بهذه الدقة المرعبة، وآثر أن يتملص منها قائلا: «من أجلك أنت بالطبع»، فضحكت مرة أخرى قائلة: «ولا أمك نفسها، الله يرحمها، يمكنك أن تخدعها بنفس هذا الكلام»، ثم شجعته على أن يقول ما يود قوله بلا أي خوف، لأنه يدرك تماما أنه لا هو ولا أي رجل آخر سوف يوقظها الساعة الثالثة صباحا فقط من أجل شرب خمر الأوبرتو، وأكل الخبز مع المخلل. قالت له: «هذا فقط يحصل حين يود المرء أن يجد من يبكي معه»، فأحس حينها فلورنتينو بالانهزام، ولكنه قال لها:

- ها أنت تخطئين. أنا كل ما أريده هذه الليلة هو الغناء.

فقالت له:

- إذن، هيا نغني.

وبدأت تغني بصوتها العذب أغنية كانت شائعة جدا في هذا الوقت: يا رومانا، أنا بدونك لا حياة لي، وانتهت الليلة، فهو لم يجرؤ أن يغامر ويلعب بامرأة أثبتت له أكثر من مرة أنها حقا تعرف كل شيء، ولو كان خلف القمر، ثم خرج من بيتها، بعد أن تبدل حال المدينة بأسرها، هواؤها المشبع بشذى أزهار الأضاليا الخاصة بشهر يونيو، شوارعها أمامه كأنها حينما كانت في أيام شبابه، فها هن الأرامل المتشحات بالسواد يمشين في صفوف لحضور قُدّاس الساعة الخامسة، ولكنه تجنبهن وسار على الرصيف الآخر كي لا يرون دموعه، التي لم يعد يستطيع لها منعا، دموع لم يكن يحبسها فقط منذ

منتصف الليل، كما كان يظن، وإنما هي دموع محبوسة منذ واحد وخمسين عاما وتسعة شهور وأربعة أيام.

حين استيقظ، وجد نفسه فاقدا الإحساس بالوقت، ولا يعرف أين هو، وأمامه نافذة كبيرة ينهمر منها النور انهمارا، ثم سمع صوت أمريكا بيكونيا، وهى تلعب بالكرة مع الخادمات الشابات، حينها أدرك واقعه: هو الآن ممدد على سرير أمه، في غرفتها التي ظلت بعد موتها لا يمسها أحد، غرفة لا ينام فيها إلا في مرات قليلة جدا حين يدهمه الشعور بالوحدة المقلقة، وأمام السرير توجد تلك المرآة الكبيرة، التي جلبها من فندق السيد سانتشو، و كان يكفيه أن يرى تلك المرآة كي يرى صورة فيرمينا داثا منعكسة عليها، فهو يعلم بأن اليوم يوم السبت، لأنه اليوم الذي يأخذ سائقه فيه أمريكا بيكونيا في سيارته من مدرستها ويجلبها إلى البيت، وأدرك أيضا أنه نام دون أن يدري بنومه، نام وهو يفكر في أنه لا قبل له بالنوم، وأحلامه كلها كانت مزعجة بسبب تلك الرسالة الغاضبة من فيرمينا داثا، ثم استحم، وهو يفكر ماذا ستكون خطوته القادمة، ثم ارتدى أفخم ملابسه ببطء شديد ووضع العطر وصبغ شاربه الأبيض الحاد، وحينما خرج من غرفة النوم رأى من طرقة بيته في الدور الثاني تلك الإنسانة الجميلة بزيها المدرسي، التي كانت حينئذ تمسك الكرة بحركاتها الخلابة الرشيقة، التي كثيرا ما هزت مشاعره هزا في كل يوم سبت، ولكنه هذا الصباح لم تختلج له خلجة واحدة، وأشار لها أن تذهب معه، وقبل أن يصعد إلى السيارة قال لها دون داعٍ: «اليوم لن نقوم بتلك الأشياء الصغيرة»، وأخذها معه إلى محل الجيلاتي الأمريكي، الذي كان مزدحما حينئذ عن آخره بآباء يأكلون الجيلاتي مع أبنائهم أسفل تلك المراوح الكبيرة المعلقة في السقف. وطلبت أمريكا جيلاتي مكونا من عدة طبقات، كل طبقة لها لون مختلف، ووضعت جميعا في كأس كبير للغاية، وكان هذا النوع مفضلا جدا لدى الجميع والأكثر مبيعا لأنه تخرج منه أبخرة سحرية غريبة، أما فلورنتينو فقد طلب فنجانا من

القهوة السوداء وراح ينظر إلى الفتاة في صمت، بينما هي تأكل الجيلاتي بملعقة طويلة للغاية كي تستطيع الوصول بها إلى قاع الكأس، وفجأة قال لها دون أن يرفع عينيه عنها:

- سوف أتزوج.

فرمقته بعينين يشع منهما وميض الشك، بينما أمسكت ملعقتها في الهواء، ولكنها سرعان ما قالت له مبتسمة:

- أكذوبة. العجزة الصغار لا يتزوجون.

وفي عصر ذلك اليوم تركها عند باب مدرستها بالضبط قبل أن تدق الأجراس معلنة صلاة التبشير، بينما السماء ينهمر منها المطر مدرارا، وفي عناد وإصرار عجيبين، وذلك بعدما رأيا معا مسرح العرائس، الذي أقيم في إحدى حدائق البلدة، وأكلا السمك المقلي عند أحد المطاعم الموجودة عند اللسان البحري، وبعدما رأيا أيضا الحيوانات المفترسة الخاصة بالسيرك، وهى محبوسة في أقفاصها، والتي وصلت هناك مؤخرا، وبعدما اشترى لها كل أنواع الحلوى لتحملها معها إلى المدرسة، وبعدما تنزها بالسيارة المكشوفة في أرجاء المدينة لعدة مرات، وكل هذا كي تتعود هي على فكرة أنه الوصي المشرف عليها، وأنه ليس حبيبها، وفي يوم السبت وضع السيارة تحت إمرتها، فربما تود التنزه مع صديقاتها، ولكنه لم يكن يود رؤيتها، وذلك لأنه منذ الأسبوع الفائت أدرك بكل وعي كم فارق السن بينهما، وفي تلك الليلة قرر بأن يكتب إلى فيرمينا داثا رسالة تكون كلها اعتذارات، فقط لمجرد أنه أراد ألا يستسلم للواقع، ولكنه أجّل الكتابة إلى اليوم التالي، ثم كان يوم الإثنين، بعد ثلاثة أسابيع بالضبط من العواطف الفوارة، كان داخلا بيته وقد أغرقه ماء المطر، وإذا به يجد رسالة منها.

كانت الساعة حينها الثامنة ليلا. والخادمتان الشابتان وقتها غارقتان في النوم، وتركا مصباح الطرقة مضاءً، والذي يكون دوما مضاءً، وعبره يستطيع

فلورنتينو الوصول إلى غرفة نومه. هو يعرف أن عشاءه القليل، عديم الطعم موضوع على مائدة الطعام، ولكن رغم قلة الجوع في أحشائه، وبعد أيام من الأكل بأية طريقة تبخّر وتلاشى ما إن وجد تلك الرسالة التي هزت أركانه هزا. هو نفسه بذل جهدا جبارا كي يضيء نور غرفة نومه من أثر الارتجاف الشديد الذي أصاب يديه، ثم وضع الرسالة المبللة، وبهدوء مصطنع كان وسيلة خاصة جدا به كي يُهدئ من نفسه المضطربة، نزع سترته المبللة وعلقها على ظهر الكرسي، ثم نزع صدريته وطبقها جيدا ووضعها بعناية فوق السترة، ثم الرباط الحريري، أسود اللون، ثم الياقة الصناعية التي لم تعد موضة، ثم فك أزرار قميصه حتى خاصرته وأرخى الحزام كي يفسح لجسده المزيد من الهواء، وأخيرا نزع قبعته ووضعها عند النافذة لتجف، وفجأة أصابه هلع شديد، لأنه لم يتذكر أين وضع الرسالة، فهو نسى أنه وضعها على سريره، وكم اضطربت أعصابه أيضا حين وجدها أخيرا، وقبل أن يفتحها جفف المظروف بمنديل، وهو حريص كل الحرص ألا يمسح اسمه المكتوب بالحبر، وبينما هو يقوم بذلك إذا به يدرك أن سره العتيد هذا لم يعد بين شخصين، وإنما ثلاثة أشخاص على الأقل، فأيا كان من سيحمل هذه الرسالة لا بد وحتما أن يلفت نظره كون امرأة الدكتور أوربينو تكتب إلى رجل خارج مجتمعها، وبعد ثلاثة أسابيع من موت زوجها، بإلحاح منها بالطبع بعدم اللجوء للبريد، وبكتمان شديد بحيث أمرت ألا تسلم الرسالة يدا ليد، وإنما تنساب من أسفل باب داره كأنها مجرد تذكرة من شخص مجهول، ولم يكن مضطرا لأن يمزق المظروف الحاوي لرسالتها، ففتحة المظروف لم تعد ملتصقة بسبب تبلله بالماء، ولكن رغم هذا، فالرسالة التي بداخله جافة لم يمسها الماء: رسالة عبارة عن ثلاث أوراق، ليس مكتوبا في رأسها شيء، وموقعة بالحروف الأول من اسم أرملة الدكتور.

قرأها مرة واحدة بكل سرعة، وهو جالس على فراشه، قرأها، وهو يتوجس خيفة من لهجتها في كلامها أكثر من معاني كلماتها نفسها، وقبل

أن ينتقل للورقة الثانية سرعان ما أدرك تماما أنها رسالة الإهانات والسباب، التي كان يتوقعها منها، ثم وضعها بجانب الأباجورة المضاءة، وخلع حذاءه وشرابه المبلل، وأغلق ضوء الغرفة العام من مفتاحه الموجود على مقربة من بابها، وأخيرا نزع شاربه المستعار، وتمدد على فراشه دون أن يخلع بنطلونه وقميصه، وأسند رأسه على وسادتين كبيرتين يستعملهما كمسند لظهره حين يود القراءة، وهكذا راح يقرأ الرسالة مرة أخرى، حرفا حرفا، يدقق في كل شيء فيها كي لا تغفل عنه أي من تلك المعاني الخفية، التي تتضمنها الكلمات، وقرأ الرسالة لأربع مرات أخريات، إلى أن أحس بأن كلمات الرسالة أوشكت أن تفقد معانيها، وأخيرا وضعها بدون المظروف في درج الكومودينو، ونام على ظهره شابكا يديه أسفل عنقه، وظل أربع ساعات مثبتا نظره على المرآة، التي انعكست صورة فيرمينا عليها ذات مرة، ظل هكذا دون أن يطرف له جفن يتنفس كالموتى، بل أسوأ منهم، وفي منتصف الليل بالضبط ذهب إلى المطبخ، وأعد لنفسه تُرمسا كاملا من القهوة السوداء كأنها نفط خام، وأخذه معه إلى غرفته، ثم وضع طقم أسنانه في كوب من الماء المطهر، الذي دوما يكون موضوعا على الكومودينو لهذا السبب، ثم عاد إلى فراشه مرة أخرى، وبقى على الوضع نفسه لا يأتي بحركة واحدة كأنه قطعة من الرخام، ومن حين لآخر يتحرك لوهلة ليأخذ رشفة من قهوته، وظل هكذا إلى أن دخلت عليه الخادمة، ومعها تُرمس جديد مليء بالقهوة.

في تلك الساعة، كان فلورنتينو يعلم تماما ماذا ستكون خطواته القادمة. هو حقيقة لم يؤلمه سبابها، ولا تلك التهم الشنيعة الظالمة كل الظلم، تهم ربما تكون أسوأ ما واجهه في حياته، بذلك عرف شخصية فيرمينا داثا، وكم يكمن من خطر في دوافعها ونواياها. كل هذا لم يهمه، وإنما ما أهمه حقا أنها أخيرا بهذه الرسالة تعطي له الفرصة، والحق في الرد عليها، بل أكثر من هذا: إن الأمر كأنها تطالبه هي نفسها بالرد، وعلى هذا المنوال، فحياته تسير الآن

على الطريق، التي طالما خطط لها. كل شيء آخر إنما يعتمد عليه وحده، بل إنه مقتنع كل الاقتناع بأن جحيمه الخاص به، الذي عاشه لأكثر من نصف قرن ما زال يختزن في جوفه تجارب أكثر فتكا ووحشية، تجارب مستعد لمواجهتها مهما كان ألمها وفظاعتها، مستعد لمواجهتها بكل حب أكثر من المرات السابقة، وذلك لأنها التجارب الأخيرة.

بعد خمسة أيام من تسلمه رسالة فيرمينا داثا، بينما هو داخل إلى مكاتب الشركة، إذا به يحس بنفسه في فراغ شاسع عميق أمام الآلات الكاتبة، التي توقف عجيجها، الذي يشبه عجيج المطر المنهمر، عجيجها أقل لفتا للنظر عن هدوئها نفسه. ولم يكن الأمر إلا بعض راحة أخذها الموظفون، ثم حينما ارتفع عجيجها مرة أخرى، أطل فلورنتينو بوجهه من باب غرفة مكتب ليونا كاسياني، وراح يتأملها، وهى جالسة أمام آلتها الكاتبة، التي بدت كأنها تطيع ما تأمرها به أنامل أصابعها، وكأنها جزء بشري، وليست مجرد آلة، وليونا ما إن أدركت أنه يراقبها إذا بها تنظر نحو باب الغرفة، وارتسمت على شفتيها ابتسامة مشرقة، ولكن يديها لم تكفا عن الكتابة إلى أن أتمت الفقرة المطلوب كتابتها، وسألها فلورنتينو:

- قولي لي شيئا يا ليونا روحي: كيف سيكون شعورك لو أنك تسلمت رسالة مكتوبة بهذه الآلة؟

لم يكن منها إلا أن أبدت ذهولا خفيفا للغاية، هي التي لم تعد تذهل من أي شيء. قالت متعجبة:

- هيه يا رجل! انتبه أن ما تقوله لم يحدث لي أبدا.

ولهذا لم يكن لديها أية إجابة، وأيضا فلورنتينو أريثا نفسه لم يكن تفكيره هكذا حتى ذلك الحين، وقرر بأن يغامر للنهاية. فحمل معه إلى بيته آلة من الآلات الكاتبة الموجودة في الشركة وسط مزاح ودي من المرؤوسين، كانوا يقولون: «ببغاء عجوز لا يعرف كيف يتكلم»، وعرضت عليه ليونا كاسياني

في حماس أن تعطيه دروسا في الكتابة في البيت، ولكنه كان ضد أي تعليم منهجي منذ أن أراد لوتاريو ثوجوت تعليمه العزف على الكمان بالنوتة الموسيقية، مع تهديد بأنه سوف يحتاج إلى سنة على الأقل كي يبدأ فقط، وخمس سنوات لمجرد أن يكون عزفه مقبولا ليكون وسط أوركسترا محترفة، وسوف يستغرق حياته كلها وست ساعات يوميا ليتمكن فقط من العزف، ومع ذلك، أفلح فلورنتينو في إقناع أمه بشراء كمان له، هو الذي لا يعرف عنه شيئا ، وبما أعطاه لوتاريو من القواعد الخمس الأساسية في العزف جرؤ على أن يعزف في جوقة الكاتدرائية خلال مدة أقل من عام، بل واستطاع أن يوجه ألحانا له، من مكانه عند المقبرة الخاصة بالفقراء، إلى فيرمينا داثا حسب اتجاه الريح، وإذا كان هو أساسا تعلم شيئا صعبا وعسيرا للغاية كالكمان وعنده فقط عشرون عاما، فلماذا إذن سوف يصعب عليه وهو في السادسة والستين من عمره أن يتعلم شيئا مثل الآلة الكاتبة لا تحتاج إلا إلى أصبع واحد.

وهكذا كان أمره. احتاج إلى ثلاثة أيام كي يعرف موضع كل حرف من الآلة، وستة أيام أخرى ليتعلم التفكير والكتابة في نفس الوقت، وثلاثة أيام أخر كي يكتب رسالة دون أي خطأ، بعدما بدد نحو نصف رزمة من الورق. وضع في صدر رسالته، عنوانا لائقا وقورا هو: سيدتي، وأتمها ووقعها بعد ذلك بالحروف الأولى من اسمه، تماما كما كان يفعل أيام رسائله المعطرة، أيام شبابه، وأرسلها إليها عبر البريد في مظروف مزين برسومات حداد، شيء يليق بامرأة ترملت مؤخرا، ولم يضع اسم المرسل على ظهر المظروف.

رسالته هذه عبارة عن ست ورقات لم يكن لها أية صلة بما كان يكتبه من قبل، فليس فيها لا تلك النبرة ولا ذلك الأسلوب ولا حتى تلك البلاغة المؤثرة، التي كانت له، وهو في مقتبل حبه لها، موضوعها كان منطقيا جدا ومحسوبا للغاية، وتفوح منها رائحة الياسمين الحجازي بشكل يفاجئ من يقرأها. باختصار تلك الرسالة هي بالكاد كأنها إحدى الرسائل التجارية، التي

لم يستطع كتابتها من قبل. بعد سنوات، أصبحت كتابة رسالة شخصية بالآلة الكاتبة كأنه اعتداء وهجوم، ولكن لا زالت، في ذلك الحين، الآلة الكاتبة كأنها حيوان أليف في المكتب، ليس لها صفة محددة، وعموما أن يستخدمها المرء في أموره الشخصية لم يكن مقررا بعد بين الناس، لذلك فرسالته بالأحرى بدت كأنها شيء عصري حديث للغاية، وحتى فيرمينا نفسها فهمت الأمر كذلك، ففي رسالتها الثانية له بدأت بالاعتذار عما في خطها من تشوه، لأنها ليس عندها وسائل حديثة للكتابة أكثر من القلم الرصاص.

وفلورنتينو لم يشر إلى ما كان منها من ألفاظ جارحة في رسالتها له، إنما من البداية حاول أن يسلك طريقا مختلفا يغريها ويفتنها، بعيدا تماما عما كان بينهما من حب في الماضي، ولا حتى دون أية إشارة لأي ماضٍ، فإنما هي صفحة وألغيت، ولنبدأ صفحة جديدة. رسالته بالأحرى كانت تأملا عميقا في الحياة، أساسها أفكاره وتجاربه عن العلاقة بين المرأة والرجل، التي فكر ذات مرة أن يكتبها كملحق بكتاب «أسرار العشاق»، وفقط هو في هذه المرة غلف كلامه بأسلوب ديني وقور، بما لديه من ذكريات كرجل عجوز، كي لا تلاحظ هي أن الرسالة مجرد وثيقة حب ليس إلا. قبل أن يكتب هذه الرسالة كتب مسودات كثيرة لها على الأسلوب القديم، بمجرد أن يقرأها بمزاج بارد حتى يحرقها إحراقا بنار الشمعة، فهو يعلم بأن أي سهو منه هو وهى يعلمانه جيدا، يعلم بأنه ولو مجرد حنين طفيف للغاية قد يثير في قلبها حنقا شديدا ضد الماضي، ومع أنه أصلا مستعد لأن ترجع له هي مئات الرسائل منه قبل أن تجرؤ وتفتح الأولى، إلا أنه آثر ألا يحصل هذا ولو مرة واحدة، وعلى هذا فقد دقق تدقيقا شديدا في كل ما كتبه، وكأنه في المعركة الأخيرة: لا بد أن يكون كل شيء مختلفا تماما كي يثير عواطف ودوافع وآمالا كلها جديدة في امرأة عاشت حياتها كلها بالطول والعرض. لا بد أن تكون رسالة خيالية تفقدها رشدها، رسالة قادرة أن تدفع فيها جرأة تحتاج إليها كي تلقي في صندوق

القمامة كل النفايات الخاصة بطبقة اجتماعية هي أساسا لا تنتمي إليها بأي حال من الأحوال، ولكن انتهى أمرها إلى أنها صارت مقيدة بهذه الطبقة أكثر من أية امرأة أخرى. لا بد أن يعلّمها التفكير في الحب كأنه هبة وعطية من الله لا يأتي من وراءها أي شيء، حب هي غايته، حب ليس وسيلة أبدا لشيء.

من حسن الحظ أنه توقع أنها لن تجيبه على الفور، و كفاه جدا كونها لم ترجع رسالته إليه مرة أخرى، ولم يحدث أن أرجعت الرسالة، كما لم يحدث لما بعد ذلك من رسائله، وكلما مر يوم اطمأن أكثر وأكثر، فأن يمر يوم ولا ترجع هي رسالته ذلك معناه زيادة الأمل عنده، وكلما صارت أصابعه أكثر تمكنا في الكتابة على الآلة كتب رسائل أكثر. في البدء كان يكتب رسالة واحدة في الأسبوع، ثم اثنتين في الأسبوع، وأخيرا صار يكتب رسالة كل يوم. فلورنتينو نفسه كان سعيدا بنظام المراسلات في ذلك الوقت، حتى منذ عهد الرسام العظيم خوسيه ماريا إسبينوسا في القرن التاسع عشر، ذلك أنه لم يوجب عليه أن يخاطر وكل مرة يأتي خصيصا إلى وكالة البريد ويوميا ومن أجل نفس الشخص، ولا حتى مضطر إلى أن يبعثها مع أحد فيكشف سره. على النقيض، كان سهلا جدا أن يبعث بأحد موظفيه ليشتري له طوابع بريد تكفي لشهر بحاله، ثم بعد ذلك يقوم فلورنتينو بنفسه بوضع الرسالة في أحد الصناديق الثلاثة، الموزعة في أرجاء المدينة القديمة، وسرعان ما صار هذا الطقس جزءا من روتينه اليومي، فكان يستغل ساعات الفراغ الناتجة عن الأرق في كتابة الرسائل، وفي اليوم التالي، وهو متجه إلى مكتبه يأمر السائق بشكل عارض أن ينتظره دقيقة عند صندوق البريد الموجود في الزاوية، وينزل بنفسه من العربة، ويضع الرسالة، ولم يكن يسمح أبدا بأن ينوب عنه السائق في وضع الرسالة داخل الصندوق، كما عرض عليه ذات مرة في صباح أحد الأيام الممطرة، بل إنه كان يأخذ حذره للغاية، ويحمل معه أكثر من رسالة في الوقت نفسه فقط كي يبدو الأمر طبيعيا، وكل هذا والسائق نفسه لا يعلم

بأن تلك الرسائل الإضافية مجرد أوراق بيضاء لم يُخط فيها حرف واحد، رسائل كان فلورنتينو يوجهها إلى نفسه، ذلك أنه أصلا لم يكن يوجه رسائل خاصة لأحد غير فيرمينا، باستثناء رسالة تقريره كوصي على أمريكا بيكونيا، التي يرسلها كل آخر شهر إلى أبويها، وفيها انطباعه الشخصي عن تصرفاتها، ونشاطها وصحتها، وحسن سير دراساتها.

بدأ يرقّم كل رسالة منه منذ أول شهر، بل كان يضع في رأسها ملخصا للرسائل السابقة كأنه يكتب سلسلة قصصية في إحدى الصحف، وكل هذا خشية ألا تدرك فيرمينا ما بين الرسائل من صلة، وبعدما صارت رسائله لها يومية، استبدل بتلك المظاريف السوداء، جنائزية المنظر بمظاريف بيضاء طويلة، مما ترك في نفسهما انطباعا كأنه يقوم بإرسال رسائل تجارية. وحين بدأ الأمر فهو مستعد تماما لأن يمر بتجربة تهد جميع أركانه، على الأقل ألا يملك أي دليل أنه يضيع الوقت في الوسيلة الوحيدة، التي لا يملك غيرها. الحقيقة أنه انتظر وانتظر دون حزن وغم كما كان أيام شبابه، وإنما انتظر بإحساس العجوز الصلب، الذي ليس له إلا هذا الأمر ليفكر فيه، ليس أمامه ما يفعله إلا أن يتأكد بأن الشركة تسير كما يشتهي، وفي الاتجاه الصحيح، بل إنه بالإضافة لهذا مقتنع جدا بأنه في قمة النشاط والعنفوان والفحولة إلى أن اقتنعت فيرمينا أخيرا بأنها ليس أمامها إلا الخضوع له كأرملة تعيش في وحدة جسيمة.

بينما هو مستمر في أحداث حياته اليومية العادية، متوقعا منها ردا يكون في صالحه، راح من جديد يعيد بناء البيت كي يكون مكانا لائقا لمن ستكون صاحبته وسيدته في يوم من الأيام، وعاد مجددا يزور برودينسيا بيتريه، كما وعدها قبلا، ليبين حبه لها رغم كبر السن، بل وفي عز ضوء النهار والأبواب مفتوحة على مصراعيها، وليس فقط في الليالي، التي يحس فيها بالهجران والحزن، وأيضا واصل مروره على بيت أندريا بارون إلى أن وجد أخيرا نور حمامها مطفأ، وحاول حينها كيفما استطاع أن يندمج معها اندماجا في الفراش،

هو أساسا يفعل هذا كي لا يفقد عادة ممارسة الجنس، فهو لديه اعتقاد لم يُخِل به أبدا بأن الجسد يستطيع ويواصل ما دام المرء يواصل ولا ينقطع.

العثرة الوحيدة هي علاقته بأمريكا بيكونيا، وهو كل مرة يكرر على سائقه أن يأخذها من مدرستها في العاشرة صباحا كل يوم سبت من كل أسبوع، ولكنه لا يعلم ما يفعله معها في نهاية كل أسبوع. هو لأول مرة لم يهتم بالمجيء معها، وهى فعلا أحست بهذا التغيير منه. فأوصى الخادمات الشابات كي يأخذوها معهن إلى السينما في المساء، إلى المهرجانات العسكرية، التي تقام في حديقة الطفل، وحفلات اليانصيب الخيرية، أو مثلا يبتكر لها برامج جديدة للفسحة في كل يوم أحد بحيث تخرج مع زميلاتها في المدرسة، وكل هذا كي لا يأخذها إلى تلك الجنة السرية، التي تقع خلف مكاتب الشركة، جنة دوما تريد هي الرجوع إليها منذ أول مرة دخلتها. هو لم يدرك وسط ما كان فيه من خيال ضبابي مشوش أن النساء أساسا يصرن في قمة النضج خلال ثلاثة أيام فقط، وها قد مرت ثلاث سنوات منذ استقبالها وهى تنزل من السفينة الآتية من مدينة بويرتو بادريه، ورغم أنه فعل كل ما يمكن كي يحلّي هذا التغيير في عينيها، إلا أنها رأته شديد القسوة والوحشية، ولم تستطع أبدا أن تفهم أو تتخيل سبب هذا التغيير، وأصلا في اليوم الذي كانا فيه في محل الجيلاتي حين قال لها إنه سوف يتزوج، كاشفا لها جزءا من الحقيقة، أحست بصدمة شديدة، ولكن بدا الأمر لها منافِيا للعقل تماما بحيث نسته تماما، وسرعان ما أدركت أن أمر زواجه هذا واقع فعلا مما رأته من تصرفاته، ومن هروبه منها غير المبرر، وكأنه ليس لديه ستون عاما أكثر منها، بل أقل منها.

وفي عصر يوم من أيام السبت، وجدها فلورنتينو تكتب على الآلة الكاتبة الموجودة في غرفته، وكانت فعلا تكتب جيدا بما فيه الكفاية، فهى تتعلم الكتابة في مدرستها، و كتبت وقتها نحو نصف ورقة، ولكن ثمة بعض الجمل، التي منها عرف فلورنتينو ملخص حالتها النفسية بسهولة. حينها مال فلورنتينو

على كتفها ليقرأ ما تكتبه، فأحست باضطراب زلزل كيانها إثر ما شعرت به من دفء الرجولة، ونفسه المتقطع، ورائحة ملابسه، التي هي نفس رائحة وسادته. لم تعد تلك الطفلة الغريرة، التي عراها بنفسه قطعة قطعة، وهو يناغيها بتلك الكلمات، التي تقولها الأمهات لأطفالهن: من أول حذائها الصغير، لقميصها، والكلسون الصغير على شكل ورود، ثم قبلة صغيرة جدا جدا من أجل روح بابا، ولكن الآن، الأمر اختلف تماما، فهى الآن امرأة بحق وحقيق، ويحلو لها أن تأخذ المبادرة، فها هي الآن تواصل الكتابة بأصبع واحد من يدها اليمنى، وبيدها اليسرى راحت تتحسس ساقيه وتستكشفها إلى أن وجدت ما تريده، وإذا بها تحس بهذا الشيء تدب فيه الحياة مرة أخرى وينمو وينمو وتتأجج فيه الرغبة والقوة، وتحس بنفس فلورنتينو يتهدج ويتقطع. هي حقا تعرفه جيدا، فعند هذه اللحظة سوف يفقد السيطرة على نفسه، سوف يطير كل ما بقي فيه من عقل، وسيكون عبدا لها، ولن يهدأ إلا ريثما يصل إلى النهاية المرجوة، وفعلا أخذته من يده وقادته إلى السرير، وهو مستسلم لها تماما كأنه ضرير يعبر الشارع، وراحت بحنان خبيث تؤجج فيه الرغبة شبرا شبرا، فكأنها تلقي بقليل من الملح والفلفل والثوم والبصل وعصير الليمون وأوراق الغار، كأنها تضع كل هذا في إناء الرغبة المشبوبة لتتبلها وتطيبها إلى أن تستوي جيدا في حرارة الفرن، ولم يكن هناك أحد في الدار. الخدم خرجوا جميعا، والعمال والنجارون المسئولون عن تجديد الدار لا يعملون في يوم السبت، باختصار العالم كله الآن بين أيديهما، ولكنه حين شارف حافة الهاوية إذا به يستيقظ فجأة من تلك النشوة العارمة، وينحي يديها، ثم ينهض واقفا، ويقول لها بصوت أجش:

– احذري، نحن ليس بيننا بعد تلك الصغائر.

وظلت هي مستلقية بظهرها على الفراش مدة طويلة تفكر، إلى أن ذهبت لمدرستها قبل الموعد المضروب بساعة. أحست حينها بأن لا رغبة لها في البكاء، فكأنها حيوان مفترس شد من منخريه، وأظهر مخالبه الحادة مفتشا

عن هذا الأرنب، الذي أقلق حياتها وأربكها. لمرة أخرى يقع فلورنتينو في نفس الخطأ، فقد ظن وقتها أنها سوف تقتنع بعدم جدوى ما تهدف إليه، وأنها سوف تقرر نسيانه بلا عودة.

انتهى، لم يعد يشغل باله بأمر بيكونيا، وبعد ستة شهور، وبدون أية مقدمات، إذا به يجد نفسه يتقلب على فراشه إلى أن طلع الصباح، وهو غارق في صحراء شاسعة من الأرق والسهاد. فكر وقتها في أن فيرمينا داثا فتحت أول رسالة له، مجرد رسالة عادية بريئة الهدف، وما إن رأت الحروف الأولى من اسمه، التي تعرفها فيرمينا من رسائله القديمة، حتى ألقت بها إلقاءً في النار دون أن تكلف نفسها عناء تمزيقها، وهكذا يكفيها أن ترى كل مظروف يأتي منه كي تفعل به الشيء نفسه دون حتى أن تفتحه، وترى ما فيه، لا بد أنها ظلت تفعل هذا إلى آخر رسالة منه، حين أشرف هو على نهاية تأملاته. هو لم يكن يظن أنه ثمة امرأة في هذه الدنيا قادرة أن تكبح فضولها أمام نصف عام من الرسائل اليومية، ولا تعرف حتى ما لون الحبر، الذي كُتب به الكلام، ولكن إذا كان ثمة امرأة على وجه الأرض بقادرة على مثل هذه الفعلة، فليس هناك غير فيرمينا داثا.

حقيقة، كان هو يشعر بأن فترة الشيخوخة ليست مجرد تيار عابر، وإنما هي بالضبط كأنها خزان كبير حصل فيه ثقب ومنه تخر الذاكرة خرا. وقتها شعر كأن كل ما لديه من حيل نضب جميعا، وذلك بعدما أدرك أن جولاته الصبيانية حول بيت فيرمينا في حي لا مانجا لعدة أيام لم تفلح أبدا في فتح أبواب الدار المحكوم عليها بالحداد، وذات صباح، كان يبحث في دليل التليفون، إذا به يجد بالصدفة اسمها، وفعلا اتصل بها، ورن الجرس لأكثر من مرة، وأخيرا سمعها تقول في صوت حيادي جاد: «ألو»، فأغلق السماعة دون أن ينطق بحرف واحد، ولكن تلك المسافة الكبيرة جدا، التي تفصل بينه وبين صوتها هيجت فيه روحه المعنوية إلى أقصى حد.

في تلك الأيام، كانت ليونا كاسياني تحتفل بعيد ميلادها، ودعت إلى بيتها مجموعة ضيقة جدا من أصدقائها، وأثناء الطعام أوقع فلورنتينو على نفسه صلصة الدجاج، وقامت بتنظيف عروة سترته بفوطة مبللة بالماء، ثم وضعت عليه مريلة اتقاءً لأي سهو قد يحدث، وبقى وقتها كأنه طفل عجوز، ولاحظت أنه لأكثر من مرة خلال الطعام ينزع نظارته ليجففها من أثر دموعه، التي تسح من عينيه، وفي وقت شرب القهوة إذا بها تجده ينام وفنجان القهوة في يده، وحاولت أن تأخذ الفنجان من يده دون أن توقظه، ولكنه فجأة قال في خجل: «أنا فقط أريح عيني». في ذلك اليوم نامت ليونا على فراشها، وهى مستغربة أيما استغراب من علامات الشيخوخة والكبر التي بدأت تظهر عليه بقوة.

في الذكرى السنوية الأولى لموت الدكتور خوبينال أوربينو، قامت العائلة بإرسال بطاقات دعوى للجميع لحضور قُدّاس في الكاتدرائية ذكرى لروح الغائب، وفي ذلك الحين لم يتلق فلورنتينو منها أية إشارة بالمرة، وهذا ما دفعه إلى أن يتخذ قرارا لا رجعة فيه بحضور القُدّاس، رغم أن أحدا لم يدعه، والحقيقة أنه كان حدثا اجتماعيا شديد الفخامة والبذخ أكثر من كونه يهز المشاعر على روح الفقيد. المقاعد التي تحتل الصفوف الأولى كانت محجوزة للوجهاء، الذين يرث كل منهم الآخر لمدى الحياة، وكان على ظهر كل منها لوح من النحاس مكتوب عليه اسم الجالس، ووصل فلورنتينو مع أول من وصل من المدعوين كي يجلس في مكان بحيث لا بد أن تراه فيرمينا داثا، وفكر في أن أنسب مقاعد يجلس عليها لهذا الغرض هي التي تقع في المنتصف تماما من الكاتدرائية، التي تقع بجانب المقاعد المحجوزة في مقدمتها، ولكن الزحام كان شديدا بحيث أنه لم يجد أيضا أي مكان خالٍ هناك، واضطر إلى أن يجلس على مقعد من المقاعد المخصصة للأقارب الفقراء، ومن هناك رأى فيرمينا شابكة ذراعها بذراع ابنها، عليها رداء من القطيفة السوداء يغطيها حتى

يديها ليس عليه أي زينة أو حُلى، يشقه صف طويل من الأزرار من الرقبة إلى القدمين، بدت ثيابها حينها كأنها ثياب الكهنة، ووضعت عليها شالا فيه بعض التطريزات بدلا من القبعات ذات الطرح الصغيرة، التي عادة ما تضعها الأرامل، بل حتى تضعها نساء تتمنى الترمل. وجهها حينئذ بدا ناصع البياض كأنه المرمر، عيناها الحوراء في وادٍ آخر تماما، وهى تحت تلك الثريات الضخمة، التي تتوسط الكاتدرائية. تسير بين جموع الناس مرفوعة الرأس منتصبة الظهر، مالكة لنفسها بكل قوة، حتى لتبدو كأنها ليست أكبر من ابنها، وأما فلورنتينو أريثا، الذي كان واقفا على قدميه حينئذ فقد استند على ظهر المقعد، الذي أمامه بأطراف أصابعه إلى أن مر ذلك الدوار، الذي أحس به، وذلك لأنه شعر بأن ما يفصل بينه وبينها ليس مجرد ست خطوات، وإنما كأن كلا منهما يعيش في يوم آخر تماما.

وشهدت فيرمينا مراسم القُدّاس واقفة معظم الوقت على قدميها أمام مقعدها الموجود أمام المذبح، وعليها المهابة نفسها، التي تبدو عليها في كل مرة تحضر حفلات الأوبرا، ولكنها في الآخر كسرت كل القواعد، ولم تبقَ في مكانها لتلقي العزاء مجددا، كما هو معروف، وإنما شقت لنفسها طريقا بين جموع الناس لتشكر كل واحد منهم على حدة على حضوره الدعوة. باختصار قامت بفعلة جديدة تماما تلائم شخصيتها القوية، وراحت تسلم على هذا وذاك إلى أن وصلت للمقاعد المخصصة للأقارب الفقراء، وأخيرا نظرت حولها لتتأكد أنها لم يفتها السلام على أي أحد تعرفه، وأحس فلورنتينو وقتها كأن ريحا غير عادية سوف تقتلعه من مكانه، فأخيرا وقعت عيناها عليه، والحقيقة أنها حينئذ انفصلت عمن معها برشاقة وخفة واتجهت إليه مادة يدها، وقالت له، وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة حلوة عذبة:

- شكرا جدا على مجيئك.

هى لم تكن تتلقى رسائله فقط، بل كانت تقرأها بكل شغف واهتمام،

ووجدت فيها أيضا أسبابا حقيقية تدفعها دفعا للتفكير في مواصلة الحياة. حين تلقت أول رسالة منه كانت جالسة حينها أمام المائدة تفطر مع ابنتها، وفتحت المظروف بفضول شديد لما رأتها مكتوبة بالآلة الكاتبة، وإذا بحياء مفاجئ يعصف بوجهها ما إن قرأت الحروف الأولى من اسمه، ولكنها على الفور أخفت الرسالة في جيب المريلة، وقالت لابنتها: «إنها مجرد رسالة عزاء من الحكومة»، فدهشت الابنة وقالت: «غريبة! فقد وصلت رسائلهم جميعا»، حينئذ ردت عليها بكل ثبات: «تلك رسالة أخرى»، والحقيقة أن هدفها كان حرق رسالته بعد ذلك، بعيدا عن أسئلة ابنتها وفضولها، ولكنها لم تستطع أن تقاوم إغراء إلقاء نظرة سريعة على ما بداخل الرسالة. هي حقيقة توقعت ردا تستحقه على ما كان منها من إهانات وسباب، حتى أنها أحست بندم بمجرد أن بعثت رسالتها، ولكن منذ أن وقعت عيناها على عنوان رسالته النبيل، وبمجرد أن فهمت نواياه منذ الفقرة الأولى حتى أحست كأن شيئا ما في هذا العالم تغير. أحست بحيرة حتى أنها أغلقت باب غرفة نومها كي تقرأ رسالته في هدوء قبل أن تحرقها، وقرأتها ثلاث مرات دون توقف.

رسالته هذه تأملات في الحياة، والحب، والشيخوخة، والموت، أفكار كانت تحوم وترفرف فوق رأسها كأنها طيور ليليّة، طيور تتحول إلى كومة كبيرة من الريش إذا حاولت فيرمينا الإمساك بها. وها هي الآن هذه الأفكار أمامها واضحة كل الوضوح، بسيطة كل البساطة، مثلما ودت هي دوما، ومرة أخرى أحست بالألم أن زوجها ليس معها الآن ليشاركها هذه الأفكار، كما كانا يفعلان قبل النوم، وهما يتحاوران في أحداث يومهما. هذه المرة بدا لها فلورنتينو آخر غير الذي تعرفه، الآن تبدت لها بصيرة أخرى مغايرة تماما لما كان منه من رسائل محمومة أيام شبابه ومغايرة أيضا لشخصيته الغامضة، التي اتسم بها طيلة حياته. بالأحرى كلماته هذه كانت صادرة بحق من رجل كانت عمتها تظنه ينطق عن روح القدس، الأمر الذي أخافها مثل أول مرة خافت.

على كل، أكثر ما هدأها وأراح يقينها أن تلك الرسالة الآتية من هذا العجوز الحكيم ليس هدفها إطلاقا تكرار تلك الوقاحة، التي ارتكبها ليلة الحداد، وإنما هي على النقيض تماما، إنما هي طريقة نبيلة للغاية لمحو الماضي.

وما كان منه من رسائل إليها بعد ذلك هدأها وأراح نفسيتها، ولكنها كانت على كل حال تحرق رسائله بعدما تنتهي من قراءتها بكل اهتمام وشغف، تحرقها رغم أنها تحس بذنب لا تستطيع الفرار منه، ولما رأت أنه يرقم رسائله وجدت لنفسها مبررا معنويا يمنعها من إحراقها، والحقيقة أن هدفها في البداية لم يكن أن تحتفظ برسائله لنفسها، وإنما هدفها أن تحل المناسبة الملائمة لتردها إليه كي لا يُفقد أي منها، فإنها ترى أن هذه الرسائل فيها نفع عظيم للبشرية، وما كان إلا أن الزمن راح يمر ويمر والرسائل ما تزال تصل إليها، واحدة كل ثلاثة أو أربعة أيام على مدار سنة، وهى لا تعرف كيف ترجعها إليه دون أن تشعره بإهانة أو غضب، ودون أيضا أن تشرح له موقفها في رسالة إليه، فكرامتها تمنعها من الكتابة إليه.

سنة واحدة مرت عليها وتقبلت واقعها أخيرا كأرملة، وذكرى زوجها كانت عقبة أساسية في تصرفاتها اليومية وأفكارها الخاصة بها، بل ونواياها الأكثر بساطة، ذكرى استحالت إلى رقيب لها يرشدها دون مضايقتها. الحقيقة أنها كانت أحيانا تحس بزوجها كأنه من لحم ودم، كما تمنت دوما، وليس مجرد ذكرى، وشجعها يقينها بكونه موجودا معها هناك، أنه لا زال على قيد الحياة، ولكن بلا تلك النزوات، التي اتسم بها كرجل، بلا تلك الطلبات الدينية الغريبة، بلا ذلك الاحتياج المتعب منه بأن تبث حبها له بالقبلات العابرة والكلمات الحنونة، التي كان يعشقها هو. حقيقة هي في تلك الفترة تفهمه أكثر مما كان على قيد الحياة، تفهم حاجته إلى الحب، تفهم حاجته إلى أن يجد عندها الأمان، الذي هو بمثابة دعامته الأساسية في حياته العامة، والذي حقيقة لم يكن أبدا يحوزه. ذات يوم، شعرت بأنها بالفعل على حافة

اليأس، وإذا بها تصيح فيه بحدة: «ألا تدرك أبدا كم أنا تعيسة». حينها، نزع نظارته بأسلوب خاص به للغاية، ودونما أي اضطراب، وتبللت عدساتها بدموع شفافة تساقطت من عينيه الطفوليتين، وفي جملة واحدة ألقى عليها ما كان ينوء به من حمل عظيم من الحكمة: «تذكري دوما أن أغلى شيء في الزواج الهانئ ليس السعادة، وإنما الاستقرار»، وهى منذ أن ترملت وعانت من الوحدة فهمت أخيرا أن تلك الجملة، التي أخذتها وقتها على أنها نوع من التهديد، تلك الجملة إنما كانت كحجر كريم، من تلك الأحجار الجالبة للحظ، منحهما ساعات حلوة من السعادة والفرح.

كانت في رحلات كثيرة لها حول العالم، تشتري كل ما يلفت نظرها. أشياء دوما تود شراءها جريا وراء رغبة في نفسها كان دائما الدكتور أوربينو يحلو له أن يعتبرها رغبة منطقية، والحقيقة أنها كانت أشياء جميلة ونافعة، وهى في مكانها الأصلي، خلف الواجهات الزجاجية في روما وباريس ولندن، أو حتى في نيويورك، التي كانت حافلة برقصات الشارلستون العنيفة وبناطحات السحاب، التي بدأت تشق عنان السماء، ولكن عزف الفالس الخاص بإستراوس كان سيئا للغاية، والورود هناك تكافح لتصمد أمام حرارة الجو، التي تبلغ أربعين درجة مئوية، وهكذا عادت إلى البلد، ومعها ستة صناديق ضخمة طويلة، مصنوعة من الصفيح، أسود اللون، وأقفالها وزواياها مصنوعة من النحاس، فبدت كأنها توابيت للموتى. عادت إلى البلد سيدة ومالكة لكل عجائب وتحف الدنيا، التي رغم كل ذلك بدت لا تستحق كل هذا الثمن إلا في تلك اللحظة العابرة حين يراها أحد من المجتمع المحلي للمرة الأولى، ولهذا أصلا تم شراؤها كي يراها الواحد لمرة واحدة فقط، وبدأت تدرك فعلا علو مكانتها بين الناس واعتدادهم بها منذ وقت طويل، قبل أن تعجز وتشيخ، وكثيرا ما كانت تقول في البيت: «لا بد من إخراج الكثير من هذه الأغراض، فإنه لم يعد هناك موضع قدم للعيش في هذه الدار بسببها». حقيقة ما كان من

الدكتور أوربينو إلا أن يسخر من كلامها هذا، ومما تفكر فيه، فهو يعلم أن المساحات التي سوف تخلو في الدار سوف تُملأ من جديد بأغراض أخرى، وهكذا، ولكنها كانت تصمم، ففي الواقع لم يعد هناك أي مكان في الدار لوضع شيء آخر زيادة، وفي كل موضع من البيت تجد أشياء لا يوجد نفع حقيقي وراءها، مثل تلك القمصان المعلقة على مقابض الأبواب أو معاطف الشتاء الأوروبية، التي تجد دولاب المطبخ مزدحما بها، وهكذا، ففي صباح يوم من الأيام استيقظت بروح معنوية مرتفعة مقررة بأن تفرغ كل الدواليب والصناديق والغرف، التي تقع أسفل حنية السقف، ووقتها أقامت ضجة عارمة من أكوام الملابس المستعملة، والقبعات التي لم تستعمل أبدا لأنه لم تمر المناسبة اللائقة بارتدائها حين كانت موضة في ذلك الوقت، والأحذية، التي صنعها فنانون في أوروبا على نفس شكل الأحذية التي استخدمتها الملكات والإمبراطورات في حفلات تتويجهن، والتي الآن لم تعد لها أية قيمة في رأي سيدات المجتمع، لأن تلك الأحذية تشتري الزنجيات مثلها تماما في السوق ليمشين بها في البيت. طوال ساعات الصباح كان التراس الداخلي للدار في حالة طوارئ، وكان عسيرا للغاية أن يتنفس المرء في الدار بسبب تلك الرائحة النفاذة لمادة النفتالين المستعملة في حفظ الملابس من العثة، ولكن ما لبث أن عاد الهدوء للبيت خلال بضع ساعات، هي مرة واحدة رق قلبها لتلك الأقمشة الحريرية الكثيرة الملقاة على الأرض، حرير موشى بالذهب والفضة والكثير من التخاريم والتطريزات، رق قلبها أن تلقي بكل هذا، بالإضافة إلى ذيول الثعالب الزرقاء، في النار لتحترق.

قالت:

- ذنب عظيم أن نحرق كل هذا، بينما هناك الكثير من الناس لا يجدون ما يسد جوعهم.

وبهذا أجّلت هذه المحرقة، وفي كل مرة تؤجل وتؤجل، ولا يحدث فقط

إلا أن يتم تغيير أماكن الأشياء، من أماكنها الخاصة إلى الإسطبل القديم، الذي صار مستودعا لكل ما قل ثمنه، بينما الأماكن التي خلت وبقت فارغة بدأت تُملأ من جديد، مثلما كان يقول الدكتور أوربينو، بل إنها صارت مكتظة عن آخرها بأشياء تعيش فقط لحظة من الزمان، ثم تلقىً في الدولاب لتموت بلا رجعة، إلى أن تأتي عليها المحرقة القادمة. كانت تقول: «لا بد من إيجاد اختراع ما لتلك الأشياء التي لا نفع منها، وفي نفس الوقت لا يمكن التخلص منها»، وفعلا هذا ما حصل فقد أرعبتها تلك الشراهة الشديدة، التي كانت تنمو وتزداد بها تلك الأشياء، حتى كأنها تقوم بغزو على من في الدار من ناس، تعزلهم جانبا، إلى أن وضعتها فيرمينا جميعا في مكان لا تراها فيه. تلك الأشياء لم تكن منظمة كما كانت تظن هي ، وإنما لديها طريقة خاصة جدا، وفي غاية اليأس، لتسيطر على شكل هذه الأشياء، وهى أن تخفي اللانظام المسيطر على هذه الأشياء، وفي اليوم، الذي مات فيه الدكتور خوبينال أوربينو اضطروا إلى وضع نحو نصف ما كان في مكتبه جميعا في غرف النوم كي يفسحوا مكانا للسهر على الميت.

وحقيقة، كان فعلا مرور شبح الموت على البيت حلا تلك المشكلة، فعندما أحرقت ملابس زوجها، لم تضطرب، ولم تحزن، وصارت في كل فترة تحرق ما شاء لها أن تحرق من أشياء، القديم منها والجديد، دون أن تفكر حتى في كم الحسد، الذي أثارته في نفوس الأغنياء، ولا أن منها ما ينفع كخرق لهؤلاء الفقراء، الذين يموتون من الجوع، وفي نهاية المطاف قامت باقتلاع شجرة المانجو من جذورها، وبالتالي قضت على كل شيء كان لزوجها، فلا تجد ما يثير حزنها عليه، والببغاء أهدته إلى المتحف الجديد في المدينة. حينها فقط تنفست الصعداء، فها هو بيتها كما كانت تحلم به دوما، واسع وسهل وخاص بها وحدها.

وابنتها أوفيليا بقيت معها ثلاثة شهور، ثم عادت إلى نيو أورليانز، أما

ابنها فكان يحضر أسرته معه كل يوم أحد لتناول الغداء معها، وأحيانا خلال أيام الأسبوع العادية يحضر إليها إذا استطاع، وصديقات فيرمينا الأكثر قربا منها بدأن يزرنها بعدما تجاوزت أزمة الحداد على زوجها، وكن يلعبن معها الورق في فناء الدار المقفر ، يجربن طبخ وصفات جديدة من الطعام، بل كن في كل يوم يطلعنها على أسرار هذا العالم النهم، الذي لم تكن تعرف عنه أي شيء، والصديقة الأكثر التصاقا بها كانت لوكريسيا ديل ريال ديل أوبيسبو، شخصية من الشخصيات الأرستقراطية القديمة، لديها دوما صداقة قوية مع فيرمينا، والتي تقربت منها للغاية بعد موت زوجها الدكتور خوبينال أوربينو، ولما كانت لوكريسيا تحس بندم عظيم على حياتها، التي لم تعشها كما يجب، وبالحزن مما تعانيه من التهاب في المفاصل، فإنها لم تكن فقط السبب الرئيسي وراء وجود أفضل صحبة حول فيرمينا، وإنما كثيرا ما كانت تستشيرها في المناسبات الوطنية واليومية العادية، التي كانت حينئذ تقام في المدينة، مما أشعر فيرمينا بأهميتها الخاصة، وليس لأنها كانت تعيش تحت ظل زوجها، الذي قد مات، ومع ذلك، فاسمها صار مرتبطا باسمه منذ أكثر من أي وقت مضى، فلم يعد أحد يناديها باسمها العادي الذي ينادونها به دائما، بل بدأت تُعرف بأرملة الدكتور أوربينو.

الحقيقة أنها لم تفهم الأمر حينئذ، ولكن كلما اقتربت الذكرى السنوية لوفاة زوجها، أحست بأنها تلج ولوجا في عالم ظليل، منعش، كله هدوء وسكينة، باختصار كأنها دخلت غابة اللاعودة. وحتى ذلك الحين أيضا لم تكن واعية ولا مدركة، وعلى مدار شهور، بمدى المساعدة، التي قدمتها لها تأملات فلورنتينو أريثا كي تستعيد سلامها الداخلي. تأملات هي وحدها، بما تحوي من تجارب وخبرات، أعطتها المقدرة على فهم حياتها الخاصة كما يجب، وعلى احتمال أيام شيخوختها بكل هدوء، ولقاؤهما معا في الذكرى السنوية لوفاة الدكتور خوبينال أوربينو، أوحى لفلورنتينو أيضا بأنها بفضل

رسائله الملهمة صارت مستعدة لمحو الماضي محوا.

وبعد يومين، تلقت منه رسالة مختلفة تمام الاختلاف، رسالة مكتوبة بخط اليد على ورق من القماش، وموقعة باسمه بالكامل على ظهر الظرف. خطه كان نفس الخط، الذي كان به أيام شبابه، كلامه نفس الكلام العاطفي المؤثر، الذي اتصف به دوما، ورسالته لم تكن إلا فقرة واحدة بسيطة للغاية ردا منه على حسن تحيتها له حين كانا في الكاتدرائية، والحقيقة أن فيرمينا داثا ظلت تفكر في تلك الرسالة بمزيج من الحنين المضطرب، بل ولعدة أيام، ومدركة أيضا بأنها لا بد حين يأتي الخميس القادم سوف تسأل صديقتها لوكريسيا بشكل عارض إذا كانت تعرف فلورنتينو أريثا، صاحب البواخر النهرية، وهذا فعلا ما حصل، وأجابتها لوكريسيا بأنها فعلا تعرفه وأنه: «يبدو كرجل يحب مضاجعة النساء أينما حل»، وأعادت عليها ما تسمعه عنه بأنه لا امرأة على هذه الأرض إلا وعرفها، حتى أنه كوّن لنفسه مجموعة خاصة به، وأنه أيضا لديه مكتب سري يأخذ إليه الأطفال، الذين يقضون ليلتهم عند رصيف الميناء، والحقيقة أن فيرمينا داثا كثيرا ما سمعت عن هذه الأسطورة منذ أن وعت، ولم تكن أبدا تصدقها أو تعير لها أي اهتمام، ولكنها عندما سمعت هذه الأسطورة تعاد عليها بكل اقتناع من صديقتها لوكريسيا، هي المعروف عنها أيضا أنها كانت صاحبة رغبات شاذة في فترة من الفترات، فإذا بفيرمينا التي لم تستطع أن تكبح جماح رغبتها في وضع كل شيء في موضعه، فحكت لها أنها تعرف فلورنتينو أريثا منذ كان طفلا، وتذكر أن أمه كان لديها محل أدوات خياطة في شارع لاس بنتاناس، وأنها أيضا كانت تشتري القمصان والملاءات القديمة لتصنع منها قطع قماش تبيعها بعد ذلك كضمادات قطنية تنفع في أثناء الحروب الأهلية في البلاد، ثم أنهت كلامها قائلة بنبرة كلها تأكيد: «إنهم أناس شرفاء، كسبوا مالهم بعرق جبينهم»، والحقيقة أن فيرمينا كانت حادة للغاية في الدفاع عنه حتى أن لوكريسيا ما ملكت إلا أن قالت: «في الآخر أو

الأول، فإن كثيرا من الناس يقولون لي هذا أيضا»، وفيرمينا داثا نفسها لم تسأل روحها لماذا تدافع بكل هذه الشراسة عن رجل كان مجرد ظل في حياتها، والحقيقة أنها ظلت تفكر فيه، خاصة حين جاءها البريد ووجدت أنه لم يرسل لها بأي رسالة جديدة. مر أسبوعان من الصمت التام منه حين أتتها إحدى الخادمات الشابات توقظها من قيلولتها قائلة في صوت هامس:

- سيدتي، السيد فلورنتينو هنا.

ها هو أخيرا في بيتها، والحقيقة أن فيرمينا ذعرت وهلعت. فكرت في أن عليه أن يأتي في يوم آخر في وقت مناسب أكثر، وأنها ليست مستعدة لاستقبال أي أحد، وأنها لا تجد في عقلها ما سوف تتكلم فيه، ولكنها فورا ردت عليها، وأمرت خادمتها بأن ترشده إلى الصالة، وتقدم له فنجانا من القهوة، بينما تسوي من أمرها لاستقباله، والحقيقة أن فلورنتينو وقتها كان ينتظر لدى باب الدار، أسفل شمس الساعة الثالثة الحارقة مستعدا تماما لأن ترفض استقباله، حتى لو كان الأمر بحجة ظريفة لا تثير غضبا، ويقينه بأنها سترفضه جعله يحس بالهدوء، ولكن إذا به يفاجئ بموافقتها لاستقباله مما جعل نفسه تهتز هزا حتى النخاع، ولم يكن لديه أي وقت ليفكر في تلك المعجزة، التي يعيشها الآن، بينما هو يدخل إلى صالة الدار الظليلة المنعشة، وذلك لأن مصرانه فجأة امتلأ عن آخره بفقاعات مؤلمة تنتظر لحظة انفجارها المدوي، وجلس حينها لا يستطيع التنفس، تضغط عليه ذكراه لأول رسالة حب له حين وقع عليها براز أحد الطيور، وظل ساكنا تماما في مكانه لا يأتي بحركة واحدة إلى أن مرت الهبة الأولى من تلك الرعشات، التي اجتاحته اجتياحا، جلس مصمما كل التصميم أن تحدث أية مصيبة في هذه اللحظة إلا هذا المصير الأسود.

نعم، هو يعرف تلك الحالات تمام المعرفة، فرغم الإمساك المزمن، الذي يعاني منه، إلا أن أحشاءه خانته نحو ثلاث أو أربع مرات أمام الناس، والحقيقة أن هذه الثلاث أو الأربع مرات اضطر فيهن جميعا أن يستسلم،

ولهذا حين تمر به مثل هذه الظروف الغريبة البشعة كان حينها يدرك صدق مقولة سمعها ويكررها أمام الناس في شيء من السخرية والمزاح: «أنا لا أؤمن بالله، ولكني أخشاه»، فحين يحن القضاء ويقع في تلك المصيبة، ليس لديه وقت ليشك في الله، وإذا به يحاول أن يصلي أي صلاة يذكرها، ولكنه لا يجد صلاة يذكرها. حينها يبدو كأنه طفل صغير يردد بعض الكلمات السحرية ليصيب بها عصفورا ما: «انتبه، انتبه، لو ما ضربتك، سوف أفتش عنك في كل مكان». وتلك الجملة نفسها ظل يرددها حين كان فوق الجبل لأول مرة في حياته، ومعه مقلاع جديد ليصطاد به العصافير، والحقيقة أنه أصاب العصفور فعلا ووقع على الأرض، ولهذا فكر في أن هذه الجملة لها سحر ما، ولهذا كان يقولها في تأثر شديد كأنه فعلا يصلي، ولكن بالطبع لم تفلح في شيء البتة، والتواء كهذا في الأمعاء حتى أنها لتبدو بالضبط كأنها زنبرك حلزوني الشكل، إذا به فجأة ينهض من مقعده، وهو يحس بأن هذه الغازات في كل مرة تزداد حجما وكثافة وألما، حتى لكأنها تئن أنين من تريد الخلاص، وحينها أحس بنفسه غارقا في عرق بارد لا نهاية له، حتى أن الخادمة، التي حملت إليه القهوة أصابها هلع من وجهه، الذي بدا كوجوه الموتى، فقال لها متنهدا: «إنه الحر فقط»، ففتحت النافذة ظنا منها بأنها بذلك تجامله وتريحه، إلا أن شمس الأصيل نفذت بكل أشعتها إلى الدار لتلفح وجهه لفحا، واضطروا أن يغلقوا النافذة مرة أخرى، وحينها أدرك تماما بأنه لا يمكن أن يتحمل دقيقة أخرى، وإذا بفيرمينا داثا تظهر من بين الظلام تكاد لا تُرى، وخشى أن تراه وهو في مثل هذه الحالة.

قالت له:

- يمكنك أن تنزع سترتك.

وما كان يؤلم أكثر مما يعانيه في مصرانه هو خشيته أن تسمع أحشاءه، وهى تزوم تطلب الخلاص، ولكنه مع ذلك استطاع أن يصمد لحظة أخرى

ليقول لها أن لا، إنه مر على بيتها فقط ليسألها متى يمكنه زياراتها، فردت عليه، وهى واقفة حيرانة: «لا تقلق، ها حضرتك هنا»، ودعته للجلوس في تراس الدار، حيث تكون الحرارة أقل، ولكنه رفض في صوت خافت أحست هي كأنه يتنهد في شفقة. قال:

- أرجوكِ أن تؤجلِي موعدنا للغد.

وتذكرت هي أن غدا هو الخميس، اليوم الذي تأتي فيه لوكريسيا لزيارتها، ولكنها قالت له بلا رجعة: «زرنا غدا في الساعة الخامسة»، وشكرها فلورنتينو، وودعها في سرعة حانيا لها قبعته، وانصرف دون أن يأخذ رشفة واحدة من القهوة. وبقيت هي في منتصف الصالة في حيرة واستغراب، لا تفهم هذا الذي حدث لها للتو إلى أن تلاشى تماما أزيز سيارة فلورنتينو، ولم يعد له أي صوت. حينئذ بحث فلورنتينو عن الموضع الأكثر راحة في المقعد الخلفي، ثم أغلق عينيه، وأرخى عضلاته، واستسلم أخيرا لإرادة جسده. من يراه يحسبه كأنه يولد من جديد، أما السائق فلم يندهش، ولم يبدر منه أي استغراب بعد سنين طويلة من الخدمة، ولكنه حين فتح لفلورنتينو باب السيارة بعدما ركنها أمام البيت، قال له:

- كن حذرا يا دون فلورو، ما حدث يبدو كأنه من أعراض الكوليرا.

ولم تكن أعراض الكوليرا ولا شيء، وإنما هو هذا الاضطراب الذي يعانيه دوما حين يقابل فيرمينا، وكان يوم الخميس في الساعة الخامسة بالضبط يحمد الله من كل قلبه، بينما الخادمة تقوده عبر الصالة المعتمة إلى تراس الدار، حيث وجد هناك فيرمينا تنتظره، وبجانبها منضدة صغيرة مهيأة لفردين، وسألته إذا كان يود أن يشرب الشاي أو الشوكولا الساخنة أو القهوة. واختار هو قهوة ساخنة، وقوية للغاية، بينما هي أمرت خادمتها قائلة: «أما أنا، فأحضري لي ما أطلبه دوما»، وطلبها الدائم هذا ما كان إلا نقيعا من أنواع مختلفة من الشاي الشرقي، الذي كان يشيع فيها الدفء والحماس بعدما تستيقظ من قيلولتها،

وحينما انتهت من نحو قدر بحاله من نقيع الشاي الخاص بها، وهو شرب نحو جرة كاملة من القهوة، كان كلاهما قد فتحا وأغلقا أكثر من موضوع، مواضيع لم يتطرقا إليها لأنها فعلا تهمهما، وإنما لأنهما أرادا أن يتجنبا بهذه المواضيع الخوض في مواضيع أخرى لم يكن كلاهما يتحلى بالجرأة الكافية لخوضها، والحقيقة أنهما كانا خائفين، لا يعلمان ما يفعلانه بعيدا عن فترة شبابهما في تراس مبلط ببلاط أبيض وأسود كرقعة الشطرنج لبيت لم يعد ملكا لأحد، ولا تزال رائحة ورود المأتم تفوح فيه. الحقيقة أنهما لأول مرة يكونان على مقربة بهذا الشكل، وكل هذا الوقت ليتأمل كل منهما الآخر في هدوء، وبعد نصف قرن، والحقيقة أيضا أنهما رأيا بعضهما كما هما عجوزان يحوم حولهما شبح الموت، ولا شيء مشترك بينهما إلا ذكراهما لماض سحيق لم يعد ملكهما وإنما ملك لشباب آخرين، ربما يكونون أحفادهما. كانت تفكر في أنه سوف يقتنع أخيرا بعدم واقعية أحلامه، وبالتالي فلا حاجة إلى أن تكون وقحة معه.

ولكي تجنب كليهما أي صمت يكون غير مريح أو مواضيع غير مرغوب فيها، ظلت تسأله أسئلة صريحة عن عالم البواخر النهرية، والأمر الذي لا يصدق أبدا، وهو أن مالك الشركة لم يكن سافر سوى مرة واحدة فقط، بل ومنذ سنوات طويلة، حينما لم يكن لديه أي علاقة بالشركة، وهى لم تكن تعلم ما سبب ذلك، أما هو فجاهد بشدة كي لا يقول لها الحقيقة، وهى أيضا لم تعرف النهر ولا سافرت عبره وكان زوجها من قبل يشاركها النفور من مناظر الهنود الحمر، ويخفي نفوره بحجج مختلفة، منها مثلا: مخاطر السفر على علو مرتفع مما يضر بالقلب أو التعرض لالتهاب في الرئة، نفاق الناس ورياؤهم، والظلم الواقع من الحكومة المركزية على البلاد. وهكذا عاشت كل هذه السنين، وجابت نصف العالم دون أن تعلم أي شيء عن بلدها، وحاليا توجد طائرة مائية «جانكيرس» تسافر من بلدة إلى بلدة عبر نهر ماجدالينا، كأنها جرادة من الألومنيوم، تتسع مساحتها لطيارين وستة ركاب وأجولة

البريد. وقال فلورنتينو أريثا معلقا: «هذه الطائرة كأنها صندوق الموتى يطير في السماء»، وهى نفسها أصلا قامت بأول رحلة في المنطاد الكروي، ولم تحصل أثناء طيران المنطاد أية مفاجأة أربكتها، ولكن هي آخر واحدة قد تفكر في أنها سوف تجرؤ وتخوض غمار نفس المغامرة مرة أخرى. قالت: «الأمر مختلف». باختصار أرادت أن تقول أنها من تغيرت، وليست وسائل السفر فقط، التي تغيرت.

أحيانا تفزعها أصوات الطائرات. رأتها تطير على علو منخفض للغاية، وهى تقوم بمناورات بهلوانية، في الاحتفال بمرور مائة عام على وفاة المحرر العظيم سيمون بوليفار، وإحدى هذه الطائرات كانت سوداء تماما كأنها نسر أسود كبير للغاية، مرت فوق بيوت حي لا مانجا تكاد تدك سقوف بيوتها دكا، وأخيرا انخلع جزء من جناحها حين اصطدمت بإحدى الأشجار القريبة، وإلى الآن لا تزال تلك القطعة معلقة بين كابلات الكهرباء، ومع هذا، فما حدث لم يؤثر على فكرتها الأساسية عن الطائرات ووجودها. ولم تجرؤ حتى أن تركب إحداها حتى عندما ذهبت إلى خليج مانثانيو، حيث تهبط الطائرات هناك على سطح الماء، بعدما تفزع لنشات الحماية قوارب الصيد وزوارق الرحلات، التي يزداد عددها في كل مرة لتفسح للطائرة مكانا للهبوط، وحتى وهى في هذه السن الكبيرة اختاروها كي تستقبل الطيار العظيم كارليس ليندبيرج بالورود بعد رحلة طيران شاقة، ووقتها لم تفهم كيف لطائرة أن تحمل مثل هذا الرجل الوسيم الضخم، كيف لتلك العلبة الصفيح المنبعجة أن تحمل مثل هذا الرجل وتطير به، والتي يدفعها ميكانيكيان من ذيلها كي تتحرك وتطير، وحتى فكرة أنه ثمة طائرات أكبر قليلا يمكنها أن تحمل ثمانية أشخاص كانت بالنسبة لها فكرة غيرة منطقية ، وعلى النقيض، سمعت أن البواخر النهرية من الممتع السفر فيها، لأنها لا تهتز مثل السفن البحرية، ولكن أيضا لها عيوبها ومخاطرها، مثل الشواطئ الرملية، وهجمات قطاع الطرق.

وحكى لها فلورنتينو أريثا أن كل هذه المخاطر مجرد محض خيال وأساطير كانت تخص الماضي البعيد، فالبواخر الحالية يوجد فيها صالة للرقص، وغرفها واسعة للغاية، وشديدة الترف والبذخ كأنها بالضبط غرف الفنادق، ملحق بها أيضا حمام خاص ومراوح كهربائية، ومنذ الحرب الأهلية الأخيرة لم يعد هناك أي هجوم مسلح على تلك البواخر، كما حكى لها أيضا، في نبرة فيها كثير من الاعتزاز والفخر بنفسه، أن هذا التقدم الملحوظ يرجع فضله كله لحرية الملاحة، التي وفر لها كل سبل الحماية، وبالتالي صارت هناك منافسة شريفة، فبدلا من شركة واحدة فقط للبواخر النهرية، كما كان في الماضي، صار هناك ثلاث شركات للملاحة النهرية كل منها في غاية النشاط والازدهار، ومع ذلك، فالتطور السريع للطائرات خطر كبير على الجميع. حاولت أن تهدئه قائلة: إن البواخر ستظل موجودة إلى الأبد، لأنه ليس ثمة مجانين كثر كي يحشروا أنفسهم في آلة كهذه ضد الطبيعة بشكل صارخ، وأخيرا كلمها فلورنتينو عن تقدم وسائل البريد، تقدم بلغ وسائل النقل، وأيضا طرق التوزيع، وذلك في محاولة منه ليدفعها للكلام عن رسائله هو، ولكنه لم يفلح.

ورغم ذلك، فلم يمر وقت قليل إلا والموضوع يأتي من جديد وبمفرده، فبعدما ابتعدا تماما عن موضوع الرسائل، إذا بالخادمة تقاطع كلامهما لتعطي فيرمينا رسالة حديثة جاءتها في تلك اللحظة عبر البريد المدني الخاص، الذي أنشئ حديثا، والذي يستعمل نفس أسلوب توزيع التلغرافات على الرسائل العادية. وحينها لم تستطع العثور على نظارة القراءة، وهذا ما يحدث لها دوما. بينما فلورنتينو هادئا كل الهدوء، ثم قال لها:

- لست في حاجة إلى النظارة، فهذه الرسالة مني أنا.

وفعلا كانت رسالته هو، فقد كتبها أمس، وهو في غاية من الإحباط واليأس لأنه لم يستطع تجاوز هذا الخجل العظيم من أول لقاء فاشل معها،

وكان في هذه الرسالة يعتذر عن وقاحته حين أراد زيارتها دون إخطار مسبق منه، ويعتذر عن رغبته في زيارتها مرة أخرى. كتب الرسالة، ثم وضعها في صندوق البريد دون تفكير، وحينما بدأ يفكر فيها كان الأوان قد فات ليستعيد رسالته، ومع ذلك، لم يكن الأمر في حاجة إلى كثير من الشرح، فطلب منها ألا تقرأ رسالته.

قالت له:

- بالطبع. فالرسالة في الأول والآخر ملك صاحبها، أليس كذلك؟

فوافق على كلامها، وقال:

- نعم، هكذا الأمر، ولهذا فحين يكون ثمة خصام ما، تُرجع الأشياء إلى صاحبها.

ورغم ذلك تغاضت عن كلامه، وأعطته الرسالة قائلة: «إنها حقا لمأساة أنه لا يمكنني قراءتها، لأن رسائلك السابقة نفعتني كثيرا في الواقع»، فتنفس الصعداء، مندهشا من كونها قالت بطريقة بديهية للغاية أكثر مما كان يتمنى وينتظر، وقال لها: «لا تعرفي كم أنا سعيد بسماع مثل هذا الكلام»، ثم غيرت موضوع الكلام، ولم يستطع أن يستأنفه مرة أخرى.

وودعها، بعدما تجاوز الوقت الساعة السادسة وبدأوا يضيئون أنوار البيت، ودعها، وهو يحس بأنه أكثر ثقة من ذي قبل، ولكن دون أن يخلو ذهنه تماما من الخيالات والأوهام، فلا زال يذكر شخصيتها المتقلبة المتغيرة وردود أفعالها غير المتوقعة البتة، حينما كانت لا تزال تبلغ من العمر عشرين عاما، ولم يكن وقتها ثمة أي سبب يجعلها تتقلب بهذه الطريقة، ولهذا جرؤ أن يسألها بتواضع صادق إذا كانت تسمح له بزيارتها في يوم آخر، فكانت إجابتها، التي أذهلته:

- تعال في أي وقت تشاء. أنا دوما أعاني من الوحدة.

وفعلا زارها بعد أربعة أيام، تحديدا يوم الثلاثاء، وأيضا دون أن ينبئها

مسبقا، ولم تنتظر هي الشاي، وإنما راحت تحدثه عن كم الاستفادة التي نالتها من رسائله لها، فرد عليها أن تلك الرسائل حقيقةً ليست رسائل بالمعنى المعروف، وإنما هي كورقات اجتثت من كتاب ما راق له أن يكتبه قبلا، فوافقته وقالت إنها أيضا فهمتها بهذا الشكل، ولهذا فإنها تفكر في إرجاعها له، إذا كان هذا لا يغضبه، ليستغلها في هدف أعلى وأرقى، وواصلت حديثها عن رسائله كيف كانت نعم العون لها في محنتها، التي تعيشها الآن، قالت له هذا في غاية من الحماس والامتنان والتأثر، حتى أن فلورنتينو جرؤ وخطا خطوة إلى الأمام، خطوة مميتة بالأحرى.

قال:

- لنا زمان في الماضي كان كلانا يحدث الآخر بضمير المخاطب أنت.

الماضي، كلمة أساسا ممنوع التفوه بها. حقيقة، هي وقتها أحست بملاك الماضي الوهمي يمر أمامها، وحاولت جهد المستطاع تجنبه، ولكنه قطع شوطا آخر، وقال في تصميم: «أنا أقصد في رسائلنا السابقة»، فامتعضت، وجاهدت حتى لا يلاحظ ما طرأ عليها، ولكنه لاحظ فعلا، وأدرك بأنه كان ينبغي الخطو إلى الأمام بشكل أكثر رفقا وحساسيةً عما فعل، رغم أن غلطته هذه عرفته بأنها لا تزال شرسة الطباع مثلما كانت في شبابها، كل ما في الأمر أن أسلوبها اختلف قليلا وصار أكثر عذوبة.

قال لها:

- أنا أقصد أن هذه الرسالة مختلفة تماما.

فأجابته قائلة :

- كل شيء في دنيتنا هذه يتغير.

فقال لها:

- إلا أنا، وماذا عنك؟

حينئذ أمسكت بفنجان الشاي بيدها لا هي تضعه على المنضدة ولا هي

ترشف منه، ثم نظرت إليه نظرة تقدح بالشرر، وأخيرا استطاعت أن تتجاوز قسوتها قائلة له:

- الأمر سيان، فهأنذا بلغت الاثنين والسبعين عاما.

صار كمن تلقى طعنة في قلبه، وود حينها أن يرد عليها ردا غريزيا سريعا كأنه السهم، ولكنه أحس حينئذ بوطأة سنين عمره بصورة لم يحسها من قبل، فهو في حياته لم يشعر من قبل بهذا التعب من مجرد حوار عابر قصير، مثل الذي دار بينهما، أحس بأن قلبه ينز ألما، وكل كلمة منها كانت كأنها ضربة معدن قوية صداها يتردد في شرايينه. أحس في هذه اللحظة بأنه فعلا شاخ، أحس بالحزن كما لم يحس به من قبل، أحس بأنه إنسان لا نفع منه ولا فائدة. هو في هذه اللحظة لم يعد يستطيع الكلام، وود لو يبكي، وكل منهما أنهى فنجانه الثاني في صمت مشبع بنذير شؤم، وحينما تكلمت لم يكن إلا لتطلب من الخادمة أن تأتي لها بملف الرسائل، وأوشك أن يقول لها أن تحتفظ به لنفسها، فهو لديه نسخة من تلك الرسائل، التي كان يكتبها على ورق كربون، ولكنه على الفور فكر في أنه من غير اللائق قول مثل هذا الكلام، ولم يتبق شيء آخر ليقولانه، وقبل أن يودعها، ألمح إليها برغبته في زيارتها في الثلاثاء القادم في الوقت نفسه الذي أتي فيه، حينئذ سألت نفسها إذا كان مجاملة له أم لا.

قالت له:

- أنا لا أفهم معنى هذه الزيارات.

فرد عليها قائلا:

- ولا أنا فكرت أن لها أي معنى.

وفعلا زارها في الثلاثاء التالي، بل وظل كل ثلاثاء من كل أسبوع يزورها دون إخطار مسبق منه، فبعدما تم شهرين من الزيارات الأسبوعية لها صارت هذه الزيارات الأسبوعية شيئا روتينيا عاديا في حياتها، وكان يحمل إليها

البسكويت الإنجليزي من أجل الشاي، ثمار الكستناء، الزيتون اليوناني، وكل ما يقع في يديه من تحف وأشياء جميلة يجدها في تلك السفن العابرة للمحيطات يجلبه إليها، وفي يوم من أيام الثلاثاء إذا به يعطيها نسخة من تلك الصورة الفوتوغرافية، التي تحويها هي وإيلديبراندا، والتي صورها لهما ذلك المصور البلجيكي منذ نحو نصف قرن، وتلك الصورة اشتراها هو مقابل خمسة عشر سنتا في مزاد من المزادات الخاصة بكروت البريد في «البورتال ديه لوس إسكريبانوس»، ولم تفهم فيرمينا حينها كيف وصلت تلك الصورة إلى هناك، ولا حتى هو فهم الأمر، إلا أنه فسره على أنه معجزة من معجزات الحب، وذات صباح بينما كان يقطف بعض الورود من حديقته، أحس برغبة شديدة، لا يستطيع كبحها، بأن يحمل وردة إليها في زيارته القادمة، والحقيقة أن لغة الورود مشكلة عصية بالنسبة لامرأة ترملت حديثا، فالوردة الحمراء هي رمز لعاطفة متوهجة، وبالتالي تعد إهانة واعتداء، وهى ما تزال في حداد على زوجها أصلا، والوردة الصفراء تعد تعبيرا عن تمني التوفيق والصواب، ولكنها بشكل عام بين الناس تعبير عن الغيرة. وذات مرة سمع من يحدثه عن الورود السوداء الخاصة بتركيا، والتي ربما تكون هي المبتغاة ليهديها إليها، ولكن كيف له أن يحصل عليها إذا كانت أصلا لم تتأقلم على جو فناء البيت الخاص به، وبعد تفكير طويل، غامر واختار الوردة البيضاء، التي لا يحبها كغيرها من أنواع الورد، وذلك لأنها حقيقة لا يوجد أي معنى وراءها، هي بالأحرى وردة صماء خرساء، وفي اللحظة الأخيرة نزع عنها شوكها، كي لا تؤول فيرمينا وجود الشوك بأي معنى خبيث.

ورحبت فيرمينا بالورد الأبيض أيما ترحيب، اعتبرتها هدية ليس وراءها أي هدف خفي، وبالتالي كان الورد إضافة أخرى لطقوس يوم الثلاثاء، وبمجرد أن يصل بيتها ومعه الورد، تكون هي أعدت زهرية ممتلئة بالماء وتضعها في وسط المنضدة الصغيرة. وفي يوم من أيام الثلاثاء، وهو يضع

الورد في الزهرية قال بطريقة تبدو عارضة غير مقصودة:

– في الماضي لم تكن ورود بيضاء فقط، وإنما كانت لا بد أن تكون ورود الكاميليا.

فردت عليه قائلة:

– هذا صحيح، ولكن النوايا كانت غير النوايا، وحضرتك تعلم قصدي جيدا.

لا عجب فيما قالته، فهو دوما يحاول أن يخطو خطوة إلى الأمام، لتقوم هي بخطوة إلى الخلف، ولكن في هذه المرة، رغم إجابتها الدقيقة للغاية، أدرك فلورنتينو بأن ما قاله أصاب الهدف، وذلك لأنها التفتت برأسها كي لا يلاحظ ما اعتراها من حمرة الخجل. خجل شبابي شديد الحمرة، نابض بالحياة، لدرجة أنها حنقت على نفسها، واحتاط فلورنتينو جيدا بأن أدار دفة الكلام إلى مواضيع أخرى أكثر خفة، ولكن لباقته هذه لاحظتها هي أيضا، مما زاد من حنقها أكثر وأكثر. الحقيقة أن هذا الثلاثاء كان يوما أسود، فقد كانت على وشك أن تطلب منه ألا يعود لزيارتها مرة أخرى، ولكن فكرة أن يدخل كلاهما في عراك كالذي يدور بين الحبيبين، وهما في مثل هذه السن، خاصة من أجل موقف كهذا، بدت لها فكرة مضحكة للغاية، وفي يوم الثلاثاء التالي، حين وضع فلورنتينو الورد في الزهرية، إذا بها تختبر نفسيتها نحوه، واكتشفت بسعادة أنها لا تحمل له أية ضغينة مما دار منه في الأسبوع الماضي.

وسرعان ما بدأت زياراته لها تكتسب نوعا من الطابع العائلي، فقد كان ابنها الدكتور أوربينو داثا وزوجته يظهران في البيت بالصدفة، ويبقيان معهما للعب الورق، وحقيقة لم يكن فلورنتينو يعرف اللعب بالورق، ولكن فيرمينا علمته قواعد اللعبة كلها في زيارة واحدة، حتى أنهما بعثا لابنها وزوجته بتحديهما لهما في لعب الورق يوم الثلاثاء القادم، وكانت لقاءات جميلة بالنسبة للجميع، وسرعان ما صارت رسمية مثلها مثل الزيارات، وصار

لها قواعد يساهم فيها كل واحد منهم، وعادة ما كان يأتي الدكتور أوربينو وزوجته، التي كانت تجيد طبخ الحلوى، ومعهما «تورتات» الفاكهة المحلية في كل مرة يكون شكلها مختلفا عن المرة السابقة، وواصل فلورنتينو جلب كل ما هو ظريف وغريب مما يلاقيه في السفن الآتية من أوروبا، وصارت فيرمينا تنتظر منه مفاجأته بفارغ الصبر، أما لعب الورق، فكان كل ثالث يوم ثلاثاء من كل شهر، ولم يكونوا يتراهنون على مال معين، ولكن الخاسر يفرض عليه أن يساهم بشيء ما من أجل المباراة القادمة.

والدكتور أوربينو داثا كان فعلا من الداخل كما يبدو أمام الناس، فهو رجل قليل النفوذ، له بعض التصرفات الطائشة، يعاني من تقلبات مفاجئة، أحيانا تكون سعادة، وأحيان أخرى تكون امتعاضا وضيقا، كما له نوبات من الخجل تعتريه في أوقات غير مناسبة أبدا ، حتى أن البعض كان يخشى على سلامة عقله، ولكنه، بما لا يدع مجالا للشك، كان يتصف بتلك الصفة، التي كثيرا ما يخشى فلورنتينو أن يخلعها أحد عليه، رجل يصلح للوساطة في الزواج، وهذا فعلا ما لوحظ عليه من أول نظرة، أما زوجته، فعلى العكس تماما، نشيطة، فيها من تلك الحيوية، التي يتصف بها عوام الناس، حيوية تلائمها للغاية، مما يضفي على شخصيتها نوعا من الأناقة، وبالتالي ليس ثمة زوج أفضل منهما للعب الورق، كما صارت الحاجة الملحة لحب فلورنتينو أمرا عائليا عاديا.

وذات ليلة، حين خرج كلاهما من البيت، دعاه الدكتور أوربينو داثا لأكل الغداء معه: «سوف أنتظرك غدا في الساعة الثانية عشرة والنصف تماما في النادي الاجتماعي»، والدعوة بالنسبة لفلورنتينو أريثا كأنها مائدة فخمة جدا، وفي الوقت نفسه معها مشروب كحولي ، فما زال ذلك النادي مقيدا بنفس الشروط نفسها ولأسباب مختلفة، ومن أهم هذه الشروط شرط ألا يدخله أحد من الأبناء غير الشرعيين، وعمه ليون الثاني عشر لديه تجارب مريعة في

ذلك النادي، والأمر نفسه بالنسبة لفلورنتينو حين أخجلوه بإخراجه من النادي بمجرد أن جلس أمام المائدة بدعوة من أحد الأعضاء العاملين، وهذا العضو نفسه، الذي طالما استفاد كثيرا منه بخصوص التجارة النهرية، اضطر أن يعزمه في مكان آخر غير النادي.

قال له:

- من وضعوا تلك الشروط المجحفة للنادي هم أنفسهم أكثر الناس التزاما بها.

ومع ذلك، غامر فلورنتينو، ولبى دعوة الدكتور أوربينو داثا وقوبل بحفاوة شديدة، رغم أنهم لم يطلبوا منه توقيع اسمه في الكتاب الذهبي المخصص للنبلاء من المدعوين، وكان الطعام بسيطا، يكفيهما فقط، ومرت اللحظات في هدوء تام، وتلك المخاوف التي اعترت فلورنتينو منذ ليلة أمس تبددت ما إن رشف من نبيذ الأوبرتو الفاخر، وأراد الدكتور أوربينو أن يحدثه عن أمه، ولكثرة ما حكى له، عرف فلورنتينو أنها حكت له عنه، بل لنقل أنها أذهلته، فقد كذبت على ابنها لصالح فلورنتينو. حكت له أنهما كانا صديقين منذ الطفولة، وكانا يلعبان مع بعضهما منذ أن جاءت من بلدتها «سان خوان ديه لا سياناجا»، وحكت أيضا أنه هو أول من ساعدها في قراءتها الأولى، ولهذا فهى تحمل له شعورا قديما بالامتنان، بل حكت لابنها أيضا أنها كثيرا ما خرجت من مدرستها إلى والدته تقضي معها ساعات طويلة في التطريز في دكان الخياطة، فقد كانت أمه شديدة المهارة، وأنها إذا كانت لم تعد تراه كثيرا كما كان من قبل، فذلك لا يرجع لرغبتها، وإنما لأن ظروف الحياة فرقت بينهما تفريقا.

وقبل أن يصل الدكتور أوربينو إلى هدفه الرئيسي من هذه الدعوة، راح يلقي كلاما أجوف عن الشيخوخة. هو يفكر في أنه لو لم يكن هناك كبار السن، لما تأخر العالم في تقدمه. قال: «إن البشرية تماما مثل جيوش الحرب،

يكون سيرها بمن يكون الأبطأ فيها، وليس الأسرع»، ولهذا فهو يتوقع أن يكون المستقبل أكثر إنسانية، وبالتالي أكثر مدنية، حيث سينعزل البشر في مدن مهمشة، لا يستطيعون تقدير قيمتهم فيها، كي يتفادوا الخجل والمعاناة والوحدة المرعبة للشيخوخة، وهو من وجهة نظره كطبيب فإن الحد الأقصى هو سبعين عاما، وأيضا فالحل الوحيد حتى يأتي هذا المستقبل المتمدن، هو إقامة دور للمسنين حيث يعزي فيه المسن زميله المسن، يتوافقان على ما يحبونه، وما يكرهونه، وما هو في نظرهما رذيلة، وما هو في نظرهما محزن، هذا غير كراهيتهما لما أتى بعدهما من أجيال. قال: «العجزة حين يكونون بين عجزة، يكونون حينئذ أقل عجزا».

وبعد كل هذا الهذر، أخيرا قال لفلورنتينو أنه يود شكره على صحبته لوالدته في عز محنتها كأرملة، وترجاه بأن يواصل زيارته لها من أجل راحتهما، وترجاه أيضا بأن يتحلى بالصبر لما يبدر منها من تلك التصرفات الخاصة بكبار السن، وحينها أحس فلورنتينو براحة عظيمة. قال له: «كن هادئا. أنا أكبر منها بأربع سنوات، ولست أكبر منها حاليا فقط، وإنما أنا أكبر منها سنا منذ زمن سحيق، قبل أن تولد حضرتك بوقت طويل»، ثم قال له منهيا كلامه بمزيج من سخرية لم يستطع كبحها:

- ما سوف يحدث بين أناس المستقبل، أن حضرتك يوما ما سوف تضطر للذهاب إلى المقبرة لتحضر لي ولها باقة من ورد الأنثوري نضعه على مائدة الطعام.

ولم يفطن الدكتور أوربينو داثا للمعنى الخبيث، الذي يقصده فلورنتينو وراء هذا الكلام عن المستقبل، معنى زواجه من فيرمينا، وإذا به يسلك ممرا ضيقا من التأويلات والتفسيرات لم تنته به إلى أي شيء، ولكن فلورنتينو أريثا أشفق عليه وخلصه مما فيه. الحقيقة أنه كان وقتها يحس بفرح عظيم، فهو يعلم أنه إن عاجلا أو آجلا سوف يكون له لقاء مثل هذا مع الدكتور أوربينو

داثا كي يوافق له على طلب اجتماعي ملح لا يمكن تفاديه، وهو طلبه الرسمي ليد والدته. أحس بدفعة عظيمة من الحماسة، بعد تلك الدعوة، ليس فقط لكونها دعوة من ابن الدكتور خوبينال أوربينو، وإنما لأنه اكتشف أن هذا الطلب العسير ليد أمه في المستقبل سوف يقابل بكل ترحيب وسهولة، وآه لو كان وقتها أخذ موافقة فيرمينا داثا، فلا وقت أفضل من هذا ليعرض عليه طلبه، بل إنهما بعد ما دار بينهما من حوار شيق خلال تلك الدعوة التاريخية، لم يعد طلبه بعد ذلك في حاجة إلى الالتزام بالشكليات وقيودها.

جدير بالذكر أن فلورنتينو حتى هو وشاب يصعد السلالم وينزلها في بطء وتأن وحرص شديد، وذلك لأنه دوما يظن أن الشيخوخة تبدأ منذ أول زلة قدم على سلم من السلالم، ويكون الموت متربصا في زلة القدم الثانية، وأكثر السلالم، التي كان يخشاها هي سلالم الشركة لخطورتها الشديدة في نظره، لعلوها وضيقها الشديد، ولهذا، فهو منذ مدة طويلة جدا يأخذ كل حذره كي لا تزل قدميه، فكان يحسب كل درجة من درجات السلم جيدا ويتشبث بالدرابزين بكل قواه، وكثيرا ما ألمحوا إليه بتغيير سلالم الشركة بسلالم أقل خطورة، ولكن في كل مرة يؤجل قرار تغييرها للشهر القادم، ذلك أنه يرى في هذا التغيير اعترافا بالعجز والشيخوخة، ومع ذلك، ففي عصر ذلك اليوم، الذي عاد فيه من دعوة الغداء الخاصة بالدكتور أوربينو داثا، بعد كأس خمر الأبورتو الشهي، ونصف قدح من النبيذ الأحمر، بعد تناول الطعام، وبعد ذلك الحوار الممتع، وما أحرزه من تقدم وانتصار، إذا به يحاول صعود الدرجة الثالثة من السلم بخطوة راقصة شبابية للغاية لوت كاحل قدمه، وعلى أثرها سقط على ظهره، ورغم ذلك لم يمت. الحقيقة، أنه في لحظة سقوطه أدرك بما فيه الكفاية بأنه لن يموت من تلك السقطة، وذلك لأنه من المستحيل تماما في هذه الدنيا لرجلين عشقا المرأة نفسها لسنين طويلة، مستحيل أن يموتا بنفس الطريقة، وأيضا بفارق سنة واحدة فقط بين وفاة كل منهما، ومعه حق. وضعوا

له بعد ذلك درعا من الجبس من أول قدمه حتى سمانة الساق، وأجبروه على أن يبقى على فراشه لا يأتي بحركة واحدة، ولكنه بقى أكثر حياة عما كان قبل هذه السقطة، وحين أمره الطبيب بلزوم الفراش لمدة ستين يوما بلا حركة، لم يصدق أنه سوف يعيش هذه المأساة، فراح يتوسل للطبيب قائلا:

- لا تفعل بي ذلك يا دكتور، فشهران عندي كأنهما عشر سنين عندكم.

وكثيرا ما حاول أن ينهض حاملا بكلتا يديه ساقه، التي تبدو كسيقان التماثيل، ودائما ما يقهره الواقع وينتصر عليه، ولكنه حين استطاع أخيرا المشي، وكاحله لا يزال يؤلمه، وظهره ما زال مجروحا، اقتنع وقتها تماما بأن القدر كافأه على صبره ودأبه بسقطة منحتها له العناية الإلهية.

وأسوأ يوم مر به حينها كان يوم الإثنين. خف الألم، ولوحظ عليه تقدم في الشفاء بشكل مشجع للغاية، ولكنه رافض كل الرفض كونه لن يرى فيرمينا داثا في اليوم التالي، ولأول مرة منذ أربعة شهور متواصلة. ومع ذلك، فبعدما نام قيلولته مستسلما لقدره إذا به يحس بنفسه يقر بالواقع، ويكتب لها رسالة اعتذار. رسالة كتبها بخط يده، وعلى ورق معطر، وبحبر مضيء كي تستطيع قراءة كلامه وسط العتمة إذا أرادت، وكلماته كلها تهول من جسامة المصيبة، التي فيها كي يستثير شفقتها عليه، ومر يومان وجاءه ردها، فيه تأثر وعطف شديدين، ولكن بدون أي كلمة من بعيد أو قريب، كما كانت في أيام الحب العظيمة، وما كان منه إلا أن اقتنص الفرصة اقتناصا، وعاد يكتب لها، ولما وجدها ترد عليه للمرة الثانية، قرر هو أن يقطع شوطا أبعد كثيرا عما كانت حواراتهما في أيام الثلاثاء، وقام بتركيب عدة تليفون بجنب فراشه بحجة مراقبة سير العمل في الشركة بشكل يومي، وطلب من عاملة التليفون المركزية أن تصله برقم تليفون يتكون من ثلاثة أرقام لا يزال يحتفظ بها في ذاكرته منذ أول مرة اتصل بفيرمينا. سمع صوت الجرس يرن في عمق المسافة، التي تفصل بينهما، ثم إذا به يسمع صوتها المحبب إلى قلبه، عرفت

صوته، وبعد مجرد ثلاث جمل من التحية الرسمية ودعا بعضهما وقفلا الخط. حينها أحس فلورنتينو بشيء من عدم الراحة بسبب لا مبالاتها، فها هما الآن لا زالا في البداية.

ومع ذلك، فبعد يومين، تلقى رسالة منها تترجاه فيها ألا يتصل بها مرة أخرى، ولأسباب منطقية للغاية، ففي المدينة لا يوجد إلا تليفونات قليلة للغاية، والاتصال دوما يكون عبر عاملة التليفون التي تعرف جيدا جميع من لديهم خطوط تليفون، بل وتعرف أيضا حياتهم وأحداثهم، وحتى لا يهمها ألا يتصل صاحب الخط من البيت، ففي أي مكان تجده، ومقابل كفاءتها في العمل، فإنها تعلم الكثير من الحوارات، التي تدور بين الناس على التليفون، والكثير من أسرار الحياة الخاصة لكل منهم، والأحداث والمآسي، التي يحاول الناس دوما إخفاءها إخفاء فإنها تعرفها من المكالمات، ولذلك فليس غريبا أن تجدها في مرة من المرات تتدخل في إحدى المكالمات لتعطي وجهة نظرها أو لتهدئ من النفوس الثائرة.

ومن ناحية أخرى، في خلال هذه السنة تأسست جريدة مسائية اسمها «لا خوستيسيا» كان هدفها الوحيد فضح كل العائلات ذات الألقاب النبيلة، بل وتذكر من تفضحه بالاسم، ودون أي اعتبار لأي شيء، بالضبط كأن مالكها يثأر لأن أبناءه لم يستطيعوا الالتحاق بالنادي الاجتماعي، وفيرمينا داثا، رغم عفتها وطهارة ذيلها، إلا أنها كانت حريصة كل الحرص فيما تقوله أو تفعله حتى مع أقرب أصدقائها. لدرجة أنها ظلت على اتصال بفلورنتينو أريثا عبر البريد اليومي، والحقيقة أن المراسلات اليومية بينهما صارت شيئا معتادا للغاية، وعميق الأثر، حتى أنه نسى ساقه، والعقاب المفروض عليه بملازمة الفراش، باختصار نسى كل شيء، وأضحت كل حياته متوقفة على اللحظة، التي يكتب فيها رسالته إليها على إحدى المناضد المحمولة من تلك، التي تستعمل في المستشفيات لتقديم الطعام للمرضى.

كل منهما صار يكلم الآخر بضمير المخاطب أنت، بل صارا يتبادلان التعليقات على حياتهما، ولكن فلورنتينو لمرة أخرى حاول أن يذهب بعيدا في تصرفاته معها، لمرة أخرى يتعجل، فنقش اسمها على أوراق الكاميليا بدبوس، وأرسلها في رسالة إليها، وبعد يومين تلقى منها نفس الرسالة، التي أرسلها إليها وبدون أي تعليق منها، والحقيقة أن فيرمينا لم تستطع التغاضي عما حدث، فهي ترى ما حدث أفعالا صبيانية ساذجة، خصوصا حين أصر فلورنتينو أن يستحضر أيام الأشعار الحزينة في حديقة «لوس إبانخليوس»، والأماكن، التي كانا يخبئان فيها رسائلهما، وتقع أغلبها في الطريق إلى مدرستها، وحصص الخياطة، التي كانت تتلقاها أسفل أشجار اللوز، وإذا بها بكل ألم تضعه عند حده بسؤال خبيث، طرحته بشكل عارض، وسط كلام عادي: «لماذا تحاول الكلام عن أشياء لم تكن موجودة؟»، وبعدها أيضا لامته، ذات مرة، على أنه لا يكبر ويعقل أبدا كبقية الناس، بل ويعاند ذلك كل العند، ولهذا، فمن وجهة نظرها ذلك هو سبب الإخفاق الدائم منه حينما يستحضر الماضي، هي حقا لا تفهم كيف لرجل مثله له هذه التأملات الرائعة، التي ساعدتها على تجاوز محنة ترملها، كيف لرجل مثله أن يورط نفسه بهذا الشكل، حين يحاول تطبيق تأملاته وأفكاره على نفسه. الآن، الأدوار اختلفت، فها هي تحاول أن تغير وجهة نظره نحو المستقبل وتشجعه بجملة أذهلته، ولم يستطع فهمها: اترك الوقت يمر، ولنر ما الذي سوف يجلبه لنا. لم يفهمها، لأنه أبدا لم يتعلم أن يكون تلميذا نجيبا مثلها، فذلك السكون المفروض عليه فرضا، ويقينه في كل يوم بأن العمر يمضي منه سريعا، ورغبته العارمة في رؤيتها، كل ذلك جعله يدرك حقا بأن مخاوفه من أن تَزِل قدمه كان فعلا له حق فيها، بل إنها أكثر سوءا مما توقع. ولأول مرة يفكر بطريقة منطقية في الموت.

كانت ليونا كاسياني تساعده في الاستحمام، وتغيير ملابس نومه كل يومين، بل إنها تساعده في وضع الحقن الشرجية، وتضع على مقربة منه

المبولة، وتضع ضمادات وكمادات من زهور العُطاس في مواضع القرحة، التي طلعت في ظهره، وتدلك جسده مثلما نصح الطبيب كي لا يسبب له عدم الحركة مضاعفات غير مرغوب فيها، وفي أيام السبت والأحد تحل محلها أمريكا بيكونيا، والتي من المفترض أنها سوف تنال شهادة تخرجها كمعلّمة، وهو وعدها بإرسالها إلى ولاية ألاباما في الولايات المتحدة لتقوم بالدراسات العليا، وعلى حساب الشركة، ووعده لها كان كي يخفف عن نفسه تأنيب الضمير من ناحية، ومن ناحية أخرى كي يتجنب لومها، الذي هي أصلا لا تعرف كيف توجهه إليه، وأيضا ليجنب نفسه شرح وتفسير الأمر لها، ويبعد نفسه عن الإحراج. لم يتخيل أبدا كم عانت من ليالي الأرق، وهي في مدرستها، كم عانت حين قضت نهايات الأسبوع بدون وجوده، وذلك لأنه أبدا لم يتخيل كم من الحب تحمل له. وعرف من رسالة رسمية من المدرسة أنها بعدما كانت تحتل المراكز الأولى في الدراسة، صارت في المراكز الأخيرة، بل إنها كانت على وشك أن تعيد امتحاناتها الأخيرة، حينها تجاهل دوره كحاضن وراع لها، فلم يخبر أيا من والديها، ومنعه من ذلك شعور بالذنب كان يحاول أن يتفاداه ، ولم يأت في كلامه حتى معها أي إشارة عن الأمر، خوفا بالطبع من أن تلقي حينها عليه سبب إخفاقها الدراسي، ولهذا تعامل مع الأمور، كأن شيئا لم يحدث قط، بل إنه بدأ بدون شعور منه يؤجل المشكلة تلو الأخرى على أمل أن يحلها الموت.

الغريب، أن أمريكا بيكونيا وليونا كاسياني كانا في حالة استغراب شديدة من هذا التغير الشديد، الذي اعتراه، حتى هو لم يكن يصدق ما حدث له، فمنذ عشر سنوات تقريبا اعتدى من الخلف على إحدى خادمات الدار، وهي واقفة عند السلالم بكامل ملابسها، و تركها في حالة يرثى لها، واضطر أن يهديها بيتا مؤثثًا بالكامل كي تحلف بأن المسئول عن اغتصابها ما هو إلا خطيبها، الذي لم يقبلها ولو قبلة واحدة، وأرغمها أبوها وأعمامها، الذين يعملون في

قطع قصب السكر بالسواطير، على الزواج منه، ولهذا فأمر مستحيل أن يكون هذا الرجل نفسه، الذي اعتدى على الخادمة، هذا الرجل وامرأتان مثل ليونا وبيكونيا بمجرد رؤيته لهما منذ شهور قليلة يرتعد رعدا من الشبق، وها هما يلمسان كل جزء فيه، ويقومان بتصبينه من فوق إلى تحت، وينشفانه بفوط مصنوعة من القطن المصري، ويدلكان جسده بالكامل، وكل هذا ولا تصدر منه أنّة اضطراب واحدة. كل واحدة منهما أوّلت انعدام شهيته تأويلا مختلفا، أما ليونا، فظنت أنه بوادر لموته القريب، وأما أمريكا فعزَت تغير حاله لأسباب غامضة ليس لها قرار. هو الوحيد فقط الذي يعرف الحقيقة، ويعرف سبب كل هذا، وعلى كل، فأحكامهما لم تكن عادلة البتة، والحقيقة أنهما عانيا بشدة كي يخدماه على أكمل وجه ممكن.

بمجرد أن مر الثلاثاء الثالث على غيابه أدركت فيرمينا كم تحس بالوحشة بدون وجوده لزيارتها، مع أنها قضت أيام غيابه في صحبة صديقاتها القريبات منها، واللائي ازددن قربا منها منذ بدأت تنسى عادات زوجها، وفي هذا الوقت رحلت صديقتها لوكريسيا إلى باناما لتعالج نفسها من ألم أصابها في أذنيها، لم يفلح معه أي علاج، وفعلا عادت بعد شهر من هناك شديدة السرور، ولكنها لم تعد تسمع كما كانت من قبل، مع أنها تضع بوقا صغيرا في أذنها، وكانت فيرمينا من أكثر صديقاتها، التي تتسامح وتتساهل مع ما تطرحه هي من أسئلة وأجوبة، مما شجع لوكريسيا كثيرا، فلا يمر يوم إلا وكانت تراها في بيتها وفي أي ساعة تشاء، ورغم كل ذلك، لم تجد فيرمينا من يحل محل فلورنتينو ووجوده، الذي كان يسكنها، ويشيع فيها الهدوء.

والحقيقة أن ذكريات الماضي لم تفلح أبدا في استرداد المستقبل، كما يظن هو، بل على العكس تماما، دوما ما تدفع هذه الذكريات فيرمينا لاعتبار تلك الأيام المحمومة المضطربة، أيام كان عمرهما عشرين عاما، هي فعلا أشياء جميلة ونبيلة، ولكنها ليست حبا، ورغم صراحتها الشديدة إلا أنها لم

تنو أن تكاشفه بهذه الخواطر لا بالبريد ولا حتى شخصيا، ولا حتى جَسُرت من داخلها لتقول له أيضا إنها ترى رسائله العاطفية مجرد زيف ورياء، بعدما وجدت ما وجدت من أعاجيب في تأملاته، التي كتبها إليها، لتقول له كم هو ناقص في نظرها بسبب أكاذيبه العاطفية، وكم يضر به هو شخصيا كونه مهووسا هكذا بإنقاذ ما بقى من أنقاض الماضي. لا لم يكن هناك سطر واحد من رسائله القديمة كلها، ولا حتى لحظة واحدة من شبابه الممل أشعرتها بأن ساعات الأصيل هذه من كل ثلاثاء قضياه معا، ربما كانت ستكون أسوأ بدونه، أو أكثر عزلة وسأما بدونه. في تلك الفترة من عمرها لم تتوقع أبدا أنها بدونه لا شيء.

وفي خضم انشغالها بإخلاء البيت وتنظيفه، قامت في إحدى المرات بوضع الراديو الضخم أسفل حنية السقف، راديو أهداه لها زوجها في إحدى أعيادهما السنوية، والذي فكرا ذات مرة في إهدائه إلى متحف البلدة لأنه أول راديو وصل إلى البلدة حينئذ، والحقيقة أنها في ظل الكآبة، التي أحاطت بها بعد ترملها قررت ألا تستعمله مرة أخرى، فامرأة أرملة مثلها، لها ما لها من ألقاب نبيلة، لا يمكن أن تسمع أي موسيقى دون أن تثير فيها ذكرياتها عن زوجها المتوفى، وهكذا تصيب أعز شيء فيها، ولكن بعد ثالث ثلاثاء من الهجران، إذا بها تأمر بإعادة الراديو إلى الصالة، وليس فقط لتستمتع بتلك الأغاني العاطفية، التي تصدرها إذاعة ريوبامبا، كما كانت في الماضي، وإنما أيضا لتقتل الفراغ بسماعها تلك الروايات المؤثرة، التي تستنزل الدموع بكل غزارة، والتي تذيعها إذاعة سانتياجو ديه كوبا. حقق هذا النوع من الروايات نجاحا باهرا معها، فعندما ولدت ابنتها بدأت تفقد عادة القراءة، التي طالما شدد عليها زوجها منذ رحلة زواجهما، ومع تلك الراحة التدريجية في نظرها فقدت تماما تلك العادة، لدرجة أنه قد تمر شهور، ولا تعرف أين وضعت نظارتها.

وبشكل ما أحبت تلك الروايات، التي تذيعها «سانتياجو ديه كوبا»، والتي كانت تنتظر فصولها بفارغ الصبر كل يوم، وأحيانا تنصت إلى الأخبار لتعرف ما يدور حولها في هذا العالم، وفي المرات القليلة جدا، التي تكون وحدها تسمع إلى الراديو تخفض صوته إلى أقصى حد بحيث يكون بعيدا للغاية، وصافِيا للغاية، وتسمع عن مشاكل سانتو دومينجو، وما يحدث من تسويات في بويرتو ريكو، وذات ليلة، إذا فجأة بمحطة غريبة مجهولة تخترق الراديو اختراقا، وتذاع بكل وضوح وقوة كأن مقرها في البيت الملاصق لبيتها، وتسمع خبرا مزق قلبها تمزيقا: عجوزان قررا إعادة شهر عسلهما في المكان نفسه، الذي قضياه فيه منذ أربعين عاما، وإذا بصاحب المركب يهوي عليهما بالمجداف فيصرعهما، وذلك كي يسرق منهما مالهما: أربعة عشر دولارا، بل إنها تأثرت أكثر وأكثر حين حكت لها لوكريسيا الرواية كاملة مما قرأته من الصحف، واكتشفت الشرطة أن هذين العجوزين، أحدهما كان يبلغ من العمر أربعة وثمانين عاما بينما حبيبته العجوز تبلغ ثمانية وستين عاما. كانا عاشقين سريين كثيرا ما خرجا معا في العطلات، ومنذ أربعين عاما تقريبا، ولكن كل منهما متزوج ومستقر وسعيد في زواجه، ولديه ما لديه من بنين وأحفاد، وفيرمينا نفسها، التي لم تبكِ أبدا على مثل هذه الروايات الإذاعية، أحست بغصة شديدة تعترض حلقها من شدة رغبتها في البكاء، وفلورنتينو في رسالته التالية لها بعث لها بقصاصة تحوي هذا الخبر المؤلم، وبدون أي تعليق منه.

والحقيقة أنها ليست آخر دموع لها تحاول حبسها، ففي الوقت الذي أوشك فيه فلورنتينو على أن يتم ستين يوما من العزلة، إذا بجريدة «لا خوستيسيا» تنشر تحت عنوان كبير للغاية، وبالصور أيضا الحب السري في حياة كل من الدكتور خوبينال أوربينو ولوكريسيا، صديقة فيرمينا، وحاولت الجريدة أن تستكشف كل التفاصيل الصغيرة في علاقات الدكتور خوبينال

أوربينو وتصرفاته وعاداته، وكيف كان يرضى لنفسه باللواط مع السود والزنوج، الذين يعملون في مصانع إنتاج السكر، والخبر، الذي نشرته الجريدة تحت عنوان كبير بالخط الأحمر أثار دويا مفزعا بين أوساط المجتمع الأرستقراطي المحلي، الذي في الأصل يعاني من القلاقل والاضطرابات، ومع ذلك، فليس هناك سطر واحد في الخبر مؤكد، خاصة أن الدكتور خوبينال أوربينو ولوكريسيا كانا صديقين حميمين قبل زواج كل منهما، وظلا على صداقتهما حتى بعد الزواج، ولكنهما أبدا لم يكونا عاشقين. على كل، الخبر أساسا لم يكن هدفه زعزعة سمعة الدكتور خوبينال، التي لها ما لها من احترام بإجماع الجميع، وإنما مرامه الأساسي هو الإضرار بسمعة زوج لوكريسيا، الذي اختير رئيسا للنادي الاجتماعي الأسبوع الماضي. والحقيقة أن تلك الفضيحة تم كبتها في خلال ساعات معدودة، ومع ذلك لم تعد لوكريسيا لزيارة فيرمينا، مما جعلها تفسر الأمر فعلا على أنه اعتراف منها بحقيقة الخبر.

ويا ليت الأمر انتهى عند هذا الحد، فسرعان ما نشرت الجريدة خبرا أثبت أيضا أن فيرمينا نفسها ليست بمنأى عن الفضيحة بين مجتمعها. فأثارت جريدة «لا خوستيسيا» خبرا ضدها مستغلة الجانب الوحيد الضعيف فيها حقا: تجارة ومشاريع أبيها، والحقيقة أنهم بعدما نفوا أباها من البلدة بالقوة، كانت فيرمينا لا تعلم إلا خبرا واحدا عن تجارة أبيها المشبوهة، مما حكته لها الخادمة جالا بلاسيديا، وبعد ذلك، حين أكّد الدكتور خوبينال أوربينو لقاءه بحاكم البلدة، اقتنعت فيرمينا بأن أباها كان ضحية حملة شنعاء للانتقاص من سمعته، وما حدث: أن اثنين من مخبري الحكومة جاآ إلى بيت حديقة لوس إبانخليوس مع أمر بالتفتيش الدقيق، وظلا يبحثان في كل شيء من فوق إلى أسفل دون أن يجدا مرادهما، وفي نهاية المطاف أمرا بفتح دولاب غرفة نوم فيرمينا القديمة، والذي كانت أبوابه مغطاة بالمرايا، وحينها كانت جالا بلاسيديا لوحدها في البيت، ولا تملك أية وسيلة لتنبه أصحاب الدار،

لذا رفضت فتح الدولاب بحجة أنها لا تملك مفاتيحه، حينئذ قام أحدهما بكسر مرايا الدولاب بقاعدة مسدسه، واكتشف أن بين المرآة والخشب ثمة مساحة فارغة قد امتلأت بعملات ورقية مزورة من فئة مائة دولار، وهذا الاكتشاف هو القشة التي قصمت ظهر البعير، فبعدها بدأت سلسلة طويلة من التحريات أفادت بأن لورينثو داثا هو الحلقة الأخيرة في عملية تزوير دولية واسعة، والحقيقة أن التزوير كان في غاية الإحكام، فالأوراق المالية مطبوع عليها العلامة المائية، التي تتسم بها الأوراق الأصلية، وأصل الحكاية أنهم استطاعوا محو ورقة مالية من فئة دولار بطريقة كيميائية أقرب إلى السحر، ثم طبعوا عليها فئة مائة دولار، واحتج لورينثو داثا متعللا بأن هذا الدولاب اشتراه بعد زمن طويل من زواج ابنته، ولا بد أنه جاء البيت وفيه تلك الأوراق المالية المزورة، ولكن الشرطة أكدت أن الدولاب أصلا موجود منذ كانت فيرمينا تذهب إلى المدرسة، وهو الوحيد القادر على القيام بفعلة كهذه، القادر على إخفاء ثروته المزورة خلف مرآة الدولاب. هذا ما حكاه الدكتور خوبينال أوربينو لفيرمينا، حين اتفق مع حاكم البلدة بإرجاع حماه إلى مسقط رأسه كي يتكتموا على الفضيحة ولا تنتشر، ولكن جاءت هذه الجريدة لتحكي تفاصيل أكثر من كل هذا.

حكت أن خلال الكثير من الحروب الأهلية، التي دارت في القرن الماضي، كان لورينثو داثا وسيطا بين حكومة الأحرار، التي يرأسها أكيليو باررا، وبين شخص آخر اسمه جوزيف كيه كورزينويسكي، بولندي الأصل، والذي مكث حينها عدة شهور على ظهر أسطول سان أنطون الفرنسي يحاول الدخول في تجارة سلاح مشبوهة. كورزينويسكي، الذي اشتهر، فيما بعد، باسم جوزيه كونراد قام بالاتصال، بدون أن يعرف أحد كيف، بلورينثو الذي اشترى منه شحنة السلاح لحساب الحكومة مقابل الذهب الملكي والكثير من العهود والمواثيق، ووفقا لما حكته الجريدة، ادّعى لورينثو داثا اختفاء السلاح

إثر تعرضه لهجوم مفاجئ، ثم بعد ذلك باع السلاح بضعف ثمنه الحقيقي للمحافظين في حربهم ضد الحكومة.

وحكت أيضا الجريدة أن لورينثو داثا اشترى دفعة من الأحذية ذات الرقبة العالية من الجيش الإنجليزي مقابل ثمن زهيد للغاية، فكانت هذه الأحذية فائضة عن حاجة الجيش الإنجليزي ، في الوقت الذي كان فيه جنرال البلاد رفائيل رييس يقوم ببناء أسطول حربي كامل. حينها تضاعفت ثروة لورينثو في خلال ستة شهور فقط، ووفقا للجريدة، فإنه حين وصلت شحنة الأحذية إلى الميناء، رفض لورينثو تسلمها بدعوى أن تلك الشحنة تحوي فقط أحذية القدم اليمنى، وكان هو الوحيد المنافس، حين أعلنت الجمارك المزاد عليها وفقا للقوانين، واشتراها بثمن رمزي للغاية، اشتراها بمائة بيزو فقط. في الوقت نفسه، اشترى شريك له، يمر بهذه الظروف نفسها، الشحنة، التي تحوي أحذية القدم اليسرى، ووصلت إلى جمارك بلدة ريوآتشا، وبمجرد أن رُتبت الأحذية، كان لورينثو داثا صاهر آل أوربينو ديل كاييه، وقام ببيع الأحذية إلى الأسطول الحربي الجديد بربح وصلت نسبته ألفين في المائة.

وانتهى تقرير الجريدة معلنا أن لورينثو داثا ترك بلدة سان خوان ديه لا سياناجا في أواخر القرن الماضي ليس بحثا عن مستقبل أفضل لابنته، كما يدعي ، وإنما للضلوع في صناعة التبغ التي كسب من وراءها الكثير، فكان يخلط التبغ بالورق المحروق، وبمهارة شديدة بحيث أن أشرس المحنكين في التدخين لا يدرك تلك الخدعة، كما كشفت الجريدة أنه كان على علاقة بشركة دولية سرية للغاية، كان أزهى نشاط لها في خلال أواخر القرن الماضي مساعدة الصينيين في دخول دولة بنما بطرق غير شرعية. على النقيض، تجارة البغال، التي اتصف بها، وطالما أضرت بسمعته، يبدو أنها التجارة الوحيدة الشريفة خلال حياته كلها.

حين ترك فلورنتينو فراشه، وظهره لا يزال يعاني من حروق وأوجاع لا

حصر لها، بل إنه لأول مرة يمسك بعكاز بدلا من الشمسية، كان أول خروج له من بيته إلى بيت فيرمينا داثا، ولم يجد فيرمينا ، التي يعرفها، فكأن كل تلك السنين، التي فاتت من عمرها مرة واحدة ألقت بثقلها عليها، وجدها تغلي بالحقد والحنق بحيث لم تعد لها أي رغبة في الحياة، والحقيقة أن ابنها الدكتور أوربينو داثا زار فلورنتينو في منفاه مرتين وأخبره بكم الاستغراب الذي اعترى والدته بسبب المقالتين اللتين نشرتهما جريدة لا خوستيسيا. المقالة الأولى جعلتها تغلي بغضب أهوج من عدم وفاء زوجها، وخيانة أقرب صديقاتها، حتى أنها لم تعد تزور ضريح العائلة يوم الأحد من كل شهر، فإحساسها أن زوجها المتوفى لن يسمع إهانتها له، وهو داخل قبره، كان يخرجها عن طورها، فكأنها تريد الشجار مع الموتى، أما صديقتها لوكريسيا ديل ريال فأرسلت من يقول لها أنها سعيدة بأن هناك رجلا واحدا على الأقل من بين أناس كثر قضوا وطرهم معها على فراشها، أما المقالة الثانية، التي نشرتها الجريدة عن لورينثو داثا، فكان من غير الممكن معرفة إذا كان حنقها ناجم من المقالة نفسها، أم ناجم لاكتشافها المتأخر لشخصية أبيها الحقيقية، ولكن على كل حال، فأي من الاثنين قد عكر صفوها تماما. شعرها ذو اللون الرصاصي الناصع، الذي كثيرا ما جلل وجهها بمهابة خليقة بها، ها هو الآن يبدو كأنه أسلاك صفراء في لون الذرة، وعيناها الجميلتان اللتان تشبهان عيون الفهد لم يعد فيهما ذلك البريق القديم ولم يعد حتى ينطلق منهما الشرر مع فورة الغضب. باختصار، بقى واضحا تماما في كل حركة من حركاتها عدم رغبتها في مواصلة الحياة، فمنذ مدة طويلة جدا تخلت عن عادة التدخين، سواء منغلقة على نفسها في الحمام أو بأي طريقة كانت، ولكنها استأنفتها، بل ولأول مرة في حياتها، أمام الناس، وبشراهة غير عادية. في البداية كانت تشرب سجائر تلفها بنفسها، كما تحب دوما، ثم بعد ذلك بدأت تشرب السجائر العادية الجاهزة المنتشرة في المحلات، فلم يعد لديها لا الطاقة ولا الصبر لتلف كل سيجارة تشربها. رجل آخر غير فلورنتينو أريثا لكان سأل نفسه ماذا سوف يعطيهما الغد القريب،

بينما هو عجوز بهذه الصورة ويعرج، وظهره مصاب بالالتهابات والقشرة كأنه بالضبط ظهر حمار، وبالنسبة أيضا المرأة لم يعد شيء يسعدها إلا تمني الموت، ولكن، هو وجهة نظره مختلفة تماما. هو يرى بصيصا خافتا جدا من نور الأمل بين كل هذه الأنقاض المحيطة به، فهو يرى أن ما فيه فيرمينا داثا من شقاء وبؤس عظمّاها ومجداها، وهذا الغضب المسيطر عليها زادها فتنة وجمالا، وحنقها ضد العالم أرجع لها شخصيتها الطفولية، التي كانت بها، وهى تبلغ من العمر عشرين ربيعا.

مرة أخرى شعرت فيرمينا بالامتنان نحو فلورنتينو أريثا، ذلك أنه وسط كل هذه المقالات الفاضحة المشينة بعث بمقالة مثالية لجريدة لا خوستيسيا يتحدث فيها عن كيفية احترام الأخلاق في الصحافة واحترام شرف الآخرين، ولم تنشر بالطبع في جريدة لا خوستيسيا، ولكنه أصلا أرسل مقالته هذه أيضا إلى جريدة الكوميرسيو، أعرق وأقدم جريدة على مستوى الكاريبي بأسره، ونشرتها بالفعل في الصفحة الأولى لها. المقالة كانت موقعة باسم مستعار هو جوبيتر، وكانت منطقية للغاية ومحفزة ومكتوبة بأسلوب رصين، حتى أن بعض الناس نسبوها إلى أحد الكتاب الكبار في البلدة، والحقيقة أن تلك المقالة كأنها صوت واحد في خضم محيط من الأصوات، هو صحيح صوت بعيد للغاية وعميق جدا، ولكنه موجود ومسموع، وفيرمينا عرفت من كاتب هذه المقالة دون أن يذكر لها أحد كاتبها. استطاعت أن تتعرف على بعض الأفكار وجمل محددة للغاية خاصة جدا بفكر فلورنتينو عن مبادئ الأخلاق. تأثرت وامتنت له للغاية لدرجة أنها صارت تستقبله بكل حفاوة، رغم البرود المسيطر عليها. في تلك الفترة، كانت أمريكا بيكونيا وجدت في عصر يوم من أيام السبت نسخا من رسائل تأملات فلورنتينو، وكذلك الرسائل المكتوبة بخط اليد من قبل فيرمينا، وجدتها جميعا في غرفة نومه في بيته بشارع لا بنتاناس، ودون قصد تماما، ووجدتها بمحض الصدفة في إحدى الدواليب.

سعد كثيرا الدكتور أوربينو داثا بعدما استأنف فلورنتينو زياراته إلى أمه مما شجعها وأفرحها كثيرا. على عكس أخته أوفيليا، التي ما إن عرفت أن أمها تحتفظ بصداقة غريبة كل الغرابة مع رجل معروف بأخلاقه المعيبة، استقلت أول سفينة تقلع من نيو أورليانز إلى أمها، وأثارت الابنة مشكلة كبيرة منذ أول أسبوع، لما وجدته من جو عائلي حميم وسيطرة واضحة من قبل فلورنتينو على البيت، وما يدور بينه وبين أمها من همس ووشوشة، وتلك المشاكل الصغيرة الخاصة بالعرسان، حتى أن زياراته لأمها تمضي إلى وقت متأخر من الليل. كل هذا كان بالنسبة لأوربينو داثا مجرد انسجام صحي ومفيد لكل منهما، هما العجوزان الوحيدان، أما الابنة، فعلى العكس تماما، ترى ذلك شكلا معيبا للغاية، بل تراه نوعا من الزواج غير الشرعي، والحقيقة أن أوفيليا أوربينو دوما هكذا، مثل دونيا بلانكا، جدتها من ناحية الأب، بالضبط كأنها ابنتها هي وليست ابنة فيرمينا. كانت مختلفة مثل جدتها، متغطرسة مثلها، وتحيا حياة كلها آراء سابقة لأوانها وانحياز مغلوط تماما. الحقيقة أنها أصلا لا يمكنها أن تفهم صداقة بريئة بين ذكر وأنثى حتى لو كان عمرهما خمس سنوات، فما بالك لو أن عمرهما أقل بقليل من ثمانين عاما، وذات مرة دخلت في جدال عنيف مع أخيها، وقالت له فيما قالت إنه لا ينقص فلورنيتنو إلا أن ينام مع أمها على نفس الفراش، الذي ترملت عليه، ولم يكن أخوها يتمتع بالشجاعة لمواجهتها، ولا حتى من قبل أو من بعد جرؤ على تحديها ومواجهتها، ولكن زوجته تدخلت قائلة: إن الحب متاح في أي عمر كان، فليس له أي شروط. حينها فقدت أوفيليا أعصابها وصاحت بها في حدة قائلة:

الحب في مثل عمرنا أصلا شيء مثير للسخرية، ولكن في مثل عمرهما هذا، فإنه شيء حقير وقذر للغاية.

ثم راحت بنفس هذا العنف وهذه الحدة الشديدة تقرر أنه لا بد من طرد فلورنتينو من البيت، وبلغ كلامها سمع أمها. حينئذ دعتها إلى غرفة نومها،

كعادتها دوما حين تريد الحديث دون أن يسمعها أحد من الخدم، وطلبت من ابنتها أن تعيد عليها ما قالته من اتهامات، وبالفعل أعادت عليها ابنتها ما قالته بدون أي زينة أو تلطيف من كلامها، كانت موقنة تماما بأن سمعة فلورنتينو الفاسدة لا يجهلها أي أحد، وظلت تشكك في علاقة أمها به بشكل مؤذٍ، حتى عما سببته إساءات لورينثو داثا، وعن المغامرات الساذجة للدكتور خوبينال أوربينو، وأخذت أمها تنصت إليها دون أن تتفوه بكلمة واحدة، دون حتى أن تطرف بعينيها، ولكن حين خلصت ابنتها الكلام، فأضحت كأنها تسترد روحها من جديد. قالت لها:

– الشيء الوحيد، الذي يؤلمني أنني لم يعد لدي الطاقة كي أعطيكِ تلك العلقة الساخنة، التي تستحقينها، لما كان من وقاحتك وسوء ظنك في، ولكن، والآن، سترحلين من هذا البيت، وأحلف لك بما بقى من عمري أن قدميك لن تطأ أرض هذه الدار مرة أخرى ما دمت أنا حية.

وليس هناك قوة على وجه هذه الأرض بقادرة على جعلها تعدل عن قرارها، حتى بعدما رحلت الابنة من البيت، ومكثت في بيت أخيها، ومن هناك ظلت تترجاها وتستسمحها، بل وتوسط في ذلك شخصيات مرموقة للغاية، إلا أن أمها لم تلن حتى، فلا وساطة ابنها نفعت، ولا وساطة صديقاتها المقربات أفلحت حتى في هزها، والحقيقة أنها أسرت إلى زوجة ابنها، التي تحتفظ معها بعلاقة مودة شديدة العمق، أباحت لها عن سرها بكلمات من تلك، التي كانت تستعملها في زهرة العمر، قالت لها: «منذ قرن تقريبا سودوا لي الدنيا مع هذا الرجل المسكين لأن كلانا كان صغيرا جدا في العمر، أما الآن فهم يودون تكرار الأمر مرة أخرى لأن كلانا عجوز للغاية»، ثم أشعلت سيجارة من بقايا سيجارة أخرى كانت تشربها، وقالت، كأنها تخرج هذا السم، الذي طالما نهش أحشاءها:

– ليذهبوا إلى الجحيم، فإذا كانت الأرامل أصلا لديهن ميزة ما، فهى أن

لا أحد قادر على التحكم والسيطرة عليهن.

وهكذا فعلت أوفيليا المستحيل، ولم يعد أمامها شيء لتفعله، وأخيرا عادت إلى نيو أورليانز صفر اليدين، وعليها غضب أمها. فقط كل ما عرفت أن تأخذه منها، مجرد وداعها قبل سفرها، ووافقت فيرمينا، ولكن بعد كثير من الرجاء والتوسل، ودون أن تسمح لها بدخول البيت، فقد حلفت برفات والدتها، التي بالنسبة لها الآن في تلك الفترة الكئيبة، الإنسانة الوحيدة، التي بقت طاهرة الذيل، حتى الآن، لم تمس سمعتها شائبة.

فلورنتينو أريثا، في خلال زياراته الأولى لفيرمينا، عرض عليها ذات مرة دعوة رسمية لتقوم برحلة استجمام على النهر، وذلك في معرض حديثه عن البواخر، وإذا أضفنا يوما آخر على متن القطار فقد تصل إلى عاصمة الجمهورية، التي ما زالا يسميانها، كمعظم أهل الكاريبي، الذين من جيلهما، بالاسم، الذي كانت به حتى نهاية القرن الماضي: سانتافي، ولكنها كانت في ذلك الحين لا تزال متأثرة بآراء زوجها السلبية، فلم تكن تود الذهاب لمعرفة بلدة كئيبة وباردة، حيث لا يخرج النساء هناك إلا ريثما يذهبن لحضور قُدّاس الساعة الخامسة، ووفقا لما قالوه لها فإنه لا يحق لهن أيضا دخول محلات الجيلاتي، ولا حتى المكاتب العامة، وحيث لا تمر ساعة هناك إلا وتجد انسدادا مروريا في الشوارع بسبب الجنازات الكثيرة، وحيث تهطل عليها زخات خفيفة من المطر طوال السنة، وذلك منذ أيام الاستعمار الإسباني، باختصار هي كطقس أسوأ من باريس نفسها. على عكس النهر، فهى تحس بانجذاب شديد نحوه، وتود لو ترى التماسيح، وهى تتشمس على ضفتيه في انسجام وخمول، تود لو تستيقظ في منتصف الليل على صوت بكاء أنثى خروف النهر، ولكن فكرة أنها سوف تقوم برحلة شاقة للغاية، وفي مثل عمرها هذا، وأيضا أرملة ووحيدة، بدت لها فكرة غير واقعية البتة.

وعرض عليها فلورنتينو الدعوة مرة أخرى، حين وجدها قررت بأن

تعيش وتحيا بدون زوجها، وبدت فكرة الرحلة مقبولة حينها، ولكن بعد ما حدث بينها وبين ابنتها من شجار، وبعد ما تسممت نفسيتها بسبب الإهانات، التي نالت من أبيها نيلا، وحنقها الشديد على زوجها الميت، وغضبها العارم من نفاق ورياء من كانت تحسبها أعز أصدقائها ولسنين طوال، لوكريسيا ديل ريال، بعد كل هذا تشعر بأن وجودها في البيت شيء زائد على الحاجة، وفي عصر يوم من الأيام بينما كانت تشرب ذلك المنقوع من أوراق النباتات المختلفة، إذا بها ترسل عينيها نحو الفناء بالضبط، حيث كانت شجرة المانجو، التي قطعت، ولم تنمُ من جديد، وتقول:

– ما أرغب فيه فعلا هو أن أرحل عن هذا البيت، وأظل أسير وأسير وأسير، ولا أعود أبدا.

فرد عليها فلورنتينو قائلا:

– ما رأيك في ركوب الباخرة.

فنظرت إليه فيرمينا مفكرة، وقالت:

– حسنا، خذ في اعتبارك أن هذا ممكن فعلا.

أما هو فأخذ كلامها هذا على أنها وافقت، وكان يظن أنها لن توافق، ورحب الابن وزوجته بهذا القرار أيما ترحيب، وسارع فلورنتينو يؤكد لها أنها سوف تكون ضيفة شرف في أية باخرة تركبها تابعة الشركة، وأنهم سوف يخصصون لها غرفة خاصة للغاية، فكأنها في بيتها، وسوف تنال خدمة ممتازة، بل إن القبطان بنفسه سوف يسهر على راحتها وأمانها، وكان يحمل إليها خرائط خط سير الرحلة كي يثير حماسها، وكروتا بريدية مزينة تصور منظر الغروب على النهر، وأشعارا أنشدت في مدح جمال النهر العظيم كتبها شعراء عظام وشعراء يتوقع لهم العظمة من جمال أشعارهم، وكانت تنظر إلى ما يجلبه إليها إذا راق مزاجها، وتقول له:

– لا تظن أن مثلي سوف تخدعها مثل هذه الأشياء، فإذا كنت سأذهب،

فإن هذا يرجع لقراري وحدي، وليس بسبب جمال المناظر والطبيعة.

وحين اقترح عليها ابنها بأن ترافقها امرأته، إذا بها تقاطعه قائلة بحسم: «أنا كبرت جدا في السن حتى يعتني بي أحد»، حتى أنها هي من قامت بتدبير التفاصيل الصغيرة لرحلتها. والصراحة أنها أحست براحة عظيمة بفكرة أنها سوف تمكث ثمانية أيام في رحلة الذهاب، وخمسة في العودة، وليس معها إلا الضروري فقط، نصف دستة من الملابس القطنية، الأدوات الخاصة بالزينة والنظافة، زوجان من الأحذية واحد حين تكون على الأرض، وآخر حينما تكون في الباخرة، وجلبت معها أيضا نعال، وفقط: حلم حياتها أخيرا تحقق.

في عام ١٨٢٤ قام قائد الأسطول البحري خوان بيرناردو إلبيرس، مؤسس الملاحة النهرية، بوضع علم البلاد على أول سفينة بخارية تشق عباب نهر ماجدالينا العظيم، والتي لم تكن إلا مجرد باخرة بدائية للغاية قوتها أربعون حصانا، و سميت باسم: الإخلاص، وبعد مرور قرن تقريبا، في السابع من شهر يونيو، حوالي الساعة السادسة عصرا، كان الدكتور أوربينو داثا وزوجته يرافقان فيرمينا داثا إلى الباخرة، حيث سوف تحملها في أول رحلة نهرية لها في حياتها، والباخرة كانت الأولى، التي بنيت في الترسانات المحلية، والتي أطلق عليها فلورنتينو الاسم نفسه تيمنا لسلفه العظيم: الإخلاص الجديد، ولم تصدق فيرمينا داثا أبدا أن هذا الاسم المعبر للغاية بالنسبة لهما، مجرد صدفة تاريخية وليس له علاقة برومانسية فلورنتينو.

على كل، كانت باخرة الإخلاص الجديد بخلاف باقي البواخر، القديم والحديث منها، يوجد بجانب غرفة القبطان غرفة ملحقة بها فسيحة ومريحة للغاية، وصالة مخصصة للزوار مؤثثة بأثاث من خشب الخيزران المزين بألوان مبهجة، غرفة نوم أقرب إلى فراش الزوجية، مزينة بديكورات صينية الطابع، حمام فيه دش وحوض استحمام، شرفة مسقوفة كبيرة للغاية، علق فيها نبات السرخس، تطل نحو الأمام على جانبي السفينة، وثمة أيضا نظام تبريد خاص

بهذه الغرفة بحيث تعزلها عزلا عن الصخب الدائر في الخارج، ويجعل الجو بداخلها جوا ربيعيا دائما، وكانت هذه الغرفة الفارهة معروفة بـ«قمرة الرئاسة» لأنه حتى ذلك الحين سافر فيها نحو ثلاثة رؤساء، ولم تكن مبنية لأي غرض تجاري، وإنما كانت محفوظة فقط من أجل الشخصيات الحكومية البارزة والمدعوين الوجهاء، و أمر فلورنتينو ببناء تلك الغرفة الرسمية للغاية بمجرد أن عيّن رئيسا للشركة، ولكن حقيقة هدفه منها أنها إن عاجلا أو آجلا سوف تكون مأواهما في رحلة زواجه مع فيرمينا داثا.

وأخيرا أتى هذا اليوم، وبالفعل امتلكت، هي تلك الغرفة الرئاسية بكل ما فيها من ترف وبذخ، وقبطان السفينة بنفسه أقام احتفالا شرفيا على متن الباخرة بحضور ابنها الدكتور أوربينو وزوجته وفلورنتينو أريثا، ودعاهم لشرب الشمبانيا، وأكل السلمون المدخن، وذلك القبطان يُدعى دييجو ساماريتانو، يرتدي زيا موحدا من الكتان ناصع البياض، كل ما فيه يلمع ويبرق من أول مقدمة حذائه ذي الرقبة العالية، وحتى قبعته، التي عليها شعار الشركة مطرزا بخيوط من الذهب، وهو عموما لديه تلك الصفات المشتركة، التي يتسم بها أي قبطان، الجسد الضخم كأنه شجرة سيبا شامخة، الصوت الحاسم القاطع، وتصرفاته التي توحي لك بأنه كاردينال عظيم.

وبحلول الساعة السابعة مساء، إذا بهم يطلقون أول صفارة للرحيل، وأحست فيرمينا حينئذ بألم حاد يطن في أذنها اليسرى، والحقيقة أنها في الليلة السابقة رأت أحلاما منذرة بالشر الوبيل، أحلاما لم تجرؤ حتى أن تعرف سرها، وفي صباح اليوم التالي استيقظت مبكرا، وذهبت إلى المدافن الموجودة بالقرب من مدرسة اللاهوت، مدافن كان اسمها في ذلك الحين «مقبرة لا مانجا»، وهناك راحت تتصالح مع زوجها الميت، وهى واقفة على قدميها أمام السرداب، الذي يحوي جثته، وأخذت تلومه وتوبخه إلى أن أفرغت كل ما بداخلها، ثم حكت له عن أدق التفاصيل الخاصة برحلتها، وودعته على

أن تلقاه في أقرب وقت، والحقيقة أنها لم تقل لأحد آخر أنها سوف تسافر في رحلة، كحالها دوما حين تسافر في كل مرة إلى أوروبا، فكانت لا تحب لحظات الوداع المثيرة للبكاء والشجن، ورغم رحلاتها الكثيرة، إلا أنها أحست هذه المرة كأنها سوف تقوم بأول رحلة لها، وكلما يمضي الوقت أحست بالقلق والهم، وبعدما صارت على متن الباخرة، أحست بنفسها وحيدة في غاية الحزن، وودت لو تجد مكانا تنزوي فيه لتبكي كما تشاء.

وحينما أطلقت السفينة صفارتها الأخيرة للرحيل، ودّعها ابنها وزوجته بدون نشيج وحزن ودراما، ثم صاحبهما فلورنتينو أريثا إلى حيث ذلك الجسر الصغير الذي يصل الباخرة بالأرض، وبينما يحاول الدكتور أوربينو داثا أن يتخلف وراء فلورنتينو تتبعه زوجته، حينئذ فقط أدرك أن فلورنتينو أيضا راحل على متن الباخرة نفسها، ولم يستطع أن يكتم استغرابه حينها قائلا له:

- ولكننا لم نتحدث عن هذا.

فأظهر له فلورنتينو مفتاح غرفته ليفهمه بكل وضوح أنه سيقيم في غرفة أخرى عادية تماما تقع في الدور الرئيسي للباخرة، ولكنه، مع ذلك، لم يقتنع ببراءة نيته، وإذا به يتجه بعينيه المهمومتين إلى زوجته يرجوها بأن تنقذه مما هو فيه، ولكنه لم يجد منها إلا نظرات جامدة كل الجمود، بل وقالت له في حدة وبصوت خفيض للغاية: «حتى أنت أيضا؟». نعم: حتى هو أيضا في هذا الموقف صار مثل أخته أوفيليا، يفكر في أن الحب له حدود معينة في العمر، ولكنه في نهاية المطاف استطاع أن يملك نفسه وودع فلورنتينو، وهو يشد بقوة على يديه في استسلام وخنوع أكثر من إحساسه بالامتنان نحوه.

ثم ظل فلورنتينو واقفا أمام درابزين الباخرة يرقبهما، وهما ينزلان إلى الأرض، وقبل أن يركبا العربة نظرا إليه، مثلما كان يتوقع ويتمنى منهما، فأخذ يودعهما ملوحا بيده، فرفعا هما أيضا أيديهما تحية ووداعا له، وظل هو عند درابزين الباخرة إلى أن غابت العربة عن عينيه مخلفة وراءها سحبا من الغبار،

وبعد ذلك ذهب إلى غرفته ليرتدي رداء يلائم أول عشاء له على متن الباخرة، الذي سيكون في غرفة الطعام الخاصة بالقبطان.

وكانت ليلة ساحرة خلابة بحق، ظل فيها القبطان دييجو ساماريتانو يحكي لهما عن حكايات النهر المؤثرة الشيقة، خلال وجوده فيه لأربعين عاما، ولكن، والحق يقال أن فيرمينا داثا بذلت مجهودا جبارا لتبدو مستمتعة بما يحكيه القبطان، فرغم أن الإنذار الأخير كان بحلول الساعة الثامنة، حيث تم إنزال جميع الزوار، و رفع ذلك الجسر، الذي يصل الباخرة بالبر، إلا أن الباخرة لم تقلع إلا بعدما انتهى القبطان من طعامه، وصعد إلى كابينة القيادة ليقوم بتوجيه الباخرة. حينئذ بقى كلاهما في البهو الرئيسي للباخرة، و اختلط بهما بقية المسافرين في صخب وجلبة يحاولون استكشاف أضواء المدينة، إلى أن خرجت الباخرة من الخليج، وأخذت تشق طريقها في ممرات يصعب رؤيتها وعلى يمينها ويسارها مستنقعات وبحيرات تناثرت فيها تلك الأنوار العائمة الخاصة بالصيادين، وأخيرا تنفست الصعداء حين دخلت إلى نهر ماجدالينا العظيم، حينها بدأت الفرقة الموسيقية تعزف قطعة موسيقية منتشرة في ذلك الوقت، واستحسنها المسافرون للغاية، وراحوا يرقصون في فرح وسرور.

وفضلت فيرمينا أن تأوي إلى غرفتها. هي أصلا لم تقل كلمة واحدة طول الليل، وتركها فلورنيتنو تسبح مع تأملاتها وخيالها، وفقط حين همت بدخول غرفتها إذا به يكلمها ليودعها، ولكنها لم تكن تود النوم، وإنما تحس ببعض البرد، وألمحت له برغبتها في أن يبقى معها ينظران إلى النهر من شرفتها الخاصة، ومن الغرفة جر فلورنتينو مقعدين من خشب الصفصاف إلى الدرابزين، ثم أطفأ الأنوار، ووضع فوق كتفيها بطانية من الصوف، ثم جلس بجانبها. حينها لفت لنفسها سيجارة من علبة السجائر، التي أهداها لها فلورنتينو، لفتها ببراعة منقطعة النظير، وراحت تدخنها في بطء، وبدون

أن تتفوه بكلمة واحدة بينما الطرف المشتعل من السيجارة داخل فمها، وبعد ذلك لفت لها سيجارتين متتاليتين، ودخنتهما دون توقف، وكل هذا بينما فلورنتينو يشرب قهوته السوداء رشفة رشفة إلى أن أنهى على الترمس بأكمله.

وسرعان ما غابت المدينة بجمالها الساحر خلف الأفق، ولم يعد يُرى من تلك الشرفة المظلمة إلا مياه النهر الهادئة الوديعة، وتلك المروج الخضراء المفروشة على جانبيه، و انعكس عليها ضوء القمر الساطع، فبدت كأنها قطعة من البلور الفسفوري الوضاء، ومن حين لآخر ترى تلك الأكواخ المبنية من القش، حيث توجد أمامها نار متأججة، ومنها تأخذ البواخر زادها من الحطب لمحركاتها. كل تلك الذكريات، التي كانت مخبوءة في عقل فلورنتينو عن رحلته النهرية أيام شبابه، إذا بها تظهر مرة أخرى على السطح بمجرد أن وقعت عيناه على النهر العظيم، فكأن تلك الأيام البعيدة كانت بالأمس القريب، وراح يسرد لها جزءا من أيامه هذه، وهو يظن أنه بذلك يثير حماسها، ولكنها كانت تدخن وعقلها في وادٍ آخر تماما، وحينها تخلى هو عن سرد ذكرياته وتركها فيما هي فيه من أفكار تلف السيجارة تلو الأخرى، وتدخن بلا انقطاع إلى أن أتت على العلبة كلها، وتوقفت الموسيقى بعد انتصاف الليل، وسرعان ما تلاشت جلبة المسافرين وضوضائهم ، واستحالت إلى همهمة نائمة، وبقى قلباهما وسط ظلام الشرفة ينصتان إلى صوت الباخرة، وهى تمخر عباب النهر.

وبعد مدة طويلة، نظر إليها فلورنتينو أريثا، و انعكس عليها لمعان النهر وبريقه، أحس كأنه ينظر إلى طيف، إلى تمثال جميل انعكس عليه ضوء أزرق خفيف من الجانب، ثم أدرك أنها تبكي في صمت، ولكنه بدلا من مواساتها أو انتظارها حتى تفرغ من دموعها، كما كانت تود ، إذا به يستسلم لموجة الفزع، التي اجتاحته، ويسألها قائلا:

- أتودين أن أتركك وحدك؟

فقالت:

- لو كنت أود هذا، لما دعوتك للدخول.

حينئذ مدد أصابعه الباردة وراح يبحث عن يدها وسط الظلام، ووجد يدها تنتظر يده. في نفس اللحظة أدرك كلاهما أن هذه ليست اليدين، التي توقعاها قبل أن يلمسا بعضهما، هما الآن يدان عجوزان، ولكن في اللحظة التالية انقشع هذا الإحساس على الفور، وبدأت هي تكلمه عن زوجها المتوفى، وفي زمن المضارع، كأنه لا يزال على قيد الحياة، وفى تلك اللحظة عرف فلورنتينو أنها أيضا جاء عليها الدور لتسأل نفسها بكل عظمة وخيلاء، وبكل ما فيها من رغبة في مواصلة الحياة: ماذا ستفعل بهذا الحب، الذي بقى لها دون صاحب؟

وتوقفت فيرمينا عن تدخين سجائرها كي لا تترك يده المحتفظة بها في يدها. حقيقة، هي في تلك اللحظة هائمة في رغبة عارمة لفهم واقعها. لا يمكنها أن تتخيل زوجا أفضل من زوجها الذي مات، ومع ذلك فهى تواجه صعوبات كثيرة كي تستحضر حياتها معه، أشياء كثيرة جدا لا تفهمها، ومماحكات كثيرة لا فائدة منها نشبت بينهما، وغضب لم يخمد بعد، ثم سرعان ما تنهدت في حرقة: «أمر لا يصدق أبدا، كيف كنا بهذه السعادة كل هذه السنين الطويلة، رغم الخصام، ورغم الضجر، بل والأعجب لا أحد منّا يعرف إذا كنا نحب بعضنا أم لا»، وبمجرد أن أفرغت ما فيها من كلام واستراحت، وكأن أحدا حجب وجه القمر عن الأرض، بينما الباخرة تتقدم في بطء وئيد، لا تضع قدما إلا وتقدم الأخرى، بالضبط كأنها حيوان ضخم للغاية وقع في شباك الصياد، حينئذ فاقت فيرمينا مما كانت فيه من هم وقلق، وقالت له:

- انصرف الآن.

فشد فلورنتينو على يدها، وانحنى عليها يريد أن يقبل خدها، ولكنها أشاحت عنه قائلة في صوت رقيق واهٍ:

- لا، لا. أنا عجوز للغاية.

وسمعته، وهو يخرج وسط الظلام، ثم وهو يرقى السلالم، ثم حين رقد وسكنت حركاته تماما إلى مجيء اليوم التالي، حينها أشعلت سيجارة أخرى وراحت تدخنها، وإذا بها ترى الدكتور خوبينال أوربينو بأبهته وملابسه الكتانية، التي لا تشوبها شائبة، بذلك البريق، الذي ميزه كطبيب طبقت شهرته الآفاق، بظرفه الخلاب الممتع، بالحب الرسمي الذي اتسم به، إذا بها تراه يشير لها بإشارة الوداع بقبعته، ناصعة البياض، واقفا على حافة باخرة أخرى من الماضي السحيق. ذات مرة قال لها: «الرجال ما هم إلا مساكين تتحكم فيهم الآراء السابقة، بل لنقل إنهم يعبدونها، أما النساء، فعلى النقيض تماما، حينما تقرر أن تنام مع رجل، فلا ثمة أي حاجز قد يعلو عليها، أو عقبة قد تمنعها، أو حتى أي اعتبار أخلاقي قد يقف أمامها، باختصار لا إله لها»، وظلت فيرمينا على حالها لا تأتي بحركة واحدة إلى أن بزغت الخيوط الأولى من الفجر، ظلت تفكر في فلورنتينو أريثا، ولم تكن تتخيله حينئذ بشكله الحزين الكئيب أيام حديقة لوس إبانخليوس، التي لم تعد ذكراها تثير فيها أي حنين أو شوق، وإنما تخيلته بمنظره الحالي، عجوز بلغ من العمر أرذله، ويعرج على قدميه، ولكنه واقع وملموس، فها هو ذا الرجل، الذي دوما في متناول يديها، ولكن أبدا لم تعرفه حق المعرفة، والحقيقة أن الشيء الوحيد، الذي تمنته من الله حينئذ، بينما يغمرها شعور جارف بأن تلك الباخرة تشعرها بأنها تعيش أزهى أيامها، أن يلهم فلورنتينو مرة أخرى من أين يبدأ حين يأتي اليوم التالي.

هى تعرف ما عليها فعله، أمرت الخادم بأن يتركها تنام على هواها، وحينما استيقظت وجدت على الكومودينو زهرية وضعت فيها وردة بيضاء، طازجة، ما زالت مبللة بقطرات الندى، ومرفق معها رسالة من فلورنتينو من عدة ورقات ظل يكتبها منذ أن ودعها ليلة أمس. كلام هادئ كل الهدوء، لا يعدو إلا أن يكون تعبيرا خالصا عن الشعور، الذي غمره في الليلة السابقة:

كلامه عاطفي بالفعل ككلامه جميعا، وفيه كثير من البلاغة والشاعرية، ولكنه كلام قائم على حقيقة واقعة، حتى فيرمينا، وهى تقرأ التهبت وجنتاها من الخجل لما أحست به من سرعة دقات قلبها الحرون، وانتهى كلامه أنه أمر الخادم بأن يعلمه متى تكون جاهزة، وذلك لأن القبطان ينتظرهما في كابينة القيادة كي يشرح لهما كيف تعمل الباخرة.

وفي تمام الساعة الحادية عشرة، كانت متأهبة للخروج، استحمت وتفوح منها رائحة الورد العطرة، وارتدت طقما بسيطا للغاية من الحرير، رمادي اللون، والخاص بالأرامل، وخرجت وقد تعافت تماما من تلك العاصفة الهوجاء، التي عصفت بها ليلا. أمرت أحد الخدم، بملابسه البيضاء كاملة، ويقوم بخدمة القبطان شخصيا، بإحضار إفطار متوسط لها، ولكنها لم تبعث معه خبرا إلى القبطان وفلورنتينو بأنها استيقظت كي يأتيا لأخذها من غرفتها، وصعدت وحدها إليهما، وأذهلتها السماء الصافية الخالية من السحب، ووجدت فلورنتينو أريثا يتحدث مع القبطان في كابينة القيادة. رأت أمامها شخصا مختلفا تماما، وليس لأنه تغير في عينيها، وإنما هو فعلا تغيّر، فبدلا من ملابسه الكئيبة الجنائزية، التي يلبسها طول عمره، وجدته يلبس حذاء ناصع البياض مريحا تماما للعين، وبنطلونا، وقميصا بأكمام قصيرة من الكتان، مفتوح الياقة، طرزت الحروف الأولى من اسمه على جيب الصدر الخاص به، وكان أيضا يضع على رأسه قبعة اسكتلندية بيضاء اللون كذلك، ونظارة شمس سوداء فوق نظارته الدائمة، الخاصة بقصر النظر. واضح تماما أنه لأول مرة يلبس هذا اللبس، وأنه اشتراه خصيصا لأجل هذه الرحلة، باستثناء الحزام الجلدي، بني اللون، الذي بلي من كثرة استعماله، والذي لاحظته فيرمينا داثا منذ أول نظرة بالضبط كأنها ترى ذبابة وقعت على سطح الحساء، والحقيقة أنها بمجرد أن رأته بهذه الهيئة الفخمة، وأحست أن كل هذا من أجلها، إذا بها تشعر بحمرة الخجل تتصاعد إلى وجهها ولا تستطيع لها إخفاءً، وأحست

بإحراج، وهى تسلّم عليه، وأحس هو أيضا بإحراج من إحراجها. شعورهما أنهما يتصرفان كعروسين يحرجهما ويثير فيهما الخجل، بل إن شعورهما بالإحراج يحرجهما ويخجلهما إلى أن نبهه القبطان ساماريتانو بصوت فيه رجفة وشفقة عليهما، وأنقذهما مما هما فيه، وراح يشرح لهما لساعتين كيف يقود الباخرة عبر أجهزة التحكم الموجودة فيها، وكيفية عمل الباخرة ميكانيكيا، وكل هذا والباخرة تسبح ببطء شديد في نهر لا يوجد لا على شماله أو يمينه ضفة تحده، وإنما هي شواطئ كثيرة قاحلة تمتد على مدى الأفق. المياه في ذلك الموضع، تماما عكس مياهه العكرة، التي تكون عند المصب، فهى شفافة وئيدة للغاية، ولها لمعان مثل لمعان المعدن أسفل أشعة الشمس الحارقة، وأحست فيرمينا حينها كأنها داخل دلتا مكتظة بجزر رملية، وقال لها القبطان:

– للأسف، كل ما تريانه من النهر الآن، ليس إلا قليلا مما تبقى منه.

أما فلورنتينو أريثا، ففي واقع الأمر دهش، وتعجب لهذا التغير الكبير، الذي شمل النهر، ودهش أكثر وأكثر في اليوم التالي، حيث كانت الباخرة تسبح بصعوبة بالغة، وأدرك كيف أن نهر ماجدالينا العظيم، أعظم أنهار الدنيا، لم يعد إلا مجرد ذكرى، وراح القبطان يحكي كيف كان تأثير الإزالة الجائرة للغابات المحيطة بالنهر خلال خمسين عاما، فكانت محركات البواخر في حاجة إلى خشب أشجار الغابات الضخمة بقطعها، حتى أن فلورنتينو في رحلته الأولى أحس بضيق شديد لهذا القطع الجائر للأشجار، ولم تر فيرمينا ما كانت تأمل أن تراه من حيوانات، فصائدو الجلود التابعون للمدابغ الموجودة في نيو أورليانز قضوا على التماسيح النهرية صيدا وقتلا حتى أبادوها جميعا، تماسيح كانت تسترخي فاغرة فاها ساعات وساعات دونما أي حراك عند تلك الجداول المتفرعة من النهر مفزعة ما حولها من فراشات، وكذلك راحت تنقرض شيئا فشيئا طيور الببغاء بضجيجها المرح والقرود بصرخاتها

المجنونة، بسبب القطع الجائر للأشجار، التي تحوي طعامها، وكذلك خرفان الماء ذات الأثداء الكبيرة، التي ترضع بها أطفالها، وتبقى على الشاطئ تبكي بصوت حزين. أبيدت الآن بسبب تلك الطلقات الطائشة من صائدي المتعة.

والحقيقة، أن القبطان ساماريتانو أثار فيهما شفقة شديدة نحو خرفان الماء، فهى تبدو له كامرأة حكم عليها بحب عارم، بل إنه يعتقد في أسطورة بأنها الحيوانات الوحيدة، التي لا يوجد منها الذكور، ودائما يعارض بعنف أي أحد يصيدها من على حافة الباخرة، كما كانت العادة حينئذ، رغم وجود قوانين تحرم صيدها، وذات مرة، جاء صياد من ولاية كاليفورنيا الشمالية ومعه ما معه من وثائق تثبت أحقيته في الصيد، إذا به يخالف تعليمات القبطان، وهشّم رأس إحدى خرفان الماء بطلقة من بندقيته السبرينجفيلد، وجنّ رضيعها من الألم، وأخذ يبكي بحرقة أمام جثة أمه، حينها أمر القبطان بأخذ الرضيع إلى متن الباخرة ليرعاه، وترك الصياد عند ضفة النهر بجانب جثة الأم المقتولة، وبسبب ما فعله القبطان بالصياد، تم حبسه لمدة ستة شهور، لخرقه القوانين الدبلوماسية، وكان على وشك أن يفقد رخصة الملاحة الخاصة به، ولكنه خرج من السجن مستعدا أن يكرر فعلته هذه مرة أخرى، بل ومرات، ومع ذلك، وقع حدث تاريخي، ذلك الرضيع اليتيم، الذي نما وعاش سنين طويلة في حديقة الحيوانات النادرة في سان نيكولاس ديه لاس بارنكاس، كان آخر خروف نهر يراه هناك.

قال:

- كل مرة أمر بهذا الشاطئ، أرجو من الله أن يعود ذلك الأمريكي الحقير إلى باخرتي، لأتركه هنا مثل أول مرة.

وصراحة، تأثرت فيرمينا بكلام هذا الرجل الضخم الحنون، رغم أنها أصلا لم تكن تستلطفه، ومنذ صباح ذلك اليوم وضعته في مكان خاص جدا في قلبها، حسنا فعلت، فالرحلة بالكاد بدأت، ومع ذلك مرت بها أمور كثيرة

أثبتت لها أن قرارها بالقيام بهذه الرحلة لم يكن خطأ.

ظلت فيرمينا مع فلورنتينو في كابينة القيادة، حتى حان موعد الغداء، حينها كانت الباخرة مرت منذ وقت قليل على قرية كالامار، التي كانت منذ سنوات قليلة تقام بها احتفالات طوال السنة، ولكنها الآن لم تعد إلا أنقاضا مهدمة وشوارع مقفرة لا يوجد أحد فيها، والإنسان الوحيد، الذي رأته فيرمينا ليس إلا امرأة ترتدي ملابس بيضاء تلوح بمنديل في يدها، ولم تفهم فيرمينا لماذا لا يأخذونها إلى الباخرة، فالمرأة تبدو في غاية التعاسة، ولكن القبطان أوضح لها أنها مجرد امرأة ميتة غارقة يبدو فعلا كأنها تلوح لهم لينقذوها، ولكن لا، فلو اتجهوا إليها فقد تنحرف الباخرة إلى دوامات المياه الخطرة الموجودة عند الضفة الأخرى من النهر، ومروا على مقربة منها للغاية حتى رأتها فيرمينا بكل وضوح تحت أشعة الشمس الساطعة، وأحست بالشك، فبدا لها وجه تلك المرأة مألوفا لها.

ويومها كان الجو شديد الحرارة، والوقت يمر ببطء شديد، وبعد الغداء عادت فيرمينا إلى غرفتها كي تنام قيلولتها، التي لا بد منها، ولكنها لم تستطع النوم جيدا بسبب تلك الآلام، التي أحست بها في أذنها اليسرى، آلام زادت حدة، حينما أطلقت الباخرة صفارات قوية تحية لباخرة أخرى تابعة لنفس الشركة، فالتقت الباخرتان على بعد عدة فراسخ من بلدة بnaررنكا بيبخا، وقتها كان فلورنتينو أريثا نائما على مقعد موجود في القاعة الرئيسية للباخرة، حيث ينام هناك ليلا أغلب المسافرين، الذين ليس لهم غرف تؤويهم، ورأى في منامه روسالبا موجودة في موضع قريب جدا من الموضع، الذي رآها فيه. وجدها ترتدي نفس ملابسها الخاصة بمدينة مومبوكس، ملابس يرجع زمنها إلى القرن الماضي، والغريب أنه وجدها هي ، وليس رضيعها من تنام قيلولتها في القفص المصنوع من الصفصاف المعلق بالحائط. صراحة، حلم غريب جدا، وملغز ومثير في الوقت نفسه، حلم ظل طعمه في حلقه بقية يومه، بينما

يلعب بأحجار الدومينو مع القبطان واثنين من الأصدقاء المسافرين .

وبمجرد أن أذنت الشمس بالمغيب انقشع الحر الخانق، وانتعشت الباخرة من جديد، وفجأة ظهر المسافرون على متنها، كأنهم كانوا في سبات عميق، كل منهم استحم منذ وقت قليل، ويضع على جسده ملابس جديدة نظيفة، وراحوا يحتلون المقاعد الخشبية الموجودة في البهو المخصص للعشاء، والذي أعلن عنه في الساعة الخامسة بالضبط عامل في السفينة راح يجوبها من أقصاها إلى أقصاها، وهو يدق جرسا كتلك الأجراس الخاصة بخدم الكنائس، وسط سخرية وتصفيق الناس من حوله، وفيما هم آخذون في الطعام، راحت الجوقة تعزف موسيقى «الفاندانجو» الإسبانية الأصل، وامتد الرقص لوقت طويل حتى منتصف الليل.

ولم تود فيرمينا حينها أن تأكل عشاءها لما تحس به من آلام حادة في أذنها، وشاهدت الباخرة، وهي تقف وتشحن إليها أول شحنة من الحطب من أجل مراجلها ومحركاتها، رأت حفرة عميقة ليس فيها إلا جذوع الأشجار المكومة بعضها فوق بعض، ورأت رجلا عجوزا للغاية هو المشرف على هذه التجارة، وفي تلك البقعة من الأرض تحس بأنه ليس ثمة أحد نهائيا ، وعلى مدى عدة فراسخ، والحقيقة أنها أحست بأن عملية شحن الحطب للباخرة أمر ممل للغاية وشديد البطء، ولا يقارن الأمر برمته بعابرات المحيطات الخاصة بأوروبا، والحر تزداد حدته بشدة في تلك المرحلة، حتى شرفتها المكيفة لا تحس فيها بأي طراوة، ولكن حينما أقلعت الباخرة من جديد، هبت عليها ريح منعشة مشبعة برائحة الغابات العطرة، وسرعان ما غدت الموسيقى مفعمة بالمرح والبهجة، وحين مرت الباخرة على بلدة سيتيو نويبو، لم يجدوا حينها أي ضوء يسطع إلا من نافذة واحدة فقط تقع في إحدى بيوت القرية، أما مكتب الميناء، التابع للقرية، فلم يرسل للباخرة أية إشارة تفيد بوجود حمولة ما أو مسافرين يودون الركوب، بحيث أنها مرت، ولم تطلق حتى صفارة

واحدة، ولو مجرد تحية.

فيرمينا مكثت اليوم كله تفكر ماذا سوف يفعل فلورنتينو كي يراها في غرفتها دون أن يطرق باب غرفتها، وما إن أتت الساعة الثامنة، حتى أحست هي برغبة عارمة لتراه، فخرجت إلى الطرقة على أمل أن تلتقي به بشكل يبدو كأنه مجرد صدفة، ولم تضطر أن تمشي كثيرا، فهو نفسه كان جالسا على أحد المقاعد في الطرقة، يلفه صمت عميق وحزن شديد تماما مثلما كان يبدو في حديقة لوس إبانخليوس، يسائل نفسه منذ ساعتين ماذا سيفعل ليراها، وأظهر كل منهما دهشته لما رأى الآخر، وهو وهى يعرفان تماما أنهما يتظاهران بالدهشة، ثم سارا معا في الطابق الأول من الباخرة، الذي كان مكتظا عن آخره بشباب المسافرين، أغلبهم طلبة مشاغبون يحيون آخر حفل عربدة لهم في إجازتهم، وعند كانتين الباخرة جلسا كالشباب أمام طاولة يشربان إحدى المشروبات المنعشة، وفجأة أحست بحالة شديدة من الخوف، وقالت فزعة: «يا للرعب»، فسألها فلورنتينو: ما الذي جعلها تحس بهذا الإحساس، فأجابته:

– كنت أفكر في هذين العجوزين المسكينين، الذين قتلا بضربات المجداف.

حينما سكنت أصوات الموسيقى، ذهب كل منهما لينام في غرفته، بعد كلام طويل لذيذ، وسط الظلام، أمام الطاولة، والسماء وقتها كانت عابسة للغاية، القمر مختفٍ، وفي الأفق البعيد يومض برق بلا رعد، فينير السماء لحظة، ثم يتلاشى، وأخذ هو يلف السجائر من أجلها، ولكنه لم يدخن أكثر من أربع سجائر، هي تدخن متوجسة من هذا الألم، الذي يخف بضع لحظات فحسب، ثم يستفحل ويزداد حين ينطلق صفير الباخرة المزعج، الذي يدوي في كل مرة تمر فيها أمام باخرة أخرى، أو إحدى القرى النائمة، أو حتى حينما تسبح ببطء شديد للغاية كي تستطلع عمق النهر، وجعل يحكي لها كم

كان يحس بالسعادة لرؤيتها في كل مرة تقام المسابقة الشعرية، وحين قامت برحلتها على متن المنطاد الكروي، وحين ركبت تلك الدراجة، غريبة المنظر، حكى لها كم كانت لهفته، وهو ينتظر المناسبات العامة، التي تقام على مدار السنة فقط لرؤيتها هي دون غيرها من الناس، حتى هي كثيرا ما رأته أيضا، ولكنها أبدا لم تتوقع أنه إنما يحضر فقط لرؤيتها، ومع ذلك، إذا بها تسأله فجأة كيف يكون له مثل هذه الرسائل، التي ظلت سنة تقرأها، ولا يشارك في مرة من المرات في المسابقة الشعرية السنوية، فلا شك أنه كان سيكسبها. وكذب عليها: هو يكتب فقط من أجلها، وأشعاره كلها من أجلها فقط، وهو الوحيد، الذي يقرأها. حينئذ هي التي بحثت عن يده هذه المرة، ولم تجد يده تنتظر يدها كما كانت هي أمس تنتظر يده، وإنما هي قبضت على يده فجأة، وتجمد قلب فلورنتينو من الذهول قائلا:

- يا لغرابة النساء!

فأطلقت ضحكة عميقة صافية، فيها من دلال الشباب، كأنها حمامة مسالمة، وسرعان ما عادت تفكر في العجوزين، اللذين قتلا على متن الزورق، وكأنه مكتوب عليها أن تظل تحمل ذكراهما دوما، ولكنها هذه الليلة بمقدورها أن تتحمل ألم هذه الذكرى، أحست بنفسها هادئة كل الهدوء، في راحة عظيمة، راحة قليلا ما تحس بها في حياتها: شيء نادر أن تشعر بنفسها خالية من كل ذنب، وظلت هكذا إلى أن طلع الصباح، وهى في صمت تام، ويدها في يده ينضح منها العرق بغزارة، ولكنها لم تستطع تحملا لهذا الألم، الذي في أذنها لدرجة أنه عندما سكنت الموسيقى، وانقشع ما كان من هرج ومرج من المسافرين، بعدما علقوا سرائرهم في بهو الباخرة، أحست حينئذ أن ألمها الحاد في أذنها أقوى كثيرا من رغبتها في البقاء معه. هي تعلم بأنها سوف ترتاح كثيرا لو أخبرته بما تحس به من ألم، ولكنها لم تود أن تشغل باله. شعرت فيرمينا حينها بأنها تعرفه وكأنها عاشت معه عمرها كله، لذا تعتقد بأنه

في استطاعته أن يأمر بعودة الباخرة من حيث أتت لو أن هذا سوف يخفف فقط من ألمها.

توقع فلورنتينو صراحة أن تكون ليلتهما مثلما كانت تماما، وأخيرا انسحب ليخرج من غرفتها، وعند باب الغرفة حاول توديعها بقبلة في فمها، ولكنها أعطت له خدها الأيسر، فأصر هو مرة أخرى، و بدأ نفسه يضطرب ويتقطع، وأعطت له بدورها خدها الأيمن في دلال أخّاذ لم يره منها منذ كانت طالبة في المدرسة. حينها، أصر مرة أخرى على تقبيلها، فأعطت له شفتيها واستقبلت شفتيه في اضطراب ووجل، فضحكت لتخفي ما بها، ضحكة لم تضحكها منذ أيام زواجها. قالت متعجبة:

– يا إلهي، إنني أكون مجنونة تماما على متن البواخر!

وتأثر فلورنتينو أيما تأثير، فهى في الواقع، كما قالت له بالضبط، لديها رائحة العمر المُرّة في فمها، ومع ذلك، فبينما هو يشق طريقه إلى غرفته بين متاهة من السرائر المعلقة، أحس براحة، حينما فكر في أنه هو كذلك لديه رائحة الشيخوخة المرة، كل الفرق أنه أكبر منها بأربع سنوات، ولا بد أن هذا أيضا كان شعورها. الرائحة كأنها خميرة إنسانية، رائحة شمها في عشيقاته القديمات، وهن أيضا شممنها فيه ، وحتى امرأة ناثاريت، رغم أنها دوما شديدة الحرص والكتمان، قالت له ذات مرة في لهجة قاسية: «ها نحن الآن تفوح منا رائحة النسور السوداء»، وكلاهما يحمل تلك الرائحة، فكأن رائحتي تقف ضد رائحتك، وبالتالي لا نشعر بشيء. على النقيض، كثيرا ما كان يأخذ حذره من أمريكا بيكونيا، فرائحتها التي تشبه رائحة حفاظات الأطفال تثير فيه أبوته نحوها، ومع ذلك، فهو لا يحتمل فكرة كونها من الوارد جدا تكره رائحته: رائحته كرجل عجوز متعفن، ولكن هذا كله لم يعد إلا ماضيا فات وانتهى. المهم أنه لأول مرة منذ عصر ذلك اليوم البعيد، حيث تركت العمة إسكولاستيكا الكتاب المقدس فوق منضدة مكتب التلغراف، لأول مرة يشعر

بهذه السعادة الغامرة، مثل تلك التي شعر بها هذه الليلة: سعادة من شدتها سببت له إحساسا بالخوف.

بمجرد أن أحس بالنوم يطرق جفنيه، إذا بموظف الحسابات الموجود في الباخرة، حيث كانت وقتها راسية عند ميناء ثامبرانو، يوقظه في الساعة الخامسة صباحا ليعطيه رسالة تلغرافية عاجلة، وكانت تلك موقعة باسم ليونا كاسياني، مؤرخة بتاريخ يوم أمس، ولخص خوفه تلخيصا في سطر واحد: أمريكا بيكونيا ماتت أمس لأسباب غامضة، وفي الساعة الحادية عشرة صباحا عرف بقية التفاصيل في مداخلة تلغرافية مع ليونا كاسياني، وهو بنفسه من تحكم في جهاز التلغراف، وبمهارة لم تكن لديه منذ أيام عمله في مكتب التلغراف، وعرف بأن أمريكا بيكونيا انتحرت بشرب زجاجة كاملة من صبغة الأفيون سرقتها من أجزخانة المدرسة، لأنها أحست بإحباط مريع لما وجدت أنها سقطت في امتحانات نهاية العام، وسوف تعيدها من جديد. هو يعلم من أعماق أعماقه أن هذا الخبر غير مكتمل، ولكن لا، فأمريكا بيكونيا لم تترك أية رسالة أو عبارة ترمي فيه ذنب انتحارها على شخص ما، وعائلتها في تلك اللحظة وصلت إلى البلدة آتية من مدينة بويرتو بادريه، بعدما أنبأتهم ليونا كاسياني بالخبر، وعلم أن مراسم دفنها في الساعة الخامسة من عصر ذلك اليوم، فتنفس الصعداء شاعرا بالراحة، وكل ما أمامه كي يستطيع مواصلة حياته هو ألا يسمح لهذه الذكرى بتعذيبه، وفعلا محاها محوا من ذاكرته، مع أنه من حين لآخر، فيما تبقى له من سنين عمره، إذا به يجد ذكراها، فجأة ودون أن يدري، تطرق عقله طرقا، كأنها وخزات ألم سريعة الزوال لندبة قديمة.

وجاءت الأيام التالية شديدة الحر، كل لحظة فيها تمر ببطء شديد، وتعكر ماء النهر، وفي كل مرة يزداد ضيقا، وبدلا من تلك الأشجار الضخمة الملتفة بعضها ببعض، التي كثيرا ما تمتع فلورنتينو بظلها في رحلته الأولى، بدلا منها وجد أراضي منبسطة شاسعة تغطيها طبقة من الجير، وبقايا غابات

كاملة من تلك، التي قضت عليها مراجل البواخر، وبقايا أنقاض قرى تنكر لها وجه الزمن، ما زالت شوارعها غارقة في الماء، حتى في فترات الجفاف الشديدة، ولم يعد يوقظهم ليلا ذلك الغناء الشجي، الذي تشدوه خرفان النهر عند الشواطئ، وإنما توقظهم رائحة كريهة للغاية مثيرة للغثيان تنبعث من جثث الموتى الطافية فوق الماء، الذي يأخذها إلى البحر، فرغم أن الحرب انتهت، ومعها أيضا انقشع الوباء، إلا أنه ما زالت تلك الجثث المنتفخة تطفو على سطح الماء، ولأول مرة يقول لهما القبطان بنبرة معتدلة هادئة: «لدينا أوامر أن نقول للمسافرين أن تلك جثث لناس غرقت بالصدفة»، ولم يعد ما كان قبلا من تلك الجلبة، التي تسببها طيور الببغاء ولا صياح القردة، الذي كان في وقت من الماضي يزداد مع انتصاف النهار، صار مكان كل هذا مجرد أراض مدمرة، يعمها هدوء شامل.

لم يعد هناك إلا أماكن قليلة جدا لجلب الحطب، وكل مكان يكون بعيدا تماما عن الآخر، لدرجة أن الباخرة بقيت في اليوم الرابع بدون وقود يدفعها، وظلت أسبوعا بأكمله مربوطة بالشط، بينما ذهب ملاحوها للبحث عما تبقى من أشجار مبعثرة بين بقايا الغابات، ولم يجدوا أي حطاب ليمدهم بالخشب، فقد هربوا جميعا من جشع ملاك الأرض، ومن شبح الكوليرا، الذي يحوم حولهم دوما، ومن تلك الحروب الخفية، التي كانت الحكومات تخفي خبرها بقرارات ومراسيم لتشتت انتباه الناس عنها.

في ذلك الوقت، راح المسافرون، الذين أرهقهم الملل يقيمون مباريات سباحة في مياه النهر، ينظمون رحلات صيد، ثم يرجعون منها، وفي أيديهم سحالي الإجوانا، التي يشقونها طوليا، ثم يخيطونها بإبر الخياطة، بعدما يخرجون منها عناقيد البيض اللامعة الطرية، ثم يصنعون من البيض سلاسل طويلة، ويضعونها على درابزين الباخرة لتجف، وفتيات الليل الفقيرات اللائي يسكن الأحياء المجاورة عرفن من أين يقوم المسافرون برحلات صيدهم،

وسرعان ما أقمن دكاكين ريفية عند ضفة النهر، وحملن معهن الموسيقى والمشروبات، ورحن يقمن حفلات عربدة أمام الباخرة الراسية.

الحقيقة أن فلورنتينو أريثا، منذ وقت طويل جدا قبل أن يكون رئيسا لشركة الكاريبي للملاحة النهرية، كثيرا ما تلقى تقارير خطيرة عن حالة النهر، ولكنه كان بالكاد يقرأها ليلقيها جانبا، وكان يقول لشركائه، حينها، محاولا تهدئتهم: «لا تقلقوا، فعندما ينعدم وجود الحطب، سوف نأتي حينها بالبواخر، التي تعمل بالبترول»، وأبدا لم يكن يأخذ الموقف على محمل الجد، وأعماه حب فيرمينا، وأخيرا حين أدرك الواقع جيدا، كان الأوان فات، ولا ينقصهم إلا أن يبحثوا عن نهر جديد لتسبح فيه بواخرهم. جدير بالذكر أنه في كل ليلة لا بد من أن ترسو الباخرة، حتى حينما تكون المياه صافية لا يعكر صفوها أي شيء، كي يستطيع المسافرون النوم، ولكن يصير حينها مجرد أن يبقى الفرد على قيد الحياة أمرا لا يطاق، وحتى معظم المسافرين، خاصة الأوروبيين منهم، يتركون غرفهم، التي من شدة الحر فيها كأنها القبور، ويقضون ليلتهم يتمشون على سطح الباخرة، وهم يهشون كل ما كان يحط عليهم من أنواع الحشرات والحيوانات الضارة بنفس تلك المنشفة التي يجففون بها عرقهم، ثم يطلع عليهم الصباح، وهم في غاية التعب، وتورمت أجسادهم من كثرة اللدغ. وذات مرة في أوائل القرن التاسع عشر، كتب أحد الرحالة الإنجليز مشيرا إلى تلك الرحلة، التي قد تمتد لخمسين يوما على ظهر البغال، ومتن القوارب: «تلك رحلة من أسوأ الرحلات، التي ممكن أن يقوم بها إنسان». كلامه هذا لم يكن واقعا خلال ثمانين عاما من السفن البخارية، ثم عاد هذا الكلام واقعا مرة أخرى وإلى الأبد، بعدما أكلت التماسيح النهرية آخر فراشات يمكن أن تأكلها، وبعدما انقرضت خرفان النهر بأثدائها الضخمة، وطيور الببغاء، والقرود، والقرى: انتهى، كل شيء راح وانقرض.

ذات مرة قال له القبطان ضاحكا:

– لا مشكلة البتة، فهى مجرد سنوات معدودات، ومكان جفاف النهر سنقوم برحلاتنا على متن سياراتنا الفارهة.

قضيا أول ثلاثة أيام في شرفة غرفة فيرمينا المكيفة ينعمان بجو الربيع المنعش، ولكن ما لبث أن بدأ الملاحون في تجزيء الحطب، وتم إيقاف نظام التبريد في الغرفة، حينها كأن تلك الغرفة الرئاسية إبريق من البخار. هي تجاوزت محنة تلك الليالي الصعبة بما يدخل نافذتها من هواء النهر، بينما تهش الناموس بمنشفتها، فالمصباح الخاص بقتل الحشرات لم يكن له أي نفع حين تكون الباخرة راقدة، والألم الذي كانت تحس به في أذنها اليسرى غدا لا يطاق، ولكنها استيقظت في الصباح ذات مرة لتجد الألم راح بلا رجعة، اختفى تماما بعدما كان يطن في أذنها باستمرار، ولكنها لم تدرك أنها أصلا فقدت السمع في أذنها اليسرى إلا عند مجيء الليل، حين كان فلورنتينو يحدثها من الجهة الأخرى، وهى اضطرت أن تلتف برأسها كي تسمع كلامه، والحقيقة أنها لم تخبر أحدا أبدا ، سلمت بأن ما يحدث لها هو عيب من عيوب العمر، الذي ليس له دواء.

على كل، تأخُّر الباخرة في رحلتها بالنسبة لهما فرصة منحتها لهما الأقدار، وهو قرأ ذات مرة: «الحب يكون أنبل وأعظم في الجو الهادئ»، والرطوبة الشديدة، التي كانت تعم الغرفة الرئاسية، حينئذ أشاعت في جسديهما نوعا من الخمول المثير للشبق، خمول يدفعهما للجنس بلا سؤال أو كلام، كم كانت تلك الساعات ساحرة، وكل منهما ممسك بيد الآخر جالسين على مقعديهما في الشرفة، وما لبثا أن تمرغا في قبلات بطيئة وئيدة، وراحا يثملان بشهوة اللمس دون أن يعكر صفوهما أي شيء. في الليلة الثالثة من ليالي الخمول كانت تنتظره، ومعها زجاجة فيها خمر الينسون، من تلك التي كانت تشربها خفية مع ابنة خالها إيلديبراندا وأصدقائها، حتى بعدما تزوجت وولدت كانت تنغلق مع صديقاتها، وتسبح معهن في عالم سحري

أثيري. في تلك اللحظة أحست بحاجتها إلى مزيد من السُكر كي لا تفكر في حظها بوعي مدرك، أما فلورنتينو فظن أنها تسكر أكثر كي يخطو بها الخطوة الأخيرة. تفكيره وخياله أعطياه المزيد من الجرأة، فجعل يمر بأنامله على رقبتها الذابلة المتغضنة، ثم صدرها المحمي بسنديان من الأسلاك المعدنية، ثم وركها ذي العظام المتآكلة، ثم فخذيها العجوزين، وهى، كل ذلك، مغمضة عينيها في استمتاع لذيذ، ودون أن تختلج لها خلجة واحدة، بينما تعب من الخمر برشفات بطيئة ممطوطة، وفي النهاية، حين بدأت أنامله تنزلق على بطنها، كانت الخمر تملكت من قلبها، قالت له:

- إذا كان لا بد من القيام بتلك الأمور الصغيرة، فلنقم بها، ولكن كما يفعل الراشدون من الناس.

ثم إذا بها تأخذه إلى غرفة النوم، وأخذت تنزع ملابسها دون خجل أسفل الضوء، وتمدد فلورنتينو بظهره على الفراش، يجاهد ليحكم السيطرة على نفسه، فها هو مرة أخرى لا يعرف كيف سيتعرى أمامها، وهو في هذه السن، وإذا بها تقول له: «لا تنظر إليَّ»، فسألها لماذا دون أن تنحرف عيناه عن سقف الغرفة، فأجابته قائلة:

- لأن هذا لن يعجبك.

حينئذ نظر إليها ورآها عارية حتى خصرها بالضبط كما تخيلها. كتفاها متغضنان ، وثدياها خمدا تماما، وضلوعها يغطيها جلد شاحب بارد مثل جلد الضفادع. على الفور، حجبت ثدييها بالبلوزة، التي خلعتها للتو، ثم أطفأت النور. حينئذ نهض هو وراح يخلع ملابسه في الظلام، ويلقي عليها ملابسه قطعة قطعة، وهي تكاد تموت من الضحك.

ظلا مدة طويلة ممدين على ظهريهما، وهو كلما أحس بدوار السُكر ينقشع من أمامه زاد استسلاما وضعفا، أما هي فهادئة، فاقدة الإرادة تماما، ولكنها ترجو من الله ألا تضحك دون وعي منها كحالها دوما حين تعب

خمر الينسون، ثم راحا يسليان وقتهما في حديث دافئ لذيذ بينهما. تحدثا عن نفسهما، عن حياتهما المختلفة، عن قدرهما العجيب الغريب أن يكونا هكذا عاريين في غرفة الباخرة الراقدة، بينما من الأحرى لهما التفكير بأن وقتهما لا يسع إلا لانتظار الموت. هي لم تسمع قط أنه قضى وطره، ولو مرة واحدة مع إحدى النساء، رغم أنها في بلدة يُعرف فيها كل شيء حتى قبل وقوعه، وأخبرته بهذا الكلام بشكل عارض كأنه غير مقصود منها، فرد عليها هو بسرعة دون أن يرتجف صوته ولو قليلا:

- هذا لأني حافظت على عذريتي من أجلك.

ولم تصدق ما قاله بأي حال من الأحوال، مع أنه يبدو فعلا واقعا، لأن رسائله في الحب مصوغة من جمل ليس الأهم فيها معناها ومكنونها، وإنما قدرتها على الإبهار وإثارة الدهشة، ولكنها على كل، أعجبت بجسارته، أما فلورنتينو أريثا، فمن ناحيته سرعان ما سأل نفسه ما لم يجرؤ أن يفكر فيه من قبل: أي نوع من الحياة السرية كانت تعيشها هي على هامش حياتها الزوجية، ولم يكن سيندهش لو أن فعلا لها حياتها السرية، فإنه يعلم أن النساء كالرجال لهن أيضا نفس مغامراتهم: نفس الخدع والمكائد، نفس الأفكار الطارئة المفاجئة، ونفس أساليب الخيانة، وكذلك بلا لوم أو تأنيب للضمير، ولكنه حسنا فعل، حين لم يسألها، فالجدير بالذكر أن فيرمينا في فترة من الفترات كانت علاقتها بالكنيسة في حالة يرثى لها، فذات مرة إذا بالقسيس المتلقي للاعترافات يسألها دون انتباه، إذا كانت خانت زوجها قبلا، حينها وبدون كلام أو حتى مجرد كلمة سلام، قامت من مقعدها، ولم تعد تلقي باعتراف توبتها لا لهذا القسيس ولا لأي قسيس آخر أيا كان، ولهذا فعندما وجدت فلورنتينو حريصا هكذا في كلامه معها، كافأته بأن مدت يدها في الظلام، وراحت تتحسس بطنه وخاصرته، والشعر المحيط بعضوه الذكري. قالت: «لديك جلد مثل جلد الأطفال تماما»، ثم إذا بها تخطو الخطوة الحاسمة:

راحت تبحث عن هذا الحيوان الرابض دون أن تجده، وأعادت الكرة مرة أخرى إلى أن وجدته ساكنا في مكانه لا يتحرك.

قال لها:

- هو ميت.

كثيرا ما يخطر على بالها، لدرجة أنها بدأت تتعلم كيف تتعايش مع هذا الشبح، أنها كل مرة تحس بأنها لا بد أن تتعلم من جديد، كأنها أول مرة تدرك ذلك. أمسك بيدها ووضعها على صدره، فأحست بقلبه العجوز، الذي لا يكل أبدا يدق دقات عنيفة، غير منتظمة، كأنه لا يزال في طور المراهقة، ثم قال لها: «حب أكثر من اللازم مضر جدا لهذا القلب تماما مثل حب أقل من اللازم»، ولكن، والحق يقال، لم يكن مقتنعا بما قاله: الحقيقة هو يشعر بالخجل والغضب على نفسه، هو بالأحرى يبحث عن سبب منها يعلق عليه فشله، وهى كانت تعلم، لذا راحت تستثير الجسد الساكن وتدغدغه كيفما شاءت، كأنها بالضبط قطة حنونة تتلذذ بالقسوة، إلى أن أحس هو بعدم احتماله لهذا العذاب، وانصرف إلى غرفته. وقتها، جعلت تفكر فيه إلى أن طلع الصباح، تفكر فيه وهى مقتنعة أخيرا بحبه، وكلما أخذت تلك النشوة، التي تركتها خمر الينسون تنقشع أحست بدفقات بطيئة من الوخز والألم، شعرت بأنه تضايق، ومن الممكن ألا يرجع لها أبدا.

ولكنه عاد في نفس اليوم في وقت غريب للغاية. جاءها في الساعة الحادية عشرة صباحا، استعاد عافيته، ويفور من النشاط والحماس، وتعرّى أمامها في شيء من التباهي والفخر. وهى سعدت كثيرا حين رأته في عز النور، ووجدته مثلما تخيلته في الظلام: رجل، بالأحرى ليس له سن معينة، جلده غامق لامع وعميق كأنه شمسية مفتوحة، ولا شعر عنده إلا القليل الموجود عند إبطه وعضوه الذكري. وقتها، لم يحجب سلاحه بيديه، وهى أحست بأنه لم يكشف عنه هكذا من فراغ، إنما هو يعرضه أمامها كأنه تذكار نصر يفخر به،

ثم انقض عليها دون حتى أن ينتظر لتخلع قميص نومها، الذي وضعته عليها حين أحست بنسيم الصباح، تهوره معها كأنه أول مرة يمارس الجنس أشعرها بالشفقة، ولكنها لم تنزعج أبدا ، ففي مثل هذه الحالات ليس سهلا التمييز بين الشفقة والحب، ومع ذلك ففي نهاية المطاف أحست بفراغ غريب.

أول مرة تمارس الحب منذ عشرين عاما، وضاجعته، وهى متشوقة أن تعرف ماذا ستفعل، وهى في مثل هذا العمر بعد توقف دام طويلا، ولكنه أصلا لم يعطها أي فرصة لتعرف إذا كان جسدها انسجم مع جسده أم لا. هو مارس حبه معها في سرعة وحزن، حتى أنها فكرت قائلة لنفسها: «الآن فقط، أتلفنا كل شيء»، ولكنها مخطئة، فرغم شعورهما بعدم الارتياح، ورغم شعوره بالذنب لتهوره وشعورها أيضا بتأنيب الضمير لما أصابها من جنون الخمر، إلا أنهما لم ينفصلا عن بعضهما لحظة في الأيام التالية. بالكاد يخرجان من الغرفة لتناول الطعام، وأما القبطان ساماريتانو، الذي يكتشف بالغريزة أي سر مما قد يخفي في الباخرة، كان يرسل لهما وردة بيضاء كل صباح، وأحيانا يعزف لهما مقطوعات موسيقية رومانسية من تلك المنتشرة في ذلك الوقت، بل إنه كان يعد لهما أكلات شهية للغاية، وهما لم يعودا لممارسة الحب، إلا بعد وقت طويل، فكأن إلهاما نزل عليهما واكتفيا بسعادتهما كون كل منهما إلى جانب الآخر.

ولم يكن في نيتهما الخروج أبدا من الغرفة لولا أن القبطان أعلمهما بعد الغداء بأن الباخرة سوف تصل إلى بلدة «الذهب»، الميناء الأخير للباخرة، بعد أحد عشر يوما من السفر، ومن الغرفة رأى كلاهما أسطح البيوت، وانعكست عليها أشعة الشمس الشاحبة، وفهما أخيرا لماذا سميت هذه البلدة بهذا الاسم، ولكن ذهب انبهارهما بالمدينة حين ازداد الحر بشكل لا يمكن تصوره، فكأنهما داخل غلاية تفور بالبخار، حتى لتحس أن الأسفلت في شوارع البلدة يكاد يغلي من شدة الحر، ومع ذلك أيضا، لم ترسُ الباخرة

هناك، وإنما رست عند الضفة الأخرى، حيث المحطة النهائية والأخيرة لسكة حديد سانتا في.

وسرعان ما تركا غرفتهما بمجرد أن نزل الركاب جميعا من الباخرة، وتنفست فيرمينا داثا ملء رئتيها من الهواء النقي، الذي شمل الباخرة بعدما فرغت من ركابها، وجعلا ينظران إلى الحشود المختلطة، وهى تبحث عن متاعها في عربات القطار الذي بدا وقتها شبيها بالقطار اللعبة، الذي يلهو به الأطفال، ومنظر الناس يوحي لمن يراهم بأنهم من أوروبا، خاصة النساء، بمعاطفهن أوروبية الشكل، وقبعاتهن الخاصة بالقرن الماضي بدا شكلها مناقضا تماما لهذا الحر الأغبر، وبعضهن زين شعورهن بزهور البطاطا، حلوة المنظر، ولكن الحر يكاد يقتلها قتلا، وجميع هؤلاء الناس إنما جاءوا للتو من السهول الموجودة عند جبال الأنديز، بعد رحلة طويلة على متن القطار بين المراعي الخضراء، خلابة المنظر، ولم يكن لديهم الوقت كي يغيروا ملابسهم بملابس تلائم جو الكاريبي.

وفي وسط تلك الجلبة العارمة الخاصة بسوق البلدة، إذا برجل عجوز للغاية شديد الوهن يخرج من جيب معطفه البالي كتاكيت صغيرة للغاية، ظهر فجأة بين جموع الناس، وأخذ يشق طريقه بينهم بمعطفه المليء بالخروق، يبدو أصلا أنه كان ملكا لشخص أكثر ضخامة وطولا عنه، ثم خلع العجوز قبعته ووضعها على الأرض كي يلقي فيها الناس النقود، ثم جعل يخرج من جيبه حفنات من الكتاكيت الصغيرة اللينة، عديمة اللون، يحسبها كل من يراها كأنها تولد وتتكاثر بين يديه، وفي لحظة امتلأ الرصيف عن آخره بالكتاكيت الفزعة تصيح هنا وهناك، وحولها المسافرون يهرولون في عجلة واضطراب ويدهسونها دون أن يدروا، وفي خضم انبهارها بهذا المشهد المعجز، الذي أمامها كأنما أقيم من أجلها هي ، فهى وحدها من كانت تنظر إليه، لم تكن تعرف متى سيركب المسافرون الباخرة في طريق العودة، وانتهت

الحفلة بالنسبة لها، فبين من وصلوا وجدت منهم وجوها كثيرة مألوفة لديها ، منهم حتى أصدقاء زاروها في عزاء زوجها، حينها أسرعت إلى غرفتها تحتمي بها من عيون الناس، ووجدها فلورنتينو في حالة ذهول، فهي تفضل الموت على أن يراها هؤلاء تقوم برحلة استجمام، بينما لم يمر وقت طويل على وفاة زوجها، وتأثر لها فلورنتينو كثيرا ولشعورها بالإحباط، حتى أنه وعدها بالبحث عن حل ما لحمايتها بعيدا عن حبس نفسها في غرفتها.

خطرت على باله الفكرة فجأة حين كانوا يأكلون عشاءهم في غرفة الطعام الخاصة، والقبطان وقتها في حالة من الاضطراب والقلق حيال مشكلة كثيرا ما أراد مناقشتها مع فلورنتينو، ومنذ مدة طويلة، ولكنه يجده دائما يتملص بعبارته المعتادة: «تلك الأمور ناقشها مع ليونا كاسياني، فهى أفضل مني»، ومع ذلك، ففي هذه المرة أنصت إليه، والحاصل أن البواخر، وهى في رحلة ذهابها تحمل الكثير من البضائع، ثم في إيابها تعود خاوية من البضائع حاملة المسافرين، الذين يستنزفون الطعام والمؤن. قال له: «الأفضل لنا أن نشحن البضائع فقط، فحتى تعريفة البضائع أكثر ربحا بكثير من تعريفة الركاب، وكذلك فإن هذه البضائع لا تأكل، ولا تستهلك شيئا»، وكل ذلك وفيرمينا تأكل عشاءها بشهية مسدودة بسبب مللها الشديد من نقاشهما الموتّر عن سعر التعريفة المناسب لكل من المسافر والبضاعة، وما لبث أن انتهى نقاشهما، وحينها طرح فلورنتينو على القبطان سؤالا بدا أن في جوابه إنقاذا للموقف، قال:

– حسنا، لنفترض مثلا: هل من الممكن القيام برحلة مباشرة على متن الباخرة بدون بضائع أو مسافرين، وبدون التوقف عند أي ميناء، بل بدون التوقف مطلقا؟

فأجابه القبطان أن هذا فقط في حالة واحدة لو افترضنا، فشركة الكاريبي للملاحة النهرية لها التزامات يعرفها فلورنتينو أكثر من أي أحد، ولديها أيضا

عقود بحمل البضائع والمسافرين ورسائل البريد، وأكثر من هذا وذاك، فكلها التزامات لا يمكن تجاهلها أو الهروب منها. الحالة الوحيدة، التي يمكن أن تغنيهما عن كل ذلك هي وباء الكوليرا. أن تعلن الباخرة عن فرض حجر صحي عليها، ويُرفع العلم الأصفر، ويتم الإبحار بها في عجلة، والقبطان اضطر إلى اللجوء لهذا الأسلوب أكثر من مرة بسبب حالات الكوليرا، مع أن السلطات الصحية وقتها كانت تجبر الأطباء على إصدار شهادات تفيد بوجود إصابة عامة بالتهاب في الأمعاء الغليظة، وأيضا، مرات كثيرة كانت البواخر ترفع العلم الأصفر الخاص بالوباء كي تجنب نفسها الضرائب، وحمل مسافرين غير مرغوب فيهم، وربما أيضا لتتملص من عمليات التفتيش غير المناسبة، حينها أمسك فلورنتينو بيد فيرمينا أسفل المنضدة وقال:

- حسنا، لنقم بهذا.

فاستغرب القبطان، ولكنه سرعان ما استشف الأمر بمكره، وفهم كل شيء، وقال له:

- أنا أتحكم في هذه الباخرة، ولكن حضرتك أصلا من تديرنا جميعا، فلو كنت تتكلم جديا، فأعطني من فضلك أمرا مكتوبا، وسنقلع بالباخرة حالا.

وكان فلورنتينو جادا في كلامه بالطبع، وأعطى فعلا القبطان أمرا مكتوبا وموقّعا باسمه، وفي الأول أو الآخر، الكل يعلم بأن زمن الكوليرا أساسا لم ينته بعد، رغم الإحصاءات المبشرة، التي تعلنها السلطات الصحية، ولذلك لا يوجد أية مشكلة في مثل هذه الحالة، فنقل ما كان موجودا من بضائع قليلة إلى مكان آخر، وقيل للمسافرين أنه ثمة عطل في ماكينات الباخرة، ورحلوهم فجرا على متن باخرة أخرى لشركة أخرى، ولو كان أصلا مثل هذه الأمور تحصل أحيانا لأسباب غير أخلاقية بالمرة، وربما أيضا مشينة ومعيبة، ففلورنتينو أريثا لا يرى ما يشين إذا كان ذلك من أجل الحب، والحاجة الوحيدة، التي ترجاها منه القبطان أن يرسو بالباخرة في ميناء ناريه كي يأخذ

شخصا رابعا يصحبهم في رحلتهم، باختصار القبطان أيضا له قلبه الخفي.

وأقلعت الباخرة في صباح اليوم التالي، لا فيها بضائع أو مسافرون، وعلق على أعلى صارية في السفينة علم الكوليرا، أصفر اللون، من يراه يحسبه يرفرف من السعادة، وعند مغيب الشمس أخذوا من ميناء ناريه سيدة أكثر طولا وقوة من القبطان، جميلة جمال غير عادي، وينقصها فقط لو يكتمل نضجها لتعمل في السيرك. اسمها ثينايدا نيبيس، ولكن القبطان يطلق عليها «عشيقتي»: هي صديقة قديمة له، عادة ما كان يأخذها من ميناء ليتركها في ميناء آخر، وفي كل مرة تصعد إليه كأنها تحمل معها سعادة الدنيا كلها، وفي نفس ذلك المكان الحزين، حيث تذكر فلورنتينو بحنين روسالبا حين رأى قطار بلدة إنبيجادو، وهو يصعد في صعوبة بالغة في الطريق القديمة المخصصة للبغال، إذا بأمطار أمازونية تهطل بغزارة شديدة امتدت طوال رحلة العودة، اللهم إلا بعض الفترات القصيرة لتستأنف غزارتها من جديد، ولكن على كل حال لم ينشغل أحد بأمر المطر، فالباخرة لها سقف خاص يقيها المطر، وفي تلك الليلة، شاركت فيرمينا الآخرين مرحهم، وهبطت إلى مطبخ الباخرة، وبين تهليل الملاحين طبخت للجميع طعاما من اختراعها، حتى أن فلورنتينو سماه: باذنجان الحب.

وظلوا طوال اليوم يلعبون بالورق، ويأكلون حتى الثمالة، ثم ينامون بعدها القيلولة، ليستيقظوا في حالة شديدة من الإرهاق، وبمجرد أن هبط الليل انطلقت الفرقة الموسيقية في العزف، وجعلوا هم يشربون خمر الينسون مع السلمون، حتى أتخمت بطونهم، ومرت ساعات الرحلة سريعا، الباخرة خفيفة نشيطة، ومياه النهر صافية رائقة ميزها اندفاعها في تيارات قوية من المنبع، وكل ذلك والأمطار ظلت تهطل بغزارة في هذا الأسبوع على مدى الرحلة كلها، وأثناء الرحلة كانت بعض القرى تطلق القذائف في الهواء اعتقادا بأنهم بذلك يروعون الكوليرا ويبعدون شرها عنهم، وترد الباخرة بصفير حزين

ممطوط، وأي باخرة تمر عليهم تطلق نحوهم صفيرا كأنها تعزيهم، ثم حينما مروا على بلدة ماجانجيه توقفوا لشحن حطب يكفي لبقية الرحلة.

أحست فيرمينا بالهلع، حين شعرت بهذا الصفير الخاص بالباخرة يطن طنينا في أذنها الأخرى السليمة، ولكن ما إن أتى اليوم التالي، إذا بها تجد نفسها تسمع جيدا بأذنيها الاثنتين. شعرت حينها بأن الورود صار عطرها أجمل كثيرا عن ذي قبل، بل أحست بأنها تسمع تغريد الطيور الشجي بجمال لم تحسه من قبل. وفجأة، كأن الله اختصها بوضع خروف نهر عند شاطئ تالامانكيه كي تستيقظ هي خصيصا، وسمع القبطان صوت الخروف، فحاد بالباخرة، وأخيرا رأوا تلك الأم الضخمة، وهى ترضع ابنها الرضيع بين يديها.

الجميل أنه لا فلورنتينو ولا فيرمينا شعرا بكم التوافق الذي بينهما، فهى كانت تساعده في وضع الحقن الشرجية، وتستيقظ قبله كي تنظف له طقم أسنانه بالفرشاة، الذي يتركه في كوب من الماء قبل نومه، وتحل معه مشكلة النظارة، التي تضيع في كل مرة، فهو يحتاج إليها للقراءة ولرتق ملابسه، وذات صباح استيقظت هي ووجدته وسط العتمة يخيط زر قميصه، فإذا بها تسرع نحوه، وتستأنف ما يقوم بها قبل أن يقول هو تلك الجملة المعتادة باحتياجه لزوجتين. على العكس، كل ما كانت تحتاجه منه هو أن يضع لها دواء موضعيا على ظهرها لتخفيف الألم.

وفلورنتينو من ناحيته بدأ من جديد العزف بحنان على الكمان الخاص بالفرقة، وفي خلال نصف يوم استطاع أن يعزف مجددا فالس «الإلهة المتوجة»، وظل يعزف لساعات حتى أرغموه على التوقف، وذات ليلة، ولأول مرة، تستيقظ فيرمينا باكية شفقة على هذين العجوزين، الذين ماتا على متن الزورق بعدما انهال عليهما المراكبي بمجدافه، والغريب أن الهطول المستمر للمطر لم يهز مشاعرها البتة، بل فكرت في أن باريس ربما ليست جنائزية، كما شعرت، بل إن بلدة سانتافي ربما ليست مليئة بالمدافن والقبور

كما تخيلت، خواطر جاءتها، ولكن بعد فوات الأوان. بدأت تتبين في الأفق معالم رحلاتها القادمة مع فلورنيتنو أريثا: رحلات مجنونة، لا يوجد فيها الكثير من المتاع والصناديق، وبلا أية التزامات أو فروض اجتماعية: رحلات للحب فقط.

ليلة وصولهم أقاموا حفلة كبيرة علقوا فيها المصابيح الملونة ووضع كل منهم طوقا من الورد الورقي على رأسه، ويومها توقف المطر أخيرا عند مغيب الشمس، وبدأ الرقص القبطان وعشيقته ثينايدا، رقصوا رقصات البوليرو الإسبانية، التي كانت منتشرة انتشارا في ذلك الوقت، أما فلورنتينو فجرؤ على أن يطلب من فيرمينا أن يرقصا على إيقاع الفالس، ولكنها رفضت. ومع ذلك، فطول الليل تهتز رأسها وقدميها على إيقاع الموسيقى، لدرجة أنها جاءت عليها لحظة رقصت دون أن تدري، وهى جالسة، بينما القبطان مندمج اندماجا مع حبيبته المهووسة به في رقص البوليرو. في تلك الليلة تجرعت كمية كبيرة من خمر الينسون، حتى أنهم اضطروا أن يساعدوها لصعود السلالم، بل إنها استرسلت في ضحك عنيف أفاق الجميع على صوته، ومع ذلك، فعندما استطاعت أخيرا أن تسيطر على ضحكها، وهى في غرفتها المشبعة بدخان السجائر، مارسا مع بعضهما الحب بهدوء واستمتاع، حب عجوزين طاعنين في السن، حب سيبقى الذكرى الأجمل في هذه الرحلة القمرية، والحقيقة أنهما لم يحسا بأنفسهما كأنهما عروسان التقيا مؤخرا، على عكس ما توقع لهما القبطان وعشيقته ثينادا، بل إن شعورهما أقل قليلا من شعور عاشقين قديمين، فكأنهما اقتلعا من الحياة الزوجية عذابها وعناءها، ليكملا حياتهما ولا هدف لهما إلا الحب. هما يقضيان الأيام معا في هدوء جميل كأنهما زوجان قديمان عركتهما الحياة، بعيدان تماما عما تخبئه العاطفة من فخاخ ومصائب، هما بالأحرى بعيدان تماما عن المزاح السمج، الذي يولده الخيال وسراب الخداع، هما باختصار يعيشان أقصى حالات الحب. عاشا كثيرا

بما فيه الكفاية ليدركا أن الحب هو الحب في أي وقت وفي أي مكان، ولكنه يكون عميقا جدا حين يقترب شبح الموت.

استيقظا في الساعة السادسة. هي تحس بصداع في رأسها بسبب الخمر، وتحس بوخز في قلبها لإحساسها بأن الدكتور خوبينال أوربينو عاد مجددا، أكثر شبابا وامتلاء عما كان عليه حين وقع من على الشجرة، جالس على الكرسي الهزاز، ينتظرها عند باب البيت، ومع ذلك، فكانت على درجة جيدة جدا من الوعي لتدرك بأن هذا ليس من أثر الخمر، وإنما سببه قرب رجوعها لبيتها. قالت:

- وكأن الموت في انتظارنا.

وتعجب فلورنتينو كونها استطاعت تخمين أفكاره بهذه الطريقة، فمنذ أن بدأوا رحلة العودة، وتلك الأفكار لا تبرح عقله مطلقا، فلا هو ولا هي بقادرين على أن يتخيلا مأوى لهما غير غرفة الباخرة، أنهما سوف يأكلان طعامهما في مكان غير الباخرة، وأنهما سوف يتركانها ليدخلا حياة أخرى ليست على هواهما. هما فعلا، كأنهما يسيران نحو الموت، وقتها، لم يستطع فلورنتينو مواصلة النوم، ومكث ممددا على ظهره شابكا يديه أسفل عنقه، وفي لحظة ما إذا به يذكر أمريكا بيكونيا، ويشعر بقلبه يكاد يتمزق من الألم عليها، هو لم يعد يطيق الحقيقة. أغلق على نفسه باب الحمام، وشرع في بكاء مرير بطيء إلى أن ذرف آخر دمعة لديه، حينها فقط، جرؤ على أن يعترف لنفسه كم كان يحبها.

حين استيقظا، وكل منهما ارتدي ملابسه استعدادا للنزول من الباخرة، بعدما خلفت وراءها مدخل الخليج والمستنقعات الخاصة بالممر المائي الإسباني القديم، وراحت تسبح في مياه الخليج الآسنة بين أنقاض السفن القديمة، وأشرقت شمس يوم الخميس ناشرة أشعتها الذهبية على أسطح المدينة، التي كانت يوما ما معقلا للملوك، ولكن فيرمينا أحست وقتها بأنها

لم تعد تطيق تلك المدينة، رغم ما لها من المجد، لم تعد تطيق تلك الغطرسة، التي تراها على حصونها المليئة بالسحالي، هي لم تعد تطيق مواجهة الحياة الواقعية. هما بلا كلام بينهما يشعران بأنهما لا يمكنهما الاستسلام.

وجدا القبطان في غرفة الطعام، في حالة فوضى شديدة لا تتفق أبدا مع طباعه، وجداه غير حليق الذقن، عيناه منتفختان من أثر الأرق، ملابسه عليها عرق الليلة الفائتة، وحديثه كله يقطعه صوت التجشؤ من خمر الينسون، وأما عشيقته ثينايدا فما زالت نائمة، وراح كلاهما يأكلان طعامهما في هدوء، وإذا بزورق بمحرك ديزل تابع للإدارة الصحية للميناء يقف في طريق الباخرة.

القبطان من مكانه في غرفة القيادة راح يجيب بصوت عالٍ على أسئلتهم. كانوا يريدون معرفة أي نوع من الوباء تحمله الباخرة على متنها، وكم عدد المسافرين، الذين أتوا، وكم عدد المرضى، وما احتمالية أن يتعرض آخرون للعدوى، وأجاب القبطان أنهم يحملون فقط ثلاثة مسافرين كلهم مصابون بالكوليرا ومعزولين تماما عن البقية، ولا أحد ممن هبطوا من الباخرة في مدينة الذهب، ولا أحد من الستة والعشرين بحارا كانوا على اتصال بهؤلاء الثلاثة، رغم ذلك، لم يقتنع قائد الزورق، وأمرهم بالخروج من الخليج والانتظار عند بحيرة مرسيدس، حتى الساعة الثانية بعد الظهر، بينما يستعدون هم لفرض حجر صحي على الباخرة، فأذعن له القبطان، وهو يسب ويشتم، وبحركة من يده أمر الملاحين بالدوران بالباخرة والعودة إلى منطقة المستنقعات.

من مكانهما أمام مائدة الطعام سمع فيرمينا وفلورنتينو كل ما حدث، ولكنهما رأيا القبطان في حالة لا مبالاة، وواصل أكل طعامه في هدوء، ومزاجه السيئ واضح تماما لدرجة خرقت كل ما هو مألوف عن تلك السمعة الأسطورية، التي يتميز بها قباطنة السفن، وعلى المائدة أمامه موز أخضر مقطع لشرائح وأربع بيضات مسلوقة جعل يثقبها بحرف السكين، ويضعها في فمه كاملة حتى أبادها عن بكرة أبيها، ولم يخلف شيئا في الطبق، بينما

فلورنتينو وفيرمينا ينظران إليه كأنهما تلميذان في المدرسة ينتظران إعلان النتيجة، لم يتبادلا كلمة واحدة خلال حديث القبطان مع مسئولي الصحة، ولا كان عندهما أي فكرة عما ستكون حياتهما، ولكنهما يعلمان جيدا بأن القبطان إنما يفكر فيهما فقط، وذلك واضح من تلك الخلجات النابضة عند صدغيه.

وبينما هو منكب على البيض والموز وجرة القهوة باللبن، خرجت الباخرة من الخليج في هدوء، تشق طريقها في المياه وغطتها طبقات من أزهار اللوتس البنفسجية ذات الأوراق الكبيرة، التي على شكل قلوب، إلى أن عادت لمنطقة المستنقعات، والمياه وقتها كانت تتلألأ، وطفت على سطحها كميات كبيرة من السمك الميت، الذي قتله الصيادون بالديناميت، وازدحمت عليه أفواج الطيور البرية والمائية، وهى تصيح وتتعارك، حتى أنها من عنفها وصخبها أثارت دوامات من الهواء هبت عليهم جميعا. حينها فقط أحست فيرمينا بنفسها كأنها تستنشق هواء الحرية، وعلى اليمين يقع مصب نهر ماجدالينا العظيم بمياهه العكرة الراكدة، ويمتد أمام ناظريهم عالم آخر لا تحده حدود.

حينما لم يبق شيء في الطبق لأكله، جفف القبطان فمه بطرف المنشفة، وجعل يكلم نفسه بلغة عامية وقحة قضت مرة واحدة على سمعة قباطنة النهر، فهو لم يكن يتكلم عنهما ولا عن أي أحد، وإنما كأنه يحاول التصالح مع حالة الغضب، التي اعترته، وانتهى حكمه، بعد سيل من السباب الوقح، أنه لم يعد يعرف كيف يكون الهرب من هذا المأزق بسبب علم الكوليرا الأصفر.

وفلورنتينو أريثا أنصت إليه دون أي تأثر، ثم بعد ذلك جعل يجول بعينيه فيما حول الباخرة من تلك الأزهار النهرية، والأفق الصافي الممتد أمامه، وسماء ديسمبر، التي ليس فيها سحابة واحدة، وتيارات الماء المتدفقة من تحته إلى الأبد، ثم قال:

- لنظل نسبح، يمينا، يمينا، يمينا، مرة أخرى إلى مدينة الذهب.

سمعته فيرمينا، وهزها كلامه، فها هي مجددا تسمع ذلك الصوت القديم، الذي فيه من روح القدس، ثم نظرت إلى القبطان: أملها الوحيد، ولكنه لم يرها وقتها، فأدهشه كثيرا كلام فلورنتينو الساحر، وسأله:

- أجاد فيما تقول؟

فأجابه فلورنتينو قائلا:

- أنا منذ ولدت لم أقل كلمة واحدة غير جادة.

فنظر القبطان إلى فيرمينا داثا، ورأى دموع الفرح تتلألأ في عينيها، ثم نظر إلى فلورنتينو أريثا، وإلى شخصيته القوية، إلى حبه النابض، وأحس حينها بالخوف كون الحياة ليس لها حدود أكثر من الموت نفسه، وسأله:

- وإلى متى سنظل هكذا نذهب ونعود؟

وكانت الإجابة، التي استعد لها فلورنتينو منذ ثلاثة وخمسين عاما وستة أشهر، وأحد عشر يوما بلياليهم، قال:

- لمدى الحياة.